مجمع القرآن الكريم بالشارقة

# مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ السَّابِعُ والسِّتّون

سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

# مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

## المُجَلَّدُ السَّابِعُ والسِّتّون

سورة الأَعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---------------------------------------------------------------------------
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 3-69-646-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---------------------------------------------------------------------------
الترقيم الدولي : 3-69-646-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ

# سُورَةُ الأَعْلَى

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾ [الأعلى: 6 - 7]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الله تعالى يُحيي ميِّتَ الأرواحِ بالعِلْم، كما يُحيي ميِّتَ الأشباحِ بالأرواحِ

لمّا استوفى البيان الإلهي وصفَ مَنْ أمَرَه ﷺ بتسبيحه، بما دلَّ على أوصافِ جَماله ونعوتِ كِبْريائِه وجَلاله، وشرح ما له سُبحانه مِن القُدرة التّامَّة على الإبداع والهداية والتَّصرُّف في الأرواح الحسّيَّة والمعنويَّة بالنَّشر والطيِّ والقَبْضِ والبَسْطِ؛ أتبعه ما للخلائق، وبدأ بما لأشرف خَلْقِهِ المُنْزَلِ عليه هذا الذِّكْرَ؛ تقديرًا للنُّبوَّة، التي بها تتمُّ السَّعادة بالحقائقِ الواصلة من الحَقِّ إلى عَبْدِه، التي بها يتمُّ أمرُه من القوَّتين: العِلْميَّة ثُمَّ العَمَليَّة بقبول الرِّسالة بَعْدَ التَّوحيد؛ لأنَّ حياة الإنسان لا يتمُّ طيبها إلّا بمقتدٍ يُقتدى به في أقواله وأفعاله وسائر أحواله، ولا مُقتدى مثل المعصوم عن كُلِّ ميلٍ، الموجِب ذلك الحُبَّ مِن كلِّ ما يُعرَف حاله، والحبُّ في الله تَعالى أعظم دعائم الدِّين، فكان من المُناسب في هذه الآيات أن يُعلِّل الأمر بالتَّسبيح للموصوف بالجلال والجمال، بما يدلُّ على أنَّه يُحيي ميِّت الأرواح بالعِلْم، كما يحيي ميِّت الأشباح بالأرواح[1].

الأمرُ بالتَّسبيح مُؤذنٌ بالبِشارة بالحفظ وعدَمِ النِّسيانِ

ومِن أوجُهِ المُناسبَةِ أيضًا: أنَّ السّورةَ افتُتِحَت بالأمْرِ بتسبيح الله تعالى، مع وصْفِه بعدَدٍ مِنَ الصِّفات التي توجِبُ تسبيحَهُ وتَمْجيدَه مؤذنٌ بأنَّ الله تعالى سيُلقي إلى النَّبيِّ ﷺ عقب الأمرِ بالتَّسبيح والتَّنزيه بشارةً وخيرًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[2].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 394، 395.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 272.

الوعدُ بحفظِ القرآنِ الكريم؛ ليكون عونًا للنَّبيِّ ﷺ على ذِكْرِ ربِّه والدَّعوة إليه

ومن أَوْجُهُ التَّناسُبِ كذلك: أنَّ الله تَعالى بعد أن أمَرَ نبيَّهُ ﷺ في أوَّلِ السّورة أن يُسَبّح باسْمِه، وأن يُذْكُرَه ويُمَجِّده، وذلك بتلاوة الآياتِ التي يتلقّاها وحيًا من ربِّه تَعالى، فإنَّ خيرَ ذِكْرٍ لله سُبحانَهُ هو تلاوةُ آياتِه ﷻ؛ ناسَب أن يَعِدَه في هذه الآيات بألّا ينسى شيئًا من القرآنِ النّازلِ عليه، حيثُ كان النَّبيُّ ﷺ يَخْشى ذلك، فيَجْتَهِد في حِفْظِ ما نَزَلَ عليه بتكراره وتَثْبيتِه[1].

## ❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾: القافُ والرّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى جُمَعٍ واجْتِماعٍ، وإذا هُمِزَ هَذا البابُ؛ كانَ هوَ والأوَّلُ سَواءً، ومِنْهُ: القُرْآنُ، سُمّيَ بذلِكَ لِجَمْعِهِ ما فيهِ مِنَ الأحْكامِ والقِصَصِ وغَيْرِ ذَلِكَ[2]، ومنه: القِراءَةُ، وتعني: ضَمَّ الحروف والكلماتِ بعضِها إلى بعضٍ في التَّرتيل، وأصلُها: حِفْظ المقروء أو استيعابُهُ في القَلْبِ، قال الله سُبحانه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، والمَعْنى: سَنُحفِّظُك، أو سَنَجْمَعُهُ في صَدْرِك[3].

2) ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾: (جهر) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إعْلانُ الشَّيْءِ وكَشْفُهُ وعُلُوُّهُ، يُقالُ: جَهَرْتُ بالكَلامِ؛ أي: أعْلَنْتُ بهِ، ورَجُلٌ جَهيرُ الصَّوْتِ؛ أيْ: عاليهِ[4]، والجهرُ يُقال لظُهور الشَّيء بإفراط حاسَّة البصَر أو حاسَّة السَّمع، أمّا البَصَرُ فنَحْوُ: رأيتُه جِهارًا، قال تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: 55]، وأمّا السَّمعُ؛ فمِنْهُ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: 10]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 457، والخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 16/ 1529، 1530.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قري).
(3) الرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (جهر).

## المَعنى الإجْماليُّ:

لن يَنْسى النَّبيُّ ﷺ شيئًا مِنَ الوَحْيِ النّازلِ إليه إلّا ما شاء اللّه تَعالى أن يَنْساهُ

في هاتين الآيتينِ يَعِدُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ مُخاطِبًا: سَنُقْرِئُك - أيُّها الرَّسول - القرآنَ على لسان أمين وحْينا جبريلَ عليه السلام، وسنجعَلُك حافِظًا واعيا لما سَيَقْرَؤُه عليك، بحيث لا تنساه في وقتٍ مِنَ الأوقات، أو في حالٍ من الأحوال، إلّا في الوقت أو في الحال الذي يشاء اللّه تعالى أن يُنْسيَك شيئًا مِن ذلك، فإنَّك ستنساه بأمره؛ لأنَّه وحده العليم بما كان ظاهِرًا مِنَ الأشياء، وبما كان خافيًا مِنْها[1].

## الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### سِرُّ فصل الآية عمّا قبلَها:

بيانُ سبَبِ الأمْرِ بتَسْبيحِ اللّه تَعالى وتَنْزيهِهِ

جاءت جُملةُ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لِشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجُملة الثّانية عن سؤال يتردَّد في النَّفس حول السَّبب في الأمر بتسبيحِ اللّه تَعالى الموصوف بالجلالِ والكمال[2]، ويجوزُ أن تكون كذلكَ؛ لأنَّ البشارة المفهومةَ من الأمر بالتَّسبيح تُنْشِئُ في نفس النَّبيِّ ﷺ ترقُّبا لوعْدٍ بخيْرٍ يأتيهِ، فبَشَّره اللّه تعالى بأنَّه سيزيده من الوحي، ووعده بأنَّه سيَعْصِمُه مِن نِسْيانِهِ؛ ليُبَلِّغه كما أُنْزِل عليه مِن غير زيادَةٍ ولا نُقْصانٍ[3].

### معنى السّين في ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾:

إقراءُ النَّبيِّ ﷺ القرآنَ كانَ كثيرًا مُتَكَرّرًا

السّين في قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ حرفُ اسْتِقْبالٍ يُفيدُ تأكيدَ حُصول الإقراء في المُسْتَقْبَل، بصورة كثيرةٍ ومتجدِّدة، لا تنقطعُ ولا تتوقَّف؛ ليكون زادًا للرَّسول ﷺ في مُهِمَّته التي كُلّف بها، وعونًا له في رِسالَتِه التي سَيَدْعو النّاس إليها.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 364.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.

### دلالة التَّعبير بفعل القراءةِ مادَّةً وصيغَةً:

عبَّر البيان الكريم عن الحِفْظِ والتَّثبيت بفِعْلِ الإقراء على سبيلِ المَجازِ المُرْسَل لعلاقة السَّببيَّة؛ ذلك أنَّ القراءةَ هي طريقُ الحِفْظِ، والسَّبب الرَّئيس فيه، وجيءَ به مُضارِعًا لِما يُفيدُهُ مِن تجدُّد حصول الإقراء واستمراره ما بَقيَ مِن عُمر النَّبيِّ ﷺ، وعدم انقطاع ذلك عنه في وقتٍ من الأوقات، وعُبِّر به مُتعدّيا بالهمزة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولأنَّ الإقراء سيَتِمُّ بوَساطَةِ أمينِ الوَحْيِ جبريلَ عليه السلام[1].

الــقــراءةُ هي طريق الحِفْظِ والسَّبَبُ الرَّئيس فيه

### نوعُ المجاز في إسنادِ فِعْلِ الإقراء إلى ضميرِ الله سُبحانه:

ضمير المُتكلِّم المُستتر في قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ يعود إلى اللّه ﷻ، وإسناد فعل الإقراء إليه بصيغةِ التَّكلُّم مجازٌ عقليٌّ علاقته السَّببيَّة، لأنَّ اللّه تعالى هو جاعل الكلام المقروء وهو الآمرُ بإقرائه[2]، ووجه إسناد الفعلِ إلى ضميرهِ ﷻ دون فاعلِه الحقيقيِّ وهو جبريلُ عليه السلام: شرحُ صَدْرِ النَّبيِّ ﷺ وزيادَة تطمينه إلى أنَّ الإقراء وما يتطلَّبه مِن حِفْظٍ وتثبيت كائن لا محالَة، وفيه إلماعٌ إلى أنَّ معونةَ اللّه تعالى ومُساندتَه ومُساعدَتَه لرَسولِه ﷺ أمورٌ مُصاحِبة لهذا الأمر، الذي ورَدَ الإخبار بثِقَلِ ما يترتَّب عليه في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل: 5].

معونةُ الله تعالى ومُساندتُه مصاحبةٌ للأمر بالإقراءِ

### بلاغَة الالتفاتِ في الجُملةِ:

كان مُقْتَضى الظّاهر أن يُقال: (سيقرئك فلا تنسى) جريًا على ما درجتْ عليه السّورة من التَّعبير بضمير الغَيْبَة فيما سبق من آياتها، لكنَّ النَّظم الكريمَ انتقل إلى التَّعبير بأسلوب التَّكلُّم، فقال: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ لقَصْدِ الإقبال على المُبَشَّر ﷺ، وإذهاب ما

التَّعبيرِ بأسلوبِ الخطابِ فيه إقبالٌ على المُكلَّف وتطمينٌ له

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرَّسول وتوقيره: 64.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 280.

قد يصعُبُ عليه، نتيجةَ إعلامهِ بتجدُّد الوحي واستمراره؛ إذْ مِن البدَهيِّ أنَّ ذلك سيترتَّب عليه كثيرٌ مِن المَصاعِب والمَتاعِب، فأقبل اللّه تعالى على نبيِّه ﷺ يُخبِرُه بأنَّه اصطفاه للرِّسالة، وسَيَهْديه ويمنُّ عليه بما يكون عونًا له على القيام بها، فيحصل له مزيدٌ مِن الاطمئنانِ إلى ذلك؛ لأنَّه أُخْبِر به مرَّتين، **الأولى:** عن طريق التَّعميم؛ لكونه داخلا في عموم الخَلْقِ، **والأخرى:** عَن طريق التَّخصيص، ولا يخفى ما في ذلك من زيادةِ التَّشريف والتَّطمين[1].

### لطيفةُ التَّعبير بضميرِ الخِطابِ:

في التَّعبيرِ بأسلوبِ الخطابِ مؤانسةٌ للمُخاطَبِ وإشعارٌ له بالاخْتِصاص

كاف الخطاب في ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ يعود إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو في محلِّ نصبِ مفعولٌ لفِعْلِ الإقراء، وقد أوثِرَ التَّعبير به زيادةً لمُؤانسة النَّبيِّ ﷺ وزيادةً في تَطْمينه؛ لِمَا يُشْعِر به مِن شدّة القُرْبِ واخْتِصاص النَّبيِّ ﷺ بالإقراءِ والتَّثبيت دون غيرِه ممَّن خُلق، نظرًا إلى ثِقَلِ الحَمْلِ الذي يحمله، وعِظَمِ الأمانة التي كُلِّف بها، والمعنى: نَجْعَلُك بعَظَمَتِنا بوعد لا خُلْفَ فيه، على سبيل التَّكرار بالتَّجديد والاستمرار قارئًا؛ أي: جامعًا لهذا الذِّكر الذي هو حياةُ الأرواح بمنزلَةِ حياة الأشباح، الذي تقدَّم في السّورة السّابقة أنَّه ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ [الطّارق: 13]، عالمًا به كُلَّ علم، ناشرًا له في كُلِّ حيٍّ، فارقًا به بَيْنَ كُلِّ مُلْتَبِسٍ، وإن كنتَ أمّيًا لا تُحسِن الكتابة ولا القراءة[2].

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾:

الحِفْظُ وعدمُ النِّسيانِ مُسبَّبٌ عن الإقراء ومُترتِّبٌ عليه

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ حرفُ عطفٍ يدلُّ على أنَّ الحِفْظَ وعَدَمَ النِّسيان مُسبَّبٌ عن الإقراء ومُترتِّب عليه، ما يعني أنَّ النَّبيَّ ﷺ لن ينسى شيئًا أُنْزِل عليه، وأقرأه إيّاهُ جبريلُ عليه السلام، مَهْما كان وقْتُه، ومهما كان حَجْمُه.

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرَّسول وتوقيره: 65.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 395.

### وجه النَّفي بـ (لا):

تَطمينُ النَّبيِّ ﷺ

أوثِر نفيُ النِّسيان بـ (لا)؛ لأنَّه يدلُّ بمعناهُ ومَبْناهُ - المُشْتَمِل على حرفِ المَدِّ في آخرِه - على نفي نسيانِ النَّبيِّ ﷺ أيَّ شيء أَوْحى اللّه تعالى به إليه فيما مَضى، ونفيِ نسيانِ أيِّ شيء يوحَى به إليه فيما هو آتٍ، نفيًا قاطِعًا، غير قابل للشَّكِّ أو الرَّيب؛ ليُطَمْئِنَ النَّبيَّ ﷺ إلى عدم النِّسيان، مهما كَثُرَ الإقراءُ وتتابَعَ.

### دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ النِّسيان مادَّةً وصيغَةً:

نسيانُ القرآنِ الكريم أو غيره منفيٌّ عن النَّبيِّ ﷺ نفيًا قاطعًا

أوثر تسليطُ النَّفي على فعل النِّسيان؛ ليَشْمَل جميع ألوانه وأشكاله؛ أيْ أنَّ النِّسيان الكُلِّيَّ غيرُ واردٍ، والنّسيان الجُزئيَّ منفيٌّ أيضًا، ولو قيل: (سنُقرئك فتحفظ)؛ لأفاد الحفظَ، لكنَّه لن يُفيدَ عدمَ نسيانِ شيءٍ مِن ذلك المحفوظ، وجيءَ بالفِعْلِ مُضارِعًا ليَشْمَلَ الماضيَ والمستقبلَ، وحُذِفَ مفعولُه للعلم به، وليعمَّ المعنى القرآنَ الكريم وغيرَه ممّا يوحَى به إليه، والمعنى: فلا تنسى شيئًا مِنَ الوحي ولا من غيره؛ ليكون في ذلك آيتانِ: كونك تقرأُ وأنت أمّيٌّ، وكونك تُخبِر عن المُستقبَل، فيكون كما قُلت[1].

### بلاغةُ الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾:

مِن تمام قُدرة اللّه تعالى وحكمَتِه في تدبير أمورِ خَلْقِه أن يُنسي نبيَّه ﷺ ما يشاء

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ حرف استثناءٍ يُفيدُ الإثارةَ والتَّشويق إلى ما يأتي بعدَهُ؛ لأنَّه غيرُ داخِلٍ في حُكْمِ النِّسيان المَنْفيِّ ومُستثنى منه، والتَّعبير به احتراسٌ دالٌّ على أنَّ مِن تمام قُدرة اللّه تعالى وحكمته البالغة في تدبير شُؤون خَلْقِهِ أن يُثبت ما يشاء، وأن يُنسيَ نبيَّه ﷺ ما يشاء، ففي الإثباتِ خيْرٌ عظيم، وفي المحو كذلك خيرٌ عظيم، لا يُمكن لأحَدٍ أن يُحيط به مَهْما اتَّسَعَ عِلْمُه، ومهما تَعَمَّقَ فهمُهُ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 395.

### وجهُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ الموصولةِ:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ اسمٌ موصول في مَحَلِّ نصْبٍ مفعولُ ﴿تَنسَىٰٓ﴾. وقد أوثِر التَّعبير به لما يُفيده من عموم المعنى وشُموله كُلَّ ما أراد اللّه تعالى أن يُنْسيَه نبيَّه ﷺ، فلا يثبتُ في ذاكرته، وليشمَل كذلك كُلَّ ما يُريد اللّه تعالى أن ينسخَ حُكْمَه مع بقاء لَفْظِه يُقرأ ويُتْلى، والمعنى: لا تَنْسى مِمّا تقرؤه شيئًا من الأشياء إلّا ما شاء اللّه تعالى أن تنساه أبدًا بأن نَنْسَخَ تلاوتَهُ(1).

### دلالةُ التَّعبير بِفِعْلِ المَشيئَةِ ماضيا:

الإنساءُ والمَحْوُ لا يكون خبْطَ عشواء، وإنَّما لمصلحة اقتضتْها حكمتُه تعالى

قولُه تعالى: ﴿شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ جُملَةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ صلَةُ الموصول، وقد عبَّرَ فيها النَّظمُ الكريمُ بفعل المشيئة؛ للدَّلالة على أنَّ الإنساء لا يكونُ خبْطَ عشواء، ولكنَّه خاضع لمشيئة اللّه تعالى وعلمه، ولِما فيه من مصلحةٍ اقْتَضَتْها حكمَتُه، وجيء بِه ماضيا للإشارة إلى أنَّ إنساءَ آيةٍ أو نسخَها من الأمور المُقَدَّرة في الأزل، والتي لا تخرج آثارُها وفوائدها عن عِلْمِ اللّه تَعالى وإحاطته بطبائع خلقِه وسِماتِهم وطاقاتِهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلك: 14].

### سِرُّ إظهارِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في موضع الإضمار:

التَّسليم المُطْلَق للمَلِكِ الأعلى تحقيقٌ للمصلحة العُظمى

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (إلّا ما شئنا) جريًا على نسق التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، لكنَّ النَّظم الكريم عَدَلَ عن التَّعبير بضمير العظمة إلى إظهار الاسم الجليل، الذي يُستعمل في مواضع التَّأليه والتَّعظيم، فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تربيةً للمَهابة، وحثًّا على التَّسليم المُطْلَقِ للّه تَعالى ﴿ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ في كُلِّ ما يتعلّق بأمْرِ الوحي إثباتًا ومَحْوًا، لما في كلٍّ من مصلحةٍ لا يُحيط بها غيره، ولا يعلمها أحدٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 144.

سِواه، والمعنى: "إلّا ما شاء المَلِكُ الأعظم الذي له الأمر كلُّه أن تَنْساهُ؛ لأنَّه نسَخَه، أو لتَظْهَر عظمتُه في أنَّ أعظم الخَلْق يغلِبُه القرآن؛ لأنَّه صفةُ اللّه تَعالى، فتَنْسى الآيةَ أو الكلمة ثُمَّ تَذْكُرُها تارةً بتذكير أحَدٍ مِن آحاد أمَّتِك وتارة بغيرِ ذَلِكَ"(1).

ويجوز أن يُخرَّج قول اللّه تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ من باب الالتفاتِ من التَّكلُّم إلى الغَيْبَةِ؛ جنوحًا إلى ما تضمَّنَهُ الاسمُ الأحسَن ﴿ٱللَّهُۚ﴾ من معاني الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

**فائدةُ حذفِ مفعول المشيئة:**

لم يَذْكُر النَّظم الكريمُ مفعولَ فعل المشيئة؛ لكونِه معروفا من السّياق عليه، وجريًا على عادة البيان العربيِّ في حذفِه غالبًا، والمعنى: إلّا ما شاء اللّه تَعالى أن تنساهُ(2).

**علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾:**

جاءت جُملة: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لشِبْهِ كمال الاتِّصال، الذي تُنَزَّل فيه الجُملة المفصولةُ مِمّا قبلها منزلةَ الجوابِ مِن السُّؤال، أو السَّبب من المُسَبَّب، فتُفْصَلُ عنها كما يُفْصَل كُلٌّ منهُما عنِ الآخر.

**بلاغةُ التَّوكيد بـ: (إنَّ):**

تأكيدُ الخبَرِ لقاصِري النَّظر

جاءت الجُملة التَّعليليَّة: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ) في أوَّلها؛ لتأكيد عِلْم اللّه تعالى بالسِّرِّ والعلانية، المُسبَّب عنه إثباته ما يَشاءُ مِنَ الوحي، أو محوه من ذاكرةِ النَّبيِّ ﷺ والمُسْلِمين، أو نسخة بغيرِه مِنَ الآيات مع بَقاء لَفْظِه، فيرسخ لدى المُسلمين عبر العصورِ حكمةُ اللّه تَعالى وفضلهُ العميم مِن النَّسخ والإنساء؛ لأنَّه حاصلٌ عن عِلْمٍ وإحاطة، فالتَّعبير بـ (إنَّ) في أوَّل الجُملة التَّعليليَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 396.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 280، 1/ 321.

يجعل الجُملتين كأنَّهما أُفْرِغا إفراغا واحدًا، وكأنَّ أحدَهُما قد سُبك في الآخر[1]، كما أنَّه يَقْضي على ما يَعْتَمِل به صدر النَّبيِّ ﷺ وصُدور المُؤمنين؛ بسبب نسيان شيءٍ مِنَ الوحي الذي أنزله اللّه تَعالى إليهم؛ لِما يُفيده من تأكيدِ الخبَرِ لِقاصِري النَّظر.

**لطيفة التَّعبير عن الله تعالى بالضَّمير:**

اللهُ سُبْحانَهُ يَتعالى في العَظَمَةِ إلى حَيْثُ تَنْقَطِعُ أماني الخَلْقِ عَن إدْراكِه

لمّا كان القصدُ مِن هذه الجملة إعلامَ الخلقِ بأنَّ اللّه تعالى يُحيط علمًا بكلِّ شيءٍ، ولا يُحيط بعلمه شيء، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: 255]، فيتِمُّ التَّسليم بما أثبته وما أنساه؛ عبَّر عن ذاته بالضَّمير فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للإشارة إلى تعاليهِ في العظمَةِ إلى حيثُ تَنْقَطِع أماني الخلق عن إدراكهِ بما كثُرَ من أفعاله، وأنَّه مهما شاء كانَ، ولا رادَّ لمشيئته، ولا مانعَ لإرادته[2].

**سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ مادَّة وصيغَةً:**

علمهُ بأحوالِ خَلْقِه المُتَنَوِّعةِ بَيْنَ الجَهْرِ والإخفاءِ

قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ جملة في محلِّ رفْعِ خبَرٌ للحَرْفِ النّاسخ. وأوثِرَ التَّعبير فيها بفِعْلِ العلم دون فعل المعرفة؛ لِما يُفيده مِن العموم والشُّمول؛ إذِ المعرفة تعني العلمَ بعَيْنِ الشَّيء مُفَصَّلا عمّا سواه، في حين أنَّ العلم يكون مُجملًا ومُفصَّلًا، فضْلًا عن أنَّ المعرفة تقتضي سَبْقَ الجَهْلِ بالشَّيءِ وإنكاره ثُمَّ التَّعرُّف عليه[3]، والعلمُ ليس كذلك، وجيء به مُضارعًا لِما يُفيدُه مِن المُتابعَةِ والتَّجدّد، الذي يُناسِبُ أحوالَ الخَلْقِ المتجدِّدة والمتنوِّعة بين الجهرِ والإخفاءِ.

**دلالة تعريفِ ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ وصوغِه مصدرًا:**

الله تعالى يَعْلَمُ الجهر في القراءةِ وفي غيرها من سائِرِ الأحوال

قوله تعالى: ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ مفعولُ فِعْلِ العِلْمِ؛، عُبِّر عنه بالمصدر الصَّريح للدّلالة على شدَّة وُضوحه وظُهوره. وجيء به مُعَرّفا بـ (أل)

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 316.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 396.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة: 80.

التي للجِنْسِ، ليَشْمَلَ التَّعبير به كلَّ ما كان مِن قَبيل الجهر، سواءٌ أكان ذلك في الإقراء أم في غيره من سائر الأحوالِ.

### توجيهُ العطفِ بالواو:

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ لعَطْفِ ما بعدَها على ما قبلها، وقد أوثِرَ العَطْفُ بها لدلالَتِها على شمول عِلْمِ اللّه تعالى جنسَ الجَهْرِ وجنس ما كان خافيا، فاللّه سُبحانه لا يعزُب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

### سِرُّ التَّعبير بـ (ما):

(ما) في قوله: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصبٍ معطوفٌ على ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾. وأوثِر التَّعبير به لدلالته بمعناه ومبناه الذي ينتهي بحرفِ المدِّ على عموم عِلْمِ اللّه جَلَّ شأنُه كُلَّ خافية بسهولة ويُسْر، كما يعمُّ علمُه جنسَ الجَهْرِ بسُهولَةٍ ويُسْرٍ، ويَدْخُل في ذلك ما أنساه اللّه تعالى رسولَه ﷺ والمؤمنين من الوَحْي دخولًا أوَّليًّا.

اللّه تعالى يعمُّ علمُه كُلَّ خافيةٍ بسهولةٍ ويسرٍ كما يعمُّ علمُه جنسَ الجهرِ بسهولةٍ ويُسرٍ

### سِرُّ التَّعبير بالفعل: ﴿يَخۡفَىٰ﴾ مُضارِعًا مبنيًّا للمعلوم:

قولُه تعالى: ﴿يَخۡفَىٰ﴾ جُملة فعليَّة لا محلَّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، وأوثِر التَّعبير فيها بالفعل: ﴿يَخۡفَىٰ﴾ مُضارعًا لدلالته على التَّجدُّد، والمعنى: يعلم ما يتجدَّد خفاؤه من القراءة وغيرها على أيِّ حالٍ كان الإخفاء، فيدلُّ على عِلْمِه بِهِ إذا جُهِر به بطريقِ الأولى[1]، وجيء به مبنيًّا للمَعْلوم مع أنَّ مُقْتَضى الظّاهر أن يُبنى لما لم يُسَمَّ فاعله، فيُقال: (يُخْفَى)؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِلْمَ اللّه تعالى مُحيط بما يبالغ أصحابَه في إخفائه حتَّى كأنَّه من شِدَّة مُبالغَتِهم خافٍ في نفسِه، وأوثر التَّعبير بـ ﴿يَخۡفَىٰ﴾ دون غيره لدلالته بمَعْناهُ ومبناه الذي يَنْتَهي بحرفِ المدِّ على المُبالغةِ في السِّتر والإخفاء،

عِلْمُ اللّه تعالى مُحيطٌ بما يبالغ أصحابُه في إخفائه، حتَّى يصير كأنَّه خافٍ في نفسِه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 397.

يُزاد على ذلك ما تمتاز به الكلمة من رعاية للفاصلةٍ التي بُنيت عليها السّورةُ الكريمة.

### بلاغَةُ الطِّباق في الآيَةِ:

علمُ الله تَعالى مُحيطٌ بالمصالحِ والمَفاسدِ وما ظهَر مِن أحوالِ النّاس وما اسْتَتَر

في الآية طباقٌ بَيْنَ الجَهْرِ والإخفاء في قوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ وهو طباقٌ بين اسْم وفعل، جمَعَ بينَهُما النَّظم الكريم في معمولِ فعلِ العِلْم المُسْنَد إلى ضمير الحقّ جلَّ شأنه، ليدُلَّ على عموم علم اللّه - جاعلِ الإقراء والآمرِ به - ما يَجهر به النّاس وما يخفون من الوحي وغيره، وليُؤكِّد أنَّ إثباته شيئًا من الوحي أو مَحوَه شيئًا آخرَ لا يحصل خبطَ عشواء، ولكنَّه ناشئٌ عن علم مُحيطٍ بالمصالح والمفاسد، وبما يُظهر النّاس من الأحوال وما يُخفون، والمعنى: يعلم ما ظهَرَ وما بطَنَ من الأمور التي مِن جُمْلَتِها ما أوحيَ إليك، فيُنسي ما يشاء إنْساءَهُ، ويُبْقي محفوظًا ما يشاء إبْقاءَه؛ لِما نيط بكلٍّ مِنْهُما من مصالح دينكم[1]، أو: يعلم ما أسْرَرْتُم وما أعلنتم من أقوالِكُم وأفعالكم، وما ظهَر وما بطن مِن أحوالكم، وما هو مصلحَةٌ لكُم في دينِكُم ومفسدَةٌ فيه، فيُنسي من الوحي ما يشاء ويترك محفوظًا فيه ما يشاءُ[2].

### مُناسبَةُ التَّعبير بالجَهْرِ والإخفاء، ووجهُ تَرْتيبِهِما:

التَّعبير بالجَهْرِ يُناسِب الإقراء، والتَّعبير بالخفاء يُناسِب عدمَ النِّسيان

مُناسبَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ في هذا السّياق أنَّ ما يقرَؤُهُ النَّبيُّ ﷺ من القرآنِ الكريم هو مِن قبيل الجهر، فاللّه تَعالى يَعْلَمُه، وما ينساهُ فيسقطُه من القرآن هو من قبيلِ الخفيِّ، فيعلم اللّه تَعالى أنَّه اختفى في حافظته حين القراءة فلم يَبْرُز إلى النُّطق به[3]، ووجهُ تقديم ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ على (ما يَخْفَى) - فضلًا عن رعاية الفاصلة - هو مُناسبة تقديمه للوَعْدِ بالإقراء المُقَدَّم على الوَعْدِ بعدَمِ النِّسيان.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 145.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 439.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 281.

## ❁ الفُروقُ المعجميّة:

### النِّسيان والسَّهْو والغفلة:

النِّسْيان عَمّا كانَ، والسَّهو عَمّا لم يكُن، والغَفْلَةُ عَمّا يكون

النِّسْيان يكون عَمّا كانَ، والسَّهو يكون عَمّا لم يكن، والغَفْلَة تكون عَمّا يكون[1]. ولأنَّ التَّعبير جاء في سياق الوعدِ بوقاية النَّبيِّ ﷺ مِن تَفَلُّت الوحي المُنزل عليه، والذي سيتتابع إقراءُ جبريل عليه السلام له؛ ناسب الحديث بفِعْلِ النِّسيان المنفيِّ، فقيل: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، تبشيرًا للنَّبيِّ ﷺ، وتطميناً لَهُ ليَمْضيَ في طريق دعوته، ويقومَ بتبليغ ما يوحى إليه، غير قَلِقٍ مِن نسيانه أو تفلُّته.

### الجَهْر والإعلان والتَّصريح:

الجَهْرُ عامٌّ ويشمَلُ ما كان مُعْلَنًا، وما كان مُصرَّحًا به

الجَهْرُ هوَ إعْلانُ الشَّيْءِ وكَشْفُهُ وعُلوُّهُ[2]، والإعلانُ: ظهورُ ما كان خفيًّا في الباطِن؛ أي: خروجه منهُ مَعَ انْكِشافِ وإشهار[3]، أمّا التَّصريح فهو خلافُ التَّعريض والتَّلميح[4]، ولَمّا كان التَّعبير واردًا في سياق التَّعليل لِرَدِّ ما يحصل من تثبيتِ الوحي أو محوه إلى مشيئة الله تعالى؛ ناسب البيان بمُفردة ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾؛ لشُمولِها وعُمومِها كلَّ المُفرداتِ الأخرى، فهي تشمَلُ ما كان مُعْلَنًا، وما كان مُصرَّحا به إلى غير ذلك.

### الإخفاء والكِتْمان:

الإخفاءُ أعمُّ وأشمَلُ من الكِتْمانِ وغيره

الإخْفاءُ أعمُّ من الكِتْمان؛ إذ الكِتمانُ هوَ السُّكوت عَن المَعْنى، قال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتون عَن ذِكْرِه، أمّا الإخفاء فيكون في ذلك وفي غَيره؛ تَقول: أَخْفيت الدِّرْهَم في الثَّوْب، ولا تَقول: كتمتُ ذلك، وتقول: كَتَمْتُ المُنَى وأخفيتُه، فالإخفاء أعمُّ من الكتمان[5]، ولمّا كان التَّعبير

---

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 97، 98.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علن).

(4) الجوهري، الصِّحاح: (صرح).

(5) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 287.

واردًا في سياق التَّعليل لِرَدِّ ما يحصل من تثبيت الوحي أو محوه إلى مشيئة اللّه تعالى؛ ناسب البيان بمُفردة الإخفاء، فقيل: ﴿يَخۡفَىٰ﴾ دون غيره؛ لدلالته بمعناه ومبناهُ - الذي ينتهي بحرف المدِّ - على المُبالغةِ في السَّتر والإخفاء، ولشموله الكتمانَ وغيرَهُ مِن المُفردات، يُزاد على ذلك ما تَمْتازُ به الكلمة مِن رعايةٍ للفاصلة التي بُنيت عليها السّورةُ الكريمة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾ [الأعلى: 8]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القصدُ مِن إثباتِ الوحي أو محوِ شيءٍ منهُ هو تيسيرُ الشَّريعةِ على العبادِ

بعد أن ذكَر النَّظمُ القرآنيُّ فيما سبقَ مِن آياتِ السّورة الإلهيّاتِ والنُّبوّةَ، وأشار إلى النَّسخ؛ ناسب أن يُبَيِّن في هذه الآية أنَّ الدّين المُشروع له هو الحنيفيَّة السَّمحة، وأنَّه ﷺ لا يُقيمُه في شيءٍ بنَسْخ أو غيره، إلّا كان هو الأيسَرَ لَهُ والأرفَقَ؛ لأنَّ الرِّفق والعنفَ يتغيَّران بحسَبِ الزَّمان[1].

الوعد بالتَّوفيق للأيسَرِ بعدَ الوَعْدِ بالإقراء وعدَمِ النِّسيان

وبعد أن أخبَرَتِ الآيتان السّابقتان أنَّ الله تعالى سَيُقْرِئُ رسولَهُ ﷺ، ولَن يُنْسيَهُ شيئًا ممّا يوحيهِ إليهِ إلّا شيئًا فيه مصلحَةٌ أكيدَةٌ في أمورِ الدّين أو أمور الدُّنيا؛ ناسب أن يُعْطَفَ عليه الوعدُ بأنْ يَجْعَلَ شريعتَه سهلةً مُيسَّرة وأن يوفِّقه للأخلاق الكريمة، وإلى الأخذِ بما هو أرفقُ وأيسَرُ في كُلِّ أحوالِه[2].

## ❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾، ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: (يسر) أَصْلانِ؛ يَدُلُّ أحَدُهُما عَلى انْفِتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِهِ، ومنه: اليُسْرُ، وهو: ضِدُّ العُسْرِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق: 7]، وتَيَسَّرَ كذا واستَيْسَرَ؛ أي: تسهّل، وتَيَسَّرَتْ في كذا، أي: سهَّلته وهيّأته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: 17] أي: سَهَّلناه للحِفظِ، وأعنّا عليه مَن أرادَ حِفْظَهُ، واليُسْرى: السَّهل، وقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ معناه: نجعل شريعتَكَ سهلَةً مُيَسَّرة[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 397.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 281.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يسر).

وَعْدٌ من الله تَعالى لرسولِه ﷺ أن تكونَ شَريعَتُه سَهلةً ميسَّرةً له ولغيره

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يَعِدُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ بأن يوفِّقه دائمًا للطَّريقة اليُسرى في كُلِّ بابٍ مِن أبوابِ الدِّين: عِلْمًا، وعمَلًا، واهتداءً وهِدايَةً، وبأن يَرْزُقَه الأمور الحَسَنَة التي تجعَلُه يَعيشُ سَعيدًا في دُنياهُ، وظافِرًا بِرِضْوانِ اللّه تعالى في أُخْراهُ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### نوعُ الواو ودلالَتُها في صدْرِ الآية:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لعطف ما بعدَها على قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ وارد لِما ذُكِر من التَّعليل وتعليق التَّيسير به، وهو من باب عَطْف العامِّ على الخاصِّ في المآل، وإن كان مُفهوم الجُملة السّابقة مغايِرًا لمَفْهوم التَّيسير؛ لأنَّ مفهومَها الحِفْظُ والصّيانةُ، ومفهوم المعطوفة: تَيْسير الخَيْر لَهُ ﷺ[2].

تطمينُ النَّبيِّ ﷺ ووعدُهُ بالمُعاونة، وهو مُقْبِلٌ على تبليغ الوَحْيِ الذي وُعد بعَدَمِ نِسْيانِهِ

### دلالة فِعْلِ التَّيسير، ووجهُ إسْنادِهِ إلى ضمير العظَمَةِ:

التَّيسير هوَ جَعْلُ الشَّيء يسيرًا على فاعله[3]، ومعناه هُنا: التَّوفيق والتَّسهيل، وفي إسنادِ الفِعْلِ (نُيَسِّرُكَ) إلى ضميرِ الحقِّ ﷻ بصيغةِ التَّعظيم إيناسٌ للنَّبيِّ ﷺ وتطمينٌ له وهو مُقبلٌ على تبليغِ الوَحْيِ الذي وُعِد بحِفْظِه وعدم نسيانِ شيءٍ منه، وإشعارٌ له بالرِّعاية والاهتمام بأمْرِه، والمُؤازرة والمُساندة في تبليغ الرِّسالة وأداء الأمانة، وذلك بتوفيقه إلى كُلِّ ما هو يَسيرٌ، والوحي إليه بما في طاقة النّاس وليس بما يفوقُ قُدراتِهم، ولو بُني الفعلُ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه، فقيل: (وستُيَسَّر لليُسرى)؛ لفَقَدَ المعنى هذا التَّطمين، بما له مِن أثر كبير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 457، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 365.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 281.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 281.

في نفسِ النَّبيِّ ﷺ وهو يخطو خطواتِهِ الأولى في إبلاغِ رسالَةِ اللّه تَعالى، وتلاوةِ الوحيِ النّازل إليه على قلوب المُشركين وعقولِهِم.

**براعة تعديَةِ فِعْلِ التَّيسير إلى ضَمير المُخاطب:**

**التَّيسيرُ مَلَكَةٌ راسخةٌ في النَّبيِّ ﷺ كأنَّه جُبِلَ عليها**

الشّائع في اللِّسان العربيِّ تعليق فعل التَّيسير بالأمور المُيسَّرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦﴾ [طه: 26]؛ أي: أنَّ أصلَ التَّركيب هُنا: (ونيسر لك اليسرى)، لكنَّ النَّظم الكريم عدلَ عَن ذلك إلى تعديَةِ الفِعْلِ إلى ضمير الخِطاب العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ مُباشرةً ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ للإيذان بقوَّة تَمْكينِه مِن اليُسْرى والتَّصرّف فيها، بحيثُ صار ذلك ملكةً راسخَةً له، كأنَّه جُبل عليها، كما في قوله ﷺ: «اعْمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ...»[1]، والمعنى: نوَفِّقُك توفيقًا مُسْتَمِرًّا للطّريقة اليُسْرى في كُلِّ بابٍ مِن أبوابِ الدّين: عِلْمًا وتعليمًا واهتداءً وهداية، فيَنْدَرِج فيه تيسير طريق تَلَقّي الوحي والإحاطة بما فيهِ مِن أحكام الشَّريعة السَّمحة والنَّواميس الإلهيَّة ممّا يتعلَّق بتكميل نفسِهِ وتكميلِ غَيْرِه[2].

**ما كُلِّفَ به النَّبيُّ ﷺ مُيَسَّر، وهو مُيَسِّرٌ لأداءِ ما كُلِّفَ به**

أمّا إذا أُجْرِيَ التَّركيب على الأصل فعِنْدَئِذٍ يكونُ المعنى: نَجْعَلُك أنت مُهيَّأً مُسَهّلًا مُلَيَّنًا موَفَّقًا[3]، وبذلك يشتمل الكلامُ على تَيْسيرَيْن: تيسيرِ ما كُلِّف به النَّبيُّ ﷺ؛ أي: جعله يسيرًا مع وفائه بالمقصودِ مِنْهُ، وتيسيرِ النَّبيِّ ﷺ لِلقيام بما كُلِّف به[4].

**بلاغة الاستعارة في فِعْلِ التَّيسير:**

**التَّيسيرُ صِفَةٌ مـلازِمَـةٌ للنَّبيِّ ﷺ ولا تنفكُّ عنه**

في التَّعبير بالفِعْل (نُيَسِّرُكَ) استعارةٌ تصريحيَّة؛ شُبِّه فيها التَّهيئة والتَّوفيق بالتَّيسير، ثُمَّ اسْتُعير التَّيسير لتوفيق النَّبيِّ ﷺ وتمكينِه مِنَ اليُسْرى وتصرُّفِه فيها بما يأمُرُ اللّه تَعالى به؛ للدَّلالة

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (4949)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2647).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 145.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/ 145.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 282.

على أنَّ التَّيسير صفَةٌ ملازِمَةٌ للرَّسول ﷺ، لا تَنْفَكُّ عنه، ولا تُفارِقُه، والمعنى: نُهَيِّئُك للأمور اليُسْرى في أمْرِ الدّين وعواقبه؛ مِن تيسير حفظِ القُرآن الكريم لكَ، وتيسير الشَّريعة التي أُرْسِلْتَ بها، وتيسير الخَيْرِ لك في الدُّنيا والآخرة[1].

### معنى اللّام ودلالتُها:

اللّام في ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد التَّعليل، والمعنى: لأجلِ اليُسْرى؛ أي: لقَبولِها، والتَّشريع بمُقْتَضاها[2].

### دلالة التَّعبير بـ (اليُسْرَى) مادَّةً وصيغَةً:

الرَّسولُ ﷺ مُيَسَّرٌ للأسهل والأفضل في الدُّنيا والآخرة

(اليُسْرَى) مُؤَنَّثُ الأيْسَر، وصيغَةُ (فُعلى) تدلُّ على قوَّة الوَصْفِ؛ لأنَّها مُؤنَّث (أفعل)، والموصوفُ محذوفٌ، وتأنيثُ الوَصْفِ مُشْعِرٌ بأنَّ الموصوف المحذوفَ مِمّا يَجْري في الكلام على اعتبارِ اسْمِه مُؤَنَّثًا، بأن يكون مُفردًا مُؤَنَّثًا أو جمعًا؛ إذِ الجُموع تُعامَلُ مُعاملةَ المُؤَنَّث[3]، والمعنى: يوَفِّقك للطَّريقة التي هي أيسَرُ وأسهَلُ في حفظ الوحي، أو يوفِّقُك للشَّريعة الحنيفيَّة السَّهلة، أو يذهب بك إلى الأمور الحسنَةِ في أمْرِ دُنْياك وآخرتك مِن النَّصر وعُلوِّ المنزلة والرِّفْعة في الجنَّة[4]، ولا مانِعَ مِن أنْ يكون الرَّسول ﷺ مُيَسَّرًا لذلك كُلِّه.

### وجهُ تأنيثِ (اليُسْرَى) دونَ تَذْكيرِه:

لا حدود لليُسْرِ الذي وُفِّق إليه رسولُ الله ﷺ وجاءَ بِهِ

أوثِر تأنيثُ (اليُسْرَى) دون تذكيره، فلم يُقَل: (لليُسْر)؛ لِما تُفيده الكلمَةُ المُعَبَّر بها بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ مِن أنَّه لا حدود لليُسْر الذي سَيوَفَّق إليه رسولُ اللّه ﷺ، ولا يستطيع أحدٌ أن يَتَصَوَّر مداهُ، يُزاد على ذلكَ ما تَمْتازُ به كلمة (اليُسْرَى) مِن رعايَةٍ للفاصلة التي بُنِيت عليها السّورةُ الكريمة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 282.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 282.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 282.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 457.

### بلاغة الجناسِ في الآية:

بَيْنَ كَلِمَتَي (نُيَسِّرُكَ) و(اليُسْرَى) ما يُسَمَّى جناسَ الاشْتِقاق؛ حيث اجْتَمَعَ اللَّفظان في أصل الاشْتقاق، واجتماعُهما هُنا دالٌّ على ما بَيْنَ الرَّسول ﷺ والرِّسالة التي أُرْسِلَ بها من تَماثُلٍ وتَطابُق؛ إذِ التَّيسير صفَةٌ راسخَةٌ في الرَّسول ﷺ، وصفَةٌ راسخة في الدّين الذي أرسله الله تَعالى به، وفي الإخبار بذلك تمهيدٌ وتهيئة للتَّكليف بالتَّذكير المُتَرَتّب على هذا الوعد بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

التَّيسير صفةُ الـرَّسـول ﷺ وصـفـةُ ديـنِـهِ، وهو حافزٌ مُهَيِّئٌ لـلاسـتـجـابَـةِ للأمْرِ بالتَّذكير

## ❁ الفُروقُ المعجميّة:

### اليَسير والسَّهل والهيِّن:

الشَّيْءُ اليَسيرُ هو: السَّهل القليل[1]، والسَّهْلُ: كلُّ شَيْء يميل إلى اللّين وقلَّة الخشونة[2]، والهَيِّن: الحقيرُ المتَّئِد الوقورُ المُتسامح والسَّهل اليَسير[3]. ولمّا كان التَّعبير واردا في سياق الوعدِ بتَسْهيلِ مُهِمَّة النَّبيِّ ﷺ في تبليغ الوحي الذي سَيَتَتابَعُ نُزولُه، ويتجدّد إقْراؤُه؛ ناسب البيان بقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ لأصالَتِها وعُمْقِها في الدَّلالة على السُّهولة الخاليَةِ مِن أيِّ نوعٍ من أنْواع الخُشونَةِ المَوْجودةِ في فِعْلِ التَّسهيل، مع الاحتفاظِ بقيمَةِ الشَّيءِ المُيَسّر، وعدم التَّدنّي به، كما هو موجودٌ في فِعْلِ الهوانِ.

اليَـسـير كـلُّ مـا كـان شديدَ السُّهولة عاليَ القيمَةِ

(1) الرّازي، مُختار الصِّحاح: (يسر).
(2) مَجْمَع اللُّغة العربيَّة، المُعجم الوسيط: (سهل).
(3) مَجْمَع اللُّغة العربيَّة، المُعجم الوسيط: (هان).

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى: 9 - 13]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

علوُّ شأنِ الأوامرِ في الجمع بَيْنَ أداء الواجب وإرضاء الخاطِر

بعد أن ثبَّت اللّه تعالى رسولَه ﷺ، وتكفَّل له بما أزال فرَقَه من أعباء الرِّسالة، وما اطْمأنَّت به نفسُه من دفع ما خافه من ضعف عَن أدائِها على وجهِها، وتكفَّل له كذلك بدَفْعِ نِسْيانِ ما يوحَى إليه إلّا ما كان إنساؤهُ مُرادًا للّه تعالى ووَعَدَه بأن يوَفِّقه ويُهَيِّئه لذلك ويُيَسِّره عليه؛ ناسب أن يَأْمُرَهُ في هذه الآياتِ بالتَّذكير لِكُلِّ أحَدٍ في كلِّ حالٍ؛ إرهاقًا لعَزْمِه، وشَحْذًا لنَشاطِه، ليكون إقبالُهُ على التَّذكير بهِمَّة وعزيمة، فإنَّ امتثال الأمر إذا عاضَدَهُ إقبالُ النَّفس على فعلِ المأمور به كانَ فيه مَسَرَّة للمأمور، فجمع بَيْنَ أداء الواجبِ وإرضاء الخاطِر(1).

## شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿فَذَكِّرۡ﴾، ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: الذّالُ والكافُ والرّاءُ أصْلانِ؛ أحدُهُما: ذِكْرُ الشَّيْءِ خِلاف نَسيانه(2)، والذِّكْرُ يُقال اعتبارًا باستحضارِه، وتارةً يُقال لحُضورِ الشَّيءِ القَلْبُ أو القول، والتَّذكير يكون من النِّسيان أو خشية النِّسيان، والمُراد به هُنا: تبليغُ الوحي، والذِّكْرَى: كثرة الذِّكْر، وهو أبلَغُ مِنَ الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: 43]، وقال أيضًا: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذّاريات: 55](3).

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 397، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 283، 284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ذكر).

2) ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾: الشّينُ والقافُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ، ومِنْهُ الشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَة، ورَجُلٌ شَقيٌّ بَيِّنُ الشَّقاءِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَةِ، وقد استُعمِل اللَّفْظُ في التَّعب البَدَنيِّ الشَّديد في الدُّنيا، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: 2]، وكذلك قوله: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: 117]. وعُبِّر بِهِ عن العذاب وسوء المَصير في الآخرة، كما في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥﴾ [هود: 105]، وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾[1].

3) ﴿يَصۡلَى﴾: الصّادُ واللّامُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما النّارُ وما أَشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، ومِنْهُ: صَلَيْتُ العودَ بالنّارِ، والصَّلى: صَلى النّارِ، واصْطَلَيْتُ بالنّارِ، والصِّلاءُ: ما يُصْطَلى بهِ وما يُذْكى به النّارُ ويوقَدُ، قال تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يس: 64]، وقال: ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وقال أيضًا: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤﴾ [الغاشية: 4]؛ أي: قاسى حرَّها، وقيل: صَلى النّارَ: دَخَلَ فيها[2].

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

سيَنْتَفِعُ بالذِّكرى والموعظةِ الخائِفونَ، ويتَجَنَّبها الأشقياءُ الكُابِرونَ

في هذه الآياتِ يَأْمُر اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ بأن يُداوِمَ على تَذْكيرِ النّاس بالهُدى ودينِ الحقِّ، وأن يتبعَ في ذلك الحكمة والموعظة الحسنَة والمُجادلة بالتي هي أحسَن، وأن يَهْتَمّ في تذكيرِهِ بمَن يتوقّع منهم قبولَ دعوته، وألّا يحزن بسبب إعراض الجاحدينَ والجاهِلين، فإنَّ تَذْكِرَتَهُ سَيَنْتَفِعُ بها مَن يخشى اللّه تعالى، ويخاف عذابَهُ، ويرجو ثوابَهُ، ويتَجَنَّبها ويَبْتَعِد عنها الشَّقيُّ، الذي أبى إلّا الإصرار على كُفْرِهِ وعناده، وخلا قلبُه مِن خشية اللّه تَعالى، والذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلى)، والرّاغب، المُفردات: (صلا).

مِن صِفاتِه أنَّه سيُلقى في أشدِّ طبقات النّار سعيرًا وحريقًا، وهي الطَّبقة السُّفلى منها، ثُمَّ إنَّ هذا الشَّقيَّ بعد أن يُلقى به في النّار الكُبرى، لا يموتُ فيها فيَسْتَريحُ مِنَ العذاب، ولا يحيا حياةً طَيِّبة فيها شيء من الرّاحة، بل يبقى هكذا يأتيه الموت مِن كُلِّ مكان وما هو بميِّت[1].

## ۞ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### نوع الفاءِ ودلالَتُها في مَطْلَعِ الآية:

التَّذكير بما في الوحيِ مِن جليلِ المَعاني هو ثمرةُ التَّيسير والتَّخفيف

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ هي فاء السَّببيَّة الدّالَّة على أنَّ الله تعالى بشَّر نبيَّه ﷺ باستمرار الإقراءِ وتَجَدُّده، ووعده بالحفْظِ وعدم النِّسيان، كما وعدَهُ بأن يُعينَهُ على أعباء الرِّسالة، بأن يُسهّل عليه القيام بها ويُسَهِّلها له، ليقومَ بمُهِمَّة التَّذكير والتَّبليغ، وهي مُهِمّة عظيمةٌ اسْتَلْزمت هذا الإعدادَ وتلك التَّهيئة، فحينَ نتأمَّل ترتيب الآيات نُدْرِك عظمة الرِّسالة وضخامة الأمانة، التي اقْتَضَت للنُّهوض بها: التَّيسير لليسرى، والإقراء والحِفْظُ، وتكفُّل الله تَعالى بهما، كي ينهَض الرَّسول ﷺ بعِبْءِ التَّذكير، وهو مُزَوَّد بزادٍ كبيرٍ تَتَطَلَّبُه الحالُ التي نزلَت فيها سورةُ الأعلى[2]، ويجوزُ أن تكون الفاءُ للتَّفريع على ما تقدَّم تفريع النَّتيجة على المُقَدِّمات[3]، ويمكن أن تكون الفاءُ أيضًا فاءَ الفَصيحة الدّالَّة على أنَّ في الكلام شَرْطًا محذوفًا، تقديره: إذا كان الأمرُ كذلكَ؛ فذكِّر[4].

### دلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ﴾:

المطلوبُ من الرَّسول ﷺ أن يُداوِمَ على التَّذكير، وألّا ينقطعَ عنه

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ فعلُ أمرٍ قُصد به المُداومةُ على تبليغ

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 366، 367.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره: 68.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 28.

(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 366.

الوحي، وتذكيرِ النّاس بما فيه مِن جليلِ المعاني، وعظيم التَّوجيهات العَقَديَّة والعمليَّةِ والأخلاقيَّة؛ لأنَّ لها أثرًا عظيمًا في نفوس المَدْعوّين للإسلام، وأنَّ ما على الرَّسول ﷺ إلّا أن يقوم بها دون انقطاعٍ، ولا سيَّما بعد أن وعده الله تعالى بحِفْظِ ما سيُنْزله عليه، وبألّا يكون فيه شيءٌ لا يَتَحَمَّله النّاس، ولا يُطيقونَهُ.

### لطيفَةُ الأمْرِ بالتَّذْكير دونَ الإنذارِ:

مُهِمَّة الرَّسولِ ﷺ هي التَّذكير والإنذارُ

الأمر بالتَّذكير في سورة الأعلى يأتي في السّياق التَّنزيليِّ للقرآنِ الكريمِ بعد الأمر بالإنذار في سورة المُدَّثِّر، الذي كان بمثابة إعلام بالرِّسالة، وإيذانٍ للقيام بمَهامِّها، ممّا يجعل الأمرَ بالتَّذكير هُنا مُقصودًا بهِ طلبُ المُداومة والاستمرار على القيام بمُتَطَلَّبات الرِّسالة، ويَظْهَرُ أنَّ مجيءَ الأمر بالتَّذكير بعد الأمر بالإنذار القائم على التَّخويف يُقْصَدُ منه أيضًا: إعلامُ الرَّسول ﷺ بأنَّ المُهِمَّة التي هيّأه الله تَعالى للقيام بها تقوم على إنذار النّاس وتذكيرهم، وليس اهتداء العبادِ؛ وهو معنًى ركَّز عليه القرآنُ هُنا وفي كثيرٍ من المواضع والمُناسباتِ، إشفاقًا على النَّبيِّ ﷺ وتخفيفًا عنه؛ لأنَّ الثّابت أنَّه كان يحزن لإعراض قومِهِ وعدَمِ إيمانهم حُزْنًا شديدًا، يُخشى عليه من الضَّرر بسببه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]. فالأمر بالتَّذكير هُنا مظهر مِن مظاهرِ التَّخفيف والتَّيسير الذي وُعَدَ به النَّبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، أمّا في سورة المُدَّثِّر فقد أُمِر بالإنذار لتَرَتُّبِهِ على الأمر بالقيام، الموحي بالعزم والتَّصميم، كما أنَّه يأتي بعد الإعلام بأنَّ الله تعالى سيُلْقى عليه قولًا ثقيلًا في سورة المُزَّمِّل، وعلى هذا لا يصحُّ أن يُقال هُناك: (قُمْ فذَكِّرْ)[1].

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرَّسول وتوقيره: 69.

### فائدة حَذْفِ مفعول الأمر بالتَّذكير:

لَم تَذْكُر الجُملة مفعولًا للفعل (ذَكِّرْ)؛ ليَعُمَّ التَّذكيرُ جميعَ العبادِ من غير استثناءٍ؛ إذ إنَّ حذفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بالعموم والشُّمولِ.

### موقِع جُملة: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ ودلالتُها:

التَّنبيهُ على أنَّ في القوم مَنْ لا تنفعُه الذِّكرى

قولُه تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ جُملة اعتراضيَّة بَيْنَ جُملة الأمر وما يترتَّب عليها، وقد عَبَّرَ بها النَّظم الكريم بقَصْدِ التَّنبيه على أنَّ في القَوْم مَنْ لا تنفعه الذِّكرى؛ لئلّا يَحْزَنَ الرَّسول ﷺ إذْ رأى أكثرَ النّاس مُعْرِضين عنها مُتَجَنِّبين لها، ولا يخفى ما في تهيئتِه لذلك مِن تخفيفٍ وإشفاقٍ يَتناسب مع الوعد بالتَّيسير في قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[1].

### وجهُ التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة:

لا ينبغي أن يُؤَثِّر إعراضُ النّاس في الدَّوام على التَّذكير، أو يفتَّ في همَّة المُذَكِّرِ

أوثر التَّعبير في الجُملة الشَّرطية بـ ﴿إِن﴾ - التي يكثُر استعمالها فيما يَنْدُر حصولُه - أداةً للشَّرط؛ ليعلم النَّبيُّ ﷺ ومَنْ يحذو حذوه من الدُّعاة السّائرين على منهجه أنَّ العَيْبَ ليس في الدّاعي بل في المَدْعوّين؛ إذ مِنَ الغالِب الكثير ألّا يستجيب المَدْعوّون للذِّكرى، كِبْرًا أو عنادًا أو إصرارًا على ما هُم فيه، ومِن ثَمَّ فلا يَنْبَغي أن يُؤَثِّر ذلك في دوامِ التَّذكير، أو يَفُتَّ في همَّة المُذَكِّر، فالتَّعبير بأداة الشَّكِّ يُفهِم الإطلاقَ الكُلّيّ، والمَعْنى: إن جوَّزت نفعَها وترجيتَه[2].

توبيخ الكُفّار والتَّعريضُ باجْتِنابهم الذِّكرى

وفي التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ أداةً للشَّرط أيضًا توبيخٌ للكُفّار وتعريضٌ باجتنابهم الذِّكرى وعدم انتفاعِهم بها، وإصرارهم على الكُفْرِ، على الرُّغم مِن تحذير الشَّريعة المُيَسَّرة منه، وبيانِها وخيمَ عاقبتِه.

### سِرُّ التَّعبير بفعل النَّفع ماضيًا مُؤَنَّثا:

التَّعبير بالفعل ﴿نَّفَعَتِ﴾ ماضيًا، مع أنَّ الأصل أن يكون مُضارعًا؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 284.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 398.

فيه تحريضٌ للنَّبيِّ ﷺ على المُداومة على دعوةِ النّاس إلى قبول الحقِّ الذي جاء به؛ لدلالتِه على أنَّ التَّذكير إن لم ينفع النّاس جميعًا، فسينفع بعضَهُم على وجه التَّحقيق والتَّأكيد؛ إذِ اقتضتْ سُنةُ اللّه تعالى أن لا تخلوَ الأرض ممَّن يستَمِعُ إلى الحقِّ، ويستجيبُ له، وأوثر تأنيثُ الفعل - مع جواز تذكيره؛ لكونِ الفاعل مؤنَّثا مجازيًّا - للإلماح إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ أو الدّاعيةَ لن يُعدَم مِن وراء التَّذكير فائدةً وأثرًا، ولو كان ذلك على وجهٍ ضعيفٍ جِدًّا[1].

لـن يـعـدمَ الرَّسولُ ﷺ أو الدّاعيةُ فائدةً من الذِّكرى، ولو كـان ذلـك على وجهٍ ضعيفٍ

**دلالةُ تعريف ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾:**

(ألْ) في ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لتعريف الجِنْسِ، وأوثر تعريفُه بها ليَشْمَلَ التَّذكيرَ بجميع أشكالهِ وأساليبه وفي مُختلف الأوقاتِ والأحوال؛ إذْ مِنَ المُمكِن أن ينتفع الإنسانُ بالذِّكرى في وقتٍ دون وقتٍ، وبأسلوبٍ دون أسلوب، وفي حالٍ غَيْرِ الحالِ التي لم ينتفع فيها، ما يعني: أنَّ مُتابعة التَّذكير والإكثار منه مُثمرٌ لا محالةَ، ومِن ثَمَّ فلا ينبغي التَّقصير فيه أو العزوفُ عنه لأيِّ سَبَبٍ مهما كانَ.

مُتابعةُ التَّذكير والإكـثـارُ منه مُثمرٌ لا محالة

**عِلةُ فصْلِ قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾:**

جاءت جُملة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ مفصولةً عَمّا قبلَها لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيبُ فيه الجُملةُ المَفْصولةُ عَن سُؤالٍ أثارَتْهُ الجُملة السّابقة في نَفْسِ المُخاطَب حول الفائدةِ مِن التَّذكير إن كان هُناك مَنْ لا ينتفع به؟ فجاءت هذه الجُملة لتوَضّح أنَّ النّاسَّ حيالَ الذِّكرى فريقان؛ أحدُهما: مُقبلٌ عليها، مُنتفِعٌ بها، والآخرُ: مُعرضٌ عنها، مُتجنِّبٌ لها.

الـنّـاس حيال الذِّكرى فريقان مُقبلٌ، ومُعرِض

**معنى السّين في ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾:**

السّين في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ حرفُ استِقْبال، يُفيدُ تأكيدَ حُصولِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 398.

الذِّكرى والموعظة لدى الخائِفين مِن عذابِ اللّه تَعالى، بمُجَرّد وُقوع التّذكير، وقيام الرَّسول ﷺ أو الدّاعية به، ما مِن شأنه أن يَحْمِلَهُ على دوام التَّذكير، ويحول دون التَّفريط أو التَّقصير فيه.

الذِّكرى حاصلةٌ للخائفينَ بمُجَرَّد حُصولِ التَّذكير

**سِرُّ التَّعبير بالفعل (يَذَّكَّرُ) مُضارعًا مُضعَّف العَيْن:**

التذكُّرُ حاصلٌ بوَعْدٍ لا خُلْفَ فيه، ولو على أخفى وجوهِ التَّذكير

أوثر التَّعبير بفعل التَّذكُّر مُضارعًا؛ للدَّلالة على حُصوله في المُسْتَقْبَل مُباشرة عقِبَ قيام الرَّسول ﷺ أو الدّاعية بتذكير النّاس بالوحي، أو بما يَدْعو إليه من جميلِ الأعمال وكريم الخِصال، وفي تضعيفِ عَيْنِه إشارةٌ إلى حُصوله بوَعْدٍ لا خُلْفَ فيه ولو على أخفى وُجوهِ التَّذكير[1].

**موقِعُ الاسْمِ المَوْصولِ ودلالَتُه:**

سيحصُل التَّذكُّر لجنس الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ اسمٌ موصول في محلِّ رفع فاعلُ التَّذكُّر، وقد أوثِر التَّعبير به ليُتَوَصَّل بجُملة الصِّلة إلى مَدْحِه، وبيان السَّبب الذي دفعه إلى الاتّعاظ والتَّذكّر، وليعُمَّ المعنى: جنس هؤلاء جميعًا، والمعنى: سيتذكَّر الذين يَخْشَوْنَ[2].

**سِرُّ التَّعبير بالمُضارع: ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مادّة وصيغةً:**

الذِّكرى حاصلةٌ لمَن كانَت الخشيةُ طبعَه وجِبِلَّته

عبَّر النَّظمُ في جُملة الصِّلة بالفعل: ﴿يَخۡشَىٰ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الخوفَ مِنَ اللّه تعالى يدفع صاحبَهُ إلى الإيمان بالرَّسول ﷺ، والانتفاع بالذِّكرى، والاتّعاظ بما فيها، دون أن يبذلَ الرَّسول ﷺ معه أكثر مِن التَّبليغ، وجيء به مُضارعًا للدّلالة على أنَّ خشيتَهُ تتجَدَّد بتَجَدُّد الذِّكرى، وأنَّ أمثالَ هؤلاء يجِبُ أن يحرص الرَّسول ﷺ على الذِّكرى لأجْلِهم، وعومل فعلُ الخَشْيَة معاملةَ الفِعْل اللّازم، فحُذِفَ مفعولُهُ للإشارةِ إلى أنَّ الخَشْيَةَ طبعُه وجبلَّته، والمعنى: سيتذكَّر مَنْ يَتوقع حصول الضُّرِّ والنَّفع، فينظر في مظانِّ كلٍّ، ويَتَدَبَّرُ في الدَّلائل؛ لأنَّه يخشى أن يُحِقَّ عليه ما أُنذر به[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 399.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 285.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 399، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 285.

### نوعُ الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ لعَطْفِ ما بَعْدَها على جُملة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ وهي تشير إلى النَّوع الآخر، الذي لا يقبل الذِّكرى ولا ينتَفِعُ بها، وقد أوثِرَ العَطْفُ بينَهُما بالواو التي تُفيد المُصاحبة؛ للدَّلالة على أنَّ الذِّكرى فارقةٌ بَيْنَ الصِّنفين، وأنَّ مُجرَّد حصولِها كافٍ لتَمايُزِهم ومعرفة النَّبيِّ ﷺ لكلٍّ مِنْهُم، لأنَّهما يَحْدُثان معًا في وقتٍ واحدٍ.

في الذِّكرى تمايزٌ بَيْنَ صِنْفَيْنِ مِن النّاس

### سِرُّ التَّعبير بالفعل (يَتَجَنَّبُ) زمانًا وصيغةً:

جيء بفِعْلِ التَّجنُّب مضارعًا فقيل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾؛ لِما يُفيده من تَجدُّد تجنُّب الأشقى للذِّكرى، وإعراضه عنها بصور ووجوهٍ مُتنوِّعة، في كُلِّ مرَّة يتجدَّد حصولُها، وقيامُ الرَّسول ﷺ أو الدّاعية بها، وقد أوثِر صوغُه بزِنَةِ التَّفعُّل للدَّلالة على تكلُّفه الابتعاد ومُبالغته في اتِّخاذ مكانٍ بعيد جدًّا عن مكانِ الذِّكرى، والمعنى: يُكلِّف نفسَهُ وفِطْرَتَه الأولى المُسْتَقيمَة تجنُّب الذِّكرى، التي نشاء تذكيرَهُ بها مِن أشرف الخلائق وأعظمهم صِلَة بالخالق سبحانه وتعالى[1].

الأشْقى يتكلَّف الإعراضَ عن الذِّكرى، ويُخالفُ فِطرتَه ليتجنَّبها

### مَرجِعُ الضَّمير في ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، ولطيفةُ تَقْديمِه:

الضَّمير المنصوب في ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يعود إلى ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، وعُبِّر عنها به جَرْيًا على الأصل في التَّعبير عن الاسمِ الذي سَبَقَ ذِكْرُه قريبًا بالضَّمير؛ لئلّا ينصرِفَ الذِّهن إلى شيء غيره، لا سيَّما وأنَّ السِّياق يدلُّ عليه بوضوح يُغْني عن إعادته، وجيء بالضَّمير مُقَدَّمًا على الفاعل ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ لتقوية تجنُّبه لها وتأكيده، في حين أنَّه لا يتَّجنبُ مجالس اللّهْو والشِّرك وأمثالها.

الأشقى يتجنَّب الذِّكرى في حين أنَّه لا يتجنَّب اللّهْو والشِّرك وأمثالها

### بلاغةُ الكِناية في الفعلِ:

التَّعبير بفعل التَّجنُّب كنايةٌ عن مُبالغة الأشقى في إعراضه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 399، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 285.

الأشقى يفعل كُلَّ الأشياء التي تحولُ بَيْنَه وبَيْنَ التَّأثُّر بالذِّكرى والانتفاعِ بها

عن الموعظةِ وانْصِرافه عمّا يبلِّغُه الرَّسولُ ﷺ، ويُذكِّر به من آيات الوحي، وبليغ معانيه؛ لدرجة أنَّه اتَّخذ جانبًا آخر، وانتقل إلى مكانٍ بعيدٍ، حتَّى لا يتأثَّر بشيءٍ مِن المَوْعِظَة على الرُّغم منه، ما يعني: أنَّه اتَّخذ كُلَّ الوسائل وجميع الأسباب التي تحول دون انتفاعه بالذِّكرى، أو حتَّى سماعه شيئًا منها، ولو جاء التَّعبير بغيرِ الكِنايَةِ، فقيل: (ويُعْرِضُ عنها الأشقى)؛ لَما أفاد هذه المُبالغةَ، ولَكانَ أقصى ما يُفيده: أنَّه انصرف بوجهه عنِ الرَّسول ﷺ، وتَرَكَ قلبَه يتأثَّر بما يقول، وهذا على خلاف الحقيقةِ والواقِعِ.

### نوع (ألْ) ودلالتُها في ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾:

الإشـــارَةُ إلى عُمومِ الكافِرينَ

(ألْ) في ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ لتعريف الجِنْسِ، وقد أوثِرَ التَّعريف بها ليَشْمَلَ المَعْنى جِنْسَ الأشقياءِ؛ أي: أنَّ تجنُّبَ الذِّكرى هو فعلُ جميعِ الأشقياء الكافرين بلا اسْتِثْناءٍ، ويجوزُ أن تكون لتعريفِ العَهْدِ، والمُراد: الوليدُ بْنُ المُغيرة، أو عُتبة بن ربيعة، والأوَّل أولى لشمولهِ الكافِرَيْنِ المذكورَيْن وغيرَهُما ممَّن يتجنَّبون الذِّكرى في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

### دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ مادَّة وصيغة:

مُتَجَنِّبُ الذِّكرى بلَغَ في الخيبَةِ والشَّقاء مَبْلغًا لا نظيرَ لَهُ

أوثِر التَّعبيرُ عن فاعل التَّجنّب بـ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ اسمًا؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصفَ من الأوصاف التي لا تنفكُّ عنه، ولا تُفارِقُه، فهو دائمُ الشَّقاء بصورة لا تَنْقَطِعُ، وأوثِر التَّعبير به دون الكافر؛ لذَمِّه وللإشارةِ إلى أنَّ كونه من الأشقياء التُّعساء هو الذي حال بَيْنَه وبَيْنَ قبولِ نَصيحَةِ رسول اللّه ﷺ وتَذْكِرَته، وصيغَ بزِنَةِ اسْمِ التَّفضيل المُطْلَقِ للدَّلالة على أنَّه بلغَ في الخَيْبَةِ والشَّقاء في الدُّنيا والآخرة مَبْلَغًا لا نظير له ولا مثيلَ.

### بلاغَة المُقابلة:

في قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ قابَلَ النَّظم الكريم بَيْنَ مَعنَيَيْن في جُملة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ ومَعْنَيَيْن

مدحُ الخائفين وتشريفهم، وذمُّ الأشقياء والتّنفير منهم

في جُملة: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾؛ وهي مُقابلة بَيْنَ المعاني وليست بَيْنَ الألفاظ، وبها يتبيَّن موقفُ الطَّرَفَيْنِ من الذِّكرى بوضوح، فالأوَّل: أقبل عليها واستفاد منها هدايةً وإيمانًا، والآخر: تجنَّبها وأعرض عنها، ودام على كُفره وعناده، ويتبيَّن كذلك أنَّ السَّبب الذي دفع الأوَّل للاستجابة هو خوفُه من اللّه تَعالى وخشيته من عذابه، وأنَّ السَّبب الذي دفع الثّاني للإعراض كَوْنُهُ شقيًّا لا يخاف ولا يخشى، فهو سادِرٌ في غروره، مُنغمسٌ في لَهْوه، فلا يتخلَّص من شقائه، ولا يسعى إلى تغييرِ حاله[1]، وقُدِّم الأوَّل لشرَفِه ومَدْحِه وبيان وُجوب الدَّوام على الذِّكرى لأجله، وأُخِّر الثّاني لذمِّه والتَّنفير منه، وليتبعَهُ ببيانِ عِقابِهِ.

### موقع الاسْمِ الموصول، ووجهُ التَّعبير به:

التَّشويق إلى عقاب مَنْ بقيَ مُصِرًّا على الكُفْرِ، حريصًا على تجنُّب الذِّكرى

الاسْمُ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ في مَحَلِّ رفعٍ صفَةٌ لـ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾، وأوثر وصفُه به؛ لأنَّ التَّعبير باسم التَّفضيل في وقت نُزول السّورة فيه من الإبهام ما يحتاج إلى البيان، فأُتبع بوصفٍ يُبَيِّنُهُ في الجُملة، ويبيِّن ما نَزَلَ مِن القرآنِ قبلَ هذه الآية[2]، ويجوزُ أن يكونَ غرَضُ الوَصْفِ بالاسْم الموصول أن يُتوصَّل بصِلَتِه إلى بيان عِقاب مَنْ بقيَ حريصًا على الكُفْرِ، مُصِرًّا على تجنُّب الذِّكرى بوحي اللّه تَعالى، القائمِ بها رسولُ اللّه ﷺ، أو مَن يدعو بدعوتِه[3].

### وجهُ التَّعبير بالفعل ﴿يَصۡلَى﴾ مادَّةً وصيغةً:

استحضار الصّورة يُساعد في الإقبال على الذِّكرى وعَدَمِ تجنُّبها

قولُه تعالى: ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ جُملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب صلَةَ المَوْصول، وقد عبَّر فيها النَّظم الكريمُ بالفِعْلِ ﴿يَصۡلَى﴾ مُتعدّيا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 286.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 400.

إلى ﴿ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ لتأكيدِ عذابِ كُلَّ شقيٍّ تَجَنَّب الذّكرى، وأعرض عنها بالنّار الكُبْرى يومَ القيامة، وأوثِرَ التَّعبير به مُضارعًا لحصولهِ في المُسْتَقْبَل، ولِما يُفيدُهُ من اسْتِحْضارِ تلك الصّورة المُفْزِعَة كأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ، تدفع العقلاء من المُتَلَقّين بعامَّة، ومِنَ الأشقياء بخاصَّة إلى الإقبال على الذِّكرى، وحضور مجالسِ رسول اللّه ﷺ، أو مجالس العلماء؛ للاستفادة منها، والاتِّعاظ بما يُقال فيها، ليتحقَّق لَهُمُ الفَوْزُ والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة.

### نوع (ألْ) ودلالتُها في ﴿ٱلنَّارَ﴾:

نـارُ الـدُّنـيـا لا تُـسـاوي شيئًا بالنِّسبة لنارِ الآخِرَة

(ألْ) في ﴿ٱلنَّارَ﴾ لتعريفِ العَهْدِ، فالمُراد بها: النّار التي تحدَّث القرآنُ عنها في مواضعَ كثيرةٍ، والتي خوَّفَ رسولُ اللّه ﷺ النّاس منها مُنذُ أن أبلغَهم أنَّه رسولُ اللّه إليهم، والتي لا تُعَدُّ نارُ الدُّنيا شيئًا بالنِّسبة لها، كما قال ﷺ: «نارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعينَ جُزْءًا مِنْ نارِ جَهَنَّمَ»[1].

### فائدَةُ وصْفِ النّار بـ ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ اسمَ تَفْضيلٍ:

الـنّـار الـتي يَصْلاها مُتَجَنِّبُ الـذِّكـرى تفوق كُـلَّ الـنّـيران في شـدَّة ضِرامها وقسوة حَرارتها

لم يقتَصِر البيانُ القرآنيُّ على التَّعبير بـ ﴿ٱلنَّارَ﴾، وإن كانت وحدَها كافيَةً، لكنَّه وصَفَها أيضًا بـ ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ للتَّهويل والتَّفظيع وتخويف الكُفّار المُعرِضين عن الذِّكرى مِنَ العذاب الذي يَنْتَظِرُهُم في قَعْرِ جهنَّم، حَيْثُ تشتدُّ النّار ويَعْظُم سَعيرُها، وأوثر صوغُ الصِّفة بزِنَةِ اسم التَّفضيل المُطْلَقِ؛ لبيان أنَّ النّار التي سيُلْقَون فيها تفوق كلَّ النّيران مهما عظُمت، ومهما كان عذابُها، فهي النّار التي تأكل نارَ البَرْزَخ، وتأكلُ نارَ الدُّنيا في شدَّة ضِرامها وقَسْوَة حَرارَتِها، وهي أعظمُ مِنْهُما بسَبْعينَ جُزْءًا[2].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3265)، ومُسْلِم في صحيحه، برقم: (2843).
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 400، والخطيب، التَّفسير القُرآني للقرآن: 16/ 1533.

### توجيهُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

تـــردُّدُ حـال مُجْتَنِب الذِّكرى بَـــيْنَ المَـــوْتِ والحياة أشدُّ من عذابه بالاحتراقِ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، وهي تَدُلُّ على أنَّ معطوفَها مُتراخي الرُّتبة في الغرَض المَسوق له الكلامُ؛ وهو شِدَّة العذاب، فإنَّ تَردُّد حاله بَيْنَ الحياة والموت وهو في عذابِ الاحتراق عذابٌ أشدُّ مِمّا أفادَهُ كونُه في عذاب الاحتراق؛ لأنَّ الاحتراق واقعٌ ضرورةً، وقد زيدَ فيهِ درجةً أنَّه لا راحة منه بموتٍ، ولا خلاصَ منهُ بحياة[1].

### دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

مُتَجَنِّبُ الذِّكرى يُعَذّب في الآخرة بـعـذاب حسّيٍّ وعذاب نفسيٍّ

أوثِر نفْيُ الموت والحياة في جُملة: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بـ ﴿لَا﴾؛ لدلالَتِه بمعناه ومبناهُ المَختوم بحرفِ المدِّ على نَفْيِهما عن مُتَجَنِّبِ الذِّكرى نفيًا قاطِعًا لا حدود له، ما يعني: أنَّه يُعَذَّب بعذابين؛ أحدُهما: حِسّيٌّ؛ وهو المُتَمَثِّل في الإحراق بالنّار، والآخر: نفسيٌّ؛ وهو المُتمثِّل في التَّردّد بَيْنَ المَوت والحياة، وبهما يبلُغُ عقابُه على تَجَنُّبِه الذّكرى قِمّتَه وذروتَه.

### دلالة التَّعبير بفعل الموتِ مادَّة وصيغة:

المـــوتُ أعـظـمُ أسـبـابِ فقدان الإحـــســـاس وأقواها

من المعلوم أنَّ الحياةَ بَعْدَ البعث أبديَّةٌ، ومِن ثَمَّ فإنَّ التَّعبير بفعل الموت يُراد به: فقدان الإحساس بعذاب النّار، وأوثر التَّعبير عن ذلك بفعلِ المَوْتِ؛ لأنَّ الموت أعظمُ أسباب فقدان الإحساس وأقواها[2]، وصَوْغُهُ مُضارِعا لِما يُفيدُهُ من التَّجدُّد الدّالِّ على أنَّ مُتَجَنِّبَ الذِّكرى لا يتجدَّد له في هذه النّار موتٌ وإن طال به المَدى[3]، ويُزاد على ذلك ما يُساعِد فيه التَّعبير بالمضارع من استحضار الصّورة المُفْزِعَة ومُحاولة تَخَيّلها، لتَعْمَلَ عملَها في تهديدِ المُتَجَنِّبين المُتَكَبِّرين وزجرِهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 135، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 286.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر، ص: 402.

### دلالة التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ومَرْجِعُ الضَّمير المتَّصل به:

مُتَجَنِّبُ الذِّكرى مُنْغَمِسٌ في النّار الكُبْرى انغماسَ المظروفِ في الظَّرف

قوله: ﴿فِيهَا﴾ في جُملة: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّقٌ بفِعْلِ الموت، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، والتَّعبير بحرف الظَّرفيَّة دالٌّ على أنَّ مُتَجَنِّبَ الذِّكرى مُنْغَمِسٌ في النّار الكبرى انغماس المَظْروف في الظَّرف، ما يعني: أنَّه مُتمكِّن منها، وأنَّها محيطَةٌ بِهِ، فلا يستطيع الخروجَ منها، ولا يُمْكِنُه الابتعاد عنها.

### نوع الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على جُملة: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، وأوثر عَطْفُهُما بالواو التي تُفيد المُصاحبةَ؛ للدَّلالة على أنَّ الحالَيْنِ منفيَّتانِ معًا عن مُتَجَنِّبي الذِّكرى، فلا هُم أمواتٌ فيستريحوا، ولا هم أحياء فيجدوا مُتَنَفَّسًا من العذاب.

### دلالة تَكْرار حرفِ النَّفي:

تـأكـيـدُ نـفـي الـحـيـاة عـن مُتَجَنِّبِ الذِّكرى في النّار كما نُفيَ عنه الموت

أعاد النَّظم الكريم التَّعبير بحرف النَّفي (لا) في جُملة: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ مع قُرْبِ العهد به؛ لتأكيد نفي الحياة عن مُتَجَنِّبِ الذِّكرى في النّار كما نُفيَ عنه الموت؛ إذْ لَو قيلَ: (ثُمَّ لا يموت فيها ويحيى) لَفُهِمَ نفيُ موتِهِ وعدَم نفي حياتِه، ما يعني عدَمَ خُلودِهِ في النّار وإمكان الخروج منها، والتَّمتُّع بحياة جديدةٍ لا ألَمَ فيها، ومِن ثَمَّ يَسْتَهينُ المُتَلَقّي بالعقاب ويَجْتَرِئُ على تجنُّب الذِّكرى.

### وجه التَّعبير بفعل الحياة مادَّة وصيغة:

مُتَجَنِّبِ الذِّكرى لا تـتـجـدَّد لـه في النّار الكُبرى حياةٌ يتلذَّذُ بها

عبر النَّظمُ الكريمُ عن الفعل المنفي بـ (لا) المكرَّرة بقوله: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ للدَّلالة على أنَّ مُتَجَنِّبَ الذّكرى لا يحيى في النّار الكُبرى حياةً حقيقيَّة يَتَنَعَّم فيها، كالحياةِ التي كان يحياها في الدُّنيا، أو كالحياة التي يحياها أهلُ الجنَّة، وهذا يعني: أنَّ نَفْسَ أحدِهم في النّار تصير في حَلْقِه فلا تخرُج منه فيموت، ولا ترجعُ إلى موضعِها

من الجسم فيحيى[1]، وعُبِّر عنه بصيغة المُضارع؛ لكونهِ مِن الأمور الحاصلة في الدّار الآخرة، ولما يُفيده المُضارع من التَّجدُّد الدّالِّ على نفي تجدُّد الحياة له بعدَ إيلاجه النّار الكبرى، والمعنى: لا تتجدَّد له حياة يتلذّذ بها؛ لأنَّه ما تزكَّى، فلا صَدَّق ولا صلَّى[2].

### بلاغَةُ الاحْتِراس في الجُمْلَة:

دَفْعُ توهُّم أنَّ الاحتراق بالنّار الكبرى لا يبلغُ مبلغَ الإهلاك

في نفي الحياةِ عن مُتَجَنِّبي الذَّكرى بعد نَفْيِ المَوْتِ عنهُم في النّار الكُبرى احتراسٌ لدَفْعِ توهُّم أن يُراد بنفي الموت عنهم: أنَّهم اسْتَراحوا مِنَ العذاب؛ لِما هو مُتَعارَفٌ مِن أنَّ الاحتراق يُهلِك المُحْرَق، فإذا قيل: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ توهَّم المُنْذَرون أنَّ الاحتراق لا يبلغ مبلغ الإهلاك، فيبقى المحروق حيًّا، فيُظَنُّ أنَّه إحراقٌ هيِّن، فيكون مَسْلاةً للمُهَدَّدين، فلِدَفْعِ ذلك؛ عُطِفَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ على ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾.

### بلاغَةُ الطِّباق في الجُملة:

مُتَجَنِّبُ الذِّكرى يحيى في النّار حياة تجمَعُ بَيْنَ المُتناقِضات

طابَقَ النَّظم الكريم في جُملة: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بَيْنَ فِعْلَي الموتِ والحياة، مع نفي كُلٍّ واحد منهُما بالحرف (لا) دون الاكتفاءِ بنَفْيِ أحدِهما، وجمعُهما مَنْفيَّين في قَرْنٍ واحِدٍ فيه دلالةٌ على أنَّ مُتَجَنِّبَ الكبيرة يحيى في النّار حياةً تجمَعُ بَيْنَ الأمور المُتناقِضَة، كما جمع باجْتِنابه الذِّكرى بَيْنَ الأمور المُتضادّة المُتَناقِضَة؛ إذْ تكلَّف حِرمان نفسِه التوّاقَّة إلى الذِّكرى، وباعد فِطْرَتَه وقلبَه الرّاغب فيها عن مواطنها، فكان جزاؤه في الآخرة أن يعيشَ حالًا ليسَت مَوْتًا بمعناهُ الحقيقيِّ، ولا حياةً بمعناها الأصليِّ، وكفى به عذابًا أن يتمنَّى الموت فلا يأتيه، ويرجو الحياةَ فلا ينالها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 135.
(2) النَّسفي، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 632، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 402.

## الفُروقُ المعجميّة:

### الخَشْيَة والخوف والوجَل:

الذِّكرى تَحْصُل مع الخَشية، ولكنَّها قد لا تحصل مع الخوفِ والوجل

الخشيةُ: خوفٌ ممزوجٌ بالتَّعظيم، وأكثرُ ما يكون عن علم بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصّ بها العلماءُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، والخوف: اضطرابُ القلبِ وحركتُه من تذكُّره المَخوف، أمّا الوَجَلُ فهو: رَجَفانُ القلب وانصداعُه لذكْر مَنْ يُخافُ سلطانُه وعقوبتُه أو لرؤيتِه(1)، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق حثِّ الرَّسول ﷺ على المُداوَمَة على الذِّكرى؛ لأنَّ الدَّوام عليها والاستمرار فيها نافِعٌ لا محالة ومُفيد لعددٍ مِنَ النّاس تَعرف الحقَّ، وتخافُ اللّه تعالى؛ ناسب التَّعبير بفعل الخشية في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَنْ كان على عِلْم باللّه تَعالى، مؤمنًا بوجوده، سيُقبل على الذِّكرى راغِبًا فيها، منتَفِعًا بها، وهذا المعنى لا يقوم به فعلًا الخوف والوَجَلُ اللَّذان لا يُشترط في حصولِهِما العلم، ومِن ثمَّ فقد لا تحصُلُ مَعَهُما الذِّكرى.

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 545، 546.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: 14 - 15]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

وَعْدُ مَن تزكَّى من دَنَسِ الشِّرك بعد وعيد مَن أعرض عن النَّظر في دلائلِ الله تعالى

لَمّا ذكر اللّه سُبحانه فيما سبق من الآيات وعيدَ مَن أعرض عن النَّظر والتَّأمُّل في دلائل اللّه تعالى؛ ناسب أن يُتْبِعه بالوعد لَمن تزكَّى وتطهَّر من دنَسِ الشِّرك[1].

بيانُ جزاءِ مَن أقبل على الذِّكرى بَعْدَ ذِكْرِ عِقابِ مَن تجنَّبَها

وبعد أن ذكرتِ السّورةُ الكريمةُ أنَّ النّاس حيال الذِّكرى فريقانِ، وبدأت ببيانِ عقاب مَنْ يتجنَّبُها تنفيرًا منه، ولأنَّ البَدْءَ به يُناسب سياق التَّخويف والتَّرهيب الذي يقصد إليه البيان؛ ناسب أن يُذكر في هاتين الآيتين جزاءُ مَنْ يخشى اللّه تعالى، وأقبل على الذِّكرى إقبال الرّاغب الحريص[2].

## ❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿أَفۡلَحَ﴾: (فلح) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلى فوْزٍ وبَقاءٍ، ومنه: الفَلاحُ، وهو: الظَّفَرُ وإدراك البُغية، وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدُّنيويّ هو: الظَّفَرَ بالسَّعادات التي تطيب بها الحياة الدُّنيا، وهو: البقاءُ والغِنى والعِزِّ، وفَلاحٌ أخرويٌّ، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعِلْمٌ بلا جَهْل، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المُجادلة: 22]، وقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1]، ومنه قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[3]؛ أي: ظَفِرَ وفازَ.

2) ﴿تَزَكَّىٰ﴾: الزّاءُ والكافُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ يَدُلُّ عَلى نَماءٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 135.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 287.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فلح).

وزيادَةٍ، ويُقالُ: الطَّهارَةُ زَكاةُ المالِ، والمعنى المحوريُّ: زيادَةُ الشَّيء في ذاته مع جودَةِ نَوْعِه، وسائر ما في القرآن من مُفرداتِ التَّركيب بمعنى: طهارة النَّفس، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشَّمس: 9] أي: زكّى اللّه تعالى نفسَهُ بالطّاعة، أو زكَّى هو نفسَه بطاعة اللّه تَعالى وصالح الأعمالِ[1].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الفوز والفلاح هو جزاء مَنْ أقبل على الذِّكرى وزكَّى بها نفسَه

في هاتين الآيتين يُؤَكّد اللّه تعالى فوز كُلِّ مَن أقبل على الذِّكرى، وانتفع بها في تخليصِ نفسِه مِن دنَسِ الشِّرك، وارتقى بها في مدارجِ الذّاكرين للّه ربِّ العالمين، وكان من الحريصين على إقامة الفُروض والنَّوافل، وحِلِّ المعاملات، وحُسْنِ الأخلاقِ.

## الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فصلِ قولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ عمّا قبله:

بيانُ جَزاءِ المُقْبِل عَلى الذِّكرى

جاءت جُملة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ مفصولة عمّا قبلها لِشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثارَتْهُ الجملةُ السّابقةُ في نفس المُتَلَقّي حول جزاء مَن أقبل على الذِّكرى وانتفع بها في تزكية نفسه وتطهيرها، ولا سيَّما بعد أن عرَف عقاب مَنْ تجنَّبها؟ فتأتي هذا الآيةُ لتبيِّن أنَّه من المُفلحين في الدُّنيا والآخرة.

### دلالَةُ التَّعْبير بـ ﴿قَدْ﴾ في المَطْلَع:

المتزكّون بالذِّكرى مِنَ المُفلِحين قَطْعًا

قولهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ جُملة خبريَّة مسوقَةٌ لبَيان جزاءِ الذين أقْبَلوا على الذِّكرى وانتفعوا بها، وقد أوثِرَ التَّعبير في أوَّلها بحرفِ التَّحقيق ﴿قَدْ﴾؛ لِما يُفيدُهُ من أنَّ الخبر الآتيَ بعدَه مقطوع به قطعًا، ومُؤَكَّد تأكيدًا يحول دون الشَّكِّ فيه أو التَّردُّد في قبوله، فليس ثَمَّةَ ما يُشَكّك في كون المُتزكّين بالذِّكرى مِنَ المُفلِحين، ولا يوجَد أحدٌ يمكنه الحيلولة بينَهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زكى)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زكو).

وبَيِّنَ ما وعَدَهُمُ اللّه تَعالى به، ما مِن شأنه أن يُثيرَ المُتلقّين إلى الإقبال على الذِّكرى، ولا سيَّما بعد أن عَرَفوا عقابَ مُتَجَنِّبيها.

**سِرُّ التَّعبير بالفِعْلِ: ﴿أَفۡلَحَ﴾ مادَّة وصيغة:**

المُتزكّون يجمَعُ الله تعالى لهم كلَّ أنواع الخير الذي تذهَب إليها نفوسُهم

عبَّر النَّظم الكريم عن جزاء المُتزكّين بالفعل ﴿أَفۡلَحَ﴾ ليجمع لهم - جزاء إقبالِهم على الموعظةِ وانْتِفاعِهم بها - كلَّ أنواع الخير التي يُمْكِنُ أن تذهَب إليها النُّفوس، فإنَّ الفلاحَ يَعْني: نجاحَ المَرْءِ فيما يطمحُ إليه، فهو يجمَعُ مَعْنَيَي الفوْزِ والنَّفع، وذلك هو الظَّفر بالمُبْتَغى من الخير[1]، وعُبِّر عن الفلاح بصيغة المُضيِّ دون المُضارع؛ ليُؤازر أداةَ التَّحقيق في تأكيد حصوله من غير شكٍّ أو ريبٍ، وضرورة عَدِّه كالأشياء التي حدثَتْ بالفعلِ.

**وجه تأكيد الجُملة بأكثَرَ مِن مُؤكِّد:**

إثــارة هـمَّـة مُتَجَنِّبي الذِّكرى إلــى الـلَّـحـاق بالمُفلحين

جاء قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ مُؤكَّدا بـ ﴿قَدۡ﴾، ومُعبَّرًا فيه عنِ الفَوْزِ والفلاح بصيغة المُضيِّ للإبلاغ في تحقيق فوْزِ المُتزكّين وتثبيتِه بما لا يدَعُ مجالًا للشَّكِّ فيه أو التَّردُّد في قبوله؛ لأنَّ الكلام موَجَّهٌ إلى الأشْقَيْن الذين تجنَّبوا الذِّكرى، إثارةً لهمَّتهم في الالتِحاقِ بالذين خَشَوا فأفلحوا[2].

**سِرُّ التَّعبير بالاسْمِ المَوْصولِ:**

الـفـوزُ والـفـلاحُ يـشـمـل جـنـسَ مَنْ تَزَكَّى

عبَّر النَّظم القرآنيُّ عن المُسند إليه في جُملة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ بالاسْمِ الموصول ﴿مَن﴾ ليعمَّ الفوزُ والفلاحُ جنسَ مَن أقبل على الذِّكرى، وانتفع بها في تزكية نفسِه، وتقوية إيمانه بربِّه، وزيادة الأعمال التي تجعله من المُفلحين في الدُّنيا والآخرة، يُزادُ على ذلك ما فيه من التَّشويق إلى جُملة الصِّلة، التي تبيِّن سَبَبَ الفلاح، حتَّى إذا وردت ثبتَتْ في أذهانِ المُخاطبين ورَسَخَتْ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 287، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 368.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 287.

### دلالة التَّعبير بفعل التَّزكية مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظم الكريمُ في جُملة الصِّلة التي توضِّحُ سببَ الفلاح بفعل التَّزكية الموضوع للزّيادة والنَّماء فقال: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ للدَّلالة على إكثار المُتَزكّين من الأعمال التي تُساعدهم في تطهير نفوسِهم من كُلِّ فسادٍ، وتعمل على نفورها من كُلِّ قبيح، والمعنى: أعْمَلَ نفسَه في تطهيرها من فاسِدِ الاعتقادات، والأخلاق، والأقوال، والأفعال، والأموال، وتنمية أعمالها القَلبيَّة والقالبيَّة، وصدقة أموالها، وذلك هو التَّسبيح الذي أُمروا به أوَّلَ السّورة وما تأثَّر عنه، مَن عمل هذا فهو الأسعد[1]، وأوثر مجيئُهُ بصيغَةِ التَّفعُّل للدَّلالة على مُبالغَتِهِم في ذلك ببَذْلِ الجُهْد، واسْتِنْفادِ الطّاقة والوُسْع[2].

المُفلحون يُبالغون في تزكية أنفسهم ما وسعهم الجهدُ والطّاقةُ

### سِرُّ تأخير بيان ثوابِ ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾:

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ النَّظم الكريم قدَّم عقابَ الأشقى تنفيرًا منه، ولأنَّ البدء به يُناسب ما يقصد إليه السّياق من تخويف الكُفّار وترهيبهم من تجَنُّب الذِّكرى والإعراض عنها، على الرَّغم مِن أنَّها لا تأتي إلّا بكلِّ يسير، وأخَّر الحديث عن جزاءِ مَن أقبل على الموعظة إقبال الرّاغب الحريص لتشويق النُّفوس إليه، وإثارة تطَلُّعها إلى معرفتهِ، حتَّى إذا ورَدَ ثبَتَ فيها ورسَخ، وعَمِلَ عَمَلَهُ في التَّرغيب والتَّحفيز.

تشويقُ النُّفوس إلى جزاء المُتَزكّين، وإثارة تطَلُّعها إليه ترغيبًا في التَّذكّر والتَّزكية

### توجيهُ العَطْفِ بالواو:

الواو في قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ لِعَطْفِ ما بعدها على جُملة: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ عَطْفَ الفرع على الأصل، أو عَطْفَ المُسبَّب على السَّبب، فإنَّ التّزكّي هو أصل العمل بذلك كلِّه وسَبَبٌ رئيسٌ فيه؛ لأنَّ النَّفس إذا تَطَهَّرَتْ أشرقت فيها أنوارُ الهداية، فعَلِمَت

النُّفوسُ إذا زكَتْ وتطهَّرتْ أشرقتْ فيها أنوارُ الهداية

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 403.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 288.

منافعها وأكثرت من الإقبال عليها، وأوثِر العطفُ بالواوِ التي تُفيد المُصاحبةَ للدَّلالة على قَرْنه التَّزكية بذِكْرِ الله تعالى قولًا باللِّسان، وعَمَلًا بالجوارحِ.

**دلالة التَّعبير بفِعْلِ الذِّكر مادَّةً وصيغةً:**

**الذِّكر نوعان؛ ذكرٌ باللِّسان، وذِكرٌ بالقلب**

التَّعبير بفِعْلِ الذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ يجوز أن يكون مِن الذِّكر اللِّساني - بكسر الذّال -، فتكون كلمة ﴿ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ مُرادًا بها: ذِكْرُ أسماء الله تعالى بالتَّعظيم، مثل قول: لا إله إلّا الله، والله أكبر، وسُبحان الله، ونحو ذلك، ويجوز أن يكون من الذُّكْر - بضَمِّ الذّال -؛ وهو حُضور الشَّيء في النَّفس الذّاكرة والمُفكِّرة، فتكون كلمة ﴿ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ دالَّة على شأن الله تعالى وصفات عظمتِه؛ فإنَّ أسماءَ الله تعالى أوصافُ كمالٍ[1]، وأوثر التَّعبير بفعْلِ الذِّكرِ ماضيًا للدَّلالة على تأكُّد قيامِه بالذِّكر، وتحقُّق إكْثارِه منهُ قولًا باللِّسان، وعَمَلًا بالجوارحِ، واسْتِحْضارًا بالقَلْبِ.

**وجهُ تعديَةِ فِعْلِ الذِّكر إلى ﴿ٱسۡمَ﴾ وليس الذّات:**

**تعظيمُ اسمِ الله تعالى طريقٌ إلى تعظيمِ ذاته**

أوثر تعديةُ فعل الذِّكر إلى اسْمِ الرَّبِّ سُبحانه دون ذاته؛ لأنَّ ذِكْرَ الاسْمِ وتعظيمَه طريقٌ إلى تعظيم الذّات، ودالٌّ عليه دلالةً بُرهانيَّة، والمعنى: ذَكَر صفاتِ المُحسِنِ إليه، فإنَّه إذا ذَكَرَ الصِّفة سُرَّ بها، فأفاض باطنُه على ظاهره ذِكْرَ اللَّفظ الدّالِّ عليها، وإذا ذَكَر اللَّفظ وهو الاسم الدّالُّ عليها؛ انطبع في قلبِه ذِكْر المُسمَّى[2].

**سِرُّ التَّعبير بوصف الرُّبوبيّة، وبيانُ مرجِع الضَّمير فيه:**

**ذكرُ المُتَزَكّين مقرونٌ باستحضارِ نِعَمِ الله تعالى والإقرارِ بإحسانِهِ**

أضاف النَّظم الكريمُ مفعولَ فِعْلِ الذِّكر إلى وصفِ الرُّبوبيَّة، المُضاف إلى الضَّمير العائد على ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، فقال: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ تسبيح المُتَزَكّي مقرون باستحضارِ نِعَمِ الله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 288.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 403.

تَعالى وفضائله عليه، مع الإقرارِ بإحْسانِهِ إليه، وثمَّةَ إشارةٌ إلى أنَّ الذي يذكرُ الإنسانُ اسمَه هو مُرَبّيه، ومُنْشِئه، والمُنعِم عليه بالإيجاد، والخَلْقِ على هذه الصّورة السَّوية(1).

### معنى الفاءِ ودلالتُها:

ذِكْرُ الله تعالى يدفع الذّاكر إلى تعظيمه سُبحانه ومزيدِ التَّقرب إليه

الفاء في جُملة ﴿فَصَلَّىٰ﴾ حرفُ عَطْفٍ يُفيد التَّسبّب والتَّرتّب؛ لأنَّ ذِكْرَ الله تعالى يدفَعُ الذّاكر إلى تعظيمِه سُبحانه، وزيادةِ التَّقرُّب إليه بجميع أنواع العِبادات، التي تُعَدُّ الصَّلاةُ عمودَها وأعظمَها؛ لأنَّها خضوعٌ وثناءٌ وتنزيهٌ وتسبيحٌ وذكرٌ(2).

### وجهُ تَخْصيصِ الصَّلاة بالذِّكر:

الصَّلاةُ أعظمُ العبادات وأجمعُها للذِّكر والتَّنزيه والخُضوع والتَّسبيح

عَبَّرَ النَّظمُ الكريم بفِعْلِ الصَّلاة قاصِدًا به: العبادات كلَّها؛ مِن صلاة وصيام وزكاة وحجٍّ، وغير ذلك من الطّاعات والنَّوافل، ووجه الاكتفاءِ بها: أنَّها أعظمُ العبادات وأجمعُها للذّكر والتَّنزيه والخضوع والتَّسبيح لله جلَّ في علاه، ويأتي بعدها كُلُّ ما يظهر فيه التَّعظيم والامتثال مِن صالح الأعمال(3)، ومِنَ المُفَسّرين مَنْ حَمَلَ التَّعبير بالصَّلاة على ظاهره، فجعل المُراد بها: الصَّلواتِ الخَمْسَ المكتوبة، وجَعَلَ المُراد بفعل الذِّكرِ الذي يسبقها: تكبيرةَ الإحرام(4)، والتَّعبير القرآنيُّ صالحٌ لذلك كُلِّه.

### دلالة التَّعبير بِفِعْلِ الصَّلاة ماضيًا:

العبادات عند المُتَزَكّي واقعٌ لا يقبَلُ الشَّكَّ

عُبِّر عن الصَّلاة بالفعل الماضي للإشارة إلى أنَّ العباداتِ كُلَّها - والصَّلاة على رأسها - لدى المُتَزَكّي الذّاكر لله تَعالى واقعٌ لا يقبل الشَّكَّ، فهو يُقيمُها ويُؤَدّيها أداءً يَنْعَكِسُ على قَلْبه وسُلوكِه، والمعنى: صلَّى الصَّلاة الشَّرعيَّة؛ لأنَّها أعظمُ الذِّكر، فهي أعظم عباداتِ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 16/ 1535.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 288.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 288.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 740.

البدَنِ، كما أنَّ الزَّكاة أعظَمُ عباداتِ المال، ومَن فعَلَ ذلكَ اسْتَراحَ مِن داءِ الإعجاب وما يَتْبَعُهُ مِن النَّقائص الموجِبَةِ لسوءِ الانْقِلاب، وكان مُتَخلِّقا بما ذُكِرَ مِن الأخلاقِ أوَّلَ السّورة؛ من التَّخلّي عن النَّقائص بالتَّزكية، والتَّحلّي بالكمالات بالذِّكر والصَّلاة؛ لأنَّه لعظمته لا يتأهَّل لِذِكْرِ ذاته إلّا مَنْ واظب على ذِكْرِ اسمِه، فلا يشقى، ولا يَصْلى النّار الكُبرى، بوعدٍ لا خُلف فيه[1].

## بلاغةُ الاحْتِباكِ في الآية:

في الذِّكرى تثبيتٌ للمؤمنين، وأخذٌ بيَدِ المُعاندين إلى طريق ربِّ العالمين

في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ احتباكٌ؛ حَيثُ ذُكِر الصَّلْيُ أوّلًا دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا، والتَّزكية ثانيًا دليلًا على حَذْفِ ضدِّها أوّلًا[2]، والتَّقدير: الذي يَصْلَى النّار الكُبرى؛ لأنَّه لم يتزكَّ، وقد أفلح مَن تزكَّى فلن يَصْلى النّار الكُبرى، وفيه دلالةٌ على أنَّ الذِّكرى هي الأساس لتزكيةِ النَّفس، وسبب الوصول إلى أعلى مراتب الفلاح، ما يؤكِّد القَصْد مِن السّياق الدّاعي إلى ضرورة المُحافظة عليها؛ لِما فيها من تثبيتٍ للمُؤْمِنين، وأخذ بيَدِ المُعانِدين إلى طريق ربِّ العالمين.

## لطيفَةُ تَقْديم الذِّكر على الصَّلاة:

ذكرُ الله تَعالى بالقلبِ أو اللِّسانِ سَبَبٌ في فعلِ الخَيْرات والإكثارِ من الطّاعاتِ

تقديم الذِّكر على الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ من باب تقديم السَّبب على المُسَبَّب؛ لأنَّ الذّكر بالقَلْبِ أو اللِّسان يبعث الذّاكر على تعظيم اللّه تعالى والتَّقرُّب إليه بجميع أنواع العبادات، وعلى رأسِها الصَّلاة[3]، وفي ذِكْرِ الصَّلاة على أنَّها الأثر المُتَرتِّب على ذِكْرِ اللّه تَعالى دلالة على أنَّ الصَّلاة، بما

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 403.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 403 - 404.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 288.

فيها مِن ولاء، وخشوع وركوع وسجود؛ هي أكملُ الوَسائِل وأعظم القُرُبات التي يَتَقَرَّب بها العبدُ إلى ربِّه سُبحانَهُ، ومِن هُنا كانت رأسَ العبادات، ومِلاكَ الطّاعات، وشريعةَ كلِّ نَبيٍّ، ودعوةَ كلِّ رسولٍ إلى قومه، بعدَ الإيمانِ باللّه سُبحانَهُ[1].

## الفُروقُ المعجميّة:

### الفلاح والرِّباح والفوز والكسْب:

الفلاح فوزٌ خالٍ مِنَ الخوف والقلَقِ وكُلِّ ما يُنَغِّص النَّعيم، وغيرُه ليس كذلك

الفَلاحُ هو: الفوزُ والنَّجاةُ، وهو اسمٌ يجمَعُ كُلَّ معاني الخير والنَّفع[2]، والرِّبح والرَّباح: زيادةٌ تتَوَلَّد عن الشَّيء من جنسه ببَعْضِ المجهود[3]، والفوز: الخلاصُ من المكروه مع الوصولِ إلى المحبوب[4]، أمّا الكَسْبُ فهوَ ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيل حظٍّ، ككسب المال، وقد يُسْتَعْمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعة، ثُمّ استجلب به مضرَّة[5]، ولمّا كان التَّعبير وارِدًا في سياق الحديث عن ثواب المُنْتَفِعين بالذِّكرى في تزكيةِ نُفوسِهم والتَّقرُّب إلى ربِّهم؛ كان التَّعبير بالفعل ﴿أَفۡلَحَ﴾ أنسب لدلالتهِ على أنَّهم يفوزون بكُلِّ ما تذهب إليه نفوسُهم مِن ألوان النَّعيم، دون أن يَعْتَرِيَهُم خوفٌ أو قلَقٌ، جزاءَ حِرْصِهم على تزكية أنفُسِهم في الدُّنيا وإقبالهم على الذِّكرى بقلبٍ خائِفٍ طامِعٍ، وهذا المعنى الدّالُّ على الفوزِ والظَّفر الخالي من الخوف والقلَقِ لا يقوم به فِعْلٌ مِنَ الأفعال المذكورة لاخْتِلاطِ السَّعادة فيها بالقَلَقِ أو سبقها بما يُخيفُ، وهو ما يُنَكِّدُ النَّعيم ويُنَغِّصه.

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 16/ 1534.
(2) الجوهري، الصِّحاح: (فلح)، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 368.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربح).
(4) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 210.
(5) الرّاغب المُفردات: (كسب).

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: 16 - 17]

## ۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

انشغال النّاس بالدُّنيا من أسباب عدم انتفاعهم بالذِّكرى

بعد أن بَيَّنت الآيات السّابقة فلاحَ من تَطَهَّر وتَزَكَّي، وشقاءَ من أعرض عن الذِّكرى، ناسب أن يُبَيِّنَ النَّظم الحكيم أنَّ كثيرًا من النّاس مشغولون بالدُّنيا معرضون عن الآخرة، وأنَّ هذا من أسباب عدم انتفاعهم بالذِّكرى، وعَدَمِ حرصهم على تزكية نفوسهم، وأنْ يُبَيِّن أنَّ الدُّنيا فانيةٌ والآخرةَ هي الباقية.

## ۞ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾: (أثر) ثَلاثَةُ أُصولٍ؛ أحدها: تَقْديمُ الشَّيْءِ[1]، ومنهُ: آثَرَه عَلَيْه: فضَّلَهُ، وأثِرَ أن يَفْعَلَ كذا أثرا، وأثر وآثَرَ، كُلُّهُ: فضَّل وقدَّم، وآثَرْتُ فُلانًا على نَفْسي: مِنَ الإيثار، وآثَرْتُك إيثارًا؛ أي: فضَّلْتُك، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: 91][2]، وقال أيضًا: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: 9] أي: يُفَضِّلون غيْرَهم بالمال على أنفُسِهم، ولو كانوا في غاية الاحتياج[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: تَخُصّون وتختارون على وجه الاسْتِبْدادِ[4].

2) ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾: (بقي) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الدَّوامُ: يُقالُ: بَقِيَ الشَّيْءُ يَبْقى بَقاءً، وهوَضِدُّ الفَناءِ[5]، وكلُّ ما في القرآنِ الكريمِ مِنَ التَّركيب بمعنى: دوام وجودِ الشَّيء؛ أي: عدم فنائهِ: إمّا في ذاته، وإمّا لأنَّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أثر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أثر).
(3) السُّيوطي: مُعترك الأقران: 2/ 166.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 405.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بقي).

كان ضِمْنَ جَمْعٍ مِن شيء، فذهب بعضُ الشَّيء أو أكثره، وبقي هو، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: 96]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي: دائمة بلا انقطاعٍ[1].

## المَعنى الإجْماليُّ:

الدُّنيا زائلةٌ، ومتاعُها زائلٌ، أمّا الآخرةُ فنعيمُها باقٍ لا يزولُ

في هاتين الآيتينِ يُخاطِبُ اللّه تعالى النّاس أجمعين - بمن فيهم الكُفّار المُعْرِضون عن الذِّكرى والتَّزكية - بما معناه: لقد بيَّنتُ لكم يا بني آدمَ ما فيه فلاحُكُم وفوزُكم، ولكنَّ كثيرا منكم لا يَسْتَجيبونَ لِما بيَّنتُه لهم، ولا يعملون بما به أمرتُهم، فيُؤْثِرون الحياةَ الدُّنيا، ويُقَدِّمون زينتَها وشهواتِها ومُتَعَها على ما ينفعُهم في آخرتهم، والحالُ أنَّ ما في الآخرة من نعيم خيرٌ وأبقى مِن حُطام الدُّنيا؛ لأنَّ الدُّنيا ومُتَعَها زائلةٌ، أمّا الآخرة فنعيمُها باقٍ لا يزولُ[2].

## الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة الالتفاتِ في الآيَةِ:

التَّنبيه إلى تناهي غضَبِ الرَّحمان، والدَّعوة إلى الإسراع بنَفْيِ الرَّذائل

في جُملة: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَةِ فيما مَضى إلى الخطاب في فِعْلِ الإيثار، وكان مُقتضى الظّاهر أن يُقال: (بَلْ يُؤْثِرونَ)، لكنَّ النَّظم الكريم عدَلَ عَن التَّعبير بأسلوب الغَيْبَةِ إلى أسلوب الخطاب؛ لأنَّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى آخرَ كانَ أحسنَ تطريةً لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه مِن إجرائه على أسلوب واحدٍ[3]، ولِما يُفيده العدولُ إلى أسلوبِ الخطاب هُنا من الإشارة إلى تناهي غضَبِ الرَّحمان، المُقْتَضي تنبيهَ النّاس بصفةٍ عامَّة والمُتَجَنّبين للذِّكرى بصفة خاصَّة إلى الإسراع بنفي الرَّذائل والخبائث، بالذَّمِّ على ما ينبغي البراءة منه، والحثِّ على ما يتعيَّن تحصيله، تحصيلًا لحُسْنِ الرِّعاية[4].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقي).
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 368.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/ 14.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 405.

### معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالاتُها:

إيثارُ الحياة الدُّنيا على الآخرة هو السَّبب الرَّئيس في الإعراض عن الذِّكرى

﴿بَلۡ﴾ في الأصل حرفُ إضرابٍ، وهي هُنا لعطف ما بعدها على ما قبلها عَطْفًا صوريًّا، فيجوز أن تكون لُمجرَّد الانتقال من ذِكْرِ المُنْتَفِعين بالذِّكرى والمُتجنِّبين لها، إلى ذِكْرِ سبب إعراض المُتَجَنِّبين وهُم الأَشْقَوْنَ؛ بأنَّ السَّبب: إيثارُهم الحياةَ الدُّنيا، وذلك على قراءة أبي عمرو ﴿بَلۡ يُؤۡثِرُونَ﴾ ظاهِرٌ، وأمّا على قراءة الجُمهور: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ﴾ فهو إضرابٌ عن حكاية أحوالِ الفَريقَيْنِ بالانتقال إلى توبيخِ أحَدِ الفَريقَيْنِ؛ وهو الفريقُ الأشقى، فالخطاب موجَّهٌ إليهم على طريقةِ الالتِفاتِ لتَجْديدِ نشاط السّامع، ولكي لا تَنْقَضيَ السّورة كلُّها في الإخبار عنهم بطريقِ الغَيْبَة[1].

مَنْ يتجنَّبُ الذِّكرى لا يكونُ مظنَّةَ تحصيلِ الفلاح

ويجوز أن يكونَ الإضرابُ إبْطالًا لِما تَضَمَّنه قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ مِنَ التَّعريض للذين شَقوا، بتَحْريضِهم على طلَبِ الفلاح لأنفُسِهم، ليَلْتَحِقوا بالذين يَخْشَوْنَ ويتزكّون، ليُبطل أن يكونوا مظنَّة تحصيلِ الفلاح؛ أي: أنَّهم بُعداء عن أن يُظنَّ بهم التَّنافس في طلب الفلاح؛ لأنَّهم يُؤْثِرون الحياة الدُّنيا، والمعنى: بل أنتُم تُؤْثِرون منافع الدُّنيا على حظوظ الآخرة، كما يقول النّاصحُ شخصًا يظنُّ أنّه لا يَنْتَصِحُ: لقَد نَصَحْتُك وما أظنُّك تَفْعَلُ[2].

### دلالة التَّعبير بفعل الإيثارِ مادَّة وصيغة:

المُشركون يُؤْثِرون الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤْمِنون بالآخرة

عبَّر النَّظم الكريمُ عَن مَيْلِ النّاس عن الآخرةِ إلى الدُّنيا بفعل الإيثارِ، فقال: ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾ لِما يدلُّ عليه من التَّفضيل والتَّقديم الذي لا يقبل الرُّجوع، والمعنى: تختارون الدُّنيا وتخصّونها بذلك على وجه الاسْتِبْداد[3]، فالمُشركون لا يتأمَّلون فيما عدا حياتِهم هذه، ولا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 289، وابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 400.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 289.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 405.

يتأمَّلون في حياةٍ ثانية؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكِّروا بها لم يُعيروا سَمْعَهُم ذلك، وجعلوا ذلك مِن الكلام الباطِلِ وهذا مَوْرِدُ التَّوبيخ[1]، وجيء بفِعْلِ الإيثار مُضارعًا للدَّلالة على تجدُّد إيثارهم الدُّنيا على الآخرة ودَوامِهم عَلى ذلكَ.

**التَّوجيه الدَّلاليُّ للقراءات الواردةِ في ﴿تُؤْثِرُونَ﴾:**

المُعرِضون عن الذِّكرى لا يستحقّون شرفَ خطابِ الله تعالى لَهُم

اختلف القُرّاء في ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ فقرأه الجُمهورُ بالتّاء، وقَرَأَهُ أبو عَمْرٍو بالياءِ[2]، وقراءة الجُمْهور فيها التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة إلى الخطاب، وغرضه: التَّوبيخ والتَّنبيه إلى التَّخلّي عن الرَّذائل والتَّحلّي بالفضائل، وقراءةُ الياء جاءَت جَرْيًا على النَّسق التَّعبيريِّ الذي بُنِيَتْ عليه السّورة من التَّعبير بأسلوب الغَيْبَةِ عنِ الأشقَيْنَ الذين يتَجَنَّبون الذِّكرى؛ لأنَّهم لا يستأهلون شَرَفَ خِطاب اللّه تعالى لهم؛ لأنَّ تجنُّبَهُم الذِّكرى دليل على سوءِ طَبيعَتِهم، وخُبْثِ طَويَّتهم، والقراءتانِ تشتركان في الدَّلالة على تناهي غضَبِ اللّه تَعالى، وتهديده لِمَن يَسْتَمِرّون على ذلكَ.

**بيانُ مرجِعِ الضَّمير المرفوع في ﴿تُؤْثِرُونَ﴾:**

الإنسان لا يخلو مِن ترجيحِ جانب الدُّنيا على الآخرة في السَّعي وترتيب المبادئِ

واو الجماعة في ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ يجوزُ أن يُرادَ به الكَفَرَةُ، فالمُراد بإيثار الحياة الدُّنيا هو الرِّضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلِّيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: 7]، ويجوزُ أن يكون الضَّمير عامًّا للنّاس أجمعين، فالمُراد بإيثارها: ما هو أعمُّ مِمّا ذُكِرَ، وما لا يخلو عنه الإنسان غالبًا؛ مِن ترجيح جانب الدُّنيا على الآخرة في السَّعي وترتيب المبادئ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 290.
(2) ابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العَشْر: 2/ 400.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 146.

### سِرُّ تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ ولطيفة وصفِها بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

معظم الغارقين في الدُّنيا يعتقدون أنَّها الحياة التي لا حياةَ بعدها

قوله: ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ مفعولٌ لفِعلِ الإيثار، و(ألْ) فيه لتعريف العَهْدِ العِلْميِّ، والتَّعبير عنها بلفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ دالٌّ على ما رسخَ في عقيدة المُسْتَغْرِقين فيها مِن أنَّها الحياة الأبديَّة التي لا حياةَ غيرُها ولا بعثَ بعدها، وفي وصفها بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ تقبيحٌ لَها وتنفير منها لإشعاره بدَناءَتِها وانحطاط رُتْبَتِها عن الحياة الآخرة، التي لا ينبغي أن تُقارن بها، والمعنى: تُفَضِّلون الحياة الحاضرةَ الدَّنيّة بالفناء اشْتِغالا بها لأجْلِ حُضورِها، كالحيوانات التي هي مُقيَّدة بالمحسوساتِ، فاسْتَغْرَق اشتغالُكُم بها أوقاتَكم، ومَنَعَكُم عَن ذِكْرِ اسم الله تعالى المُنْهي إلى ذِكْرِ الله سُبحانَهُ والمُهَيِّئُ له، وعَن تزكية نفوسِكم، فأوقعكم ذلك في شَهْوَتي البَطْنِ والفرج، وحُبِّ المال المُؤدّي إلى شَرِّ الأعمال، وتتركون الآخرة التي هي خيرٌ وأبقى[1].

### سِرُّ الاستغناءِ عن ذِكْرِ المُؤثَر عليه:

الحياة الآخرة لا تَخْطُرُ على بالِ كثيرٍ من مُؤْثِري الدُّنيا، ولا وجودَ لها في تفكيرهم

لم يذكر النَّظمُ الكريمُ المُؤثَر عليه، فلم يقل: (بل تؤثرون الحياة الدُّنيا على الآخرة)؛ لدلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ عليه، والمعنى: تُؤْثِرونَ حياتَكُم الدُّنيا على الآخرة، ولا تُفَكِّرون في حياةٍ غيرِها، كأنَّها الحياةُ الأبديَّةُ التي لا حياةَ بعدها، وفي الحَذْفِ أيضًا دليلٌ على أنَّ الحياةَ الآخرةَ لا تخطُر على بالهم، وليس لها وجودٌ في تَفْكيرِهِم.

### نوعُ الواوِ ودلالَتُها في جُملةِ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

الخَيْريَّةُ والبقاءُ وصْفانِ مُلازِمان للحياةِ الآخِرَةِ

الواوُ في جُملة: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ هي واوُ الحالِ، الدّالَّة على أنَّ صِفَتَي الخَيْريَّة والبقاء هُما حالُ الحياة الآخرة الدّائمة التي لا تنفكُّ عنها أبدًا، والمعنى: والحال أنَّ ما في الدّار الآخرة من نعيمٍ خيرٌ وأبقى من حُطام الدُّنيا، ويجوز أن تكونَ الواوُ لعَطْفِ ما بعدها

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 405.

على ما قبلها عَطْفَ الخبَرِ على الإنشاء؛ لأنَّ هذا الخبَرَ يزيدُ إنشاءَ التَّوبيخ توجيهًا وتأييدًا، بأنَّهم في إعراضهم عن النَّظر في دلائل حياةٍ آخرةٍ قَد أعْرَضوا عمّا هو خيرٌ وأبقى(1).

### دلالةُ التَّعريف بـ (ألْ) في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾:

الآخِرَةُ هيَ الحَياةُ الأبديَّة التي لا حياةَ بَعْدَها

(ألْ) في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ لتعريفِ العَهْدِ العِلْميِّ، فالمُراد بها: الدّار الآخرة التي يُحدِّثهم القرآنُ الكريمُ عَنْها ويحذِّرهم مِن تفضيلِ الدُّنْيا عليها، ولكنَّهم يَكْفُرون بها، ويُنْكِرون البَعْثَ المُفضي إليها، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها الحياة الأبديَّة التي لا نهايَةَ لَها، ولا حياةَ بَعْدَها.

### نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿خَيۡرٞ﴾ نكرةً مُنَوَّنًا:

الآخرةُ في نَفْسِها خيرٌ من الدُّنيا في جَميعِ النَّواحي والأحوال

قولُه: ﴿خَيۡرٞ﴾ خبَرٌ لـ (الآخِرَةُ)، والتَّعبير به دالٌّ على أنَّ الآخرة في نَفْسِها خيرٌ وأفضل من الدُّنيا من جميع النَّواحي، وذلك لعدَّة وجوهٍ؛ أحدها: أنَّ الآخرة مُشتمِلَةٌ على السَّعادة الجِسْمانيَّة والرّوحانيَّة، والدُّنيا ليست كذلك، وثانيها: أنَّ الدُّنيا لذاتها مخلوطَةٌ بالآلام، والآخرة ليسَت كذلك، وثالثها: أنَّ الدُّنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ مِن الفاني، ومِن ثَمَّ فلا وجه لإيثار الدُّنيا عليها(2)، وأوثر تنكيرُ الخبَرِ وتنوينُه؛ لِما يدلُّ عليه التَّنكير والتَّنوين مِنَ التَّعظيم والتَّفخيم معنىً وجِرْسًا.

### توجيهُ العَطْفِ بالواو:

البقاءُ الحقيقيُّ هو البقاءُ الذي لا نهايةَ لَهُ، ولا انْقِطاعَ لنَعيمِه

الواوُ في قوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ لعطف ما بعدَها على ﴿خَيۡرٞ﴾، وأوثِر عطفُه بالواو الدّالَّة على الاشتراك في الحُكْم للإشارة إلى أنَّ الآخرة لا تمتاز من الدُّنيا بأنَّها خيرٌ مِنها فحسبُ، وإنَّما يزاد على ذلك أنَّها أبقى وأدوم، فلا فناء لها، ولا انقطاع لنعيمها، وفي إيثار ذِكْرِ صفة البقاء أيضًا معطوفة على صفةِ الخيريَّة دفعٌ لِما قد يُتَوَهَّمُ من أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 290.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 137.

بقاء الدُّنيا إلى وقت زوالها يخلع عليها نوعًا مِن الدَّوام والبقاء، فأوثرَ العَطْفُ للإعلام بأنَّ البقاء الحقيقيَّ هو البقاء الذي لا نهايةَ لَهُ، ولا انقطاعَ لِنَعيمِهِ.

### نكتَةُ التَّعبير عن المعطوفِ باسْمِ التَّفضيل:

مَهما طالت الدُّنيا، فإنَّ الآخرة أبْقى منها وأدومُ

امتدادُ الحياةِ الدُّنيا إلى وقْتِ فنائِها قَد يخلَعُ عليها نوعًا من البقاء والدَّوام في نَظَرِ بعض قاصري الفَهْم، أو في فهم المُسْتَغْرِقين فيها، ومِن ثَمَّ أوثِرَ التَّعبير بما يَدُلُّ على بقاء الآخرة باسْم التَّفضيل (أبْقَى)؛ للإشارة إلى أنَّ الدُّنيا مهما طال بقاؤُها فإنَّ الآخرة أبقى منها؛ لأنَّ بقاء الآخرة لا انْقِطاعَ لَها، والحياة فيها لا تَنْتَهي بموتٍ ولا فناء، كما يحدثُ للدُّنيا، والمعنى: والآخرة أطْوَلُ بقاءً مِنَ الدُّنيا[1].

### السِّرُّ في عدم ذِكْرِ المُفَضَّل عليه:

الآخـــرةُ خيرٌ من الدُّنيا على الإطلاقِ

﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ اسمان دالّان على التَّفضيل المُطْلَقِ، فلم يُذكر معهما المُفَضَّلُ عليه وهو الحياة الدُّنيا؛ لدلالة السِّياق عليه، والمعنى: الآخرة خيرٌ مِن الدُّنيا على الإطلاق، ولِما يُفيدُه الحذفُ أيضًا مِن عمومِ الخيريَّة والبقاء كُلَّ النَّواحي وجميع الجوانب، سواءٌ في ذلكَ ما ذهب إليه عقلُ المُتَلَقّي، وما لم يذهَب إليهِ عقلُه، ممّا لا طاقة لهُ بإدراكه، فلا يخفى أنَّ نعيم الآخرة فيهِ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعَت، ولا خطر على قَلْبِ بَشَرٍ، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّهُ قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «قالَ اللّه تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17]»[2].

### بلاغة الاحتباك في الآيتين:

لا يُؤْثِر الدَّنيئَ إلّا الشَّخصُ الدَّنيءُ

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 290.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3244)، مُسلم في صحيحه، برقم: (2824).

احتباك؛ إذ اجتمع في الكلام مُتقابلان، فحُذِفَ من كُلٍّ منهما مُقابِلُهُ، لدلالة الآخر عليه[1]، فذِكْرُ الإيثار والدُّنوِّ أوّلا يدلُّ على التّرك والعُلوِّ ثانيا، وذِكْر الخير والبقاء ثانيًا يدلُّ على ضدِّهما أوَّلا، وسرُّ ذلك أنَّه لا يُؤْثِر الدَّنيءَ إلّا دنيءٌ، فذَكَره أوّلا؛ لأنَّه أشدُّ في التَّنفير، وذَكَرَ الخيرَ والبقاء ثانيا؛ لأنَّه أشدُّ في التَّرغيب[2].

## ❁ الفُروقُ المعجميّة:

### الإيثار والتَّفضيل:

مُـؤْثِـرو الدُّنيا يُقَدِّمونها على الآخرة، لا لمزيَّة فيها، ولكنْ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرة أصلًا

الإيثار هو: تقديم شيءٍ على آخر، أمّا التَّفضيل فهو يدلُّ على زيادةٍ في الشَّيء[3]. ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق بيان سبب عزوف كثير من النّاس عن الذِّكرى؛ ناسَب التَّعبير بالفعل ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾؛ لدلالته على أنَّ مُؤْثِري الدُّنيا يُقَدِّمونها على الآخرة، مع أنَّ الآخرة أفضلُ منها على الإطلاق، ولو عُبِّر بـ (تفضِّلون)؛ لفُهِمَ أنَّهم يقدِّمون الدُّنيا لزيادةٍ فيها، ومزايا جَعَلَتْها حقيقةً بالتَّفضيل والتَّقديم، وهذا غيرُ مُرادٍ ولا مُطابقٍ للواقعِ؛ إذ الواقعُ أنَّهم يُقَدِّمون الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرة أصلًا.

(1) الزَّركشي، البُرهان في علوم القرآن: 3/ 129.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 406.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾

[الأعلى: 18 - 19]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لا اختلاف بَيْنَ شرائعِ المُرْسَلين في الأهداف والغاياتِ

بعد أن ذكرت الآياتُ السّابقة أنَّ الوحي سيَتتابَع نزولُه على رسول اللّه ﷺ، وأنَّه سيثبُتُ في ذاكرته بمجرَّد قراءته عليه، فلن ينسى شيئًا منه؛ ليُذَكِّر به النّاس، الذين يَنْقَسِمون حيال تَذْكِرَته قِسْمَيْنِ: مُفلحون يَقْبَلونها ويَسْتَفيدون منها، وأشقياء يتَجَنَّبونها؛ لإيثارِهِم الدُّنيا على الآخرة، مع أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ ناسَبَ أن تُختم السّورةُ الكريمة ببَيان أنَّ ما يُذكِّر به النَّبيُّ ﷺ مِنَ الوحي بعامَّة، وممّا ورد في هذه السّورة بخاصَّة مُثبَتٌ في صُحُفِ الأنبياء والمُرْسَلين السّابقين، ومُثْبَتٌ كذلك في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام، ما يعني: أنَّه لا اختلافَ بَيْنَ شرائع الرُّسل والأنبياء في الأهداف والغاياتِ.

ما نزَلَ على رسول الله ﷺ ليس بدْعًا مِن الرُّسل

ومِن وجوه المُناسبة أيضًا أنَّهُ لمّا كانت هذه النَّتيجةُ - التي هي الفلاح بالتَّزكية وما تَبِعَها - خُلاصةَ الكُتُبِ المُنْزَلَة التي بها تدبير البقاء الأوَّل؛ وصَفَها ترغيبًا فيها بوَصْفِ جَمَعَ القِدَم المُستلزم للصِّحّة بتوارد الأفكار على تعاقُب الأعصار؛ لأنَّ ما مضت عليه السِّنون، ومرَّت على قبوله الدُّهور؛ تكونُ النَّفس أقبلَ للإذعان له، وأدعى إلى التِزامِه، وأفاد مع القِدَم أنَّ المُنْزَلَ عليه ﷺ ليس بدْعًا مِن الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، بل هو على مِنْهاجِهِم، فردُّ رسالتهِ مِن بَيْنِهِم لا يقول به مُنْصِف، لا سيَّما وقد زاد عليهم في المُعجزات، وسائر الكراماتِ[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 406، 407.

## شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿ٱلصُّحُفِ﴾: (صحف) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلى انْبِساطٍ في شَيْءٍ وسَعَةٍ، ومِنَ البابِ: الصَّحِيفَةُ، وهِيَ الَّتي يُكْتَبُ فيها، والجَمْعُ: صَحائِفُ، وصُحُفٌ، قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: 2 - 3]، أُرِيد بها القرآن، وجَعْلُه صُحُفًا فيها كُتُب من أجل تضمُّنه زيادةً مِمّا في كُتُبِ اللّه تَعالى المتقدِّمة، وقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني: الكُتُبَ المنزلةَ عليهِما[1].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

ما جاءَ في السّورة الكريمةِ كائنٌ ومثبتٌ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام

في هاتين الآيتينِ يبيِّن اللّه تعالى أنَّ الذي ذكرتْه السّورةُ الكريمةُ مِن فلاح مَن تزكّى، ومِن إيثار المُشركين الدُّنيا على الآخرة، كائنٌ وثابتٌ ومذكورٌ في الصُّحف الأولى، وهي صحفِ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام، التي أنزلها اللّه تعالى على هَذَيْنِ الرَّسولين الكريمَيْن؛ ليُعلِّما النّاسَ ما اشتملت عليها مِن آدابٍ وأحكامٍ ومواعِظَ[2]، شأنُهما في ذلك شأنُ رسول اللّه ﷺ، الذي أمره ربُّه بالموعظةِ والذِّكرى.

## الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الاسْتِئْنافِ في الآيةِ:

حَثُّ العِبادِ على القَبولِ والامْتِثالِ

جُملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ مُستأنفةٌ اسْتِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ أنَّ ما جاء في السّورة الكريمة مُثْبَتٌ في صُحُفِ أنبياءِ اللّه تَعالى السّابقين، ومُثْبَتٌ كذلك في صُحُفِ إبراهيم وموسى عليهما السلام، تعظيمًا له، وتفخيمًا لشأنه، وحثًّا للنّاس على قَبولِه وأخْذِه؛ إذِ الإخْبارُ بذلك مِمّا يُحفِّز النّاسَ، ويثيرهُم إلى القَبولِ والامتثالِ.

### وجْهُ تَتابُعِ المُؤكّداتِ في الجُمْلَة:

إنكارُ المُخاطبين وتكذيبُهم مَدْعاةٌ إلى الإبلاغِ في تأكيدِ ما يُساقُ لَهُم

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ مُؤكَّدا بـ: إنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صحف)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 388.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 368، 369.

والجملةِ الاسْميَّة واللّام المُزَحْلَقَة إلى الجارِّ والمجرور؛ للمُبالغَةِ في تأكيدِ الخبر؛ لكونهِ مَسوقًا للكُفّار المُكَذّبين المُنْكِرين، الذين كانوا على عِلْم برِسالَتَيْ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام[1].

**دلالة التَّعبير باسْمِ الإشارَةِ:**

ما ذُكِرَ في السّورة ثابتٌ في كُلِّ شريعة؛ لأنَّه جامعٌ لِكُلِّ خير، وهو المقصودُ بالحُكْمِ

﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارة، يجوزُ أن يكون إشارةً إلى ما ورد في السّورة الكريمة من أوَّل قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ويجوزُ أن يكون إشارةً إلى ما في السّورة كلِّها[2]، وأوثِرَ التَّعبير عن ذلك باسْم الإشارة لتَعْظيم المُشار إليه وتفخيمِه، والمعنى: هذا الوعظُ العظيمُ بالتَّسبيح الذي ذُكر في هذه السّورة، وما تأثَّر عنه من التَّزكية بالذِّكر الموجِب للصَّلاة، والإعراض عن الدُّنيا والإقبال على الآخرة؛ لأنَّه جامعٌ لِكُلِّ خير، هو ثابتٌ في كُلِّ شريعة؛ لأنَّه المقصود بالحُكْمِ، فهو لا يَقْبَلُ النَّسْخ[3].

**نوع (في) ودلالتُها:**

معاني الوحي الموجودة في سورة الأعلى ثابتةٌ في الصُّحف الأولى

(في) في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الظَّرفيَّة، التي تعني أنَّ مثل معاني الوحي الموجود في سورة الأعْلى مكتوبةٌ في الصُّحف الأولى، ومثبتةٌ بَيْنَ عبارات الوَحْيِ المُدوَّنة فيها[4].

**دلالةُ تَعْريفِ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ووجهُ جَمْعِها:**

ما جاء في سورة الأعلى ثابتٌ في الصُّحف الأولى على كَثْرَتِها

جيءَ بالاسْم المجرور: ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ مُعَرَّفًا بـ (أل) التي تُفيد العَهْدَ؛ لأنَّ المُخاطَبين كانوا يَعْرِفونَ الكُتُب التي نَزَلَت على الأنبياء السّابقين؛ أي: أنَّهم يَعْرِفون صُحُفَ إبراهيمَ وزَبورَ داودَ وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليه السلام، ويعرفون أيضًا كثيرًا من الصُّحف الأخرى، ووجهُ التَّعبير به جَمْعًا: الإشارة إلى أنَّ ما جاء في السّورة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 407، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 290.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 741.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 407.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 147، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 291.

الكريمة ثابتٌ في الصُّحف الأولى على كَثْرَتِها، كما أنَّ أبا الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام كانت له صُحُفٌ كثيرة، وكليمَ اللّه موسى عليه السلام كانت له صُحُفٌ كثيرة، هي مجموعُ أسفارِ التَّوراة[1].

### نوعُ المجاز وبلاغتُهُ في التَّعبير بـ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾:

الأسس التي جاءت بها كلُّ الشَّرائع لا تقبل التَّغيير أو النَّسخ

التَّعبير بـ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ عن الوحيِ مجازٌ مُرسلٌ علاقته المَحَلِّيَّة؛ إذِ الصُّحف هي مَحَلُّ كتابة الوحي وإثباته، والتَّعبير بها يحمل معنى الوثاقَةِ والحِفظِ الضَّروريَّين لِمثْلِ هذه الأسُسِ التي تدعو إليها جميعُ الرِّسالات، كما يَحْمِلُ معنى الاتِّفاق بَيْنَ الشَّرائع على تلك المَبادِئِ؛ لأنَّها لا تَقْبَلُ التَّغيير أو النَّسخ.

### نُكْتَةُ وصْفِ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ بـ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾:

الإثارة والتَّشويق إلى معرفةِ الصُّحف على سبيلِ التَّفصيل

المُرادُ بـ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: القديمة، التي لها السَّبق في الزَّمان، وليس المُراد: التي لم يَسْبِقْها غيرُها؛ لأنَّ بعضَ الرُّسل قبلَ إبراهيمَ عليه السلام قد أُنْزِلَت عليهم صُحُفٌ[2]، وفي وصفِها بالأوَّليَّة تفخيمٌ لها، وتعظيم لشأنها، وتشويقٌ إلى معرفتها على سبيلِ التَّفصيل.

### فائدةُ تكرار التَّعبير بـ ﴿صُحُفِ﴾ مُضافًا:

تفخيمُ شأن الموعظةِ بتأكيدِ ثبوتِها في صحُفِ أعظمِ الأنبياء الأقْدَمين

قوله تعالى: ﴿صُحُفِ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، وقد أوثِرَ تَكرارُهُ مُضافًا إلى ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، تعظيمًا لقَدْرِ الموعظة، وتفخيمًا لشَأْنِها، بتأكيدِ ثُبوتِها في صُحُفِ أعظَمِ الأنبياء الأقْدَمين[3]، صلواتُ اللّه تَعالى وسلامه عليهم أجمعينَ.

### وجهُ اصْطِفاء صحُفِ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام بالذِّكر:

ثمّةَ اتِّفاقٌ بَيْنَ أقدمِ الشَّرائع وآخرها على الأسس والمبادئ الرَّئيسة

آثَر النَّظم الكريم الاستدلالَ بصُحُفِ إبراهيم وموسى عليهما السلام دون

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 291.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 291.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 407، 408.

غيرِهما من الأنبياءِ لكونِ إبراهيمَ ﵇ أبا الأنبياء، وشريعته مِن أقدم الشَّرائع وأسبقها، وعلى غرارها جاءت شريعةُ موسى ﵇ التي تسبق شريعةَ الإسلامِ مُباشرة، ثُمَّ جاءت شريعة الإسلام، تدعو إلى الأُسُس والمبادئ التي جاءت فيهما[1].

ويجوزُ أن يكون وجهُ إيثارِ صُحُفِهما: أنَّ الأولى تَشْتَمِل على المواعظ، والأخرى تشتمل على الأحكام، ما يعني أنَّ شريعة رسول الله ﷺ والقرآنَ المُنْزَل عليه جاءَ مُتَّفِقًا مَعَهُما، جامعًا لِما فيهما مِنَ المواعظ والأحكام[2].

القرآنُ الكريم متّفِقٌ مع صحف إبراهيم وموسى ﵉ مِن المَواعِظ والأحكام، وجامِعٌ لِما فيها

ويجوزُ أن يكون مِن أسباب ذلك كونُ العربِ يَعْرِفونَهُما أكثرَ مِن غَيْرِهما، فإبراهيمُ ﵇ هو جدُّ العرب، الذين جاؤوا مِن نَسْلِ ولدِهِ إسماعيلَ ﵇، وموسى ﵇ هو أكثَرُ رسُلِ الله تعالى شُهرةً عندَهُم بعدَ جَدِّهم إبراهيمَ ﵇، وشريعته هي السّابقة مُباشرة للشَّريعة التي جاءهم بها رسولُ الله ﷺ.

العرَبُ يَعْرِفون إبراهيمَ وموسى ﵉ أكثرَ مِن غَيْرِهما

### توجيهُ العَطْفِ بالواو:

الواو في قوله: ﴿وَمُوسَىٰ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقد أوثِر عَطْفُهُ بالواو للدَّلالة على ثُبوت الموعظة التي جاءت في سورة الأعلى في صحُفِ موسى ﵇ كما ثبتت في صُحُفِ إبراهيم ﵇، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ محمَّدًا ﷺ لم يَفْتَرِ القرآنَ، ولم يأتِ به من عند نفسِه، وأنَّ ما فيه مِن مواعظَ وزواجر وأحكام هي وحيٌ أوحاه الله تَعالى إليه، ودليل ذلك ثبوتُ كثيرٍ منه في الصُّحف الأولى.

ما جاء في سورة الأعلى مُثْبَتٌ في صحف موسى كما أُثْبِتَ في صحفِ إبراهيمَ ﵉

### سِرُّ تقديم إبراهيمَ والخَتْمِ بموسى ﵉:

بدأ النَّظم الكريم بذِكْرِ رسول الله ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﵇؛ لأنَّه الأسبق

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 16/ 1536.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 408.

**الأصل في ترتيبِ ذِكرِ الأنبياء أنْ يُقدَّم الأسبقُ والأفضل**

والأفضل، ولأنَّ صُحُفَه أقربُ إلى الوعظ، وخَتَم بـ (موسَى) ﵇؛ لأنَّه الآخِر، ولأنَّ الغالب على صُحُفِه الأحكامُ، والمواعظُ فيها قليلةٌ، منها الزَّواجر البليغة، كاللَّعن لمَنْ خالَفَ أوامِرَ التَّوراة، التي أعظمُها البِشارة بمُحَمّد ﷺ، والإخبار بأنَّهم يُخالفونها، كما هو مذكورٌ في أواخرها، وذِكْرُ الرَّسولَيْنِ ﵉ جاء جاريًا على الأصل في ترتيبِ الوُجودِ والأفضَليَّة[1].

### مُناسبَةُ خِتام السّورة لمَطْلَعِها:

**تنزيه الرَّبِّ ﷻ، وتنزيه النَّفس مقصدُ سورة الأعلى**

خُتمت سورةُ الأعلى بالحَثِّ على التَّزكّي، والتَّطهُّر من الأدناس، الذي يعني: التَّنزُّه والتَّخلُّق بالأخلاق السماوية بحسب الطّاقة، وكان في إتيانه والتَّذكير به إعلامٌ بأنَّ اللّه تعالى لم يُهْمِل الخَلْقَ من البيان بعدَ أن خَلَقَهم؛ لأنَّه لم يَخْلُقْهُم سُدًى، لأنَّ ذلك مِن العبث الذي هو من أكبَرِ النَّقائص، واللّه تعالى مُنَزَّهٌ عن جميع شوائبِ النَّقص، ومِن ثَمَّ فقَدْ رجَعَ آخرُها على أوَّلها، وكان تنزيهُ الرَّبِّ ﷻ وتنزيهُ النَّفْسِ أيضًا مَقْصِدُ السّورة الكريمة[2].

## ۞ الفُروقُ المعجميّة:

### الصُّحف والكُتُبُ والقراطيس:

**الصُّحف جماعة مِنَ الأوراق، والكتاب قد يكون ورقةً واحدَةً، والقَراطيس أوراقٌ مُتفرِّقة**

الصُّحف: لا تكون إلّا جماعةَ أوراقٍ جُمع بعضُها إلى بعضٍ، والكتُب جَمْعُ كِتابٍ، والكتاب يكونُ ورقةً واحِدَة، ويكون جملَةَ أوراقٍ[3]، أمّا القِرْطاسُ فيُطْلَقُ على الورقة الواحدة، وجمعه: قراطيس؛ وهي: الأوراق المُتفرِّقة المُعَدَّة للكِتابة[4]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق تأكيد ثُبوت ما جاء في سورة الأعلى في كتُبِ الرُّسل الأوَّلين، وفي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 408.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 408.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 291.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 4/ 167.

الوحي النّازل إليهم؛ كان التَّعبير بمُفردة (الصُّحُفِ) أنسبَ للدَّلالة على ثبوت ما جاء في السّورة الكريمة من حِكَمٍ ومواعظَ وأحكامٍ في صحُفِهم وكتبهم مهما كثُرَت، ولا سيَّما صُحُفِ أبي الأنبياء إبراهيمَ وكليم الله موسىً عليهما السلام.

# سُورَةُ الغَاشِيَةِ

# سُورَةُ الغَاشِيَةِ

## التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

### المكّيُّ والمدَنيُّ وعد الآيِ:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة إجماعَ المُفسِّرين على مَكّيّتها[1]، وبذلك قال القرطبيُّ[2]، والسُّيوطيُّ[3]. وأمّا عدد آياتها فيقولُ فيها الدّانيُّ: "وهي سِتٌّ وعشرونَ آيةً في جميع العدد ليس فيها اختلافٌ"[4].

### ترتيبُ النّزول وترتيب المُصحف:

جــاء ترتيبـها المُصحفيُّ بين ســورتي الأعلى والفجر

هذه السّورة هي الثّامنة والثّمانون في التّرتيب المُصحفيُّ الشّريفُ، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظرِ والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي الأعلى والفجر، وأمّا ترتيبها النّزوليُّ، فعُدَّت السّورةَ الثّامنةَ والسّتّين في ترتيب نزول السّور، حيث نزلت بعد سورة الذّاريات وقبل سورة الكهف[5]. وقيل: بل هي السّابعة والسّتّون[6].

### فضائلُ السّورةِ:

سورةُ الغاشيةِ قرينةُ الصلواتِ فـــي أعـــيــادِ المسلمين

هذه السّورة الكريمة من سور المُفصَّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[7].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 472.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 25.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(4) الدانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 272.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 45.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 293.
(7) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطَّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).

### اسم السّورة ومُناسبة تسميتها:

وَرَدَت تسميتها بـ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ في صحيح البخاري[1] وفي جُلّ كتب السّنّة، وسُمّيت في سُنن التّرمذيّ[2] وفي المصاحف المَشرقيَّة والمَغربيَّةِ وفي جُلِّ التفاسير بـ(سورة الغاشية).

الـلـه سبحانه مُنزَّهٌ عن العَبَثِ

وقال ابن عاشور: "وربما سميت (سورة هل أتاك) بدون كلمة حديث الغاشية، وبذلك عنونها ابن عطية في تفسيره وهو اختصار"[3].

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودها: شرحُ ما في آخرِ (سبِّح)، من تنزيهِ اللّه تعالى عن العبثِ بإثباتِ الدّارِ الآخرةِ، وذِكْر ما فيها للأتقى والأشقى، والدّلالةِ على القدرةِ عليها، وأدلّ ما فيها على هذا المقصود: الغاشية"[4].

### المحور العامّ للسورة:

محورُ السّورة يقومُ على إثباتِ البعثِ والقيامةِ وبيانِ أحوالِ النّاسِ فيها

المحور الذي قامت عليه السّورة هو إثبات وقوع الغاشية التي تغشى القلوب والأبصار، وبيان أحوال النّاس عند وقوعها من خلال الحديث عن وجوههم، مستعرضةً طعامهم وشرابهم وسائر أحوالهم.

**أوّلاً:** ذكرت السورة بعض آيات اللّه الكونيّة الدّالّة عليه في الأرض والسّماء ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾.

**ثانيًا:** توجهت السورة إلى النّبيّ ﷺ من أجل تذكيرهم بأحوالِ الآخرةِ دون أن يقلق بشأن نتائج دعوته، مُعيدة لوعيد الكافرين.

### موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

اشتملت هذه السورة على الموضوعات الآتية:

(1) البخاريُّ، صحيح البخاريّ: باب: تفسير سورة (هل أتاك حديث الغاشية): 4/ 1886، والنّسائي، السّنن الكبرى، سورَةُ الغاشية: 10/ 332.
(2) الترمذيُّ، سنن التّرمذيّ، باب: ومِنْ سورَةِ الغاشيَةِ: 5/ 439.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 293.
(4) البقاعيُّ، مصاعد النّظر: 3/ 178.

مَدارُ السّورةِ يدورُ حول دعوةِ النّبيِّ ﷺ النّاسَ وتحذيرهم القيامةَ وأهوالَها

**أوّلاً:** إثباتُ وحدانيّة اللّه وقدرته وحكمته وعِلمِه بدليل خَلق السّماء والإبل والجبال والأرض وغيرها من عجائب الصّنعة الإلهيّة، وتهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم، ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم.

**ثانيًا:** الإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق اللّه وهي نصب أعينهم على تفرده بالألوهية فيعلم السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون.

**وثالثًا:** أشارت السورة إلى أهوالِ القيامة، وما يلقاه الكافرُ والمؤمن فيها من الشّقاء والسّعادة.

**رابعًا:** نبهت السورة المعرضين إلى أن وراءهم البعث فهم راجعون إلى اللّه فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم، وفي ذلك تثبيت لقلب النبي ﷺ على الدعوة إلى الإسلام وألّا يعبأ بإعراضهم(1).

## الخصائصُ الموضوعيّةُ للسورة:

تميّزت سورةُ الغاشيةِ بخصائصَ أفرَدَتها عن غيرها من السّورِ

**أوّلاً:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، حيث لم يشاركها في مطلعها بالبدء بالاستفهام سوى خمس سورٍ أخرى؛ هي: (الإنسان)، و(النّبأ)، و(الشرح)، و(الفيل)، و(الماعون)، ولم يشاركها من هذه الأسرة في الاستفهام بـ(هل) سوى (الإنسان) التي ابتدأت بقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: 1].

**ثانيًا:** تميّزتِ السّورةُ الكريمةُ بتقارب فواصِلها وشدّةِ إيقاعِها وتنوّعِها بتنوّعِ مقاطِعِها.

**ثالثًا:** شاركت سورة (الإنسان) هذه السّورةَ في عرض مشاهد المُعذَّبين والمُنعَّمين في ذلك اليوم العظيم، وشاركتها في وصايا النّبيّ ﷺ في آخرها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 294، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 30/ 202 - 203.

## الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسورة:

تميّزت سورةُ الغاشيةِ بخصائصَ أفرَدَتها عن غيرها من السّوَرِ

**أوّلاً:** برَزَت في السّورة الكريمة مُركَّباتٌ وصفيَّةٌ كثيرةٌ نذكر منها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿نَارًا حَامِيَةً﴾، و﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، و﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، و﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، و﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، و﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، و﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، و﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، و﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

**ثانيًا:** تميَّزت السّورة الكريمة بوفرة الألفاظ المُتطابقة والصّوَرِ المُتقابلة مُقارنةً بحجمها مثل: (الوجوه الخاشعة والنّاعمة)، (الجنّة والنّار)، و(العين الآنية والعين الجارية)، و(السّماء والأرض)، و(نَصْبُ الجبال وتسطيحُ الأرضِ)... وهكذا.

**ثالثًا:** تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بوفرة صيغة اسم الفاعل واسم المفعول فيها؛ مثل: ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿عَامِلَةٌ﴾، و﴿نَّاعِمَةٌ﴾، و﴿نَّاصِبَةٌ﴾، و﴿رَاضِيَةٌ﴾، و﴿لَٰغِيَةً﴾، و﴿جَارِيَةٌ﴾، و﴿مُذَكِّرٌ﴾، و﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾، وغيرها. ومن أسماء المفعول: ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾، و﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾، و﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾.

**رابعًا:** تميّزتِ السّورة الكريمة بأنّها حوت قاموسًا معجميًّا يتعلّق بألفاظ العذاب والنّعيم من مثل: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿نَّاعِمَةٌ﴾، و﴿نَّاصِبَةٌ﴾، و﴿تَصْلَىٰ﴾، و﴿نَارًا حَامِيَةً﴾، و﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، و﴿طَعَامٌ﴾، و﴿ضَرِيعٍ﴾، و﴿يُسْمِنُ﴾، و﴿جُوعٍ﴾، و﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، و﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، و﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، و﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، و﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، و﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، وغيرها.

**خامسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا لم تأت في غيرها من السّور بصيغها الصرفيّة هذه، مثل: ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، و﴿عَامِلَةٌ﴾، و﴿نَّاصِبَةٌ﴾، و﴿ضَرِيعٍ﴾، ﴿يُسْمِنُ﴾، و﴿نَّاعِمَةٌ﴾،

و﴿لَٰغِيَةً﴾، و﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾، و﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾، و﴿نُصِبَتۡ﴾، و﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾، و﴿إِيَابَهُمۡ﴾، وغيرها.

**سادسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها انفردت بألفاظٍ فريدةٍ مادَّةً وجذرًا؛ وهي: ﴿وَنَمَارِقُ﴾، و﴿وَزَرَابِيُّ﴾، و﴿سُطِحَتۡ﴾.

**سابعًا:** تميَّزت السّورةُ الكريمة بوفرةِ الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرَّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نذكرُ بعضها على سبيل التّمثيل، ومنه مطلعها كاملًا: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾... وغيرها.

### مناسبة السورة لما قبلها:

سورةُ الغاشيةِ متّصلةٌ تمامًا بسورةِ الأعلى مضمونًا وأسلوبًا

يقول الغرناطيُّ: "لمّا تَقَدَّم تنزيهه سبحانه عمّا تَوَهَّمه الظّالمون، واستمرَّتْ آيُ السّورة على ما يوضِّح تنزيه الخالِق ﷻ عن عظيم مقالهم؛ أتبع ذلك بذِكر الغاشية بعد افتتاح السّورة بصورة الاستفهام تعظيمًا لأمرها؛ فقال لِنَبيّه ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وهي القيامة، فكأنَّه سبحانه يقولُ: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتدّ تحسُّرهم حين لا يُغني عنهم، ثمّ عَرّف بعظيم امتحانهم في قوله: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ مع ما بعد ذلك وما قبله، ثَمَّ عَرَّف بذِكر حال مَن كان في نقيض حالهم إذ ذاك أزيد في القرع وأدهى، ثمّ أردفَ بذِكرِ ما نُصب من الدَّلائل كيف لم تُغْن فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ الآيات؛ أيِّ: أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلّون على الصّانع، ثمّ أمره بالتّذكار"[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 360 - 361.

وعليه فإنّ هذه السّورة مُفصِّلَةٌ لما جاء في سورة الأعلى مِن جزاء الفريقيْن، المُتَّعظين بالتّذكير والمُعرِضين عنه، وهي مؤكّدةٌ لما فيها من الأمر بالتّذكير لهم؛ إذ قال هناك: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى: 9 - 12]، وقال هنا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ
نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ
لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾

[الغاشية: 1 - 7]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تفخيمُ أمرِ الغاشيةِ التي يفترق فيها النّاسُ إلى شَقيٍّ أو سعيدٍ

لمّا هوّل اللّه تعالى أمر الغاشية بوصفِها وعمومِها؛ زادَ بالتّهويل بما ذَكر من أحوالِها في تفصيل النّاس إلى فريقيْن: أشقياء، وسعداء. وبدأ بذِكْرِ أوصاف الأشقياء أهلِ النّار؛ لأنَّ المقام لإنذار المُؤثِرين للحياة الدّنيا[1]، فقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾. ولمّا وصفَهم بهذه الصّفات الثّلاث شَرَعَ في ذِكرِ أنواعِ عذابِهم الذي لا يكون إلّا على ما يكرهه المُعذَّب[2]، وذلك ببيان أنواعِ عذابِهم في مكانِهم ومَطعمهم ومَشربِهم، فبدأ بمكانِهم[3] فقال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾. ولمّا ذكرَ الاحتراقَ بالنّار يَحضُرُ في الذّهن تطلُّبُ إطفاءِ حرارتِها بالشّرابِ[4]؛ فإنَّ مَنْ كان في أشدِّ الحرِّ أحوج ما يكون إلى ما يُبرِّد باطنَه[5]، فقال في مشربِهم: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾.

ولمّا ذكرَ ما يُسقَونَه على وجهٍ عُلِمَ أنّه لا يُلذُّ ولا يروي من عَطَشٍ[6]، يَخطُر في الذِّهن معرفة ما يطعمونه، فبيَّن طعامَهم إثرَ بيانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 2 - 3.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4 - 5.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 5.

شرابِهم[1]، فقال: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾. ولمّا ذكرَ الضَّريعَ وصَفَه ليعلَمَ أنَّه لا نفعَ فيه ولا يسدُّ جوعًا، وأنَّه تمحَّضَ للضرِّ والأذى، فقال تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾.

### ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَدِيثُ﴾: يدور معنى (حدث) على كونِ الشَّيءِ بعدَ أن لم يكن. يُقالُ: حَدَثَ أَمْرٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ[2]. وأصلُ معنى كلمة (الحديث) من طريِّ الثّمار؛ لأنَّه صار ثمرًا بعد أن لم يكن. ومنه: الرَّجلُ الحَدَثُ؛ أي: الطَّريُّ السّنِّ، والحَديثُ: الجديدُ من الأشْياء[3]، وأمّا الحديثُ من الكلامِ فمأخوذٌ من هذا؛ لأنَّه كلامٌ يحدثُ منه الشّيءُ بعدَ الشّيءِ[4]. وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمعِ أو الوحيِ في يقظتِه أو منامِه يقالُ لهُ: حديثٌ[5].

2) ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: يدور معنى (غشي) على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ. وغشيَه: سترَه. والغاشية: اسمُ فاعلٍ من الغشاءِ وهو الغطاء، والغِشاوة: ما يُغطَّى به الشّيءُ[6]، وأصل الكلمةِ من غاشيةِ السّرجِ؛ أيْ: غطاؤه[7]. والرّجل يستغشي ثوبَه كي لا يُسمع ولا يُرى، وغَشيْتُ موضع كذا: أتيته؛ لأنَّه إذا أتاه غطّاه[8]. والغاشيةُ هنا اسمٌ من أسماء القيامة، وقيل للقيامة: غاشيةٌ؛ لِأَنَّها تَعُمُّ الخلْقَ أجمعينَ[9]، أو: لأنّها تغشى الخلقَ وتُغطّيهم بإفزاعِها[10]. وكلا المَعنيَيْن صحيحٌ ومقصودٌ.

3) ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: يدور معنى (خشع) على التّطامُن والضّراعة. والخشوع يكون على الجوارح ويظهر عليها، والضّراعةُ تكون في القلب. ويُقال: خَشَعَ الرّجل يخشَع خشوعًا، إذا رمَى ببصره إلى الأرْض. واختَشَع، إذا طأطأ صَدره وتواضع. وأصل الكلمة من الخُشْعَةِ:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 297.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حدث).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حدث).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).

(5) الرّاغب، المُفردات: (حدث).

(6) الرّاغب، المُفردات: (غشي).

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).

(8) الرّاغب، المُفردات: (غشي).

(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غشي).

(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).

وهي قِطْعَةٌ مِنَ الأَرْضِ قُفٌّ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّهولَةُ. وكلُّ مُتضائلٍ ساكنٍ يُقال له: خاشعٌ[1]. و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ في الآية الكريمة بمعنى مُنَكَّسةٌ ذليلةٌ مُنكسرةٌ.

4) ﴿عَامِلَةٌ﴾: (عمل) أصلٌ يدُلُّ على جُهدٍ مادّيٍ (من حيٍّ أو جمادٍ) يؤدّي إلى إحداثِ شيءٍ أو هيئةٍ أو نقلةٍ ... إلخ؛ كعامل السِّنان يَعْمِده ويَدْعَمه في اندفاعه لمخالطةِ الضريبةِ، وكقوائمِ الدّابَّةِ تُحرِّكه إلى مكانٍ (آخر)، وكالشَّراب المخلوط هو من صُنع الإنسان وليس طبيعيًّا، وكالطريق المُعْمَل صُيّر على هذه الصِّفة بكثرة السالكين، وكالعَمَلة بأيديهم في الطين والحفر، وكذلك الزراعة والتلقيح والسَقْي، كلُّ ذلك لاستحداث أمورٍ مادّيَّةٍ أو تحصيل جديدٍ[2]. يُقال: عمِل فلانٌ العَمَل يعمَله عَمَلاً فهوَ عامل[3]، وكلُّ فعلٍ يُفعل هو عَمَلٌ. والعمل فيه تَعَنٍّ للعامل وجهد منه وقصدٌ إلى عمل شيءٍ. وكلّ فعلٍ يكون مِمَّن له حياةٌ بقصدٍ هو عملٌ، والعمل يُستعمل في الأعمال الصالحة والسّيئة والسّهلة والشّاقَّة[4]، ويعمُّ أفعال القلوب والجوارح[5]. و﴿عَامِلَةٌ﴾ في الآية بمعنى: مُكلَّفٌ بالأعمال الشّاقَّة يوم القيامة.

5) ﴿نَّاصِبَةٌ﴾: يدور معنى (نصب) على إقامة الشّيء ورفعِه مستقيمًا قويًّا إلى أعلى، ومنه: نصبتُ الرّمح، أيْ: أقمته إلى أعلى ورفعته[6]، والنّصَبُ: الإعياءُ من العناءِ وبذل الجهدِ[7]. ومَعْناهُ أنَّ الإنْسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يَعيَى[8]. والنّصَبُ التَّعبُ. وأنصبني هذا الأمر؛ أيْ: أتعبني وأزعجني[9]. و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في الآية بمعنى: مُتعبة[10].

6) ﴿تَصۡلَىٰ﴾: الصَّلْيِ - من أصل (صلي) - الإيقادُ بالنار[11]. وصَلَيْتُ الشاةَ: شويتها

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 15/ 200.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عمل).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عمل).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 616.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(9) الرّاغب، المُفردات: (نصب).
(10) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 472.
(11) الرّاغب، المُفردات: (صلا).

بالنّار، وهي مَصْلِيَّةٌ. وصَليَ الكافرُ النار: احترق بها وقاسى حرَّها[1]. يُقال: أصليتُ الشّيءَ إصلاءً، إذا ألقيته في النّار تريد الإحراق[2]. والصِّلاءُ: ما يُصْطَلَى بِهِ وما يُذْكَى بِهِ النّارُ ويوقَدُ[3]. وصَلَيْتُ العودَ بالنّارِ إذا أدرتَها لتليينها تريد تقويمها[4]. وصَليت بالأمر أصلَى بهِ: إذا قاسَيْت شدّتَه وتَعَبه[5]. وتصلى نارًا بمعنى تدخل النّارَ وتذوق شدَّة حرِّها.

7) ﴿حَامِيَةً﴾: (حمي) أصلٌ يدُلُّ على الحرارةِ المُتولِّدة من الجواهر المحميَّة، كالنّار والشَّمس، ومن القوّة الحارَّة في البدن[6]، وحَمْوُ الشمس وحَميُها - بالفتح فيهما - : حَرُّها. وقد حَميَت الشمسُ، والنارُ، والتّنّورُ - كرَضِي: اشتدَّ كُلُّ منها. والمعنى المحوري لها: حدّةٌ بالغةٌ في الشَّيء تمنع الاقتراب منه: كالحرارة للشمس والنار[7]. و﴿حَامِيَةً﴾ في الآية الكريمة بمعنى: شديدة الحرارة. فهي متوهِّجةٌ من شدَّة الحرِّ[8].

8) ﴿تُسْقَىٰ﴾: يدور معنى (سقي) على تحصيل الماء ونحوه من المائع في الجوف بإنفاذه إليه، كما في شُرب الماء[9]. والسّقيُ إشْرابُ الشَّيْءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ. تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أَسْقيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُهُ، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا[10]. وسقاية كلِّ شيءٍ يكون بالشّراب[11]. والسَّقْيُ والسُّقْيا: أن يُعطيه ما يشرب. وهو المعنى المقصود في الآية.

9) ﴿عَيْنٍ﴾: (عين) أصلٌ يدُلُّ على دائرةٍ ينفذ منها لطيفٌ لامعٌ دائمُ الجريان عن مختزَنٍ كثير[12]؛ فمن ذلك العينُ يَدُلُّ عَلَى عُضْوٍ بِهِ يُبْصَرُ ويُنْظَرُ، مستديرةٌ وتمتدُّ منها وإليها أشعَّةُ قوَّة الرؤية. ومن ذلك: اليَنبوع الَّذي يَنْبع من الأرْض ويجْري[13]. وإنَّما سُمّيَتْ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلا).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلا).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلا).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(6) الرّاغب، المفردات: (حمى).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حمو - حمى).
(8) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 473.
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقى).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقى).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سقى).
(12) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عين).
(13) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عين).

عَيْنًا على الاستعارة تَشْبيهًا لَها بالعَيْنِ النّاظِرَةِ لِما فيها من الماء ولِصَفائِها[1]. وهي المقصودة في الآية الكريمة.

10) ﴿ءَانِيَةٍ﴾: (أني) أصلٌ يدُلُّ على إدراكِ الشَّيء، وبلوغ الشَّيءِ منتهاه. يُقال: انتظرنا إنَى اللَّحْم؛ أيْ: إدْراكَهُ. وتَقولُ: ما أنَى لَكَ ولَمْ يَأْنِ لَكَ؛ أيْ: لَمْ يَحِنْ. و"أنَى الماءُ المُسخَّن يأني" إذا أدرك غايته في الحرِّ وبَلَغَها[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ ٤٤﴾ [الرحمن: 44]؛ أيْ: بلغ إناه وغايته من شدّة الحرِّ. و﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾: قد تناهى حَرُّها وبَلَغَ أشُدَّه[3].

11) ﴿ضَرِيعٍ﴾: (ضرع) أصلٌ يدُلُّ على رخاوةٍ أو رِقَّةٍ بالغتان مع تَدلٍّ؛ أيْ: دُنوٍّ ومقاربة من الحصول في الحيز: كحال الشّاة والنّاقة المُضْرِعَتين: رخاوةُ ضَرْعيهما وتدلّي الضَّرعيْن يدُلُّ على قُربِ النَّتاج[4]؛ وكذلك الضَّريع، اسمٌ لنبتٍ لائطٍ بالأرض، ينمو بالحجازِ، فإذا كان رطبًا سُمّيَ بالشِّبْرِقِ، تأكله الإبل والدوابُّ ما دام رطبًا فإذا هاجَ ويبس صار له شوكٌ وسُمّيَ بالضّريع، وتَركَت الدوابُّ حينئذٍ أكْلَه، ولم تقرّبه وعافَتْه لِخُبثه وبشاعتِه وكثرة ما عليه من الشّوك[5]. فمِن أوصافه أنَّه نباتٌ أخضرُ مُنتِنٌ خفيفٌ، ففيه مع الرَّخاوة دُنوُّ القيمة. وليس للكفّار في النار أكلٌ غير الضّريع، فإذا أكلوا منه غصّوا[6].

12) ﴿يُسْمِنُ﴾: يدور معنى (سمن) على امتلاء البدن وغِلَظِه[7]. والسِّمَن نَقيضُ العجَفِ والهُزال[8]، وسَمِنَت الماشية سَمانةً: كثُر لحمُها وشَحْمُها[9]. والسِّمَنُ: زيادةُ البدنِ من الشَّحم واللَّحم[10]. و﴿لَّا يُسْمِنُ﴾؛ أيْ: لا يسمن بدن الكافر من الهُزال.

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآيات ترغيبٌ للمُخاطَبين فيما تُحمَد عاقبتُه، وتحذيرٌ عمّا يذمُّ فيها، وتبيينٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (إنى).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 341.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرع).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ضرع)، والماتريديُّ، تأويلات أهل السُّنَةِ: 10/ 509.
(6) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 721.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سمن).
(8) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سمن).
(9) الوسيط: (سمن).
(10) الكرمانيّ، لباب التَّفاسير، ص: 848، وأبو حفص النسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/ 405.

أنّ العاقبة المحمودة مُتَّصلةٌ باكتساب المرءِ وكدحه، وكذلك العاقبة المذمومة ينالها بعمله ونَصَبِه[1]. فيقول اللّه تعالى: هل بلغك يا محمَّد ﷺ نبأُ القيامة التي تغشى النّاسَ بأهوالِها وشدائِدها؟ فتفصيل شأنَ النّاسِ في ذلك اليوم هو أنْ تكونَ وُجوهٌ ذَليلةً يظهر عليها الخزي والهوان - وهي وجوه الكفّار -، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ من شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلّا من نبت الضّريع. أو تشبيهًا له بمرعى السّوء الذي تعافُه الإبل السّائمة ولا تأكله لأذاه وضرّه، ثمّ بيّن أذاه وضرَّه فذَكَر أنَّ هذا الطّعام لا يُسمِنُ آكِليه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا من ألمِ الجوعِ[2].

العاقبةُ محمودةً كانت أو مذمومةً متّصلةٌ بعمل المرء وكسبِه ونصبه

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ الاستفهامِ بـ ﴿هَلۡ﴾:

يحتمل أن يكون الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ على حقيقته، وهو استفهامٌ صوريٌّ، لا يُقصد منه الجواب بنعم أو لا، بل هو استفهامٌ تشويقيٌّ. يُكنَّى به عن أهمّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأنُه أنْ يكونَ بلَغَ السّامعَ[3]، فيكون من مجاز الاستفهام، يُقصدُ به تحريكُ نفوس السّامعين إلى تلقّي الخبر، وتشويقهم إلى الحديث عنها؛ وتعظيمًا لشأنِ الغاشية، بما ذُكر من خَبَرِها[4]. وفي التّعبير بالاستفهام والجواب عنه إشارةٌ إلى أنَّ تعليم حديث الغاشية نعمةٌ عظيمةٌ، وأنَّ معرفتَها وأحداثَها مطلوبٌ، فيكون من قبيل تعديد النّعم. فلولا إخبار اللّه تعالى به لَما عَلِمَه رسولُ اللّه ﷺ ولَما علمَه النّاس. فالمقصود هو تعريفُ الرّسول ﷺ والنّاس تفاصيلَ

تعليمُ حديثِ الغاشيةِ نعمةٌ عظيمةٌ، ومعرفةُ أحداثِها مطلوبٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 10/ 508.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 457 - 465، والمراغيّ: تفسير المراغيّ: 30/ 132.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 765، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 148.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 523.

أوصاف الغاشية وأحوالَ مَن فيها مِن فريقَي الطّائعين والعاصين؛ ليأخذوا أُهبتَهم ويتزوّدوا لها. فالسِّرُّ اللطيف، والمعنى البديعُ في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام أنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أنْ يخبِرَ مخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ ينبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهن له، صَدَّرَ له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سَمعَهُ وذِهنَهُ للخبر، فتارةً يُصدِّره بـ"ألا"، وتارةً يُصدِّره بـ"هل"، فيقولُ: هل علمتَ ما كان من كيتَ وكيتَ؟ إمّا مُذكّرًا به، وإمّا واعظًا له مُخوِّفًا، وإمّا مُنبِّهًا على عَظَمَةِ ما يُخْبَر به، وإمّا مُقرِّرًا له. فقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ [النّازعات: 15]، و﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: 21]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات: 24] مُتضمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصص، وللتَّنبيه على تدبُّرها، ومعرفة ما تضمَّنته[1].

حديثُ الغاشيةِ مُـقـرَّرٌ حـاصـلٌ قريبُ الوقوعِ

ويحتمل أن يكونَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ على معنى التّقرير؛ أيّ: قد أتاك حديث الغاشية[2]؛ وعبّر بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لتأكيد تقرير إتيان حديث الغاشية المذكور في هذه السّورة وتقريبِ وقوعِه. فالمعنى: (قد شارف إتيانُه)[3]؛ وكأنَّ كلَّ ما يتعلّق بوصف الغاشية سيكون حديث هذه السّورة. ومن فوائد التّقرير بأداة الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ حديث الغاشية أمرٌ عظيمٌ وأنَّه ينبغي الإيمانُ به وتلقّيه بالقبول. ولمّا كانت صيغة (قد فعل) على معنى أنَّ الأمرَ كان متوقَّع الحصول فحصل[4]؛ كان قولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ على معنى أنَّ حديث الغاشية مُتوقَّعٌ وقوعُهُ وأنَّه مُتحقّقُ الوقوعِ لا شكَّ فيه. وفي التّعبير بالاستفهام على معنى: (قد أتاك) إشارةٌ كذلك إلى الرَّدِّ على المُنكِرين الذين استأخروا

(1) ابن قيّم، الرّسالة التّبوكيّة، ص: 73 - 74.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 230.

(4) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 5/ 92.

وقوعَها. فاجتمع في صيغة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ على معنى (قد أتاك) تحقُّقُ وقوع حديث الغاشية وتقريبُ وقوعِه والإخبارُ عن عظيم شأنِه، وأنَّه ينبغي تلقّيه بالقبول وعدم إنكارِه. وفيه كذلك تعجيبُ السّامع ممّا سيذكر بعد، وتشويقُه إلى استماعِه لِعظَمِه وفخامتِه، ولِما يَترتَّبُ عليه من الموعظةِ.

### سِرُّ إيثارِ الفعلِ (أتَى) دون (جاء):

الإتـيـانُ بالغاشيةِ يسيرٌ عند الله تعالى مع كونِها داهيةً عظيمةً

عُبِّر بالفعل (أتى) في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ دون أن يُقال: (هل جاءك حديث الغاشية)؛ لِما يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالإتيان مِن سهولةِ الأمر ويُسرِه؛ فضلًا عن بيان تحقُّق وقوعِ الغاشية وقُربه؛ فهي مع كونِها داهيَةً تعمُّ الخلقَ كلَّهم ومع عِظَم أهوالِها، لكنَّ الإتيان بها سهلٌ ويسيرٌ عند اللّه تعالى. وأيضًا لمّا كان الكلام في الإخبار عن حديث الغاشية ولمّا كان الخطاب موجَّهًا إلى رسولِ اللّه ﷺ؛ ناسب التَّعبيرُ بلفظٍ يدُلُّ على السّهولة واليسر تشريفًا لمقام الخطاب، في حين أنَّه تعالى لمّا أخبر عن وقوعِ الطّامَّة والصّاخَّة وليس الحديث عنها ولم يكن الخطابُ موجَّهًا إلى رسولِ اللّه ﷺ قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾ [النازعات: 34]. وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾ [عبس: 33]، للإشارة إلى أنَّ مجيئَها شديدٌ على النّاس.

### دلالةُ عَودِ ضمير الخطاب في ﴿أَتَىٰكَ﴾:

إخـبـارُ رسـولِ الله ﷺ بحديث الغاشية عَلَمٌ من أعلامِ النُّبوَّةِ

يعود الضَّمير في ﴿أَتَىٰكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ إلى الرَّسول ﷺ، ويدخل فيه كلُّ مُخاطَبٍ تبعًا. وإنّما جاء الكلام بطريق الخطاب لأشرَفِ خَلقِه ﷺ؛ لأنَّه يكون أكثرَ أثرًا في تحريك النُّفوس إلى تلقّي الخبر بالقبول وأعظمَ في تقدير أتباعه[1]، فإنَّ تقديرَ المتبوع تقديرٌ لأتباعِه. وفي خطاب نبيِّ اللّه ﷺ أيضًا

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 22/ 2.

تنبيهٌ على أنَّ إتيان هذا الحديث إليك - يا محمَّد - عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة؛ فإنَّ حديث الغاشية من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك حديثُها من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلّا مِنْ قِبَلِنا؟[1].

**دلالةُ توجيهِ الخطابِ إلى الرَّسولِ ﷺ:**

المُكذِّبُ بنبوّته ﷺ هـو من أهـلِ الشّقاءِ، والمُصدِّقُ بها من أهلِ النّعيم

عُلِمَ من سياق توجيه الخطابِ إلى الرّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ أنَّ الوجوهَ الأولى في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وجوهُ المكذّبين بالرّسول، والوجوه المذكورة بعدها في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ وجوه المؤمنين المُصدِّقين بما جاء به[2].

**سرُّ إيثارِ مُفردةِ ﴿حَدِيثُ﴾ دون غيرها:**

حديثُ الغاشيةِ مـن الأخـبـارِ البـديعـةِ التي ينبغي التَّحدّثُ بها

عُبِّر بمُفردة ﴿حَدِيثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ دون أن يُقال: (هل أتاك خبرُ الغاشية) أو ما يقرب منها؛ لمناسبةِ المُفردة للمقام، وبيانُه أنَّه لمّا كان الحديثُ هو الخبرَ المُتحدَّثَ به، فهو بصيغة (فَعيل) بمعنى (مفعول)، أو هو الخبر الحاصلُ بسبب حِدثانٍ؛ أيْ: ما حدثَ من أحوالٍ[3]، كان التّعبير بمفردة ﴿حَدِيثُ﴾ للإشعار بأنَّ الإخبار عن الغاشية وما يقع فيها من أهوالٍ هو من الأحاديث البديعة التي حقُّها أن يتناقلها الرّواة، ويحفظها النّاسُ ويتنافسون في تلقّيها والحديث عنها من كلِّ حاضرٍ وبادٍ[4].

**نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾:**

الظّاهر أنّ المُراد من ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ

(1) ابن قيم الجوزية، الرّسالة التّبوكيَّة، ص: 74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 150.

القيامةُ تعمُّ العالَمَ كلَّه بشدائدِها وتُلبسُه أهوالَها

حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ القيامة[1]، كما في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: 55]؛ وذلك لذِكرِ السورة ما يقعُ في يوم وقوعِها. كما أنَّه ذَكَرَ الشَّقيَّ والسَّعيد عند تفصيلِ أحداثِها. وعبّر عنها بالغاشية إشارةً إلى وصفِها الذي تكون عليه؛ لِأَنَّ ما أحاطَ بالشَّيْءِ من جميع جهاتِهِ فهو غاشٍ لهُ، والقيامة كذلك لمجيئِها بغتةً، ولأنّها تعمُّ العالَمَ كلَّه بشدائدها وتُلبسُه أهوالَها، وتجلله، فتغشى النّاسَ من الأوّلين والآخرين وتجللهم. فلا يرون غيرَها ولا يستطيعون أن يفرّوا منها، لأنّها أتتهم فغشيتهم. كما أنَّ في التّعبير بالغاشية إشارةً إلى أنَّها لعظيم شدَّتِها وأهوالِها يُكره ما يقعُ فيها؛ لأنَّ الغشيانَ لا يكون إلّا فيما يُكره[2]. كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: 55]. ويُحتمل أن يكون المُراد من الغاشية: النّار[3] من قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]؛ والمعنى: تأتي النّار فتغشى أصحابَها وهم الكفّار، فتغطّيهم فلا يرون شيئًا غيرَها ولا يستطيعون أن يفرّوا منها، وتأويل الغاشية بالقيامة أقربُ؛ وهو رأي أكثر المُفسِّرين[4]؛ لأنَّ ما سيُروى من حديثِها ليسَ مختصًّا بالنّارِ وأهلِها؛ بل ناطقٌ بأحوالِ أهلِ الجَنَّةِ أيضًا، ذَكَرَ أنَّه يوم إذ تغشاهم الغاشية يكون بَعۡضُ النّاسِ في الشَّقاوَةِ، وبَعۡضُهُمۡ في السَّعادَةِ، فذَكَر أحوال أهلِ النّار وأحوال أهل الجنَّة[5]. فالغاشية هي التي تعمُّ الفريقيۡن، وهي القيامة.

فجاء لفظ ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التبعيَّة،

---

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 23/ 456، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 741.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 22/ 2.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 457، وأبو حفص النَّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 520.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 138، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 148.

بتشبيه حدثِ القيامة بالغاشية. ووجهُ الشَّبَه هو أنَّ حَدَث القيامة يُغطّي النّاس كلَّهم: الصَّغير والكبير، والشَّقيَّ والسَّعيد تغطيةً مُتمكّنةً منهم بأهوالِها وشدائِدِها، مع مباغتتها على النّاس، فإذا حصلت لم يجد النّاس مفرًّا من أهوالِها. وهو حالُ مَن تعمُّ تغطيتُه بشيءٍ لا يمكنه الخروج منه. فكأنَّها غاشٍ يغشى عقولَهم[1].

الغــاشــيــةُ هــي الـداهـيـةُ الـشـديـدةُ الـتي تـغـشـى الـنّـاسَ كلَّهم وتُغطّيهم بشدائِدِها

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾:

﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ اسم فاعلٍ مُؤنَّثٌ من مصدر الفعلِ: (غَشيَ)، وهو عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على ساعةِ القيامةِ، كما يُؤْذِنُ بذلك قولُه عَقِبَهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾. ولم يُستعمل اللفظُ إلّا بالتّاء؛ والتّاء اجتمعت فيها ثلاثة معانٍ: الأوّل تأنيث اللفظ، لتأويلِ الغاشية بالحادثة العظيمة[2]، والثاني: معنى المبالغة في الغشيِّ، فتكون مثل تاء الدّاهية والطامّة والصّاخَّة التي للمبالغة؛ أيْ: للإشارة إلى كمالِ الوصفِ؛ فهي الدّاهية الشَّديدة التي تغشى النّاسَ كلَّهم وتُغطّيهم بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها. والثالث: نقل اللفظ من الوصفيَّة إلى العلميَّة، فيكون اسم الغاشية فيه معنى الصّفات الغالبة، و(أل) في الغاشية تحتمل أن تكون للعهد الذّهني[3]، وذَهَبَ أبو حيّان إلى أنَّها اسمٌ موصولٌ باسم الفاعل، بتقدير: التي غشيت[4]؛ لينتظم عود التّنوين في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ إلى أن يكون تنوين عوضٍ عن جملة سبقت؛ أيْ: (يومَ إذْ غشيت).

تــشــويــقُ الـمُـخـاطَـبـين لـلـحـديـثِ عن أحـوالِ الـنّـاسِ يومَ الغاشيةِ

### علّةُ ذِكْرِ ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ مِن غيرِ ذِكْرِ (اليوم):

قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، ولم يَقُلْ: (هل أتاك حديث يوم الغاشية)، فلم يذكر اليوم واقتصر على الوصف؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 295.
(3) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 2168.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 461.

تعريف الحديث بطريق الإضافة إلى الوصفِ بالغاشية دون ذِكْر الموصوف وهو (يوم) هو إبهامٌ لزيادة التّشويق إلى بيانِه الآتي في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ ليتمكّن الخبرُ في ذهن المخاطبين تمامَ التمكّن[1]، فيُسألُ بعد ذلك عن ما يقع من الأحوال على النّاس في ذلك اليوم. كما أنَّ الحديث عن الشّيء أوّل ما يكون في ذِكْر حقيقتهِ ووصفِه. قبل ذِكْرِ وقتِه وزمانِه. وفي موضعٍ آخر من القرآن لمّا كان المقصود بيان الوقت وعظم ما يقع في ذلك الزّمان، عبّر بيوم القيامة فقال: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة: 6]، ثمَّ قرّر معنى التنبّه على ما يقع في وقتِها بذِكْر ظرف الزّمان الشّرطيِّ فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧﴾ [القيامة: 7].

### دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾:

بيـانُ صفةِ الغاشيةِ بعد التَّشويق لمعرفتِها

يحتمل أن تكون جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا لتكون جوابًا عن سؤالٍ نَشَأ من الاستفهام التَّشويقيِّ. كأنَّه قيلَ من جهته ﷺ (ما أتاني حديثُها، فما هو؟) فقيلَ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾[2]. ويحتمل أن تكون مُستأنفَةً استئنافًا نحويًّا لبيانِ ما تَضمَّنَتهُ من وجود وجوهٍ في ذلك اليوم مُتَّصفةً بهذه الصِّفة المذكورة[3].

### سِرُّ البدءِ بذِكْرِ وجوهِ أهلِ الشَّقاوةِ:

تقديمُ ذِكْرِ أهلِ الشقاوةِ أدخلُ في تهويلِ الغاشيةِ وتفخيمِ حديثِها

بَدَأ السياق القرآنيُّ بذكر وجوه أهل الشّقاوة في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ لمناسبة تصدير الكلام بالغاشية، فتقديمُ ذِكْرِ أهل الشقاوة أدخلُ في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها. ولأنَّ حكاية حُسن حالِ أهل الجنَّة بعد حكاية سوء حالِ أهلِ النار ممّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 148.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 520.

يزيد المَحكيَّ حُسنًا وبهجةً[1]، كما أنَّ المقام لإنذار المُؤْثرين للحياة الدنيا[2] الذين يتجنّبون الذّكرى بالقرآن، فقُدِّمَ ما هو الأوْلى بالتّقديم لمناسبة المقام.

**بلاغةُ التّعبيرِ بـ(الوجوه) بين المجازِ المُرسَل والكنايةِ:**

إذا استحكم الحزنُ والسُّرورُ في المـرءِ؛ ظهرَ أثرُهما في الوجهِ أوَّلًا

يحتمل أن يكون التّعبير بالوجوه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ على طريق المجاز المُرسَل بذِكْر الجزء وإرادة الكلِّ، فذَكَرَ الوجوه وأراد الذّوات[3]، وهم الكفّار؛ لأنَّ ما ذُكر من الأوصاف لا يختصُّ بالوجوه، بدَليلِ أنَّهُ تَعالَى وصَفَ الوُجوهَ بأنَّها ﴿خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾، وذلك من صِفاتِ الإنسان، وسببُ التّعبير بطريق المجاز المرسل بذِكْر الوجوه والإخبار عنها بالأخبار المذكورة في الآيات - دون أن يُقال: فريقٌ من النّاس أو ما يقاربه في المعنى من الدِّلالة على الذّات كلِّها - هو أنّه لمّا كان الوجهُ أشرفَ الأعضاءِ وكان الخشوع يظهر في الوجه أوَّلًا؛ علَّقه به، فيكون في ذِكر الوجه وصفٌ للغايةِ التي هم عليها من الذُّلِّ والخسران؛ أيْ: إنَّه خصَّ الوجه بالذّكر مع الفريقيْن؛ لأنَّ الحزن والسُّرور إذا استحكما في المرء ظهر أثرهما فيه أوَّلًا[4]. فهو كقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾.

ويحتمل أن يكون ذِكْر الوجوه على طريق الكناية عن أصحابها، إذ يُكنَّى بالوجهِ عن الذّات[5] كقوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرَّحۡمَٰن: 27]، وقرينة ذلك هنا قوله بعده: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ إذْ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ جَماعَةَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 327.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 3.

(3) السّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 840، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 229، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 200.

(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 508، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 138، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 10/ 508.

(5) حقّي، روح البيان: 10/ 413.

العُقَلاءِ. وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابِها في هذا المقام وخُصَّت بالذّكرِ؛ لأنَّ الحزن والسُّرور إذا استحكما في القلب أثَّرا في الوجه. والوجهُ أوَّل ما يظهر فيه أثر النّعيم أو الشَّقاوة؛ فيكون في ذِكْر الوجه وصفٌ للغاية التي هم عليها من الذُّلِّ والخسران(1).

وأجاز ابن عاشور أن يكون إسناد ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ من قبيل الإسناد العقليِّ؛ والمعنى: أصحاب وجوه(2).

### نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿وُجُوهٌ﴾ وجمعِها:

وجوهُ أهلِ الشّقاءِ الخاشعةُ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ

لمّا كان لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ مبتدأً، وكان الأصل في المبتدإ أن يكون معرفةً؛ كان مجيء لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ نكرةً مُنوّنًا بقصد التّنويع والتّكثير، فيكون في حُكم النّكرة المُخصّصة؛ والمقصود: بيانُ نوعٍ من أنواع الوجوه التي يكون النّاس عليها يوم تغشى الغاشية. ففيه معنى التّفصيل؛ فيقتضي من ذِكر الوجوه بقصد التّنويع ذِكرَ نوعٍ آخر وهو المذكور في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٌ﴾، وجاء اللفظ بصيغة الجمع للدلالة على كثرتها(3)، والمعنى: (وجوهٌ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ).

### فائدةُ تقديمِ ظرفِ الزّمانِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ على عاملِه:

يومُ الغاشيةِ يخيبُ فيه أهلُ الشّقاءِ ويظهر فيه ذلُّهم وصغارُهم

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ قُدّمَ ظرفُ الزّمان ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ الدّالُّ على يوم وقوع الغاشية على خبر المبتدإ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ العامل فيه، للاهتمام بذلك اليوم؛ لأنَّه ظرفٌ لِما يقع فيه من أحداث الغاشية. وفي التّقديم إشارةٌ إلى تخصيص ما يقع بأهل الشّقاء من الأوصاف المذكورة بذلك اليوم، فهو اليوم الذي يخيبون فيه ويظهر فيه ذلُّهم وصغارُهم. وفي تقديم ظرف الزّمان ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ على

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 508.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 295.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 295.

﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أيضًا إشعارٌ بأنَّه ظرفٌ لجميع الصّفات المُخبَر بها؛ أيّ: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فضلًا عن رعاية الفاصلة ومناسبة رؤوس الآي(1).

**دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:**

باب التوبة مفتوحٌ لا يوصد

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أُضيف لفظ (يومَ) إلى (إذٍ) الاسميّة الزّمانيّة الدّالّة على المستقبل للإشارة إلى أنَّ الغاشية وما يقع فيها من أحداثٍ وما يكون عليه أهل الشّقاء إنّما يكون في المستقبل، ففيه تنبيهٌ على أنَّه ما يزال في الوقت بقيَّة للرّجوع إلى الإيمان والتّوبة.

**دلالةُ حذفِ الجملةِ المُعوّضة عن تنوين (إذٍ):**

وجوهٌ خاشعةٌ يومَ الأهوالِ الغاشيةِ

التنوينُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ عوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ مدلولٍ عليها باسم الفاعلِ من الغاشية، لِما في لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ من الدلالة على لَمْحِ أصل الصّفة، وتقديره: (يومَ إذ تغشى النّاس)، أو: (يوم إذ تغشى الغاشية)(2).

**بلاغةُ الاستعارةِ التّهكّميّةِ في قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾:**

لمّا ترك الكافرون الخشوعَ لله كان جزاؤهم خشوعَ مَذَلَّةٍ وخُسرانٍ

لم توصف الوجوه بالذُّلِّ ابتداء في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ بل قال ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، لِما في الإخبار بوصفها بالخشوع من الإشارة إلى التّهكّم بها، فيكون في الكلامِ استعارةٌ تهكّميَّة، للإشارة إلى أنَّها لم تخشع في وقتٍ ينفع فيه الخشوع(3). فلمّا تركوا الخشوع للّه كان جزاؤهم خشوعَ مَذَلَّةٍ وخُسرانٍ(4). وفي وصفِ الوجوه بأنَّها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ إشارةٌ إلى معانٍ مجتمعةٍ، فهي ذليلةٌ مُخبِتةٌ من الخجلِ

---

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 230.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 765، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.

(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 230.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.

والفضيحةِ والخوف والخسرانِ والحسرة التي لا تنفع في مثل هذا الوقت[1]. ويُطلقُ الخشوعُ على المَذَلَّة المقترنة بالحسرة والخجل والفضيحة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشّورى: 45] وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ [المعارج: 44][2].

**نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ وصوغِها اسمَ فاعلٍ:**

غَلَبَةُ الذُّلِّ وطولُ مُدَّتِهِ

جاء لفظ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ خبرًا لـ(الوجوه) في صيغة النّكرة، للإشعار بعَظَمَةِ ذلِّها وكثرتِه، وصيغَ على هيئة اسم الفاعل للإشعار بأنّ وصف الوجوه بالخشوع مُلازِمٌ لها لا ينفكُّ عنها. فصار الخشوع وصفًا لازمًا لها، فهي دائمةُ الخشوع والذُّلِّ.

**دلالةُ الإخبارِ عن الوجوه بالوصفيْن: ﴿عَامِلَةٞ﴾ ﴿نَّاصِبَةٞ﴾:**

أهـل الشّـقـاء يتعبون في النّار ويخوضون فيها صعودًا وهبوطًا

دَلَّ الإخبارُ عن الوجوه بأنَّها ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ على أنَّها يوم القيامة تعمل عملًا شاقًّا، وأنَّها من شدَّة عملِها ومشقّته تنصب وترهق منه. والمعنى: (تَعمل في النّار ما تتعب فيه كجرِّ السلاسل وخوضها في النار كخوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادِها، أو ارتقائها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حدورٍ منها)[3]. وهذا الوجه من التفسير يفيد أنَّ العمل والنّصب كلاهما يوم القيامة، وهذا هو الظّاهر من دلالة قوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾. وذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ لكلِّ وصفٍ في قوله: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ وقتًا خاصًّا به، والمعنى: (عاملةٌ في الدّنيا بأعمالٍ لم تنفعها فنصبت يوم القيامة)؛ أيْ: (عملت في الدنيا بالمعاصي وأكثرت منها ونصبت في الآخرة)؛ فيكون فيه تبيين العمل والجزاء[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 307.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 509.

### بلاغةُ الاستعارةِ التّهكُّميّةِ في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾:

نَـصَـبُ أهـلِ الشّقاءِ في الدّنيا فـي المعاصي يورِثُهم النَّصَبَ في النّار يومَ القيامة

في التّعبير بقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ استعارةٌ تهكّميَّةٌ[1] لأهل الشّقاء كذلك، فإنَّه لمّا لم تعمل هذه الوجوه في طاعة اللّه في الدنيا، أعملها اللّه تعالى وأنصبها في الآخرة بجرِّ الأغلال والسلاسل في النار الحامية[2]. فجزاؤهم عملُ مشقَّةٍ ونَصَبٍ وإرهاق[3]. وذهب ابن عاشور إلى أنَّ في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعريضًا لأهل الشّقاء[4]. فيكون من قبيل بلاغة التّعريض تحذيرًا لأهل الشّقاء في الدنيا ممّا يصيبهم يوم القيامة.

### علّةُ تقديمِ ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ﴿نَّاصِبَةٌ﴾

قُدِّمَ الإخبارُ بـ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾؛ لأنَّ النّصب يكون بعد العمل الشّاقّ، فيكون الإخبار بوصف ناصبة بيانًا لحاصل ما يصيبها من مشقّة العملِ[5].

### نكتةُ تنكيرِ ﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ وصوغِهما اسما فاعلٍ:

عـمـلُ أهـلِ الشّقاءِ ونصبُهم دائمان في النّارِ

جاء اللفظان ﴿عَامِلَةٌ﴾، و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ نكرتَيْن لإفادة التّكثير والتّعظيم، بمعنى أنَّ عَمَلَ أصحاب الوجوه ونَصَبها كثيرٌ وعظيمٌ. وعبّر بهما على هيئة اسم الفاعل للإشارة إلى أنَّ ذيْن الوصفيْن ملازمان للوجوه، فهي تبقى أبدًا في العملِ المتعب والنَّصَب المرهق يوم تغشى الغاشية. والمعنى: (عملها ونصبها دائمان في النّار).

### دلالةُ تَنَوُّعِ التَّوجيهِ النَّحويِّ لجملةِ ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾:

تكثيرُ الأخبار تكثيرٌ للمعنى لبيانِ ما يقع على أهلِ الشّقاءِ من عظيمِ الأهوالِ

الظّاهرُ أنَّ جُملة ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ والجملتيْن اللّتيْن بعدها

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 509.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351.

من قوله: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ خبرٌ آخر لـ﴿وُجُوهٌ﴾، فتكون مِن قَبيل تَعَدُّد الأخبار لمبتدإٍ واحدٍ[1]، لتكون كلُّ جملةٍ خبرًا آخر للوجوه، فيكون قد أخبر عن الوجوه بستّة أخبار، وكلُّ خبرٍ يُعبِّر عن حالةٍ من حالات أهل النّار. وفي تعدّد الأخبار تكثيرٌ للمعنى وبيانُ تَنوُّعِ مُقاساة أهل النّار في جميع أحوالِهم فيها. كما تحتمل جملة ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ وما بعدها أن تكون نعتًا لـ﴿نَّاصِبَةٞ﴾، بمعنى أنَّها وصفٌ لنصَبِ الوجوه، للخبر بما تقاسيه من صليها في النّار وصعودِها ونزولِها في دركِها وما ترهق به في شربِها وطعامِها. وهذا التّوجيه هو ظاهر كلام الواحدي في قوله: "ثم ذَكَرَ نَصَبَها فقال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾"[2]. كما تحتمل جملة ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ أن تكونَ استئنافًا مُبَيِّنًا تفاصيل أحوالِها؛ أيّ: تفاصيل ما أخبر به عن الوجوه في كونها خاشعةً عاملةً ناصبةً.

### دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَصۡلَىٰ﴾ مضارعًا:

أهــلُ الـشّـقـاءِ يدخلون في عمقِ النّارِ مغمورون فــيــهــا وهــي محيطةٌ بهم

دلَّ الفعل ﴿تَصۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ على دخولِ أصحابِ الشّقاء في النّار، وعبّر بـ﴿تَصۡلَىٰ﴾ للإشعار بدخولِهم في عمقِ النّار، وذلك بأن يكونوا مغمورين فيها وهي قد أحاطت بهم؛ لأنَّ الصّلي هو أن يحفر قومٌ حفرةً فيجمعوا فيها جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاةٍ فيدسّونها وسطها، فأما ما يُشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التّنّور، فلا يُسمَّى مصليًّا[3]. فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 148، وحقّي، روح البيان: 10/ 413، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 516.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 460.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742.

﴿أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 55]، وقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزُّمر: 16][1].

وأفاد التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَصْلَىٰ﴾ استمرار صليهم بالنّار وتجدّده وقتًا فوقتًا فضلًا عن تصويره لحالة الصّلي بالنّار في النَّفس كما تقعُ، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدًا للهيئة. ترهيبًا وتخويفًا للسّامعين من الحالةِ ليحذروا من أن يفعلوا فعل أهل الشّقاء.

### توجيهُ القراءةِ القرآنيةِ للفعل ﴿تَصْلَىٰ﴾:

يوقنُ أهلُ النّارِ أنْ لا مصير لهم إلّا إلى النّار، سواء دخلوا أو أُدخلوا فيها

قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، ويعقوب (تُصْلَى) بضم التاء بصيغة المبني للمفعول. وقرأ الباقون ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء بصيغة المبني للفاعل[2]، وتوجيه قراءة (تُصْلَى) بصيغة المبني للمفعول هو أنَّها تُصلَى في النّار قهرًا، زيادةً في العذاب والحسرة والألم؛ أيّ: يصليها مُصْلٍ على أيسر وجهٍ وأسهله بأمرِ مَنْ له الأمر بأن يغمسها قهرًا على وجه الإحاطة بها، وتوجيه قراءة ﴿تَصْلَىٰ﴾ بصيغة المبني للفاعل هو أنّها تدخل النّار بنفسِها، لعلمِها انّه ليس لها مصير إلّا إلى النّار؛ أيّ: تدخل النّار وتباشرها بأن يدسَّها فيها أصحابها، فتُحيط بها النّار من كلِّ جانبٍ وهو يدلُّ على غاية الذُّلِّ؛ لأنَّ مَن فعل بنفسه هذا لا يكون إلّا كذلك[3].

### فائدةُ تقييدِ الفعلِ ﴿تَصْلَىٰ﴾ بالنّارِ وتنكيرِه:

زيـادةُ تهويلِ العـذابِ وتعظيمُ أمرِه

لمّا كان الصّلي لا يكون إلّا بالنّار - فيُقال: صلي يصلى؛ إذا أصابه حرُّ النّار - كان إسناد الفعل ﴿تَصْلَىٰ﴾ إلى النّار في قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ لِزيادةِ التَّهْويلِ والإرهابِ، وليُجْرَى على ﴿نَارًا﴾

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 406.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 140، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4.

وصْفُ ﴿حَامِيَةً﴾[1]. وجاء بلفظ ﴿نَارًا﴾ نكرةً منوّنًا لتعظيم أمرِها، فهي نارٌ عظيمةٌ مهولةٌ ليست كنارِ الدّنيا.

### سِرُّ وصفِ (النّار) بـ﴿حَامِيَةً﴾ وتنكيرِه:

نـارُ جـهـنَّـم متناهيةٌ في الحرِّ

لَمّا كانت النّار لا تكون إلّا حاميةً - فالحميُ من لوازم ماهيَّة النّار - كان وصفُها بالحامية في قوله: ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ على خلاف ما هو مُتعارفٌ في الكلام مِن وصفِ الشّيء بما هو من لازمِه؛ فيكون القصد من الوصف بقوله: ﴿حَامِيَةً﴾ نكرةً إفادةَ تجاوز حرِّها المقدارَ المتعارف بين النّاس، والدلالةَ على شدّة الحمَى. والمعنى: (هي متناهيةٌ في الحرِّ)، ومثله في وصفِ النّار بما هو لازمٌ لها قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهُمَزَة: 6][2].

### سِرُّ صوغ ﴿حَامِيَةً﴾ اسمَ فاعلٍ:

عبّر بصيغة اسم الفاعل ﴿حَامِيَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ للإشعار بأنّها دائمةُ الحميِ، ففي التّعبير إشارةٌ إلى مفارقتِها لنار الدّنيا، بمعنى أنَّها ليست كنارِ الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها[3].

### نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿تُسْقَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

أهـلُ الـشّـقـاء يُـسـقَـون من سـاقٍ قـهـرًا لا رغبةً فيه

أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تُسْقَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ استمرارَ سقيِهم من عينٍ آنيةٍ وتجدّده وقتًا فوقتًا. وفي التّعبير بصيغة المضارع أيضًا تصويرٌ للحالةِ حتَّى يكاد السّامع أن يكون مشاهِدًا لهيئةِ سقيِهم لترهيب المُخاطَبين وتخويفًا لهم من أن يفعلوا فعل أهل النّار.

سـقـيُ أهـلِ الشّقاءِ من عينٍ آنـيـةٍ زيـادةٌ في العذابِ

وعُبِّر بالسّقي دون الشّرب للفرق بين الفعليْن، فإنَّ السّقي هو أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 292.

تُعطيَ الشراب لغيرك، والشّرب هو تناول الشَّراب بنفسِك؛ فعبّر بالسّقي للإشارة إلى أنَّ سقيها من عينٍ آنيةٍ يكون بفعل فاعلٍ على سبيل إهانتِهم وإذلالِهم، فإنَّ مَن يُقدِّم الشّراب القبيح يقصَد منه إهانة مَن يشربُ وإذلالَه؛ لأنَّها تُسقى من ساقٍ قهرًا لا رغبةً فيه؛ ولهذا جاء التّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول ﴿تُسۡقَىٰ﴾. كما أنَّ السّقي لا يكون إلّا بعد الحاجة إليه بخلاف الشّرب؛ ولهذا ذُكِرَ السّقي بعد ذِكْرِ الاصطلاء بالنّار؛ لأنَّ ذِكْرَ احتراقِها بالنّار يدلُّ على الحاجة إلى أن تُعطى ما يُبرِّد باطنَها، ويُحضِرُ في الذّهن تطلُّبَ إطفاء حرارتِها بالشّراب، فجُعِلَ شرابُهم من عينٍ آنيةٍ زيادةً في العذاب[1].

**سقيُ الشّراب من عينٍ آنية أمارةُ الذُّلِّ والإهانةِ وزيادةُ التّعذيبِ**

ولمّا كان السَّقيُ لِما لا كُلفةَ فيه والإسقاء لِما فيه كلفة[2]؛ كان في التّعبير بلفظ السّقي بصيغة المبنيِّ للمفعول في قوله: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ دون الإسقاء إشارةٌ إلى أنَّ أهلَ الشّقاء مُستسلمون لِمَن يسقيهم، فلا يتكلّفون ردَّهم ولا يمانعون سقيهم؛ لِحاجتِهم إلى ما يُبرِّدُ باطنَهم، فيتوهّمون أنّهم إن سُقوا بردت أجوافهم وذهبت حرارة لهبِ النّار منهم. ففي التّعبير إيماءٌ إلى التّهكّم بهم.

ومن أسرار التّعبير بالسّقي دون الإسقاء أنَّ السّقيَ إعطاءُ مَن تسقيه ما يشرب، والإسقاءُ أن تَجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء[3]؛ فالإسقاءُ فيه دمج العطاء بالمنَّة والتّكريم، لأنَّ الإسقاء هو أن تجعل له ما يُسقى منه ويشرب؛ فلمّا كان الأمر كذلك كان في التّعبير بلفظ ﴿تُسۡقَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ سقيَهم الشّراب من عينٍ آنية على سبيل الذُّلِّ والإهانة، وفيه زيادةُ التّعذيب، لأنَّ السّقي من عينٍ آنية شيءٌ زائدٌ على الاصطلاء بالنّار.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.

(2) الكفويّ، الكلّيات، ص: 113.

(3) الرّاغب، المُفردات: (سقي).

**معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَيۡنٍ﴾:**

حرفُ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ لابتداء الغاية؛ بمعنى (يبدأ سقيها من عينٍ آنية، ويأتيها الشّراب من هذه العين الحارَّة القبيحة).

**نكتة تنكير ﴿عَيۡنٍ﴾:**

سُمّيَتْ العينُ عَيْنًا على الاستعارة، تَشْبيهًا لَها بالعَيْنِ النّاظِرَةِ لِما فيها من الماء ولِصَفائِها. وجاء بها نكرةً مُنوّنًا في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ لتهويل شأنِ هذه العين التي تكون في النّار.

**سرُّ وصفِ العينِ بـ﴿ءَانِيَةٖ﴾ وتنكيرِه:**

العـينُ الآنـيـةُ هي التي بلغت غايتَها في الحرِّ، فنضجت غايةَ النُّضجِ

لَمّا كان الآني هو الشّراب - من ماءٍ أو غيرِه - الذي قد انتهى في الحرِّ غايته حتى لا حرَّ أحرُّ منه، كان وصفُ العين بـ﴿ءَانِيَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ هذه العينَ بلغت غايتها في الحرِّ، فنضجت غايةَ النُّضج، فيُسقون من عينٍ آنيةٍ لا هنيَّئةٍ ولا مريئةٍ[1]. والمجيء باللفظ نكرةً منوّنًا لتعظيم حرارة هذه العين؛ ففي التّنكير معنى التّهويل.

**توجيهُ إعرابِ قولِهِ: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾:**

ذكرُ نوعِ الطعامِ بعد الشّرابِ

الظّاهر أنَّ جملة ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ خبر بعد خبر للمبتدإ ﴿وُجُوهٞ﴾ - كما تقدَّم - فيكون من قبيل تكثير معاني الخبر عن أصحاب أهل النّار، وأجاز بعض المُعربين أن تكون جملة ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ كلامًا مستأنفًا مسوقًا للإجابة عن سؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سبق، كأنه قيل: (وما هو طعامهم بعد ما ذكر شرابهم؟)، فقيل: (ليس لهم طعامٌ إلّا من ضريعٍ)[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 509، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 5.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 458.

### وجه النفي بـ﴿لَّيۡسَ﴾:

لا طعامَ لهم أبدًا غير الضريعِ

لمّا جاءت الأفعال ﴿تَصۡلَىٰ﴾، و﴿تُسۡقَىٰ﴾ بصيغة المضارع لتصوير الحالة؛ ناسب مجيء النّفي بـ﴿لَّيۡسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ لتُفيد نفي الحالِ. كما أنَّ النّفي بـ﴿لَّيۡسَ﴾ يُفيد نفي اتّصاف الخبر بالمبتدأ على جهة الاستمرار بقرينة السّياق. والمعنى استمرارُ نفي أيِّ طعامٍ لهم يطعمونه إلّا من ضريعٍ.

### معنى (اللام) في ﴿لَهُمۡ﴾:

لامُ ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ﴾ للاختصاص؛ بمعنى ليس لهم طعامٌ مختصٌّ بهم إلّا من ضريع، فهو طعامهم الذي يتناولونه على الدَّوام.

### سرُّ العدولِ عن ضميرِ الإناثِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

اختلافُ الضَّميرِ باختلافِ نوعِ الموصوفِ

التَّأنيث في الصّفات والأفعال السابقة: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾، و﴿تَصۡلَىٰ﴾، و﴿تُسۡقَىٰ﴾ راجعٌ إلى الوجوه، وكان الظّاهر أنْ يُقال: (ليس لها طعام إلّا من ضريع)، لكنَّ الكلام جاء على خلافِ مقتضى الظّاهر فجاء الضّمير ﴿لَهُمۡ﴾ بصيغة جمع الذّكور العقلاء، فقال: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾، ففيه عدولٌ في عود الضّمير ليكونَ عائدًا إلى مُضافٍ مُقدَّرٍ إلى الوجوه؛ أيْ: (لأصحابِ الوجوه)، أو إلى الذّوات على طريق المجاز كما تقدَّم. وسببُ العدول إلى ضمير جمع العقلاء هو الانتقال من التّعبير عن حالِ أهل الشّقاء وما يقع عليهم في النّار، إلى التَّعبير عن وصف طعامهم في النّار دون وصف حالتِهم عند فعلِ الإطعام فيها؛ ولهذا لم يَقُلْ: (لا تُطعم إلّا من ضريع)، أو: (لا تأكل إلّا من طعامٍ من ضريع). فلمّا ذَكَر وصفَ الطّعام الذي يكون لهم في النّار؛ ناسب التّعبير بالضّمير الذي يعود على الذّات.

### نكتةُ تنكيرِ ﴿طَعَامٌ﴾:

جاء لفظ ﴿طَعَامٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ نكرةً في سياق النّفي ليُفيد العموم في الكمِّ والنّوع، بمعنى: (ليس لهم أيُّ طعام قليلًا أو كثيرًا، أو أيَّ نوع منه إلّا من ضريعٍ).

### بلاغةُ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾:

إذا كانت الإبلُ والبهائمُ تعافُ هـذا الـطـعـامَ فـأحـرى أن لا يأكلَه الآدميّون

في قوله: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ جاء الاستثناءُ بـ(إلّا) متَّصِلًا، وهو الظّاهر كما نصَّ عليه أبو حيّان[1]؛ لأنَّ الطّعامَ يُطلَق على ما يُستلَذُّ وما يُكرَه. ولمّا كان الاستثناء منفيًّا جاز في ﴿مِن ضَرِيعٖ﴾ أن يكون مرفوعًا على البدل من ﴿طَعَامٌ﴾، أو أن يكون منصوبًا على أنَّه مُستثنى[2] على أصلِ الباب. وعلى كلا الوجهيْن يفيد أنَّ لهم طعامًا وهو الضّريع - أيْ: الشَّجر ذو الشّوك الذي تعافُه الإبل لضرره وقُبحِه - ليس بمُسمنٍ ولا مُغنٍ من جوعٍ. وأفاد تقييدُ الاستثناء بقولِه: ﴿مِن ضَرِيعٖ﴾ أنَّه ليس لهم طعامٌ في أيِّ حالٍ من أحوالِهم في النّار، وفي أي وقتٍ مِن أوقاتِهم فيها، وفي أيِ موضعٍ يتقلّبون فيها إلّا من ضريعٍ. ويُحتمل أن يكون الاستثناء مُنقطعًا إن حُمِل الكلامُ على أنْ ليس لهم طعامٌ أصلًا؛ لأنَّ الضّريعَ ممّا لا يُؤكل؛ أيْ: إذا كانت الإبلُ والبهائم تعافُهُ فأحرى أن لا يأكلَه الآدميّون. فعلى هذا لا يندرج الضَّريعُ تحت معنى ﴿طَعَامٌ﴾، إذ هو ليس بطعامٍ[3]. وسيأتي تفصيلُ المسألة أكثرَ في توجيه المُتشابه اللفظيّ.

### بلاغةُ تضافرِ قصريْن في الآيةِ:

إنكارُ النّارِ وما يكون فيها من عذابٍ جهلٌ كبيرٌ بالله وبصفاتِه

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ مؤكَّد بقصريْن، لأنَّه تضمَّن القصر بطريق النّفي والاستثناء، وبطريق تقديم المُسند

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.
(2) المنتجب، الكتاب الفريد: 6/ 385.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.

﴿لَهُمۡ﴾ على المُسنَد إليه ﴿طَعَامٌ﴾. ولمّا كان القصر بالنّفي والاستثناء يُسلك مع مخاطَبٍ تعتقد فيه أنَّه مخطئٌ وتراه يصرُّ على خطئِه؛ أفادَ القصرُ بطريق النّفي والاستثناء في جملة ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ تقريرَ إنكار الكفّار للنّار وما يكون فيها من أحوالٍ وأهوالٍ عظيمةٍ. ففيه إشعارٌ بجهلِهم في إنكارِهم وإصرارِهم عليه. كما أفاد القصرُ الحصرَ بمعنى إثبات الطّعام الذي يكون من ضريعٍ لهم ونفي ما عداه. وسيأتي بيان المقصود بنفي ما عداه من الطّعام لأهلِ النّار في مسألة توجيه المُتشابه اللفظيّ.

### معنى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن ضَرِيعٖ﴾:

الضَّريعُ هو الشّجرُ الذي في النّار، والغِسْلين هو الذي يسيلُ من هذا الشّجرِ

الظّاهر أنَّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٖ﴾ بيانيَّةٌ، فيكون الضّريع بيانًا للطّعام. وأجاز بعضُ المُفسِّرين أن تكون ابتدائيَّةً، فيكون المعنى: (لهم طعامٌ يؤخذ من ضريع). فيكون المقصود من الضّريع الشّجر الذي في النّار، وهذا الشّجر هو الذي يسيل منه الغِسْلين الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ [الحاقّة: 35 - 36]؛ أيْ: (ليس لهم طعامٌ إلّا ما يخرج من ضريع)، والخارجُ هو الغسلين[1].

### نكتةُ تنكيرِ ﴿ضَرِيعٖ﴾:

جاء لفظ ﴿ضَرِيعٖ﴾ نكرةً منوَّنًا لإفادة التّحقير؛ بمعنى أنَّه نبتٌ حقيرٌ لضررِه وعدمِ نفعِه، فهو نباتٌ تأكله الإبل فإذا يبِسَ تَرَكَته.

### بلاغةُ الآيةِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الضّريع هو الشّجر الذي فيه شوكٌ، أو هو ما يضرُّ ويُكره من الطّعامِ

في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ دلَّ أسلوبُ الحصر على إثبات طعامٍ من ضريعٍ لأهلِ النّار؛ فيحتمل أن يكون المُرادُ أنَّ حقيقة الطّعام من الضريع، ويحتمل أن يكون على سبيل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.

المجاز أو الكناية بأن يكون قد أراد أنَّ هؤلاء قوم يقتاتون ما يضرُّهم وما يكرهونه وما لا يشبعهم، وضربَ الضريع لهم مثلًا؛ أو يعذّبون بالجوع كما يُعذَّبُ مَن قوتُه الضريع[1]. فيكون قد ضرب لهم مثلًا ممّا يفهمون ويعلمون؛ لأنَّ الضّريع هو نبات تأكله الإبل فإذا يبس تَركَته وعافته ولم تأكله ولو لم يكن كذلك لأنكروه. وفي حديث ابن عبّاس أنَّه كأظفار الهِرِّ[2].

### دلالةُ الوصفِ بجملةِ ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾:

**أكلُ الضّريعِ زيادةٌ في العذابِ**

جاءت جملة: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ صفةً لـ﴿ضَرِيعٖ﴾، لبيان أنَّ هذا الضّريع ليس من شَأنِه الإسمانُ أو سدُّ الجوع كما هو شأن طعام الدُّنيا، والقصد من الوصف تشويهه، وأنَّه تمحّض للضرِّ[3]. فهو شيءٌ يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم. وأكلُه إنّما هو زيادةٌ في العذاب عليهم؛ لأنَّه لا استعداد لهم وهم في النّار للسّمن والإشباع ولا إفادة لهم مِن جهة طعامِهم[4].

### وجه النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

أفادت ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي﴾ نفي الحال والاستقبال؛ بمعنى نفي إسمان طعام الضّريع لأهل النّار وإغنائِهم من جوعٍ في حالِ أكلِهم منه وفي ما يُستقبل؛ والمقصود استمرار هذه الحالة عند أهل النّار.

### دلالة التّعبير بقوله: ﴿لَّا يُسۡمِنُ﴾:

**لا يعود الضّريعُ على آكليه بسِمَنٍ يُصلِح بعضَ ما التفحَ من أجسادِهم بالنّار**

السِّمَنُ زيادة البدن من اللّحم والشّحم ووفرته. ويُقال: أَسۡمَنَهُ الطّعامُ، إذا عاد عليه بالسِّمَنِ. ولمّا كان سمن البدن من الطّعام يدلُّ لزومًا على الانتفاع من الطّعام ومدِّ البدن بالقوّة وحفظ الصّحة

---

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 49.
(2) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التفسير: 15/ 320.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 149.

والتَّرفُّه والتّلذّذ. كان نفي الإسمان عن الضّريع في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ نفيًا لهذه الأوصاف كلِّها؛ فلا يعود الضّريعُ على آكليه بسِمَنٍ يُصلِح بعضَ ما التفحَ من أجسادِهم بالنّار[1].

### وجهُ العطفِ بالواوِ:

إذا خلا الطّعام من الإسمانِ والإغناءِ من جوعٍ فهو شيءٌ مكروهٌ منفورٌ عنه

أفاد العطف بالواو في قوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ الجمع بين نفي إسمانِ الضّريعِ ونفي إغنائِه. فالواو لمنعِ الخلوِّ؛ فإذا خلا الطّعام منهما عُلِمَ أنَّه شيءٌ مكروهٌ منفورٌ عنه[2]. فأفاد العطفُ أنَّ منفعتي الطّعام - وهما إفادة القوّة المعبّر عنه بالسِّمَنِ، وسدُّ الجوعِ المُعبّر عنه بالإغناء من الجوع - منفيّتان عن الضّريع[3]. ففي هذه الجملة إشارة إلى أنَّ إفادة القوّة في البدن اللّازمة من الإسمان غيرُ سدِّ الجوعِ، وأنَّ سدَّ الجوعِ غيرُ إفادة القوّة في البدن.

### سببُ تأخيرِ نفيِ الإغناءِ عن نفيِ الإسمانِ:

استلزامُ الثاني للأوّلِ دونَ العكسِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تأخّر نَفيُ الإغناءِ من الضّريع عن نفي الإسمانِ منه، للتوسُّل بنفي الإغناءِ إلى التّصريح بنفي كلا الأمريْن؛ إذ لو قُدِّمَ نفي الإغناء لَما احتيجَ إلى ذكر نفي الإسمانِ ضرورةَ استلزامِ نفيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيّاه بخلاف العكسِ، وفي تأخير نفي الإغناء مراعاةٌ للفاصلة ورؤوس الآي[4].

### نكتةُ تكريرِ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾:

أُعيد حرف النّفي (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ لإفادة نفي إغناءِ الضّريع من الجوعِ على الاستقلال، فلمّا جمع مع نفي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 149.

الإسمان دلَّ على خُلوِّ الطّعام من الإسمان ومن الإغناء. وفي تكرير (لا) تأكيدٌ للنّفي كذلك[1].

**دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾:**

لمّا كان الغَناء بمعنى الإجزاء والكفاية ودفع الحاجة[2] وكان الفعل ﴿يُغۡنِي﴾ من (أغنى)؛ دلَّ التّعبير بنفي الإغناء في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ على أنَّ أهلَ النّار يجوعون. وأنَّهم في حاجةٍ إلى سدِّ جوعِهم. وأنَّ طعامَ الضّريع لا يَسدُّ جوعَهم. وعبّر بالإغناء للإشعار بأنّه لا يسدُّ أدنى جوعِهم؛ أيْ: لا يكفي أيَّ كفايةٍ. فهم في جوعٍ مستمرٍّ سواء أكلوا من الضّريع أم لم يأكلوا.

أهلُ النّارِ في جوعٍ مستمرٍّ سواء أكلوا من الضّريعِ أم لم يأكلوا

**معنى (مِن) في ﴿مِن جُوعٖ﴾:**

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ متعلّقٌ بالفعلِ ﴿يُغۡنِي﴾، ويفيد معنى البدليَّة؛ أيْ: لا يُغني غناءً بدلًا عن الجوعِ[3]. ويحتمل أن يفيد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ الابتداء، كما يُشير إليه كلام البقاعيِّ[4] بمعنى أنَّ ابتداء حالةِ نفي إغناء الضّريع كان من الجوعِ. ليفيد أنَّهم في جوعٍ مستمرٍّ لا ينقطع. فهم إن أكلوا من الضّريع لم يدفع حاجةَ جوعِهم، وإن لم يأكلوا بقَوا على حالةِ الجوعِ.

أهلُ النّارِ في جوعٍ مستمرٍّ، سواء أكلوا أو لم يأكلوا

**دلالةُ المصدرِ المُنكّرِ ﴿جُوعٖ﴾:**

تنكيرُ المصدر ﴿جُوعٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ للتَّحقيرِ، والمعنى: (لا يغني من جوعٍ ما)[5]، فنفى إغناءَه عن أيِّ جوعٍ وإن قلَّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 149.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غنى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.

### فائدةُ حذفِ مفعولِ الفعليْن: ﴿يُسۡمِنُ﴾ و﴿يُغۡنِي﴾:

حُذِفَ مفعولا الفعلين ﴿يُسۡمِنُ﴾، و﴿يُغۡنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الإسمان والإغناء عن الضّريع، بمعنى أنَّه لا يكون منه إسمانٌ ولا إغناء من جوعٍ بوجهٍ من الوجوهِ، ولا يأتي منه ذلك. وليس القصد نفيَ إسمانِه أو نفيَ إغنائِه من جوعٍ عن جنسٍ معيَّن؛ فالمقصود نفي الإسمانِ عن الضّريع وإغنائِه من جوعٍ على الإطلاقِ؛ مبالغةً في ذمِّه وضررِه ونفي أيِّ انتفاعٍ منه.

### بلاغةُ التَّتميم:

انـتـفـتْ عن الـطـعـامِ صفةُ إفـادةِ السّمنِ كـمـا انـتـفـتْ عنه صفةُ إزالـةِ الجوعِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ فنُّ التتميم وهو من الإطناب، فقوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ جملة لا يمكن طرحها من الكلام؛ لأنَّه لمّا قال ﴿لَّا يُسۡمِنُ﴾ ساغ لمتوهِّمٍ أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّ هذا الطعامَ الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفةُ الإسمانِ، ولكن بَقِيَتْ له صفةُ الإغناء فجاءت جملة ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ تتميمًا للمعنى المُراد؛ وهو أنَّ هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السّمن والقوَّة، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته[(1)].

### بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:

تَنوّعُ العباراتِ لبيانِ إهانةِ أهلِ النّارِ

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ من الاحتباك، فإنّ السِمَنَ أوَّلاً يدلُّ على إثبات الهزال ثانيًا، ونفيَ الإغناءِ من الجوع ثانيًا يدلُّ على نفي الشِّبع المدلول عليه بالإسمان أولاً[(2)]. وعلى بأنَّ نفي إغناء الضّريع من جوعٍ لا يستلزم نفي إسمانِه، وأنَّه إنّما قدَّمَ نفي الإسمانِ للتّصريح بنفي الإغناء؛ فإنّه لا احتباكَ في الجملة.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 461.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 8.

## توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

النـارُ دركـاتٌ، والجنةُ درجاتٌ، وعـلى العمـل تقع العقوبات أو المثوبات

وَرَدَت آيتان في بيان طعام أهل النّار على جهة الحصر، فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ [الحاقة: 35 - 36]، وفي موضع آخر ذَكر أنَّ شجرة الزقّوم طعامُ الأثيم في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾ [الدخان: 43 - 44] فإذا كان الحصر يفيد نفي ما سواه، فما هو الجواب في ما ظاهره تعارض المعنى، بمعنى هل طعام أهل النّار هو الضريع أم الغسلين أم الزقّوم؟ والجواب له أكثر من وجهٍ:

**الأوّل**: إنَّ النّار دركات، والجنَّة درجات، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات، فمِن أهل النار مَن طعامه الزّقّوم، ومِنهم مَن طعامه غسلين، ومنهم مَن شرابه الحميم، ومِنهم مَن شرابه الصّديد[1]. وحاصله أنَّ العذاب ألوان والمعذَّبون على طبقات، فمِنهم مَن طعامه من ضريع، ومِنهم مَن طعامُه مِن غِسْلين، ومنهم مَن طعامُه من زقّوم، ولكلٍّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم، فذَكَرَ أنواع طعام أهل الشّقاء بحسب أعمالِهم في الدّنيا ودركاتِهم في النّار[2].

الطّعامُ يخرجُ مـن شـجـرِ الـضّـريـع الـذي يـسـيـلُ منـه الغِسْلين

**والثاني**: أن يكون الغِسْلين هو الذي يسيل من شجرِ الضّريع، فلا تنافي بين الآيتيْن، وبيانه أن يكون ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ للابتداء، بمعنى أنَّ الطّعام يخرج من شجر الضّريع. وهذا الشّجر هو الذي يسيل منه الغسلين الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ [الحاقة: 35 - 36]. والمعنى: ليس لهم طعامٌ إلّا ما يخرج من الضّريع والخارج هو الغسلين، فحصل الجمع بين الآيتين[3].

(1) ابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص: 48، والواحديّ، التفسير البسيط: 24/ 464.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 232.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 297.

الـطّـعـامُ ما أشبعَ وأسمَنَ، ومـا تـعـافُـهُ مـنـه الـبـهـائـمُ كَلاطعام

**والثالثُ**: أنَّ المعنى على جميع الآيات أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضّريعَ لا يصدُقُ عليه اسم الطّعام ولا تأكله البهائم الأخرى بل تعافُه لضرره وأذاه، فإذا كانت الإبل التي ترعى كلَّ نابت وهي أعظم الحيوانات إقبالاً على أنواع الشوك تعافُه ولا ترعى منه، فأحرى أن لا يَطعمه الآدميّون؛ لأنَّ الطّعامَ ما أشبع وأسمن وهو عنهما بمعزلٍ وكذلك الغِسلين ليس من الطّعام، المقصود أن لا طعامَ لهم أصلًا، وهو جارٍ على أسلوب العرب في نفي الشّيء أصلًا عن طريق إيجابه. كقولِهم: ليس لفلانٍ ظلٌّ إلّا الشّمس. ومرادهم نفي الظلّ على التأكيد؛ أيّ: لا ظلَّ له أصلًا[1]. فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا[2].

الطعامُ الرديءُ زيادةٌ في العذابِ

**والرّابع**: أنَّ يكون المقصودُ مِن ذِكْر الضّريع ذلك المرعى السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحمًا ولا لحمًا، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ومثله الغِسْلين. والمُرادُ أنَّه يُؤتى لهم بالطّعام الرّديء الذي لا يُؤكل. ليكون طعامهم زيادة في العذاب[3]؛ أي: يَطعمون طعامَ إيلام وتعذيبٍ لا نفعَ فيه لهم ولا يدفع عنهم ألمًا[4]. أو يُقال: على القول بأنَّ الضريع مجازٌ أو كنايةٌ أُريد به طعامٌ مكروهٌ حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذُّ رعيَ الشّوك فلا ينافي كون طعامِهم زقومًا أو غسلينًا[5]، فيكون ذِكْر الضّريع على سبيل المجاز أو الكناية وذِكْر الغِسْلين والزَّقّوم على سبيل الحقيقة؛ أيّ إنَّهم إذا أَحَسّوا بالجوع، وطلبوا الطعام أُتيَ لهم بالضريع، وهو ذلك المرعى السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحمًا ولا لحمًا، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها، والمُراد بهذا كُلِّه: أنه يُؤتى لهم برديء الطعام.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 743، والشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 243.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 132، والهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 31/ 376.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.

تنوّع طعام أهل النّار وِفاق أعمالهم المختلفة؛ فإنّ لكلٍّ منها جزاءً مخصوصًا

**والخامس**: إنَّ تنوّع طعام أهل النّار هو تنوّع طعام الشّخص الواحد فيها، بأن يُجعل كلٌّ من الضريع والغِسلين والزقوم بالنسبة إلى شخصٍ واحدٍ بحسب الأعمال المختلفة؛ فإنَّ لكل عملٍ أثرًا مخصوصًا وجزاءً مُتعيِّنًا فيصحُّ الحصرُ[1]. وتنوّع الطّعام القبيح للشخصِ الواحد زيادة في العذاب كما أنَّ تنوّع الطّعام الحسن للشّخص الواحد زيادة في النّعيم، وأجاب ابن عرفة عن دفع التّعارض بنكتة التّعبير بالطّعام وليس الأكل، ففرّق بينهما وذكرَ أنَّ الضريع طعامهم ولا يأكلون منه وإنما تكون المعارضة أن لو قيل ليس لهم أكل إلا الضريع، أو يكون الضريع نارًا فأكلُهم للضريع أكلٌ للنار، والأكل المضغ فهو في الفم لا في البطن لكن روعي السَّبب، فذُكِر الطّعام لأنَّه سببٌ للأكل[2].

### ۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

#### الغشيان والتغطية:

الغاشية حادثة مهولةٌ تحيط بالنّاس تغطّيهم كما يُغطّي الثوبُ الإنسانَ

الغشاء هو ما يحيط بالشّيء وقد يكون رقيقًا يَبِينُ ما تحته، ويتوهَّمُ الرائي أنَّه لا شيءَ عليه لرقّتِهِ، كما أنَّ الغشيَ لم يستعمل إلّا في معنى التّهويل أو التّفخيم. وأمّا الغطاءُ فهو وإن كان يحيط بالشّيء إلّا أنَّه يقتضي سترَ ما تحته؛ لأنَّه لا يكون إلّا كثيفًا ملاصقًا، والغشاءُ لا يقتضي ذلك. فلمّا كان الأمرُ كذلك في الفرق بينهما عبّر بقولِه: ﴿حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ للإشارة إلى أنَّ الغاشية حادثةٌ مهولةٌ تحيط بالنّاس مِن جميع جوانبِها على جهة غشاوتِها لهم، وليس المقصود أنَّها تُغطّيهم وتسترهم كما يُغطّي الثوبُ الإنسانَ.

#### الخشوع والتذلل والخضوع:

الخشوع لا يكون إلّا مع خوف الخاشع وهولِه وذلَّتِه الذي يظهر في

(1) حقّي، روح البيان: 10/ 413.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 270.

الـخـشـوعُ لا يـكـون إلّا مع خـوفِ الخاشعِ وذلَّتِه، وأظهر ما يكون في الوجهِ

بعض الآثار عليه مثلَ خفض صوتِه. كما أنَّ الخشوع أظهر ما يكون في الوجه. فيوصَف الوجه بالخشوع كما توصَف به الأبصار والأصوات كذلك. وأمّا التّذلّل فهو إظْهار العَجز عن مقاومة مَن يتذلّل لَهُ[1]، فقد يكون التّذلُّل من غير هولٍ ولا خوفٍ. فكلُّ خاشعٍ ذليلٌ من غير عكسٍ. وأمّا الخضوع فهو التَّطامن والتَّطأْطُؤ، وأظهر ما يكون في تطأطئِ الأعناق ولا يقتضي أن يكون مع الخضوع خوف، والخضوع فيه إشارة إلى الإقرار بطلب الاستجداء[2]؛ وفرّق البيضاوي بين الخشوع والخضوع؛ ففسّر الخشوع بالإخبات، وأمّا الخضوع فذكر أنَّه بمعنى اللين والانقياد؛ ولذلك يُقال: الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب[3]. فلمّا كان الكلام في الآية عن ظهور هولِ آثار القيامة على أهل النّار؛ عبّر بخشوع الوجوه دون خضوعِ القلوب وطأطأة الأعناق. أو يُقال: لمّا أراد الإخبار عن هولِ ما يصيب وجوه أهل النّار؛ ناسب أن يقول: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأنَّ الخشوع للوجوه والخضوع للأعناق؛ كما أنَّ المقامَ ليسَ مقام ذِكرِ استجداء أهل النّار ليخبر عن خضوع الأعناق؛ بل بيان هولِ الموقفِ عليهم وذلَّتِهم وخسرانِهم. وقيل: الخضوع في البدن والخشوع في البصر والوجه.

**(الحامية) و(الحارقة) و(اللاهبة):**

وصــفُ الـنّـار بالحامية يلزم منــه أن تكون حارقة

النّار الحامية هي النّار المتوهّجة شديدة الحرارة، وأمّا الوصف بالحارقة فهو من الحرق وهو اضطرام النّار بحيث يظهر أثر لهبِ النّار في ما تحرقه؛ لأنَّ المعنى المحوري للحرق هو تحويلٌ حادٌّ أو بالغٌ ينال مادة الشيء وحقيقته - كحرق النار وهي تُفْنِي حقيقةَ ما تُخرقه وتحوله رمادًا[4] -، ومنه حرق الثّوب لظهور أثر النّار فيه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 249.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 248 - 249.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 78.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرق).

وأمّا (لاهبة) فهو من اللهب وهو اضطرام النار ولسانها. واللهيبُ: ما يبدو من اشتعال النار[1]. ولمّا كان السّياق في بيان صلي وجوه أهلّ الشّقاء في النّار، ودخولها فيها؛ ناسب وصفها بالحامية دون الحارقة أو اللّاهبة؛ كما أنَّ وصفَها بالحامية يلزم منه أن تكون حارقة، فكأنَّه وصفها بوصفيّن كونها متوهّجة شديدة الحرارة وكونها حارقة يظهر أثرها في وجوههم وأبدانِهم.

(1) الراغب، المُفردات: (لهب).

﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾

[الغاشية: 8 - 16]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حكايةُ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعد حالِ أهلِ النّارِ يزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبهجةً

لمّا ذكر الله تعالى حالَ وجوه أهل النّار؛ أتبعه بذِكْر حالِ وجوه أهل الجنَّة ليبيّن الفرق بينهما، فقال مستأنفًا ذِكرَ ما لهم مِن ضدِّ ما ذَكَرَ لأهلِ النّارِ: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ ولمّا ذكر أنَّ هذه الوجوه ذاتُ بهجة وسرور بما يظهر عليها من أثر النعمة والنضرة والراحة والرفاهية بضدِّ تلك الناصبة، ذَكَرَ أنَّ هؤلاء أتعبوا أنفُسَهم في دار العمل الدنيا؛ فهي راضيةٌ عن عملِها الذي سعت فيه للآخرة فقال: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾، ولمّا ذكر السَّعي أتبعه ثوابه، أو لمّا ذَكَر وصْفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا وصَف دارَ الثَّوابِ ثانيًا[1] فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾، ولمّا كان ما يقع من مثل هذا منه ما لا يصفو، وفيه ما يكره من الكلام قال مُنَزِّهًا لها عن كل سوء: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ ولمّا وصف الجنة بأول ما يعتبر فيها وهو عدم المُنغِّص، أتبعه ما يطلب بعده وهو تناول الملتذّات، وكان الأكل قد فهم من ذِكْر لفظ (جنَّة)، فذكر المشروب لذلك، ولدلالته إذا كان جاريًا على زيادة حُسن الجنة وكثرة ما فيها من النباتات والأشجار والري والأطيار، فقال: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾، ولمّا لم يبق بعد الأكل والشرب إلا الاتِّكاء، قال مُفهمًا أنَّهم ملوك: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾، ولمّا كان المستريح يحتاج إلى تكرار الشرب وما يشرب فيه قال: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾، ولمّا كان مَن هو بهذه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 141.

المثابة يحتاج إلى المُساند والفرش الزائدة قال تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، ولمّا ذكر المساند ناسب ذِكْر البسط الكثيرة للدّلالة على موضع استراحتِهم وتصوير ما لهم في تلك الدّار فقال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1].

## ۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: (نعم) أصلٌ يدُلُّ على رقَّةِ الشَّيءِ أو ليونته وخلوِّه من الغِلَظ والخشونة. والنِّعمة الحالةُ الحسنةُ[2]، ونَعَّمَهُ تنعيمًا: جعله في نِعْمَةٍ ولينِ عَيْش، وامرأةٌ ناعمةٌ من النّعومة؛ أيْ: حسنة العيشِ والغذاءِ مُترفةٌ[3]. وثوبٌ ناعمٌ: ليّنٌ رقيقٌ[4]. و﴿نَّاعِمَةٌ﴾ إمّا من النّعومة؛ والمعنى أنّها غضَّةٌ نضرةٌ في نعمةٍ وكرامةٍ[5] أو من النِّعمة؛ والمعنى: مُتنعِّمة بأنواعِ النّعم. فيدلُّ اللفظُ على الترفُّه وطيبِ العيشِ وصلاحِ الحالِ.

2) ﴿لِّسَعْيِهَا﴾: السَّعْيُ: المَشي السّريع، وهو دون العَدْوِ؛ أيْ: دون الشَّدِّ في المشي، ويستعملُ للجدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأصلُ السَّعْيِ في كَلامِ العَرَبِ التصرُّف في كُلِّ عَمَلٍ[6]. ويُطلَقُ السّعيُ على العمل والجَهْدِ من أجل تحقيق شيءٍ وتحصيله[7]. وأكثَرُ ما يُستعمَلُ في الأفعالِ المحمودةِ، و﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الآية بمعنى لجدِّها واجتهادِها في عملِها الدُّنيويّ.

3) ﴿رَاضِيَةٌ﴾: الرّضى خلاف السّخط، أصله: (رضي) يدُلُّ على تشبُّع النَّفس وامتلائها بَلالًا ورقَّةً نحو شيءٍ[8]؛ يُقال: رَضيَ يَرضى رِضًا وهو راضٍ، ومفعوله مَرْضيٌّ عَنْهُ[9]. ويُقال: رَضيتُ به وعنه وعليه[10]؛ أيِ: اختاره وقَبِلَه[11]. والرّاضي عن الشّيء مُحِبٌّ

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 22/ 10 - 12.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (نعم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نعم).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 467.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سعى).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سعى).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(11) مجمع اللّغة في القاهرة، المعجم الوسيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).

له قابلٌ به مُقبلٌ عليه. ورِضا العبد عن اللّه: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضا اللّه عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[1]. وقوله في الآية: ﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذْ وجدَت ثوابَ عملِه مُدَّخرًا مُضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كلُّ ما تتمناه[2].

4) ﴿لَٰغِيَةً﴾: (لغو) أصلٌ يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[3]، يُقال: لَغا يَلْغو لَغْوًا. وأصله الكلام الذي يورد لا عن رَويَّةٍ وفكرٍ، فيجري مجرى اللَّغا الذي هو صوت العصافير ونحوها من الطّيور، وقد يُسمَّى كلُّ كلامٍ قبيحٍ لغوًا[4]. كما يُطلقُ اللّغو على ما لا يُعتَدُّ به من الكلام، ومعنى ﴿لَٰغِيَةً﴾: اللّغو أو الباطلَ من القول، وهو الكلام الساقط غير المرضيِّ[5]، أو هو كلُّ كلام لا فائدة منه ولا نفع[6].

5) ﴿جَارِيَةٌ﴾: (جري) أصلٌ يدُلُّ على انتقالٍ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متّصلةٍ، والجريُ انسياحُ الشّيءِ ومروره بخفَّةٍ وسرعة مثل مرِّ الماءِ وما يجري بجريه كجري الفلك والشَّمسِ والرّيح. يُقالُ: جَرَى الماءُ يجري جَرْيةً وجَرْيًا وجريانًا[7]. و﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؛ أيْ: تتدفَّقُ مياهُها، تجري حيث أراد أهلُها، لا تحتاج إلى حَفْر ساقيةٍ ولا إقامةِ أُخدود[8].

6) ﴿سُرُرٌ﴾: (سرر) أصلٌ يدلُّ على مَحْضِ الشَّيْءِ وخالصه ومُستَقَرِّه، ومنه السّرور؛ لأنَّه أمْرٌ خالٍ من الحُزْن. ومنه كذلك السّرير، لِما فيه من الاستقرار[9]، أو لأنَّه من السّرور؛ فالسَّريرُ: الذي يُجلس عليه من السّرور والفرح، إذ كان ذلك لأولي النّعمة[10]. وجمعُ سرير: سُرُرٌ وأسِرَّةٌ، وهو ما يُجلس أو ينام عليه، ويُتَّخذ مِنْ خَشَبٍ أو حديدٍ لهُ قَوائِمُ ليكونَ مُرتفعًا عن الأرض[11].

7) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوبٍ، وهو القدح المستدير الرأس الذي لا عُرْوَةَ له، وهو من آنية

---

(1) الراغب، المُفردات: (رضي).
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 921.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لغو).
(4) الراغب، المُفردات: (لغا).
(5) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 3585.
(6) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 15/ 322، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لغو).
(7) الراغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرى).
(8) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 175.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرر).
(10) الراغب، المُفردات: (سرر).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.

الشّراب. ويكون دقيق العنق عظيم الرأس[1]. وقيل: هو إناءٌ لا عُرْوَةَ له[2]، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ[3].

8) ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾: الوضعُ أعمّ من الحطّ، و(وضع) أصلٌ يدُلُّ على الهويِّ بالشَّيءِ إلى مقرٍّ منخفضٍ يثبت فيه؛ يُقال: وضَعَتِ الحملَ فهو مَوْضوعٌ[4]. ووَضَعَ الشيءَ في المكان: أثْبتَه فيه، وأهواه إلى موضع يكون في المتناول[5]. ووضعُ الشّيء: إعدادُه وتهيئته لِما قصد منه. ومعنى ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾: مُعدَّةٌ ومُهيَّأةٌ للشّرابِ[6]، كُلَّما أرادوها وجدوها موضوعةً بين أيديهم عتيدةً حاضرةً لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها[7].

9) ﴿وَنَمَارِقُ﴾: جمع نُمْرُقَةٌ ونِمْرِقةٌ[8]، وهي وسائِدُ يُتَّكَأُ عليها[9]، أو هي الميثَرة، وهي ما افترَشَت استُ الرّاكب على الرَّحل، كالمرفقة، غير أنّ مؤخرها أعظم من مقدمها، ولها أربعة سيور تُشَدَّ بآخرة الرَّحل، وقد يُطلق على الطنفسة التي فوق نمرق الرَّحل[10]. فدلّت الكلمة بمعناها العامِّ على كيسٍ يضمُّ ويمسك في جوفه أشياء هي حَشو النمرقة. و﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾؛ أيِ: الوسائد.

10) ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾: (صفف) أصلٌ يدُلُّ على معنى استواءٍ في شيءٍ وتساوٍ بين شيئَيْن أو أكثر في المقرِّ[11]، والصفُّ باعتبار كونِه مصدرًا هو جعلُ الشيء على خطٍّ مستوٍ، كما يُطلقُ الصفُّ باعتبار كونِه اسمًا على السَطْر المستوي من كلِّ شيء. ومنه الفعل: صَفَفْتَ القوم؛ أيْ: أقمتهم في الحرب صفًّا مستويًا[12]. و﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ في الآية بمعنى أنَّ الأكوابَ قد صُفَّت بعضُها بجنْبِ بعضٍ[13].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (كوب).
(2) الراغب، المُفردات: (كوب).
(3) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (كوب).
(4) الراغب، المُفردات: (وضع).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وضع).
(6) أبو حفص النّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 323.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 731.
(8) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 324.
(9) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 245.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نمرق).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفف).
(12) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفف).
(13) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 245.

11) ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: واحدها: زِربيٌّ وزَربيَّة؛ وهو البِساط، وأصلُه: (زرب) دالٌّ على مَكْمنٍ ضيِّقٍ يحتبس فيه الشَّيء أو يتخزَّن ليُحْفَظ؛ من ذلك الزَّرب - بالفتح - والزَّريبة: بئرٌ يحتفرها الصائد يكمن فيها للصَّيد، والزِرْب - بالكسر - : موضع الغنم، ومسيلُ الماء، والزريبة: مُكْتَنّ السَّبُع، ومن ذلك أيضًا الزَّرابيّ: الوسائد تُبسط للجلوس عليها، كأنَّها حُشيت بالقطن أو نحوه فحُبِس فيها[1].

﴿وَزَرَابِيُّ﴾: بمعنى بسُط فاخرة.

12) ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: مَبسوطةٌ مُتفرِّقةٌ؛ وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ ونَشْرُ ما كان مجتمعًا منضمًّا؛ من ذلك تمرٌ بثٌّ: منثورٌ متفرِّقٌ ليس في جرابٍ ولا وعاءٍ؛ وبثَّ الخيلَ في الغارة، وبَثَّ الصيادُ كلابه، وبثّ الخبرَ وأبثَّه فانْبثّ: فرّقه فتفرَّق؛ وانبثَّ الجرادُ في الأرض: انتشر؛ والبَثّ: الحزن والغمُّ والمرض الشديد المجتمع في النفس الذي يضطرُّ صاحبه من شدَّته إلى أن يُفْضي به إلى أصحابه؛ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أيّ: كثيرةٌ منتشرةٌ[2].

### المَعْنى الإجْماليُّ:

تــــرفُ أهــــلِ الجنَّة عظيمٌ لا يـوصفُ؛ ولكنَّ الأرواح ترتاح بـمـألـوفـاتِـهـا فتُعطاها

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّة من المؤمنينَ وما هم فيه من النَّعيم: وتكونُ وُجوهُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ ذات نضرةٍ وبهجةٍ وسرورٍ، فهي مُتنعّمةٌ بأنواعِ النِّعم، راضينَ عمّا عَمِلوه في الدُّنيا من أعمالٍ صالحةٍ، وراضين بجزاء ما عملوه حين وجدوا الثّوابَ العظيم في الآخرةِ، وهم في جنَّةٍ مرتفعةٍ، لا يَسمعونَ فيها ما لا فائدةَ فيه من الكَلام. ثمَّ يُبيِّنُ اللّه تعالى بعضَ أوصافِ الجنَّة، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ من غيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم كلَّما أرادوا الشّرب وجدوها

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زرب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بثث).

بين أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بعضٍ، وبسُطٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ مبسوطة في المجالس(1).

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ الفصلِ والاستئنافِ البيانيّ في الآيةِ:

تباينُ حالِ أهلِ النّارِ وحالِ أهلِ الجنَّةِ في الوصف والحال والمكان

قد يُقال إنَّ من حقِّ جملة ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أنْ تكون معطوفةً بالواو على جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأنَّها مشاركة لها في حكم البيان لحديث الغاشية. ووجه الفصل هو التّنبيه على أنَّ المقصود من الاستفهام في ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ الإعلامُ بحالِ المعرَّض بتهديدهم، وهم أصحاب النّار أصحابُ الوجوه الخاشعة، فلمّا حصل البيان بوصف حال أصحاب الوجوه الخاشعة تمَّ المقصود، فجاءت جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ على الفصل لتكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا على سؤالٍ مقدَّر تثيره الجملة السّابقة، فيَتَساءَلُ السّامِعُ: هل من حديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايرٌ لهذا الهولِ؟ أيْ: ما هو أُنسٌ ونعيمٌ لقوم آخرينَ. فأُجيب بقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾(2)، وفي الفصل إشعارٌ بتباين حالِ أهل النّار وحالِ أهل الجنَّة، وبِعَزلِ الوجوه النّاعمة عن تلك الوجوه المُنكرة العاملة الناصبة التي تَصلى نارًا حاميةً. فلا جهة تجمعُ بينهما، ففريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السّعير. ففي عدم عطفِ جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ على ما قبلها إيذانٌ بكمالِ تبايُنِ مضمونَيهما(3)، ومن أسباب الفصل كذلك من جهة اللفظ هو أنَّ الكلام الأوَّل في بيان حالِ وجوه أهل النّار قد طال وانقطع فاقتضى النّظم الفصل بين الجملتَيْن(4).

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 133 - 135.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 297.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 150، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 327.
(4) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 321، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 634.

### علّةُ تقديمِ حكايةِ حالِ أهلِ النّارِ:

تَقديمُ حِكايةِ حالِ أهلِ النّارِ في الآياتِ السّابقةِ على ذِكْرِ حالِ أهلِ الجنَّة هنا؛ لأنَّه أدخَلُ في تَهويلِ الغاشيةِ وتَفخيمِ حَديثِها، ولَمّا كان الخطاب عامًّا لجميع النّاس كانت حِكايةُ حُسنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعد حِكايةِ سوءِ حالِ أهلِ النارِ ممّا يَزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبهجةً[1].

### بلاغة التّعبير بـ(الوجوه) بين المجاز المُرسل والكناية:

يظهر أثر النّعمة في الوجوه أوّلا

يحتمل التَّعبيرُ بلفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أن يكون على طريق المجاز المُرسَل بذِكْر الجزء وإرادة الكلِّ؛ فذَكَرَ الوجوهَ وأرادَ الذّوات. وخصَّ الوجوه بالذِّكر، لأنَّ السّرور يظهر في الوجه أوّلًا. أو أن يكون ذِكرُ الوجوه على طريق الكناية، فإنَّه يلزم من أن تكون الوجوه ناعمةً تنعّمُ الذّات كلِّها؛ وخصَّ الوجوه بالذّكر لأنَّها محلُّ ظهورِ أثر النّعمة أوّلًا.

### نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿وُجُوهٌ﴾ وجمعها:

كثرةُ وجوهِ أهلِ الجنَّةِ دليلٌ على كثرةِ أهلِها

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ جاء لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ نكرةً مُنوَّنًا بقصد التّنويع والتّكثير، فله حكم النّكرة المخصَّصة في جواز الابتداء بها. والمقصود بيان نوعٍ آخر من الوجوه بعد ذِكْر وجوه أهل النّار، وهو وجوه أهلِ الجنَّة. وجاء اللفظ بصيغة الجمع للدلالة على كثرتها. والمعنى: (وجوه كثيرة يومئذٍ ناعمة).

### فائدة القيد ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مُقدّمًا:

يـومُ القيامةِ محلُّ عناية؛ إذ تتمايزُ الوجوهُ وينالُ الجزاءُ الأوفى

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ قُدِّم ظرفُ الزّمان ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ الدالُّ على يوم وقوع الغاشية على خبر المبتدإ ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ لتوجيه المُخاطَبين إلى الاهتمام بذلك اليوم، فهو الزّمن الذي تقع فيه أحداث الغاشية، وفي تكرير قيد ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ إشعارٌ بأنَّ وجوهًا تكون ناعمةً في نفس اليوم الذي تكون فيه وجوهٌ خاشعةٌ ذليلةٌ؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 149 - 150.

أيّ: (إذا كان في ذلك اليوم وجوهٌ خاشعةٌ عاملةٌ ناصبةٌ، فإنَّ فيه كذلك وجوهًا ناعمةً، لسعيها راضية، في جنة عالية)؛ فالتّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عوضٌ عن جملة بتقدير: (يومَ إذ تغشى الغاشية)، كما يحتمل أن يكون الكلامُ بتقدير: وجوهٌ يومَ إذ كان ما ذُكرَ ناعمةٌ[1]، بمعنى: وجوهٌ ناعمةٌ يومَ إذ تغشى الغاشية وتكون وجوه أهل النّار خاشعة، فيكون في ذِكر الظّرف ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ زيادة في المعنى على ما ذُكر في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾. كما أنَّ في تقديم ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ على ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ إشعارًا بأنَّه ظرفٌ لجميع الصّفات المخبَر بها؛ أيّ: (في ذلك اليوم تكون ناعمةً لسعيها راضيةً في جنَّةٍ عاليةٍ). وأيضًا في تقديم الظّرف على الخبر رعاية للفاصلة ومناسبة رؤوس الآي[2].

### دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أُضيف لفظ (يَومَ) إلى (إذٍ) الاسميَّة الزّمانيَّة الدالَّة على المستقبل، للإشارة إلى أنَّ هذه الوجوه تكون ناعمةً في المستقبل يوم تغشى الغاشيةُ النّاسَ جميعًا.

### سِرُّ التّعبيرِ بمُفرَدَة ﴿نَّاعِمَةٞ﴾:

**مُلازمةُ البهجةِ والسُّرورِ وحُسنِ المنظرِ لوجوهِ أهلِ الجنَّةِ**

في التّعبير بمفردة ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ دون غيرها دلالةٌ على أنَّ الوجوه ذات بهجة وسرور، وأنَّها حسنة المنظر. وفيه إشارة إلى طيب عيشها وفرحها وراحتها في الجنّة، ويلزم منه أنَّها مُتنعّمةٌ. وهذا بناء على أنَّ لفظ ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ من (نَعُمَ) بضمِّ العينِ: يَنعُمُ بضمِّها الَّذي مصدرُه نُعومةٌ وهي اللّينُ وبهجةُ المَرأى وحُسن المنظر؛ وهو الظّاهر. ويؤيّده قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطفّفين: 24]. أمّا إن كان لفظ ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ من (نَعِمَ) بكسرِ العينِ: يَنۡعَمُ، إذا كانَ ذا نِعۡمَة، كان على

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 8.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 230.

معنى متنعِّمة؛ أيْ: وجوهٌ حسنة العيش ومُترفة[1]؛ فالمقصود الأوّل على هذا الاشتقاق هو أنَّها مُتنعِّمة ويلزم منه أن تكون ذات بهجةٍ وسرور، فمآل المعنى على كلا الاشتقاقيْن واحدٌ.

### دلالةُ اسمِ الفاعلِ المُنكَّر ﴿نَّاعِمَةٌ﴾:

لمّا كان اسم الفاعل يدلُّ على الثّبوت كان التّعبير به في الإخبار عن وجوه المؤمنين بأنَّها ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إيذانٌ بثبوت كونها ناعمة، فلا تتغيّر نعومتها ولا تنعّمها. وفي مجيء الخبر ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ نكرةً منوَّنًا دلالةٌ على عِظمِ نعومتِها.

### نكتةُ تقديمِ الإخبارِ بنعومةِ الوجوهِ:

تقديم الإخبار عن وجوه أهل الجنَّة بأنَّها ناعمة قبل الإخبار عن أنَّها في جنَّة عالية فيه إشارةٌ إلى أنَّها ناعمةٌ مسرورةٌ قبل دخولِها الجنَّة؛ فهي فرحَةٌ برضا ربّها عليها.

### بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾:

على القول بأنَّ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ مِن النّعومة، لتدلَّ المفردة على نعومة الوجه، يكون في الكلام استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه وجوهَ أهل الجنَّة بوجوه قوم فرحين، إذا أصابوا الشراب طابت أنفسهم، فاجتمع الدَّمُ في وجوهِهم، فاجتمع فرح القلوب وفرح الشَّراب، فهوضاحك الوجه مُبتسمٌ طيِّبُ النَّفس[2].

الفرحُ والسّرورُ يجعل الوجهَ ناعمًا، والذِّلُّ والحزنُ يجعلُ الوجهَ شاحبًا

### دلالةُ مقابلةِ قوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ لقولِه: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾:

في التّعبير بـ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ وجوه أهل النّار شاحبةٌ كما يُؤمئ إليه لفظ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ فيما سبق. وفي مقابلة وجوه ناعمة لوجوه خاشعة إشارةٌ إلى أنَّ الفرح والسّرور يجعل الوجه ناعمًا وأنَّ الذلَّ والحزن يجعل الوجه شاحبًا.

---

(1) حقّي، روح البيان: 10/ 414، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 299.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 4/ 678.

### بلاغةُ الاستطرادِ والتتميمِ في الآية:

عادة القرآن أن يشفعَ التّرهيبَ بالتّرغيبِ والعكسِ

لمّا كان المقصود من الاستفهام في ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ بيانَ حالِ المعرَّض بتهديديهم، ولمّا حصل البيان بذِكْر حالِ أصحاب الوجوه الخاشعة كان مجيء جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ على طريق الاستئناف البيانيِّ استطرادًا للكلام وكانت كالتّتميم له؛ لتكون جملة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ وما بعدها في وصف حالِ أهل الجنّة على جهة الإطناب[1]؛ ليكون النّظم على ما هو عادة القرآن من أن يشفعَ التّرهيب بالتّرغيب وبالعكس تنشيطًا لاكتساب ما يُنجي والسّعي له وتثبيطًا لاقتراف ما يُردي[2].

### معنى اللام في ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾:

المؤمنون راضون عن الله راضون عن ثوابه وما أعدَّه لهم يوم القيامة

اللام في ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ متعلّقة بـ﴿رَاضِيَةٞ﴾، والتقدير: (راضيةٌ بسعيِها). فتكون لتقوية عمل اسم الفاعل المُؤخّر عن عاملِه. وتفيد حينئذٍ تقوية المعنى والمبالغة فيه؛ أي: المبالغة في كونها راضيةً بسعيها، بمعنى أنَّها رضيت بعملِها لِما شاهدَته مِن الثّواب العظيم. ويجوز أن تكون لامَ التعليل؛ أيْ: (لأجل سعيها في طاعة اللّه راضية)[3]. وعلى هذا التّوجيه للّام يكون لفظ ﴿رَاضِيَةٞ﴾ مطلقًا عن التّقييد، فيفيد العموم، والمعنى: لأجلِ سعيِها راضية عن اللّه وراضية عن الثّواب والجزاء، وراضية بما شاهدته من الثّمرات التي أعدَّها اللّه تعالى لها في الجنَّة؛ فصار الرّضا وصفًا لازمًا لها.

### دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ على ﴿رَاضِيَةٞ﴾:

سيندمُ الكافرون يومَ القيامةِ ويتحسّرون على سعيهم بالباطلِ في الدّنيا

تقدَّم ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ على ﴿رَاضِيَةٞ﴾ للاعتناء بسعيها؛ أيْ: للاهتمام بأنَّها لم تندم على عملِها وجهدها في الدّنيا؛ ففيه تعريضٌ بالكافرين بأنَّهم سيندمون ويتحسّرون على سعيِهم بالباطل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 298.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 233.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 3585، والمنتجب، الكتاب الفريد: 6/ 386.

الدّنيا. كما يشير التّقديم إلى معنى التّخصيص، فكأنّه لا سعيَ لها سوى السّعي في طاعة اللّه[1]. وفي التّقديم كذلك رعاية الفاصلة ومناسبة رؤوس الآي.

### نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ السّعيِ:

من جَدَّ وجدَ، ومَنْ سار على الدرب وصل

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بمُفردة السّعي في قولِه تعالى: ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾، ولم يَقُلْ مثلًا: (لعملِها)، ليكون الكلامِ على طريق المدحِ، لأنَّ فيه إشارةً إلى أنَّهم جاهدوا في الإتيان بما أُمروا والانتهاء عمّا نُهوا عنه حقَّ الجهاد[2]، فضلًا عن أنَّ السّعي أكثر ما يُستعمل في الأفعال المحمودة، والذي تكون عاقبته ممدوحة؛ فناسب أن يقول: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ في إشارةٍ إلى أنَّ عاقبة سعيها كان رضاها بعملِها لِما رأت من ثوابِه.

### دلالةُ صوغِ السَّعيِ مصدرًا:

لا سعيَ نافعًا للإنسانِ في الدّنيا سوى السّعي الذي يجعله راضيًا يومَ القيامةِ

عُبِّر بصيغة المصدر في قوله: ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾، ولم يُؤت بصيغة الفعل كأن يُقال مثلًا: (لِما كانت تسعى إليه راضية)؛ للإشعار بعفو اللّه تعالى عن أيّ سعيٍ لها في غير طاعة اللّه، ففيه امتنانٌ من اللّه تعالى، فكأنّه لم يكن لها سعيٌ في الدّنيا سوى السّعي الذي جعلها راضية. وفي التّعبير بالمصدر كذلك إشارة إلى أنّه لا سعيَ نافعٌ للإنسانِ في الدّنيا سوى السّعي الذي يجعله راضيًا يوم القيامة بما يشاهده من الثّواب العظيم.

### دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾:

الإضافة في ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ تُفيد التّخصيص، بمعنى أنَّ لكلِّ إنسان سعيَه الذي يُجازَى عليه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم: 39 - 41].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 8.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 234.

### دلالةُ عودِ الضّميرِ في قولِه: ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾:

أعظمُ أثرٍ للجزاءِ في وجوهِ العاملِ المجزيّ

يعود الضّمير في ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ إلى الوجوه؛ ولمّا كان السَّعيُ يوصف به الإنسان، كان الضّمير في ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ على معنى (لسعي أصحاب الوجوه، أو أنفسِها)؛ فيكون ذِكْرُ الضّمير على طريق المجاز المُرسَل بذِكْر الجزء الأهمِّ وإرادة الكلِّ أو على طريق الكناية. ومناسبة عود ضمير السّعي إلى الوجوه اتّساق الأخبار في النّظم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أعظم أثر من آثار الجزاء على السعي وأخصَّه يكون في الوجوه بما تنعم به من الجزاء.

### دلالةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾:

جزاءُ الاجتهادِ والسَّعيِ المُخلِصِ عاقبةٌ محمودةٌ

يحتمل أن يكون المُراد بقوله: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ أنَّهم رضوا عن نفس السّعي والجهد الذي بذلوه في الدّنيا أيّ إنَّهم رضوا عن سعيهم واجتهادِهم في العمل لله تعالى لَمَّا رأوا ما أدّاهم إليه سعيهم من الكرامة والثواب. فيكون كالرَّجل يعمل العمل فيُجزى عليه بالجَميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة، فيقول: ما أحسنَ ما عملتُ، ولقد وُفّقت للصّواب فيما سعيت، فيثني على عملِ نفسِه ويرضاه[1]. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ كناية عن أنه محمود العاقبة مجازى عليه أعظم الجزاء وأحسنه[2]. ويحتمل كذلك أن يكون المراد من رضاهم عن سعيهم رضاهم عن ثواب سعيِهم فيكون من قبيل حذف المُضاف على سبيل المجاز؛ أيّ: لثواب سعيها في الدّنيا راضية؛ إذ شاهدوا ذلك الثّواب العظيم في الجنَّة يبلغ حدَّ الرّضا حتَّى لا يريدون أكثر منه[3]. ولا مانع من حمل اللفظ على المعنييْن فيكون من قبيل حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز بالاشتراك.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 141.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 327.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 141.

### دلالةُ اسمِ الفاعلِ المُنَكَّر ﴿رَاضِيَةٞ﴾:

رضاً تامٌّ دائمٌ صافٍ لعظيمِ الثَّوابِ وجميلِ المآلِ

دلَّ التّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿رَاضِيَةٞ﴾ على ثبوت رضاهم وعلى أنَّهم بما رأوا ما أدّاهم إليه سعيهم من الكرامة أو بما رأوه من الثَّواب قد بلغوا حدَّ الرّضا حتَّى لا يريدوا أكثر منه[1]. ويلزم من رضاهم بسعيهم أن يكونوا حامدين عملهم الذي هو امتثال ما أمر اللّٰه به على لسان رسولِه ﷺ[2]؛ فالرّضا على معناه الحقيقيِّ، ويلزم من رضاهم حمدهم عملَهم والثّناء عليه.

### معنى ﴿فِي﴾:

يُفيد حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ الظّرفيَّة، بمعنى احتواء الجنَّة لهذه الوجوه النّاعمة، وأصحابها مُتنعِّمون مُترفون بما فيها من نعيمٍ مُقيمٍ.

### نكتةُ تنكيرِ ﴿جَنَّةٍ﴾:

جاء لفظ ﴿جَنَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ نكرةً مُنوَّنًا لتعظيم الجنَّة وفخامتِها، وهو المناسب لوصفِها بالعالية من جهة، ومكافأة أهلها وتشريفهم من جهة أخرى.

### سِرُّ وصفِ ﴿جَنَّةٍ﴾ بـ﴿عَالِيَةٖ﴾:

أحسنُ الجنّاتِ ما كان في المرتفعاتِ

وُصفت الجنَّة بقوله: ﴿عَالِيَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ لزيادة الحُسنِ؛ لأنَّ علوَّ المكانِ الجميل أكثرُ بهجةً للنّفوس؛ وأحسنُ الجنّات ما كان في المرتفعات؛ قال تعالَى في سياق حسن الجنان عند الإنسان: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البَقَرَة: 265]؛ فذلك يُزيدُ حُسْنَ باطنِها بحُسنِ ما يُشاهِدُه الكائنُ فيها من مناظرَ، ووصفُ الجنَّة بالعلوِّ وصفٌ شاملٌ لحسنِ موقعِها. كما أنَّ الوصف بكون الجنَّة عاليةً مناسبٌ لاقترانِه بلفظ ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾؛ فالوصول إلى مكانٍ عالٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 141.

(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 321، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 299.

يحتاج إلى سعيٍ وجهدٍ، فلفظ السّعي جاء تمهيدًا لِذِكْر مقامِهم في جنَّة عالية، وهذا من الأسباب التي أوثر فيها لفظ السّعي على العمل، بمعنى أنَّ السّعي والجهد المبذول هو الذي أوصلهم إلى الجنَّة العالية بفضلِه ومِنَّته سبحانه.

### دلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ: ﴿عَالِيَةٍ﴾:

أفاد التّعبير بصيغة اسم الفاعل في وصف الجنَّة بـ﴿عَالِيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أنَّ عُلوَّها ثابتٌ لا يتغيّر، ويلزم منه ثبات عُلوِّ سكّانِها، ورفعةِ شأنِهم، فرفعة المكان بعلوِّ شأنِ المَكين وتقديرِه.

### دلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿عَالِيَةٍ﴾:

الجنَّة مرتفعةٌ في محلِّها مع علوِّ قدرِها ومكانتِها لتكاملِ ما فيها من النّعيمِ

عُبِّر بقوله: ﴿عَالِيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ للإشعار بعلوِّها الحسّي والمعنويّ، فهي مرتفعةٌ في محلِّها ومكانِها مع علوِّ قدرِها ومكانتِها لتكاملِ ما فيها من النّعيم[1]، ففيه بيانٌ لرفعة الجنَّة مع عظيم الامتنان فيها على أهلِها؛ أيْ: هي في المكان العالي والمكانة العالية. وهو ما أشار إليه ابن عطيَّة[2] وذهب إليه جماعة من المُفسِّرين كأبي حيّان وغيرِه[3]. فيكون من قبيل حمل اللفظ بالاشتراك على المَعنيَيْن على معناه المُشترك.

### معنى ﴿لَّا﴾:

لمّا كانت ﴿لَّا﴾ النّافية تفيد استمرار النّفي لِقرينة المقام؛ أفاد النّفي في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ استمرارَ نفي سماع اللّاغية في الجنَّة.

### سرُّ نفيِ سماعِ اللّغوِ على نفيِ أصلِ اللّغو:

لا سماعَ للاغيةِ في الجنَّـةِ، ولا لغوَ فيها أصلًا

قد يُقال إنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ لمّا أفاد نفيَ سماع

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 321.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 473.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463، والسّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 805، والبقاعي، نظم الدُّرر: 22/ 9.

اللّاغية في الجنَّة دلَّ لزومًا على أنَّ اللغو موجود فيها، ولكنَّ أهلَها لا يسمعونه، ولو قيل: (لا لاغيَة فيها)، لَنَفى أصلَ اللّغو، فوجودُ أصلِ اللّغو مُنافٍ لأوصاف الجنَّة وكمالاتِها، فما هو سرُّ العدول إلى نفي سماعِ اللّغو دون نفي أصلِ اللّغو؟ والجوابُ أنَّ القرآن المجيد جعلَ لكلِّ مقام نظمَه المناسب له، وبيانُه أنَّه لمّا كان الكلام في آية الغاشية في حالِ أهلِ الجنَّة وما يكون عليه سكّانها من النّعيم؛ كان الأقضى لحقِّ البلاغة أن ينفي سماعَهم للّاغية؛ لأنَّ نفي سماع اللّغو من النّعيم الحسّي والنّفسي. ومثله في بيان حالِ سكّانها وما ينعمون به ما جاء في نفي سماعِهم اللّغو قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: 61 - 62]، وقوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ [الواقعة: 25]. فليس سياق الكلام في سورة الغاشية في بيان أوصاف الجنَّة؛ بل في سياق ما يكون عليه حالُ أهلِ الوجوه النّاعمة المتنعّمة من النّعيم، ولا يكون هذا إلّا بنفي سماعِهم للّاغية؛ أيِّ: لا تسمع الوجوه النّاعمة لاغية، فأفادَ قوله: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ نفيَ سماعِهم للّغو ونفيَ أن يكون فيها أحدٌ يتكلَّم باللّغو؛ لأنَّ أصلَ اللّغو مُنتفٍ فيها. فنفي سماعِ لاغيةٍ مُكنًّى به عن انتفاء اللّغو في الجنَّة، وهو من باب قولهم: (ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ)؛ أيِّ: لا ضَبَّ بها ولا انجحار؛ إذِ الضَبُّ لا يخلو من الانجحار[1].

### دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿تَسۡمَعُ﴾:

تشريفُ المؤمنين في الجنَّةِ من تشريفِ رسولِ الله ﷺ

تحتمل صيغة ﴿تَسۡمَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أن تكون للمخاطَب؛ أيِّ: مَن يصلح للخطاب؛ والفاعل مُستترٌ تقديره: أنت[2]. وفائدة مجيء المفردة بصيغة الخطاب الإشعار بأنَّ كلَّ مَن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 300.
(2) المُنتَجب، الكتاب الفريد: 6/ 386، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 307، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 234.

يتأتّى له السّماع ممّن يدخلون الجنَّة لا يسمع فيها لاغية، والمعنى: لا تسمع أيُّها الوجه النّاعم الدّاخل في الجنَّة لاغية[1]. فالخطاب على معنى العموم. ويجوز أن يصرف الخطاب إلى رسول اللّه ﷺ[2] ويدخل فيه عموم أهل الجنَّة فيه، فيكون الخطاب على معنى أنَّ تشريفَهم في الجنَّة من تشريفه ﷺ. ويحتمل أيضًا أن تكون صيغة ﴿تَسۡمَعُ﴾ للغائب المؤنَّث، فيعود الضّمير في ﴿تَسۡمَعُ﴾ إلى ﴿وُجُوهٞ﴾[3]، بما اتّصفت به من كونها ناعمةً لسعيها راضية في جنَّة عالية. والتّقدير: (لا تسمع الوجوهُ فيها لاغيةً)؛ أيْ: أصحابُ الوجوه؛ فيكون إسناد الفعل إلى الوجوه على سبيل المجاز؛ لأنَّ السّامع أصحابُها.

### توجيهُ القراءةِ القرآنيّةِ في ﴿لَّا تَسۡمَعُ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ تكثيرٌ للمعنى وتوسيعٌ له

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿لَّا يُسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٌ﴾ ببناء الفعل للمفعول، وقرأ نافع ﴿لَّا تُسۡمَعُ﴾ بالتاء. وقرأ عاصِمٌ وحَمْزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ ببناء الفعل للفاعل[4]، وتوجيه القراءات هو أنَّ بناء الفعل للمفعول حسن؛ لأنَّ الخطاب ليس بمصروف إلى واحد بعينه، لكنَّه على قراءة ﴿لَّا يُسۡمَعُ﴾ جاء الفعل بصيغة المُذكَّر؛ لأنَّ المؤنَّث مَجازيٌّ مع وجود الفاصل من الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ بين الفعل والفاعل. أو يُقال إنَّ تاء ﴿لَٰغِيَةٗ﴾ للمبالغة وليست للتأنيث كما ذهب إليه أبو حيّان[5]. وعلى قراءة ﴿تَسۡمَعُ﴾ يكون الفعل إمّا بصيغة الخطاب، وإمّا بصيغة أن يكون فاعله ضميرًا مؤنَّثًا تقديره: هي، ليعود إلى الوجوه.

### دلالةُ عودِ الضّميرِ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾:

اللّغوُ مُنافٍ للجَنَّةِ وعُلوِّها

يعود الضّمير في ﴿فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾

(1) السمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 574، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 9.
(2) الواحديّ، التفسير البسيط: 23/ 468، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 474، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 307.
(4) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 140، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 30.

إلى ﴿جَنَّةٍ﴾ بما اتّصفت به من كونِها ﴿عَالِيَةٍ﴾؛ ففي عود الضّمير إشارةٌ إلى أنَّ اللّغو مُنافٍ للجنَّة وعلوّها، فالمنازلُ العالية الشّريفة تكون مبرَّأةً من اللّغو. وفيه إيماءٌ كذلك إلى أنَّ اللّغو لا يكون إلّا لِمَن سفُل في المكانة وفي الموضعِ.

**فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ به:**

تنزُّهُ الجنّةِ عن كلِّ ما يُكدِّرُ صفوها

تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ على المفعول به - على قراءة جماعةٍ - أو على نائب الفاعل- على قراءة آخرين كما تقدَّم في توجيه القراءة القرآنية- للاهتمام بموضع الجنَّة، والإشعار بخصوصيَّتها، وأنَّها ليست مثل الدّنيا التي يُسمع فيها اللّغو وما يكدّر الخواطر ويحزن القلوب ويجعل الوجوه شاحبة.

**دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿لَٰغِيَةٗ﴾ بين المصدريّةِ واسمِ الفاعلِ:**

الجنّةُ مكانٌ هادئ مُطمئنٌ لا لاغية فيه

تحتمل كلمة ﴿لَٰغِيَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أن تكون مصدرًا كـ(العاقبة)، والمعنى: (لا تسمع فيها لغوًا)، كما تحتمل أن تكون اسم فاعل من: لغا يلغو، فتكون على النّسب مثل كلمة (لابِن)؛ أيْ: ذات لبنٍ. فمعنى ﴿لَٰغِيَةٗ﴾: ذاتُ لغوٍ. وحينئذٍ تكون ﴿لَٰغِيَةٗ﴾ صفةً لموصوف محذوف، والتّقدير، إمّا: (لا تسمع فيها كلمةً لاغية)؛ أيْ: ذات لغوٍ[1]، فيكون اللّفظ على المجاز العقليّ؛ لأنَّ اللّاغي صاحبُها[2]، فيكون المقصود أوّلًا وبالذّات نفي سماع كلمةٍ لاغية، ويلزم منه على المجاز وجود أيِّ نفسٍ تلغو في الجنَّة. وإمّا أن يكون التّقدير: (لا تسمع فيها نفْسًا لاغية)؛ أيْ: نفْسًا ذات لغوٍ، فيكون المقصود أوّلًا وبالّذات نفي وجود أيِّ نفسٍ تلغو أو أيُّ فئةٍ أو

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 234، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 234.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 299.

جماعة تلغو وتنطق بسوءٍ[1]، ويلزم منه نفي اللّاغية فيها. والمعنى على العموم: لا تسمع في الجنَّة كلمةً ولا فئةً ولا نفسًا لاغية.

### دلالة مفردة ﴿لَٰغِيَةً﴾ وتنكيرها:

كــلامُ أهْــلُ الجنَّةِ الحكمةُ ومحاسنُ القولِ وحمدُ الله على نعيمه الدّائم

اللّاغية هي كلُّ ما يعدُّ لغوًا، فدلَّ التّعبير بمفردة ﴿لَٰغِيَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ على أنَّها لا تسمع فيها كَذِبًا وبُهْتانًا وكُفْرًا بالله ﷻ ولا باطلًا ولا شتمًا. ولا يُسمَع فيها حالف يحلف بكذب، ولا حالف بيمينٍ برّة ولا فاجرة. والخلاصة أنَّهم لا يُسمَع في كلامِهم كلمةٌ لغوٌ؛ لِأنَّ أهْلَ الجنَّةِ لا يَتكلَّمون إلّا بالحكمةِ ومحاسنِ القولِ وحمدِ الله على ما رزقهم من النَّعيم الدّائم[2]. وأفاد مجيءِ مفردة ﴿لَٰغِيَةً﴾ نكرةً في سياق النّفي في قوله: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ نفيَ وجود أيِّ لاغيةٍ في الجنَّة، وإن كان لغوًا قليلًا؛ لأنَّ النّكرة في سياق النّفي تفيد العموم.

### دلالة نفي سماع اللّغو على نفي كلِّ ما يؤذي:

لمّا قال الله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ فنفى عن أهل الجنَّة سماع اللّغو اندرج فيه ما يُؤْذي سامعَهُ على طريق الأولى[3].

### بلاغةُ الكنايةِ في نفي سماعِ اللاغيةِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ كنايةٌ على شرف المحلِّ والحالِّ. بمعنى أنَّ مجالسهم شريفة، فأهل الجنة مُنزَّهون عن اللَّغو؛ لأنَّها منزلُ جيران الله، وهكذا كلُّ مجلسٍ في الدنيا شريفٍ مُكرَّم يكون منزَّهًا عن اللَّغو[4].

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 473.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 5/ 318، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 30/ 33، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 20/ 298.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 142.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 408، وابن التّمجيد، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 235.

### بلاغةُ الفصلِ في جملةِ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾:

اختلافُ نوعِ الجملتَيْن واختلافُ مقاصدِهما

لم تُعطفْ جملة ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ على الجملة الَّتي قبلها؛ لاختلافهما بالفعليَّةِ في الأولى والاسْميَّةِ في الثّانية، وذلك الاختلافُ من مُحسِّناتِ الفصلِ، ولأنَّ جملة: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ مقصودٌ منها التَّنزُّه عن النَّقائص، وجملة: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ مقصودٌ منها إثباتُ بعض محاسنها[1]. فاختلاف المعاني بين سلب القبيح عنها وإثبات الحسن فيها يقتضي الفصل بين المعنييْن. وأيضًا في قوله: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ وصفٌ لحالِ أهل الجنَّة وما يتنعّمون فيه وفي قوله: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ وصفٌ للجنَّة وما فيها.

### فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ على المُسْنَدِ إليه: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ﴾:

عينُ الجنَّةِ التي يشربُ منها المؤمنون ليست كسائرِ عيونِ الدُّنيا

قُدِّم المُسْنَدُ على المُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ﴾ للعناية والاهتمام بالعين، ففي التّقديم إشارةٌ إلى شرفِ العين وعِظَمِها. وفي التّقديم أيضًا تخصيصٌ، بمعنى أنَّ عين الجنَّة ليست كسائر العيون المعهودة، ففي الجنَّة فقط مثل هذه العين الجارية في فخامتِها وكثرتِها وعذوبة شرابِها؛ وما سواها ليس كذلك.

### نكتةُ تنكيرِ ﴿عَيۡنٞ﴾:

مهما تعدَّدت عينُ الجنَّةِ وكثُرت فهي جاريةٌ نافعةٌ

لمّا جاء لفظ ﴿عَيۡنٞ﴾ نكرةً في قولِه: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ﴾ في سياق الامتنان أفاد العموم والكثرة، والمعنى: (فيها عيون في غاية الكثرة)[2]. ويحتمل أن يكون لفظ ﴿عَيۡنٞ﴾ على إرادة الجنس، فالمُراد جنس العيون. وفائدة مجيء اللفظ بصيغة اسم الجنس هو أنّه لمّا كان الماء الجاري صالحاً لأن يُقسَّم إلى أماكن كثيرة، وحَّد اللفظَ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 301.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 744.

المراد به الجنس الشامل للكثير[1]، فيفيد الكثرة لزومًا. والمعنى: كلُّ عينٍ في الجنَّة - من العيون التي هي كثيرة - جارية.

### سِرُّ وصفِ العينِ بـ﴿جَارِيَةٌ﴾ وصوغه اسمَ فاعلٍ:

عينُ الجنَّة مُتدفِّقةٌ بالشّرابِ لا تنقطعُ أبدًا

وصفُ العين بقوله: ﴿جَارِيَةٌ﴾ في قوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ إشارةٌ إلى نعومة الحياة في الجنَّة وبهجتِها، بخلاف العين المنقطعة عن الجري؛ وللإشعار بأنَّها متدفّقة بالشّراب على وجه أرض الجنّة من غير أخدود[2]؛ فهي عظيمة الجري جدًّا، بحيث لا تنقطع أصلاً لما لأرضها من الزكاء والكرم، وما لمائها من الغزارة وطيب العنصر؛ فهو صالح لأن يعمَّ جميع نواحيها أقاصيها وأدانيها وإن عظم اتِّساعُها وتناءَتْ أقطارُها وبقاعُها[3]. وجاءت المُفردة ﴿جَارِيَةٌ﴾ بصيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبوت اتّصاف هذه العين بالجريان؛ أيْ: ثبوتِ جريِها وعدمِ انقطاعِها وتجدُّد هذا الجريان.

### سِرُّ تكرارِ القيدِ ﴿فِيهَا﴾ وعودِ الضّمير فيه:

وصفُ محاسن الجنَّة بذِكْرِ محاسنِ قصورِها

أُعيدَ قوله: ﴿فِيهَا﴾ من قولِه تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ على سبيل الفصل بين الجمل دونَ أنْ يُقال: (فيها عين جارية وسرر مرفوعة)، فيكون العطفُ حينئذٍ من قبيل عطف المُفردات؛ لأنَّ عطفَ السُّرُرِ على عينٍ يبدو نابيًا من الذّوقِ لعدم الجامعِ بين عين الماء والسُّرُرِ في الذِّهنِ، لولا أنْ جَمَعَها الكونُ في الجنَّة؛ فلِذَلِكَ كُرِّرَ ظَرْفُ ﴿فِيهَا﴾ تَصْريحًا بأنَّ الجامع بينهما إنّما هي ظرفيّتهما في الجنَّة، ولأنَّ بين ظرفيَّةِ العينِ الجاريةِ في الجنَّةِ وبين ظرفيَّةِ السُّرُرِ وما عُطِفَ عليه من متاعِ القُصورِ والأثاث تفاوُتًا؛ فجاء الكلام على طريق الفصل - بإعادة ضمير ﴿فِيهَا﴾ - لوصفِ محاسنِ الجنَّة بمحاسن أثاث قصورِها[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 10.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 33.

(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 10.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 301.

وضميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ للجنَّةِ، والمُراد: (في القصور التي في الجنَّة)؛ وإنّما جُعل الظّرفيّة في الجنَّة؛ لأنَّ ما في قُصورها هو مَظْروفٌ فيها بواسطةٍ[1]؛ ليكون استكمالًا لذِكْرِ محاسنِ الجنَّةِ.

### نُكتةُ تنكيرِ ﴿سُرُرٌ﴾ وجَمْعُه جَمعَ كثرةٍ:

عُبِّر بصيغة جمع الكثرة في قوله: ﴿سُرُرٌ﴾ للإشعار بكثرة السُّرر وفخامتِها، والنّكرة في سياق الامتنان تفيد الكثرة. والسّرير هو ما يُجلَس عليه ويضطجع عليه فيسع الإنسانَ المُضطجِعَ، ويكون مرتفعًا عن الأرض[2].

### سِرُّ وصفِ السُّرر بـ ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾:

لّما كانَ الارْتِفاعُ عن الأرضِ مَأْخوذًا في مَفهوم السُّرُرِ كانَ وصْفُها بـ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ لتصوير حُسْنها[3]، وليرى الجالس عليها جميع ملكه وما نُعِّمَ به وما شاء اللّه من غيره[4].

### عِلّة العدول عن تكرار القيد (فيها) والاكتفاء بالعطف بالواو:

لا مشابهةَ بين ما يألفه النّاس وما في الجنَّة من النّعيم إلّا في الاسم

عُدل عن تكرار الجارّ والمجرور (فيها) في قوله: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وعطفت الأكواب والنّمارق والزّرابيُّ عطْفَ المُفردات بالواو؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنّها من مَتاعِ المساكنِ الفائقةِ والقصور العالية، والجامع بين المعطوفات خياليٌّ[5]، فجمع ما هو مألوفٌ في العرفِ والعادةِ في أن يكون في القصور الفخمة الرّاقية. فقد خاطَبَ اللّه تعالى النّاس بما يعقلون ويألفون في الحياة، فذَكَرَ لهم المحاسن التي يطمعون بها في الجنَّة،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 11.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 236.

اللفظ واحد والمعنى أفخم وأعظم، فلا مشابهةَ بين ما يألفه النّاس وما في الجنَّة من النّعيم إلّا في الاسم.

### دلالةُ التّعبيرِ بمُفرَدَةِ (أكواب) وتنكيرِها:

الكوب هو إناء مستدير لا عروة له، فعبّر بقوله: ﴿وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ﴾ للإشارة إلى أنَّها صالحة للمناولة والشّرب منها من كلِّ جهة؛ وتنكير اللفظ في سياق الامتنان والتّكريم يفيد التكثير، بمعنى أنَّ فيها أكوابًا كثيرةً متنوعةً بتعدّد أشربة الجنّة وتنوّع أطعمتها.

### سرُّ وصفِ الأكوابِ بـ﴿مَّوۡضُوعَةٌ﴾:

أكــوابُ الجنَّة مُـعـدَّةٌ حاضرة دائـمًـا ولـذَّة الشّربِ منها لا تنقطعُ طعمًا ونشوةً

وُصفت الأكواب بأنَّها ﴿مَّوۡضُوعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ﴾، للإشعار بأنَّها مُعدَّةٌ لأهلِها، كالرَّجل يلتمسُ من الرَّجل شيئًا فيقول: هو هاهنا موضوع؛ أيّ: مُعَدّ. فلا يتكلَّفون في تناولِها. كما يُشعر اللفظ بأنَّها موضوعة بين أيديهم عتيدة حاضرة، كلَّما أرادوا الشُّرب وجدوها ملأى من الشَّراب، بحيث يسهل عليهم تناولها؛ إكرامًا لهم. فالمقصود أنَّ الأكوابَ متاحةٌ دائمًا(1)، فهي لا تُرفَعُ من بين أيديهم كما تُرفَع آنية الشّربِ في الدّنيا إذا بلغ الشّاربون حدَّ الاستطاعة من تناول الخمرِ. وكُنّيَ بـ﴿مَّوۡضُوعَةٌ﴾ عن عدم انقطاع لذّةِ الشّرب طعمًا ونشوةً؛ أيّ: موضوعة بما فيها من أشربةٍ(2).

### توجيهُ المتُشابهِ اللّفظيّ:

أهــلُ الـجـنَّـة يـتـنـاولـون الـشّرابَ بعدَّةِ سبلٍ؛ فهمْ في غايةِ التَّكريم

قد يُقال: وصفُ الأكوابِ بأنَّها موضوعةٌ في قوله: ﴿وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ﴾ يدلُّ على أنَّها مُعدَّةٌ مُهيَّأةٌ لهم في حين جاء في موضعٍ آخر من القرآن أنَّ الوِلْدانَ المُخلَّدين هم الذين يطوفون على أهل الجنَّة بالأكواب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير، ص: 323، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 731، والبقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 22/ 12.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.

﴿١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨﴾ [الواقعة: 17 - 18]، فما هو وجه الجمع بين الآيتَيْن؟ والجواب هو أنَّه لا تنافٍ بين الأمرَيْن، فأهلُ الجنَّة يتناولون الشّراب بين الأكواب الموضوعة وبين ما يقدّمه الوِلْدانُ لهم، فهم في غاية التّكريم، فالأكواب الموضوعة تكون في وقتٍ وفي وقت آخر يشربون ممّا يُقدِّمه الولدان المُخلَّدون. أو يُقال إنَّ الأكواب الموضوعة تكون لبعضِ أهل الجنَّة والشّرب ممّا يُقدّمه الولدان المُخلَّدون يكون لبعضٍ آخر وهم السّابقون المُقرَّبون كما جاء وصفُهُم في سياق آيتي الواقعة(1).

### بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾:

التّعبير بمفردة ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ صفةً للأكوابِ فيه كنايةٌ عن عدم انقطاع لذّةِ الشّرب طعمًا ونشوةً؛ أيْ: موضوعة بما فيها من أشربة(2). ففي الوصف تقريرٌ لتكريم أهل الجنَّة وتشريفِهم.

### نكتةُ تنكيرِ (نَمارِقُ) وجمعُهُ:

النمارقُ جَمْعُ نُمْرُقَةٍ، وهي الوسادة الَّتي يَتَّكِئُ عليها الجالِسُ والمُضْطجعُ، ولمّا جاء اللفظ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾، وجاء بصيغة منتهى الجموع وفي سياق الامتنان والتّكريم؛ أفاد أنَّها في غاية الكثرة والتنوّع بتعدّد أماكن الاتّكاء.

### سِرُّ وصفِ النّمارقِ بـ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾

أينما أراد أهلُ الجنَّةِ الجلوسَ وجدوا النّمارقَ للاتّكاءِ عليها

وُصفَت النّمارق بأنَّها ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾؛ أيْ: موضوعةٌ بعضُها بجنب بعضٍ صفًّا. فهي كالشَّيء يُجعَل صفًّا، فالصَّفُّ ليس للكلِّ بل للبعضِ إلى بعضٍ؛ للإشارة إلى

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 236.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.

أنَّ الانتفاع من النّمارق إنّما يكون بالصَّفِّ[1]. وفي الوصف إشارةٌ إلى جمالِها وحسنِ ترتيبِها، فأينما أراد الجالس أن يجلس؛ وجدها ليتّكئَ عليها[2].

### نكتةُ تنكيرِ (زَرابيُّ) وجمعِهِ:

نفاسةُ الفرشِ في الجنّةِ من دلائلِ التَّنعُّمِ

الزرابيُّ جمع زربية، وهي: البِساطُ الفاخر المَنْسوجُ من الصّوفِ المُلَوَّن النّاعم يُفرَشُ في الأرض للزّينة والجلوس عليه لأهل التَّرف واليَسارِ، وجمعُها في قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ دليلُ كثرتها، وتنكيرُها دليلُ فخامتها ونفاستها وكونِها وفيرةً عديدةً يناسب مقام التّنعّم الذي يحيى فيه أهل الجنّة.

### نكتةُ وصفِ الزَّرابيِّ بـ ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾:

تمتُّعُ أهلِ الجنّةِ بانتشارِ الفُرُشِ وبَسطِها

في وصف الزّرابيِّ بالمبثوثة في قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّها مبسوطةٌ مُنتشرةٌ على الأرض بكثرةٍ، أو مُفرَّقةٌ في المجالس. وتقييد الزّرابيِّ بوصفِ ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾؛ لأنَّ التمتُّع بها إنّما يكون في انتشارِها وبسطِها وذلك كناية عن الكثرة[3]؛ كما أنّ الانتفاع بالنَّمارق إنَّما هوَ بالصفّ؛ أيّ: بالوضع بعضها إلى جنب بعضٍ.

### براعةُ مقابلةِ حالِ أهلِ النّارِ بحالِ أهلِ الجنَّةِ:

براعة النّظم القرآني في مقابلة حالِ أهل النّار بحالِ أهل الجنّة

قوبِلَتْ صفاتُ وُجوه أهلِ النّارِ بصفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّة؛ فقوبلت صفات ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ بصِفات ﴿نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾، وقوبِل قولُه: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ بقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾. وقوبِل: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ بقوله: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾، وقوبل شقاءُ عَيْشِ أهلِ النّار الَّذي أفاده قولُه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 236.

(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 302.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 303.

ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ بمقاعد أهلِ الجنَّة المُشْعِرةِ بترَف العيش من شرابٍ ومتاعٍ.

وهذا وعْدٌ للمُؤمنين بأنَّ لهم في الجنَّة ما يعرفونَ من النعيم في الدُّنيا، وقد علموا أنَّ تَرَفَ الجنَّة لا يبلُغه الوصفُ بالكلام؛ وجُمِع ذلك بوجه الإجمال في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف: 71]، وإنّما عبّر عمّا في الجنّة بما هو مألوفٌ معناه عند المُخاطَبين؛ لأنَّ الأرواح تَرْتاحُ بمألوفاتها فتعطاها فيكون نعيمَ أرواحِ النّاس في كلِّ عصرٍ ومن كلِّ مِصْرٍ في الدَّرجة القُصوى ممّا ألِفوه ولا سيَّما ما هو مألوفٌ لجميع أهل الحضارةِ والتَّرَف وكانوا يتمنَّوْنه في الدُّنيا ثمَّ يُزادون من النعيم «ما لا عَيْنٌ رَأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قلب بشر»(1).

### دلالة مجيء الصّفات بصيغة اسم المفعول:

أهل الجنَّة مكرّمون، أعدّت لهم مواضع التنعّم قبل دخولهم

جاءت مُفرَدَة ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول للإشارة إلى أنَّ مُعِدًّا أعدَّ السُّرر لهم وأنَّ رافعًا رفعَها؛ ففيه امتنانٌ عظيمٌ. وفيه إيماءٌ كذلك إلى العناية بأهل الجنَّة وأنَّهم يدخلونها، وقد رتّبت لهم القصور وغيرها كما يرتَّب المكان الرّفيع للضّيف الشّريف؛ ففيه مزيد تكريم. والتّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول في ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ للإشارة إلى أنَّها وُضعَت بين أيديهم إكرامًا لهم ليسهل تناولها من غير تكلّف منهم؛ ومثله التّعبير بـ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾، ففي مجيء الأوصاف بصيغة المبنيّ للمفعول إشارةٌ إلى تكريم أهل الجنَّة، فمواضع التَّمتُّع والرّاحة قد أعدّت لهم قَبل دخولِها تكريمًا وتشريفًا لهم؛ وهذا ممّا يُكرَّم به الملوك والأمراء إذا دخلوا القصور في الدّنيا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 303.

## ۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### اللَّغو واللَّغط الهَذَر:

يُطلَق اللّغو على الكلام المُفهِم الذي لا فائدة فيه ولا نفع. واللَّغطُ أصواتٌ مبهمةٌ مختلفة مختلطة لا تُفهَمُ، أو هو الكَلام الَّذي لا يَبين[1]، ويكون اللَّغطُ مع ارتفاعِ صوتٍ وجلبةٍ لفتنةٍ أو غيرِها[2]؛ وأمّا الهَذَرُ فهو الاسقاطُ في الكلام ولا يكون الكلام هذرًا حتى يكون فيه سَقَطٌ قلَّ أو كثر[3]، أو هو الكلام الذي كَثُرَ فيه الخطأُ والباطلُ[4].

ليس في الجنَّةِ أيُّ كلامٍ فاحشٍ أو مُنكَرٍ أو كَذِبٍ أو باطلٍ من سبٍّ أو شتمٍ

### الزَّرابيّ والبُسُط:

الزّرابيّ جمع زريبة وهي الطّنافس العريضة الفاخرة التي بها ألوانٌ وخملٌ رقيقٌ[5]. فالزّرابيُّ نوعٌ من السِّجّاد فاخرٌ فيه فخامةٌ وجمالٌ؛ ففيه إشارةٌ إلى ترف أهل الجنَّة ورفاهيَّتِهم بفخامة ما في قصورِهم. وأمّا لفظ البسط فهو جمع بساط، ويُقصد به كلُّ ما يُبسَط على الأرض فليس في لفظ البسط إشارة إلى الفخامة والجمال.

الزَّرابيُّ يدلُّ على الرفاهيَّةِ والفخامةِ، وأمّا البُسُط فلا تُشيرُ إلى الفخامةِ

### البثّ والنَّشْر:

البثَّ يدلُّ على تفريق أشياء كثيرة بحيث تكون ظاهرةً[6]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: 1]؛ أيْ: فرّقهم في الأرضِ وكثّرهم، ومن دلالة البثِّ على الظّهور قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ [يوسف: 86] التي تدلُّ على إظهار الحزن. فلفظ البثِّ يدلُّ

البثُّ يُشعرُ بتفرُّق الزّرابيّ وكثرتِها وسعة عطاءِ الله تعالى

(1) ابن سيدَه، المُحكَم: (لغط).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (لغط).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (هذر).
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 474، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 34، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 635.
(6) الراغب، المُفردات: (بثَّ).

على تفريق الشَّيْءِ وإظهاره[1]. وإذا بُسِطَ المَتاعُ بنَواحي البَيْتِ والدّارِ مرتّبًا فهو مَبْثوثٌ. وأمّا النّشر فهو يدلُّ على بسطِ الشّيء، ومنه نشر الثّوب؛ أيْ: بسطه وتشعّبه[2]. ويدلُّ النّشر أيضًا على فتح الشّيء وتشعّبه على جهة بسطِه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بثّ).
(2) الراغب، المُفردات: (نشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠﴾ [الغاشية: 17 - 20]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَنْ أنكرَ البعثَ فلينظرْ إلى عظيمِ قدرةِ الله في خَلقِهِ

لَمّا حَكَمَ اللّه تعالى بمجيء يوم القيامة، وقسّم أهل القيامة إلى قسميْن: الأشقياء والسّعداء، ووصف أحوال الفريقيْن بأنَّ الأشقياء يكونون في غاية الذُّلِّ والهوانِ، وأنَّ السُّعداءَ يكونون يومئذٍ مُستبشرين باديةً على وجوهِهم علائم المسرَّةِ، وعلِمَ أن لا سبيلَ إلى إيمانِ المُنكِرين للبعثِ إلّا بإثباتِ الصّانع الحكيم، أتبع ذلك بذِكْر الدِّلالة على قدرته تعالى وعظيمِ خلقِه، لإقامة الحجَّة على الجاحدين المُنكِرين(1).

لأنَّ فظاعةَ ذلك الوعيدِ المُتقدِّم تجعلُ المقامَ مقامَ استِدلالٍ على أنَّهُمْ محقوقون بوجوبِ النَّظر في دلائل الوحدانيَّة الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تصديقِ ما أخبَرَهُم به القرآنُ من البعث والجزاءِ، وإلى الاهتداء إلى أنّ منشئَ النَّشْأةِ الأولى عن عدم بما فيها من عظيم الموجوداتِ كالجبالِ والسَّماء، لا يُستبعَد في جانب قُدرته إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعدَ فنائِه عن عدم، وهو دونَ تلك الموجوداتِ العظيمة الأحجامِ، فكان إعراضُهم عنِ النَّظر مَجلَبَة لما يُجَشِّمهم من الشَّقاوة(2).

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُصِبَتْ﴾: (نصب) أصلٌ يدلُّ على إقامة الشَّيءِ إلى أعلى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 143، والمراغيّ، تفسير المراغي: 30/ 136.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 304.

قويًّا متماسكًا أو شديدًا على وضع مستقيم دائم[1]، فنصبُ الشّيء إقامةٌ وإهدافٌ له في استواءٍ[2]. ونَصْبُ الشيءِ: وضْعُهُ وضعًا ناتئًا كنَصْبِ الرُّمْحِ[3]، والنُّصْبُ: رَفعُكَ شَيْئًا تَنْصِبُه قائمًا منتصبًا[4]. وتَنصَّب فلانٌ وانْتَصب: إذا قامَ رافعًا رأسه. ومن الباب النَّصَبُ: العناءُ، ومعناهُ أنَّ الإنسان لا يزال مُنتصِبًا حتَّى يُعيِيَ[5]. ومعنى ﴿نُصِبَتۡ﴾: جُعِلَتْ مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، لا تميلُ ولا تزولُ.

2) ﴿سُطِحَتۡ﴾: أصلُ (سطح) يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه[6]، والسَّطْحُ: سَطْحُك الشَّيءَ على وجه الأرْض؛ وسَطْحُ كُلِّ شَيْءٍ: أعْلاهُ المُمْتَدُّ مَعَهُ[7]. وانسطح الرَّجُلُ، امْتَدَّ على قَفاهُ[8]، والسَّطْحُ: ظَهْرُ البَيْت إذا كانَ ممدودًا مُسْتَوِيًا، ومعنى ﴿سُطِحَتۡ﴾ بُسِطَت ومُدَّت، والمعنى: بسطُها للإقامة عليها والمشي في مناكبها.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلا يَنظُرُ النّاسُ إلى الإبلِ مُتفكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللّه لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟.

في خلق السموات وغيرها عَظيم الدَّلائِل على قدرة الله على البعثِ

فاللّه تعالى وجّه الأنظار إلى عظيم صنعِه وباهر قدرتِه؛ فأنكر على الكافرين صرفَهم نظرَهم عن خلقِ الإبل خلقًا بديعًا وعن رفع

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (نصب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطح).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سطح).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (سطح).

السّماء التي يشاهدونها ليلًا ونهارًا كيف رُفِعتْ رفعًا عظيمًا، وعن الجِبالِ كيف وُضعت وضعًا ثابتًا فلا تميل ولا تميد، وعن الأرضِ كيف بُسطت ومُهِّدت للخلقِ ليُقيموا عليها[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### وجه الجمع بين (الإبل) و(السّماء) و(الجبال) و(الأرض) دون غيرِها:

**تخصيص المخاطَبين بما يعرفون؛ وبما يُمثّل سائر النّعم الربّانيّة**

خُصَّت الإبل بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ من بين جملة الدَّوابِّ، كما خُصَّ السَّماء والجبال والأرض من بين جملة المخلوقات، مراعاةً للمخاطَبين، فإنَّ الإبل كانت من أخصِّ دوابِّ أهل مكَّة عليها كانوا يسافرون، وعليها كانوا ينقلون ما احتاجوا إليه، فذَكَرَ لهم ما يرون صباحًا ومساءً. وموضع أهلِ مكّة بين الجبال، فكانت لا تفارقهم الجبال، وكانت السماء من فوقهم والأرض من تحتهم؛ فخُصَّت هذه الأشياء بالذِّكر؛ لأنَّها موضع نظرِهم، فهي أمام أعينهم أينما قلّبوا النّظر؛ ليعتبروا بها، ويتدبَّروا[2].

وفي ذِكر أمّهات المنافع للمُخاطَبين تذكيرٌ لهم؛ فإنَّ المنافع المجعولة في الدَّوابِّ كُلَّها تجتمع في الإبل؛ لأنّ الدَّوابَّ يُنتفع بظهرها وبضَرْعها وبصوفها وبلحمها ونسلها، فكل ذلك يوجد في الإبل؛ فصارت الإبل كالأنعام تصلح للمنافع المتخذة في الدواب، ثمّ إنّ عِظَمَ المنافع والبركات المعقودة فيها متصلةٌ بالسَّماء؛ ففيها جُعلت أرزاقهم؛ وفيها عين الشمس التي بها مصالح الأغذية؛ وتراها مزينة بزينة الكواكب؛ فهي - أيضًا - كالأمِّ في المنافع، ومثلها الأرض؛ فإنّها مأوى الخلق، وقُدِّر فيها أقواتُ الخَلق وأرزاقهم، ومنها يخرج ما يتخذون منه اللباس. ثم بالجبال قوام الأرض، ولولاها لكانت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 329.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 511.

الأرض تميد بأهلها؛ فخُصّت هذه الأشياء بالذِّكْر للإشارة إلى عِظَم خلقِها والانتفاع منها.

ولعلّ الحكمة في ذِكْر هذه الأشياء المتباينة - على أنَّ هذا الوجه من الاستدلال غير مُختصٍّ بنوعٍ دون نوعٍ؛ بل هو عامٌّ في الكلِّ كقولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]، ولو ذَكَر نوعًا أو نوعيْن وراعى بينهما المناسبة لم يكن كذلك، بل ذَكَر أمورًا متباعدة جدًّا - للتّنبيه على أنَّ جميعَ الأجسامِ العلوية والسُّفلية، عظيمها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم[1].

### بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

جاءت جملة ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ استئنافًا مَسوقًا لتقريرِ ما فُصِّلَ من حديثِ الغاشيةِ وما هو مبنيٌّ عليهِ من البعثِ الذى هم فيه مختلفون، فجاءت جملة الاستئناف للاستشهاد على البعثِ بما لا يستطيعونَ إنكارَهُ ممّا هو مشاهد أمام أبصارِهم[2].

### بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزةِ:

النّظرُ المُعتدُّ به المفيدُ هو نظرُ الاعتبارِ والتّدبُّرِ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ للإنكار الواقعيّ والتّوبيخ والتّقريع[3]، بمعنى أنَّه إنكارٌ وتوبيخٌ للمشركين وتقريعٌ لهم؛ لإهمالِهم النَّظَرَ في الحالِ إلى ما هو في غاية الوضوح من دَقائِقِ صُنعِ الله في بعض مخلوقاتهِ؛ ليفيد الإنكارُ انتفاء نظرِهم نظرَ تدبّر وانتفاع، بمعنى أنَّهم لا ينظرون إلى هذه الأشياء نظرًا معتدًّا به؛ ففيه إيذانٌ بغفلتِهم عن النّظر فيها. ويدلُّ الاستفهام على معنى التّعجيب المُستفاد من سياق ذِكْر ﴿كَيْفَ﴾؛ أيِ: التّعجيب من عدم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 144.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 150.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 150، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 337، والقنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 206.

نظرِهِم واعتبارِهم؛ فلو نظروا في هذه الأشياء لكان نظرهم فيها وتفكُّرهم بها يُعرِّفهم بوحدانيَّة اللّه تعالى ولأقرّوا بالبعثِ وإثبات الرّسالة، ونُزِعَ عنهم الإشكال، وتوضَّح لهم ما اشتبه عليهم[1].

### فائدةُ الفاءِ في ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾:

الإنكارُ على مَن يُعرِضُ عن النَّظَرِ في دلائلِ التّوحيدِ

تحتمل الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ أن تكون للتّفريع على ما تقدَّم؛ وبيانه أنَّه لمّا تقرّر فيما نزل من القرآن أنَّ أهل الشّقاء هم أهل الإشراك باللّه فُرِّعَ على ذلك الإنكارُ عليهم لإعراضِهم عن النّظر في دلائل التّوحيد عليهم؛ فالفاءُ في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ تفريعُ التَّعليل على المُعَلَّلِ، فالمعلّل هو إعراضهم عن النّظر في دلائل التّوحيد وتفريعُ التّعليل هو الإنكار عليهم. وتحتمل أن تكون عاطفة على مُقدَّرٍ مفهوم السّياق وتقديرُ الكلام: (أيغفل منكرو الغاشية عن الأدلَّة القاطعة على صحَّة البعث ووقوعِه فلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟)[2].

### وجهُ النَّفيِ بِ(لا):

أفادت (لا) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نفيَ نظرهم إلى الإبل كيف خُلِقت، والمُراد نفي الحال غير المُنقطِع عن الماضي بقرينة السّياق؛ فهم لم ينظروا في الماضي ولا ينظرون الآن.

### سرُّ التَّعبيرِ بالفِعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ دلالةً وصيغةً:

تجدُّدُ الإنكارِ عندَ عدمِ الاعتبارِ

عُبِّر بمُفرَدَة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ والمُرادُ به النَّظرُ بالأبصار المورث نظَرَ الاعتبار إلى دقائق المنظور بقرينة مجيء الحال في قوله: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، فالمقصود نظرُ تدبُّرٍ واعتبار؛ لأنَّه يُقال: (نظر إليه) بمعنى تأمّله، فليس مُجرَّد النّظر

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 512.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 150، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 236.

بالأبصار[1]، وجاء الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بصيغة المضارع للإشعار بالحثِّ على تجدُّد النّظر واستمراره إلى دلائل صنعِ اللّه وعظيم قدرتِه؛ ولمّا جاء الفعل على معنى الإنكار لسبقِه بالاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ أفاد تجدّد الإنكار عند عدم الاعتبار.

### دلالةُ الضّميرِ في ﴿يَنظُرُونَ﴾:

يعود ضمير الجماعة في ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى معلوم من سياق الكلام؛ وهم المُنكِرون للغاشية أصحاب الوجوه الخاشعة[2].

### معنى ﴿إِلَى﴾:

الحــــثُّ علـى إمعانِ النّظرِ في مخلـوقاتِ الله للاعتبارِ والتّدبُّرِ

لمّا كان حرف ﴿إِلَى﴾ لانتهاء الغاية عُدّي الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾ للتّنبيه على وصول النّظر وإمعانِه إلى ما قرّر له؛ ليشعرَ النّاظر ممّا في المنظور مِن الدّقائق؛ فإنَّ قولَهم: (نظر إلى كذا) أشدُّ في توجيه النّظر والوصول إلى انتهاء الغاية منه من قولِهم: (نظر كذا)، لِما في (إلَى) من معنى الانتهاء حتَّى كأنَّ النّظر انتهى عند المجرور بـ(إلى) انتهاءَ تَمكُّنٍ واستقرارٍ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ [الأحزاب: 19] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: 23][3].

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾:

النّـــظـــرُ إلى الإبـلِ مجموعةً أزهـــى وأكـثـر دلالـةً على دقّةِ صنـعِ الـصّـانـعِ ووحدانيَّتِه

﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ اسم جمع واحدُه: بعيرٌ، وناقةٌ، وجَمَلٌ، ولا واحد لها من لفظها[4]. و(أل) في ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾ للجنسِ، فيدخل في اللفظِ كلُّ ما يُطلَق عليه: إبل. وجيء بصيغة اسم الجمع دون ذِكر الواحد كالبعير والنّاقة مثلًا؛ لأنَّ النّظر إلى المجموع أزهى وأكثر دلالة على دقَّةِ صُنع الصّانع ووحدانيَّتِه.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 353، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 304.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 22/ 13، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 304.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 304.
(4) الشّربينيّ، السِّراج المنير: 4/ 527.

### سِرُّ إيثار ذِكْرِ ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ دون غيرِها مِن الحيوانات:

اجتمعَ في الإبلِ دون غيرِها عِظَمُ الجُثّةِ، والصَّبرُ والقوّةُ وكثرةُ المنافعِ

قد يُقال: لِمَ لم يذكر غير الإبل من الحيوانات الضّخمة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾؟ والجواب هو أنَّ القرآن الكريم نزل على قوم لم يعرفوا في الغالب من الحيوانات الضَّخمة إلّا الإبل، كما أنَّه ليس المقصود ذِكْر عِظَم الجثَّة وقوَّة الحيوان؛ بل المقصود ذِكْر ما يمسُّهم في حياتِهم؛ فالإبل نُصْبَ أعيُنِهم، ويستعملونها في كلِّ حينٍ، فلها من عِظَمِ الجُثَّة، وشِدَّة القوَّةِ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش ما لا يشاركها فيه حيوانٌ آخر؛ كما أنَّها تحتمل المَشاقّ، طويلة الأعناق لتنهض بالأوقار، وتقطع شاسع المسافات في الصحارى والمفاوز حتى لقبوها: سفينة الصحراء، وهي من ذوات الأربع التي تبرك فيُحملُ عليها الحمولة، وهي تنقاد للصّغير والكبير وترعى كلَّ نابتٍ وتحتمل العطش إلى عشرٍ فصاعدًا؛ فهي أعجب ما عندهم، وهم واقفون على أحوالها، عالمون بطباعها[1]؛ فالنّظر في أحوالِ خلقِها أوضح وأسهل وأقرب إلى الاعتبار. بخلاف الفيل مثلا؛ فإنّه لم يكن بأرضهم، ولا يُحمل عليه عادة، ولا يُحْلب دَرُّه، ولا يؤمَن ضُرُّه، ولا يتنقَّل مثل تنقُّل الإبل في الأرض الممتدّة وفي الوديان والصحاري[2].

### علّةُ الابتداءِ بـ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ وترتيبُ المذكوراتِ:

ترتيبُ المذكوراتِ وِفاقَ انصرافِ العنايةِ

بدأ الحديثُ بالإبل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾؛ إذ هي عنصرٌ أساسٌ من حياة أهل البدو في صحرائهم؛ فهي أموالُهم ورواحلهم، ومنها مطعمُهم ومشربُهم وملبسُهم، فكانت عنايتُهم مصروفةً إليها؛ ثمَّ لمّا كان انتفاعهم بها لا يتحصَّل إلّا بأن ترعى وتشرب، كان جلُّ مرمى غرضِهم نزولَ المطر، وأهمُّ مسارح النّظر

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308.

(2) العليميّ، فتح الرحمن: 7/ 351، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 137.

عندهم هي السّماء؛ ثمَّ لمّا كانوا مُضطرّين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصنٍ يتحصّنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلّا الجبال؛ ذَكَرَ نَصبَ الجبال. ثمَّ لمّا كان عقدُ الهمّة عندهم هو التنقّل في الأرض؛ ناسب ذكر الأرض كذلك[1]. أو يُقال: لمّا كانت الإبل مَحطَّ عنايتِهم إذ بها أهمُّ مقوّمات معيشتِهم وحياتِهم ناسب البدء بذِكْر الإبل، وانتقل مِن الإبل إلى ما يرونه أمامهم ليلًا ونهارًا من سماء رفعت بلا عمدٍ، وللسماء عند العربِ مكانة خاصَّة ينظرون إليها نهارَهم وليلَهم في إقامتِهم وظعنِهم، يستنزلون منها الغيث ويَتعرَّفون من النُّجوم ومنازِلِ الشَّمسِ أوقاتَ اللَّيلِ والنَّهارِ ووجهة السَّيرِ، فإذا نزلوا بأنظارِهم قليلًا نظروا إلى الجبالِ الشّامخة الثّابتة، وكانت الجبالُ منازلَ لكثيرٍ منهم. وينزلون سُفوحها ليكونوا أقرب إلى الاعتصام بها عند الخوف ويتَّخذون فيها مَراقِبَ للحراسة. ثمّ نَزلوا بأنظارِهم إلى الأرضِ وهي تَحتَ أقدامِهم وهي مَرعاهُم ومُفتَرَشُهُم وموضعُ مَهدِهم للسَّير فيها والجلوس والاضطجاع عليها[2].

### بلاغةُ الاستفهامِ بـ﴿كَيۡفَ﴾:

الحَـــثُّ على النّظرِ إلى جميعِ أحـــوالِ خـلـقِ الإبـلِ لتنوُّعِها وغرابتِها

عبّر باسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ الدّالّ على عموم الأحوالِ والهيئات في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ جميع أحوال ما قيّد به اسم الاستفهام هو محلُّ نظرٍ، وأنّه يورِث معرفة الصّانع ووحدانيَّتِه وقدرتِه وحسنِ تدبيرِه. ففي التّعبير بـ﴿كَيۡفَ﴾ حثٌّ على النَّظر إلى جميع أحوالِ خَلقِ الإبل؛ أيْ إنَّ أحوالَها متنوّعةٌ عجيبةٌ. والمعنى: (أفَلا يَنظُرونَ إلى الإبِلِ هَيئَةِ خَلقِها).

### دلالةُ مجيءِ جملةِ ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ بدلًا من ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾:

لمّا كانت جملة ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ بدل اشتمالٍ من ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾[3]؛ كان

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 257.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 770، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 301.

النّظرُ يكونُ إلى الإبلِ نفسِها مع مزيدِ اعتناءٍ إلى النّظرِ إلى حالِ خلقِها وهيئتِه

المعنى: (أفلا ينظرون إلى الإبل هيئةِ خَلقِها). وعبّر بأسلوب مجيء البدل والمُبدَل منه ولم يَقُلْ مثلًا: (أفلا ينظرون إلى هيئةِ خلقِ الإبل أو إلى أحوالِ خلقِ الإبل)؛ لأنَّ المقامَ مقام إنكارٍ وتعجيبٍ من عدم النّظر إليها نظرَ تدبُّرٍ واعتبارٍ؛ فاقتضى الاعتناء بشأنِها؛ فذَكَرَ البدل ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾، ليظهر بمجموع القصديْن - أي: البدل والمُبدَل منه - مزيد اعتناء بشأنِ الإبل وخلقِها، ففي التّعبير إيماءٌ إلى أنَّ النّظر يكون إلى الإبل نفسِها مع مزيد اعتناء إلى النّظر إلى حالِ خلقِها وهيئتِه. فالبدل والمُبدَل منه مقصودان بالنَّظَر.

**سرُّ تقييدِ الاستفهامِ بقيدِ ﴿خُلِقَتۡ﴾ و﴿رُفِعَتۡ﴾ و﴿نُصِبَتۡ﴾ و﴿سُطِحَتۡ﴾:**

بيانُ أظهرِ الأدلَّة على خلقِ الله ووحدانيَّتِه

لمّا كان الاستفهام بالأداة ﴿كَيۡفَ﴾ على معنى السّؤال عن الحالِ والهيئة، ولمّا علّق الفعل ﴿خُلِقَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ عمّا فيه الاستفهام، لم يبق الاستفهام على حقيقته[1]. فالاستفهام مجازيٌّ يُقصد به التّعجيب من عموم أحوال خلقِ الإبل؛ ومثله يُقال في الاستفهامات التّالية. ولمّا كان الاستفهام المجازيُّ في سياق الإنكار على الكافرين أهل الشّقاء كان الإنكار على عدم نظرهم إلى ما قيّد به الاستفهام بـ﴿كَيۡفَ﴾؛ وهو النّظر إلى أحوالِ الإبل والسّماء والجبال والأرض بالكيفيّات المعدودة في قوله: ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾؛ أيَ: لَمۡ يَنۡظُروا إلى دقائقِ هيئاتِ خلقِ الإبل، وهيئاتِ رفعِ السّماء، وهيئاتِ نصبِ الجبال، وهيئاتِ سطحِ الأرض؛ فإنَّ النّظر إلى أحوال هذه المخلوقات بالهيئات المذكورة أقرب إلى ظهور الحُجّة على قدرة الصّانع ووحدانيَّته والإذعان لها؛ بمعنى أنّه تعالى ذَكَرَ في كلِّ نوعٍ أظهرَ دليلٍ على خلقِه ووحدانيَّتِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 465، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 15.

### سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿خُلِقَتۡ﴾ دلالةً وصيغةً:

النّظرُ إلى الخَلْق يـوصِـلُ إلى معرفةِ الخالقِ

عُبِّر بالفعل ﴿خُلِقَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ للإشارة إلى أنَّ النَّظرَ في هيئةِ خَلقِ الإبل يورِث معرفة الخالق وكمالِ قدرتِه تعالى وحُسنِ تدبيره. ولمّا كان المقصود النّظر إلى أظهر دليلٍ يدلُّ على الخالقِ ووحدانيَّته وحُسنِ تدبيره عبّر بمُفرَدَة ﴿خُلِقَتۡ﴾ دون غيرِها؛ للإشارة إلى أنَّ جميعَ أحوالِ خلقِ الإبلِ يدلُّ على الخالقِ ووحدانيَّتِه وبراعة صنعِه وتدبيرِه؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الكافرين كأنَّهم لم ينظروا إلى أيِّ حالٍ من أحوالِ خلقِ الإبل نَظرَ تَدَبُّرٍ واعتبارٍ؛ فاستحقّوا الإنكار عليهم وتوبيخهم وتقريعهم. وفي التّعبير بالفعل ﴿خُلِقَتۡ﴾ كذلك حثٌّ على النّظر إلى جميع أحوالِ خلقِ الإبل وحسن تناسقِه وبديع صنعِه؛ وجاء الفعل بصيغة المبنيِّ للمفعول لأنَّ الكلامَ مسوقٌ إلى أنَّ النّظر في الأثر يورث معرفة الصّانع؛ فمجرَّد النّظر في هيئة خلقها يورث العلم بالفاعل وإحاطة علمِه وعظيم قدرتِه وحسن تدبيره.

### بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في الآياتِ:

مـنـاسـبـةُ الـجـمـعِ بين الإبلِ والسماءِ والجبالِ والأرض لطبيعةِ حياةِ العربِ

مناسبة الوصل في الجُمَل ﴿إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ واضحةٌ جليّةٌ، فهي جميعًا قريبةٌ من أبصارِهم، تنتظم في نظرِ جمهور العربِ الذين نزل فيهم القرآن من أهلِ تِهامَة والحجازِ ونَجْدٍ وأمثالِها من بلاد أهل الوَبَرِ والانتجاع. وتنقُّلُ النَّظر بين هذه المخلوقات تنقُّلٌ مُنسابٌ من غير تكلُّفٍ لارتباط بعضِها ببعضٍ في حياةِ المُخاطَبين وقت نزول القرآن؛ فناسب عطف بعضِها على بعضٍ لوجود الجهة الجامعة بينها؛ فالجمع بين الإبل والسّماء والجبال والأرض بما قيّدت به على مجرى الإلْف والعادة في حياة مَن نزل فيهم القرآن المجيد.

**معنى (إلَى) وسببُ تكرارِها:**

عُبِّر بحرفِ الجرِّ (إلَى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ للتّنبيه على وصول النّظر وإمعانِه إلى المنظور إليه وهو كيفية رفع السّماء؛ بمعنى أن يكون على جهةِ التمكُّنِ من النَّظر، وكُرِّر حرفُ الجَرِّ للإشعار باستقلالِ كلِّ منظور في الحثِّ على النّظر إليه، وبأنَّ كلَّ ما دُعي إلى النّظر إليه قريبٌ من أنظارِهم لا يغيب عنهم، فيتقرّر معنى التّعجيب من عدم نظرهم وانتفاعِهم.

**التّعجيبُ من عدمِ النّظرِ إلى مخلوقاتِ الله مع قُربِها وظهورِ دلائلِها**

**دلالةُ ذِكرِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بصيغةِ المُفرد:**

عُبِّر بلفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بصيغة المُفرَدِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ الكلام في سياق الاستدلال على الخالقِ، و(أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ؛ أيّ: إلى السّماء المعهودة عندهم التي لا تغيب عن أنظارِهم.

**بلاغةُ تكريرِ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:**

تكرَّر اسم الاستفهام المجازيّ ﴿كَيۡفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ للإشارة إلى اختلاف أحوال خَلْق الإبل عن أحوالِ رفع السّماء، وأحوال نصب الجبال، وعن أحوال سطح الأرض؛ فتنوَّعت الأحوال ومآلاتها في الاستدلال على الخالقِ ووحدانيَّتِه.

**نكتةُ التّعبيرِ بمُفردَة ﴿رُفِعَتۡ﴾:**

عُبِّر بمُفردَة ﴿رُفِعَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ للإشعار بأنَّ هيئةَ رفعِ السّماء ممّا يُتعجَّب منه، لكونها بعيد المدى، بلا إمساكٍ وبغير عمدٍ ترونها؛ وأنَّ رفعَها بهذه الهيئة لا يكون إلّا من خالقٍ قادرٍ حكيم في صنعِه وتدبيرِه؛ فالسّماء قد رُفعَت مع ما لها من السَّعة والكِبَر والثِّقَلِ والإحكام، وما فيها من النّجوم والكواكب المتنوّعة المُتعدِّدة. والبناء للمفعول دليلُ حصولها بأيسر أمرٍ[1].

**هيئةُ رفعِ السّماءِ أمرٌ عجيبٌ يدلُّ على قُدرةِ رافعِها وحُسْنِ تدبيرِه**

(1) البقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 22/ 16.

### توجيهُ العطفِ بالواوِ:

لمّا ذكرَ العاليَ من الحيوانِ - وهو الإبل - الملابِسِ للانسانِ، والعاليَ من الأكوان - وهو السّماء -، أتبعه ذِكرَ أعلى الأرض فقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾[1].

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ وجمعِهِ:

النّظر إلى هيئة الجبال وتنوّع أحوالِ شموخِها وثباتِها أدلُّ على المطلوب

(أل) في ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ للعهدِ؛ أي: (الجبال المعهود عندهم المنظور إليها بأبصارِهم)، وجاء ذِكْر ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ النّظر إلى هيئة الجبال وأحوالِها بمجموعِها أدلُّ على المطلوب، وذلك بتنوُّع أحوالِ شموخِها وارتفاعِها وثباتِها؛ فهي عاليةٌ جدًّا على بقيَّة الأرض بلا موجِبٍ فيها لذلك مِن طبيعةٍ ولا غيرها، بل بفِعل الفاعل المختار فهي راسخةٌ ثابتةٌ لا تميلُ، وبها مع ذلك ثبتت الأرض وحُفظت من المَيدِ[2].

### نكتةُ التّعبيرِ بمفردةِ ﴿نُصِبَتۡ﴾:

عبّر بمفردة ﴿نُصِبَتۡ﴾ للدِّلالة على أنَّها وضعت قائمةً ثابتةً بحيث إنَّ رؤوس الجبال تكون ناتئةً بالنّظر إلى أسفلِها، وفي المُفردة إشارةٌ إلى انتفاعِهم من الجبال بكونِها علامات لهم في الأرض، فإنَّ النُّصُبَ جماعَةُ النَّصيبة، وهي علامةٌ تُنصَب للقَوم[3].

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد؛ فالمُراد: الأرض المعهودة عندهم، وهي أرضُ كلِّ قومٍ لا مجموع الكرة الأرضيَّة[4] بقرينة قيد الفعل ﴿سُطِحَتۡ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 16.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 16.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصب).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.

### نكتةُ التّعبيرِ بمُفردةِ ﴿سُطِحَتۡ﴾:

عبّر القرآن الكريم بالفعل ﴿سُطِحَتۡ﴾ للإشارة إلى موضع الانتفاع من الأرضِ، والمعنى: (كيفَ سوّيت وبُسطت بحيث يسطح عليها حتى صارت مهادًا موضوعًا وبساطًا ممدودًا يمشى عليه بغاية السهولة)، وإنّما ذكرَ الأرض بحال سطحِها، ولم يَقُلْ: (كيف مُدّت أو كيف بُسِطت)؛ لأنَّه ليس المقصود بيان خلقِها على هذا النّمط البديع؛ بل المقصود بيان عَظَمَةِ الصّانع في هيئة خلقِه وحسن تدبيره وقدرتِه على البعثِ مع الامتنان على العباد فيما خلقَ، فكما أنَّ السّماء رفعت والجبال نصبت؛ فهذه الأرض سُطحت؛ ولو كانت كلُّها جبالًا أو أسنمةً كأسنمة الإبل، لما أمكن الانتفاع بها والسير فيها. فهي مع ارتفاع بعض أجزائها، قد سطحت أكثرُ أجزائِها، ليستقرّوا فيها بحيث يليق أن يُنتفَع بها مشيًا عليها والزّراعة وغرس الأشجار فيها؛ لتكون مهادًا للناس، وبساطًا ممدودًا لمرعاهم ومفترشهم[1].

الأرضُ موطنُ الاستقرارِ والانتفاعِ والسّعي لتحصُّل الرّزقِ

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### النّصب والرّفع:

الفرق بينهما أنَّ (النّصب) بمعنى إقامة الشَّيء إلى أعلى قويًّا متماسكًا على وضعٍ مستقيمٍ دائمٍ، بحيث يكون قائمًا على شيءٍ ثابتٍ لا يميد به، ويكون ناتئًا بالنّسبة إلى أسفلِه. وأمّا (الرّفع) فإنَّه يأتي بمعانٍ، منها تطويل البناء وإقامتُه إلى علوٍّ. فأوثر استعمال لفظ ﴿نُصِبَتۡ﴾ للجبال لِما يدلُّ عليه اللفظُ من جعلِ الجبال قائمةً متماسكة في وضعٍ مستقيمٍ ثابتةً في نصبِها رفيعةً في رؤوسِها قائمةً على قاعدةٍ واسعةٍ. وقد استعمل (الرفع) مع السّماء؛ لأنَّ الرّفع

النّصبُ يدلُّ على التّماسكِ والثّباتِ بقوّةٍ، والرَّفعُ على العُلوِّ مع وجودِ فراغٍ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1543.

يقتضي فراغًا لِما دونَه، ويُقال في الأجسام الموضوعة إذا أُعْلِيَتْ عن مَقَرِّها[1]، فالسّماء مرفوعة وبينها وبين الأرض فراغٌ.

**السّطح والبسط:**

السّطح يدلُّ على بسطِ الشّيءِ وسعتِهِ ومدِّهِ ليكونَ مُعَدًّا للانتفاعِ عليه

(السّطح) يدلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه[2]، بحيث يكون مُهيَّئًا للمهاد والمعاش والافتراش، و(البسط) نشر الشّيءِ وتوسيعه، ومنه: بساط الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: 19] والبِساط: الأرض المتَّسعة[3].

(1) الرّاغب، المُفردات: (رفع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطح).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بسط).

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾ [الغاشية: 21 - 24]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الحثُّ على التَّذكيرِ بدلائلِ خلقِ الله وعظيمِ صُنعِه

لمّا دلَّ ما ذُكر مِن عجائبِ صُنعِه تعالى في أنواعِ المخلوقاتِ من البسائط والمُركبّات العلويّات والسّفليّات على كمال قدرته على كلِّ شيءٍ، فدلَّ على كمال قدرته على البعث وعلى كلِّ ما ذَكَرَ أنَّه يفعلُه في الجنَّة والنّار، وكان الحثُّ على النَّظرِ في هذه الأشياء باستفهام إنكاريٍّ، وكان ذلك مُفيدًا لانتفاء النَّظر، قال تعالى مُسبِّبًا عنه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾؛ ولمّا أمَرَ اللّه تعالى رسولَه بالتّذكير أخبره تعالى بأن لا عليه إن لم ينظروا في المخلوقات العجيبة الدّالَّة على كمال قدرته ولم يتّعظوا بتذكيرِه؛ لأنَّه ما عليه إلّا البلاغ، فنفى عنه أن يكون مُسيطرًا على النّاس فقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾. ولمّا نفى عنه سيطرتَه على النّاس، وكان التقدير: (فمَنْ أقبل وآمن؛ فإنَّ اللّه يُنعِّمه النَّعيم الأكبر)، قال مستدركًا قسيمهم من أهل الشّقاء في صورة الاستثناء، فقال: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، ثمَّ أخبر تعالى انَّه ينتج عن كفرِه وتولّيه عذابَه في الآخرة العذاب الأكبر؛ فقال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾[1].

## شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذَكِّرۡ﴾: يدور معنى (ذكر) على قوَّةِ الشَّيءِ وصلابةِ مادَّته بحيث ينفذُ. والأصلُ في الذِّكرِ أن يجري لفظُ شيءٍ على اللّسان بأن يكون بالصّوت ويتبعه وجودٌ في الأسماع والقلوب. والتَّذْكِرَةُ: ما

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 22/ 17 - 18.

يُتذكَّرُ به الشَّيءُ، والتَّذكيرُ بالشّيء إعادة ذِكْرِه على سبيل الإكثار منه؛ لأنَّ ذِكْرَ الشَّيء يعني بقاءَه قويًّا واضحًا في الذّهنِ. ولمّا كان التّذكير بالشّيءِ إعادةً لِذكْرِه كان التّذكير، أو التذكُّر يصلحُ لِما هو ضدُّ النِّسيانِ، ولمعنى الوعظ[1]. ومعنى ﴿فَذَكِّرْ﴾ بمعنى: أكثِرْ من ذِكْرِ حقائق الأمور وأدلّتها على ما فيه صلاحهم في الدّنيا والآخرة.

2) ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: (سطر) أصلٌ يدُلُّ على اصطفاف أفرادٍ أو أشياء طوليًّا بانضباط، كالصَّفِّ من الشَّجر وغيره؛ ومنه سَطَر فلانًا: صَرَعه (فامتدَّ على الأرض)، والكتابَ: كتَبَه " (سَطْر الكتابة صَفٌّ من الكلمات متجاورة على امتدادٍ واحدٍ؛ فتبدو مسترسلة الامتداد)[2]، وتسيطر فلانٌ على قومه: إذا تسلَّط عليهم[3]. والمسيطِرون: الأرباب المسلِّطون؛ فالمسيطر هو المُتعهِّد للشيءِ القائم عليه على جهة التَّسلُّط. ويُقالُ: صَيْطَر وسَيْطَر بالصّادِ والسّينِ[4]. و﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمعنى مُسَلِّطٍ[5]، أو بمجبرٍ مكرِه[6]؛ أيْ: لستَ عليهم بقائم مسلِّطٍ تُجبرهم على ما تريد.

3) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أصلٌ يدُلُّ على قُربٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ؛ أيْ: قُرْبٍ. وجَلَسَ مِمّا يَليني؛ أيْ: يُقارِبُني[7]. وإذا عدّي الفعلُ (تولَّى) بنفسه اقتضى معنى الوَلايَةِ والاتّباع، وحصوله في أقرب المواضع منه. وإذا عدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا - كما في الآية - اقتضى معنى الإعراضِ، وتَرْك القربِ. والتَّوَلّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ[8]. ومعنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾: أعرضَ عن إجابتِك[9]، أو أعرض عن الإيمان[10].

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ بدوام التّذكير، فيقول: فذكِّر - يا محمَّد - النّاسَ بآياتِ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سطر).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 390، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سطر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سطر).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 258.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 307.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(8) الرّاغب، المُفردات: (ولي).
(9) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 327.
(10) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 478.

اللّه وعِظْهمْ بها، فلا عليك إنْ لم ينظروا ولم يتذكّروا؛ فما أرسلتُك إلّا مُذكِّرًا مُبلِّغًا، ولستَ على النّاس بمُتسلِّطٍ فتكرههم على الإيمان باللّه وعلى طاعتِه، لكنْ مَن أعرض عن الحقِّ وعن إجابتِك وكفرَ بعد تذكيرِه فيعذّبه اللّه في الآخرة العذاب الأكبر في النّار[1].

المواصلةُ في الدّعوةِ والإرشادِ دون كَللٍ أو ملالٍ

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾:

دوامُ التّذكيرِ بدلائلِ صنعِ الله وإن استمرَّ إنكارُ المُنكِرين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ فصيحةٌ، للتّفريعِ على مُحصَّل ما سبقَ من أوّل السّورة الذي هو التّذكير بالغاشية وما يكون عليه حالُ أهل الكفر من العذاب، وحالُ أهل الإيمان من النّعيم يوم تغشى النّاسَ، وما يفيده من إنكارِ أهل الشّقاء البعثَ يوم القيامة. ولمّا كان الاستفهام الإنكاريُّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ دالًّا على انتفاء نظرِ المشركين مُنكري البعثِ، ترتّبَ أمْرُ اللّه رَسولَهُ ﷺ بالتّذكير[2]؛ أيْ: لمّا كان منهم الإنكار وانتفاء النّظر على جهة التدبُّر والاعتبار ترتّب عليه أمرُ رسولِه ﷺ بالتّذكير[3].

### نكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بمُفردةِ (ذَكِّر):

التّذكيرُ يكونُ بلطفِ الكلامِ وجمالِ العبارةِ

أوثر التّعبيرُ بمُفردة (ذَكِّر) في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ لمناسبتِها للمقام، وذلك للإشارة إلى أنَّ الآيات المذكورة في السّورةِ هي آيات تذكير؛ لأنّها اشتملت على الإخبار بوقوع يوم القيامة وبيان وصفِها من كونِها غاشيةً تغشى النّاسَ جميعًا لِعظَم شأنِها، وأخبرت عمّا يكون عليه حالُ النّاس يوم القيامة من كونهم صنفيْن؛ فمنهم أهل الشّقاء ومنهم أهلُ النّعيم، مع ذِكْر الأدلّة الظّاهرة لأنظار النّاس جميعًا على قدرة اللّه ووحدانيّتِه. فالمُنكِر

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 436، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 151.

إنّما ينكر عن عنادٍ وشهوةٍ لا عن جهلٍ وانتفاء علم، لظهور الأدلَّة ووضوحِها. فلمّا كانت الأدلَّة ظاهرةً أوثِر التّعبير بمفردة (ذَكِّر)، دون أن يُقال: (فوبِّخ على عدم نظرِهم) مثلًا؛ لأنَّ التّذكير الذي هو إعادة ذِكْر الشّيء لتثبيتِه في نفس المخاطب إنّما يكون فيما هو ظاهر المعنى واضح الدّلالة. وفيه إشارةٌ إلى اللّطف في التّذكير بما يكون فيه القبول. وكذلك أفاد التّعبير بـ(ذَكِّر) أنَّ التّذكير قد يوصِل المُتذكّر إذا أقبل عليه بحسن رغبةٍ إلى الانتفاع بنظرِه إلى بدائع صنعِ اللّه. وفي التّعبير أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه لا يكفي النّظر مرَّة واحدة إلى أحوالِ مخلوقات اللّه تعالى الظّاهرة، ليكون نظر اعتبارٍ وعِظَةٍ، فدلَّ على الحثِّ على تكرار النّظر وإدامتِه.

### دلالةُ الأمرِ المُضعَّفِ ﴿فَذَكِّرۡ﴾:

الاستمرارُ والتَّكرارُ لتمامِ الاعتبارِ

أفاد التّعبير بصيغة الأمر المُضعَّف العين: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ المبالغةَ في التّذكير وتكرارَه مرَّةً بعد مرّة، فالأمر يفيد طلب الاستمرار بالتّذكير ودوامه بالتّكرار[1]. فدلَّ الأمر على دعوة النّبيِّ ﷺ إلى الاستمرار في تذكير النّاسِ بهذه الآيات التي تحدَّثت عن قدرة اللّه سبحانه، وعن حكمته، ليكون فيها تذكرة لِمَن يتذكَّر، وعبرةً لِمَن يعتبر.

### بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَذَكِّرۡ﴾:

التّذكيرُ يكون لكلِّ النّاسِ من المؤمنين والكافرين

حُذف مفعولُ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ من اللفظ في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ لقصد العموم؛ أيْ: (فذكّر كلَّ شخصٍ)[2]. والسَّبب أنّه ﷺ مُقتصرٌ على كونِه مُذكِّرًا، فمُقتضى الاتّصافِ بوصف التّذكير أن يكون التّذكير لكلِّ شخص. فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ بُعِثَ إلى النّاسِ كافَّةً؛ أيْ: (ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 242.

مكانٍ)[1]. ويحتمل أن يكون المفعول محذوفًا من اللفظ مقصودًا في المعنى، بأن يكون ضميرًا محذوفًا دلَّ عليه قَوْلُهُ بَعده: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2]؛ أيْ: (فذكّر الكافرين فإنّما أنت مُذكِّرٌ لهم لست عليهم بمسيطر). ويحتمل كذلك أن يكون الحذف على إرادة عموم المفعول، المُقيَّد باستثناء مَنْ تولَّى وكفر؛ فالتّقدير: (فذكّر كلَّ مَنْ يُرجى تذكُّره وانتفاعُه بالتَّذكيرِ)، وفي هذا الوجه توبيخٌ لِمَنْ لا يُرجى انتفاعه من التّذكير بسبب الإعراض عنه؛ لأنَّه في مقامِ توبيخِ مَنْ لا يستحقُّ التّذكير. ويحتمل أن يكون حذف المفعول على إرادة مجيء الفعل بمعنى الفعل اللّازم؛ للإشارة إلى إثبات معنى التّذكير في نفسِه لرسول اللّه ﷺ بمعنى أنَّ من شأنِ رسول اللّه ﷺ أن يكون منه التّذكير، وليس من شأنِه شيءٌ آخر، فيكون قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تقريرًا للمعنى. وعلى هذا الوجه الأخير يكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ من ﴿عَلَيْهِم﴾، ولا يصحُ أن يكون من ﴿فَذَكِّرْ﴾ لأنَّه لا مفعول له.

### دلالةُ التّعليلِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَآ﴾ بتصديرِ الكلامِ بـ(إنَّ):

دحـضُ الشُّبهِ وإزالـةِ الظّنونِ الخاطئةِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالدّوام على التّذكيرِ مع عدم إصغائِهم ودوام إعراضِهم؛ أيْ: (فلا تتحرَّج من عدم تذكيرِهم؛ فأنت غيرُ مُقصِّرٍ في تذكيرِهم). فإنَّ (إنَّ) على موضعِها في الدِّلالة إذا جاءت رابطةً لجُملةٍ بعد جملةٍ على سبيلِ الاحتجاج أن تكون على معنى فاء السّببيَّةِ في مجرى التّعليل؛ وقد يُقال: إذا كان موضع ﴿إِنَّمَآ﴾ هو التّعليل وأنَّه يقوم مقام فاء السّببيَّة فلِمَ لم يَقُلْ: فذكّر فأنت مذكّر؟ والجواب هو أنَّه لمّا كانت (إنَّ) الرابطة بين جملتيْن على معنى السّببيَّة في مقام الجواب عن سؤالٍ

(1) ابن عُثيمين، جزء عمَّ، ص: 181.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.

يكون للسّائل ظنٌّ في المسؤول عنه على خلاف ما أُجيب عنه[1]، كان التّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في مَحَزِّ البلاغة، والمعنى أنَّ رسول الله ﷺ لمّا كان يهتمُّ في نفسِه من عدم إصغاء الكافرين إلى آيات الله وإعراضِهم عن النّظر إليها نظَرَ تدبُّرٍ واعتبارٍ، ولمّا كان حريصًا على إيمانِهم وكان حزنُه عليهم من الشِّدَّة بمثابة مَن يظنُّ أنَّ عليه تبعة عدم إيمانِهم، عَبَّرَ بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ لتأكيد كونِه ﷺ مُذكّرًا وليس بمُسيطرٍ عليهم. وأمّا اتّصال (ما) الكافَّة بـ(إنَّ) فلا يخرجها من دلالتِها ومهيعها[2].

### بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾

تثبيتٌ وإيناسٌ للنبيّ ﷺ، وتطمينٌ لنفسِه الزّكيَّة

القصرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ إضافيٌّ؛ أيّ: (أنت مُذكِّرٌ لست وكيلًا على انتفاعِهم من تذكيرِك، فلا عليك من عدم تذكُّرهم ولا تتحرَّج منه)، وأفاد القصر تخصيص أمر رسول الله ﷺ بوصف التّذكير، وحصر شأنِه على كونِه مذكّرًا؛ أيِ: (الواجب عليك التّذكير والتّبليغ)؛ ليفيد نفي تبعيَّة عدم تذكّرهم؛ أيّ: (فلا عليك إن لم ينظروا ولم يتذكّروا، ولا يُهمنَّكَ أمرهم، ولا تيأس من إصرارِهم على عدم اتّباعِك، والإعراضِ بما ألقي إليهم من الأدلَّة الظّاهرة والمواعظ البيّنة). وفي تخصيص أمر رسول الله ﷺ بكونِه مُذكِّرًا تثبيتٌ وإيناسٌ له ﷺ، وتطمينٌ لنفسِه الزّكيَّة، بأنَّه لم يُبعث ملجئًا لهم على الإيمان، وأنَّه لا تبعةَ عليه من عدم إصغائِهم.

المُعانِدُ المُغلِّب الهوى يفوتُهُ فضلُ التّذكيرِ ومنافعُهُ

وفي القَصْر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ معنًى ثانٍ غير إرادة نفس معنى جملة القصر، وهو التّعريض[3] بذمِّ المُعرِضين عن التّذكير وعدم انتفاعِهم منه، وأن يُقال إنَّهم من فرطِ عنادِهم وغلبة الهوى عليهم لم ينظروا

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 326.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 306.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 354 - 355.

ولم يتذكّروا، وفي القَصْرِ كذلك إنذارٌ لهم من عدم تذكُّرهم أو عدم الاستماع إلى تذكيرِه، بمعنى أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ليس له إلّا التّذكير؛ فمَنْ لم يتذكّر ولم ينتفع من تذكيره فمآله يوم القيامة أن يكون من أهل الشّقاء.

### وجهُ التَّعبيرِ بالضمير ﴿أَنتَ﴾:

خصوصيَّةُ منزلةِ رسولِ الله ﷺ

يُقصدُ بضميرِ المُخاطَب ﴿أَنتَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ رسولُ اللّه ﷺ. وعُبِّر بالضَّمير للإشارة إلى ما اتصّف به في الخِطاب في أوّل السّورة من كونه مبلِّغًا بالغاشية وبما يكون عليه أهلُ الشَّقاء وأهلُ النَّعيم يوم القيامة. وفي التّعبير بضمير المُخاطَب المُفرد إقبالٌ على المُخاطَب ﷺ تكريمًا له وزيادةً في المنزلة والمكانة والقرب وتثبيتًا لنفسِه.

### دلالةُ اسمِ الفاعلِ المُنَكَّر المُضعَّف ﴿مُذَكِّرٌ﴾:

عُبِّر بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ للإشعارِ بأنّ التّذكير وصفٌ ثابتٌ له لا ينفكُّ عنه ﷺ، وأنّه مداومٌ عليه لا تفتر همّته.

### بلاغةُ الفصلِ في جملة ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾:

الـرُّسـلُ هـداةٌ مُـرشـدون، لا أربـابٌ مُسيطرون

جاءت جملة: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها بدلُ اشتمالٍ مِن جُملة القصر باعتبار جانب النّفي الذي يفيده القصر[1]، ليظهر بمجموع القصديْن - أي: البدل والمُبدَل منه - مزيدُ اعتناءٍ بهما؛ وبيانه أنَّه لمّا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أفاد معنى: (أنْ لا عليك مِن عدم نظرِهم وعدم تذكّرِهم مِن تذكيرك) جاءت جملة: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ لتُفيدَ تقريرَ النّفي المُفاد من القصر، وتحقيقَ مَعْنى الإنذار المُفاد منها؛ أيْ: (إنّما الواجب عليك التّذكير، لستَ بمُتسلِّطٍ عليهم تجبُّرهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 307.

على ما تريد)[1]، ويُلمح في جملة: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ معنى التّعليل لقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[2]؛ أيْ: (إنَّما أنت مذكِّرٌ لأنَّك لستَ عليهم بمُسيطِرٍ فتجبرهم على الإيمان، ولستَ بمتسلِّطٍ على عقولِهم وقلوبِهم).

### وجهُ النَّفيِ بـ(لَيۡسَ):

أفاد النّفي بـ(لَيۡسَ) في قولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ نفي اتّصاف الخبر بالاسم؛ والأصلُ في النّفي بـ(ليسَ) أن يكون لنفي الحال؛ لكنّها هنا تُفيد النَّفيَ على الإطلاق، فيكون النّفي في قولِه: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ من قبيل النّفي المستمرِّ، بقرينة قِصَرِ أمرِه ﷺ على كونِه مُذكِّرًا، فإن كان الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ مُنقطعًا تقرّر النّفي المستمرُّ، وإن كان مُتَّصِلًا كان النّفي مُستمرًّا إلّا ما استُثني، كما سيأتي. والمعنى على العموم: نفيُ اتّصافِه ﷺ بكونِه مُسيطرًا عليهم مُجبرًا لهم على الانتفاع بتذكيرِه.

ليس رسولُ الله ﷺ مُسيطرًا على المُنكِرين مُجبِرًا لهم على الانتفاعِ بتذكيرِه

### عودُ الضَّميرِ في ﴿لَّسۡتَ﴾:

لمّا كان الضّمير في ﴿لَّسۡتَ﴾ يعود إلى رسول اللّه ﷺ - وهو المقصود الأوّل بالخطاب - بما اتّصف به من كونِه مقصورًا على التّذكير؛ كان المعنى: (لست - أيُّها المذكِّر - عليهم بمسيطرٍ).

### معنى (عَلَى) في قولِه: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم﴾:

حرفُ الجرِّ (عَلَى) يفيد معنى الاستعلاء والتمكّن، والفعل (سيطر) يتعدَّى بـ(على)، لِدلالة الحرف على الاستعلاء المناسب لدلالة (سيطر)؛ فأفاد التّعبير بـ(عَلَى) في قولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ نفيَ تمكُّن سيطرتِه ﷺ عليهم وإكراهِهم على الانتفاع من تذكيرِه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 151.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 240.

مَن لا يعبأُ به رسولُ الله ﷺ فلينتظرِ الوعيدَ

### فائدةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾ على مُتعلَّقِه ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ لرعاية الفاصلة لا للقصرِ[1]، فإنَّه ﷺ ليس بمُجبِرِهم ولا بمُجبِرِ أحدٍ سواهم على الإيمان، وإنّما خصَّهم بنفي سيطرتِه عليهم على سبيل تثبيتِه ﷺ ولأجلِ إنذارِهم وتخويفِهم، ففيه إيماءٌ إلى أنَّه ينبغي على رسول اللّه ﷺ أن لا يعبأ بهم ولا يهتمَّ بهم بسبب كفرِهم وإنكارِهم. ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ في تقديم ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾ تأكيدًا للنّفي كذلك.

### معنى الباء في قوله: ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾ زائدةٌ لتأكيد النّفي، لتفيد تأكيدَ نفي كونِه ﷺ مسيطرًا عليهم، وترسيخ نفي هذه الصّفة عنه.

### نكتةُ التّعبيرِ بمُفردةِ (مُصَيطِرٍ) اسمَ فاعلٍ مُنكَّرٍ:

المـؤمـنُ ليس بـمُـسـلَّـطٍ على الـكـافـريـن لـيُـكـرِهَـهـم على التَّذكُّرِ والإيمانِ

عَبَّر القرآن الكريم بمُفردة (مُصَيطِرٍ) في قولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ لِما تدلُّ عليه المُفردة من نفي قيامِه ﷺ قيام المُتعهِّد بهم المُسيطِر عليهم بالإكراه. وفي التّعبير ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾ دلالة على كونِه ﷺ ليس بجبّارٍ عليهم ولا مُسلَّطٍ عليهم ليُكرههم على التّذكُّر والإيمان. وأفاد التّعبيرُ بصيغةِ اسم الفاعل على نفي ثبوت هذا الوصف له ﷺ. ولمّا جاء اللفظ نكرةً وكان في سياق النّفي؛ أفاد نفيَ الوصف المذكور مطلقًا، بمعنى نفي أيِّ سيطرةٍ له ﷺ عليهم.

### بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ:

تطمينُ رسـولِ الـلـه ﷺ برفعِ التّبعةِ عنه جرّاء استمرارِ أكثرِهم على الكفرِ

لّما كان رسولُ اللّه ﷺ يعلم أنَّه غيرُ مُكلَّفٍ بإكراهِهم على الإيمان وغير واجبٍ عليه دخولهم في الإسلام كان الخبر في قوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ ليس على إرادة ظاهرِه؛ فالخبر مُستعمَلٌ في غير

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 240، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 307.

الإخبار، ليكون على طريق الكناية بتطمينِه ﷺ برفعِ التّبعة عنه جرّاء استمرارِ أكثرِهم على الكفرِ وعنادِهم فيه[1].

**بلاغةُ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾:**

**تكذيبُ رسولِ الله ﷺ موجِبٌ للعذابِ الأكبرِ يومَ القيامةِ**

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ مُنقطعٌ من الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِم﴾[2]، فـ﴿إِلَّا﴾ بمعنى حرف الاستدراك (لكن). فيكون الاستثناءُ شروعًا في حكمٍ آخر غير حُكم المُستثنى منه مبيِّنٍ لحالِ المُعرِضِ عن التّذكرة والعظة، والتّقدير: (لستَ عليهم بمسيطرٍ؛ لكن مَن تولَّى عن التّذكير وكفرَ فيعذّبه اللّه العذاب الأكبر)؛ ليُفيد الاستثناء المنقطع إثبات الولاية والقهرِ للّه تعالى عليهم. وقرّر الزّمخشريُّ كون الاستثناء منقطعًا؛ لكنَّه وجّه المعنى على أن يكون بتقدير: (لست بمسؤول عليهم، ولكن مَنْ تولَّى وكفر منهم، فإنَّ للّه الولايةَ والقهرَ، فهو يعذِّبه العَذابَ الأَكۡبَرَ)[3]. ولعلَّه صوَّرَ الاستثناءَ وهو مُنقطعٌ بصورة المُتَّصلِ بالتَّعبير بأداتِه ﴿إِلَّا﴾، إشارةً إلى أنَّ العذاب من اللّه عذابٌ منه ﷺ؛ لأنَّ سبب عذابِهم العذاب الأكبر هو تكذيبهم له ﷺ[4]. وذهب بعض المُعربين والمُفسِّرين إلى أنَّ الاستثناء متّصلٌ من المفعول المحذوف في الفعل (فذكر)[5]؛ أيْ: (فذكِّر كلَّ أحدٍ إلّا مَن انقطع طمعك عن إيمانه وتولَّى فاستحقَّ العذاب الأكبر؛ أيْ: فإنَّ التّذكير لا ينفعه). وتكون جملة النّفي ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ اعتراضًا[6]. ووجّه بعض المفسّرين الاستثناء المُتَّصل على أنَّه مُستثنًى من ﴿عَلَيۡهِم﴾، والمعنى: لستَ عليهم بمُسلَّطٍ إلّا على

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 307.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 466.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 19.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 466.

(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 466.

مَن تولَّى وكفرَ؛ فأنت مسلَّطٌ عليه، واللّه يعذّبه بعد ذلك العذاب الأكبر[1]، وفيه إيذانٌ بالجهاد وأسرِهم. والقولُ إنَّ الاستثناء منقطعٌ أولى وعليه أكثرُ المُفسِّرين[2].

### مناسبةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَن﴾ وصلتِه:

تقبيحُ التَّولّي عن التّذكُّرِ وتقبيحُ الكفرِ باللهِ وبرسولِه

عبّر القرآن الكريم بالموصول وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لبيان وجه بناء الخبر، بمعنى أنَّ صلة الموصول سببٌ وعلَّةٌ لحصول الخبر، فتولّيهم وكفرُهم سببٌ في عذاب اللّه لهم العذاب الأكبر، ويؤيّد هذا المعنى اقتران الفاء بالخبر كما سيأتي؛ ففي التّعبير بالموصول وصلتِه غرضُ تقبيحِ التَّولّي عن التّذكُّر وتقبيحِ الكفر باللّه وبرسوله.

تولّي الإنسانِ عن التّذكُّرِ والكفرُ باللهِ سببٌ في تعذيبِ اللهِ له العذابَ الأكبرَ

وفي التَّعبير بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾ أيضًا قصد العموم، فيشمل كلَّ مَن وصف بذيْن الوصفيْن القبيحيْن، وعلى القول بأنَّ الاستثناء مُنقطعٌ - وهو الأوْلَى والأشهر - يكون ﴿مَن﴾ مبتدءًا، وخبره الجملة الفعليَّة ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾، وسبب اقتران الخبر بالفاء هو أنَّه لمّا كان الكلام استدراكًا لمجيء الاستثناء مُنقطعًا وكان المبتدأ اسمًا موصولًا؛ كان أشبَهَ بموقعِه وبعمومِه أسماءَ الشّرط، فأُدخلت الفاء في جوابِه، ومثله في القرآن وفي العربيَّة كثيرٌ. وفي اقترانِ الفاء شمَّةٌ من معنى الشّرط وسببيَّتِه، فتولّي الشّخصِ عن التّذكّر وكفره باللّه، كلاهما سببٌ في تعذيب اللّه له العذاب الأكبر.

### سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ دلالةً وصيغةً:

التّولّي عن التّذكُّرِ يخالف العقلَ المستقيمَ والفطرةَ المستقيمةَ

عُبّر بمُفردة ﴿تَوَلَّىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ للإشعار بتركِهم الإصغاء إلى التذكُّر وبُعدِهم عنه؛ لأنَّ التولّي عن الشّيء يقتضي معنى الإعراض والابتعاد عن الشّيء، فكأنَّهم كانوا

(1) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 574، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 37.
(2) المُنتَجب، الكتاب الفريد: 6/ 388.

يبتعدون بأجسامِهم إعراضًا عن تذكير رسول اللّه ﷺ لهم. ففيه ذمٌّ لهم على تولّيهم عن رسولِ اللّه ﷺ؛ لأنَّ مَنْ تولَّى عن تذكيره تولَّى عنه بعيدًا. وجاءت المُفردة بصيغة الماضي للدِّلالة على تحقُّقِ وقوع تولّيهم، وجاء بصيغة (تفعَّل) للدِّلالة على تكلُّفِهم في التَّولّي واجتهادِهم فيه، للإشارة إلى أنَّ تولّيهم عن التَّذَكُّر يخالف فطرتَهم المستقيمة. فالتّعبير بلفظ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فيه معنى الذَّمِّ والتَّوبيخ لهم.

### وجهُ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾:

جاء العطفُ بالواو في قوله: ﴿تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لمناسبة الجهة الجامعة بين معنى الجملتيْن، فكلاهما مذمومان ويؤدّيان إلى العذاب الأكبر.

### نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (كَفَرَ) دلالةً وصيغةً:

عبّر بمفردة (كَفَرَ) للإشعارِ بتوغُّلهم بالكفر وثبوتِه لهم وإظهارِهم له. وجاء الفعل بصيغة الماضي للدلالة على تحقُّق كفرِهم واستمرارِهم فيه.

### سِرُّ تقديمِ (التَّولّي) على (الكُفر):

تقديم الفعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾ على (كَفَرَ) في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ من بابِ تقديمِ السّببِ على المُسبَّبِ والأقلِّ على الأشدِّ، ففيه إيذانٌ بأنَّ مَن يتولَّى عن تذكيرِ رسول اللّه ﷺ بآيات القرآن وبأقوالِه وأفعالِه فإنَّ مصيره إلى الكفر.

### فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعليْن ﴿تَوَلَّىٰ﴾ و(كَفَرَ):

حذفُ مُتعلَّقِ الفعلِ لإرادةِ العمومِ

حُذِف مُتعلَّق الفعليْن ﴿تَوَلَّىٰ﴾، و(كَفَرَ) للإشعارِ بعموم التَّولّي وعمومِ الكفر، والتَّقديرُ: (إلّا مَن تولَّى عن الحقِّ والقرآن والإيمان)، ويدخل فيه التولّي عن المُذَكِّر وهو رسول اللّه ﷺ وعن تذكيره دخولًا أوّليًّا. ومثله يُقال في حذف مُتعلَّق الفعل (كَفَرَ)، والتّقدير: (وكفر باللّه وبرسولِه ﷺ وبالقرآن)، ويدخل فيه الكفر بيوم القيامة يوم تغشى الغاشية دخولًا أوّليًّا.

**معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾:**

لمّا كان الاسم الموصول في قوله: ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ جاريًا مجرى أسماء الشَّرط في عمومِه ودلالتِه وترتّبه؛ اقترنت الفاء في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ بالخبر؛ لتفيد معنى سببيَّة المبتدأ للخبرِ وترتُّب وقوع الخبر عليه.

**سِرُّ التّعبيرِ بالفعلِ (يُعَذِّبُ) دلالةً وصيغةً:**

عبّر بالفعل (يُعَذِّبُ) بصيغة المضارع في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ للإشعار بتجدُّد عذابِه واستمرارِه؛ وجاء الفعل بصيغة (يُفَعِّل) بتضعيف عين الفعل للإشارة إلى المبالغة في تعذيبِه، فهو عذابٌ لا يُطاق بسبب تولّيه وكفرِه.

**عودُ الضَّميرِ في ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾:**

يعود الضّمير في ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿مَن﴾ بما اتّصف به من صلتِه، والمعنى: (فيعذِّب المتولّي عن التّذكير الكافرَ بآيات اللّه العذاب الأكبر)، ففي عود الضّمير إيماءٌ إلى سبب تعذيبِه وتقريرٌ له.

**سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:**

في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُظهَرًا؛ مبالغةً في تهويلِ العذاب وتفخيمِه، فالذي يعذِّبُه هو اللّه الإلهُ الملكُ الأعظمُ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لا مناصَ له من العذاب ولا فرارَ منه؛ لأنَّه أسند التّعذيب إلى الاسم الجليل. بمعنى أنَّه لا يستطيع أنْ يتولَّى عنه كما تولَّى عن التّذكير وأعرض عنه.

**مَن يعذِّبه الله يوم القيامة لا مناصَ من العذاب إلّا برحمتِه سبحانه**

**دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾:**

في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ جاء الفعل ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ مُقيَّدًا بالمفعول المُطلَق ﴿ٱلْعَذَابَ﴾؛ لتأكيد وقوع العذاب والمبالغة فيه، وللتّوصُّل إلى بيان نوعِه بالصِّفة؛ أيِ: ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾؛ بقصدِ التّرهيبِ والتّخويفِ.

كلُّ عذابٍ في الدّنيا هو دون عذابِ النّارِ في الآخرةِ، فلا عذابَ أعظمَ من النّارِ

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

الظّاهر أنَّ (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ عهديَّةٌ، والمُراد العذاب المعهود بأنَّه العذاب الأكبر وهو عذابُ جهنَّم[1]، فإنَّ كلَّ عذاب في الدّنيا هو دون عذابِ النّار في الآخرة؛ فلا عذابَ أعظمَ من النار. وذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ جنسيَّة، للمبالغة والكمال في الوصف[2]. ويُقصد به عذاب جهنَّم في الآخرة، فعلى كلا الوجهَيْن المراد من العذاب الأكبر هو عذاب جهنَّم.

العذابُ الأكبرُ هو عذابُ جهنَّم يومَ القيامةِ

### سِرُّ وصفِ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ بـ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾:

وَرَد قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ في عذاب جهنَّم يومَ القيامة؛ وإنَّما وُصِفَ العذابُ بصفة ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ التي تحصر غايةَ العذاب وصوره كلَّها فيه، لوجهَيْن؛ أحدهما: الإشعارُ بأنَّ كلَّ ما ينال الكافرَ من العذاب قبل ذلك في الدُّنيا وفي البرزخِ صغيرٌ في جنبِ عذابِ ذلك اليومَ، فكلُّ ما عرفه النّاس في الدنيا من عذابٍ، هو عذابٌ دون عذاب الآخرة قدرًا وأثرًا[3]؛ فهو العذاب الأكبر كبرًا مُطلقًا. والوجه الثّاني: التّنبيه على أنَّ التّولّي عن تذكير رسول الله ﷺ والكفر بالله هو أكبر الذّنوب وأبلغها، فتولّيهم وكفرُهم قد بلغ حدَّ العذاب الذي لا شيءَ أكبر منه؛ لأنَّ ما عداه من عذاب الفسق دونَه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: 21][4].

العذابُ الأكبرُ شديدٌ قويٌّ قد بلغَ مُنتهاه في عِظَمِهِ

### بلاغةُ الاستعارةِ في صفةِ ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾:

لمّا كان العذاب أمرًا معنويًّا؛ كان وصفه بـ ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ في

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 475.

(2) قباوة، المُفصَّل، ص: 2170.

(3) الخطيب: التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1544.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 147.

قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التبعيَّة؛ أيّ: باستعارة وصف ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ للقويِّ المتجاوز حدَّ أنواعِه[1]. وذلك بتشبيه شِدَّة عذاب النّار وعِظَمِه في الآخرة بحيث لا يكون شيءٌ فوقَه بشيءٍ عظيم قويٍّ تجاوز حدَّ أنواعِه في الكِبَر. ويلزم من تجاوزه حدَّ أنواعِه في الكِبَر أن يكون شديدًا قويًّا على وجهٍ بحيث كلُّ ما يتصوَّر من العذاب يكون هو أكبر منه.

### من دلالاتِ هذه الآيةِ على البشاراتِ:

إشـاراتُ القرآنِ إلى علَمِ النّبوّةِ

في هذه الآية بشارةٌ لرسول الله ﷺ بالظَّفر على الذين تولَّوا عن تذكيرِه وكفروا به؛ وفيه آيةُ رسالته؛ لأنَّ هذه الآيات نزلت في مكّة في وقت قلَّة أنصارِه من المسلمين وضعفِهم أمامَ المشركين المُكّذِّبين؛ وكان الأمر كما قال من إنذار مَن تولَّى وكفر؛ إذ أفلح المُتذكِّرون وخاب المُتولّون عن التّذكُّر والكافرون؛ ليُعلَمَ أنَّه ﷺ عَلِمَ بعِلم اللّه تعالى ما يكون عليه حالُه والمسلمين فيما بعد[2].

## ۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الصَّيطرة والإجبار والإكراه:

مناسبةُ التّعبيرِ بمصيطرٍ للفظِ التّذكُّر، فلكلِّ كلمةٍ في القرآنِ مع أختِها مقامٌ

الجَبْرُ هو جنسٌ مِن العظمة والعلوِّ والرّفعة، والإجبار في الأصل: حملُ الغير على أن يُجبر الآخر على فعلِ شيءٍ أو تركِه[3]، على جهة علوِّ المُجبِر وعظمِه ورفعتِه، ليفيد أنَّ المُجبَر أدنى منه قوَّةً. فيدلُّ الإجبار على تجاوز المُجبِر بقوَّته إرادة الضعيف ليُلزِمه بفعلٍ مُكرَهًا عليه مع غياب رضاه تمامًا عن الفعل[4]. ولكن تُعورف الإجبار في الإكراه المجرّد، فقيل: (أَجْبَرْتُهُ على كذا، كقولك: أكرهته)[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 308.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 514.
(3) الرّاغب، المُفردات: (جبر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (جبر).

وأمّا الإكراه فهو حمل الغير بطريق الإلزام على ما يكرهه بالوعيد الشديد؛ أو هو أنْ تُكَلَّفَ الشَّيْءَ فتَعْمَلَهُ بمشقَّةٍ كارِهًا له[1]. ثمَّ إنَّ كره الشّيء قد يكون من حيث الطّبع وقد يكون من حيث العقل والشّرع، فقد يكون مكروهًا بالطّبع مرغوبًا في العقل والشّرع. ولهذا يصحّ أن يقول الإنسان في الشيء الواحد: إني أريده وأَكْرَهُهُ، بمعنى أنّي أريده من حيث الطّبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشّرع، أو أريده من حيث العقل أو الشّرع، وأَكْرَهُهُ من حيث الطّبع[2]، وأمّا الصيطرة فهي القيام على الشّيء والتعهّد به على جهة التسلُّط؛ فالمصيطر هو المتعهّد للشيءِ القائم عليه على جهة التَّسلُّط. فأوثر في الآية التّعبير بقوله: ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾؛ لأنَّ اللفظ جاء في مقابلة قصر وصف رسول الله ﷺ على كونِه مُذكّرًا، والمُذكِّر هو الذي يُعيد الذِّكرى بقصدِ النّفع على جهة اللفظ في التَّذكير، فليس له وصف التسلُّط على النّاس، فمَن شاء تذكَّر ومَنْ لم يشأ فقد تولَّى وأعرض؛ أيْ: فلمّا وصفه بالمُذكِّر وأراد نفي مقابله؛ ناسب أن يقول: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ دون أن يُقال: (لست عليهم بجبّار)؛ لأنَّه ليس في سياق نفي علوّه وجبروتِه بين النّاس حتَّى ينفي كونَه جبّارًا عليهم. فلكل كلمةٍ في القرآن مقامُها الخاصُّ بها.

### التولّي والإعراض والإدبار:

عــدمُ إصـغـاءِ الـكـافـرِ إلى التّذكيرِ يؤدّي إلى البُعدِ عنه

الإعراضُ: أن تولّيَ الشَّيءَ عُرْضَكح أيْ: جانِبَك ولا تُقبِلَ عليه، وفيه معنى الاستكبار. والتَّولّي: هو الانصراف عن الشّيء مولّيًا عنه على جهة التَّباعد عنه معنويًّا بعدم الإصغاء والائتمار، أو جسديًّا بالتّباعد الحسّي. ويُلمَح في التّولّي الاستكبار كذلك؛ قال بعضُهم: المُعرِضُ والمُتَوَلّي يَشتَرِكان في السُّلوكِ إلّا أنَّ المُعرِضَ أسوَأُ حالًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) الرّاغب، المُفردات: (كره).

وغايةُ الذَّمِّ الجَمعُ بينهما[1]؛ وأمّا الإدبار فهو من تولية الدّبر؛ أيِّ: ذهب مُنصرفًا مولّيًا دُبُرَه، ولا يلزمه استكبار المُدبِر. وإنّما أوثر في الآية التّعبيرُ بلفظ ﴿تَوَلَّىٰ﴾؛ لأنَّ المقصود عدمُ إصغاء الكافر إلى التّذكير وعدمُ الائتمار به بحيث يكون بعيدًا عنه؛ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التّذكير يكون عن قُربٍ للمُذكَّر من المُذكِّر.

(1) الكَفويّ، الكليات، ص: 28.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]

### مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

تسليةُ النّبيّ ﷺ لكي لا يحزنَ على كُفرِ الكافرين وإنكارِهم

في ذِكر الآيتَيْن بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ إشارةٌ إلى تسلية النّبيِّ ﷺ؛ ليزيل به عن قلبه ﷺ حزنَه على كفرِهم؛ فكأنَّه قال له: طِب نفسًا عليهم، وإن عاندوا وتولَّوا وكفروا؛ فإنَّ مرجعهم بعد موتِهم إلى الموعدِ الذي وعدنا، ثمَّ إنَّ علينا جزاءَهم ومحاسبتهم على أعمالِهم[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِيَابَهُمْ﴾: يدور لفظ (أوب) على معنى رجوع الشّيء إلى مُستقرِّه[2]، والأوبُ النّحل، وسُمّي به لأنَّه يؤوب إلى خلاياه مهما ابتعد عنها؛ وأصلُه من الأوْبِ، وهو ترجيع الأيدي والقوائم في السّير[3]، ويُقال: آب يؤوبُ أوْبًا وإيابًا ومَآبًا[4]. وكلُّ شَيْء يَرجع إلى مَكانِهُ فقد آبَ[5]، والمآب: المصدر منه واسم الزّمان والمكان. ومعنى ﴿إِيَابَهُمْ﴾: رُجوعُهم بعد الموتِ[6].

2) ﴿حِسَابَهُم﴾: يدور معنى (حسب) على العدِّ والإحصاء، والحَسَبُ: ما عُدَّ من الإنسان، ومنه الحسيب لِمَن يكثر عدد أهل بيتِه ولِمَن له مآثر تعدُّ[7]. والحَسَبُ: قدرُ الشَّيءِ من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وأمّا (حَسْب) بسكون السّين فهو بمعنى الكفاية[8]، وإنَّما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (أوب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (أوب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أوب).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 525، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 478.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (حسب).
(8) الرّاغب، المُفردات: (حسب).

سُمّي الحِساب في المُعاملات حسابًا: لأنَّه يُعلَم به ما فيه كِفايةٌ، ليس فيه زيادةٌ على المقدار ولا نُقْصانٌ[1]. والمحاسبة: عَرْض كلِّ أعمال الشخص وتقويمها[2]. و﴿حِسَابَهُم﴾ في الآية بمعنى عدِّ أعمالِهم عليهم ومحاسبتهم عليها؛ أيْ: جزاءَهم[3].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نهايةُ مطافِ الإنسانِ هو إلى الحسابِ؛ فإمّا جنَّةٌ أبدًا، وإمّا نارٌ أبدًا

يختمُ اللّٰه تعالى السّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومصيرَهم بعد موتهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها[4].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ تتابعِ التأكيداتِ في الآيةِ:

رجوعُ الكافرينَ المُنْكِرين إلى الله تعالى وإن أبَوا وتولَّوا

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ مُؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾ وبتقديم خبرها على اسمِها؛ لزيادة الاهتمام وللرَّدِّ على إنكارِهم البعثَ؛ لأنَّ الكلام في سياق خطاب مُنكِري البعثِ المُتولّين عن التّذكُّر والمُذكِّر الكافرين به، فناسب تأكيدَ بعثِهم ورجوعِهم بعد الموت إليه تعالى بـ﴿إِنَّ﴾، فالخطاب بمقصدِه الأوّل مع مُنكِرٍ، فاقتضى تأكيده بأكثر من مُؤكِّدٍ لردِّهم عن إنكارِهم، ففي تتابع التأكيد إشارةٌ إلى إثباتِ إنكارِهم للبعثِ وذمِّهم عليه. وفيه كذلك توبيخٌ للكافرين المُنكِرين وصَغارٌ لهم، فإنَّ رجوعَهم ومُستقرَّهم إليه تعالى وإن أبَوا وتولَّوا.

### فائدةُ التّعليلِ من ﴿إِنَّ﴾:

العبادُ لن يخرجوا من سلطانِ الله، وهم راجعون إليه تعالى بقهرِه وسلطانِه

في ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ معنى التّعليل،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسب).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 478، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 389.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 389.

والتّصدير به على الاستئناف يجري مجرى التّعليل لتعذيب اللّه لهم العذابَ الأكبَر[1]؛ بمعنى أنَّه لمّا كان قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ على معنى الوعيد بتعذيبِ اللّه لهم العذاب الأكبر وكونِه حقًّا يقينًا علّل حصول الوعيد بكونِ مرجعهم إليه تعالى وأنَّه سيحاسبهم على تولّيهم وكفرهم. وقيل هو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾؛ أيِّ: لسْتَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنّا نُحاسِبُهم حين رُجوعِهم إلينا في دارِ البَقاءِ[2]. وفي التّعليل إشارةٌ إلى أنَّه إنْ لم يكن رسول اللّه ﷺ مُصيطرًا عليهم ولا قاهرًا لهم، وإذا كانوا قد خرجوا من سلطانِه، فإنَّهم لن يخرجوا من سلطان اللّه، وهم راجعون إليه تعالى بقهرِه وسلطانِه.

### معنى (إلَى) في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ أفاد حرف الجرِّ (إلَى) انتهاء الغاية، بمعنى أنَّ نهاية غاية رجوعِهم واستقرارِهم يكون إلى اللّه تعالى.

### فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ ﴿إِلَيۡنَآ﴾ على المُسنَدِ إليه:

لا إيـابَ إلّا إلى اللّه تعالى، فلا مَفَرَّ

أفاد تقديمُ المُسنَد على المُسنَد إليه في قوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ التّخصيصَ والمبالغةَ في الوعيد[3]، ومعنى التّخصيص المُفاد من قصر الموصوف ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ على الصفة ﴿إِلَيۡنَآ﴾ هو أنَّ رجوع مَن تولَّى وكفر مقصورٌ إلينا لا إلى أحدٍ سِوانا؛ لا استقلالًا ولا اشتِراكًا[4]. ومعنى المبالغة في الوعيد هو كون إيابِهم مقصورًا على الواحد الأحد القهّار الجبّار المُقتدِر على الانتقام شديد العقاب.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 234.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 308.
(3) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 745، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308، والطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 415، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 243 - 244.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 152.

### بلاغةُ الالتفاتُ في الآياتِ:

في الالتفاتِ من الغيبة في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ إلى التَّكلُّم بنون العَظَمَة في قوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ ومن الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ إلى صيغةِ الكِبرياءِ والجَبَروتِ في قوله: ﴿إِلَيۡنَآ﴾ تقريرٌ للتّشديد في الوعيد[1]، وتنبيهٌ على أنَّه ليس لهم من محيصٍ عن الرّجوع إليه تعالى وعن محاسبتِهم[2]، فتولّيهم عن التّذكير والمذكّر ليس بنافعِهم، وسيرجعون صاغرين.

تشديدٌ في وعيدِ الكافرين المُعرِضين

### سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالمصدرِ (إياب) دون غيرِه:

أوثِرت مُفردةُ الإيابِ في قوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾؛ لأنَّه لمّا كان الإيابُ هو الرجوعَ إلى المكانِ الذي خرجَ منه الإنسانُ، كالمسافر يؤوب من سفره، أُطلِقَ الإياب على الحضور في حضرة القدس يوم الحشرِ تشبيهًا له بالرّجوع إلى المكان الذي خرج منه، بملاحظة أنَّ اللّه خالقُ النّاسِ خلقَهم الأوّل، فشبِّهت إعادة خلقِهم وإحضارِهم لديه برجوع المسافر إلى مَقرِّه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: 27 - 28][3]، ففيه تأكيد أنَّ رجوعَهم هو إلى الذي خلقَهم أوَّل مرَّةٍ، فمنه تعالى المبدأ وإليه المعاد.

مِن الله تعالى المبدأُ وإليه المعادُ

### عودُ الضَّميرِ في ﴿إِيَابَهُمۡ﴾:

يعود الضّمير في قوله: ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ إلى ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، وجمعُ الضَّميرُ في ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ وفي ﴿حِسَابَهُم﴾ باعتبارِ مَعْنى ﴿مَن﴾ كما أنَّ إفراده في قوله: ﴿تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ باعتبارِ لفظِها[4]، فيعود الضّمير إلى الاسم الموصول بما اتّصف به من كونه تولَّى وكفر، والتّقدير: (إنَّ إلينا إيابُ مَن تولَّوا وكفروا). والنّكتة في العدول

في حضورِ الكافرين مجموعين مهانةٌ وخزيٌ وأمارةٌ على عدمِ إفلاتِ أحدٍ

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 415.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 244.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 309.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 152.

إلى الجمع في ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ وفي ﴿حِسَابَهُم﴾ هو أنَ الكلام انتقل إلى الكلام عن الحشر واجتماعِهم يوم القيامة، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّه لا يفلت منهم أحدٌ، وفيه إشارةٌ كذلك إلى خزيهم ومهانتهم في حضورِهم جميعًا. والتّعبير بأسلوب العَظَمَة أيضًا يُناسب الانتقالَ إلى ضميرِ الجمعِ.

### سِرُّ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

التَّـفـاوُت بين موقفي الحشرِ والحساب أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يُدْرى مَداهُ

(ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ عاطفةٌ للتَّرتيبِ والتّراخي في الرُّتبةِ لا في الزّمانِ؛ فإنَّ التَّرتُّبَ الزمانيَّ إنّما هو بين إيابِهم وحسابِهم لا بينَ كونِ إيابِهم إليهِ تعالَى وحسابِهم عليهِ تعالى؛ لأنَّ ثبوتَ رجوعهم وثبوت حسابهم متلازمان مستمرّان لا فارق بينهما أصلًا[1]، فيكون العطف بـ﴿ثُمَّ﴾؛ للإشارة إلى بُعدِ منزلة الحساب في الشدّة، فالحسابُ قدْ يكونُ مُباشَرةً بعدَ الإيابِ، ولكنَّ التَّفاوُتَ بيْن الموقفَيْن أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يَدْري أحدٌ مَداهُ، ولا يَتصَوَّرُه العقلُ على الإطلاقِ[2]؛ فالمقصود من العطف بـ(ثمَّ) أنَّ ما يترتّب على الحساب أفظع وأشدُّ من الإيابِ نفسِه؛ لأنَّ الحساب موجب العذاب وبادرته[3]، وهو الغرض من إيابِهم، وهو أوقع في تهديدهم على التَّولّي عن التَّذكُّر والمُذكِّر. ففيه من الإنباءِ عن غايةِ السُّخطِ الموجِبِ لتشديدِ العذابِ ما لا يخفى.

### دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾:

تـأخـيرُ عـقـابِ الكافرين إمهالٌ ولـيـس انـفـلاتًـا من العقابِ

جملة ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ هي المقصودة من التّعليل، والتي قبلها بمعنى التّمهيد والإدماج لإثبات البعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تأخيرَ عقابِهم إمهالٌ، فلا يحسبوه انفلاتًا من العقاب[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 152.
(2) درويش، إعراب القرآن: 10/ 462.
(3) ابن المُنيّر، حاشية على الكشّاف: 4/ 475.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 309.

### بلاغةُ تتابُعِ التّأكيداتِ في الآية:

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ مُؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾ وبتقديم الخبر على اسم ﴿إِنَّ﴾؛ لزيادة الاهتمام، وللردِّ على إنكارِ الكافرين الحسابَ على أفعالِهم؛ ففي تتابع التأكيد إشارةٌ إلى إثباتِ إنكارِهم للحسابِ وذمِّهم عليه. وفي مجيء الجملة على معنى الوعيد تحذيرٌ للمُنكِرين من قبيح أفعالِهم؛ مثل تولّيهم وكفرِهم.

### معنى (عَلَى) في قوله: ﴿عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾:

عذابُ الله تعالى مُؤكَّدٌ

(عَلَى) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ لتأكيد الوعيد في حكمة اللّه لا الوجوب؛ إذ لا يجب على اللّه شيءٌ[1]؛ فمعنى ﴿عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ أنَّ حسابَهم - لتأكّده في حكمة اللّه ولثبوت الوعد به - يُشبه الحقَّ الذي فرضه اللّه على نفسِه[2].

### فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ ﴿عَلَيۡنَا﴾:

لا قُدرةَ لأحدٍ على حسابِ الخلقِ سوى الله تعالى

أفاد تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ التّخصيصَ والمبالغةَ في الوعيد[3]، ومعنى التّخصيص المُفاد من قصر الموصوف ﴿حِسَابَهُم﴾ على الصفة ﴿عَلَيۡنَا﴾ هو أنَّ (حسابَهم مقصورٌ على الاتّصاف بكونِه علينا خاصَّة بما لنا من القدرة والتنزُّه عن النَّقصِ والعبث والجور، لا على أحدٍ سوانا لا استقلالًا ولا اشتراكًا)[4]، ففيه إيذانٌ بنفي قدرة أيِّ أحدٍ على حساب الخلق سوى اللّه تعالى. ومعنى المبالغة في الوعيد هو كون حسابهم مقصورًا على الواحد الأحد الحكيم العادل.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 636.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 309.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 308، والطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 415، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 243 - 244.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 152.

### سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بمُفردةِ (حِساب) دون غيرِها:

يـومُ الغاشيةِ يـومُ الحسابِ والتَّمييزِ

لمّا بدأت السورة بالحديث عن الغاشية وسيق الكلام في بيان حال الفريقيْن يوم القيامة وأخبر تعالى عن تَولّي المُعرِضين وكفرِهم؛ ناسب ذِكرُ الحساب للإشعار بأنَّهم سيُحاسَبون يوم الغاشية؛ يوم ينقسم النّاس قسميْن على النّقير والقِطْمير، وغير ذلك من كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا تولّيهم وكفرُهم، فالتّعبير بالحساب - دون أن يُقال: علينا عقابهم أو عذابهم - مناسبٌ لصدر السّورة وما اشتملت عليه.

### عودُ الضميرِ في ﴿حِسَابَهُم﴾:

لا يُـفـلـتُ من حسابِ الله أحدٌ

يعودُ الضّميرُ في قوله: ﴿حِسَابَهُم﴾ إلى ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، وجمعُ الضَّميرُ باعتبارِ مَعْنى ﴿مَن﴾ كما أنَّ إفراده في قوله: ﴿تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ باعتبارِ لفظِها[1]، فيعود الضّمير إلى الاسم الموصول بما اتّصف به من كونِه تولَّى وكفرَ وآبَ إلينا، والتّقدير: (إنَّ علينا حسابَ مَن تولَّوا وكفروا وآبوا إلينا).

### بديعُ عودِ ختامِ الآيةِ على المَطْلَعِ:

لمّا قال في بداية السورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وختمها بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ وذلك يكون في الغاشية يوم ينقسم الناس قسميْن: أهل الشّقاء وأهل النّعيم؛ كان ختم السّورة من قبيل ردِّ التّصدير في المعنى، فقد التفَّ آخرُها بأوّلِها، وتعانقَ مِفصَلُها بموصِلِها[2].

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الإياب والرجوع والعودة :

يُناسبُ الإيابُ الـدلالـةَ على الـرّجـوعِ إلى موضعِ الاستقرارِ

العود هو الرّجوع إلى الشّيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 152.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 22/ 20.

بالذات، أو بالقول والعزيمة[1]. والعود: يستعمل في معنى الرّجوع على الحقيقة، ويستعمل في الابتداء مجازًا، قال الزَّجّاج: يُقال قد عاد إليَّ من فلانٍ مكروهٌ، وإن لم يكن قد سبقه مكروهٌ قبل ذلك[2]. والإيابُ هو الرجوع إلى منتهى المقصد بحيث يكون هو موضع القرار والاستقرار، والرجوع يكون لذلك ولغيره، ألا ترى أنَّه يُقال: رجع إلى بعض الطريق ولا يُقال: (آبَ) إلى بعض الطريق، ولكن يُقال: (آبَ) إنْ حصل في مقرِّه، ولهذا قال أهل اللغة: التأويب أن يمضي الرَّجُل في حاجته ثم يعود فيثبت في منزلِه، وقال أبو حاتم رحمه اللّه: التأويب أن يسير النهار أجمع ليكون عند الليل في منزله، فالإياب هو الرّجوع إلى منتهى المقصد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ كأنَّ القيامة منتهى قصدهم وسيرِهم[3]؛ فهي مقرُّهم وموضعُ استقرارِهم؛ لأنَّها لا منزلة بعدها. ففيه إشارةٌ إلى أنَّه لا انفلات لهم يوم القيامة ولا مَفَرَّ لهم سوى ما يكونون عليه بعد الحساب والجزاء.

### الحساب والجزاء:

الحسابُ عدُّ الأعمالِ بدِقَّةٍ، والجزاءُ فيه معنى المقابلةِ في الخيرِ أو الشَّرِّ

الجزاء هو ما فيه الكفاية من المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[4]. فالجزاء فيه معنى المقابلة والمكافأة ويصدق في الثواب والعقاب[5]، فيدلُّ على مقابلة العمل بالثّواب أو العقاب. وأمّا الحساب فهو عدُّ الأعمالِ بمعنى إحصائِها وعرضِها من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وعبّر بالحساب في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ دون الجزاء؛ لأنَّ المقصود مِن السّياق ليس مقابلة أعمالِ الكافرين

(1) الرّاغب، المُفردات: (عود).
(2) القرطبيّ، الجامع لاحكام القرآن: 7/ 250.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 303.
(4) الراغب، المُفردات: (جزء).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جزء).

المُنكِرين بالعقاب؛ بل المقصود هو عدُّ أعمالِهم عليهم بما فعلوه من تولّيهم وكفرِهم، ومحاسبتهم بما يستحقّون من غير زيادةٍ ولا نقصٍ. ففي اللفظ إشعارٌ بخيبتِهم وخسارتِهم وصَغارِهم يوم الحساب، وهو المناسب لتولّيهم وإعراضِهم واستكبارهم.

# سُورَةُ الفَجرِ

# سُورَةُ الفَجرِ

## التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّي والمدنيّ وعد الآي:

سورة الفجر مكّيّة اتّفاقًا واختُلف في عددِ آياتها

ذَكَرَ ابنُ عطيّة إجماعَ المفسّرين على مكّيّتها، ثمّ نَقل عن أبي عمرو الدّاني رأيًا شاذًّا يقول بمدنيّتها، ثمّ قال ابن عطيّة: "والأوّل أشهر وأصحّ"[1]، وبمكّيّتها قال القرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3].

وعدد آياتها تسعٌ وعِشرونَ آيَةً في البَصريّ، وثَلاثونَ في الكوفيّ والشّاميّ، واثنَتانِ وثَلاثونَ في المَدنيّين والمكّيّ، واختلافها في أربع آيات؛ ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾، و﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، عدّهما المدنيّان والمكّيّ، ولم يعدّهما الباقونَ. ﴿يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ لم يعدّها الكوفيّ والبصريّ، وعدّها الباقونَ، ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ عدّها الكوفيّ، ولم يعدّها الباقونَ[4].

### ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

ترتيبها النّزولي بين سورتيّ اللّيل والضّحى

هذه السّورة هي التّاسعة والثّمانون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ الغاشية والبلد، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ: فعُدّت السّورة العاشرة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة اللّيل، وقبل سورة الضّحى[5].

### فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المُفصّل

لم يثبت شيء من الرّوايات في فضل هذه السّورة سوى ما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 476.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 38.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 52.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 273.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 311، ودروزة، التّفسير الحديث: 1/ 531، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 131.

تقدّم فيها وفي غيرها من سور المفصّل، الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع ﷺ: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(1).

**اسم السّورة ومناسبة تسميتها:**

وردت تسميتها بسورة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ في صحيح البخاريّ(2)، وجاءت بدون الواو في المصاحف والتّفاسير وكتب السّنّة(3).

سورةُ الفجر اشتهرت بهذا الاسم، ولا يُعرف لها اسمٌ غيره

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: الاستدلال على آخر الغاشية: الإياب، والحساب بالثّواب والعقاب. وأدلّ ما فيها على هذا المقصود: الفجر، بانفجار الصّبح عن النّهار الماضي بالأمس، من غير فرق في شيء من الذّات، وانبعاث النّاس من الموت الأصغر النّوم؛ بالانتشار في ضياء النّهار، للمجازات في الحساب"(4).

**المحور العامّ للسورة:**

مِحور السّورة يقوم على التّثبيت والتّبشير بالفرج القريب

المِحور الذي قامت عليه السّورة هو تبشير النّبيّ ﷺ بقُرب الفَرَج ودعوته إلى الثّبات في دعوته. لذا فقد اقتضاها هذا المِحور الحديث عن الأحوال الآتية:

**أوّلاً:** بدأت السورة بالقَسَم ببعض الظّواهر الكونيّة المتعلّقة بتقلّبات الزّمان، من خلال الأقسام الخمسة التي استهلّت بها السّورةُ، مع حذف جواب الشّرط، والذي تقديره: (ليُعَذبنّ)، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ

(1) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطَّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).
(2) البخاريّ في صحيحه، باب تفسير سورة (والفجر): 4/ 1887.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 311.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 190.

عَذَابٍ﴾[1]؛ لتؤدّيَ بمجموعها معنى تأكيد نصر الله تعالى للمؤمنين، ودَمدَمةِ الكافرين، سواءٌ أطال اللّيل أم قَصُر.

**ثانيًا:** عرضت السورة نماذج من الأمم المجاورة، التي يعرف المعاندون أحوالها وسببَ إهلاكها، وهي: عاد وثمود وفرعون، وذلك تدليلًا لهم على نصرة الله تعالى ومعيّته، ولذلك خُتِم المقطعُ الثّاني بقوله تعالى عن هذه الأقوام الثّلاثة: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾.

**ثالثًا:** عرضت السورة لهم بعض الأمراضِ الاجتماعيّة التي من شأنها أن تشكّل معوّقاتٍ للنّصر ومُؤخّراتٍ للفَرَج، حتّى يتخلّصوا منها ويصحّحوا القيم والموازين بموازين الله وليس بموازينهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾.

**رابعًا:** بينت السورة لهم عاقبة الفريقيْن من المؤمنين ومن الكافرين، مصوّرةً لهم مشاهد الحساب وعدم انتفاع الكافرين بالنّدم ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾.

### موضوعات السّورة وخصائصها:

تدور السّورة على بشرى المؤمنين وتثبيتهم على الحقّ

يرتكز محور هذه السّورة على أربعة موضوعات رئيسة؛ هي:

**أوّلًا:** القسّم بأوقاتٍ من الزّمان المختلفة التي قد يطول فيها اللّيل أو يقصر على نصرة الله تعالى للمؤمنين ودَمدَمَتِه للكافرين.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 747.

**ثانيًا:** عرض ثلاثة نماذج من الأمم المستأصلة بسبب فسادهم، والتي شكّلت نماذج للاستبداد الحضاريّ والعسكريّ والمادّيّ والسياسيّ، وكيف أزال الله حضاراتهم وقوّض بنيانهم بسبب فسادهم؛ لأنّه بالمِرصاد لكلّ الطّغاة الظّالمين.

**ثالثًا:** ذِكرُ بعضِ معوّقات النّصر ومؤخّرات الفَرَج، التي من شأنها إن عولجت وصُحّحت المفاهيم فيها أن تُعجّل في فرجهم، وهي تتعلّق بأمراض اجتماعيّة من شأنها أن تقوّض قوّة المجتمع، ومن ذلك تصحيح الفهم بالنّسبة لقانونيّ الإعطاء والمنع، وبيانُ ارتباطِهما بسُنّة البلاء، ومن ذلك أيضًا دعوةٌ لتصحيح التّعامل مع اليتامى والمساكين والتّعامل مع الإرث المادّيّ بشكل صحيح.

**رابعًا:** ارتكز الموضوع الأخير من السّورة على الوعد والوعيد، وتحقّق الجزاء لكلّ فريقٍ من الفريقيْن الَّذَيْن تكَوّنا بعد سنّة البلاء، وذلك من خلال مشهد عرضٍ حيٍّ لأهوال القيامة والحشر وعذاب الكافرين.

### الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تـميّـزت سـورة الفجر بخصائص أفـردتـهـا عـن غيرها من السّور

**أوّلًا:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بالقَسَم، وهي وإن شاركها بذلك أسرة كبيرة من السّور، مكوّنةً من: الصّافّات، الذّاريّات، الطّور، النّجم، القيامة، المرسلات، النّازعات، البروج، الطّارق، الشّمس، البلد، اللّيل، الضّحى، التّين، والعاديّات، فقد تميّزت هذه السّورة الكريمة بجمعها بين هذه الأمور الخمسة المُقسم بها في صدر السّورة، وهذه الأمور الخمسة المُقسم بها أشارت إلى ظواهر كونيّة تتعلّق بأوقات مخصوصة من الزّمان، تتعلّق بالنّور والظّلمة ومدى دوامهما، ولا عجبَ في ذلك فقد جاءت هذه السّورة نزولًا بعد سورة اللّيل، ومصحفيًّا بعد سورة الغاشية، وكلّ ذلك متّسقٌ مع موضوعها في بشرى المؤمنين بأنّ اللّيل لن يدوم، وأنّ الفجر قريب.

تميّزت سورة الفجر بأساليب أفردتها عن غيرها من السّور

## الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

**أوّلًا:** تميّزت السّورةُ الكريمة بوفرة الألفاظ المتطابقة والصّور المتقابلة، مقارنةً بحجمها مثل: الفجر واللّيل، والشّفع والوتر، والإكرام مع الإهانة، والتّنعيم مع تضييق الرّزق، والمقابلة بين حال المُعذَّبين وحالِ أصحاب النّفوس المطمئنّة.

**ثانيًا:** تميّزت السّورةُ الكريمة بوفرة الجِناس الاشتقاقيّ وتكرارِ بعض الألفاظ من مثل: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا﴾، ومثل: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، ومثل: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكًّا دَكًّا﴾، ومثل: ﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، ومثل: ﴿يَوۡمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، ومثل: ﴿فَيَوۡمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، ومثل: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، ومثل: ﴿رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾.

**ثالثًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت قاموسًا معجميًّا يتعلّق بألفاظ العذاب والنّعيم، من مثل: ﴿كَلَّآ﴾، و(العذاب)، و(الوثاق)، و(المرصاد)، و(الدّكّ)، و(جهنّم)، و(الجنّة)، و﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾، و﴿رَاضِيَةً﴾، و﴿مَّرۡضِيَّةً﴾.

**رابعًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت مفردات بأبنية صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾، ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾، ﴿يَسۡرِ﴾، ﴿حِجۡرٍ﴾، ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾، ﴿فَصَبَّ﴾، ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾، ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾، ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾، ﴿أَكۡرَمَنِ﴾، ﴿أَهَٰنَنِ﴾، ﴿تُكۡرِمُونَ﴾، ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾، ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾، ﴿أَكۡلًا﴾، ﴿لَّمًّا﴾، ﴿حُبًّا﴾، ﴿دُكَّتِ﴾، ﴿دَكًّا﴾، ﴿يُوثِقُ﴾، ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾، ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾، ﴿مَّرۡضِيَّةً﴾، وغيرها.

**خامسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها انفردت بألفاظٍ فريدةٍ مادّةً وجَذرًا، وهي: ﴿إِرَمَ﴾، ﴿سَوۡطَ﴾، ﴿جَمًّا﴾.

سورة الفجر متّصلة تمامًا بسورة الغاشية مضمونًا وأسلوبًا

## مناسبة السورة لما قبلها:

تعلّقت سورةُ الفجر بسورة الغاشية بأوجه من التّعلّق تتلخّص في الآتي:

**أوّلاً:** القَسَم الصّادر في أوّلها كالدّليل على صحّة ما خُتِمت به سورةُ الغاشية، وهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26].

**ثانيًا:** تضمّنت السّورة السّابقة قِسْمةَ النّاس إلى فريقين: أشقياء وسُعداء، أصحابِ الوجوه الخاشعة، وأصحابِ الوجوه النّاعمة، واشتملت هذه السّورةُ على ذِكر طوائفَ من الطّغاة: عاد وثمود وفرعون الذين هم من الفريق الأوّل، وطوائفَ من المؤمنين المهتدين الشّاكرين نِعَمَ الله، الذين هم في عِداد الفريق الثّاني، فكان الوعدُ والوعيد حاصلًا في السّورتين.

**ثالثًا:** هذه السّورةَ مفصّلةٌ لما أُجملَ في سورة الغاشية من جزاء الفريقيْن من أصحاب الوجوه النّاعمة والخاشعة، وجاءت مبشّرةً بزوال الغاشية عن القلوب والأبصار(1).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 219.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾

[الفجر: 1 - 4]

## مناسبةُ مَطْلعِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الوعيد بالعذاب الأكبر لمن تولّى وكفر إلى بيان أمثلة تاريخيّة عليه

لما خُتِمت سورة الغاشية بالأمر بالتّذكير المُجرّد عن السّيطرة والرّقابة والمتابعة، وأنَّ من لا يستجيب لدعوة الحقّ فيتولّى ويكفر، فإنَّ اللّه يتولّى عذابَه، وجاء في ختام السّورة الوعيد بأنَّ الإياب والمرجع إليه سبحانه، ثمّ بعد ذلك يكون الحساب؛ ناسَبَ أن تبدأ السّورة التّالية لها في ترتيب المصحف بالقَسَم بالزّمان، فبدأت بمطلع اليوم وهو الفجر، ثمّ ثنّت باللّيالي العشر، وبالشّفع والوتر، ليكون القَسَم توكيدًا للوعيدِ الذي أوعد اللّه به مَن تولّى وكفر، من العذاب الأكبر، ويُعزِّز هذه المناسبة ذِكرُ مجموعةٍ من الأمثلة التّاريخيّة على تعذيب الأمم السّابقة كعاد وثمودَ وفرعونَ، التي لحقها بسبب تولّيها وكفرِها عذابُ اللّه الأكبر، ثمّ الحسابُ الأشدّ في الآخرة، فهو انتقال من الوعيد الإجماليّ في نهاية الغاشية، إلى القَسَم بالزّمن الذي يدعو العاقل إلى التّأمّل، ومعرفة ما أصاب الأممَ السّابقة.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾: أصلُ (شفع) يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ، تقول كان فردًا فشفعتُه، أي: صيّره زوجًا[1]، والشَّفْعُ: ضمُّ الشّيءِ إلى مِثْلِه، والشَّفعُ من العددِ ما كان أزواجًا[2]، والشَّفعُ: هو الزَّوجُ[3]، والشّفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شفع).
(3) الرّاغب، المفردات: (شفع).

خِلاف الوَتْر، ومقابلٌ له. و(الشَّفْعِ) في الآية بمعنى الأشياء كلّها، فيكون عطف (الوَتْرِ) من تمام المعنى، أي: شفعِها ووترِها، وقيل: المراد بالشَّفْعِ يوم الأضحى أو أيّام الشّفع في أيام عشر ذي الحِجَّة، وقيل: الشّفع هو الخَلق[1]؛ لأنَّه تعالى خلق من كلِّ شيءٍ زوجين.

2) ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾: الوِتْرُ والوَتْرُ: الفَرْدُ، والوِتْرُ: واحدٌ، والوَتْرُ في العدد مقابلٌ للشّفع. تقول كان فردًا فشفعتُه. ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ في الآية هو من تمام القَسَم بجميع الأشياء شفعِها ووترِها كما تقدَّم. وقيل: هو يوم عرفة، أو أيّام الوتر من ذي الحِجّة، وقيل: هو اللّه تعالى لأنَّه وِترٌ، أي: فرْدٌ[2].

3) ﴿يَسْرِ﴾: السُّرَى: سَيْرُ اللَّيْلِ، يُقالُ: سرى وأسرى، ومنه سَرَوْت وسَرَيْت الثّوب عنّي، أي: نزعته؛ لأنَّ الثّوب يُحيط بالجسم، والسُّرَى: سير اللّيل كلّه. و﴿يَسْرِ﴾ في الآية بمعنى يمضي[3]، أو يُسْرَى فيه[4].

## المَعنى الإجماليُّ:

الأزمــــان وعــاءُ دَلائــــل بَـديـعِ صُنْعِ الله، وهي أوقــات أفعــال البرِّ وعبادة الله

افتتح اللّه تعالى هذه السّورة بالقَسَم بما هو دالٌّ على قدرته وتوحيده، فأقسَم بالفجر المعروف، وهو الوقت الذي ينشقُّ فيه الضّوء، وينفجر النّور، وبليالٍ عشرٍ وهي العشرُ الأوَلُ من ذي الحِجَّة، وبالزّوج والفرد من هذه اللّيالي، فهو سبحانه أقسم باللّيالي جملةً، ثمَّ أقسم بما حوته من زوج وفرد. أو يكون قد أقسمَ بشفع كلِّ الأشياءِ ووترها، وأقسمَ باللّيل وقتَ سيرِه ومضيّه. ثمّ قرَّرَ فخامةَ الأشياء التي أقسم بها قبلُ، وكونَها أهلًا لأنْ تُعَظَّمَ، فبيَّنَ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 526، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 439.

على أسلوب الاستفهام التّقريريّ: أنَّ مَن كان ذا عقل ولُبٍّ يفطَن إلى أنَّ في القَسَم بهذه المخلوقات المشتملة على باهر الحِكمة، وعجيب الصّنعة، الدّالّة على وحدانيّة صانعها، مقنعًا أيّما مقنعٍ، وكفايةً أعظم كفاية[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### براعةُ افتتاح السّورة بالقَسَم:

التّوطئة لتقرير عظيم المعاني ولفت الأنظار إلى ما سيأتي من الأخبار

القَسَم بالشّيء يدلُّ على استحسانِه وتعظيمِه، والأشياء التي أقسم الله بها لا بدَّ وأن يكون فيها إمّا فائدةٌ دينيَّة مثلُ كونِها دالَّة على التّوحيد وعلى البعثِ يوم القيامة، وإمّا فائدةٌ دنيويَّة توجِبُ بعثًا على الشّكر، وإمّا أن يكون فيها مجموعُ الفائدتين، وهو الغالب[2].

والمَقْصودُ مِنْ هَذا القَسَمِ في قوله ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ وما بعدَه، تَحْقيقُ المُقْسَمِ عَلَيْهِ؛ لِأنَّ القَسَمَ في الكَلامِ مِنْ طُرُقِ تَأْكيدِ الخَبَرِ إذِ القَسَمُ إشْهادُ المُقْسِمِ رَبَّهُ على ما تَضَمَّنَهُ كَلامُهُ. وقَسَمُ الله تعالَى متمحِّضٌ لقصدِ التّأكيدِ والتّقرير. ولمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى النّبيِّ ﷺ كما دلَّ عليه قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾؛ دلَّ على أنَّ القَسَمَ يُقصَدُ به أوّلًا وبالذّاتِ التّعريضُ بتحقيقِ حصولِ المُقسَمِ عليه بالنّسبة للمُنكرين[3]. كما يُقصَد به تقريرُ مضمونِ القَسَمِ والمقسَمِ عليه عند عموم المخاطَبين.

### دلالة تقديم القَسَم بالفجر على غيرِه:

مناسبة ما يُبدأ به اليوم لما بدأ به السّورة

قُدِّم القَسَم بالفجر على غيره في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾؛ لأنَّ الفجر نعمة جسيمة، وله شرافة عظيمة، والفجر انفجار الصّبح كلَّ يومٍ، وهو مَظْهَرٌ عَظيمٌ مِنْ مَظاهِرِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 638، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 140 - 142.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

وبَديعِ الصُّنْعِ، فالفَجْرُ ابْتِداءُ ظُهورِ النّورِ بَعْدَما تَأْخُذُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ في الِانْصِرام، ولمّا كان الفجرُ ابتداءَ اليوم؛ ناسبَ أن يكون كذلك ابتداءَ القَسَم به دونَ غيره.

## سبب إيثار القَسَم بالفجر على الصّبْح:

لمّا جاءت سورةُ الفجر بعد سورة الغاشية التي كان من أهمِّ مقاصدِها بيانُ أنَّ البعثَ واقعٌ وحاصلٌ؛ ناسبَ القَسَمُ بالفجر دون الصّبح في السّورة التي تلتها؛ لأنَّ الفجر هو انفجار ضوءِ النّهار من اللّيل، فالفجر مشاكِلٌ لبعثِ الموتى ونَشْرِهم منَ القُبور حيثُ تنتشر الحيوانات لاسيّما الإنسان، وينبعث النّيامُ من النّوم إلى الانتشار في ضياء النّهار في طلبِ المعاشِ والأرزاق، لِمَن تأمّل، فيكون في اختيار لفظ الفجر إشارةٌ إلى البعثِ من القَبور للمجازاة في الحساب بالثّواب أو العقاب[1]. وفي إيثار القَسَم بالفجرِ إشارةٌ كذلك إلى فجرٍ جديد بهذا القرآن للحياة، ودعوةٌ مجدّدةٌ للأحياء أن يكتحلوا بهذا النّور، وأن يكون لهم ضياءٌ يعملون به.

الفجر أنسب لزمان الإسلام، فهو انفجارٌ نورانيّ في حياة الظّلم والظّلام

## معنى تعريف لفظ (الفَجْرِ):

تعريف لفظ (الفَجْرِ) للجنس، ويدلُّ عليه مناسبةُ عطفِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ عليه، فيدخل فيه فجرُ كلِّ يوم[2]، فالقَسَم متكرِّرٌ مستمِرٌّ بكلِّ فجرٍ يأتي، والمراد وقتُ انفجارِ الصّبح الصّادق والكاذب، ويحتمل أن يُراد به الفجرُ الصّادق، فهو أحرى بالقَسَم به، وهو الفجر المستطير الذي ينتشر عرضًا في الأفق، وهو الوقت الذي يدخل به صلاة الفجر، ويَحْرم الطّعامُ على الصّائم.

الفجرُ أعظمُ الأوقات في اليوم وأشرُفها وأبرُكها

ويجوز أن تكون (أل) للعهد، فيراد بالفجر فجرٌ معيَّنٌ، فقيل: أُريد به وقتُ صلاة الفجر من كلِّ يوم، وهو مرويٌّ عن قتادة، وفيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 148.
(2) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1199.

إشارةٌ إلى تفخيم شأنِ صلاة الفجر، بتفخيم وقتِها وتعظيمِه. وقيل: فجرُ يوم النّحرِ، لمناسبة عطف ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عليه، وهوَ الفَجْرُ الَّذي يَكونُ فيهِ الحَجيجُ بالْمُزْدَلِفَةِ، وهذا مرويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ وعَطاءٍ وعِكْرِمَةَ[1].

## مناسبة عطف اللّيالي العشر على (الفَجْرِ):

الفجر يُقابل اللّيلَ باعتباره مبدأ النّهار ويُقابل اللّيالي العشر على اعتبار يوم النّحر

ناسب عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ على (الفَجْرِ)؛ لما أنَّ الفجرَ وقتُ انتهاءِ اللّيل، فبينَهُ وبين اللّيل جامعُ التّضاد[2]، وهو من مناسبات العطف بالواو، ويمكن أن يقال: إنَّ الجامع بين المعطوفين خياليٌّ في الجمع بين ما هو في المألوفِ والعادة؛ فإنَّ اللّيل مظهر من مظاهر القدرة الإلهيَّة، وهو مثل الفجر في كونِه زمانًا، فلمّا أُريد عطف (اللَّيْلِ إذا يَسْرِ) على (الفَجْرِ) خُصَّت قبلَ ذِكرِه بذِكر اللّيالي العشر المباركة، إذ هي من أفراد اللّيل. وإن كان الفجر يُقصَد به فجرُ يومِ النّحر، فيكون الجامعُ بين المعطوف والمعطوف عليه خياليًّا[3]، كما هو ظاهر. لتقاربِهما في الوقت. فإنَّ فجر يوم النّحر يلي ليلتَه.

## نُكْتة القَسَم بـ(لَيالٍ عَشْرٍ):

شرفُ الزّمن يدلُّ على شرفِ ما فيه من أعمالٍ صالحةٍ

أقسم تعالى بليالٍ عشرٍ في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ لإفادة تعظيمِها وتفخيمِها وبيان شرافتِها. وشرافةُ الزّمن تدلُّ على شرافةِ ما يُعمَل فيه من أعمالٍ صالحةٍ، ولمّا دلَّ القَسَمُ على شرافة زمن هذه اللّيالي، وكان الزّمن غيرَ مختصٍّ بمكانٍ دونَ آخر، أفاد أنَّ كلَّ من تَمرُّ عليه هذه اللّيالي قادرٌ أن ينتفع منها بالعمل الصّالح فيها.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 476، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 409، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 246، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 246.

### فائدة تنكير (لَيالٍ):

أفاد تنكيرُ (لَيالٍ) تعظيمَ هذه اللّيالي وتفخيمَها وتشريفها؛ لتخصيصِها بفضائل ليست في غيرها؛ ولأنّها معيّنات معلومات. وقد يقال: التَّنكير منافٍ للتّعيين. فكيف يقال: إنَّ المرادَ بها ليالي العشر الأوَل من ذي الحِجَّة؟ وأجيبَ بأنَّها لشرفها وعِظمها صارت معلومات في الذّهن، فلم تُحتَجْ إلى تعريف وتعيين[1].

اللّيالي العشر قليلةٌ في العامِ، ولقلّتها المتضمّنة شرفَ العمل نالت التّعظيم

وذهب الزّمخشريّ إلى أنَّ التّنكير للتّقليل، بمعنى: تقليل وقتِها فهي أيّامٌ عشر مخصوصةٌ من بين جنس اللّيالي، فهي بعضٌ قليل من اللّيالي الكثيرة من ليالي السَّنةِ؛ ليَدُلَّ التّقليلُ على فخامتِها وشرافتِها كذلك[2].

### عِلّةُ تنكير ليال خلافًا لبقيّة المذكورات:

جاء لفظُ (الفَجْرِ)، و(الشَّفْعِ)، و(الوَتْرِ)، و(اللَّيْلِ إذا يَسْرِ) معرفةً، إلّا (لَيالٍ عَشرٍ)؛ فلم يُجمَع بينها وبين بقيَّة المعطوفات بالتّعريف؛ وذلك لأنَّ اللّيالي العَشر معروفةٌ معلومة، مختصَّة بليالٍ معيَّنة، فلمّا عُرِفت بعددها أغنى ذلك عن تعريفِها باللّام، فيُتوصَّل بترك التّعريف إلى تنوين اللّيالي وتنكيرها؛ فيُتحصَّل المقصودُ الأهمّ المناسبُ للسّياق، وهو تعظيمها وتفخيمها[3].

عددُ اللّيالي أغنى عن تعريفها لتنالَ الفضيلةَ والشّرف

وفي تنوّع المُقسَم به بين التّعريف والتّنكير تفنُّنٌ في البيان، كما أنَّه لمّا كان الجمع ثقيلًا لكثرتِه، ناسبَ تخفيفُه بتنكيرِه؛ لأنَّ تنكير الجمع أخفُّ له من تعريفِه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّها وإن جاءت نكرةً فإنَّها لعظمتِها وشُهرتِها صارت معلومةً معروفةً لا تحتاج إلى تعريف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 264.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 611، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

### غرض تقييد اللّيالي بعدد عشر:

أعظمُ عشرِ ليالٍ متتابعاتٍ عشرُ ذي الحِجّة

أفاد تقييد اللّيالي بعدد عَشْرٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ التّعيينَ، وتعيينُها قاد إلى بيان عظمتها وشرفها، فليس في ليالي السّنة ليالٍ متتابعاتٌ عظيمة مثلَ عشرِ ذي الحِجّة، فالعمل فيها أكثرُ ثوابًا، وهي وقت مناسكِ الحجِّ، ففيها يكون الإحرام ودخولُ مكَّةَ وأعمالُ الطّواف، وفي ثامنِها ليلةُ التّروية، وتاسعها ليلةُ عَرَفة، وعاشرها ليلةُ النّحر، فتعيَّن أنَّها اللّيالي المُرادة بليالٍ عشرٍ[1].

### نُكْتَة القسَم بالشَّفعِ والوَتْر:

القسَم بالشّفع والوتر - وهما عرفة والنّحر - فيه مزيدُ تعظيم للَّيالي العشرِ

جملة المعطوفات هي من جنس الزَّمان، وهو ما يومئ إلى أنَّ (الشَّفْعِ والوَتْرِ) قِطَعةٌ من الزّمن؛ ليكون المعطوف من جنسِ المعطوفات، وأقربُ هذه القِطَعِ أن تكون جُزءًا من اللّيالي العشرِ، شفعًا ووترًا، أو يكون المقصودُ منها يومَ النَّحرِ ويومَ عرفةَ[2]، وهو زمانٌ معلوم، فأقسم سبحانه باللّيالي العشرِ جملةً، ثمَّ أقسمَ بما حوته من زوج وفَرْد، وقد أكثر المفسّرون في بيان المراد من الشّفع والوتر، وتفسيرُها بيوم النّحر وعَرَفة أنسبُ الأقوالِ؛ ليُجانِسَ المذكورات الزّمانيّة، ويُناسبَ اللّيالي العشر، إذ هما جُزء منها، فإنَّ القَسَم بالشّفع والوتر اللّذين هما يوم عرفة والنّحر، يزيد من تعظيم اللّيالي العشر؛ لتخصيص بعضها بالقسَم، وبعدَها القول بالعمومِ، ليَعُمَّ وجودُهما الزّمانَ كلَّه، فيأتي على كلِّ شفعٍ ووتر.

### معنى تعريف لفظ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾:

احتمال الخصوص العهديّ والعموم الاستغراقيّ

تحتمل (أل) في اللّفظين ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أن تكون عهديَّةً، على أن يكون المرادُ منَ الشّفع والوَتر عَرَفةَ والنّحر، ويحتمل أن تكون للاستغراق، فتُفيد التّعميمَ، فالشّفع والوتر يعمّان كلَّ شفعٍ ووترٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 490، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 153.

ممّا يعظِّم من الأشياء[1]؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ لا بدَّ أن يكونَ شفعًا أو وترًا، فيكون القَسَم بالشّفع والوتر كنايةً عن القَسَم بجميع المخلوقات لعدم خُلوِّها عنهما. وبالجملة فإنَّ قَسَم اللّه تعالى بالشّفع والوتر يدلُّ على تعظيم الخالقِ وحُسْنِ تدبيره وبديعِ حِكمتِه، في أن أوجدَ الزّوجيَّة والفرديَّة في الأشياء.

### نُكْتَة تقديم (الشَّفْعِ) على (الوَتْرِ):

توجيه التّقديم مبنيٌّ على التّفسير وتابعٌ لمقتضاه

قُدِّمَ القَسَمُ بـ(الشَّفْعِ) على (الوَتْرِ) من باب تقديم النّحر على عرفة على أشهر التّفاسير، أو من باب تقديم الكثرةِ على القِلَّة؛ فإنَّ الشّفع زوج، والوتر فرْدٌ، والمقام مقام تعظيم وتفخيم، فناسبَ تقديمُ الكثرةِ على القول بالاستغراق، كما أنَّ في التّقديم رعايةً للفاصلة ورؤوسِ الآي المناسبةِ لطرقِ القَسَم في القلوب.

### معنى تعريف لفظ (اللَّيْلِ):

المراد كلُّ ليلةٍ من ليالي الأيام العشر

(أل) في (اللّيل) للجنس، فلا يقصد به ليل معيَّن، بل المراد جنس اللّيل، فيقتضي العموم، ويدخل فيه كلُّ ليلة من ليالي الأيام[2].

### دلالةُ تقييدِ اللّيل بكونه ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾:

في ذهابِ اللّيل وظلمته إشارةٌ إلى ذهاب الظّلْمِ ومجيء النّورِ وهدايته

لمّا قُيِّد القَسَمُ باللّيل بقيد ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ دلَّ على أنَّ المراد ليس عمومَ اللّيلِ، بل بوصفِ وقتِ سيرِه ومُضيِّه؛ ليكونَ القيدُ موضعَ ظهورِ عظَمة القَسَم وشرفه؛ لما في سَرى اللّيل من الإشارة إلى التّعاقب بين اللّيل والنّهار، ففي سرى اللّيل إشعارٌ بوضوح الدّلالة وقوّتها على كمالِ قدرة اللّه تعالى، وإيماءٌ إلى وفورِ النِّعمةِ على المخلوقاتِ وكثرتها[3]، وفي ذِكر قيد ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ تصويرٌ لحركة اللّيل يسير ظلامًا حتّى ينقضيَ بالضّياء المبتدئ، ففي تسييره على المقادير المرتَّبةِ فيه،

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 421.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 495، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 151.

ومجيئِه بالضّياء عند تقضّيه في الفصول أدلُّ دليلٍ على أنَّ فاعلَه يختصُّ بالحِكمةِ والاقتدار الذي يَجِلّ عن الشّبيه والنّظير(1)، كما أنَّ فيها إشارةً إلى ذهاب ليلِ الظّلم، ومجيءِ فجرِ النّور والحقّ والخبر، وهو ما يتناسب مع أحوال النّزول.

### دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

ذهابُ اللّيل إنّما يكون بالسُّنن لا بما تشتهيه الأنفس

﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ جُرِّدت للظّرفيَّة، فلا تتضمّن معنى الشّرط(2)، وأوثِر استعمالُ ﴿إِذَا﴾ للدّلالة على الاستمرار في كلِّ وقتٍ يكون فيه ليلٌ، والمقصود أنَّه كلَّما وُجِد اللّيل فإنَّه يسري، أي: هذا هو شأن اللّيل، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّيل مهما طال زمانُه في شعور المظروف فيه فسَيسري، ويأتي من بعده فجرٌ صادق، كما أنَّ في ورود ﴿إِذَا﴾ إشارةً إلى أنَّ سرى اللّيل معلَّقٌ بقدرة قادر، وأنَّه إنّما يسري بحِكمةٍ وسُنن ثابتة، لا بأهواء النّاس ومطامعِهم ومصالحهم أو رغباتهم، وهو المناسِب للقسَم المُنبِئ بالتّعظيم.

### نُكْتَة الاستعارة المكنيّة في لفظ (اللّيل):

تشخيصُ اللّيل وبيانُ أنَّ له حركةً ثابتة

في لفظ (اللّيل) المقيّد بقيد ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شُبِّه اللّيل الذي يسري ويمضي بسير شخصٍ ومُضّيه في اللّيل(3)، ونُكّتة الاستعارة تشخيصُ اللّيل وبيانُ أنَّ له حركةً ثابتة.

### بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظ ﴿يَسۡرِ﴾:

ذهابُ اللّيل أمرٌ حتميٌّ، والعبرة بالصّبر على ظلامه وظلمته

معنى ﴿يَسۡرِ﴾: يمضي سائرًا في الظلام، أي: إذا انقضى منه جُزءٌ كثير، فشُبِّه تقضّي اللّيل في ظلامه بسير السّائر في الظّلام، وهو السُّرى، كما شُبِّه في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [المدثر: 33]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضّحى: 2]، أي: تمكَّنَ ظلامُه واشتدَّ(4)، فتشبيهُ

---

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 3/ 211.

(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 206.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 336.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 315.

ذهابِ اللّيل بالسَّرَى الذي هو سير السّائر في اللّيل، استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه يتحرَّكُ في مسيرته، والأحياء نيام لا يشعرون به، كما يتحرَّك الذين يسيرون فيه دونَ أن يشعُر بهم أحد[1].

**بلاغة الإسناد المجازيّ:**

سيرُ اللّيل هو سير ما فيه من النّاس والأحوال وتقلّبات الزّمان

إن كان المراد بسير اللّيل سيرَ أهله فيه[2]؛ فيكون إسنادُ الفعل ﴿يَسۡرِ﴾ إلى اللّيل على طريق المجاز العقليّ؛ للإيذان بملابسة الفعل للزّمان وهو اللّيل؛ ليكون من قبيل قولِهم: ليلُه نائمٌ ونهارُه صائم[3]، والذي يظهر أنَّ المراد هو سير اللّيل وذهابُه، وأمّا السّائرون فيه فهو من دلالة اللّزوم، ويحتمل أن يكون من قبيل المجاز المرسل، بذِكر الزّمان وإرادةِ الحالِّ فيه وهو أهلُه، والمعنى مع الذي قبله واحدٌ.

**نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَسۡرِ﴾:**

تجدّد سُرى اللّيل واستمرارُه، وتصوير لحالة سراه

في التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَسۡرِ﴾ إشعارٌ بتجدّد سُرى الليل واستمرارِه، وفيه كذلك تصويرٌ لحالة سراه، فإنَّ سير اللّيل وذهابَه أمرٌ سننيّ لا يتوقّف، بل يتجدّد ويدوم.

**لطيفة حذف الياء في لفظ: ﴿يَسۡرِ﴾:**

سُرى اللّيل خفيف هادئ سريع، فناسبَه حذفُ الياء

حُذِفت الياءُ من ﴿يَسۡرِ﴾ في الخطِّ؛ لأنَّها رأسُ آية وفاصلة، والفواصل تُحذف منها الياءات، وتدلُّ عليها الكسرات؛ لأنَّ كلَّ ما يوقَفُ عليه يَسقطُ إعرابُه، فحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي[4]. ومن لطائفِ حذف الياء أنَّ في حذفِها إشارةً إلى لُطف سُرى اللّيل وانقضائِه بهدوء ورويَّة، بخلاف سير النّهار الذي يكون فيه حركةٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1549.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 3289، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 142.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 5/ 136، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 496، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 477.

واضطراب في العيش. وفي خفاء الحرف وحذفِه إشارةٌ إلى مَحوِه تعالى صرفَ اللّيل، وإلى خفاء ما يقع فيه، بخلاف النّهار.

**نُكْتَة تطويل القَسَم:**

جاء القَسَم بالفجر واللّيالي العشر والشّفع والوتر واللّيل إذا يسر؛ للتّشويق إلى المُقسَم عليه[1]، مع الإشعار بمزيد أهميّتِه، والتّنبيه على الاعتبار به.

التّشويق إلى المُقسَم عليه، والإشعار بأهميّتِه، والاعتبار به

**بديع التّرتيب في المُقسَم بهنَّ:**

بدأ القَسَم بالفجر المناسبِ لِما سبقه من الحديث عن الغاشية، فكلاهما انبعاثٌ ونشرٌ للخَلْقِ، وفي الفجرِ إشارةٌ إلى كمالِ قدرتِه تعالى وتعظيمها ووفورِ نعمتِه على الخَلْقِ وتفخيمها، والمقصودُ النّعمةُ الدّنيويّة بظهور النّور وانبعاثِه، ولتتكسَّبَ الحيواناتُ لاسيّما الإنسان، ثمَّ جاء ذِكر اللّيالي العشر على سبيل المقابلة، في إشارةٍ إلى تفخيم هذه النّعمة، فهي أعظمُ ليالي السّنة، والعملُ الصّالح فيها ليس كمثلِه في سائر العام. وفيه إيماءٌ إلى كمالِ قدرتِه في تخصيصِ هذه الأيّام ووفور نعمتِه الأخرويَّة، ثمَّ جاء ذِكرُ الشّفعِ والوترِ تأكيدًا لمزيد الاعتناء بها، أو تفخيمًا لِبديع صنعِ الله، وتخصيصه الأعداد بالشّفعِ والوتر، ثمَّ جاء ذكر اللّيل إذا يسرِ، لمزيد التّأكيد والاعتناء بهذه الحالةِ التي هي مظهرٌ عجيبٌ من مظاهر قدرتِه تعالى وبديعِ حكمتِه، وفيها كذلك نعمةٌ عظيمةٌ على الخَلْقِ. وختم بذِكر اللّيل إذا يسرِ في إشارة إلى تعاقب الفجر واللّيل على الخلقِ في رحلة الزّمان في هذه الأرضِ.

بدأ بالفجر وختم باللّيل حالَ انقضائه؛ ليكونا كالحلقة المُفرغة ابتداءً وانتهاءً

وخلاصةُ التّرتيب: أنّه بدأ بالفجر الذي هو بداية النّهار، ثمّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

بليالٍ عشر التي هي جزءٌ شريف من الزّمان، ثمّ بالشّفع والوَتر، على القول الأشهر بأعظم أيام العام، أو بكلّ المخلوقات، ثمّ باللّيل عند انقضائه؛ ليرجعَ إلى الفجر، فما بعد ذهاب اللّيل إلى مجيءُ الفجر، فهي متعاقبةٌ في المبدأ والمنتهى.

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الفجر والصّبح:

الفـجـرُ دالٌّ عـلـى الانـبـعـاث والـتّـفـتّـح، والـصّـبـحُ دالٌّ عـلـى أوّل ضـوء النّهارِ

الصَّباحَ أوّلُ نورِ النَّهارِ، ولمّا كان أصل الصّبح يدلُّ على لون الحُمرة - حتَّى قيل سمّي الصّبح صبحًا لحُمرتِه - أُطلق الصّبح على وقت احمرار الأفق بحاجب الشّمس، ففي لفظ الصّبح إشارةٌ إلى الضّوء الذي يكون في أوّل النّهار، فيقع به الإسفار، وأمّا الفجرُ فأصلُه من التّفتّح في الشّيء، ومنه انفجارُ الماءِ من العين، والفُجْرَةُ: مَوْضِعُ تَفَتُّحِ الماءِ[1]. وقيل: هو من شقَّ الشَّيءَ شقًّا واسعًا[2]، فقيل: للصّبح فجرٌ؛ لكونه فجرَ اللّيل وشقَّه، فالفرقُ بينهما من جهة الاشتقاق دالٌّ على مورد استعمال كلٍّ منهما، فإن كان الغرض هو الانبعاث والتّفتّح عُبِّرَ بالفجر، وإن كان الغَرَض التّعبيرَ عن أوّل ضوء النّهارِ الذي يكون به الإسفار عبّر بالصّبح. ولهذا قال في سورة الفجر ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ في إشارة إلى البعثِ، وقال: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: 78] في إشارة إلى أنَّ القرآن يكون به تفتّحُ النّفوسَ وبعثُها إلى الحياة. بينما قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر: 34]؛ لأنَّ الإسفار هو انتشارُ لونِ الضّوء، ومثلُه قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التّكوير: 18]، وتمدَّح في آيةٍ أُخْرَى بكَوْنِهِ فالقًا له، فقالَ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، أي: فالق أوّل ضوء النّهار.

---
(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (فجر).

**المضيّ في اللّيل سرى، وفي أيّ وقت ذهاب**

## السُّرَى والذَّهابُ:

السّرى ذهاب مقيَّد بكونِه في ليل، وأمّا الذّهاب فهو مطلقٌ ولا يختصُّ بليلٍ، فعبّر بقولِه ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ لأنَّ المضيَّ في اللّيل هو سرى.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: 5]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من الـقـسَـم إلى أثره في العقول الرّاجحة

لمّا كان ما ذُكِرَ من أنواع القَسَم وتفاوتِ الزّمان قسَمًا عظيمًا دالًّا على أنَّ فاعلَها قادرٌ مختارٌ حكيمٌ، وفيه دلالةٌ عقليّة واضحة بتنوّع الزّمان وتغيّره على الإيجاد بعد الإعدام مع ما لهذه الأشياء في أنفسها وفي نفوس المخاطَبين بها من الجلالة؛ ناسبَ التّنبيهُ على ذلك بقوله سبحانه: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾[1]، فهو انتقالٌ من القَسَم إلى أثره في أصحاب العقول والحِجى، فإنَّ شأن الإقسام أن يحرِّك العقلاء لفهم مقاصد خَلْقهم وغايةِ إيجادهم.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجۡرٍ﴾: الحَجَر هو الجوهر الصّلبُ المعروف، وجمعُه: أحجار وحِجارَة، والحَجْر والتّحجير: أن يُجعل حولَ المكان حجارة، يُقال: حَجَرْتُهُ حَجْرًا، فهو محجور، وتصوّر من الحِجْرِ معنى المنع لما يحصلُ فيه، فقيل للعقل: حِجْر[2]، فيُقالُ لِمَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ ومَنَعَها: إنَّهُ لَذو حِجْرٍ، ومِنْهُ حَجَرَ الحاكِمُ عَلَى فُلانٍ، أي: مَنَعَهُ وضَبَطَهُ عَنِ التَّصَرُّفِ، ولِذَلِكَ سُمّيَتِ الحُجْرَةُ حُجْرَةً، لِامْتِناعِ ما فيها بها. وقال الفَرّاءُ: العرب تَقولُ: إنّه لَذو حِجْرٍ، إذا كانَ قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنَّه أُخِذَ من قولكَ: حَجَرتُ عَلَى الرَّجلِ[3].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعاقب الأزمان دلـيـلٌ مقنعٌ لأصحاب العقل

بعد أن أقسمَ اللّه تعالى بالمَذكورات، أقامَ الحُجّة على عظيم ما أقسم به وتحقيق ما أقسم عليه، فقال: فهل في قَسَمِ اللّه بتلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 24/ 22.
(2) الرّاغب، المفردات: (حجر).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 260.

الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ عن تكذيب الدّلائل الظّاهرة ومعاندة الحقّ.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### الموقع النّحويّ لِجملة الاستفهام:

جملة: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ اعتراضٌ وقع بين القَسَم والمُقْسَم عليه؛ لتأكيدِ المُقسَم عليه وتقريره؛ لِما في المُقسَم بها من الدّلالة على عظم قدرةِ اللّه تعالى وكمالِ حكمتِه ووفور نعمتِه وسعة رحمته[1]. وهذا شأنُ مَن ذكرَ حجَّةً باهرة بالغة، ثمّ قال مؤكِّدًا مُقرّرًا لها: هل فيما ذَكرتُه حُجَّةٌ؟ لبيانِ أنَّ الحُجّة ظاهرةٌ لا لبسَ فيها، وأنّها مُلزِمةٌ للمُخاطَب، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقِعَة: 76].

هَمْزُ العقولِ لإدراكِ مرامي الكلامِ مسلكُ البيان الفصيح

### نُكْتة الاستفهام بأداة ﴿هَلۡ﴾:

أوثِر الاستفهام بأداة ﴿هَلۡ﴾ دون همزة الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ﴾؛ لأنَّها تحمل معنى الإقرار المُؤكّد، كونها تأتي للتّصديق لا للتّصوّر، أي: الجواب عنها بالإثبات أو النّفي، فأفاد تحقيقُ السّؤال تحقيقَ المسؤولِ عنه، وأنّه جدير بالجواب بالتّقرير. بمعنى أنَّ ما أقسم به تعالى فيه من الدّلائل على قدرة الصّانع وبديع حكمتِه ممّا ليس له جوابٌ إلّا التّحقيقَ والإقرارَ والإذعانَ، وأنَّه لا يحتاج إلى دليل آخر.

سَوْق الحُجّة وتقريرُها يقتضي الاستفهام بأداة (هَلْ) دون الهمزة

### بلاغةُ الاستفهام وغَرضُه:

الاستفهام في قولِه: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ﴾ مجازيٌّ تقريريٌّ[2]، جيء به لغَرضِ تحقيق شأنِ المُقسَم بها وتثبيتها وتقرير فخامتها

القَسَم دعوةٌ صريحةٌ لإعمال الفكر في معرفة ماهيّة المُقسَم عليه

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 251، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 251.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 43، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 471.

وعظمِها، وكَونِها أُمورًا جَليلةً فيها عجائبُ دالّةٌ على خَلْقِه تعالى، وعلى توحيدِه وربوبيَّتِه، فهي حَقيقةٌ بالإعظامِ والإجلالِ عندَ أربابِ العُقولِ، وفي الاستفهامِ التّقريريِّ تَنبيهٌ على أنَّ الإقسامَ بها أمْرٌ مُعتَدٌّ به[1]، فهي حقيقةٌ بأن يُقسَم بها وأنْ يؤَكَّدَ بها لدلالتِها على الخالقِ ووحدانيَّتِه، وإنّما أوثرَ هذا الطّريق من الاستفهامِ هضمًا للخَلْقِ وإيذانًا بظهورِ الأمرِ والحُجَّة[2].

### نُكْتَة العدولِ إلى الاستفهامِ المجازيّ:

توكيد تقرير المسؤول عنه أرسخُ في تثبيت المعاني من الخبر المجرّد

آثرَ النّظم الكريم التّعبيرَ عن تقرير شأنِ المُقسَم به بطريق الاستفهام المجازيّ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ﴾، دون التّعبيرِ بالأسلوب الخبريّ فيُقال: (إنَّ في ذلك لقسمًا لذي حِجرٍ)؛ وذلك لما يفيده الاستفهامُ من إثارة ذِهنِ المخاطَب على سبيلِ الطّلبِ، للنّظر في المُقسَم به ليكون دليلًا على وجود الصّانع وكمالِ قدرته، وبديع صنعِه، وحُسنِ تدبيرِه، وعلى أنّه قَسَمٌ مقنِعٌ معتدٌّ به في الدّلالة على تحقّق جوابِ القَسَم؛ لأنَّ المقام مقامُ سَوقِ الحُجَّة وإيرادِها بطريق الاستفهام المجازيِّ، المُرادُ به التّقريرُ.

### بلاغة حرفِ الظّرفيّة:

أفاد التّعبير بحرف الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ على أنَّ المشارَ إليه العائدَ على المُقسَم بهنَّ وعاءٌ امتلأ بالدّلائل بما يقنع به كلُّ ذي لُبٍّ.

### بلاغة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

كلُّ ما أقسم به العظيم فهو عظيم

يرجع اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور ممّا أُقسِم به، أي: هل في القَسَم بذلك قَسَمٌ لذي حِجرٍ، وعبّر به بصيغة المُفرد؛ للإيماء إلى أنَّ أيَّ قَسَمٍ من الأقسام المذكورة يكفي، وأنَّها جميعًا في مقامٍ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 153.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154.

واحد في ظهور الدّليل ووضوحِه، وأنّها في سياق دليل واحد في نسقِها بقرينة عطفِها بالواو، وآثَر النّظمُ استعمالَ اسم الإشارة للبعيد؛ للإشارة إلى عُلوِّ قَدْرِ المُقْسَم عليه وزيادةِ تعظيمه وتفخيمه، وهو المناسِبُ للقَسَم؛ لأنَّ قَسَم اللّه تعالى بالأشياء دالٌّ على تعظيمِه لها، فكلُّ ما أقسم به العظيمُ عظيمٌ.

### غرض تنكير لفظ ﴿قَسَمٌ﴾:

قسَمُ الله عظيم ليس كأيِّ قَسَم

نُكِّر لفظ ﴿قَسَمٌ﴾ للتّعظيم، فهو قسمٌ ليس كأيِّ قسم، فهو الصّادر عن العظيم سبحانه؛ ليُفيد تقرير تعظيم قسمِه تعالى، أي: هو قسمٌ كافٍ ومقنعٌ للمُقسَم له، إذا كان ذا لبٍّ وعقلٍ يتدبّر[1].

### بلاغة الكناية في لفظ ﴿قَسَمٌ﴾:

تعظيمُ المُقسَمِ عليه وتأكيدُه

في التّعبير بلفظ ﴿قَسَمٌ﴾ دلالةٌ على قَسَمِه تعالى بالأشياء المذكورة، وفيه إشارةٌ إلى المُقسَم عليه؛ لأنَّ تعظيمَ القَسَم يدلُّ على تعظيم المُقسَم عليه وتأكيدِه من طريق الكناية[2].

### نوع اللّام ودلالتُها:

اللّام في ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ للتّعليل، والمعنى: هل في ذلك قسمٌ لأجلِ ذي عقلٍ يمنعُه من المكابرة، فيقنعَ ويعلمَ أنَّ المُقسِمَ صادقٌ فيما أقسمَ عليه[3].

### نُكْتَة التّعبير بذي دونَ صاحب:

بيان شدّة لزوم صاحبِ العقل لمقتضى عقلِه ومتابعة آثارِ حِكمتِه

جاء لفظُ (ذي) بمعنى (صاحب)، وعبّر بذي لأنّه أبلغُ في لزوم الوصفِ من (صاحب)، وأنَّ المُضاف قد اشتُهر بما أُضيف إليه، حتّى صار بمثابة العَلَم عليه، كما أنَّ الإضافة بـ(ذي) أشرف؛ لأنّها تُقال في مقام التّشريف، والعِبرةُ بالمقامِ. ففي الإضافة في قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 316.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 336.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ إشارةٌ إلى شِدّة لُزوم صاحبِ العقلِ لعقلِه وتحكيمِه، بحيثُ يمنعُه من الحُكم الخاطِئ أو الوقوع فيه، ويمنعُه من تكذيب الدّلائل الظّاهرة، وفيها كذلك مدحُ المتّصف بالعقل، وأنّه حقيق أن يكون المقسَم به مُقنِعًا له.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿حِجْرٍ﴾، ولَطائِفُهُ:**

**منعُ العقلِ صاحبَه مِن اتّباع الباطل طريقٌ لاتّباع الحقِّ**

جاء استعمال مفردة ﴿حِجْرٍ﴾ دون مقارِباتها؛ لأنَّ الحِجرَ في الأصلِ هو المَنْع، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العقل يمنع صاحبَه عنِ ارتكابِ ما لا يَنبغي من التّكذيب والإنكار لما هو متحقّق الوقوع، فصاحبُ العقلِ مانعٌ لنفسه ضابطٌ لها؛ لأنَّ المطلوب من المخاطَب في هذا السّياق، أن يمنعه عقلُه عن مُجاراة الهوى واتّباع الباطل، لا أن يقودَه إلى الحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ واضحٌ غيرُ خافٍ، وإذا منع العقلُ صاحبَه عنِ اتّباع الباطل، فاتّباعُ الحقِّ متحقّق.

ومن لَطائِفِ التّعبير بلفظ ﴿حِجْرٍ﴾ هو أنَّه لمّا كان أصل الكلمة يدلُّ على القوّة والشّدّة؛ ناسبَ أن تكون في سياق الإخبار عن الأقوام الثّلاثة عادٍ وثمودَ وفرعونَ، الموصوفين بالشّدّة والقوّة، وأنَّ قوّة العُدّة والعَدد لا تنفع إن لم يكن أصحابُها ذوي عقلٍ يمنع من المهالك.

**بلاغة التّعريض:**

**مَن كذَّب بالتّوحيد اختار الوصفَ بانعدام العقل**

يلزم عن الوصف بقولِه تعالى: ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أنَّ من يُكذِّب بالمُقسَم عليه وبدلائل التّوحيد الظّاهرة ليس بذي حِجرٍ، فهو ذَمٌّ له، ففيه تعريضٌ بمن يُكذِّب بالبعثِ ويتهافت إلى الباطلِ ووعيد له، بأنَّه يستحقُّ العذاب؛ لأنَّه لم يُعمِل عقلَه ولم يمنعه من التّكذيب بالأدلّة الظّاهرة.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**ذو وصاحب:**

يدلُّ لفظُ (ذو) على ملازمته لما أُضيف إليه وعدم انفكاكِه عنه،

(ذو) أشدُّ ملازمةً من صاحب

وأمّا لفظ (صاحب) فإنَّه يدلُّ على صحبة غيرِه في بعضِ الأحوال أو معظمِها، والوصفُ بـ (ذو) أبلغُ من الوصف بـ (صاحب)؛ لشدَّة الملازمة وطولِها.

### القَسَم والحَلِفُ واليمين:

القَسَمُ يغلب استعماله في الصّدق، والحَلِف يغلب في الكذب، واليمين مستعارٌ للقَسَم

القَسَمُ يستعملُ غالبًا فيما يكون فيه المُقسِم صادقًا فيما يُقسِم به؛ لأنَّ القَسَمَ مأخوذٌ من القِسْمةِ، كأنّما آتى المُقسِمُ كلَّ موضعٍ نصيبَه المُحدّدَ من الحُسْن والخيرِ فلم يتفاوت، فالقَسَم يدلُّ على إصابة المُقسَم عليه، وصِدقِ المُقسِم فيما أقسَم به، وأمّا قولُه تعالى عن إبليس: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: 21] فالمعنى: حلَف لهما بما يوهِم صِدقَه[1]، أو أنّهما طلبا منه أن يُقسِمَ لهما؛ لأنَّ القَسَمَ لا يكونُ إلّا حقًّا فأقسم جُرأةً منه وإمعانًا في الإغواء، ولهذا جاء الفعل (قاسَمَهُما) بصيغة المفاعلة، بينما الحَلِفُ يستعمل غالبًا في الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التّوبة: 107] وقولُه تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾ [المجادلة: 14]، وأمّا اليمين فهو اسم للقَسَم مستعار، وذَلِكَ أنهم كانوا إذا تقاسموا على شَيءٍ تصافقوا بأيمانهم، ثمَّ كَثُر ذَلِك حَتَّى سُمّيَ القَسَمُ يَمينًا[2].

### الحِجْر والعَقْل:

العقلُ الاسم العَلَم وهو مأخوذٌ من الحبس، والحِجْر وصفٌ له وهو مأخوذٌ من الحبس

العقلُ هو الاسم العَلَم، والحِجْر من أوصافه، والعقل مأخوذٌ من الحبس؛ لأنَّه يحبس صاحبَه عن الأخطاء، وسُمّيَ عقلًا لأنَّه يعقل صاحبَه عن القبائح ويحبِسُه عن الرّذائل.

وأمّا الحِجرُ فهو مأخوذٌ من المَنعِ، فيَدُلُّ على منعِ صاحبِه من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 ب/ 60.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

التّهافت في المهالكِ، ويمنعُه من فعل ما لا ينبغي أو ما لا يليق من الأقوال والأفعال، وهو وصف مَدْحٍ، ولا يوْصَف به إلّا على التّمام؛ فلا يُقال: ذو حِجرٍ صغير، أو ذو حِجْرٍ كبير، كما يُقال: له عقل صغير أو عقل كبير.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ٩
وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١١ فَأَكْثَرُوا۟
فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤﴾ [الفجر: 6 - 14]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذِكر التّوطئة بالقسَم إلى بيان المقصود تعريضًا بالمُكذّبين وتلويحًا بالعذاب

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة القَسَم بمجموعةٍ من الأزمان والمخلوقات الدّالّة على قدرةِ اللّه العليم الحكيم، وأشارت إلى ضرورة إعمال العقل في معرفة أثر القسَم بها، وكان ذلك كالتّوطئة للمقصود؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان المقصود، فذكر مجموعةً من الأحداث التي أنزلها اللّه تعالى على المُكذّبين، والجاحدين لربوبيّته، والمعاندين لأُلوهيّته، والمتربّصين برُسله، والمجاهرين بالكفر والعصيان، ليكون ذلك تعريضًا بكلِّ من سلك سبيلَهم، وأسهم في طريقهم، وحاد عن نهج الحقِّ، فهو انتقالٌ من ذِكر القَسَم إلى بيان مقصده، للامتثال باتِّباع المقصود، والإيمان الحقّ بالمعبود.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِرَمَ﴾: أصل الكلمة يدلُّ على نَضْدِ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ في ارْتِفاعٍ، ثُمَّ يَكونُ القياسُ في أعْلاهُ وأسْفَلِه واحِدًا، والأرَمَ مُلْتَقَى قَبائِلِ الرَّأْسِ، والإرَمُ حجارةٌ تُجمَع وتُنْصَب كَأنَّها رَجُلٌ قائِمٌ، تكونُ عَلَمًا في المفازة والأماكن التي لا أبنية فيها، وجمعه آرام. و﴿إِرَمَ﴾ في الآية إمّا أن يكون اسمًا لشخصٍ، وهو جَدُّ عادٍ، فتكون القبيلةُ قد سُمّيت باسمِه، وإمّا ان يكون اسمًا لبلدتِهم وأرضِهم التي كانوا

عليها[1]، وإمّا أن تكون الحضارة البائدة التي لم يُخلق مثلها في البلاد، فيما رفعته من أبنية وأعمدة.

2) ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾: أصل لفظ (عمد) يدلُّ على الاستقامة في الشّيءِ مُنْتَصِبًا أَوْ مُمْتَدًّا، والعَمْدُ: قصدُ الشّيء والاستناد إليه. وعَمَدْتُ الشَّيْءَ: أَسْنَدْتُهُ. وما يُستَندُ إليه أو ما يُعتمَد هو العِمادُ، والعَمودُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَديدٍ، تعتمد عليه الخيمةُ، وجمعه عُمُدٌ أو عَمَدٌ. و﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ إمّا بمعنى أعمدة بيوتِهم، أي: ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد[2]، وإمّا للإشارة إلى طولِ قاماتِهم[3]، أي: على تشبيه قاماتِهم بالأعمدة للإشارة إلى شدّتِهم وقوّتهم، وكِلا المعنيين صالحٌ لغويًّا.

3) ﴿جَابُواْ﴾: يدلُّ لفظُ (جوب) في أصلِه على خَرْقِ الشّيءِ، يُقال: جابَ الصّخرة نقبَها، وجُبتُ الأرضَ جوبًا، أي: دخلتها وخرقتها، وهو على المجاز، والمعنى: قطعتها سيرًا، ومنه جوابُ الكلام لأنَّه يقطع السّؤال، وقد تكون الإجابة مأخوذةً من الصّخرة التي تقبل الجَوْب، أي: الخرق، فتكون على استعارة معنى القَبول، والجَوْب: الدِّرْع تلبَسه المرأة، وجيب القميص والدّرع الذي هو منفذ الرّأس. و﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾ بمعنى: نَقَبوا صخرَ الوادي الذي يكون بين الجبلين وقطعوها ونحتوها واتَّخذوا منها وفيها بيوتًا[4].

4) ﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾: جمع (وتد) وهو عودٌ غليظٌ شيئًا، أسفلُه أدقُّ من أعلاه، يُدقُّ في الأرضِ لتشتدَّ به أطنابُ الخيمة وتثبت، وأصلُ (وَتَد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخ. ومنه وتَّد فلانٌ رِجلَه في الأرض: ثَبَّتَها[5]، ومنه كذلك: أوتاد الأرض: الجبال؛ لأَنَّها تثبِّتُها، ومعنى ﴿ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ إمّا صاحب المباني العظيمة الثّابتة للدّلالة على العِزِّ والمَنَعَة، كما في وصفِ المَلِكِ القويّ بقولِهم: (في ظلِّ ملكٍ ثابت الأوتاد)، وإمّا صاحِبُ القوَّةِ والجُموعِ الكثيرةِ من الجُندِ الَّذين يُقَوّونَ أمرَه، ويَشُدّونَ مُلْكَه[6]، كما يُقَوّي الوَتدُ الشَّيءَ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 405، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 322، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 153 - 154.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 503، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 418.

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 526، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وتد).

(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 317، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337.

5) ﴿فَصَبَّ﴾: يدور المعنى المِحوريّ للصّبِّ على إراقةِ المائع وحدَرِه من أعلى إلى أسفل بقوّة أو دفع، ويلزمه التّجمّعُ والثّباتُ رسوخًا بقوّة[1]، يُقال: صَبَّهُ فانْصَبَّ، وصَبَبْتُهُ فتَصَبَّبَ، ومِنْ ذَلِكَ: صَبَبْتُ الماءَ أَصُبُّهُ صَبًّا. ويُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فيُقالُ لِما انْحَدَرَ مِنَ الأَرْضِ: صَبَبٌ[2]، ومعنى ﴿فَصَبَّ﴾: أنزلَ بهم وحلَّ عليهم سوطَ عذابٍ بقوّة[3].

6) ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: الرَّصَد هو التّهيُّؤُ للشّيء والاستعدادُ له على جهةِ ترقّبه في طريقِه ومسلكِه، بحيثُ لا يفوته للأخذِ به وإصابتِه[4]، والإرصادُ: الانتظارُ. ورصَدت فلانًا أرصُدُه: إذا ترقّبتُه. ويلزمه الإعدادُ لَمن ينتظره، ولهذا قيل: أرصَدتُ لَهُ شَيْئًا أرْصده: أعددتُ لَهُ[5]. والمِرْصادُ: المكانُ الَّذي يَرْصُد بِه الرّاصد، والمَرْصَدُ مثلُ المِرْصاد، وجمعه المَراصِد[6]. ومعنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: لا يفوته شيءٌ من أعمال العباد، كما لا يفوت مَنْ بالمِرصادِ[7].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

رقابةُ الله قبلَ إنـزالِ العذاب بالمُكذّبين قائمةٌ على الرّحمة وإرخاء عنان الهداية

تُخبِرُ الآياتُ الكريمة عمّا أنزله اللّه بالطّاغين من العذاب في الأمم السّابقة ترهيبًا وتخويفًا للمُكذّبين من المخاطَبين؛ لئلّا ينزل بهم ما نزل بالأمم السّابقة، وتسليةً لرسوله ﷺ، أي: أَلَمْ تَعلَم - يا محمَّدُ - كيف انتقمَ ربُّك من قبيلةِ عادٍ إرَمَ ذاتِ الأعمدة العالية، أو ذات الأجسام الرّفيعة العالية، التي لم يُخلَقْ ما يماثل أصحابَ هذه القبيلة في بطشهم وقوَّتهم وطولِ قامتهم، ولا مثلُ بيوتِهم في

(1) الرّاغب، المفردات: (وجب)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صبب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صبب).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 410.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رصد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رصد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رصد).
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 508، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 421.

سائر البلدان؟ وكيف انتقَم اللّه كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقّوا الجبالَ في واديهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا لهم؟ وكيف انتَقَم اللّه كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ المُلْك القويِّ وصاحبِ الجُندِ والجموع الغفيرة؟ هؤلاء المذكورون مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلم والطّغيان، فأكثَروا في البِلادِ الفسادَ بكفرِهم وتجاوزهم في عصيانِهم؛ فأنزَلَ رَبُّك عليهم عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطّاغين المُفسِدينَ في الدُّنيا، فهو يراهم ويسمعهم؛ فلا يفوتونه، وسيُهلِكُهم، ويعذّبهم يوم القيامة[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### تعيينُ جوابِ القَسَمِ بين المقدَّر والمذكور:

إنــزالُ الـعـذابِ بـالـمـعـانـديـن سـنّـةٌ ماضيـةٌ إن تـحـقّـقت شروطُها

يحتمل أن يكون جوابُ القَسَم محذوفًا دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ فما بعدَه، أي: دلَّ على أنَّ المُقسَمَ عليه من جنسِ ما فُعِلَ بهذه الأمم، وهو العذاب الدّالُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾، فهَذِهِ العِبَرُ جُزْئيّاتٌ مِنْ مَضْمونِ جَوابِ القَسَم، فتقديرُ الجوابِ: ليَصُبَّنَّ ربُّكَ على مكذّبيك سَوطَ عذابٍ، كما صبَّ على عادٍ وثمودَ وفرعونَ، ومناسبةُ حذفِ الجواب تهويلُه وتعظيمه؛ لأنَّه لمّا لم يتعيَّن المُقسَم عليه ذهبَ الوَهمُ في تصوّر العذابِ كلَّ مذهبٍ، فكان أدخلَ في التّخويف والتّرهيب[2]. ففيه إيماءٌ إلى أنَّ عذابَهم لا يُطاق فيوصفَ.

ويحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ تمهيدًا للجواب، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾[3]، فيكون تقديم أخبار الأمم الثّلاث على الجواب زيادةً في التَّشْويقِ إلَى تَلَقّي

(1) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1200.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 747، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

الجوابِ، وإيذانًا بجِنْسه مِنْ قَبْلِ ذِكْرِه؛ ليَحْصُلَ بَعْدَ ذِكْرِهِ مَزيدُ تَقَرُّرِهِ في الأذْهانِ[1]، وذكر أنَّ الله تعالى ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ للظّالمين سنّة، وشأن السّننِ أن تنزل بالعذابِ إن تحقّقت فيهم شروطُها.

### براعة الاستفهام بالهمزة بعد الاستفهام بأداة ﴿هَلۡ﴾:

التّقريرُ المقترنُ بمعنًى آخر كالوعيدِ والتّهديدِ تُناسبه الهمزة

لمّا آثرَ النّظمُ الكريم الاستفهامَ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ بأداة ﴿هَلۡ﴾، وكان المراد به تقريرَ مضمونِ الجملة وتحقيقُها، آثر الاستفهامَ بالهمزة في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ بالهمزة على معنى التّقرير المقترنِ بالتّهديد للمعرَّضِ بهم، فهو ليس مجرّدَ تقرير، بل مقترنٌ بمعنًى آخر، أي: تقرير المعنى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وتهديد المخاطَبين المُكذّبين؛ لِما فيه من تقرير رسول الله ﷺ واستشهادِه على مشاركة مكذّبيه ﷺ للأمم السّابقة في الطّغيان والفساد، وإنّما يُجمَع بين هَذَين الغَرَضين بالاستفهام بالهمزة دون (هَل).

### بلاغة التّعريض بأسلوب الاستفهام:

الاستفهام المقصود به التّعريض أرسخُ في تقرير معناه من الخبر المجرّد

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تقريريٌّ، فهو صالحٌ لأنواع طبقات المخاطَبين، من موقِنٍ لزيادةِ النّظرِ والتّدبّر، ومن غافلٍ لتنبيهِه من غفلتِه، ومن جاحِدٍ يُنكَر عليه إهمالُه للنّظر، وفيه تعريضٌ لِلمكذّبين لرسول الله ﷺ بتهديدهم وإنذارِهم بأن يصيبَهم مثلُ ما أصاب الأقوام الثّلاثة، والمعنى: قد علمتَ علمًا يقينيًّا كيفَ عذَّبَ ربُّكَ عادًا ونظائرَهُم[2].

### دلالة دخول همزة الاستفهام على أداة النّفي:

الاستفهام إنكاريٌّ من حيثُ التّفصيلُ، وتقريريٌّ من حيثُ الجُملة

دلَّ دخولُ همزة الاستفهام على حرفِ النّفي (لَمْ) على الإنكارِ، فالاستفهام دخل على جملة منفيّة (لم تر كيف فعل ربك بعاد)، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154.

الاستفهام عن نفي علم المخاطَب بما وقع لعادٍ من العذاب الشّديد، وهذا النّفي وقع عليه الإنكار بالهمزة، فالاستفهام على هذا إنكاريٌّ من حيثُ تحليلُ تركيبِ الاستفهام، أمّا من حيثُ الجملةُ؛ فالاستفهام تقريريٌّ؛ لأنَّ المقصودَ تقرير عِلم المخاطَب بما حصل لعاد، وهذا ما يُفسِّر صنيعَ بعض المفسّرين بأن يحملوا الاستفهام على الإنكار، وبعضُهم الآخر على التقرير في نظائر هذه الآية.

### نوع الرّؤية وفائدة التّعبير بها:

تنزيل أخبار السّابقين منزلةَ المشاهد المحسوس والاعتبار بآثارهم

الرّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قلبيَّة علميَّة، وجاء التّعبير عن العِلم بمفردة الرّؤية تنزيلًا للعِلم منزلةَ الرّؤية بالعين في الوضوح والانكشاف والبيان؛ فيُفيد يقينيَّةَ العِلم لدى المخاطَب بما وقع؛ لأنَّ أخبار الأمم شائعة مضروبةٌ بها المُثُل، فكأنَّها مشاهدة، ويجوز أن تكون الرّؤيةُ بصريّةً، والمعنى: ألم ترَ آثارَ ما فعل ربّك بعاد، وتكون ﴿كَيۡفَ﴾ اسمًا مجرَّدًا عن الاستفهام في محلّ نصبٍ على المفعوليّة لفعل الرّؤية البصريّة[1].

### تعيين مرجع الخطاب ودلالتُه السّياقيّة:

تشريفُ المخاطَب وتسليته، وإيذانٌ برفعةِ قَدْرِه عند ربّه

الخطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ وإن كان في الظّاهرِ خِطابًا لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكن المراد به العموم[2]، فيدخل فيه كلُّ من تتأتّى منه الرّؤية وعِلمُ ذلك، وسبب إيثار الخطاب للنّبيِّ ﷺ دون أن يُقال: (ألم تروا)، هو أنّه لمّا كان الخطابُ دالًّا على قُربِ المخاطَب من المخاطِب وعنايته به، كان الخطاب على وجه الخصوص تسليةً للنّبيِّ ﷺ، وإيذانًا برفعةِ قَدْرِه وخَصوصيَّته عند ربِّه، فإيذاؤه وتكذيبه ﷺ منذرٌ بالعذاب لمن يُؤذيه ويُكذّبه، وفيه كذلك تطييب لخاطره ﷺ بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152، والخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

التّقرير، وتثبيتٌ له ووعده بالنّصر هو وأصحابه، وأنَّ اللّه سيُمهل الكافرين ولا يهملهم، وهو ليس بغافل عنهم.

**دلالة ﴿كَيۡفَ﴾ في سياق الاستفهام بالهمزة:**

التّعجيبُ من قدرةِ الله في تعذيبِ السّابقين غرضٌ يسوقٌ إلى الاعتبارِ

إن كانت الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ علميَّةً اقتضت مفعولَين، وتكون ﴿كَيۡفَ﴾ استفهامًا معلِّقًا فعلَ الرّؤيةِ عن العمل في مفعولين، ويكون المقصود التّعجيبَ من رؤية حالِ فعلِ اللّه بعادٍ وثمودَ وفرعونَ.

وإن كانت الرّؤية بصريَّةً اقتضت مفعولًا واحدًا، وتكون ﴿كَيۡفَ﴾ اسمًا مجرَّدًا عنِ الاستفهام، مُرادًا منها مجرَّدُ الكيفيَّة - أي: الحال - في محلِّ نصبٍ على المفعوليَّة لفعلِ الرّؤية البصريَّة[1]، فيكون المقصود تعديةَ الفعل إلى هذه الحال، برؤية آثار العذاب، ثُمَّ التّعجيب منه، فمآلُ التّوجيهين واحدٌ في التّعجيب من قدرة اللّه في تعذيب الأقوام المذكورين.

**دلالة الاستفهام بأداة ﴿كَيۡفَ﴾:**

تعميمُ الحالةِ العجيبةِ من صَبِّ العذاب على السّابقين

أوثِر اسمُ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ دون غيرِه من أسماء الاستفهام أو الأسماء الموصولة، فلم يقل: ألم ترَ ما فعلَ ربُّك أو ألم ترَ الذي فعلَ ربُّك؛ لِما يُفيده اسمُ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ من الدّلالة على الحالِ، ويُقصَد بها هنا الدّلالة على حالةٍ عجيبةٍ يستحضِرُها من يعلم أحوالَ هذه الأمم أو يرى آثارَهم، فإنَّ النّاظر في الكيفيّة يقفُ على التّحقيق في وجوه الدّلالات على عِلم اللّه تعالى وقدرتِه وعظيم سطوتِه على مكذّبي رسلِه، وإعزازِه لرسلِه وأوليائه. ولمّا كان اسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ على معنى العموم أفاد تعميمَ الحالة العجيبةِ من صبِّ العذاب عليهم، بمعنى: أنَّ كلَّ ما حلَّ بهم من العذاب ومن آثارِه يُتعجَّب منه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

### بلاغة استعمال مفردة ﴿فَعَلَ﴾ دون مقارباتها:

الإيماء إلى أنَّ التّعجيب يقع على عمومِ فعلِه بالسّابقين

لمّا عُلّق فعلُ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ بالفعل في قوله: ﴿كَيۡفَ فَعَلَ﴾، أفادَ أنَّ المقصود العنايةُ بالحالة العجيبة، لا بالذّوات الذين وقع عليهم العذابُ، وأوثِر التّعبيرُ بمفردة ﴿فَعَلَ﴾ دون ما يدلُّ على العذاب، فلم يقل: ألم ترَ كيف عاقبَ أو كيف عذّب؛ للإشارة إلى عموم فعلِه تعالى بالأقوام المذكورين، ممّا مَهَّدَ لنزول العذاب وكان مقدّمةً له، وممّا تلاه كذلك؛ فإنَّ مدلول لفظ ﴿فَعَلَ﴾ يعمُّ العذابَ النّازل وما مُهِّدَ له وما تلاه، فكلُّه فعلُ اللّه تعالى، فمدلولُ ﴿فَعَلَ﴾ يَعُمُّ أعمالًا كثيرةً لا يدلُّ عليها غيرُه. ولو قيل: ألم تر كيف عاقبَ أو عذّب، لكانتِ الرّؤيةُ مقصورةً على واقعة العذاب. والمقصود التّعجيبُ من عموم الحالة.

### فائدة التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

ذِكر الرّبوبيّة لبيان نُصرة النّبيّ وتأييدِه، لا لذِكر العذاب وكيفيّتِه

لمّا كان الكلام في بيان ما وقع على المُكذّبين من العذاب، وما حلَّ بهم من سخط اللّه تعالى، كان الظّاهر أن يُعبّر بوصف الأُلوهيَّة؛ فيُقال: كيف فعل اللّه، لكنَّه عُدِلَ عن اسم الجلالة إلى التّعريف بوصف الرّبوبيَّة، فقال تعالى: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ فأضيفَ (رَبُّ) إلى ضمير المخاطَب؛ لِما في وصفِ الرّبوبيَّة من الإشعار بالولاية والتّأييد والنّصرة والعناية بالمضاف إليه، وأنَّ هذه الولايةَ لا تنقطعُ، ففيه إيماءٌ بالرّدِّ على المُكذّبين للنّبيِّ ﷺ، إيذانًا لهم بأنَّه تعالى قد خصَّه بإحسانٍ عظيم، وأنَّه متولّيه وناصرُه ومؤيّدُه على عدوّه، فذِكر الرّبوبيّةِ ليس لبيان العذاب، وإنَّما لبيان النّصرة والتّأييد، ومقتضى الرّبوبيّةِ تأييدُ أولياءِ اللّه بالنّصر، وتعذيبُ المعاندين.

### دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

إعزاز النّبيّ ﷺ وتشريفُه، وخصوصيّة إحسان الله إليه

أُضيف لفظُ الرّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب في قولِه تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ لإعزاز النّبيّ ﷺ وتشريفه، والإشعار بخَصوصيَّة إحسانِه تعالى له ﷺ.

### توجيه تخصيص المذكورين بالذّكر:

معرفةُ المخاطَبِ بواقع المتحدّث عنهم أقوى في الأثر والتّأثر

ابتدأت الموعظةُ بذِكر عادٍ وثمود لشُهرة القبيلتَين بالقوّة وشدّةِ البأسِ بين من نزل عليهم القرآن والمخاطَبين به. والسّياق في بيان أنَّ قوَّة البأسِ لا تمنع من حلول العذاب ولا تقي منه، وذُكِرَ بعدَهما فرعونُ وقومُه الذين طغَوا في البلادِ لشُهرة رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون الطّاغي بينَ أهلِ الكتاب، وقد كانوا يُحدِّثون العربَ عنها، وبلادُ فرعونَ أيضًا متَّصلةٌ بأرضِ العرب[1].

### نوع الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِعَادٍ﴾:

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِعَادٍ﴾ للملابسة، وهي تُفيد أنَّ عذابَه تعالى لعادٍ ونظائرِها كان على وجه ملابستِه لهم.

### نُكْتةُ التّعبير بِ(عادٍ) دون قوم هود:

اختيارُ دقائق التّعبير عن المُراد معذوقٌ بمقاصد السّياق

عادٌ هو ابن عاص بن إرَمَ بن سامٍ بن نوحٍ عليه السلام، فسُمّيت القبيلة باسمِه، وعليه الاستعمال القرآني، وإطلاق الأب على نسله مجازٌ شائع، حتّى ألحقَه بعضهم بالحقيقة[2]. وقد جاء التّعبير القرآنيُّ بذكر (عادٍ) ولم يقل: (بقوم هودٍ)؛ وذلك لأنَّ السّياق أراد لفت المخاطَبين إلى ما عُرفوا به من قوّة وشدّة وبطش، وما كانوا عليه من البنيان العالي، لا باعتبارهم قومِ هود، وقد اشتُهروا بوصفِ القوّة باسم القبيلة، ولو جاء التّعبير بقوم هود لكان النّظر إلى اعتبار تبليغ هودٍ رسالتَه إليهم وكونِه نبيًّا بينهم، وليس هو المرادُ كما دلَّ عليه سياق الحديث عن تعذيبهم لا عن دعوتهم، فالسّياق هاهنا متمحضٌ للحديث عن العذاب، لا للحديث عن العذاب والدّعوة، أو عن دعوتهم وهدايتهم فحسب.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 318.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 337.

**نُكْتَةُ مجيء ﴿إِرَمَ﴾ تابعًا لـ(عادٍ):**

(إرم) اسمٌ لحضارة عادٍ عظيمةِ الاتّساع، شاهقةِ البنيان

جاء لفظُ ﴿إِرَمَ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ من (عادٍ)[1]؛ و﴿إِرَمَ﴾ إمّا أن يكونَ اسمَ جدِّهم إرَمَ بنِ سام بنِ نوحٍ، وهوَ جَدُّ عادٍ؛ لأنَّ عادًا هو ابنُ عوصِ بنِ إرَمَ، فيكون قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ بتقدير: عادٍ سبطِ إرَمَ، وإمّا أن يكونَ اسمَ قبيلتِهم، فيكون بتقدير: عادٍ أهل إرَمَ، فعادٌ وإرَمُ اسمانِ لقبيلةِ عادٍ الأولى[2]، وجاء ﴿إِرَمَ﴾ لبيان المقصود من عادٍ، ولم يُسَق لمعرفةِ نسب عاد حتّى نشتغل بتعرُّفه، وإنَّما سيقت الآيةُ للاتّعاظ والإرشاد؛ فالاشتغال بتعرُّفِ أنسابهم وأحوالِهم والقَصصِ عنهمَ نوعٌ من التَّكَلُّفِ[3]، كما يحتمل أن يكون ﴿إِرَمَ﴾ اسمًا للحضارة التي بنتها قبيلة عادٍ، وعليها وقع العذاب، فلم يبقَ لها وجودٌ في الأرض، بعد أنِ اتّسعت رقعتُها وعظُم بطشُها.

**دلالة تأنيث ﴿ذَاتِ﴾:**

التّأنيث العائد على المذكّر لفظًا يُراد منه مؤنّثٌ تقديرًا

لمّا ذكر الله تعالى عادًا وبيَّن المُراد من (عادٍ) بقولِه: ﴿إِرَمَ﴾، جاءت الصّفة لبيان الوصف الذي اتّصفوا به ولازمهم في قولِه: ﴿ذَاتِ﴾، وجاءت الصّفة بصيغة التّأنيث؛ للإشارة إلى أنَّ المُراد القبيلةُ التي من نسلِ عادٍ، وأنَّ الذّمَّ والعذاب وقع عليهم. وأجاز أبو حيّان أن يكون المراد المدينةَ؛ على اعتبار أنَّه وصَفَ المدينةَ، وليس قبيلةَ عادٍ، أي: لأنَّه وصفَها بعدم وجودِ مماثلٍ لها في البلاد في قولِه: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[4]. ويكون جَعْلُ المدينةِ رميمًا، أي: إهلاكُها كنايةً عن جَعْلهم كذلك[5].

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 6/ 393، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 471، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 222.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 318.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 517.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 472.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.

**دلالة إضافة ﴿ذَاتِ﴾ إلى ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾:**

المشهورات التّاريخيّة أقرّها القرآنُ لتكون تذكيرًا وعبرةً للمخاطَبين

أُضيف لفظ ﴿ذَاتِ﴾ إلى العماد في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ ليكونَ تركيبًا تعريفيًّا خاصًّا بهم، فإذا أُطلِق التّركيب عُرِفوا به، فصار الوصف بمثابة النّسب؛ للإشعار باختصاصهم بالعِماد، على القول بأنَّهم هم المقصودون بذلك لعِظَم الخِلْقة، أو على القول بأنّ مدينتَهم هي المقصودة بذلك لارتفاع بنيانها، ويُشْعِر التّركيب مع وقت النّزول بأنَّ هذا الوصفَ خاصٌّ بهم، يعلمُه العربُ المخاطَبون، ولا يخفى عليهم مقصودُ الكلام.

**نُكْتةُ وصفِ عاد بـ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾:**

التّلويح بقوّة عذابِ البطش لمن تفاخر بالبطش

وُصِفت (عاد) بقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ لبيانِ ما اشْتُهروا به بين الأقوام السّابقة من الوصف بالقوّة والمَنَعةِ وظهورِ البنيانِ وعُلوِّه، وهذا الوصفُ هو عمدة المقصود من السّياق؛ لِما فيه من الإشارة إلى أنَّ قوّتَهم وجبروتَهم وشهرةَ قبيلتِهم بكونِها ذاتَ العِماد، لم تمنع عنهم نزولَ العذاب، ولَمّا كان الخطابُ للنّبيِّ ﷺ تسليَةً له وتهديدًا للمُكذّبين من قريشٍ وغيرِهم، أفاد الوصفُ معنًى ثانيًا، وهو أنَّه تعالى قد أهلكَ قومًا هم أشدُّ من القوم الذين كذّبوك قوّةً، فما نفعتهم قوّتُهم ولا شدّتُهم ولا عمرانُهم من العذاب شيئًا، قالَ تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [مُحَمَّد: 13]، وقالَ: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ [غافِر: 21][(1)]، فما بالُ هؤلاء الذين كذَّبوا نبيَّ اللّه محمَّدًا ﷺ لا يخافون مَقتَه وحلولَ النِّقمةِ بهم بتكذيبِهم رسولَه ﷺ، وليسوا بأكثرَ من أولئك في القوّة والبَطشِ[(2)].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 517.

### بلاغة لفظِ ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الجمعُ بين طولِ الأبدانِ وطولِ البنيان هو الأنسبُ في الملازمةِ بين الأمرَين

لفظُ ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ في الأصلِ: هو عودٌ غليظٌ طويلٌ يُقام عليه البيت، يُرْكَزُ في الأرضِ وتُقام عليه الخيمةُ أو القبَّة، وهو دِعامة البيت. وتركيبُ ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ إمّا أن يكون على طريق الاستعارة، بتشبيه قوّة القبيلة بالبيت ذاتِ العِمادِ، أو بتشبيه قاماتِهم بالأعمدة الطّويلة الثّابتة التي يَعْتَمِد عليها البيتُ؛ للإشارةِ إلى شدَّتِهم وقوَّتِهم ورِفعتِهم، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس. فعلى الوجهين معنى ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: ذات القوّةِ والشّدّة، مستعارًا من قوّة الأعمدة وارتكازِ البيت عليها[1]، وإمّا أن يكونَ التّركيبُ على طريق الكناية؛ لأنَّ المتبادَر من العِماد البناءُ الرّفيع، أو رفعةُ القامة وقوّةُ القومِ وشدّتهم، لا العودُ الغليظ أو الاسطوانةُ التي توضَع في وسط البيت[2]. ولا مانعَ من الحَمْل على كِلا المَعنَيين، من كونِ القوم طِوالًا شدادًا، وكون أبنيتِهم رفيعةً عالية قويَّةً، والملازمة بينهما واضحة، فطولُ الأبدانِ ينشأ عنه طولُ البنيان.

### مناسبةُ الوصف بالاسم الموصول:

توكيدُ الوصفِ بآخر، بيانٌ جَزْلٌ وتعريضٌ فخم

جاء التّعبير بالاسم الموصول المؤنّث ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وصفًا لـ(عادٍ) على معنى القبيلة أو المدينة، وغرضُ مجيء الصّفة بالاسم الموصولِ الإشعارُ بأنَّ جملة الصّلةِ معلومةُ الانتساب إليهم بما اشتُهروا به بين الأقوام السّابقة، وفي وصفِهم بهذا الوصف تقريرٌ لشِدِّتهم وقوّتِهم، وفيه كذلك تعظيمُ ما كانوا عليه من الشِّدَّة ورِفعةِ البنيان وقوّة الشّأنِ، فهو وصفٌ كاشفٌ بعد وصفٍ متقدِّم، لزيادة البيان في شأن ذاتِ الأبدان والبنيان، مع

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 253، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.

التّعريض بالمُخاطَبين الذين لم يبلغوا ما بلغه أولئك من القوّة والعَتاد والعِناد.

**نُكْتَة تقديم ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ على ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾:**

التّمهيد بوصفٍ لبيانِ آخرَ، تعريضًا بالمخاطَبين، وتمهيدًا لكبْت خُلُق المتكبّرين

آثَر النّظم الكريم تقديمَ صفة ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ على صفة ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ وذلك لأنَّ الصّفة الأولى ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ كانت كالمهاد والتّوطئة للتي بعدَها، فجاءت الصّفة الثّانية كالمُبيِّن والموضِّح والمُعيِّن للمقصودِ في الصّفة الأولى، فالعلاقةُ بينهما علاقةُ تمهيدٍ وقَصْد، أمّا التّمهيد فبما عُرِفوا به بين الأُمم والعرب على وجه الخصوص، وأمّا المقصود فللنّصِّ على أنَّ المُخاطَبين لم يبلغوا ما بلغته عادٌ من القوّة والمَنَعة والشِّدّة، فأفادتِ الصّفةُ الثّانية تعريضًا بديعًا بالمخاطَبين؛ كي لا يلحقَهمُ الاغترارُ، ولا يَركبَهم متنُ الاستكبار، فيأتوا بحماقاتٍ لا قِبَل لهم بها، وبتُرهاتٍ لا يَقوون على دَفْعِ آثارها.

**بلاغة التّعريض في إيثار النّفي على الإثبات:**

نفيُ القوّة عن الجميع وإثباتُها لجهةٍ تعريضٌ بالسّامعين وتلميحٌ للمُخاطَبين

آثَر النّظمُ الكريم النّفيَ على الإثبات في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾، حيثُ عبّر عن قوّة عادٍ وشدّتِهم وبَراعةِ بنيانِهم بنفي خَلْق المَثيل لهم في قوّتِهم، ونفيُ خَلْقِ المَثيل أبلغُ من إثبات قوّتهم وشِدّتِهم؛ لإفادتِه انفرادَهم في نوعِ القوّة وشِدّتِها عن سائر النّاس في زمنِهم، ففيه إشعارٌ باستفرادِهم في القوّة في ذلك الزّمان، وتحكُّمِهم في غيرِهم، والانفرادُ بنوعِ القوّة يَدلُّ على سطوتِهم ورضوخِ غيرِهم لهم، والمعنى: مع انفرادِهم بالقوّة والسّطوة في زمانِهم، فإنَّهم لم يُفلتوا من العذاب، وعليه فالنّفيُ أدلُّ على التّعريض بالمخاطَبين من الإثبات، فإثباتُ القوّة لجهةٍ لا ينفي وجودَ أقوى منها عند غيرها.

**غرض بناء فعل ﴿يُخۡلَقۡ﴾ للمفعول:**

تسليط الفعل على الحدث لا فاعله للإشعار بعدم الاهتمام بهم

جاء التّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول ﴿يُخۡلَقۡ﴾؛ لتسليط الفعل

على الحدث دون إظهار الفاعل، وللإشعار بعدم الاهتمام بهم، وأنَّ قوّتَهم وشدّتهم لم يجعلوها نعمةً، بل كانت نقمةً عليهم.

**نُكْتَةُ نفي خَلْق المثيل دون إثبات قوّة المخلوق:**

الانــفــرادُ في النِّـعم يقتضي مزيدَ شكرٍ عليها

آثَر النّظم الكريم نفيَ خَلْقِ المثيلِ الموازي لعادٍ في البلاد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾، أي: لم يخلقِ اللّه مثلَ عادٍ في البلاد في الأبدان، والتي أنتجت عالي العمران، ولم يأتِ بتعبيرٍ آخر يُثبت فيه قوّة المخلوق، كأن يُقال: التي لم يكن مثل قوّتها في البلاد؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ كلَّ ما هو موجود في الأرضِ من أنواع القوّة إنّما هو بخَلْقِ خالقٍ عالمٍ بهم، قادرٍ عليهم، فالانفرادُ في شيءٍ في هذا الكون لا يخرجُه من جنس كونِه مخلوقًا ضعيفًا، وأنَّ له خالقًا قادرًا عليه، فهو الذي أراد ذلك الخَلْقَ لعادٍ، ولم يُرده لغيرِهم، فبدلَ أن يشكروا نعمَه كفروا ربّهم، واغترّوا بأنفسهم، وفيه تعريضٌ بقريش التي لم يجعل اللّه لأحدٍ في العالمين مثلَ ما جعل لها من مجاورة البيت الحرام، وتحقيق الأمن من حيثُ يُتخطَّف النّاسُ من حولهم، وهذه لم تكن لأحدٍ، ومقتضى الانفراد في النِّعم تحقيق مزيد شكرٍ عليها.

**بلاغة ذِكر مفردةِ الخَلْق:**

دلالــة مـفـردة الخَلْق ظاهرةٌ في الأبـدان ولازمـةٌ في البنيان

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾، وذلك لبيان أنَّ خَلْقَ (عاد) منفردةً في أبدانها عن باقي البشر نعمةٌ أرادها اللّه تعالى لهم؛ ليعبدوه حقَّ العبادة، لكنَّهم آثروا الكفرَ على الشّكر، ولهذه المفردة دلالةٌ على أنَّ المراد بالخلق (عادٍ) أي: القبيلة، ولو كان المرادُ المدينةَ المفهومة من السّياق، أو الأعمدة، لَقال: التي لم يُعمَل مثلُها في البلاد، فلمّا ذكر الخَلق دلَّ على أنّ المراد الرّجال؛ لأنَّ الذّوات هي الموصوفة بالخَلق، وفي التّعبير بخَلْقِ ذواتِهم بوصفِ القوّة إشارةٌ إلى أنَّ القوّة التي في جسمِ الإنسان هي بخلقِ اللّه تعالى، فاللّه تعالى خالقُ الذّوات

والأوصافَ الفطريَّة والمكتسبة، وهذه دلالة ظاهرة، لكنّها لا تمنع بتاتًا من الدّلالة اللّازمة عنها، وهي آثار خَلْق الأبدان في رفع البنيان، وأنَّ نفيَ المثيل في الخلق باعتبار أصل الخلق وما أنتجوه من أبنية وعَمار ومُدن، ويُرشِّح هذه الدّلالة ذِكر ﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾، ففيها إشارةٌ إلى قوّة بناء بلدِهم، لأنَّهم بالتّأكيد استثمروا قوّتهم في بناء بلدِهم، فتكون هذه الآية مشعرةً بتاريخ التّمدّن في العالمِ القديم، وتُظهر أنَّ تمدُّنَ جنوبِ جزيرة العرب - وهو موضع بلاد عادٍ - أقدمُ من تمدُّنِ الفراعنة، فإنَّ ظاهر نفي المماثلة لخلقِها في البلاد يُؤذِن بأنَّ تمدّنهم كان أرقى من كلِّ تمدّنٍ كانَ قبلَه أو كان في زمنِه، فإن كان أوتاد فرعون في هذه السورة هي أهرام الفراعنة، وهي قبورهم، فلعلَّ ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ هي شيءٌ أعجب صنعًا وأعظم هندسةً وأشدُّ قوّةً[1]، وثباتُ الأهرام دونَ آرام عاد؛ لأنّها لم تتعرّض لعذابٍ ربانيّ كما كان لعاد.

### تعيين مرجع الضّمير ودلالته:

البسطة في الأبدان تُعين على البسطة في البلدان

الضّمير في قوله تعالى: ﴿مِثۡلُهَا﴾ إمّا أن يعود إلى (عادٍ) باعتبار القبيلة؛ لأنَّ الضّمير مؤنّث، أي: لم يُخْلق مِثْلُ قبيلةِ عادٍ في البِلادِ في عِظَمِ الجُثَّةِ وطولِ القامة وشدَّة القوّة، ويحتمل أن يعود إلى المدينة على اعتبار أنَّ المراد من عادٍ المدينةُ أو البلدة، أي: لم يُخلَقْ مثلُ مدينة قوم عادٍ في البلاد في رفعةِ البنيانِ وقوّتِه وثباته[2]، أو أنَّ الضّمير يعود إلى ذات العماد، أي: لم يُخلق مِثْلُ تِلْكَ الأعمدة في البلادِ ومثلُ بيوتِهم[3]، ولا مانع من اجتماع القولين، فشأنُ الأبدانِ الطّويلة رفعُ الأعمدة الشّاهقة، وتشييدُ المدنِ الواسعة.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 399.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 27، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 155.

(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 153 - 154.

### معنى حرف الظّرفيّة:

التّعبيرُ بحرف الظّرفيّة في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ للإشارة إلى تمكّن قوتِهم وشدّتهم، ورسوخِ رفعة بنيانِهم وثباتِه، وفيه إشعار بظهور الأمر في عموم البلادِ وشهرتِهم به.

تمكّنُ قوتِهم وشدّتهم، ورسوخُ بنيانِهم وثباتِه

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ تحتمل أن تكون للاستغراق العرفيّ، فيكون المراد بلدان العرب وقبائلهم[1]، كما تحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد بلاد الأرضِ كلّها، واللّفظ يحتمله ولا مانعَ منه؛ لأنَّ البلاد المعمورة بساكنيها في ذلك الزّمان كانت قليلةً، والحُكم حكمٌ إلهيٌّ، وهو سبحانه العالمُ بما كان وبما يكون.

الاستغراق العرفيّ، أو الجنسُ محتملٌ سياقيّ

### بلاغة التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

لَمّا كان البلد هو المكان المحدود الذي يُتَّخَذُ للإقامة فيه[2]، فهو موطِنٌ للاجتماعِ فيه وتأثير أهله فيه، عُبّر بالبلاد دون الأرضِ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ بلدتَهم كانت مأهولةً عامرةً بساكنيها، يجتمع فيها أهلها، ممّا يشير إلى عمرانِ تلك البلدة وحضارتِها، كما أفاد التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أنَّ المراد نفيُ خَلْقِ مثيلٍ لهم في البلاد المعمورة بساكنيها، وهو المناسب لوصفِهم بالقوّة والشّدّة. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ البلاد تقوى بقوّة أهلِها وشدّتِهم ورفعتِهم. ولو قيل: لم يُخلَق مثلها في الأرضِ، لَمَا تحقّقت هذه المعاني.

قوّة الدّولة بقوّة أهلها وشدّتِهم ورفعتِهم

### نوع الواو وفائدتها:

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ﴾ معطوفٌ على (عادٍ)، أي: ألم تر كيف فعلَ ربُّك بثمودَ؟ وعِلّة العطف بالواو الاشتراك في الجهة الجامعة بينهما، وهي شدّة القوّة وثبات ملكهم في البلاد.

اشتراك عادٍ وثمودَ بشدّة القوّة وثبات الملك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.
(2) الرّاغب، المفردات: (بلد).

### نُكْتَة تقديم عادٍ على ثمود:

قصّة عادٍ أعجبُ وأشهر من قصّة ثمود

بدأتِ الآيات بذِكر قصَّة عادٍ؛ لأنَّ أمرَهم كان أعجبَ، فلم يُخلَق مثلهم في البلاد في مثل قوّتهم وعمرانِ بنيانِهم، فالبَدءُ كان بالأعجب والأقوى والأشهر في شدّته وبطشه.

### نُكْتَة التّعبير بثمودَ دون (قوم صالح):

انتقاءُ أدقِّ الأوصاف مرتبطٌ بدلالة السّياق ومقاصد البيان

آثَر النَّظم الكريم التّعبير باسم القبيلة (ثَمودَ) ولم يقل: بقوم صالحٍ؛ وذلك لبيانِ ثمود باعتبارها قبيلةً واجهتِ العذاب بعد الكفر، لا باعتبار الدّعوة والهداية، هذا ما يدلُّ عليه السّياق، فالمقصود بيانُ وصفِ القوم بقوّتِهم وشدّتهم، وأنَّ قوَّتَهم لم تمنع عنهم العذاب، فقد اشتُهروا بوصفِ القوّة باسم القبيلة، وليس باعتبار نبيّ الله صالحٍ عليه السلام بينَهم، ولو جاء التّعبير بقومِ صالحٍ لكان النّظر إلى اعتبار رسالة صالحٍ إليهم، وكونِه نبيًّا بينهم، وليس هذا هو المرادُ كما تقدَّم من دلالة السّياق.

### دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التّذكير واستحضار العِبرة من سرد الخبر هو مقصود البيان

جاء التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ صفةً لثمود؛ وذلك للإشعار بأنَّ مضمون جملة الصّلة معلومة الانتساب إليهم عندَ المخاطَبين، فالمخاطَبون من قريشٍ كانوا على علمٍ بما كان عليه قوم ثمودَ من القوّة، وقطعِ الصّخر، واتّخاذِه منازلَ لهم، فالوصف لا للتّعريف بل للتّنبيه والتّذكير واستحضار العبرة من سرد الخبر.

### بلاغة اختلاف النّظم في التّعبير بالاسم الموصول:

تذكير الموصول لتأويله بالقوم وهو مذكّر

جاء التّعبيرُ بالاسم الموصول المُذكّر، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾ ولم يقل: التي جابت الصّخرَ، مثلما وصف عادًا في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾؛ وذلك لأنَّه ذكر (ثَمودَ) على تأويل القوم، فجوبُ الصّخرِ وثقبُه عملٌ خاصٌّ لا يقدر عليه إلّا الرّجال

الأقوياء، فناسب تأويلُ (ثَمودَ) بلفظ القوم للإشارة إلى اجتماعِهم على القوّة والصّلابة.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿جَابُواْ﴾:**

امـتـازت ثـمـودُ بـدقّـة الـنّـحت وقـطـع الصّخر فهو قطعٌ بديع يُترجِم قُـدراتٍ استثنائيّة

جاء التّعبير بمُفردة ﴿جَابُواْ﴾ دون مقارباتها كقطعوا؛ لِما تُفيده المفردة من كونِهم قطعوا الصّخر وشقّوه؛ للإشارة إلى شدّة قوّتهم، وتمكّنِهم في النّحت، وبراعة هندستِهم في قطعِ الصخرِ ونحتِه في بناء المنازل، فلا يصلُ إليهم عدوٌّ ولا يلحق بهم مناوئٌ، فدلّت مفردة ﴿جَابُواْ﴾ على القطع وزيادة، فهو قطع ونحت دقيق، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشّعراء: 149]، وهناك علاقة بين الجَوب والجيب، فكلاهما قطعٌ يُحدِث شقًّا، فجَوبُ الصّخر قطعُهُ ليكون في داخله شقٌّ، والجيب في الدّرع والثّوب شقٌّ كذلك، يُدخل الإنسانُ منه أعضاءه، يُقال: "جَيَّبتُ القميص تجييبًا؛ جعلت له جَيبًا، والجَوبُ: قَطْعُكَ الشّيء كما يُجابُ الجَيب، يُقال: جَيبٌ مجوبٌ ومجوَّبٌ، وكل مُجوّفٍ وسطه فهو مجوبٌ. والجوب: دِرعٌ تلبسهُ المرأة"[1].

**فائدة ذِكر ﴿ٱلصَّخۡرَ﴾ دون الحجر:**

تـصـويـر صفات ثـمـود مـن الـقـوّة والمتانة والعناد والـصّـلابـة والمهارة

آثَر النّظم الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلصَّخۡرَ﴾ دون الحجر؛ لأنّه لمّا كان الكلام في بيان قوّة ثمود وشدّتهم، ناسبَ ذِكرُ الصّخر دونَ الحجارة، فقَطْعُ الصّخرِ ونَحْتُه أشدّ من قطعِ الحجر؛ فالصّخر هو الحجرُ العظيم الصُّلْب الثّابت[2]، وهو كتلة كبيرة ثابتة، والحَجر قطعة من الصّخر، والحجر يناله الصّغير والكبير على عكسِ الصّخرة التي تكون عظيمة ثابتةً، فقطعُ الصّخرِ ونقبُه ونحتُه ليُتّخذَ منه منازلَ فارهةً هي الصّفة التي ميّزت ثمودَ عن غيرِهم في

(1) الخليل، العين: (جيب).

(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صخر).

الشّدّة وقوّة البطشِ وبراعة التّرتيب، كما أنَّ قَطْعَ الصّخر يُحافِظ على تماسك الجبل الصّخريّ في قوامه وتماسكه، بخلاف قَطْعِ الحجارة، فقد يُعرّض الجبلَ الحجريّ للتّفكّك، كما أنَّ اختيار لفظِ الصّخر يَدلُّ على حُسْن اختيارِهم وقوّةِ إرادتهم وشديد شكيمتهم في اختيار الجبال الصّخريّة الشّديدة القويّة الصّلبة، دون غيرها، فهم يُؤثِرون المَسلك الصّعبَ على اليسير السّهل، ليدومَ لهم الأمر، لكنّهم غفلوا عن الأمر الأعظم والشّأن الأفخم، وهو عبادة اللّه تعالى، فوقعوا في العذاب المُهْلك.

### نوع الباء ودلالةُ اختيارها دون حرف (فِي):

اجتماعُ معنى الملابسةِ والظّرفيَّة أولى من الاكتفاء بأحدِهما دون الآخر

الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلّق بفعل ﴿جَابُواْ﴾، أو هو حال من فاعل ﴿جَابُواْ﴾، أو من المفعول وهو ﴿ٱلصَّخْرَ﴾، والباء في ﴿بِٱلْوَادِ﴾ ظرفيّة بمعنى (في)[1]، والتّقدير: جابوا الصّخر في الوادي، وقد يُقال: ما دامت الباء ظرفيَّةً فلِمَ لم يقل: جابوا الصّخر في الوادي، ولِمَ عدلَ إلى الباء؟ وجوابُه: أنَّه ذكر الباء لتُفيد معنيين؛ الملابسة - وهو أصل معناها -، والظّرفية بمعنى (في)، وعلى وفقِ توجيه الجارّ والمجرور وتنوّع تعلّقِه يكون المعنى: الذين جابوا الصّخر حالَ كونِهم ملابسين للوادي، وساكنين فيه، أو الذين جابوا الصّخر حالَ كونِ جوبِهم الصّخر ملابسًا للوادي؛ ليفيدَ لزومًا أنَّهم ساكنون في الوادي الذي فيه الصّخر، فإمّا أن يكون المقصود الأوّل وبالذّات كون جوبِهم في الوادي، أو كونِهم هم في الوادي، أو كون الصّخر في الوادي، والمعاني متلازمة، والوجه الأوّل أولى وأظهر.

### معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلْوَادِ﴾:

وادي القرى معهود للمخاطَبين يعرفونه خبرًا ومشاهدةً

تعريف لفظ (الوادِ) للعهد، فهو الوادي الذي كان يسكنُه قومٌ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

ثمود، وهو وادي القُرَى[1]، وهو وادٍ بينَ الشّامِ والمدينةِ، يقع على وجه التّحديد بينَ تيماءَ وخيبرَ، فيه قرًى كثيرةٌ، وبها سُمّيَ وادي القُرى؛ لأنَّ الواديَ من أولِّه إلى آخرِه قُرًى منظومةٌ، وكانت قديمًا منازلَ ثمودَ وعادٍ، وبها أهلكهم اللّه[2].

### فائدة العطف بالواو ومناسبتها:

الاشـــتراك بين فـرعـونَ وعـادٍ بـشـدّة الـقـوّة والـكـفـر بالله تعالى

عُطِف (فِرۡعَوۡنَ) على (عادٍ)، وتقدير الكلام: ألم تر كيف فعلَ ربُّك بفرعونَ، ومناسبة العطف بالواو الاشتراكُ في الجهة الجامعة بينهما، وهي شدّة قوّتهم وكفرهم باللّه.

### دلالة ذِكر اسم (فِرۡعَوۡنَ) دون ذِكر قومِه:

كُـفْـرُ الجميعِ مُلْحِقٌ بالعذاب الماحق، وكُفرُ الحاكمِ يُحيط به العذاب المبين

المُراد بقوله: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ﴾ فرعونُ موسى[3]، ولم يذكرِ القرآنُ اسمَ قومِ فرعون، كما ذكر عادًا وثمودَ؛ لأنَّ فرعون من الأعاجم، ولم يكن الأعاجمُ يُسمّون أقوامَهم وقبائلَهم بأسماءِ أعلامٍ لهم، كما كان العربُ يفعلون؛ لاهتمامِ العرب بالأنساب وحفظِها، كما أنّه لم يقل: (وقومِ فرعونَ)؛ للإشعار بأنَّ فرعونَ هو أصلُ الطّغيان ورأسُه، وأنّه سببُ كفرِ قومِه وتكذيبِهم لرسلِه عليهم الصّلاة والسّلام، فقام فرعونُ مقامَ القومِ كلِّهم، ولبيان تنوّع الأمم في الكفر، ففرعونُ مثَّل اتّجاهَ الكفرِ القائم على الحاكم، وعادٌ وثمودَ مثَّلا اتّجاه الكفرِ القائم على القبيلة، وشأنُ الحاكمِ أن يظلم ويطغى، وليس بالضّرورة أن يطغى أهلُ بلدِه، بخلاف القبائل؛ فكُفْرُ القبيلةِ طاغٍ طام، ولذلك لحق العذابُ الأقوامَ، ولم يلحقِ الدّولَ، فعذّب اللّه عادًا وثمودَ، ولم يُعَذّب أهلَ مصر، بل أغرق فرعون وجندَه معه.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 504، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.

(2) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 4/ 338.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.

### نُكْتَة إضافةِ ﴿ذِى﴾ إلى ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾:

شدَّة الاشتهار بشيءٍ تُلحِق صاحبَه به إلحاقًا عَلَميًّا

أضيف لفظُ ﴿ذِى﴾ إلى ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ لأنَّ صيغة (ذي) التي هي من الأسماء السّتّة أبلغُ في لزوم الوصفِ من لفظ (صاحب)، وتدلُّ على أنَّ المضاف قد اشتُهر بالمضاف إليه، حتَّى صار بمثابة العَلَم عليه، ففي الإضافة في قوله: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ إشعارٌ باشتهارِه بهذا الوصف، ولزومِه له حتَّى صار وصفًا مبيّنًا موضِّحًا له، وخاصًّا به.

### فائدةُ تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ وجمعُها:

كثرة الأوتاد المستعملة في تثبيت البُيوت والخيَم

(أل) في ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ للجنس، للإشارة إلى الأوتاد التي يستعملها من يقصد تثبيتَ بيتِه وخيمتِه، وجاء اللّفظ بصيغة الجمع؛ للإيماء إلى كثرتِها، ومع أنَّ لفظ (أوْتادِ) على صيغة جمع القِلَّة (أفعال)، لكنَّه بدخول (أل) الجنسيَّة عليه صار مفيدًا للكثرة البالغة.

### بلاغة الاستعارة:

المُلْك كالبيت يثبت بثبات أركانه وقواعدِه

يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ جاءَ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، بتشبيه قوّة مُلكِ فرعونَ وثباتِه بثباتِ البيتِ الضّاربِ أوتادُه في الأرضِ، فاستُعير اللّفظ لإثباتِ العزِّ والمُلكِ، ففيها إيماءٌ إلى ظَنِّ فرعونَ بأنَّ قوَّته لا تُقهر ومُلْكُه لا يَزول، وبيان أنَّ مُلكَه بلغَ ما بلغ من الثّبات والقهر، ومع ذلك فكان عاقبتُه معروفةً للأراذل قبلَ الأفاضل، وفي الاستعارة ما يشير إلى قوّة مُلكِه وتفخيمِه، ليكون الزّجرُ بما أخبر اللّه به من إهلاكِه مع قوّة أمرِه أبلغَ وأكثر عبرةً للطّاغين من بعدِه.

ويحتمل أن يكون المقصود بقوله: ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ الأهراماتِ الموجودةَ في مملكتِه التي بناها أسلافُه، فكانت أشبهَ بالجبال، التي هي أوتادُ الأرض، كما أنَّ صورة الهرمِ تُشبِهُ الوتدَ المَدقوقَ[1]، فيكون تشبيهَ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1553، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

الأهرامِ بالجبال، وتشبيهَ الجبال بالأوتاد، ويحصل من هذا تشبيهُ الأهرامِ بالأوتاد التي أُطلقت على الجبال إطلاقًا أشبه الحقيقة لكثرة التّشبيه، فساوى الحقيقةَ من حيثُ إلحاقُ المُشبّهِ به، وهذا من بديع الاستعارةِ التّصريحيّة.

**بلاغة الكناية:**

الجـنـود والعـسكـرُ يـشدّونَ المُلْكَ كما تَشُدُّ الأوتادُ الخيامَ وتثبِّتُها

كما يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ كنايةً عن تثبيت مُلكِ فرعونَ وقوِّته وشدّته، بكثرة مضاربِ عساكرِه وجنودِه الذين كانوا يضربون أوتادَها إذا نزلوا، فإنَّ كثرة الأوتادِ تدلُّ لزومًا على كثرةِ المضارب، وكثرةُ المضارب تدلُّ لزومًا على الجموعِ الغفيرةِ من الجنود الضّاربين البيوتَ في الأرضِ، الحامينَ مُلكَه؛ أهبَةً واستعدادًا لكلِّ طارئٍ، وكثرةُ الجنودِ المتأهّبةِ تدلُّ على قوّة المُلك وثباته.

ويمكن توجيهُ الكنايةِ بتوجيهٍ آخر بأن يقال: إنَّه وصفَه بـ﴿ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة، كنايةً عن قوّة مُلكِه وثباته؛ لأنَّ الجنود يَشُدّونَ المُلكَ كما تَشُدُّ الأوتادُ الخيامَ[1]، أو يكون اللّفظُ كنايةً عن الأبنية العالية العظيمة[2].

وأجاز بعضُ المُفسّرين أنَّه وُصِفَ بـ﴿ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ لكثرةِ تعذيبه بالأوتاد[3]، إذ كان يوثِقُ بها من يُعذِّبُه، فيَدُقُّ أربعةَ أوتادٍ ويَشُدُّ بها من يُعَذِّبه مطروحًا على الأرضِ، فاشتُهر بهذا الوصف ولزمَه، وعلى هذا تكون الأوتادُ محمولةً على الحقيقة.

**عِلّة استعمال الاسم الموصول:**

جيء بالصّفة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ لبيان عِلّة ذَمّهم وعقابهم بعد ذلك، والتّسجيلِ عليهم بوقوع هذه الأفعال القبيحة منهم.

---

(1) القنوجيّ، التّبيان في مقاصد القرآن: 15/ 224.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.

### الموقع الإعرابيّ للموصول، وأثره في بيان الارتباط السّياقيّ:

يحتمل أن يكون المقصودُ بالوصف جميعَ الأممِ أو فرعونَ وحدَه

يحتمل أن يكون الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفةً لجميع من تقدَّم ذكرُهم، ليصفَهم بوصفٍ جامعٍ لهم[1]، أي: الأمم السّابقة المُعذَّبة من عادٍ وثمودَ وفرعونَ، هم الذين طَغَوا في البلاد.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةً لـ(فِرۡعَوۡنَ) وحدَه، واكتفى بذِكرِ فرعونَ وأتباعِه عن ذِكرِ عادٍ وثمودَ[2]، وهذا على جَعْلِ الاسمِ الموصول صفةً في محلّ جرّ.

ويحتمل أن يكون منصوبًا على الذّمِّ لجميع من ذُكرَ[3]؛ لكونه صريحًا في الذَّمِّ، والمقامُ مقامُ الذَّمِّ وتقبيحِ الفعلِ.

ويحتمل أن يكون مرفوعًا على تقدير: هم الذين طَغَوا، إشارةً لجميع من ذُكِر من الأقوام الثّلاثة.

### فائدة ذِكر الطّغيان دون الظّلم:

الطّغيانُ ظُلمٌ وزيادةٌ لبلوغه الحَدَّ والغاية

أوثِرَ ذِكرُ الطّغيان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، ولم يقل: الذين ظلموا في البلاد؛ لأنَّ السّياقَ في بيان قوّتِهم وجبروتِهم ومجاوزتِهم الحَدَّ، بمعنى أنَّ طغيانَهم لم يمنع من إنزال العذاب وصبِّه عليهم، ولمّا كان لكلِّ قومٍ طغيان خاصٌّ بهم، ووقع الاشتراك في تكذيب رسلِهم عليهم الصّلاة والسّلام، كان في وصفِهم بوصفٍ جامعٍ لهم إشارةٌ إلى أنَّ تكذيبَ الرّسول من الطّغيان الموجب للعذاب، والطّغيانُ ظلمٌ وزيادة، فالظّلم يصدق على القليل والكثير، أمّا الطّغيانُ فهو الظّلم الكثيرُ الذي تجاوز الحدَّ، وبلغ الغاية.

### تعيين مرجعِ الضّمير في ﴿طَغَوۡاْ﴾:

الضّمير في ﴿طَغَوۡاْ﴾ يرجع إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾،

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.

(2) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1286.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 49.

والظّاهر أن يكون عائدًا إلى جميع من تقدَّم ذكرُهم، ويحتمل أن يكون عائدًا على فرعون وحدَه كما سبق بيانه.

**دلالة التّعبير بحرف الظّرفيّة:**

انتشارُ طغيانهم واتّساعُه

أفاد حرفُ الظّرفيَّة في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الانتشارَ والاتّساع، أي: أنَّ طغيانَ تلك الأمم قد تغلغل، وأصبحت البلاد كالوعاء لطغيانِهم؛ فلم يسلم أحدٌ من طغيانهم.

**معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ وجمعُها:**

فسادُ البعضِ آيلٌ إلى فسادِ الجميعِ بسَنِّ سُنَنِ السّوءِ

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للعهدِ، أي: طغت كلُّ أمَّةٍ في بلادِها خاصَّةً، وجمع ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ للإشعارِ بطغيانِهم في عمومِ البلادِ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّ الطّغيان يعمُّ ويستغرق البلادَ، فطغيانُهم قد أوقعَ البلادَ كلّها في الفساد؛ لأنَّ فسادَ البعضِ آيلٌ إلى فسادِ الجميعِ بسَنِّ سُنَنِ السّوءِ[1]، فالبلاد يصدق على جميعِ البلاد المأهولة بالحياة، فبدلَ أن تكون في عبادة اللّه تعالى، جعلوها في الظّلم والشّرك وتجاوز كلِّ حدّ.

**نوع الفاء ودلالتّها في ﴿فَأَكۡثَرُواْ﴾:**

الفسادُ نتيجةُ الطّغيان، أو هو الطّغيان نفسُه

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ سببيَّة[2]، وتُفيد ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: أنَّ الطّغيان هو سببُ إكثارِ الفساد في البلاد، وإنّما كان الإكثارُ في الفساد مسبَّبًا عن الطّغيان ومرتّبًا عليه؛ لأنَّ الطّغيانَ يُجَرّئُ صاحبَه على دَحْضِ حقوقِ النّاسِ، فهو من جهةٍ يكونُ قدوةَ سوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكلُّ واحدٍ منهم يطغى عَلَى مَنْ هوَ دونَهُ، وذَلِكَ فسادٌ عَظيمٌ[3].

وتحتمل أن تكون الفاءُ تفسيرًا لطغيانِهم وتفصيلًا له[4]، أي: طَغَوا في البلاد مفسدين فيها، فطغيانُهم فسادٌ منتشرٌ بين النّاس.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 225.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 505، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 255.

**براعة التّعبير بالإكثار من الفساد دونَ الإفساد:**

جاء التّعبير في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ بذِكر الإكثار من الفساد، ولم يقل: (فأفسدوا فيها)؛ وذلك لبيان أنَّ الفساد جاء على مرحلتين؛ المرحلة الأولى: هي نشرُ الفساد ليكون توطِئةً للمرحلة الثّانية، ثمّ تأتي المرحلة الثّانيةُ: وهي الإكثار من الفساد، ولا يكون الإكثارُ من الفساد إلّا بعدَ الفساد، كما يُفيد تنوّعَ فسادِهم مع كثرته، فكأنَّه وصفَهم بالإفساد مرّتين مبالغةً في إفسادِهم المُسبَّبِ عن طغيانِهم، وهو ما يدلُّ على أنَّ الفساد في المرحلة الأولى هو الذي نادى على الطّغيان، فلمّا طَغَوا بعد أن أفسدوا أكثروا الإفسادَ في الأرض، وهو ما يدلُّ على أنَّ نشر الفسادِ في الأرض لا يكون عبرَ مرحلةٍ واحدة، بل على مراحلَ متعددةٍ، وهو ما يقود إلى أخذ الحيطة والحَذر من الفساد ابتداءً، وإن قلَّ في أعين النّاظرين.

الفساد يأتي على مرحلتين: التّمهيديّة التي تصنع الطّغيان، ثمّ الإكثار من الفساد

**دلالةُ حرفِ الظّرفيَّة:**

أفاد حرفُ الظّرفيَّة (في) أنَّ البلاد صارت ظرفًا ووعاءً لفسادِهم واستوعبَها؛ للإشارة إلى تغلغلِ فسادِهم في البلادِ وكثرتِه.

تغلغلُ فسادِهم في البلادِ وكثرتُه

**غرض تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:**

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ للاهتمام لا للتّخصيص؛ لأنَّ فسادَ بلدٍ يسري منه الفسادُ إلى البلاد المجاورة له، وهكذا إلى أن يَعمَّ الفسادُ، فأفاد تقديمُ الجارِّ والمجرورِ أنَّهم كانوا حريصين على الإكثار من الفساد في البلادِ؛ لتكون البلادُ واقعةً في سهام الإفساد، مع ما في التّقديم من رعاية الفاصلة.

بيان عنايةِ المُفسِدِ بنشر الفساد في البلاد وبين العباد

**معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾:**

(أل) في ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ للجنسِ، فيستغرق اللّفظُ جميعَ أنواعِ الفسادِ، ويدخل في لفظ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ الكفرُ باللّه وتكذيبُ رسلِه عليهم الصّلاة والسّلام دخولًا أوّليًّا.

### توجيهُ تخصيصِ الفساد بالذِّكر دونَ الكفر:

خصَّ النّظمُ الكريم لفظَ الفساد في الذّكر في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ دون ذِكر الكفر؛ وذلك للإشارة إلى انتفاء استقامة العيش في البلاد بسببِهم؛ لأنَّ الفساد يدلُّ على خروج الشّيء عن الاعتدال، وانتفاءِ الاستقامةِ في النّفسِ والبدنِ والأحوال[1]. ولمّا كان الفَسادُ ضِدَّ الصَّلاح، وكان الصَّلاحُ متناوِلًا جَميعَ أقْسام البِرِّ، كان الفسادُ متناوِلًا جميعَ أقْسامِ المعصية، وأشدُّها الكفرُ والظُّلْمُ، فمن كفرَ باللّه وكذّب رسلَه وعمل بغير ما أمرَ اللّه تعالى، وحكمَ في عبادِه بالظّلم فهو مفسِدٌ[2]؛ فيكون المقصودُ بالفسادِ هاهنا عمومَ ما يحول بين النّاس والحقّ، فالفسادُ لفظٌ أعمُّ من الكفر والظّلم والفِسق والمعصية، إذ يشملها كلَّها.

الـفـسـادُ في الآيةِ لفظٌ يَعمُّ الكفرَ والمعصيةَ والظّلمَ والفِسق

### نوع الفاء ودلالتُها في ﴿فَصَبَّ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ﴾ تُفيد التّعقيبَ والسّببيَّة؛ لِتفيدَ ترتّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، بمعنى أنَّ إكثارَهم الفساد في البلاد كان سببًا في صبِّ العذاب عليهم.

إكثارُ الفساد في البلاد كان سببًا في صبِّ العذاب عليهم

### بلاغة استعمال مفردة (صَبَّ):

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الصّبِّ في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾؛ للإيذانِ بمفاجأتِهم بالعذاب وهلاكِهم بهِ، والمفاجأةُ بالعذاب نوعٌ من العذاب؛ فإنَّ العذابَ الذي أصاب هؤلاء القومَ كان عذابًا مفاجئًا قاضيًا، فأمّا عادٌ، فرأوا ريحًا عارضًا فحسبوه ريحًا يسبق المطر، فما لبثوا حتَّى أهلكتهم الرّيح وقضت عليهم، وأمّا ثمودُ فأخذتهم الصّيحةُ، وأمّا فرعونُ فحسبوا البحرَ منحسرًا فما راعَهم إلّا وقد أحاطَ بهم، فغرقوا هالكين[3].

المفاجأة بالعذاب طـعـمٌ من الـعـذاب ولـونٌ من الهلاك

---

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

### بلاغة الاستعارة في لفظ (صَبَّ):

نزولُ العذابِ جاء متتابعًا سريعًا شديدًا

جاء التّعبيرُ بمفردة الصّبِّ في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، وأصلُ الصّبِّ هو إفراغُ ما في الوعاءِ من مائعٍ بشدّةٍ وكثرةٍ واستمرار[1]، فشُبِّه حلولُ العذابِ وإنزالُه بهم بنزول المتتابع المتدارك، وبقوّة إحاطته بهم بصبِّ الماءِ على المغتسِل، أو كما يُصَبُّ المطرُ على الأرض، فوَجْهُ الشَّبَهِ مُرَكَّبٌ مِنَ السُّرْعَةِ والكَثْرَةِ والقوّة والتّتابع، بحيثُ يتركُ أثرًا في المصبوب عليه، فإنَّ الصّبَّ مُشعِرٌ بسرعة نزول العذاب عليهم وقوّته في الارتطامِ، كما ينزل الماءُ المصبوب بقوّة وسرعة على المصبوب عليه[2].

### دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

إحاطة العذاب بهم واستيعابهم لهم

دلَّ التّعبيرُ بحرف الاستعلاء في قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على استيعابهم بالعذاب وإحاطتِه بهم وتمكّنه منهم، فلا يمكنهم الفرارُ منه، فالعذاب صُبَّ عليهم فشملهم جميعًا.

### نُكْتَةُ تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل:

قدَّمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكَ﴾ للإشعار بسرعة الصّبِّ ووصولِه إليهم، وللإيماءِ إلى أنَّهم كانوا هم المقصودين بصبِّ العذاب، وللتّنفير من مسلكهم المؤدّي إلى نهايتهم.

### نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

التّعريضُ بالمكذّبين بإنزال العذابِ لنصرة سيّد المرسلين

لمّا كان الكلام في بيان نزول العذابِ على المكذّبين، الدّالِّ على سخَط اللّه تعالى عليهم، كان الظّاهر أن يُذكَر الاسم الجليل (اللّه)، لكنَّ النّظم آثَر التّعبير بعنوان الرّبوبيّة في قولِه تعالى:

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 155، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 256.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ﴾: للإشعارِ بولايةِ اللّه تعالى لرسله ﷺ، ولنبيِّه ﷺ ونصرته له وعنايته به، وأنَّه مؤيِّدُه على عدوّه، ففيه تعريضٌ بالمُكذّبين به ﷺ، بأنَّه سيصيبُهم مثلُ ما أصابَ المَذكورينَ من العذابِ إن استمرّوا على التّكذيب[1]، وفيه حثٌّ على الإسراعِ إلى الإيمانِ؛ لئلّا يلقى المُكذّبون مصيرَ هؤلاء القومِ.

### دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

إكرام النّبيّ وتشريفُه عنوانٌ لازمٌ لأهل التّقوى والمتابعة

في إضافة وصفِ الرّبوبيَّة إلى ضمير النّبيِّ ﷺ على وجه الخطاب في قولِه: ﴿رَبُّكَ﴾ تشريفٌ لنبيّه ﷺ وتكريمٌ له، لِما تُفيده الإضافةُ من معنى التّخصيص، ففي الإضافة إشعارٌ بخَصوصيَّة إحسانِه تعالى له ﷺ. وتقدَّم مثلُه في قوله: ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

### بلاغة الاستعارة في استعمال مفردة ﴿سَوۡطَ﴾:

العذابُ المصبوب على المُكذّبين يُناسبُه التّشبيهُ بالسّوط النّازل على البهائم

شبَّه النّظمُ الكريم إيقاعَ العذابِ على السّابقين بالسَّوطِ، وهو آلةُ ضَربٍ تُتَّخَذُ مِن جلودٍ مَضفورةٍ تُضرَبُ بها الخَيلُ لِلتَّأْديب، ولِتَحملَها على المزيدِ في الجَري، فيحتمل قولُه: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أن يكون استعارةً تصريحيَّة؛ ونُكتَةُ ذلك ما في الضَّربِ بالسّوط من مناسبةٍ للصّبِّ في تواترِه وتكرّره على المضروب، والتفافِه عليه وشدّة إيلامِه له وإحساسِه به حتَّى يهلكَه[2]، وهذا هو ظاهر الاستعارة.

أو يكون التّعبيرُ بالسّوطِ استعارةً لِما خُلِطَ لهم من أنواع العذاب، فأصلُ السّوطِ هو الخَلطُ، أي: خلطُ الشّيءِ بعضِه ببعض[3]، فالسّوط يُسمّى سوطًا؛ لكونه مخلوطَ الطّاقات بعضِها ببعض، وإنَّما سُمّيَ به الجِلدُ المضفورُ الذي يُضرَبُ بِه؛ لكونِه مخلوطَ الطّاقاتِ بعضِها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 226.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوط).

ببعضٍ، أي: فصبَّ على المُكذّبين أنواعًا مختلطةً من العذاب في الدّنيا، فنزلَ على عادٍ ريحٌ صرصرٌ عاتيَةٌ، ونزل على ثمود الصّيحةُ، وعلى فرعونَ الإغراق[1]؛ ففيه تخويفٌ وتهديدٌ للمُكذّبين بأنَّه قد يأتيهم عذابٌ من نوعٍ آخر؛ لتنوّع العذاب على المُكذّبين.

### نُكْتَة إفراد لفظ ﴿سَوۡطَ﴾:

ما صبّه الله على المُكذبين سوطٌ من أسواط الآخرة

أُفرد لفظ ﴿سَوۡطَ﴾؛ لبيان أنَّ ما أحلَّه اللّه بالمُعذّبين في الدّنيا من العذابِ العظيم، إذا ما قيس بما أُعِدَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ من العذاب، كالسَّوْطِ إذا قيسَ إلى السّيف، أي: إلى سائرِ ما يُعَذَّبُ به[2]. فالمقصود: أنَّ العذابَ النّازلَ بهم مع أنَّه عذاب عظيمٌ، هو قليلٌ بالنّسبةِ إلى عذاب الآخرة في كميَّتِه ونوعِه، ففيه ترهيبٌ شديد من عذاب الآخرة، وكان الحَسَن رحمه اللّه إذا أتى على هذه الآية قال: "إنَّ عند اللّه أسواطًا كثيرة، فأخذَهم بسَوط منها"[3].

### نوع الإضافة ودلالتُها البلاغيّة:

احتمال الإضافة أن تكون بمعنى الجُزء والملابسة والتّشبيه البليغ

الإضافة في قولِه تعالى: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ بمعنى (مِن)، أي: فصَبَّ عليهم ربُّك سوطًا من عذابٍ؛ للإشعارِ بأنَّ ما أصابَ المكذّبين الطّاغين من الأقوام المذكورين هو نوعٌ قليلٌ من جنسِ العذاب، أي: هو قليلٌ بالنّسبة إلى غيرِه لكنَّه في ذاتِه وحقيقته عظيمٌ أليم. وتحتمل أن تكون الإضافة بمعنى الملابسة، أي: سوطًا مخالطًا للعذاب وملابسًا له، فيكون السّوطُ بمعنى العذاب، "فهَذِهِ كلمة تقولها العرب لكلِّ نوع من العذاب، تُدخل فيهِ السّوط"[4]، أي: جعل سوطَه الذي ضربَ به هو العذابَ[5].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 255.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 261.

(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 322.

وتحتمل الإضافة أن تكون من إضافة الصّفة إلى الموصوف، وأصلُ الكلام: فصبَّ عليهم ربُّك عذابَ سوطٍ، أي: عذابًا كالسّوط فيكون تشبيهًا بليغًا(1)، من قبيلِ تشبيه المعقول بالمحسوس، تقريبًا للمعنى في أذهانِ المخاطَبين الذين يعرفون السّوط ويستعملونه في حياتِهم.

**نُكْتَة تنكير لفظ ﴿عَذَابٍ﴾:**

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ لتفخيم العذاب وتهويلِه(2)، فهو ليس كمثلِ العذاب الذي يعرفُه النّاس، وأُخذت دلالة التّهويل والتّفخيم من السّياق.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿عَذَابٍ﴾ دون (عقاب):**

مناسبة اللّفظ القرآنيّ للسّياق والواقع

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ العذاب في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾، دون لفظ (عقاب)؛ وذلك لأنَّ المقصود هو تعذيب الأقوام تعذيبًا في الدّنيا، لا معاقبتُهم على ذنوبهم، فذاكَ سيكون في الآخرة، كما أنَّ لفظ ﴿عَذَابٍ﴾ مناسبٌ للفظ ﴿سَوۡطَ﴾، فإنَّ للسّوطِ عَذَبةً في آخره، ومنه قيل للعذاب عذابٌ لارتباطه بها، والسّوط "كلمة تقولها العربُ لكلِّ نوعٍ من العذاب، تُدخل فيهِ السّوط"(3).

**موقع جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ بين التّعليل وجواب القَسَم:**

سنّةُ الله ماضيةٌ في تعذيب المكذبين وتنبيه الغافلين

جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ لصَبِّ سوطِ العذاب على المُكذّبين(4)، وهذا على تقدير جواب القَسَم؛ فصُدِّرت بحرف ﴿إِنَّ﴾ المشتمل على معنى الرّبط والتّعليل لِما قبلَها، أي: إنّما عذّبهم بما عذّبهم به؛ لأنَّه تعالى بالمرصاد لا يفوتُه شيءٌ، وفي التّعليل إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يظلِمهم فيما أنزل بهم من العذاب.

ومجيءُ الجملة تذييليَّة لِما تُفيده من معنى العموم والكُلّيَّة، بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 256.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 261.

(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 427.

أنَّه تعالى لا يفوته شيءٌ من أعمالِ العِباد، ويدخل فيه أعمالُ الجُناة دخولًا أوّليًّا بقرينة أنَّ السّياق سياقُ تهديد ووعيد، أي: إنَّ اللّه بالمِرصادِ لكلِّ طاغٍ مُفسدٍ.

وأمّا على جَعْل هذه الجملة جوابَ القَسَم المتقدّم ذِكْرُه في مطلع السّورة[1]، فيكون ما بينهما جملٌ اعتراضيَّة، وعلى كونِها جوابَ قَسَمٍ تكون كنايةً عن تسليط العذاب على المشركين، وأنَّهم سيصيبُهم مثلُ ما أصاب السّابقين، ومناسبةُ مجيء الجُمَل الاعتراضيَّة بين القَسَم وجوابِه أن تكون بمثابة الاستدلال بالواقع على وقوع جوابِ الشّرط، وذلك بذِكر النّظير، والجملة صالحةٌ لأن تكون تعليلًا لِما قبلها، أو نتيجةً له، وهو أسلوبٌ من أساليب الاحتجاج، إذ يُجعَلُ البيانُ والنّظيرُ بمنزلة المُقدِّمة والتّمهيد، ويُجعلُ الغرضُ المقصود بمنزلة العِلَّة والنّتيجة إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارين، مع قَصْدِ الاهتمامِ بالمُقَدَّم والمبادرة به[2].

### بلاغةُ تتابعِ المؤَكِّدات:

معاندة الظّالمين واستمرارُهم في الطّغيان إنكارٌ صريحٌ لنُزول العذاب

أُكِّدَت جملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ بثلاثة تأكيدات؛ ﴿إِنَّ﴾ واللّام ومجيء الجملة اسميَّةً، فالخبر على هذا إنكاريٌّ، وفائدة تتابع ثلاثةِ تأكيدات؛ الإيذانُ بأنَّ المُكذّبين منكرون لكونِه تعالى بالمِرصاد لهم لتكذيبِهم رسلَه، بما يُنبئُ به استمرارُهم على طغيانِهم وعتوِّهم وتمرّدُهم، حتَّى أكثروا في البلاد الفسادَ، فلو لم يكونوا منكرين لرصدِ اللّه تعالى لهم لَما طغَوا، ولَما أكثروا في البلاد الفسادَ، أو أنَّ الجُناة لمّا استمرّوا في غيِّهم وطغيانِهم أُقيموا مقامَ مَن يُنكر رصدَ اللّه تعالى لهم، وحفظَه لأعمالِهم، ومحاسبتَه لهم عليها.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 507، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 3592.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

بيانُ كرامةِ رسولِ الله ﷺ وشرفِه عندَ ربِّه

### نُكْتَة تكرارِ عنوانِ الرّبوبيّة:

كُرِّرَ وصفُ الرّبوبيَّة المضافِ إلى ضميرِ المخاطَب وهو رسول اللّه ﷺ؛ لتقريرِ عنايةِ اللّه تعالى به وتأكيدِ نصرِه له، وأنَّ مُكذّبيه لن يفوتوا، فهو تعالى لهم بالمِرصاد، ففي تكرار ﴿رَبَّكَ﴾ تسليةٌ لرسولِه ﷺ، وكأنَّه تعالى يقول: إنّما أنا بالمِرصاد لأعدائِك لأجلِك وتطييبًا لخاطرِك، فلا تحزن لكُفرِهم وتكذيبِهم لك.

لا محيدَ عن وقوف العِباد بين يدي الله تعالى

### معنى تعريف لفظِ (المِرْصادِ):

تعريف لفظ (المِرْصادِ) للجنسِ، أي: جنسِ المِرصاد، وهو مكان التّرصّد والانتظار، والتّرقّبِ لما يُتوقَّع وصولُه، كانتظار شخصٍ يُتوقَّع وصولُه، أو لما يُتيقَّن ظهورُه ووصولُه كما في تَرقُّبِ الهلال.

والمرادُ هنا ما يُتيقَّن وصولُه من النّاس؛ لأنَّه لا محيدَ عن وقوف العِباد بين يدي اللّه تعالى.

كلُّ طاغٍ فهو في رَصَد الله تعالى ورقابتِه

### دلالة حذف متعلّق ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾:

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ محذوفَ المتعلَّق أفادَ العمومَ، بمعنى: أنَّه تعالى بالمِرصاد لكلِّ فاعلٍ ولكلِّ عبدٍ من العبادِ[1]، ويدخل فيه الجُناةُ دخولًا أوّليًّا بقرينة السّياق كما تقدَّم.

ويحتمل أنْ يكون المتعلَّق مختصًّا بمن يفعل السّيّئات، بقرينة أنَّ عبارة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ إنّما تُقال لمن يفعل القبيحَ ويستمرُّ عليه؛ لأنَّ الرَّصَد إنّما يكون على سبيل انتظار المعتدّي وترقّب وصولِه لمجازاتِه على عدوانِه، فالمعنى: إنَّ ربَّك بالمِرصاد لَمن يفعل السّيّئات، وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

### بلاغة الكناية بالاستعارة التّمثيليَّة:

في قوله تعالى: ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة؛ حيث شُبِّه كونُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 323.

بيان الرّقابة الرّبانيّة للطّغاة بالمحسوس أرسخُ في تثبيت الوعيد والتّهديد

تعالى حافظًا لأعمال العباد وحركاتِهم، مراقبًا عليها، ومجازيًا على ما دقَّ وجلَّ منها، بحيثُ لا ينجو منه أحدٌ، بحال من قعد على الطّريق مُترصّدًا العَدوَّ أو الجاني ليَظفرَ به ويأخذَه، فيوقِعَ به ما يريد، ثمّ أُطلِق لفظُ أحدِهما على الآخر على طريقة الاستعارة التّمثيليّة[1]، وهذا تمثيل لحفظِ أعمال العصاةِ وإرصادِه لهم بالعقاب وأنَّهم لا يفوتونه[2]، أو يقال في الاستعارة التّمثيليَّة: شبَّه الهيئةَ المنتزعةَ من كونِه تعالى حافظًا لأعمال العباد مجازيًا عليها، بحيثُ لا محيص عنها بالهيئة المأخوذة من القاعد على الطّريق مترصِّدًا منتظرًا مترقّبًا لمن يسلكُها من أصحاب الجِناية؛ ليأخذَه ويفعلَ به ما يستحقُّ لأجلِ جنايتِه، ففيه توضيحُ المعقولِ بالمَحْسوس[3].

وهذا التّمثيل كنايةٌ عن مجازاة كلِّ عاملٍ بما عملَه وما يعمله، إذ لا يُقصَدُ الرّصدُ إلّا للجزاء على العُدوانِ[4]، والاستعارة على معنى التّهديد والوعيد للجناة والمُكذّبين لرسول اللّه ﷺ، كما تقول لغيرك: افعل ما شئت فطريقُكَ عليَّ لا محالةَ، أي: لا تفوتني[5].

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الصَّخْر والحَجَر:

الحجر دون الصخر، وهو جزء منه

الصّخْرُ: هو الحجر الصّلب العظيم الثّابت، الذي يتعذّر حملُه وثقبه عند عموم النّاس.

وأمّا الحَجَر: فهو أصغر من الصَّخْر، وهو جُزء منه، ويمكن رفعه باليد، ويجمع على أحجار.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 425، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 442.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.
(3) القونوّي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 323.
(5) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 338، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 294.

## الجَوْب والقَطْع:

الجَوْب: هو قطع الشّيء على وفق تفصيلٍ معيَّن وترتيب مقصود، بحيثُ يكون فيه خرقٌ وثقبٌ، فيكون على سبيل النّحت، ومنه الجَوبُ وهو القميص الذي تلبَسُه المرأةُ، فيكون مفصَّلا عليها، ومنه كذلك جَيْبُ القميص والدّرع الذي يكون مقطوعًا على وفقِ منفذ الرّأس[1]، ففي الجَوْبِ ثقبٌ وخَرقٌ على ترتيب معيَّن؛ ليكون على وفقِ المقصود.

الـجَـوْب فيه ثقبٌ وخرقٌ على ترتيب معيَّن، والقَطْع فصلٌ بين شيئين

وأمّا القَطْعُ: فهو بمعنى فصلِ الشّيء عن الشّيء وإبانتِه منه[2]. وليس فيه خرقٌ ولا ثقبٌ في المقطوع.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر: 15 - 20]

### مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من بيان أسباب هلاك السّابقين إلى وجود الأسباب في المخاطَبين

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقة طغيانَ الأقوامِ السّابقين وإفسادَهم في الأرض بسبب سوء اعتقادهم، وفسادِ تدبيرهم، وشَرِّ أعمالِهم، وأنَّ ما كانوا عليه من ذلك كلِّه أوقعهم في الهلاك الماحق؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيان واقع الإنسان في حال الرّخاء التي تقوده إلى الطّغيان، وحالِ الشّدّة التي تقوده إلى اليأس والضّجر، فهما حالان يتواردان على عموم النّاس فيقعون في مزالق الشّيطان، وفائدةُ المناسبة بيانُ ما أوقع الأممَ السّابقةَ في الطّغيان، ليَحْذرَ المخاطَبون ما وقع به السّابقون، من التّرف والشَّرَه والبَطر، وظنّوا أنّهم مستحقّون لذلك، وأنَّ ما هم فيه لكمالٍ فيهم، ونقصٍ في غيرهم، وذكرتِ الآياتُ علامةَ ذلك الطّغيان في عدم إكرام اليتيم، وتركِ الحَضِّ على إطعام المسكين، والظّلم في أكل الأموال، فكان كلُّ ذلك مَلهاةً عن الحقِّ المقصود، وإغفالًا عن العمل المطلوب، فهو انتقالٌ من بيان أسباب إهلاك السّابقين إلى وجود أسباب هلاك المُخاطَبين، للحَذر من الإصرار والعِناد.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾: أصلُ الكرَم يدلُّ على الشّرف في الشّيء،

وكلّ شيءٍ شَرُفَ في بابِه فإنّه يوصَفُ بالكَرَم[1]. ومن الشّرفِ العطاءُ بكثرة، ويقالُ: كَرُم السّحابُ إذا كثُرَ ماؤه وجادَ به[2]، والكَرَمُ إذا وُصِفَ اللّه تعالى به فهو اسمٌ لإحسانِه وإنعامِه المتظاهِرِ، والكرمُ لا يُقالُ إلّا في المحاسِنِ الكبيرةِ الظّاهرة، والإكْرامُ والتَّكْريمُ أن يوصَلَ إلى الإنسانِ نفعٌ لا يلحقه فيه غَضاضَةٌ، والإكرامُ يقتضي التّفضيل. ومعنى ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾: أعطاه وجادَ عليه بالخير.

2) ﴿فَقَدَرَ﴾: لفظ القَدَر يدلُّ في أصلِه على مبلغِ كلِّ شيءٍ ونهايتِه[3]، والقَدْرُ والتَّقْديرُ: تبيين كَميّةِ الشّيء[4]، ومنه جاء القدْر بمعنى التَّضييق وقِلَّة الشّيء؛ لأنَّ الشّيءَ القليل تتبيَّن كميّتَه، وقُدِرَ عليه في الرّزقِ، أي: أُعْطِيَ ذلك بقَدْرٍ يسيرٍ[5]، ومعنى ﴿فَقَدَرَ﴾: ضَيَّق، أي: لم يُكثِر مالَه، ولم يوسِّع عليه[6].

3) ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾: أصلُ الحضِّ يدلُّ على البَعثِ على الشّيءِ والدّفع إليه بضغطٍ مع الرّغبة فيه، والحَضُّ: الحَثُّ على الخَيْر[7]، ويُقال: حَضَضتُك على الخير حَضًّا رغّبتُك فيه[8]، والتَّحاضُّ: التّحاثُّ، بأن يَحثَّ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه[9]، ومعنى ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: لا يحضُّ بعضُكم بعضًا، وأصله تتحاضّون بتاءين؛ فحُذفت إحدى التّاءين تخفيفًا.

4) ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أصلُ التّراث وِراث، قُلِبَت الواوُ تاءً. فهو من بابِ ورثَ[10]، والميراثُ: أن يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[11]. واستُعمل فيما بعد بما ينتقل عن الميّت من مالٍ وغيرِه إلى إنسانٍ آخر[12]، والوراثة بمعنى حوزِ تركةِ الميت أو قسطٍ منها[13]، ومعنى ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كرم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قدر).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حض).
(8) ابن القطّاع، الأفعال: 1/ 248.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (حضض).
(10) الرّاغب، المفردات: (ترث).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(12) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(13) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورث).

5) ﴿لَّمًّا﴾: اللَّمُّ الجمعُ الشّديد، ويدور اللّفظ على اجتماعِ الشّيءِ وضَمِّه[1]. وأصله من اللّمّة: وهي شَعر الرَّأس إذا كانَ فوقَ الوَفْرة[2]. ويقال: لَمَمتُ الطّعامَ لَمًّا: إذا أكلْته جَميعًا. ولممتُ الشّيءَ إذا جمعتَه وأتيتَ على آخرِه[3]. ومعنى ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾: يأكلُ الميراثَ جميعَه ويستأْصِلُه، فيأكلُ نصيبَه ونصيب غيرِه.

6) ﴿جَمًّا﴾: يدور أصل كلمة (جَمَم) على كثرةِ الشّيءِ واجتماعِه[4]، وهو من جَمَّة الماء، أي: معظمه ومجتمعه الذي جُمَّ فيه الماءُ عن السَّيَلانِ، والجَمُّ والجَمَمُ: الكثيرُ مِن كُلِّ شيءٍ. ومالٌ جَمٌّ: كَثيرٌ، ولاعتبارِ معنى الكثرة قيل: الجُمَّة، لِما اجتمعَ من شعرِ النّاصيةِ. ومعنى ﴿حُبًّا جَمًّا﴾: حُبًّا كثيرًا[5].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إكـرام الإنـسان هــو بتـوفيـقه للإيمان والعمل الصّالح لا بكثرة الأموال

تُخبِرُ الآياتُ الكريمة عن حالِ الإنسانِ في حالِ العُسرِ واليُسرِ، والفقرِ والغنى، فالإنسانُ إذا ما امتحَنَه ربُّه بالنِّعمِ والغِنَى فأكْرَمَهُ بالمال، ونَعَّمَهُ بما أوسع عليه من فضله، فرح بذلك وسُرَّ به، ويقول: ربّي فضّلني بما أعطاني، وأكرمني بهذه الكرامة؛ لظنِّه أنَّ ما أعطاه اللّه من هذه الدّنيا كرامةً له، وأمّا إذا ما امتحنه ربُّه بالفقر، فضيَّق عليه رزقَه وأعطاه قدرَ ما يكفيه، فيقول الإنسان: ربّي أذلَّني بالفقر، ثمَّ جاء الرّدُّ بالرّدع والزّجر على مَنْ توهّم أنَّ سعة الرّزق من إكرام اللّه له، وأنَّ الفقر إهانةٌ له، فوجّه أنظارَهم إلى أنَّ الإهانة هي في عدم إكرام اليتيم، وعدمِ الحَضّ على طعام المسكين، وأكلِ الميراث أكلًا شديدًا بحيثُ لا يترك النّاسُ منه شيئًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمَّ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لمم).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 527.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمم).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جمم).

فيأكلون نصيبَهم ونصيبَ غيرِهم، ويحبّون المالَ وجمعَه واقتناءَه حبًّا كثيرًا شديدًا[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تفريعيَّة، فلمّا كانت جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ على معنى العموم والتّذييل، وأفادت أنَّ هذا شأنُ ربِّك الجاري على وفقِ عِلمِه وحُكمِه، فأمّا الإنسان الكافر فيتوهّم خلافَ ذلك، إذ يَحسَبُ ما يَنالُه مِن نِعمةٍ وسَعةٍ في الدُّنيا تَكريمًا مِن اللّه له، وما يَنالُه مِن ضيقِ عَيشٍ إهانةً أهانَه اللّه بها، وهذا التَّوهُّمُ يَستلزِمُ ظَنَّهم أفعالَ اللّه تعالَى جاريةً على غيرِ حِكمةٍ، والقصدُ منه إبطالُ ما كان يعتقده أهلُ الشّرك ممّا ينزل بهم من أحوال الغنى والفقر، وفي هذا التّفصيل إيذانٌ من اللّه تعالى للمؤمنين بأنَّ أعراضَ الدّنيا زائلةٌ ومتفاوتة في الطّولِ والقِصَر[2].

رحـمـةُ الله بعبادِه في أن يـدلّـهـم على الخير، وظلمُهم لأنفسهم في الإعراض عن رحمته

### دلالة (أمّا) التّفصيليَّة الرّابطة:

(أمّا) تُفيد التَّفصيل مع تأكيد مضمونِ ما دخلت عليه؛ لِما يفيده تفصيلُ الكلام من اهتمامِ المتكلّم بما يفصِّله، على أنَّ مضمونَه محقَّقٌ، وهي بمعنى: مهما يكن من شيءٍ، فتقتضي جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنَّه قيل: فما بالُ الإنسانِ وحالُه إذا كان مرادُ اللّه السّعيَ إلى الآخرة والعملَ لها؟ فأُجيب: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: إنَّ الإنسانَ عكسُ ذلك؛ إذ سعى للدّنيا وأفنى عُمُرَه في لذّاتِها[3]، وقد أفادت عمومَ ما دخلت عليه، وتكون رابطةً لِما قبلها بما بعدَها؛ ولهذا جاء قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بعد الجملة التّذييليَّة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾

النّاسُ بحسب أعمالهم وإيمانهم بالله يَرْجِع أمرُهم إلى الشّكر أو الكُفر

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412 - 415، والبغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 251 - 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 325.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.

الدّالّة على العموم والإجمال، وبمجموعِ هذه المعاني التي تدلُّ عليها (أمّا) تظهر بلاغةُ النّظم في إيثار التّعبير بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ دون: (فالإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه يقول ربّي أكرمن). فأفادت (أمّا) تفصيلَ ما أُجملَ قبلَها[1].

أقوال الإنسان الجاهل تابعةٌ لحاله في الشّدّة والرّخاء

وقد ذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ المُفصَّلَ هنا أحوالُ الإنسانِ الجاهلِ، فُصِّلتْ إلى حالِه في الدّعة وسعةِ العيشِ، وحالِه في الضّنكِ وشدّة العيش، وهذا التّفصيلُ ليسَ من قبيلِ تبيينِ مجملٍ تقدَّمَ، ولكنَّه تمييزٌ وفصلٌ بَيۡنَ شَيۡئَيۡنِ أَوۡ أشياءَ تَشۡتَبِهُ أو تَخۡتَلِطُ[2]. وأفادت (أمّا) الرّابطة التّفصيليَّة الإيذانَ بالبونِ بين الحالين والأمرين المتنافيين، وذلك أنَّه تعالى يطلب من العباد الطّاعة والعبادة، وهو بالمِرصاد كالمترقّب الذي لا يفوته شيءٌ من أعمال عباده، فيحاسبهم على النّقير والقطمير ويُجازيهم عليها، والإنسان غافلٌ مولَعٌ بالتَّلهّي، ومنغمسٌ في أمور العاجلة، إنْ أصابه نصيبٌ من الدُّنيا اطمأنَّ إليه، وإنْ جاوزه حظٌّ منها ضجرَ وقنطَ[3].

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لاستغراق جميع الأفراد، وهو استغراقٌ عرفيٌّ بقرينة السّياق والسّباق، فيُراد به الإنسانُ المشرك الجاحد ليوم القيامة[4].

### نُكْتَةُ اختيارِ مفردة ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دونَ مقارباتها:

استُعمل لفظُ الإنسان في غالب القرآن في سياق الذّمّ لا المدح

جاء التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ للإشعار بأنَّ التّكريم والإهانة إنّما يقعان على الشّخص بوصفِ إنسانيَّته، لا بوصفِ كونِه من قبيلةٍ

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1555.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 15/ 226، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 329.

(3) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 426.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 156.

معيَّنةٍ أو من قومٍ معيّنين، وأنَّ القول المَحكيَّ في حالةِ التّوسعة في الرّزق أو تضييقه هو عادة الإنسانِ يظهره أو يبطنه، وأنَّ هذا هو شأنُه، وإنّما يُهذّبه الإيمانُ، والغالبُ في إطلاق لفظ الإنسانِ في القرآن المَكّيّ المُشرك، كقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامَة: 3]، ومن يظنُّ هذا الظّنَّ هو الكافر. ومثلُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [البَلَد: 4 - 5][1]. والاستدلال بكثرة المال أو قلّته على إكرامِ اللّه وتفضيلِه، أو إهانتِه وإذلالِه، موجودٌ عند كثير من أهلِ الإسلام، وهو مذموم، كما هو ظاهر، بل هو مضارعةٌ لمن لم يؤمن.

### فائدةُ تقديم الظّرف ﴿إِذَا﴾:

التّنبيه على أنَّ الإنسان سريعُ الحُكم بطريق الهوى

قُدِّمَ الظّرفُ ﴿إِذَا﴾ عن موضعِه لأنَّه على نيَّة التَّأخير لتعلُّقه بالفعل (يَقولُ)، كأنَّه قيلَ: فأمّا الإنسانُ فيقولُ: ربي أكرمنِ وقتَ ابتلائِه بالإنعام، والغرضُ من تقديمِه الإيذانُ من أوّل الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتّنعيمَ إنّما هما بطريق الابتلاءِ؛ ليتضحَ اختلالُ قولِه المحكيِّ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[2]، كما يُشير تقديمُ الظّرفِ إلى أنَّ الإنسان لم يتدبّر قبلَ قولِه الذي يقوله، ولو تدبّر من أوّلِ الأمر في أنَّه ابتلاء واختبار لَمَا توهّم في ظنِّه أنَّ كثرة ما هو عليه من المالِ والتّنعّم من كرامتِه عند اللّه.

### نوع ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

تأكيدُ وقوعِ الابتلاء بالتّوسعة في أمور الدّنيا والتنعّم بها أو في التّضييق

أفادت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ التّأكيدَ، ففيه إشعار بتأكيد وقوعِ الابتلاء بالتّوسعة في أمور الدّنيا والتنعّم بها أو في التّضييق بها بحيثُ يكون للإنسانِ ما يكفي بلغتَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 329.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156.

### بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ دون مقارباتها:

الابتلاء اختبارٌ بأمرٍ شاقٍّ لتحصيل الغاية الفُضلى والمطلوب الأحسن

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ دون مقارباتها؛ وذلك لأنَّ الابتلاء هو الاختبار من الله تعالى بالأمر الشّاقِّ سواءٌ أكان في السّراءِ أم في الضّراءِ؛ ليتبيَّن صاحبُ الابتلاء حالَه، والابتلاء مشعرٌ بترتّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العملِ؛ وأمّا الفتنة فهي أخصُّ من الابتلاء؛ لأنَّها تجمع معنى الخوفِ والاضطرابِ، وتتضمّن خطر السّقوط في الضّلالِ والهاوية، فيُعبَّر بالابتلاء في معرض الاختبار بأمرٍ شاقٍّ والاجتهاد في تحصيل الأفضل؛ ليتميَّز كلُّ فريقٍ ممّا يترتّب عليه جزاؤهم بما يستحقّون، ويُعبّر بالفتنة في معرضِ اختبار قوّة الصّبر والثّباتِ على الحقِّ، والتّخويف من الوقوع في الزّلل.

وممّا يدلُّ على أنَّ ورود لفظِ الابتلاء والبَلوى للإيذانِ باختيار الأفضل في الاختبار قولُه تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: 2]، ومنه قولُه: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النّساء: 6]؛ لأنَّ المقصود اختبار كمالِ عقولِ اليتامى، ومعرفةُ وصولِهم إلى الأفضل في رجاحة العقل؛ لتسليمهم أموالَهم وتصرّفهم فيها.

### بلاغة الاستعارة في مفردة الابتلاء:

عِلْمُ الله بحال من يبتليه لا يمنع الابتلاءَ ليُعرِّفَه حالَه

في لفظ ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، فقد شَبَّه اختبارَ حالِ الإنسان وما يقولُه عند كثرة الرّزق أو قِلّته باختبار المختبِر ليعلَم أحوالَ من يختبرهم ويُعرِّفَهم أحوالَهم، أي: جودتَهم أو رداءتهم، والمقصود أن يَعرِفَ صاحبُ الابتلاء حالَه؛ لأنَّ اللّه تعالى يعلم حالَه وما يكون عليه.

ويحتمل أن يكون قولُه: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ استعارةً تمثيليَّة(1)، بتمثيل

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 258.

حالة تعريف الإنسانِ حالَه من الشّكر أو الكفر بحالة المختبرِ له، والمقصود عامَلَه معاملةَ المُختبرين.

ابتلاء الإنسان بالخير أو الشّرِّ أمرٌ محقَّقُ الوقوعِ وإن تأخّر حينُه

**نُكْتَة التّعبير بصيغة الماضي:**

لَمّا كانت ﴿إِذَا﴾ لِما يستقبل من الزّمان؛ كان الظّاهر أن يُعبَّر بصيغة المضارع الدّالِّ على الاستقبال، لكنَّه عدل إلى صيغة الماضي في قوله: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾؛ ليكون الكلامُ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ للإشعار بأنَّ الابتلاء محقّقُ الوقوع، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ في المستقبل، وحكمُه حكمُ الواقع في الماضي؛ لما تقدَّم من أنَّ (لَمّا) تفيد أنَّ مضمونَ ما دخلت عليه محقَّق الوقوع.

**نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:**

جاء التّعبير بعنوانِ الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ للإشعار بأنَّ هذا الابتلاء نوعٌ من تربية اللّه للإنسانِ، وأنَّه يريد من عباده الأحسنَ، وأن يكون سعيهم إلى الشّكر والطّاعة.

**نوع الفاء ودلالتُها:**

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريّةٌ، فإنَّ الإكرامَ والتّنعيمَ من الابتلاءِ[1]، وهي لا تمنع أن يعمل ما بعدَها فيما قبلها، والتّقدير: يقول ربّي أكرمنِ إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمَه ونعّمه.

الإكرامُ يدلُّ على العطاء النّافع والشّرف والرّفعة

**توجيه استعمال الإكرام دونَ الرّزق:**

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإكرام دونَ الرّزق، فقال: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾، ولم يقل: (فرزقه)؛ لأنَّ الرّزق إكرامٌ، وهو إعطاء ما هو مكرمة ممّا هو نفعٌ لا غضاضةَ فيه ولا مذلَّة، كما أنَّ تقديم النّفع والخيرِ إكرامٌ، وما يحصل بالخير من الرّفعة والشّرف والسّيادة إكرامٌ كذلك، ولو عبّر بالرّزق لَما تحقّق هذا المعنى، ولهذا قال تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 340.

﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ أي: أعطاه وتفضّل عليه بالعطاء، ثمَّ قال: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ للإشعارِ بمعنى التّشريف والسّيادة بهذا الإكرام، أي: فيكون بالإعطاء شريفًا.

### نُكْتَة التّعبير بصيغة الماضي:

أفاد التّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ تحقّقَ وقوعِ الإكرام، وسببُ مجيءِ الفعل بصيغة الماضي هو أنَّه جاء مع ما عُطفَ عليه تفسيرًا للفعل ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾.

### نُكْتَة عطف (نَعَّمَهُ) على ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾:

ليس كلُّ مرزوقٍ منعَّمًا بالعطاء الجزيل

لّما كان العطفُ يقتضي المغايرةَ بين المعطوفين، أفاد عطفُ (نَعَّمَهُ) على ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ مغايرةَ التّنعيم للإكرام، والمعنى: جعله في نعمةٍ، أي: في طيب عيش[1]، ففيه مبالغةٌ في الإكرام، فقد يُعطى الإنسانُ العطاءَ الجزيل لكنَّه لا يُنَعّم به ولا يَطيب عيشُه به، فكان العطف لمزيدِ بيان الحال التي يصلها الإنسانُ المُكرم.

### فائدة صيغة التّضعيف:

تكرار الإكرامِ تنعيمٌ كثير وفضلٌ زائد

أفادت صيغةُ تضعيف عين فعل (نَعَّمَهُ) تكثيرَ الفعلِ، بمعنى تكثير تنعيمِه والمبالغة فيه، المقتضي تعدّدَ النّعمِ ومجيئها مرَّة بعد مرَّة، وفي التّعبير بالصّيغة إيماءٌ إلى أنَّه لكثرة تنعيمِه وظهور أثر النّعمةِ صار منسوبًا إلى أصلِ الفعلِ؛ لدلالة صيغة (فعّل) على النّسبة إلى أصل الفعل، ولظهور الإكرام والمبالغة في التّنعيم يُقرُّ به ويقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾، ولو قيل: (وأنعم عليه) فاتت هذه المعاني المقصودة.

### نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرط؛ لتضمن (أما)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

معنى الشّرط[1]، كما دلَّت على التّعقيب فبيّنت سرعةَ فرحِ الإنسانِ بالرّزق والإكرام والتّنعيم دونَ معرفةِ حقّ ذلك.

### دلالة التّعبير بأسلوب الشّرطِ وجوابِه:

عـادةُ الإنسان العَجلةُ في مدح العطايا فرحًا بما أخذ لا شُكرًا على ما أخذ

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ أسلوبِ الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ﴾، ولمّا كانت (أمّا) تُفيد العموم؛ لأنَّها بمعنى: مهما يكن من شيءٍ، أفاد عمومُ الشّرط عمومَ الجوابِ، ولمّا كان أسلوبُ الشّرط على معنى تعليقِ وقوعِ الجوابِ على وقوع الشّرط، وكان في سياق العموم، أفاد اطّرادَ قولِ الإنسانِ لهذه المقالة كلَّما حصلت له نعمةٌ، وكلّما حصلَ له تقتيرٌ في الرّزق[2]. ففيه ذَمٌّ للإنسانِ الكافرِ، وبيانٌ لعادته في حياتِه، بأنّه إذا أُعطيَ من الرّزق رَضيَ، وإذا قُدِر عليه رِزْقُه سَخِطَ، وهي عادة المنافقين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التّوبة: 58].

### دلالة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسند إليه ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ على المسند الفعلي ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾[3]، لتقوية الحُكم وتأكيده؛ لأنَّ المقصود تحذير النّاس من هذه المقولةِ؛ لأنَّ الإكرام والتّقتير ممّا لا ينفكُّ عنه إنسانٌ.

### فائدة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿فَيَقُولُ﴾؛ لإفادةِ تكرّر القولِ وتجدّده كلَّما تحقّق مضمون الشّرط، والتّجدُّد بيانٌ للحال المستمرّة التي عليها الإنسان، فلا يلتفت إلّا لإشباع شهوته.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 475.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 258.

إدانةُ الإنسانِ من فيه ورميُه بما خرج من فيه

**دلالة ذكر فعل (يَقُولُ):**

لمّا كان الكلام في سياق ذَمِّ الإنسان على قولِه في الحالتَين، كان المرادُ من قولِه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ أنَّه يتكلَّمُ بمقولتِه هذه على جهة اعتقادِه أنَّه يستحقُّ الكرامةَ ويستوجبُها[1] وأنَّه أهلٌ لها، لا على جهة اعترافِه بها وشُكرِها، بل بما يظنُّه من مدحٍ لنفسِه، فهو فرِحٌ أشِرٌ لأنَّه يرى نفسَه مُستحِقّةً، لا أنَّ اللّه تعالى مُستَحِقٌّ للشّكر، وهذا في غاية الخُذلان، والتّعبير بفعل القول لتسجيل مقولةِ الإنسان، وإقامةِ الدّليل عليه.

**دلالة الجملة الاسميّة:**

جاء التّعبير بصيغة الجملة الاسميَّة ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ للإشعار بأنَّه يقول قولَه على جهة اعتقاد ثبوتِ مضمونِ الجملة له، أي: ثبوت إكرامِ ربِّه له واستحقاقه له.

**نُكْتَةُ استعمالِ عنوان الرّبوبيّة في جملة مَقول القول:**

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بعنوان الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ لبيان اعتقاد الإنسان أنَّ الإكرام من مقتضيات الرّبوبيّة التي يستحقُّها كمخلوقٍ لا كعابد للّه تعالى.

**دلالة إضافة وصف الرّبوبيّة للضّمير:**

أفاد إضافةُ لفظِ الرّبوبيَّة إلى الضّمير في قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ﴾ إلى أنَّ الإنسان يتوهّم أنَّ هذا الإكرامَ لخَصوصيَّةٍ له عند ربِّه، فهو ينتمي لربِّه دون إدراك ما عليه من الشّكر.

الكشفُ عن سوءِ اعتقاد الإنسان بما يعتقده عن حتمٍ أكيد

**غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:**

أفاد تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ في الجملة الفعليَّة ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ لتقوية الحُكم في القول الصّادر عن الإنسان، فهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 474، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 259.

يقول جازمًا من غير تردّدٍ؛ إشعارًا بقوّة اعتقادِه فيه[1]، وفيه تعجيبٌ ممّن هذا شأنُه؛ لقصور عقلِه وسوء فكرِه؛ لأنَّه لم يعلم أنَّ هذا ابتلاءٌ من ربِّه ليَشْكرَه ولا يكفرَه.

### نُكْتَةُ ذِكر الإكرام دون التّنعيم:

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ كان مقتضى الظّاهر أنْ يقال: (ربِّي أكرمني ونعّمن)؛ وذلك لبيان أنَّ اعتراف الإنسان بإكرام اللّه تعالى ناقصٌ غيرُ تامّ، فهو يَذْكر الإكرامَ ويُغفل التّنعيم، ولو قيل: نعّمني، لكان اعترافًا بأثر نعمةِ اللّه عليه، وهو مطلوب ومرغوب، فهو لكفرِه باللّه وعدم شُكرِه له اكتفى بما يَدلُّ على شرفِه دون ما يدلُّ على أثر نعمة اللّه عليه.

اعترافُ الإنسان بـإكـرام الـلـه ناقصٌ غـيرُ تامٍّ لـحـرصـه عـلى جاهه وإغفالِ حقِّ ربِّه

وذهب بعضُ المفسّرين إلى القول بالاكتفاء، فلمّا كان الإكرام والتّنعيم في حُكم شيءٍ واحد، اقتصر على قوله: ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ ولم يَضُمّ إليه (ونعّمني)[2].

### نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا﴾ عطفت جملةَ الحالة الثّانية للإنسانِ على الحالةِ الأولى؛ لِما بينهما من الجهة الجامعة؛ لأنَّ الكلام في معرضِ التّفصيل، فاقتضى ذكر القسمِ الثّاني.

### نوع (أمّا) ودلالتُها:

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ﴾ تُفيد تأكيدَ مضمونِ ما دخلت عليه، لإتمام تفصيل الحالة الثّانية على أنَّها محقَّقةُ الوقوع من الإنسان الجاهل، وفيها معنى العموم كنظيرتِها.

### نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في ﴿فَقَدَرَ﴾ تفسيريَّة، لبيان نوع الابتلاء، بمعنى أنَّ تقتير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 357، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 340.

الرّزق وتضييقَه من الابتلاء، وتقدير الكلام: فيقول ربّي أهاننِ إذا ما ابتلاه ربُّه فقدر عليه رزقَه.

### بلاغة استعمال مفردة (قدر) دون (ضيق):

تقتير الرّزق إنّما هو بحكمة الله تعالى وحُكْمِه في خَلْقِه

جاء التّعبير بمفردة (قَدَرَ) دونَ (ضَيَّقَ)؛ لِما تفيده مفردة (قَدَرَ) من أنَّه تعالى جعل رزقَه محدودًا بحسابٍ وقدَرٍ معيَّن على قَدَر حاجاتِه، أي: بقَدَرِ بُلْغتِه[1]، وذلك كنايةً عن تقتير الرّزقِ وتضييقِه[2]. فأفادت مفردة (قَدَرَ) أنَّه تعالى جعلَ رزقَه على مِقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ، حسبما حكَمَ به سبحانه واقتضته حكمتُه.

كما يُشعِرُ التّعبيرُ بالمفردة (قَدَرَ) أنَّه تعالى قدَّرَه على وجه لا يتأتّى منه غيرُ ما قدَّره فيه؛ إيماءً إلى أنَّه كان ينبغي له أن يصبر ويقول: ربّي قدَّره، لا أن يجزعَ ويقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾.

### فائدة استعمال مفردة (قدر) دون (أهانن):

الـكـشـفُ عن حقيقة إقرار الإنسان بأنّه جحودٌ ونكّار

في الجملة الأولى جاء توافقٌ بين الإخبار عن الإكرام وما قاله الإنسان، أمّا في هذه الجملة؛ فجاء اختلافٌ في التّعبير بين الخَبرين، فلم يقل: (إذا ما ابتلاه فأهانه)، وذلك أنَّ اللّه تعالى قَدَرَ عليه رزقَه ولم يُهنه، وفي قيله: (أهانن) كذبٌ وافتراء، ومع ذلك فقد أخبرتِ الآيةُ بقول الإنسان ليُعلَم مدى كفرِه وجُحوده، بخلاف الآية الأولى فجاء ذِكْر الإكرام خبرًا عن اللّه تعالى، وخبرًا عن إقرار الإنسان، لكنَّ إقراره ذاك ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ كشفه إقرارُه ﴿أَهَٰنَنِ﴾، فهو يُقِرُّ بما يُمليه عليه سلطانُ الهوى.

### توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ الجمهور: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدّال، وقرأ أبو جعفر وابن

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 156.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

عامر: ﴿فَقَدَّرَ﴾ بتشديدها[1]، والفرق بين القراءتين أنَّ قراءة التّشديد على معنى المبالغة في تقتير الرّزق وتضييقِه[2]، وإنّما صحَّ المعنى على تشديد عين الفعل وتخفيفِها؛ لأنَّ تقتير الرّزق من الكلّيِّ المشكّك[3]، فيتفاوت معنى التّقتير بدرجاتٍ متفاوتة في القوّة والشّدّة من إنسانٍ إلى آخر، ومن زمنٍ إلى آخر، ومن مكانٍ إلى مكانٍ آخر، فما يُعدُّ تقتيرًا في زمانٍ أو مكانٍ، قد يكون إكرامًا في زمانٍ أو مكانٍ آخر. ومثلُه الإكرامُ والتّنعيم في تفاوتِهما معناهما.

التّقتير والإكرام أمورٌ نسبيّة بحسب اختلاف الزّمان والمكان

### غرض تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعول ﴿رِزۡقَهُۥ﴾ لا للتّخصيص، بل لتحقيقِ أنَّ تقتير الرّزق مقصودٌ ومقدَّر على مَن قُدِّرَ عليه.

### نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرطِ المضمّن في (أمّا)، وتُفيد التّعقيبَ والسّببيَّة وترتّبَ ما بعدَها على ما قبلها، بمعنى أنَّ قولَه هذا كان عَقِبَ وقوعِ تقتير الرّزق، فلم يتفكّر أو يتدبّر في حكمة اللّه، فقولُه كان بسبب ابتلائِه في تقتير الرّزق ومرتَّبًا عليه، فدلَّ على عدم نجاحِه في الابتلاء.

الإنسانُ الجَهولُ عند أدنى ابتلاء يقع منه الكفرُ والاتّهام

### دلالة الجملة الاسميّة:

جاء التّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ للإشعار بأنَّه يعتقد ثبوت مضمون الجملة، ولا يظنُّ تبدّل حالِه؛ جهلًا باللّه تعالى، ومسارعةً في الإنكار والجُحود والاعتراض.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 400.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.

سوءُ اعتقاد الإنسان وجهلُه يقودانه إلى الاستنكار والاعتراض على ربّه

### نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

آثَر النّظمُ الكريم ذِكرَ عنوانِ الرّبوبيَّة المضاف إلى ياء المتكلِّم في قيل الإنسانِ: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾؛ لبيان تناقضه في موقفه من اللّه ﷻ، فعند الرّزق والعطاء والإكرام والتّنعيم يُسند الإكرامَ إلى اللّه، وعند قَدْرِ الرّزق فيما له مصلحة فيه، يُسند فعلَ الإهانةِ إلى اللّه تعالى، فلا هو وفقِهَ الإكرام، ولا عَلِمَ حِكمة التّقدير، وفيه إيماءٌ إلى سَخَطِه، وقُبحِ اعتقادِه، وشِدَّة شكيمتِه، وفَرْطِ طغيانِه[1]، فهو يذكر الرّبوبيّة اعتراضًا وإنكارًا، كأنَّه يقول: كيف لربّي أن يُهينني؟! وهذا من قُبح المعتقد وانعدام الأدب وذهابِ الحياء.

### دلالة استعمال مفردة ﴿أَهَٰنَنِ﴾:

التّعبير بمفردة ﴿أَهَٰنَنِ﴾ دون (أفقرنِ)؛ يُشعر بأنَّ جُلَّ نظر الإنسان الكافر يتّجه إلى توابع قلّة الرّزق، من العَوَزِ المانعِ من الاستكبارِ وإظهارِ البطَرِ، فهذا في مقياسه إهانةٌ وتحقير.

تسجيل أقوال المعاندين أقومُ في بيان معتقدهم وأكثر دلالةً على المقصود

### بلاغة التّعبير بذِكر القول دون وصف مضمونه:

آثَر النّظمُ الكريم ذِكر قيلِ الإنسان دونَ وصفِ مشاعره؛ فقال تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، ولم يصف موقفَه بحيثُ يقول: (وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقَه فإنَّه يجزع) ونحوه، وذلك ليُقيم الحُجّة عليه من قيله، وهذا شأن القرآن في إقامة الحُجَج على المعاندين، كما ذكر قول فرعون وما صدر عنه، وهو ما يُظهِر جَزَعَه وقِلّة حيلته وجهلَه، وما تدلّ عليه كلمتُه التي قالها، ولتصوير حقيقة ظنّه بأنَّ تقتيرَ رزقِه لم يكن من نفسِه وإنّما من ربِّه، فالمقصود التّعبيرُ عن سخطِه على ربِّه ﷻ؛ ولهذا جعل ربَّه هو الذي أهانَه بسبب تقتير رزقِه، جهلًا باللّه تعالى وكفرًا به سبحانه.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 259.

### براعة مجيء أداة ﴿كَلَّآ﴾:

ظنُّ الإنسانِ بالله القائم على بسط الرّزق وقبضه باطلٌ يستحقُّ صاحبُه ردعًا وزجرًا

﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردعٍ وزجرٍ، تأتي للرّدِّ على قولٍ تقدَّم، ومناطُ الرّدع ما صدر عن الإنسان في القولين؛ لأنَّ كلَّ قولٍ منهما صادرٌ عن تأوّلٍ باطلٍ، أي: ليست حالةُ الإنسانِ في هذه الحياةِ الدّنيا بالغنى أو الفقر دليلًا على منزلتِه عند الله تعالى[1]، فالرّدُّ بكلمة ﴿كَلَّآ﴾ لم يقع على المَقول، وإنّما على ما صوَّرَه بقولِه وقصده؛ وليس من لفظ يقع موقعه في هذا المقامِ سوى الرّدِّ بـ﴿كَلَّآ﴾؛ لأنَّه أفاد معنيين؛ أحدهما: أنَّ الأمر ليس كما صوَّره في نفسه وكما يظنُّ[2]، فيكون ردًّا لقولِه الصّادر عنِ اعتقادِه[3]، في أنَّ الكرامةَ والهَوانَ بكثرة الحظِّ في الدّنيا وسعة الرّزق فيها. والثّاني: أن يكون ردّا لصنيعه، لأنَّه إنّما قال مقالتَه نظرًا لبطرِه حالَ الإكرام، وجَزَعِه حالَ ضيقِ الرّزق، ففي كلمة الرّدع ﴿كَلَّآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يكرمه وينعّمه ليبطُرَ به ويتفاخَر، بل ليشكرَ، وقَدَرَ عليه رزقَه ليصبرَ[4].

### نوع ﴿بَل﴾، ودلالتُها السّياقيّة:

الإساءةُ الفعليّة مع العبادِ أقبحُ من الإساءة القوليّة مع النّفس

﴿بَل﴾ للإضراب الانتقاليّ، وفائِدتها الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ آخر من غيرِ إبطالٍ للكلامِ الذي سبقها، والمناسبة بين الغرضين المنتقَلِ منه والمنتقلِ إليه مناسبةُ التّرقّي في الكلامِ من ذِكرِ القبيح إلى الأقبح، لقصدِ بيانِ ما هو أسوءُ وأقبح من قولِهم المَحكيِّ، ويلزمه التّرقّي في ذمِّهم، ولمّا ذَكرَ ما بعدَ ﴿بَل﴾ ما كانوا يجتنبونه من الأفعال الحميدة وما كانوا يفعلونه من الأفعال السّيّئة؛ كان تقدير الكلام: بل لكم أحوالٌ وأفعالٌ أسوءُ من قولِكم المَحكيِّ، وأدلُّ على بُخلِكم وشُحّكم بالمال وتهالكِكم عليه، وعلى هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 331.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 323، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 510.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330 - 331.

يُفيدُ الإضرابُ الانتقاليّ بـ﴿بَل﴾ التَّعجيبَ من حالِهم في ترقّيهم في السّوء[1].

### بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

المواجهةُ بالتّوبيخ أدلُّ على تقريع الإنسانِ وإيقافِه على باطله

لّما كان قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ غيبةً، وقولُه تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ خِطابًا - على قراءة الجمهور كما سيأتي -، كان الكلام التفاتًا من الغيبة إلى الخِطاب، وفائدتُه الايذانُ بأنَّ ما يُخبرَ عنه أقبحُ من الأوّل وأشدُّ سوءًا، فالقصدُ من الالتفات المواجهةُ بالتّوبيخ، فهي أوقعُ وأكثر تأثيرًا ممّا يكون بالغيبةِ، وذلك لتشديدِ التّقريع وتأكيد التّشنيع[2].

### توجيه القراءات القرآنيّة:

اجتمع على الإنسان الجاهلِ التَّوبيخُ بالمواجهةِ والتّبكيتُ بالإهمال

أما ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ فقد قرأه الكوفيون وأبو جعفر بفتح الحاء وألف بعدها، وقرأه البقية بضم الحاء دون ألف: ﴿تَحُضُّونَ﴾، وقد قرأ أبو عمرو ورُوَيس ورَوْح بخلفه: ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ و﴿يَحُضُّونَ﴾ و﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ و﴿وَيُحِبُّونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء[3]، وقراءة ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ وما بعدها من الأفعال بالياء تكون على الظّاهر من غير التفاتٍ من الغَيبة إلى الخِطاب، والقصد هو تعريفُ النّبيِّ ﷺ والمسلمين بحالِهم، فضحًا لدخائِلهم وما يبطنونه، على نحو قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [البَلَد: 6 - 7][4]. وعلى قراءة باقي العشرة ﴿تُكۡرِمُونَ﴾ وما بعدَها من الأفعال ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ و﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ و﴿وَتُحِبُّونَ﴾ بالتّاء تكون على الالتفات من الغَيبة إلى الخِطابِ، للمواجهة بالتّوبيخ كما تقدَّم، والجامع بين القراءتين، هو أنَّ قراءة الخطاب مواجهة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 332.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 341، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 332.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 144، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

بالتّوبيخ، وقراءة الغَيبة تبكيتٌ بالإهمال، فاجتمع على الإنسان معنيا الذّمِّ.

### فائدة استعمال حرف النّفي ﴿لَّا﴾:

أفاد النّفي بحرف ﴿لَّا﴾ استمرارَ نفي إكرامِ المشركين لليتيم، واستمرارَ نفي التّحاضّ على إطعام المسكين، أي: هذا شأنُكم وحالكُم الدّائم، لا أنَّ له حالَين ومقامَين، إكرامًا وإهانة.

### نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تُكۡرِمُونَ﴾ للإشعار باستمرارِ نفي إكرامِ المشركين اليتيمَ وتجدّده حالًا فحالًا، ووقتًا فوقتًا، فكلّما استجدّت أسباب الإكرام تجدّد معها تركُ إكرامه.

### بلاغة الإيماء في نفي الإكرام عن الأمر بالإكرام:

توبيخُ تاركِ إكرامِ اليتيم أمرٌ بإكرامه وحضٌّ على إعانته

أفاد نفيُ إكرامِ المخاطَبين لليتيم في قوله تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ على سبيل التّوبيخ والتّشنيع، الأمرَ بإكرامِ اليتيم بأسلوب التّلميح والإيماء، والنّكتةُ في عدم التّصريح بالأمر هو بيانُ أحوالِهم التي هم عليها وتقبيحُها، والإيذانُ بأنَّ هذهِ الأحوالَ والأفعالَ تستحقُّ العذابَ، وإنّما أمر القرآنُ بإكرامِ اليتيم؛ لأنَّه مَظنَّة الحاجةِ، لفقدِ مَن يعيله، ولعادةِ النّاس لاسيّما القريبين من اليتامى في الاستيلاء على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائِهم الصّغار، وقد كانت الأموالُ في الجاهليَّة يتداولها رؤساءُ العائلات[1].

### بلاغة التّعبير بمفردة الإكرام دون النّفقة أو الإطعام:

الواجب هو إكرام اليتيم المتضمّن للإنفاق والإطعام وغيرهما

جاء التّعبيرُ بنفي الإكرام في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ دون نفي الإنفاق، كأن يُقال: (كلّا بل لا تنفقون على اليتيم)، مع أنَّ أحد مقاصد الإكرامِ الإنفاقُ؛ وذلك للإشعارِ بأنَّه مستحِقٌّ للإكرامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

من كلِّ وجهٍ[1]، فالإنفاقُ عليه بوصفِ إكرامِه لا بوصفِ عدمِ إهانتِه، كي لا يكون ذليلًا حين يُنفَق عليه، فكم من منفَقٍ عليه يرى ألوانًا من الذُّلِّ، كما أنَّه لم يقل: (كلّا بل لا تُطعمون اليتيم)؛ لأنَّ المقصود هو الإكرامُ كما تقرّر، والإطعام قد يكون مقترنًا بمَذَلَّة من يُطعَمُ، كما أنَّ اليتيم له وصفان: فإمّا أن يكون غنيًّا أو فقيرًا، فإن كان غنيًّا فيُكرمُ ليُتمِه ولا يُطعَمُ لغِناه، وإن كان فقيرًا فإنَّه يُكرَم ليتمِه ويُطعَمُ لفقره، فلمّا قال: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ على سبيل الإنكار؛ دلَّ على أنَّ اليتيم يُكرَم سواء أكان فقيرًا أم غنيًّا؛ فيختلف الإكرام ونوعه باختلاف الحالة التي يكون عليها اليتيم.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾، ولطيفةُ إفراده:

من أهان يتيمًا فكأنّما أهان اليتامى جميعًا

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ للجنسِ، ويقتضي استغراقَ الأفراد، فالمعنى: لا تُكرمون اليتامى، واليتيم هو الذي ماتَ أبوه، سواءٌ أكان ذكرًا أم أنثى، ولمّا كان ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ محمولًا على الجنس كان اللّفظ على معنى الجمعِ.

ولطيفةُ إيثار صيغة المفرد؛ فلم يقل: (بل لا تُكرمون اليتامى)، الإيماءُ إلى عدم إكرام اليتيم الواحد، فكيف بالجميع؟ وهي لطيفةٌ مأخوذةٌ من إفراد اللّفظ لا المعنى.

### توجيه تخصيص إكرام اليتيم بالذّكر:

خصَّ النّظمُ الكريم إكرامَ اليتيم بالذّكر، وذلك لأنّه أحقُّ بالمرحمة؛ فمن لم يرحمْه ولم يكرمه لم يُكرِم غيرَه بطريق الأولويّة[2].

### دلالة عطف نفي الحض على نفي الإكرام:

بيانُ شِدّةِ ابتعاد المشركين عن الفضائل

عطف النّظمُ الكريم نفيَ الحضّ على طعام المسكين في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، على نفي إكرام

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.

اليتيم؛ وذلك للإشارةِ إلى أنَّهم لم يكتفوا بعدم إكرام اليتيم، بل زادوا عليه ممّا هو أقلُّ كُلفةً عليهم، وهو عدم حضِّهم على طعامِ المسكين، فالتّرتيب من ذكرِ الأشدِّ إلى ما دونه، لبيانِ شِدّة ابتعادِهم عن الفضائل.

**بلاغة استعمال مفردة الحَضّ:**

الكشف عن عمقِ الامتناع عن فعل الخير بين الجاهليين

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ للإشعارِ بأنّه لِقلَّة الاكتراثِ بالمساكين لا ينفعونهم، ولو نفعَ وساطةٍ بأن يحضّوا غيرَهم على إطعامِهم، بلَهَ أن ينفعوهم بالبَذلِ من أموالِهم[1]، فكشفت المفردةُ عن عمق الامتناع عن فعل الخير في طبع أولئك المشركين، فهم لا يُطعمون فضلًا أن يحضّوا غيرهم على ذلك، خشيةَ أن يُؤمروا بالإطعام، فلا يأمر بالإطعام من لم يُطعم.

**نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾:**

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِ نفي حضِّهم على طعام المسكين وتجدّده بتجدّد أوقاتِهم وأحوالِهم، فحالُهم الدّائمةُ هي تَركُ الحضّ على الإطعام.

**دلالة التّعبير بصيغة التّفاعل ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾:**

التّكافل الاجتماعيّ أصلٌ في المجتمع القويم، وتَركُه تركٌ لركن الفضائل

أفاد التّعبيرُ بصيغة التّفاعل ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ على أنَّ المراد أن يَحُضَّ بعضُهم بعضًا على إطعامِ المسكين، ففيه إشارةٌ إلى التّكافل الذي ينبغي أن يكون في المجتمع، ولمّا كان ضمير الجمع الواو في ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ يدخل فيه جميعُ المخاطَبين؛ أفادَ أنَّ التّحاضَّ على سبيل العموم، بمعنى: لا تحاضّون أنفسَكم ولا غيرَكم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الحَثَّ على طعامِ المسكين يكون بحثِّ النَّفس على إطعامِه أوّلًا ثمّ بحثِّ الآخَرين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

## توجيه القراءات القرآنيّة:

فَقْدُ النّصيحةِ الاجتماعيّة في المجتمعات طريقُ خرابِها وسبيلُ دمارها

قرأ الكوفيّون وأبو جعفر ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها، وقرأه البقية بضم الحاء دون ألف: ﴿تَحُضُّونَ﴾، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بِخُلْفِ رَوْح: ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ و﴿يَحُضُّونَ﴾ و﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ و﴿وَيُحِبُّونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء[1]، ولكلٍّ قراءة وجه من المعنى، فقراءة ﴿يَحُضُّونَ﴾ لتعريف النّبيِّ ﷺ بدخائِل قلوبِهم وفضحِهم، وقراءة ﴿تَحُضُّونَ﴾ مِنْ حَضَّه على كذا، أي: أَغْراه به، ولمّا كان الفعل (تَحُضّونَ) متعدّيًا في أصلِه كان في الآية على معنى حذف المفعول؛ وذلك لإفادة العموم[2]، والتّقدير: ولا تحضّون أحدًا على طعامِ المسكين، أي: لا يحضّون أنفسَهم ولا أهلَهم على طعامِ المسكين فضلًا عن غيرِهم، ويحتمل أن يكون حذف المفعول لتنزيل الفعل منزلةَ اللّازم[3]، فعدم حضِّهم على طعامِ المسكين صارَ وصفًا لازمًا لهم، مبالغةً في ذمِّهم وتوبيخِهم. وقراءة ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ حُذِف منها إحدى التّاءين تخفيفًا، فأصل اللّفظ (تتحاضّون)، والمعنى: لا يحضُّ بعضُكم بعضًا؛ ففيه إشارةٌ إلى التّكافل بالأمر بالمعروف، ومجموع القراءات يتّفق على إقرار حقيقةٍ عجيبةٍ وهي الامتناع عن الأمر بالمعروف الاجتماعيّ، في سدِّ فقر الفقراء، وإشباعِ عَوَزِ المساكين.

## فائدة استعمال حرف الاستعلاء:

أفاد حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ إلى أنَّ الحضَّ على طعامِ المسكين إنّما يكون على جهةِ الحرص على إيصال الطّعام إليه.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 144، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 790.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 261، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 342.

**بلاغة التّعبير بلفظ ﴿طَعَامِ﴾ دون (إطعام):**

الظّاهر أن يكون التّعبير بالإطعام لا الطّعام، وذلك أنّه وبّخهم على عدم المحاضّة، والحضُّ بين النّاس يكون حضًّا على الإطعام، ونُكْتَة ذلك الإيجاز، بحذف المصدر وهو الإطعام وذِكر الطّعام، والتّقدير: ولا يحاضّون على إطعام المسكين فيُقدِّمون طعام المسكين، فذُكِرَ غيرُ المتبادَر في الظّاهر، وحُذِفَ المتبادر في الظّاهر، ليدلّ المذكور على المحذوف، وهذا تفصيل أمتن من إطلاق القول بأنَّه أراد من ﴿طَعَامِ﴾ اسم المصدر، مثل عطاءٍ بمعنى الإعطاء، فيكون بمعنى الإطعام، وصرَّح بالطّعام دون الإطعام؛ للإيماءِ إلى المأكول من الطّعام استعطافًا للمخاطَبين في الحثِّ على إيصالِ الطّعامِ إلى المسكين، فالطّعام هو النّتيجة، والإطعام هو المبدأ، فيكونُ قد قصد الأمرين باللّفظ الواحدِ، الإطعامَ وبذلَ الطّعام.

**براعة الإيجازِ في دلالة المذكور غير المتبادر على المحذوف المتبادر**

وذهب أبو حيّان إلى أنَّ الطّعام اسمٌ للمأكول وليس مصدرًا، وأنَّه بتقدير: ولا تحاضّون على بذل طعامِ المسكين[1]، فيَؤول المعنى إلى: ولا تحاضّون على إطعام المسكين ولا بذلِ طعامِه.

**معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، ولطيفةُ إفراده:**

(أل) في ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ للجنسِ، ويقتضي استغراقَ الأفراد، فيكون بمعنى المساكين، ونُكْتَة ذكر اللّفظ بصيغة الجنس دون أن يُقال: المساكين، الإشارة إلى شدّة بخلِهم وتهالكِهم على الدّنيا، وتكذيبِهم في ادّعائِهم البذلَ والكرم، فإنَّهم لا يحضّون على طعامِ مسكينٍ واحدٍ فضلًا عن المساكين، وهي لطيفة تتّجه إلى إفراد اللّفظ لا المعنى.

**إذا تمكّن الشُّحُّ من نحرِ قومٍ أهلكهم**

**نُكْتَة ذِكر ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ دون (الفقير):**

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ دونَ الفقير في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 475.

التّنبيه بالأوضح على الأخفى للمبالغة في توبيخ المخاطَبين

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ وذلك أنَّ الفقير وإن كان أشدَّ احتياجًا من المسكين، إلّا أنَّ معرفةَ المسكين من هِندامه وهيئته ومسكنته أوضحُ من مظهر الفقير، والمجتمع الذي لا يتحرّك لظاهر المسكنة، من باب أولى أن لا يتحرّك للسّؤال عن المستورين من الفقراء، فاختيارُ لفظ ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ دون (الفقير)؛ للتّنبيه بالأدنى على الأعلى؛ فيكون ذِكر المسكين للمبالغة في توبيخِهم.

### دلالة إضافة لفظ ﴿طَعَامِ﴾ إلى ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾:

تعيينُ معنى الإضافة إنّما يكون بتعيين المقصود بصيغة المضاف

إن كان لفظُ ﴿طَعَامِ﴾ بمعنى المطعوم، أي: المأكول، فالإضافة في قوله: ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ على معنى الاستحقاق، أي: لا تحضّون على الطّعام الذي يستحقُّه المسكين، ففي إضافة الطّعام إلى المسكين إشارةٌ إلى أنَّ في مالِ الغنيِّ نصيبًا مختصًّا بالمسكين، ففيه إيماءٌ إلى أنّه شريك للغنيّ في ماله بقدر الزَّكاة[1]. وإن كان لفظ ﴿طَعَامِ﴾ اسمَ مصدرٍ بمعنى الإطعام كانت الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعولِه[2]، والتّقدير: ولا تحضّون على إطعامِ بعضِكم بعضًا المسكينَ، أي: على أن يُطعِمَ الأغنياءُ المسكينَ.

### بلاغة فنِّ الاحتباك:

احتياج اليتيم للإكرام أشدّ من الطّعام، واحتياج المسكين إلى الطّعام أكثر من اليتيم

في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ احتباكٌ؛ لأنّه لمّا نُفِيَ إكرامُهم اليتيمَ، وقوبِلَ بنفي أن يحضوا على طعام المسكين، عُلِمَ أنّهم لا يحضّون على إكرام أيتامهم، أي: لا يحضون أولياءَ الأيتام على ذلك، وعُلِم أنّهم لا يطعمون المساكين من أموالهم[3]، والتّقدير: كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على إطعامه، ولا تكرمون المسكين ولا تحاضون على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

طعامه، ونُكْتَة ذِكر الإكرام في حقِّ اليتيم لاحتياجه إلى الإكرام أكثر من المسكين مع فقد الوالد أو الوالدين، ونُكْتَة ذِكر الحضّ على طعام المسكين لاحتياجه إلى الطّعام أكثرَ من الإكرام، فنبّه بالأهمّ في حقِّ كلٍّ منهما.

### براعة ترتيب المعطوفات بالذّكر:

اجتماع المعطوفات في بيان أنَّ القويَّ المُستبدّ يأكلُ حقوقَ الضّعيف

لمّا كان اليتيمُ والمسكينُ متّصفين بالضّعف؛ عطفَ عليهما ما هو من قبيلِهما فقال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، أي: وتأكلون ميراثَ الضّعفاء من النّساء والصّبيان ممّن لا يقدرون على المطالبة بحقِّهم ولا يستطيعون نيلَه، فإنَّ من يقول: لا يستحق المالَ إلا مَنْ يقاتلُ ويحمي الحَوزةَ؛ يأكل ميراثَ غيرِه من الضّعفاء، ففي عطف ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ إشارةٌ إلى اشتراكِ الثّلاثة في الضّعف، وأنَّ المخاطَبين المَذمومين بالخطابِ إنّما كانت لهم الأحوالُ القبيحة والأفعالُ المشينة لشِدّة بُخلِهم ولتَكبُّرهم وتوهّمهم أنَّهم قادرون على منعِ حقوقِ الضّعفاء عنهم.

### دلالة استعمال مفردة (تَأْكُلونَ):

لمّا كان لفظ ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ يتناول ما المأكول؛ ناسبَ التّعبيرُ عن أخذِ حقّ الضّعفاء بلفظ (تَأْكُلونَ)، للإشارة إلى قُبحِ فعلِهم وخساسة صنيعهم؛ فبدلَ إطعام الضّعفاء أكلوا حقوقهم.

### بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾:

الاستيلاءُ على حقوق الضّعفاء إذهابٌ له وتضييعٌ لا رجعة عنه

في قوله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ شُبِّه أخذُ مالِ الوارثين والاستيلاء عليه على جهة الانتفاع منه بالأكل، بجامع حُبِّه له على سبيل الشّهوة والرّغبة وعدمِ إرجاعِه إليهم، بحيثُ لا يبقى منه شيءٌ كما هو حال المأكول لا يبقى منه شيءٌ، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيَّة، ونُكْتَة الاستعارةِ الإيماءُ إلى أنَّ المأكول - وهو حقوق الضّعفاء - سيستقر في الأبدان، فرُجوعُه للضّعفاء مستحيلٌ، كما

أنَّ فيه تذكيرًا لمن يستولي على أموالِ الوارثين ونصيبِهم بأنَّ ما يأخذه زائلٌ ذاهب.

**نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾:**

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِ فعل القبيح بأخذ حقوق الضّعفاء، وتجدّدِ ذلك منهم كلّما وجدوا مهيعًا يسلكونه، مع تصوير قُبحِ واقعهم.

**معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾:**

(أل) في لفظ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ للجنسِ، وهو الميراث، وتحتمل أن تكون عِوضًا عن مضاف إليه محذوف، والتَّقدير: تأكلون تراثَ النّساء والصّبيان والأيتام[1].

**فائدة إيثار ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ على (المال):**

آثَر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ دون (المال)؛ وذلك لأنَّ التّراث مالٌ له صاحب، فهو أخصُّ من عموم المال؛ ففي إيثار ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ إشعارٌ بسطوة آكل الحقِّ على الورثة[2].

**دلالة المصدر ﴿أَكۡلٗا﴾:**

جاءَ المصدر ﴿أَكۡلٗا﴾ تأكيدًا للفعل ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ وتقريرًا له، وليكون تمهيدًا إلى بيان نوعِ أكلِهم للميراثِ الذي هو محلُّ الذّمِّ، فإنَّ الذمَّ إنّما وقع على القيد وهو صفة المصدر.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿لَّمّٗا﴾:**

تـصويـرُ شـدّةِ قُبحِ آكلِ التّراث فهو يأكلُ كلَّ ما يصله دون ترفُّعٍ

آثَر النّظمُ الكريم وصفَ الأكلِ بمفردة ﴿لَّمّٗا﴾، وهو منشأُ الذّمِّ ومناطُه؛ في كونهم يأكلون التّراث أكلًا شديدًا، بحيثُ يستوعب الميراثَ ويأتي به على آخرِه، فلا يُبقي منه للوارثين شيئًا، أي: فيأكل

(1) أبو حفص النسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 348، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 334.

أكلًا جامِعًا مالَ الوارثين إلى مالِ الآكلِ[1]، كما أشعرت المفردة أنَّه لَمَّه من هنا وهناك، وجمعَه ومنعَه عن الآخِرين، كما يُلَمُّ الشّيءُ من عرضِ الطّريق من غيرِ كَدٍّ ولا جُهدٍ، ولاحقَّ لآخِذه فيه، مع الدّلالة على حرصِه ونَهَمِه في الجمعِ، فيكون التّعبيرُ بمفردة اللّمِّ مُشْعِرًا بأنَّ الآكلَ اللَّمَّ هو الذي يأكلُ كلَّ شيءٍ يَجِدُه دونَ تورعٍ عن شيء.

### فائدة عطفِ حُبِّ المال على أكل التُّراث:

بيان عِلّة أكلِ التُّراثِ وهو الشّغف بالمال

لّما قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ عطفَ عليه ما يدلُّ على حرصِهم على اقتناء المال وجمعِه، فقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، ففي ذِكر المعطوف إشارةٌ إلى سبب أكلِهم لميراثِ غيرِهم، وهو حُبُّهمُ المالَ حبًّا جمًّا، فهم يُقدِّمون حُبَّ المالِ على نُصرة الضّعفاء، وإعانةِ المساكين، والحفاظِ على أموال الأيتام، وهو ما يُصوِّر أخلاقَهم الذّميمةَ، وصفاتِهم الرّذيلةَ، التي يَفخرون بها على المكارم والفضائل.

### نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتُحِبُّونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِهم على حبِّ المالِ وتجدّده لديهم، فهم يُحبون المال حبًّا فطريًّا ومُكتسبًا، فجعلوا الحُبّ الفطريّ طاغيًا على كلِّ فضيلة.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَالَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمَالَ﴾ للجنس، فيدخل فيه كلُّ ما يُتموَّل ويسمَّى مالًا، من الذهب والفضة والأنعام بأنواعها، فكلُّ ما يُنتفع به في تحصيل متاع الدنيا فهو مال.

### فائدة المصدر ﴿حُبّٗا﴾:

جاءَ المصدر ﴿حُبّٗا﴾ تأكيدًا للفعل (تُحِبّونَ)، وليكون تمهيدًا إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 334.

بيان نوعِ حبِّهم المالَ الذي هو محلُّ الذّمِّ ومنشؤه، فإنَّ التّوبيخ إنّما وقع على صفة المصدر.

### بلاغة استعمال مفردة الجَمِّ:

لّما كان الجَمُّ هو الشّيء الكثير المجتمعُ؛ أفادَ وصفُ حبِّهمُ المالَ بالجَمِّ في قولِه تعالى: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ الإشعارَ باجتماعِ كثرةِ حبِّهم له، ففيه معنى الحِرصِ والشّره والوَلَع في اقتناء المالِ واجتماعِه، ولمّا كان ﴿جَمًّا﴾ صفةً للمصدر ﴿حُبًّا﴾، دلَّ على تأكيدِ حبِّهم للمالِ وحِرصِهم عليه، واجتماعِ هذه المحبَّة عندهم، فكأنَّهم لا يُحبّون غيرَه، ولهذا كان حبُّهمُ المالَ حبًّا جمًّا هو منشأ التّوبيخ واللّوم والذّمِّ، فحُبُّ المالِ يدعو مُحبّيه لجَمعِه من شتاته ليَكْثُر، وهو مأخوذٌ من الجَمّة، وهي البئر التي قد جَمَّ ماؤُها بعد تنكيز، أي: قِلَّة[1]، وهذا شأنُ مُحبّي المالِ أنّهم يريدونه أن يكثر بعد قِلّة، وهو ما يدلّ على فقر النّفوس وقِلّة مالِها، فإذا تمكّنت من جمعه استطالت فأفسدت، وهو ما يكشف نفوسَ أولئك الفقراء في أخذ أموال الفقراء.

تصوير مُحبّي المالِ بأنّهم مسارعون إلى جمعه وتكثيره بعد قِلّته

### بلاغة الكناية ودلالتُها:

في قولِه تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كنايةٌ لطيفة؛ لأنَّ المقصود من وصفِهم بحبِّ المال أن يكون مع حرصٍ وشَرَهٍ، فيلزم منه اكتسابُه بالوسائل غيرِ الحقِّ، كالغصب والسّرقة والاختلاس وأكلِ الأمانات وأكلِ أموال اليتيم، وإلّا فمَحبَّةُ المالِ على وفقٍ شرعيٍّ غيرُ مذموم[2].

حبُّ المالِ ليس مذمومًا إلّا إذا خالفَ الشّرعَ وانتهكَ الحقوق

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الابتلاء والفتنة:

الابتلاء: هو الاختبار بالأمر الشّاقِّ، ويكون عامًّا، فقد يكون

---

(1) الخليل، العين: (جمّ).

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 262.

الابتلاء يشملُ كلَّ ما يختبر به اللّه الإنسانَ، والفتنةُ أخصُّ لارتباطها بخطر الانحرافِ

الابتلاء في الخيرِ وقد يكون في الشّرِّ؛ فيشملُ كلَّ ما يَختبِرُ به اللّه الإنسانَ، والمقصود منَ الابتلاء بيانُ حالِ المُبتلَى، ولمّا كان الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان أشعر بترتُّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العملِ.

وأمّا الفتنة: فهي أخصُّ من الابتلاء؛ لِما تتضمَّنُه من معنى الخوفِ والاضطرابِ، وترتبط بخطر السّقوط في الانحراف والهاوية والضّلال.

فيُعَبَّر بالابتلاء في سياقِ الاختبار بأمرٍ شاقٍّ، أو في سياق أمرٍ فيه خير، ويقصد منه الاجتهادُ في تحصيل الأفضل، ليكون ترتّبُ الجزاءِ مميِّزًا كلَّ فريقٍ بما استحقّه. وأمّا الفتنةُ فيُعَبَّر بها في معرضِ اختبار قوّةِ الصّبر والثّباتِ على الحقِّ. والتّخويف من الوقوع في الزّلل والخطرِ؛ ولهذا عبّر اللّه تعالى بالابتلاء دونَ الفتنة في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

**القَدْرُ والتّضييق:**

القَدْرُ وصفٌ لقلّة الشّيء، والضّيق يستعملُ في الضّرر

القَدْرُ: قِلَّة الشّيء، بحيثُ تتبيَّنُ كميَّته، فغايةُ الأمرِ في التّعبير بقوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أنّه لم يوسِّع عليه رزقَه، وأنَّه أعطاه بُلْغتَه وعلى قَدْرِه، وقد يوصف الكريمُ بقَدْرِ المالِ على إنسانٍ ما.

وأمّا التّضييق: فهو من الضّيق، وهو خِلافُ السّعة، ويستعمل في الفقر وسوء الحالِ والبُخل[1]، ويَلزَمُه الضّجر، وفيه معنى الضّرر، ولهذا عبّر عن الضَّرَرِ بالضّيقِ. وقيل: مكانٌ ذو ضَرَرٍ أي: ضيق[2]، ولا يعبَّر عن شيءٍ بالضّيق إلّا في سياق كراهته، سواء أكان في الضّيق الحِسّيّ الحقيقيّ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: 13]، أو في الضّيق المعنويّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ضيق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر).

المجازيّ كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التّوبة: 118]، وقولِه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: 77]، والتَضييقُ في الرّزق مذمومٌ لأنَّه يُفيد معنى البُخل، ولهذا لم يقلِ اللّه تعالى: فضَيَّقَ عليه رزقَه.

### الحَضُّ والحَثُّ:

الحَضُّ أقوى من الحَثِّ؛ فالحَضُّ هـو الـتّرغـيـب في فعلٍ بقصدِ إتيانِه مع إلحاحٍ

الحضُّ أقوى من الحَثِّ؛ لأنَّ الحَضَّ هو الاندفاع بقوّة. وأمّا الحثُّ: فهو الإعْجالُ في اتِّصالٍ، فإذا كان التّرغيب في فعلٍ بقصدِ إتيانِه من غير إلحاحٍ قيل: حثَّه، وإذا كان مع إلحاحٍ، قيل: حضَّه، فالحضّ هو التّرغيب في فعلٍ مع إلحاح وشِدّة رغبةٍ في حصولِه.

وفرّق الخليلُ بين الحضِّ والحثِّ، فرأى أنَّ الحَثَّ يُستعمل في السّير والسَّوق، فيقال حثَّه على السّير إلى مكّة، وأمّا الحَضُّ فلا يكون في سَيرٍ وسوقٍ[1]، فيقال: حضَّه على فعلِ الخيرِ وحضَّه على إطعامِ المسكين. ولا يقال: حثَّه على إطعامِ المسكين.

### الجَمُّ والكثير:

الجمُّ هو الكثير المجتَمِع، والكثير وفرةُ الشّيء دونَ شرط الاجتماع

الجَمُّ: هو الشّيء الكثير المجتمع[2]. والكثير: يُعبّر به عن وفرة الشّيء وزيادتِه دون معنى الاجتماع، فقد يكون الشّيء كثيرًا غير مجتمع[3].

ووصفُ حبِّ المالِ بالجَمِّ دونَ الكثير في قولِه: ﴿حُبّٗا جَمّٗا﴾ أفادَ اجتماعَ حبِّه الكثيرِ للمالِ، وحبِّهِ لاجتماعِ المالِ الكثير.

كما أنَّه لمّا كانت الكثرة لا تكون إلّا ما فيه عدد، والجَمُّ يكون في الكَمِّ - أي: العدد - وفي الكَيفِ؛ أفاد أنَّ حُبَّه الجَمَّ للمالِ في كثرة عدده وفي نفاسة نوعِه.

فالتّعبير بالجمِّ في سياق ذمِّ حبِّ المال أبلغُ من أن يقال: وتحبّون المالَ حبًّا كثيرًا.

(1) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 2/ 462.

(2) الرّاغب، المفردات: (جمَّ).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 253.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا
صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر: 21 - 26]

### مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من بيان الصّفات إلى ذِكر أسبابها

لمّا كانتِ الآياتُ السّابقة في بيان حِرص الإنسان على الدنّيا، في جمع الخير الكثير، والمالِ الوفير، بما يَتجاوزُ بسببه الفضائلَ، ويتركُ لأجله المحاسنَ؛ ناسبَ الانتقالُ إلى ما فيه ردعٌ لتلك العقول الضّعيفة، والنّفوسِ المريضة، بما يُحرِّكها تِجاهَ الأمرِ المحتوم، والنّهايةِ المقطوعِ بها، فهو انتقالٌ من بيان صفاتهم التي هُم عليها، إلى بيان سببِ هذه الصّفات، وغيابِ حقيقة الوعيد بعذاب الآخرةِ عن أذهانهم.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُكَّتِ﴾: يدور معنى الدّكِّ على التّطامن والانسطاح[1]، والدّكُّ: الكسرُ والدّقُّ وحَطُّ المرتفعِ من الأرضِ وتكسيره بالبسطِ، والأرضُ الدّكاءُ: هي الأرضُ العريضةُ المستوية[2]. واندكَّ سنامُ البعير إذا انفرشَ في ظهره، وناقَةٌ دَكّاء: إذا ذهَب سَنامُها، تشبيهًا بالأرض الدّكّاء المستوية[3]، والأرض إذا دُكَّتْ استوت في الانفراش، فذهبت دوْرُها وقُصورُها، وسائرُ أبنيتِها حتّى تصيرَ كالصّخرة المَلساء[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دكك).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دكك).
(3) الرّاغب، المفردات: (دك).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 517.

2) ﴿يُوثِقُ﴾: يدور معنى (وَثِقَ) على عقدٍ وإحكام[1]، والوثيق: الشّيءُ المُحْكَم، ووَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وأَوْثَقْتُهُ: شدَدتُّه[2]، والوِثاقُ أو الوَثاق: الحَبلُ أو الشَّيءُ الذي يوثَقُ به[3]. والوَثاقُ: الشَّدّ والرَّبط بالسّلاسِل.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكرُ أهوالِ القيامةِ تذكيرٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ أهوالَ الآخرة، بذِكر نَدَم المُسيئين على أفعالهم السّيّئة في الدّنيا، وتَلهُّفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعُهمُ النّدمُ، فتبدأ بأداة الزّجر ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما ينبغي أن يكون هذا حالُكم، فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّه إذا دُكَّت الأرضُ يومَ القيامةِ وزُلْزِلت مرَّةً بعدَ مرَّة، وصارت أرضًا مستويَةً، وجاء ربُّك - يا محمَّدُ - إلى المحشَرِ للفَصلِ بيْن عبادِه، وجاءت الملائِكةُ مصطفين صَفًّا بعدَ صَفٍّ، وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ؛ يَومَئذٍ يتذكّر الإنسانُ تفريطَه في أعمالِه في الدّنيا وسعيَه فيها، فلا تَنفعُه ذِكراه ولا نَدمُه ولا توبتُه، يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في حياتي في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ لحياتي في الآخِرةِ التي لا موتَ فيها، فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللّه في الآخِرةِ، ولا يوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وثاقِ اللّه في الآخِرةِ لأهلِ النّارِ[4].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة استعمالِ أداة ﴿كَلَّآ﴾:

الرّدعُ بالقولِ وسيلةٌ من وسائلِ الزّجرِ عن فعلِ القبائح

﴿كَلَّآ﴾ كلمةُ ردعٍ للكافرين عن أحوالِهمُ التي هم عليها، وزَجْرٍ لأفعالِهم القَبيحة، ويتولَّد منها إنكارُ ما هم عليه من الأفعال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (وثق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وثق).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 416 - 422، والبغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 252.

القبيحة، وهي عدم إكرامِهمُ اليتيمَ وعدمُ حضّهم على طعام المسكين، وأكلُهمُ التّراثَ الذي هو مالُ غيرِ آكلِه، وحُبُّهمُ المالَ حبًّا جمًّا، أي: لا ينبغي أن يكون الأمرُ كذلك في حِرصِكم على الدّنيا، وقَصْرِ همّتكم على تحصيلها، وجَمْعِها من حيث تهيَّأ من حلالٍ أو حرام، وتَوهُّم أن لا حساب ولا جزاءَ.

## نُكْتَةُ تكرارِ أداةِ الرّدع:

الــــرَّدْعُ عــن المــعــتــقــدات الباطلة يُلحق بـــالـــرّدع عن الأفعال القبيحة

لمّا كانت ﴿كَلَّاۖ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ متعلّقةً بردعِهم على جَعْلِهم إكرامَ اللّه تعالى لهم دليلًا على قُرْبِهم من اللّه، وأنَّ لهم حظوةً عنده، وجعلِهم قَدْرَ اللّه رزقَه عليهم دليلًا على إرادة إهانتِهم، فمناطُ الرّدع جعلُ الإنعام علامةً على إرادةِ اللّه إكرامَ المنعَم عليه، وجَعْلُ التّقتيرِ علامةً على إرادةِ الإهانة، ثمَّ ذَكَر أحوالَهم وأفعالَهم القبيحة التي لا يستحقّون بها الكرامةَ، جاءت ﴿كَلَّآ﴾ الثّانية في قولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ لردعِهم عن أفعالِهم القبيحة، والإنكارِ على واقعِهم الذي هم عليه، وللإيذانِ بوجوبِ تَرْكِهم مثلَ هذه الأفعالِ وانتهائِهم عنها، فأداةُ ﴿كَلَّاۖ﴾ الأولى للرّدع عمّا اعتقدوه، والثّانية للرّدع عن أفعالِهم القبيحة.

## بلاغة جملة الاستئناف بعد أداة الرّدع:

تـعـلـيـل ردعِ الـكـافـريـن عن أفعالهم بذِكر التّهديد بوعيد الآخرة

جاءت جملة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ وما بعدها مع عاملِها في قولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ استئنافًا بطريق الوعيد، وتقدير الكلام: يتذكَّرُ الإنسانُ وأنّى له الذّكرى إذا دكّت الأرضُ دكًّا، وجاء ربُّك والملك صفًّا صفًّا. وهو استئناف ابتدائيٌّ انتُقِلَ به من تهديدهم بعذاب الدّنيا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ إلى الوعيد بعذاب الآخرة، أي: إن أُخِّرَ عنهم عذابُ الدّنيا فإنَّ عذابًا ينتظرُهم ولا مفرَّ لهم منه يوم القيامةِ، والمقصود من الوعيد إنذارهم بأنّهم

يحين لهم يومٌ يتذكّرون فيه أفعالَهم القبيحةَ ويفيقون من غفلتِهم حين لا ينتفعون من تذكّرهم ولا من إفاقتِهم[1].

والاستئناف الابتدائيّ فيه معنى التّعليل للرّدع[2]، بمعنى أنَّهم إن لم ينتهوا عن هذه الأفعال فإنَّ العذابَ ينتظرهم ولا محيصَ لهم عنه. وفيه كذلك إنذارٌ لهم بأنَّه سيحينُ لهم يومٌ قريبٌ يفيقون فيه من غفلتِهم ويندمون حينَ لا تنفَعُ الإفاقةُ ولا ينفع النّدم.

**دلالة استعمال الظّرف ﴿إِذَا﴾:**

احتمال (إذا) الظّرفيّة المحضة أو الظّرفيّة المضمّنة معنى الشّرط

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ظرفُ زمانٍ وليست شرطيَّة[3]، وعبّر بها للدّلالة على أنَّ ما يذكر بعدها واقعٌ لامحالة مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [اللّيل: 1 - 2] ونظائرُه، ولِأنَّ ظرف الزّمان ﴿إِذَا﴾ يستعمل في الدّلالة على زمنٍ فيه تعظيم وتفخيم بما يقع فيه من عظائم الأمور في المستقبل، والمقصود التّذكير بما يقع من أحداثٍ عظام يوم القيامة والاستعداد لها قبل أن لا ينفع التّذكّر.

وتحتمل أن تكون ﴿إِذَا﴾ ظرفيَّةً مضمّنة معنى الشّرط، وجوابُها ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والتّقدير: يومَ إذا دُكّت الأرض دكًا دكًا، ويوم إذ جاء ربّك والملكُ صفًا صفًا، ويوم إذ جيء بجهنّم يتذكّر الإنسانُ أعمالَه التي عملها في الدّنيا[4]، ولا نفعَ له من تذكّره. ونُكْتة مجيء ﴿إِذَا﴾ حينَئِذ دونَ (إن) هو لتضمّن ﴿إِذَا﴾ معنى الظّرفيّة المناسبِ لسياق الكلام، في الدّلالة على هول ذلك الزّمان بهول ما يقع فيه من أحداث، وللإيذانِ بالقطع في وقوع الشّرط وهو دكُّ الأرضِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 335.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 157.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 264، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 475.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 436.

### دلالة تقديم الظّرف:

البَدء بالظّرفِ تفخيمٌ لما بعدَه بتشويق المخاطَب إلى سماعه

تعلَّق الظّرفُ بفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، بتقدير: يتذكّر الإنسانُ وأنَّى له الذّكرى إذا دكَّتِ الأرضُ دكًّا، وتقديمُ الظّرف ﴿إِذَا﴾ للاهتمام والعناية بالمقدَّم، لِما في الجمل المقدَّمة من ذِكر الأحداث العِظام، مع ما في الإطناب من التّشويق ليحصلَ الإجمالُ ثمَّ التّفصيل[1].

### نُكتةُ استعمالِ مفردة ﴿دُكَّتِ﴾:

تصوير مشهد تفتيت الأرض وتفريقها إشارةً إلى غفلة من يحرص على جمعها

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الدّكِّ في قوله تعالى: ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ لأنَّ الدّكَّ هو حطُّ المرتفع عن الأرض، ودَقُّه دقًّا شديدًا بحيثُ يَكسِرُ الشَّيءَ المَدقوقَ ويُفتِّتُه، فأفهمت المفردةُ تكسيرَ كلِّ ما على الأرضِ وتحطيمَه بحيثُ يكون ما عليها مدقوقًا مفتّتًا، فلا يبقى شيءٌ على الأرضِ مرتفعًا؛ فتكون الأرض مستويةً، والمقصود هدمُ كلِّ ما عليها بالكليَّة بطريق الدّكِّ والتّفتيت حتَّى تكون مستويةً، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤﴾ [الحاقّة: 14] والتّعبير بالدّكِّ في سياق الوعيد أبلغُ من غيره لِما يشعر به اللّفظ من الحطم والتّكسير والتّفتيت المناسبِ لتهويل ذلك اليوم.

كما يُناسب استعمالَ مفردة الدّكِّ الإشارةُ الى أنَّ ما بين أيدي المشركين من متاع الحياة الدّنيا بقصدِ التّفاخر والتّباهي سيتحوَّل إلى حطام مُستوٍ في الأرضِ، والذي هذا حالُه لا يستحقّ الحُبّ الجَمَّ، ولا جمعَ الغَمِّ، بل هي الآخرة دار القرار.

### غرض بناء فعل ﴿دُكَّتِ﴾ للمفعول:

بيانُ الحَدَث وتسليطُ الأنظار صَوبَه

جاء التّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول ﴿دُكَّتِ﴾ لما أنَّ المقصود بيانُ الحَدَث وتسليطُ الأنظار صَوبَه، لا ذِكرُ مَن أوقعَه، وهي طريقة القرآن من مثل: ﴿رُجَّتِ﴾ [الواقعة: 4]، و﴿وَبُسَّتِ﴾ [الواقعة: 5]، و﴿نُفِخَ﴾ [الحاقّة: 13].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 338.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ عهديَّة، وهي هذه الأرض التي يعيش النّاس عليها، فسيقع فعلُ الدّكّ عليها جميعِها، فلا يسلم منه شيءٌ.

### فائدة تكرار لفظ ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾، واحتمالاتُها الدّلاليّة:

من أساليب العرب أنّها تُكَرِّرُ اللّفظَ مَرّتَين، فتستوعبُ تفصيلَ جميعِ جنسه

تكرارُ لفظَي ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ يحتمل النّصب على الحالِ بمجموع اللّفظين[1]، وذلك للدّلالة على استيعاب الدّكِّ لجميع ما على الأرضِ، فلا يُقصَدُ بالدّكّ الثّاني العَدُّ ولا التّأكيدُ، والعرب تُكرِّرُ اللّفظَ مرتين، فتستوعبُ تفصيلَ جميعِ جنسِه باعتبار المعنى الذي دلَّ عليه اللّفظ المُكرَّر، نظيرَ قولِهم: بيّنت له الكتابَ بابًا بابًا، أي: مستوعِبًا كلَّ تفاصيله. فالمُراد من مجيء ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ بصيغة التَّكرير بيانُ استمرارِ الدّكِّ وتتابعِه واستيعابِه، والمعنى: إذا دُكّتِ الأرضُ دكًّا متتابعًا واستمرَّ حتّى انكسر ودُقَّ كلُّ ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور وغيرها، وسويّت الجبالُ والتّلال بالأرضِ، فصارت قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتًا[2].

ويحتمل أن يكون مجموع المصدرين ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ في تأويل مفردٍ منصوب على المفعول المطلق المبيّن لنَوعِه، أي: دكّ من نوع الذي يعقب بعضُه بعضًا[3]، وهو قريب من معنى توجيه ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ على الحال.

ويحتمل أن يكون ﴿دَكّٗا﴾ الأوّل مصدرًا مؤكِّدًا لعاملِه، أي: للفعلِ ﴿دُكَّتِ﴾، و﴿دَكّٗا﴾ الثّاني تأكيد للأوّل[4]. وسبب ورود

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 475، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 791.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 751، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 336.
(4) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 349، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 791، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 229.

التّأكيد هو أنَّه لمّا كان دَكُّ الأرضِ أمرًا خارقًا للعادةِ، وكان المقام مقتضيًا تحقيقَ وقوعِه وتقريرَه ونفيَ أن يكون على سبيل المجاز أو المبالغة؛ أكَّد الفعلَ فقال: ﴿دَكًّا﴾ ثمَّ كرّره بلفظ ﴿دَكًّا﴾ الثّاني؛ لتأكيد الدّكِّ وتقريرِه، فالغرضُ من ورود التّأكيد بالمصدر رفعُ احتمال المجاز، بمعنى أنَّه دكٌّ حقيقيٌّ، فـ﴿دَكًّا﴾ الثّاني منصوب على التّأكيد اللّفظيّ للمصدرِ ﴿دَكًّا﴾ الأوّل؛ لزيادة تحقيق إرادة الدّكّ الحقيقي وتقريرِه في نفوس المخاطَبين، لأنَّ دكَّ الأرضِ كلِّها وتسويتها أمر عظيم عجيب، فلِغرابته وعِظَمِه وهَولِه اقتضى إثباتُه بطريق التّأكيد، والوجه الأوّل أوفى بحقِّ البلاغة؛ فإنَّ التّأكيد ورفعَ المجاز حاصلٌ بـ﴿دَكًّا﴾ الأوّل[1]، وأيًّا ما كان فالدّكُّ المذكور هو عبارة عمّا يُعرَضُ للأرضِ عند النّفخة الثّانية.

### بلاغة إسناد المجيء إلى لفظ الرّبوبيّة:

تعظيم شأنِ القيامةِ بظهور آياتِ الله تعالى القاهرةِ لخَلْقِه

إسناد المجيء إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يحتمل أن يكون على طريق الاستعارة التّمثيليَّة، فشَبَّه ما يظهر من آياتِ قدرتِه سبحانه وآثارِ قَهْرِه لخَلْقِه جميعًا في ذلك اليوم، بما يظهر عند مجيء السّلطان القاهر وحضورِه مع وزرائِه وجنودِه، فذكر ما هو مستعمَل في الهيئة المُشَبَّه بها، وأُريدَ الهيئة المشبَّهة توضيحًا للمعقول بالمحسوس؛ تقريبًا للأمر إلى أذهانِ المخاطَبين[2].

أو يكون على الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة بتشبيه ابتداءِ حساب اللّه تعالى للعبادِ بمجيئه.

ويحتمل أن يكون الإسنادُ على طريق المجاز العقليِّ، أي: جاء قضاءُ ربِّك أو جاء أمرُ ربِّك، أي: لفصلِ القضاء بين الخلقِ بالحساب.

وهذه الآية من آيات الصّفات التي سكتَ عنها وعن مثلها كثيرٌ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 337.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 157.

العلماء، وأجْرَوها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، وقالوا: يلزمنا الإيمانُ بها وإجراؤها على ظاهرها.

### بلاغة التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

تشريف النّبيّ وتعظيمه بإعطائه الوظيفة العظمى في اليوم الجليل

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بعنوان الرّبوبيّة في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ المضافِ إلى ضمير الخطاب، والمقصودُ به سيّدنا محمّد ﷺ؛ للإشعار بظهور إحسانِ اللّه تعالى وكرمِه على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ في ذلك الموقفِ المَهول الرّهيب، ففيه تخصيصٌ لنبيِّه ﷺ بإحسانِه ولطفِه وظهور كرامتِه عند ربِّه.

### نوع الواو ودلالتُها:

مجيء الملائكة يوم القيامة بمعنى إتيانِهم وحضورِهم على الحقيقة

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ عطفت (المَلَكُ) على ﴿رَبُّكَ﴾، فيكون الفعل (جاءَ) متعلِّقًا بالمعطوف والمعطوف عليه على تقدير تكرار العامل، كما هو شأنُ عطفِ المفردات، وتقدير الكلامِ: وجاءَ ربُّك وجاء الملك، ومجيءُ المَلَكِ على معنى إتيانِهم، أي: يكون على حقيقتِه، ولا استعارةَ فيه ولا مجازَ، فيكون (جاءَ) قدِ اعتُبِر فيه المجازُ في الإسناد الأوّل، والحقيقةُ في الإسناد الثّاني عند ذكر المعطوف، ويُحتمل أن يكون المرادُ من مجيء المَلَكِ حضورَهم جميعًا، فيكون من المجاز كذلك.

### معنى تعريف لفظ (المَلَكُ):

اللّفظُ يعمُّ جميعَ الملائكة

لفظ (المَلَكُ) اسم جنسٍ، و(أل) فيه للجنسِ؛ لتفيد الاستغراق، فيعمُّ اللّفظُ جميعَ الملائكة، واختير المُفردُ دون أن يقال: وجاء ربُّك والملائكة؛ لأنَّ استغراقَ المفرد أشمل[1]، كما أنَّ التّعبير باسم الجنس المُذكّر مناسبٌ لمقام الهيبة والرّهبة.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 263.

**دلالة تركيب ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾:**

مجيء الملائكة مصطفّين مرتّبين فيه إشعارٌ بالاستعداد والهيبة والتّرقّب

تركيب ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ حالٌ، قُصِد به أنَّ الملائكة يجيئون على حالِ كونِهم مصطفّين صفًا بعدَ صفٍّ، أو صفًّا خلفَ صفٍّ على حسبِ مراتبِهم ومقامِهم، فلكلّ صفٍّ منهم مكانٌ معلوم[1]. ولو قيل: والملك صفًّا، من غير تكرار لكان التّقدير: وجاء المَلَكُ ذوي صفٍّ، ولأفادَ أنَّهم يَجيئون جميعُهم صفًّا واحدًا، فلمّا كرّر وقال: ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ أفاد أنَّهم يجيئون مصطفّين صفًّا بعد صفٍّ، فجميعُ الملائكة يجيئون في حالةِ اصطفافٍ مرتَّبٍ. ففيه تصوير لحالة الاستعداد والهيبة والتّرقّب. وفي مجيء الحال من قوله: (المَلَكُ) دلالةٌ على جوازِ إتيانِ الحالِ من المعطوفِ فقط دونَ المعطوف عليه.

**نوع الواو ودلالتُها:**

الواو في قولِه ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ﴾ عاطفة للجملة على ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، فتكون ﴿إِذَا﴾ داخلةً في حيّز المعطوف كذلك، والتّقدير: وإذا جيء يومَئِذٍ بجهنَّم.

**نُكْتَة تنوّعِ صيغة فعلِ المَجيء بتنوّع الإسناد:**

إظهارُ عِظَم الموقفِ وتفخيمُ المشهد يزرع في قلوب العباد الهيبةَ والرّهبة

تنوّع التّعبير بفعل المَجيء بتنوّع الإسناد، فقد ورد بصيغة الفعل المبنيّ للفاعل عند إسناده إلى الله تعالى وإلى المَلَكِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾، وورد بصيغة المبنيّ للمفعول في قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾، والسّبب هو أنَّه عند ذِكر المَلَك الواحد الأحد وذِكر جنودِه عبّر بإسناد المجيء إليه؛ لتفخيم الموقف وتعظيم المشهد، ولمّا ذَكر جهنَّم عبّر بصيغة المبني للمفعول إشعارًا بأنَّها لا تنتقل بنفسِها، بل ينقلها ناقلٌ ويجيء بها جاءٍ، فتُجَرُّ، فهي تأتمر بأمر آمرِها، كما أنَّ النّظم جرى على عادتِه في التّعبير بصيغة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 157، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 337.

المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾؛ ترهيبًا وتخويفًا للمخاطَبين ليكون تركيزهم على الحَدَثِ دون الفاعل له، واشترك الفعلان في تعظيم الموقف وتفخيم المشهد.

### دلالة إضافة يوم للظّرف:

أُضيف ظرفُ الزّمان (يَوۡمَ) إلى اسم الزّمان (إذۡ) في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذِ﴾؛ ليكون ظرفًا للفعل (جيءَ)؛ لزيادة تقرير تهويل الموقفِ في ذلك الزّمان، وللإشعارِ بعظَم ما يقع فيه.

### دلالة تنوين العِوض:

تنوين العِوض في المضاف إليه من قولِه: ﴿يَوۡمَئِذِ﴾ هو عوض عن جملةٍ مقدّرةٍ تعود إلى ما قبله، والتّقدير: وجيء يوم إذ جاء ربُّك والملك صفًّا صفًّا بجهنَّم.

### نوع الباء ودلالتُها:

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِجَهَنَّمَۚ﴾ للإلصاق، للدّلالة على مُكنة من يجيء بها وعدمِ تفلّتها منه، وهو ما يدلُّ على عظيم شأن مَن يجيء بجهنّم في ذلك الموقف العظيم.

### نُكْتَة التّعبيرِ بلفظ (جَهَنَّم):

(جَـهَـنَّـمَ) اسم علَمٍ على النّار، وهي نارٌ عظيمةٌ سحيقة عميقة مظلمةٌ

جاء التّعبير بلفظ (جَهَنَّمَ) وهو اسم علَم على النّار التي تكون يوم القيامة؛ لبيان عظَم العذاب الذي ينتظرهم، فذِكر (جَهَنَّمَ) المأخوذةِ من الجَهْمَةِ، أي: الظُّلمةُ والسَّوادُ؛ للدّلالةِ على أنَّها نارٌ بعيدة القعرِ عميقة جدًّا، وكلُّها سوادٌ وظلمةٌ، ويحتمل أنَّها مأخوذةٌ من الجُهومة بمعنى الغِلظة؛ للإيذان بغِلَظ أمرِها في العذاب[1]، ولا يمتنع الجمع بين هذه المعاني، فعُمْقُها سحيق، وعذابُها غليظ، وكلُّها سواد وظلمة.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/ 132، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهم).

### نُكْتَة ذِكرِ (جَهَنَّمَ) دون (النّار):

التّصريح بالمجيء بجهنّم كلِّها لا بعضِها وهو النّار

لمّا كان السّياق في مقام وعيد الكافرين المتهافتين على الدّنيا ونعيمها، ناسبَ التّعبيرُ بلفظ اسم العلَم الدّالِّ على نار يوم القيامة (جَهَنَّمَ)؛ للإشارة إلى أنّها إذا جيء بها يعرفونها، ولأنَّ التّعبير بـ(جَهَنَّمَ)؛ هو الذي عبّر به في سياق ذكر الوعيد، فقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾ [يس: 63]، ولو قال: (النّار) لتبادر إلى الذّهن أنّه سيُؤتى ببعض جهنّم، وهو النّار، وهو ما قد يتعارض مع سياق التّهويل والتّفخيم، فأتى بالاسم العَلَم لبيان أنّه يُجاء بها، وهو ما يُقوّي القولَ بالحقيقة.

### توجيه إعراب ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، ودلالتُه:

يتعيّن نوع البدلِ بتضمين الشّرط في (إذا) الظّرفيّة من عدمه

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ بدلُ الكلِّ من ظرف الزّمان ﴿إِذَا﴾[1]، وفائدةُ مجيء البدل بإعادةِ ما هو بمعنى ﴿إِذَا﴾ كمالُ تقريرِ الأمرِ، وفَرطُ الإيضاح والبيان، ولزيادة الرّبط مع طول الفصل بالجملة التي أُضيف إليها ﴿إِذَا﴾[2]. وهذا التّوجيه هو على القول الرّاجح في أن تكون ﴿إِذَا﴾ ظرفيَّةً مجرّدة من معنى الشّرط، وعاملُها الفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وعلى القول بأنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرفيَّةٌ مضمّنة معنى الشّرط وجوابُها ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، يكون ظرفُ الزّمان (يَوۡمَ) في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدلَ اشتمال من ﴿إِذَا﴾.

### بلاغة الكناية في لفظ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

تَذَكُّرُ الكافرِ يومَ القيامة أعمالَه كنايةٌ عن شديد النّدم وعظيمِ الألم

لمّا كان التَّذكّرُ المذكور في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ حاصلًا إذا دكّت الأرضُ دكًّا، وجاء ربُّك والمَلَكُ صفًّا صفًّا، وفي وقت مجيء جهنَّم ورؤيتِها حقيقةً، كان تذكّر الإنسان لطُغيانِه وعصيانِه على معنى الاتّعاظ، ليلزمَ منه تلهّفُه على ما فرَّط في جنب اللّه من

(1) العكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1286.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 338.

التَّقصير في حقوقه، ودلَّت مفردةُ التّذكّر على استحضار ما كان في سابق الأوان، كأنّما تُعرض مشاهدُه في ناظري الإنسان، فهي كناية عن شديد النّدم وعظيمِ الألم.

**نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع:**

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ لتصوير مشهد النّدم والحسرة، في تجدُّد التّذكر ساعةً تِلو أخرى، حتى يُصبح التّذكُّرُ عذابًا بين يدي العذاب.

**بلاغة العدول عن الخطاب إلى الغَيبة بذِكر الإنسان:**

مناسبة لفظ الإنسان المأخوذ من كثرة النّسيان لمعنى التّذكّر

لمّا كانت جملة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ استئنافيَّةً مضمّنةً معنى التّعليل لِما قبلها، ناسبَ العدولُ عن الخطابِ، فلم يقل: (يومئذٍ تتذكّرون)، والعودُ إلى ذِكر الإنسان بمجيء اللّفظ بصيغة العموم؛ فيكون المعنى عامًّا؛ ليشملَ اللّفظ كلَّ إنسانٍ كافرٍ، ويدخلَ فيه الكفّارُ المخاطبون بجملة ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ وما بعدَها دخولًا أوّليًّا، ونُكْتَةُ العَوْدِ إلى ذِكر الإنسان بالغَيبة زيادةُ التّحسير، وربطُ الأمرِ بالإنسان من حيثُ هو إنسان، ولمناسبةٍ بديعة وهي أنَّ من توجيهات تسمية الإنسان بالإنسان كثرةَ النّسيان، فكان ذِكرُ التّذكُّر لمن أكثر من النّسيان مناسبًا أشدَّ المناسبةِ في سياق النّدم والحَسْرة.

**معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:**

إذا تباعدت الألفاظُ حَسُنَ الإظهارُ ودلَّ على براعة المعنى

(أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للعهد، فيكون المقصودُ به هو المذكور في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وهو الإنسانُ الكافرُ، فهو إظهارٌ في مقام الإضمار، وسببُ العدول إلى الإظهار هو بُعدُ معادِ الضّمير[1]، وليكونَ اللّفظُ على معنى العموم؛ ليَشملَ كلَّ إنسانٍ يفعل هذه الأفعالَ القبيحة ويُؤْثِرُ الحياة الدّنيا على الآخرة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 338.

احتمال الواو للحاليّة والاعتراض تورِّث قوّةَ النّدم على ترك العمل

## نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ﴾ حاليَّةٌ، فتكون جملة (أَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) حالًا من الفاعل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ولمّا كان الحال على معنى اقترانِه بصاحبه وكان بمعنى (في)؛ أفاد أنَّ المعنى: يومئذٍ يتذكّر الإنسانُ والحالُ المصاحِبُ له والذي لا يفارقه هو من أين له أن تنفعه الذّكرى؟ فالمراد أنَّ الإنسان في حالِ تذكّره يعلم أنَّ تذكّره لا ينفعُه، فلا يفرح بتذكّره ولا يرجو شيئًا، بل هو في حسرةٍ وندامة في حالِ تذكّره، كما تحتمل الواو أن تكون استئنافيَّةً وجملة (أَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) اعتراضيَّةً بين جملة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وجملة ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وجيء بالاعتراضِ لتحقيقِ أنَّه ليسَ يتذكرُ حقيقةً لخُلوِّه من الفائدة وعَرائِه عن الجَدوى بسبب عدمِ وقوعِه في أوانه ووقتِه[1]، والمعنيان متقاربان في توريث النّدامة.

التّذكّر المُثْبَتُ هو ما يخطر في الأذهان، والمنفي هو منفعة التّذكُّر

## بلاغة الاستفهام وغرضُه في نفي التّذكّر بعد إثباته:

جاء الاستفهامُ بأداة (أَنَّى) المفيدةِ نفيَ التّذكر، بعد إثبات التّذكر في قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ وذلك أنّها لا تنفي التّذكرَ، بل تنفي فائدتَه، فهو تذكُّر الحسرةِ والنّدم، لا تذكُّر الاعتبارِ والاتّعاظِ والبُعدِ عن الخطأ، ولهذا جاء النّفيُ بطريق الإنكار بصيغة اسم الاستفهام (أَنَّى)، أي: من أين له الذّكرى وكيف له ذلك؟ للإشارة إلى استحالة حصول الانتفاع من الذّكرى، فالمنفيُّ هو المنفعة، والمُثبتُ هو التّذكّر الظّاهريّ، والقرينة هو أنَّ الذّكرى جاءت بعد فوات أوانها، فلا منافاةَ بين إثبات التّذكّر ونفيه؛ لأنَّ المعنى: يوجد من الإنسان صورةُ التّذكّر، ولكنَّ هذا التّذكّر في حُكم العَدَمِ لفقد نفعِه[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 158، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 378.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 265، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 264.

### نوع اللّام ودلالتُها:

لام الأجل والعاقبة تفيد ترتّبَ ما بعدها على ما قبلها

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ للأجل، أي: وأنّى لأجله يكون التّذكُّر، أو أنى تكون عاقبةُ التّذكّر نافعةً، ولذلك سمّاها بعضُهم بأنّها لام النّفع[1]، وهي العاقبة والأجل، أي: مقتضى الأجل والعاقبة تحقيقُ ما قبلها فيما بعدَها، وقد قدّر الزّمخشريّ مضافًا، أي: وأنَّى له منفعةُ التّذكّر[2]، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى تقدير الزّمخشريّ لمضاف في قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لأنَّ اللّام للنّفع، فتُغْني عن المضاف، ويكون الكلامُ على ظاهره من غير حذفٍ ولا تقدير[3].

### غرض تقديم ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ الذي هو معمول اسم الاستفهام (أنَّى) على المبتدأ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ للاهتمام بموضعِ الإنكار، فهو محطُّ النّظر.

### نُكْتَة التّعبير بالذّكرى دونَ التّذكّر:

نفي الذّكرى أعمُّ وأبلغ من نفي التّذكّر

جاء التّعبيرُ بالذّكرى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ بصيغة اسم المصدر، ولم يقل: (وأنّى له التّذكّر)، مع أنَّ الفعل جاء بصيغة التّذكّر في قولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والنّكتة فيه الإشارةُ إلى أنَّ المنفيَّ هو الحاصلُ من المصدر، وهو الاتّعاظ والانتفاع من الذّكرى، كما أنَّ في التّعبير بلفظ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ إيماءً إلى أنّه لم ينتفع بالقرآن، فإنَّ القرآن هو الذّكرى؛ كما قال تعالى: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾ [عبس: 4]؛ لأنَّهُ يُذَكِّرُ النّاسَ بما يغفلون عنه[4].

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ جنسيَّة، فيشمل اللّفظُ كلَّ ما

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 265.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 752.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 265.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 107.

يحصل به التّذكّر بمعنى الانتفاع والاتّعاظ به، ويدخل فيه القرآن دخولًا أوّليًّا.

### نُكْتَة فصلِ جملة ﴿يَقُولُ﴾ عن السّابق:

قولُ الإنسان يوم القيامة بيانٌ لما يجول في نفسه من ندامة وحسرة

إن كان قول الإنسان يوم القيامة باللّسان تحسُّرًا وندامةً، كما هو الظّاهر، فتكون جملة ﴿يَقُولُ﴾ بدلَ اشتمالٍ من ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ فإنَّ تذكّره مشتمل على تحسُّرٍ وندامة، فالفصل لكمال الاتّصال، أو استئنافًا وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ منْهُ، كأنَّه قيلَ: ماذا يقولُ عندَ تذكّرِه؟ فقيلَ: يقولُ يا ليتني عملتُ لأجل حياتي هذِهِ، أو وقتَ حياتي في الدُّنيا أعمالًا صالحةً أنتفعُ بَها اليومَ[1]، فالفصلُ لشِبه كمالِ الاتّصال.

كما يُحتمل أن تكون الجملة حالًا من ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وإن كان القولُ مضمرًا في نفسِه، فتكون الجملة تفسيرًا وبيانًا لجملة ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، فيكون قوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ حكايةً لتندُّمه وحسرتِه على ما فرطَ منه حين لا ينفعه النّدم عند وقوع العذاب[2].

### نُكْتَة التّعبير بالقول دونَ النّداء:

القول بيانٌ لندم الإنسان، والنّداء رفعُ الصّوت لإعلام النّاس، والأنسب الأوّل

جاء التّعبيرُ بمفردة ﴿يَقُولُ﴾ دون (يُنادي)؛ للإيذانِ بإثبات القولِ له ونسبته لنفسِه، وللإشعار بأنَّ ما يقولُه مطابقٌ لِما يصوّره في نفسِه وكونِه ناشئًا عن اعتقاد، وليس كذلك التّعبير بفعل (ينادي)، فقد ينادي المُنادي بأمر آمرٍ دونَ أن يكون معبِّرًا عمّا يختلجُ في نفسِه، والسّياق سياقُ ندم، فالأوْلَى التّعبيرُ بالقول لا بالنّداء؛ لأنَّ القول بيانٌ لما يجول في النَّفس، وقد يقع القولُ من الإنسان لنفسه دونَ رفعِ الصّوت، بل قد يقع الكلام نفسيًّا، بخلاف النّداء فهو رفع صوتٍ لإخبار الآخرين، ولا مناسبةَ له هنا.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 158.

(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 397.

### نُكْتَة التّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ﴾ للإشعار بتكرّر قولِه منه وتجدّده، وتصوير للحالة النفسية المسيطرة على حال الكافر يوم القيامة، فهو يقول بصوت عالٍ ومنخفض ونفسيّ.

### بلاغة تركيب ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

النّداء للتّحسّر وتخفيفِ الثّقلِ النّفسيّ، لا لحَمْلِه على حقيقته

(يا) في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ حرفُ نداء يُقْصَد به في الأصل تنبيهُ المخاطَب، وجيء به هنا اهتمامًا بهذا التّمنّي، بقصد تلهّف الكافر في تمنّيه وإظهار ندامتِه، و(لَيْتَ) حرفُ تمنٍّ يتولّد منه التّندُّم والتّحسّر على ما فاتَ من الأفعال والأقوال، فيكون المرادُ من ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ إظهارَ التّحسّرِ والتّندّم على ما فوّت وضيَّعَ من الأعمال الصّالحة، وعلى ما فعل من الأعمال القبيحة. وأصلُ قولِهم: (يا لَيْتَني) أنَّه تنزيلٌ للكلمة منزلةَ العاقل الذي يُطلَبُ حضورُه للحاجة إليه؛ لأنَّ النّداء يكون لمن يعقل ويعلم، فكأنَّه يخاطبُ كلمة (لَيْتَ) بما تتضمّنه من معنى التّنديم، يقولُ: احضري فهذا أوانُكِ ومقامُك. والتّعبير بصيغة النّداء للإشارة إلى استحالة حصول المُتمنَّى.

### دلالة لفظ ﴿قَدَّمۡتُ﴾:

النّدمُ على عدم تقديم العمل الصّالح يدلُّ على تقديم الضّارّ من الأعمال

آثَر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿قَدَّمۡتُ﴾ للدّلالة على تمنّي سبقِ الأعمال والأقوال قبلَ وصولِه الآخرةَ، والحسابِ عليها، فإنَّ تقديم الشّيء هو فعلُه قبلَ وقتِ الحاجة إليه[1]، أي: إنَّه تمنّى أن لو سبق عملُ الخير في الدّنيا ليَجدَه عند وصولِه الآخرة، فإنَّ تقديم العمل هو فعله ليجدَ صاحبُه ثوابَه وثمرتَه عند وصولِه، فدلّ اللّفظ على خلاف ذلك، وأنَّه لم يُقدِّم ما ينفعُه في الآخرة.

(1) الرّاغب، المفردات: (قدم).

### بلاغة حذف مفعول فعل ﴿قَدَّمْتُ﴾:

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿قَدَّمْتُ﴾ لإفادة العموم، والمعنى: يا ليتني قدّمت الخير والإيمانَ، والقصدُ من العموم أنَّه تمنّى أن لو قدَّم أيَّ عملٍ صالح مبنيّ على الإيمان في حياتِه الدّنيا، ولو كان قليلًا لأجل حياتِه في الآخرة، ففي حذف المفعول تقريرٌ للتّحسّر والنّدامة، وتقديرُ المحذوف بكونه أعمالًا صالحة مفهوم من السّياق.

غرض الحسرة استيعابُ أيِّ عملٍ من شأنه رفعُ شأن المتحسِّر في الآخرة

### نوع اللّام ودلالتُها:

اللّام في ﴿لِحَيَاتِي﴾ إمّا بمعنى لأجلِ، أي: لأجل حياتي هذه، والمعنى: يا ليتني قدّمت لأجل حياتي في الآخرة، وإمّا بمعنى التّأقيت وتستلزم الظّرفيَّة، كما يُقال: جئت لطُلوع الشّمس، والمعنى: يا ليتني قدمتُ الأعمال الصّالحةَ لوقتِ حياتي في الدّنيا[1]، بمعنى أنَّه تمنَّى أنْ لو عمل عملًا صالحًا في حياته. فيختلف معنى اللّام بحسب معنى (حَياتي). فإذا كان المراد بالحياة الآخرة فاللّام للأجل، أي: يا ليتني قدمت لأجل حياتي الآخرة، وإن كان المرادُ بالحياة الدّنيا فاللّام بمعنى الظّرفيّة، أي: يا ليتني قدمت في حياتي الدّنيا.

معنى اللّام تابعٌ لمعنى الحياة فإذا كانت الآخرة فالأجلُ، وإن كانت الدّنيا فالظّرفيّة

### براعة استعمال مفردة (حَياتي) دون (آخرتي):

على القول بأنَّ الحياة هي الآخرة، فيُسأل عن نُكْتَةِ قول الكافر: ﴿لِحَيَاتِي﴾ دون (لآخرتي)؟ وذلك للإشعار بأنَّ كلَّ ما يقدّمه الإنسانُ من خيرٍ في الدّنيا إنّما هو من أجل الانتفاع به والتّمتّع به في حياتِه في الآخرة، فالمقصودُ: أنَّ الأعمال الصّالحة في الدّنيا تظهر آثارُها في حياتِه في الآخرة، وذِكر (حياتي) يدلُّ على أنَّ الكافر فهِم أنَّ ما فيه يوم القيامة هو حياته، وليس ما كان يعيشه في الدنيا، فتلك ليست بحياة له، بل هي وقت اختبارٍ وابتلاء.

الحياةُ الحقيقيّة هي الآخرةُ، والدّنيا وقتُ اختبارٍ وعمل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 752، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 20/ 332، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 536.

**دلالة إضافة (حَياةِ) إلى الياء:**

الحياة المُعتبرة للإنسان التي ينتمي إليها على الحقيقة هي حياةُ الآخرة

آثَر النّظم الكريم إضافةَ الحياة إلى ضمير المتكلّم (حياتي)، ولم يقل: (يا ليتني قدّمت لهذه الحياة) بعد أن رآها، على القول بأنَّ الحياة هي الآخرة؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الحياة التي تَخُصُّ المتكلِّم وتعنيه هي الدّار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64]، أي: لَهيَ الحَياةُ[1]. فالحياة المعتبَرةُ التي تستحِقُّ الانتسابَ هي حياة الآخرة، فما قبلَها ممّا كان في الدنيا لم تكن الحياة التي تستحقُّ أنْ تسمّى حياةً، فضلًا أن تَخُصّ المتكلّمَ، وكأنَّه يتبرأ من الحياة الدّنيا ولا يعتبر إلّا الحياةَ الآخرِة.

**نوع الفاء ودلالتُها:**

لا يكون العذاب إلّا بعد تحقّق الكافر من ذنبه واعترافِه به

يحتمل أن تكون الفاء في قولِه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ تفريعيَّة؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ في قولِه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ظرفيَّةٌ مجرّدةٌ من معنى الشّرط كما تقدَّم، بمعنى أنَّه يتفرَّع على يوم إذ يكون من الأحوال الباهرة العظيمة وما يقوله الإنسانُ تحسّرًا وندامةً أنَّه لا يعذِّبُ عذابَه أحدٌ. فيظْهَر للنّاس هذا الأمرُ ويشهدونه.

وتحتمل أن تكون الفاءُ رابطةً لجُملةِ ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ بجملة ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لِما في ﴿إِذَا﴾ من معنى الشّرط[2].

**نُكْتَة تكرار (يَوْمَئِذٍ):**

كُرِّرَ لفظ (يَوۡمَئِذٖ) مع اختلاف المعنى بما يدلُّ عليه تنوين العِوض، للإشارة إلى تقرير تهويلِ ذلك اليوم وفخامتِه بما يقع فيه من هولِ العذاب والعقاب.

**دلالة تنوين العِوض:**

تنوين العِوَض اختزالٌ للمشهد في حرف

لمّا أفادت الفاء في قولِه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ التّفريعَ على ما تقدَّم، كان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 339.

التّنوين في (إذٍ) عوضًا عن مفهوم ما تقدَّم، والتّقدير: يومَ إذْ يكونُ ما ذُكِر من الأحوالِ والأقوال، أي: من الأحوال التي تقع في ذلك اليوم من دَكِّ الأرضِ وما يتلوه، ومن الأقوال التي يقولها الكافر حسرةً وندامةً على ما فرّط من الإيمان وفعلِ الخير.

### نُكْتَةُ إيثارِ أسلوب النّفي على الإثبات:

نفي شـدّةِ كلِّ عذاب ثمّ إثباتها لعذاب الله أوقعُ في التّرهيب

أوثِر أسلوبُ النّفي في التّعبير عن نفي مماثلة عذابِ اللّه تعالى لأيِّ عذابٍ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ فلم يقل: (فيومئذٍ عذاب اللّه عظيم أو شديد)؛ وذلك لأنَّ السّياق في بيان إظهار قَهْرِه تعالى ومُلْكِه في ذلك اليوم لجميع الأشهاد، وأسلوب النّفي يُفيد انتفاءَ الأمرِ عن غيرِه، ومن ثمَّ إثباتُه للّه تعالى، فيكون أبلغَ في الوصفِ بحسب المقام.

### مناسبة مفردة العذابِ دون العقاب:

سياق بيانِ عذاب الكافرين تُناسِبُه مفردةُ العذاب في الدّنيا والآخرة

آثَر النّظمُ الكريم التّعبير بمفردة العذاب في قوله تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ دون أن يُقال: لا يُعاقِبُ عقابَه أحدٌ؛ لأنَّه قد ورد ذِكر العذابِ عند ذكر عذاب الدّنيا على المُكذّبين الطّغاة العُتاة من الأمم السّابقة في قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾، فلمّا أراد أن يذكر أنَّ ما يقع للكافرين من العذاب والمَذلَّة يومَ القيامة هو أشدُّ ممّا وقع من العذابِ للكافرين في الدّنيا، ناسبَ أن يذكر العذابَ دون العقاب، لتكون المفردةُ ضمن سياقِها وسباقِها. ويزيدُه حُسْنًا أنَّ السّياق في بيان وقوع الأذى على الكافرين وعدم تحمّلهم له، والمناسِبُ له التّعبيرُ بالعذاب الدّالِّ على شِدّة الإيلام وعَظَمتِه.

### نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُعَذِّبُ﴾؛ للإشعار بتكرّر عذابه سبحانه الشّديد على الظّالمين الذي لا مثيل له، واستمرارِه وتجدّدِه على الكافرين.

## توجيه القراءات القرآنيّة:

عذاب سائر العصاة المؤمنين ليس كعذاب صنفِ الكفّار، فعذاب الكفّار أشدُّ وأبقى

قرأ الجمهور: ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ يعقوبُ والكِسائيُّ: ﴿يُعَذَّبُ﴾ و﴿يُوثَقُ﴾ بفتح ما قبل الحرف الأخير من الكلمتَين على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضّميران في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ راجعَين إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[1]، والمعنى: لا يعذَّبُ كعذاب ذلك الإنسانِ أحدٌ ولا يوثَقُ كوثاقِه أحدٌ.

ولمّا كان المراد من الإنسان الكافرَ الموصوفَ بتندّمه وتحسّره، كان المعنى: لا يعذَّبُ عذابَ هذا الكافرِ المتندّم المتحسّر أحدٌ ولا يوثَقُ وثاقَه أحدٌ، والمقصود هو صنفُ الكفّار[2]، فيدخل فيه المنافقون وغيرهم[3]، فعذاب سائر العصاة المؤمنين ليس كعذاب صنفِ الكفّار، فعذابُ الكفّار أشدُّ وأبقى، بمعنى أنَّ الكافرين وإن تفاوتوا في العذاب لكنَّ عذابَهم من حيثُ النّوعُ والكمُّ ليس كسائر عذاب سائر العُصاة من المؤمنين.

## نُكْتَة العدولِ عن التّعذيب إلى العذاب:

العـدول عن المصـدر إلى اسم المصدر للجمع بين معنى المصدر والحاصلِ منه

أصل قولِه تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ من حيثُ ذِكر المصدر هو: لا يُعذِّبُ تعذيبَه أحدٌ، فالعذاب بمعنى التّعذيب ووضع موضعَه[4]، ولهذا نُصِبَ على المصدريَّة، وإنّما عُدِلَ عن التّعبير بالمصدر (تعذيب) إلى اسم المصدر ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾؛ للمبالغة في شدّة ألمِهم؛ لِما في اسم المصدر من الدّلالة على الحاصل من المصدر، فإنَّ الحاصل من التّعذيب هو الألمُ الشّديد الذي لا يُطاقُ، كما أنَّه إذا كان عذابُه ليس كسائرِ العذاب ولا يوجد مثلُه دلَّ على أنَّ تعذيبه كذلك، فأفاد باسم المصدر الدّلالةَ على المصدر وعلى الحاصلِ منه.

---

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 145، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 324.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 268.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 524، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 481، والمنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 6/ 394.

**بلاغة التّشبيه ونوعُه:**

لا يخطر في قلبٍ معنى عذابِ الله فلا يُشبه أيَّ عذابٍ وقعَ على الأبدان أو لمع في الأذهان

إذا حُمِل قولُه تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ على التّشبيه، أي: لا يُعذِّب مثلَ عذابِ اللّه أحدٌ، فيكون الكلام على حذف أداة التّشبيه، وهو من التّشبيه البليغ[1]، واستُغني عن ذِكر المُشَبَّه بذِكر الفعل الدّالِّ عليه، وتقدير الكلام: لا يُعذِّبُ عذابًا مثل عذابِ اللّه أحدٌ، والمقصود: نفيُ أن يكون ألمُ أيِّ عذابٍ يُشبه ألمَ عذاب اللّه تعالى، ولهذا عدل عن المصدر إلى اسم المصدر ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾، ففيه تصويرٌ للمشهدِ أيّما تصوير، فلا يشهد النّاس عذابًا مؤلمًا مثلَ ألم عذاب اللّه في شدّته وقوّته وأذاه، وهو المناسب لسياق تعظيم عذابِه الدّالِّ على قهر اللّه تعالى وعظَمتِه[2].

**تعيين مرجعِ الضّمير:**

تنوّع عَودِ الضّمير فيه تنوّعٌ في المعنى وتوسيعٌ له

يحتمل أن يكون الضّمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ عائدًا إلى اللّه تعالى، فتكون الإضافةُ من إضافة الاسم إلى ضمير الفاعل، أي: لا يُعذِّبُ عذابَ اللّه أحدٌ، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الإنسان، فتكون الإضافة من إضافة الضّمير إلى المفعول، وهو الإنسان الموصوف، أي: لا يُعذِّبُ عذابَ الإنسانِ الكافرِ أحدٌ من الزّبانية، أي: كأنَّه أشدُّهم عذابًا ووثاقًا، فيكون المُراد من كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ الملائكةَ الذين يتولَّون تعذيبَ أهلِ النّار[3]، والمعنى: لا يُعذِّب أحدٌ من الزّبانية أحدًا من أهل النّار مثلَ عذابِ هذا الكافر لشِدّة عذابه وتناهيه؛ لأنَّه أشدُّهم سيّئاتِ أفعالٍ وقبائحَ أحوالٍ[4]. ففيه تغليظٌ في العذاب للإنسانِ الكافر المُفرطِ في المعصية؛ فلا يُعذَّب المؤمن العاصي كعذابِ الكافرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 339.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 324، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 752، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 57.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 344.

### غرض تقديم ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ على الفاعل ﴿أَحَدٌ﴾:

قُدِّمَ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ الواقع موقعَ المصدرِ على الفاعلِ في قوله: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ للاهتمامِ به والعنايةِ بشأنِه، فعذابُ اللّه تعالى ليس كسائرِ العذاب في الألم والشّدة، كما أنَّ عذاب الإنسانِ الكافر ليس كعذاب غيرِه، كما أنَّ في التّقديم مراعاةً للفاصلة.

إظهار هول العذاب بتقديمه أرهبُ من البَدْء بالفاعل

### بلاغة استعمال لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ في سياقها:

لمّا جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً في سياق النّفي أفادَ العموم، وهو المناسِبُ لسياق الكلام المُعبِّر عمّا يقع من أحداث يوم القيامة الذي يظهر فيه لجميع الخلائق، ويتحقّق عندَهم مُلكُ اللّه تعالى وقَهْرُه، فلا يُعذِّبُ عذابَ اللّه أحدٌ مهما بلغ من القوّة والشِّدّة والعُتوّ، كما لا يُعذَّب أيُّ إنسانٍ من عصاة المؤمنين يومَ القيامة مثلَ عذابِ الكافرِ لتناهيه في الشِّدّة والألم.

استغراق خواطرِ البشر لنفي ما تتصوّره من وجود قادرٍ على مشابهة اللّه في عذابه

### نُكْتَةُ عطفِ (لا يوثِقُ) على ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾:

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّه لا يُعذِّب مثلَ عذابِه أحدٌ، ودلَّ على شِدّتِه وعظَمتِه وعدمِ إطاقتِه؛ عطفَ عليه نفيَ ما قد يخطر في بال النّاس من محاولة الفِرار من العذاب، قياسًا على ما يجري في الدّنيا، فقال: ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾، أي: فلا سبيل للإفلات والهرب من هذا العذاب الشّديد، فلا يزال يتعذّب موثَقًا بالسّلاسل والأغلال خالدًا فيه، فالعطفُ للتّتميم والتّكميل لما بدأتْهُ الآياتُ من بيان العذاب.

تتميمُ نفي خواطرِ البشر ممّا يتعلّق بعذاب الله

### نُكْتَةُ التّعبيرِ بمفردة ﴿يُوثِقُ﴾:

آثَر النّظم الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿يُوثِقُ﴾، والإيثاق: هو الشّدُّ بالحديد أو الحَبلِ بإحكام، وما يكون به الموثَق غيرَ قادرٍ على حَلِّه والخروج من موضعِ وثاقِه، وذلك للدّلالة على أمرين؛ تحقيق مقصِد الإيثاق من عدم القُدرة على الإفلات والهرب من العذاب

إحكام القيد بما يمنع من إفلات المُعذَّبِ وإهانةِ الموثَقِ وذِلَّتِه

الشّديد بما يكون به الإيثاق بالشّدّ بالسّلاسل والأغلال، وبيانُ حالِ الكافرين من الإهانة والذّلّة والقَهْرِ، فإنَّ الوضعَ في القيد بطريق الإيثاق يدلُّ على إهانةِ الموثَقِ وذلّته، وقهرِ الموثِقِ وعظَمته.

### نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُوثِقُ﴾ للإشعار باستمرارِ إيثاق اللّه تعالى للكافرِ وتجدّده، مع استمرارِ عذابِه وتجدّده، فلا ينفكُّ الكافر عنهما.

### نُكْتَةُ العدولِ عن الإيثاق إلى الوَثاق:

أصل الكلام: (لا يوثِقُ إيثاقَه أحدٌ)، والوَثاق اسْمُ الإيثاق[1]، فعُدِلَ عن المصدر (إيثاق) إلى اسمِه ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ كما عُدلَ عن المصدر إلى اسمِه في كلمة ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾، ووُضِعَ الوَثاقُ موضعَ المصدر فانتصبَ، وإنّما عُدِلَ عن المصدر إلى اسم المصدر؛ للمبالغة في الدّلالة على إحكامِ القيد وشِدّتِه؛ لِما في اسم المصدر من الدّلالة على الحاصل من المصدر، وفيه دلالةٌ على أنَّ الإيثاق سيكون وثاقًا دائمًا مستمِرًّا مُلازمًا لهم، إذ فيه انتقالٌ من المصدريّة المُرتبطة بالفعل إلى اسم المصدر الدّالِّ على الثّبوت والاستقرار، فهو وثاقٌ سرمديٌّ خالد.

الـدّلالـة على الثّبات الدّائم كـاسم العَلَم الملتصق بصاحبه

### تعيين مرجعِ الضّمير ودلالتُه:

يحتمل أن يكون الضّمير في ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ عائدًا إلى اللّه تعالى، فيكون من قبيل إضافة الاسم إلى ضمير الفاعل، أي: لا يوثِقُ وثاقَ اللّه أحدٌ.

النّظمُ المُعجز يأتي بالمعاني الكثيرة المتقابلة في ألفاظ وجيزةٍ متّحدة

ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الإنسان، فيكون من قبيل إضافة الضّمير إلى المفعول، وهو الإنسان الموصوف بتحسّره ونَدامته، أي: لا يوثَقُ وثاقَ الإنسانِ الكافرِ أحدٌ من الزّبانية، أي: كأنّه أشدُّهم عذابًا ووثاقًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وثق).

**نُكْتَة تقديمِ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ على الفاعل:**

قُدِّمَ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ على الفاعل ﴿أَحَدٌ﴾ للاهتمامِ بعظَم الوَثاق وإحكامِه، بحيثُ لا يستطيع المُعذَّبُ الفَرارَ من شدّة العذاب الذي ليس له مثيلٌ، كما أنَّ في التّقديم مراعاةً للفاصلة.

## ۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

**الوثاق والربط:**

الوثاق شدٌّ بقوّة وإحـكـامٍ مع إهـانـة وإذلال والـرّبـاط تثبيت وملازمةٌ للشّيء

الوَثاق هو الشَّدّ بقوّة وإحكامٍ، ويفيد إهانةَ المُوثَق وذِلّتَه، ومنه وثاق الأسير، وأمّا الرّباط فهو من الرّبط ويستعمل في معنى التّثبيت وملازمة الشّيء، ومنه ربطُ الفرسِ، أي: شَدّه بالمكان وتثبيتُه للحِفظ، وليس في الرّبط دلالةٌ على الإهانةِ والذِّلة، كما في دلالة الوثاق الذي يدلُّ على الأسرِ والاستيلاء بالقهرِ، ويلزمه الإهانةُ والذلّة. ولهذا قال الله تعالى في سياق الكلام عن أسرِ الكفّار في المعركة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمّد: 4]، ولم يقل: فشُدّوا الرِّباط، فلمّا كان الوَثاق دالًّا على شِدّة القَيد وإحكامِه، ومُشعِرًا بإهانةِ الموثوق في النّار، عبّر بالوثاق دونَ الرّبط.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ
٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: 27 - 30]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقة حسرةَ الإنسان الكافر على صنيعه الظّالم لنفسه في الدّنيا، الذي انتهى به في العاقبة الخاسرة في الآخرة؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيان حال النّفس المُطمئنة؛ ليقع الأُنسُ في قلوب المؤمنين بعد التّرهيب المقصود به قلوبَ الكافرين، على سنّة القرآن في ذكر المثاني، ولشفاء المتشوّق لمعرفة ما يقع للمؤمنين من الخير العميم، كما أنَّه "لمّا وصفَ حالَ من اطمأنَّ إلى لذّات الدّنيا المنهمكِ فيها، ناسبَ وصفُ حالِ من اطمأنَّ باللّه تعالى وطاعتِه"(1).

من عادة القرآن الجمعُ بين التّرغيب والتّرهيب، فذَكرَ حالَ من اطمأنَّ باللّه تعالى وطاعتِه بعدَ ذِكر حالِ من اطمأنَّ بالدّنيا ولذّاتِها

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾: الاطمئنان من طَمَنَ الشّيءَ، أي: سَكَّنَه فسَكن واستقرَّ، والطُّمأنينةُ والاطمئنانُ: السّكونُ بعد الانزعاج، وأصلُه من اطمأنَّتِ الأرضُ، أي: انخفضَتْ، وأرضٌ مُطْمَئِنَّةٌ: منخفضة، ويُقال: اطْمَأنَّ قَلْبُهُ إذا سَكَنَ، ومنه اطْمَأنَّتْ نَفْسُهُ، أي: سكنت، والنّفسُ المطمئنَّة هي السّاكنة التي لا ترتاب، ولا تضطرب؛ الموقنةُ بوعد اللّه، المُصَدّقةُ به(2).

## المَعنى الإجْماليُّ:

تُبيّن الآياتُ الكريمة ما يُقال للنّفس المؤمنة الزّكيَّة عند الموت ويوم القيامة: يا أيتّها النّفسُ المُطْمَئِنَّةُ السّاكنة الثّابِتَةُ الدّائِرَةُ مَعَ الحَقِّ ارجِعي إلى جِوار ربِّك وثوابه، وما أَعَدَّ لِعِبادِهِ في جَنَّتِهِ، راضيةً

النّفس المُطمئنة قرارٌ واستقرارٌ ورحمةٌ وراحة بال

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 161.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 528، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 527.

عن عملِها في الدّنيا وعن ربِّها بما وعدَها به مَرْضيَّةً عنده، فادْخُلي في جملة عِبادي الصّالحين المُختصّين بي، المُكرمين عندي، وادْخُلي جَنَّتي التي أعددتّها لكِ وللمؤمنين[1]، واتّصالُ هذه الآيةِ بالآياتِ التي قبلَها في التّلاوة وفي كتابةِ المصحفِ قرينةٌ على أنَّ هذا القولَ يقال في الآخرة[2].

ونقل بعض المفسّرين أنَّ هذا القول يُقال للرّوح عند الموت لطمأنة المؤمنِ وبشارتِه بوعد اللّه له[3]، أي: يخاطبُها اللّه تعالى بذلك، فتخرج على سهولة وراحة[4]، ولا مانع أن يُقال لها هذا القول عند الموت ويوم القيامة أيضًا، كما ذهب إليه ابنُ كثير[5].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة الاستئناف ودلالتُه:

استئناف الكلام عن نفسِ المؤمن بعد الحديث عن الكافر

لمّا أخبر اللّه تعالى عن حالِ الإنسان الكافر وندامتِه وعذابه الشّديد يومَ القيامة، استأنف الكلامَ في بيان حالِ المؤمنين؛ لأنَّ النّفس تتشوّف لمعرفة حالِ أضداد أولئك القوم الذين أخبر عن ندامتِهم وحسرتِهم، فاستأنف الكلام فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ أي: على أن تكون الجملة مقولَ قولٍ محذوف[6]، ففيه إيذانٌ بغاية التَّباينِ بين الحالتين، ولهذا لم تعطف هذه الجملة على الجملة السّابقة وجاءت بطريق الاستئناف[7].

### نُكْتَة حذفِ القولِ ودلالتُه:

حُذِف لفظُ القولِ قبلَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 400.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 340.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 253، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 444، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 642.
(4) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 353.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 400.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 752، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 345.

لزيادة التّكريم في إشارة إلى سرعة البِشارة، وهذا النّداء المباشر للنّفس المطمئنة يترك راحةً في نفوس المؤمنين.

**بلاغة استعمال حرفِ النّداء:**

النّفس المؤمنة بعيدةٌ عن أهوال جهنَّم وما يصيب الكافر من أحوال

استعمالُ حرفِ النّداء للبعيد في خطابِ النّفس المؤمنة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ﴾ للإشعار بعُلوِّ منزلتِها ورفعتِها، ولمّا أخبر اللّه تعالى عن بُروز جهنَّمَ وظهورِها في قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ وكان مجيئُها دالًّا على حضورِها، ناسبَ نداءُ النّفسِ المؤمنة نداءَ البعيد؛ للإشعار بأنَّها بعيدةٌ عن جهنَّم وعمّا يقع للكافر من العذاب.

**دلالة التّنبيهِ في قوله: (أيَّتُها):**

جاء التّعبير بقولِه: (أيَّتُها) لتنبيه النّفس المخاطَبة إلى إكرامِها وتشريفِها بوصفِها بالمُطمئنّة، وجاءت الصّيغة مؤنَّثةً؛ لأنَّ النّفسَ مؤنَّثةٌ.

**نُكْتَة نداءِ النّفس المؤمنة دون المؤمنين:**

إفراد كلِّ مؤمن بالنّداء مزيدُ تشريف وتكريم

آثَر النّظمُ الكريم ذِكرَ ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ دون أن يُقال: (يا أيّها الذين آمنوا)، مع أنَّ المقصود خطابُ المؤمنين؛ وذلك لما فيه من المبالغة في التّفخيم بمَجيء القولِ على جهة الإكرام والتّشريف باجتماع حرف النّداء للبعيد وخطاب كلِّ نفسٍ على حِدةٍ، زيادةً في طُمأنينتِها وسكونِها، فإنَّ خطابَ النّفس بصيغة المُفرد، إعلامٌ بخصوص الإكرام لكلِّ نفسٍ تُخاطَبُ على حِدةٍ، ووصفُها بالمطمئنّة المُضَمّن معنى الإيمان واليقين والأمن والأمان، وأمرُها هو أمر تكريم وتشريف بالدّخول في عباده سبحانه، ودخولُ جنّته أوثقُ وأبلغُ في استقرارِها وسكونها وفَرحِها في ذلك اليوم العصيب.

**معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾:**

يُحتمل أن يُراد بالنّفس الذّات والرّوح

إن كان قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ يُقال عند موت المؤمنين؛ فالتّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ للعهد، بمعنى النّفس

المعهودة عند خطابِها عند الموت، وإن كان القول عند البعث أو عند دخول الجنَّة فالتّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ للجنسِ، فيدخل في لفظ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ كلُّ نفسٍ مؤمنة، والنّفس هنا يُراد بها الذّات؛ لأنَّه قال بعدَها: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾؛ لأنَّ دخول الجنَّة للذّات، أي: الجسد مع الرّوح.

وأجاز بعضُ المُفسّرين أن يكون المراد منها الرّوح التي تكون في الجسد، إذ رأوا أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ بمعنى: فادخلي في أجْسادِ عِبادي[1]، والرّوح هي التي تدخل في أجساد العِباد، فيكون خطابًا للرّوح عند خروجِها من جسد المؤمن وعند البعثِ.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ دونَ الإنسان:**

النّـفـس هي موضع الشّهوات فـوَصْـفُـهـا بالإيمان يزيدُها رِفعةً وشَرفًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة النّفس دونَ الإنسان؛ لأنَّه لمّا أخبر عن تعلّق الكافر بالدّنيا ومَلذّاتِها وتهالكِه عليه، ودلَّ ذلك على امتلاء نفسِه بالأكدار والطّبائع السّيّئة، ناسبَ مقابلتُه بذِكر الطّرف المقابل، فعبّر بالنّفس موصوفة بـ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾؛ للدّلالة على صفائِها وسكونِها وخُلوها من الأكدار، على ضِدِّ ما كانت عليه نفس الكافر، فالنّفس هي موضع الشّهوات والأهواء، فمقاومةُ المؤمن لها، بأن يجعلَها موضعَ الطّاعات والأعمال الصّالحات، يزيدُه شرفًا ورِفعةً وكرامة.

**بلاغة وصفِ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ بـ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾:**

الطُّمأنينة وصفٌ ثـابـتٌ للنّفس المؤمـنـةِ، يكون لها عند دخول الجنّة

جاء وصفُ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ لتمييز المخاطَبين بالوصفِ الذي يُميّزهم عمّن عداهم، فيَعرفون أنّهم المخاطبون المأذونون بدخولِ الجنَّة؛ لأنّهم لا يَعرفون أنَّهم مطمئنّون إلّا بعدَ الإذن لهم بدخولِ الجنَّة على أحدِ القولين المذكورَين في وقت القول، فالوَصْفُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 59، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 233.

مُرادٌ بِهِ الثَّناءُ وتَبْشيرُ مَنْ وُجِّهَ الخِطابُ إلَيْهِمْ بأَنَّهُم مُطْمَئِنّونَ آمِنونَ، وفيه إيماءٌ إلى وجه بناء الخبرِ، وهو الأمر برجوعِها إلى ربِّها راضيَّةً مرضيَّةً، والإذن لها بدخولِها الجنَّة. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الوصفُ لِلتَّعْريفِ أوِ التَّخْصيصِ بأنْ يَجْعَلَ اللّه إلْهامًا في قُلوبِهِمْ يَعْرِفونَ بِهِ أنَّهُمْ مُطْمَئِنّونَ[1].

### بلاغة التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ دون مقارباتها:

الطّمأنينةُ تدلُّ على اليقين والسّكون والاستقرار والأمان

لمّا كان الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ يقال للنّفس المؤمنة عند الموت، أو في يوم القيامة حينما تظهر الحقيقة ويظهر وعدُ اللّه، آثَر النّظمُ وصفَ النّفسِ بالمُطمئنة دونَ المؤمنة؛ وذلك لأنَّ الطّمأنينةَ توصَفُ بها النّفسُ حين لا يبقى عليها في يقينها مطلبٌ يُحَرّكها إلى تحصيله[2]، فالاطمئنان يدلُّ على التّصديق على طريق اليقين، كما أنَّ الطّمأنينة تدلُّ على السّكون والاستقرار والأمان، فناسبَ مخاطبتُها بهذا الوصف يوم القيامة؛ للإشعار بأنّها آمنة من العذاب الذي يعذّب به الكفّارُ، فلا يستفزها خوفٌ ولا حُزنٌ لا قلقٌ ولا اضطرابٌ. ولمّا كانت الطُّمأنينة لازمةً لليقين دلَّ على أنَّها موقنةٌ فلا يخالجها شكٌّ في وعد اللّه وفيما آمنت به، فذُكِرَ وصفُ ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾؛ للجمع بين كونها موقنةً وكونها آمنةً[3].

### فائدة حذفِ متعلّق ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾:

الطُّمأنينة وصفٌ قائم بالنّفسِ بما يُكسبها قوّةَ الإيمانِ وثباتَ اليقين

آثَر النّظمُ الكريم حذفَ متعلّق صفة ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾، فإنَّه يقال: هو مطمئنّ إلى كذا، أو مطمئنٌّ بكذا، وفائدة حذف المتعلّق إثباتُ الوصف للنّفس ولزومُه لها، بمعنى أنَّ الاطمئنان صار وصفًا لازمًا لها، فهي مطمئنّة إلى وعدِ اللّه الذي وعدها في الدّنيا، وإلى ثوابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 343.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 481.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 161.

وحُسْنِ كَرَمِه وفضلِه وإلى ذكرِه، ففي الحذف تمحيض النّفس للاتّصاف بالطُّمأنينة الذّاتيّة، وهي ما أكسبها المدحَ والثّناء.

### نُكْتَةُ استعمالِ مفردة الرّجوع دونَ مقارباتها:

رجوع كلِّ نفس إلى ربِّها رجوعًا حقيقيًّا بقطع النّظر عن إدراك كُنْهِ ذلك

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾؛ وذلك لما فيه من معنى العَود إلى ما كان منه البَدء، ويقتضي الرّدَّ إلى أمرٍ كان عليه في الأصلِ، فأفادت المفردةُ بأنَّ مبدأ النّفس من ربِّها ورجوعَها إليه، فإذا ماتت وخرجت روحُها وبُعِثَت يومَ القيامة رجعت إلى خالقها، وهو المحسن إليها في عَودِها واستقرارِها في جِوارِه وجنّاتِه، ففي المُفردة إيماءٌ إلى أنَّ العبدَ يرجع إلى اللّه تعالى، رجوعًا حقيقيًّا، وإن لم يُدرك كُنهه، ولم تُعلم حقيقتُه.

### غرضُ الأمر ودلالتُه:

أمْــرُ الـنّـفـس الـمُـطـمـئـنّـة بالرّجوعِ تشريفٌ بـالإكـرام لا تكليفٌ بالإقدام

الأمر في قوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾ هو من باب الأمر الذي يُقصَد به الوعد[1]؛ لأجلِ التّكريم، فالأمر بالرّجوع هو على معنى الوعد بإكرامِها وتشريفِها. كما يقال للدّاخل إلى سلطانٍ ليكرمه: ادخلْ مُعزَّزًا مُكرَّمًا، فليس المراد أمْرَه بالدّخول، وإنّما الوعدُ بالإكرامِ وتقريرِه، والإعلانُ به تشريفًا له.

### دلالة حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

دلّ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ على انتهاء الغاية، ففيه إيماءٌ إلى النّفس التي سارت بعد خَلْقِها في حياتِها إلى نهاية غاية سيرِها، فلا انتقالَ لها بعد وصولِها إلى جِوار ربِّها إلى موضعٍ آخر.

### نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

تجلّت في سورة الـفـجـر معاني التّربية والرّعاية والـعـنـايـة بالمؤمنين

عُبِّرَ بعنوان الرّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، ولم يقل: ارجعي إليَّ أو إلى اللّه؛ للإشارة إلى ما يقتضيه توحيدُ الرّبوبيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 341.

بالإشعارِ بلطفِ اللّه بها في رجوعِها، وأنَّه تعالى هو مُربّيها في رجوعِها وعندَ مصيرها إليه، وأنَّ رجوعَها رجوعُ إكرام وتشريفٍ، وفيه تقريرٌ لاطمئنانِها، وبشارةٌ بالإحسانِ إليها والإنعام عليها. ويُلْحَظ أنَّه لم يأتِ في السّورة ذِكرُه سبحانه إلّا بعنوان الرّبوبيَّة؛ فهي سورة تتجلَّى فيها تربيةُ اللّه تعالى للإنسانِ وإحسانِه إليه في الدّنيا، ويتجلَّى فيها تكريمُ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ وعنايتِه به ورعايتِه له، ويتجلَّى فيها كذلك إحسانُ اللّه بعباده المؤمنين من وقت خروج روحِهم الزّكيَّة من جسدِهم ويستمر هذا الإحسان يوم البعثِ وعند الحساب وبعدَه.

### دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

لفظُ الرُّبوبيّة مُشعِرٌ بتمام العناية وكامل الرّعاية بالمؤمنين

لمّا كان القول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ يحتمل أن يكون صادرًا من اللّه تعالى، أو يكون من قول الملائكة، فإن كان من كلام اللّه تعالى كانت إضافة لفظ الرّبِّ إلى ضمير المخاطَب في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار، وكان على خلاف مقتضى الظّاهر، بقرينة تفريع ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عليه. ونُكْتَةُ العُدولِ إلى الإظهار ما في وصفِ الرّبِّ من الولاءِ والاختصاص، وما في إضافتِه إلى ضمير النّفسِ المخاطَبةِ من التّشريف لها، وإن كان من قول الملائكة فلفظُ ﴿رَبِّكِ﴾ جرى على مقتضى الظّاهر. وعَطْفُ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عَطْفُ تَلْقِينٍ يَصْدُرُ مِنْ كَلامِ اللّه تعالى تَحْقيقًا لِقَوْلِ المَلائِكَة ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[1].

### بلاغة التّعبير بصيغتَي اسمِ الفاعل والمفعول:

رضا النّفسِ غايةٌ ورضا اللّه عنها أشرفُ مأمول

الرّاضيةُ: هي الّتي رضيت بما أُعطيَتْهُ من كرامةٍ، وقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً﴾ كنايةٌ عن إعطائِها كلَّ ما تطمح إليه، والرّضا غايةُ المأمول. و﴿مَّرۡضِيَّةً﴾ اسم مفعول، وأصل الكلام مرضيٌّ عنها، والمقصود من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 341.

الوصف باسم المفعول ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ زيادةُ الثّناء مع الكناية عن الزّيادة في إفاضة الإنعام؛ لأنَّ المَرضيَّ عنه يَزيدُه الرّاضي عنه منَ الهبات والعطايا فوقَ ما رَضيَ هو به[1].

**بلاغة الحال في لفظَي ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، ونُكْتَة التّرتيب:**

الجمع بين الرّاضية والمرضيَّة على سبيل الاقتران فيه كمال الإكرامِ والإنعام والثّناء

جاء قوله تعالى: ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ بذِكر حالَين من فاعل ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾؛ ليُفيدَ تقييدَ رجوعِها في حالِ كونِها راضية، وفي حال كونِها مرضيَّة، والحال في اللّفظين مقارنةٌ ملازمةٌ، وذِكْرُ الحالِ الثّانية ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ من باب التَّرقّي في الإنعام والإكرام؛ فإنَّ كونَها مرضيَّةً عند اللّه أكبرُ من رضاها، فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التّوبة: 72]. والجمع بين الحالَين من غير عطفٍ إيذانٌ باتّصاف النّفس المُطمئنّة بهما في وقت رجوعِها إلى ربِّها على سبيل اقترانِهما ولزومِهما للنّفس المطمئنّة، ففيه كمالُ الإكرامِ والإنعام والثّناء.

**غرضُ حذفِ متعلّق صيغتَي ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾:**

النّفس المؤمنة راضيةٌ عن كلِّ ما يأتي من الله مرضيَّةٌ عند الله وملائكته

حُذِف متعلّق الرّضا ولم يقل: (راضية عن اللّه) ونحوه، لإفادة عموم رضاها، ويحتمل أن يكون الوصف بصيغة اسم الفاعل المحذوفِ متعلّقُهُ، على معنى أنَّ الرّضا صار وصفًا ثابتًا لها، فلا يأتي منها إلّا الرّضا لِما رأت من تحقّق وعدِ اللّه الذي آمنت وأيقنت به، ولمّا قال: ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ بصيغة اسم المفعول أفاد أنَّ الرّضا قد وقع عليها بما عملت وقدَّمت، ولمّا حذف متعلّق اسم المفعول ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ أفاد أنَّها مرضيَّةٌ عند اللّه وعند الملائكة، وفي كلِّ موضعٍ تكون فيه يومَ القيامة، فأينما حلَّت لقيت الرِّضا، فاجتمع الرِّضا وصفًا قائمًا بها، ووصفًا واقعًا عليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 343.

**نوع الفاء ودلالتُها:**

الدّخولُ في الجنّة مترتّبٌ على الرّجوع إلى الله راضية مَرضيّة

الفاء في ﴿فَٱدۡخُلِي﴾ للتّفريع على ما قبلها على سبيل التّفصيل بعد الإجمال؛ زيادة في الإكرام والتّشريف، ففيه تكرير لإدخال السّرور على أهلِها[1]. ويحتمل أن تكون الفاء للتّرتّب في الوقوع إن كان الأمر بالرّجوع إلى ربِّها مطلقًا لا يقصد به خصوص المصير إلى الجنَّة، بل زيادةٌ في طمأنة النّفسِ المؤمنة بما أعدَّ لها ربُّها، فيكون الأمرُ في قوله: (ادخلي في عبادي) مرتّبًا في الوقوع على الأمر برجوعِها، وعلى الوجهين فإنَّ قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي﴾ هو من قول اللّه تعالى للنّفس المطمئنّة، بقرينة قوله: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾.

**غرض الأمر ودلالتُه:**

أمرٌ قُصِد به الوعد، وفيه تكريم وتشريف

صيغة الأمر في قولِه: ﴿فَٱدۡخُلِي﴾ من قبيل الأمر الذي يقصد به الوعد، وفيه تكريم وتشريف كما تقرّر في وجه مجيء صيغة الأمر في قولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾.

**بلاغة حرف الظّرفيّة:**

دخولُ النّفسِ المُطمئنة في عِباد الله راسخٌ خالدٌ مع إفادة المَعيّة

أفاد حرفُ الظّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ مُكْنَةَ اجتماعِ النّفسِ المطمئنّة بعبادِ اللّه، فكأنَّها لشِدّة مخالطتِها لهم صاروا ظرفًا لها لا يخرج شيءٌ من أحوالِها عنهم، ويؤول المعنى إلى شِدّة الموافقة والتّآلف فيما بينهم، بحيثُ لا تخرج من زمرة عباده الصّالحين. والمعنى: ادخلي في زمرة عبادي، فالظّرفيَّة حقيقيَّةٌ، وتؤول إلى معنى المعيَّة[2]، كقولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النِّساء: 69].

**دلالة استعمال مفردة ﴿عِبَٰدِي﴾ مضافةً إلى الضّمير:**

أوثِر استعمالُ مفردة ﴿عِبَٰدِي﴾ دون غيرِها مع الإضافة إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 343.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 344.

ضمير الجلالة؛ للإشعار بأنَّ المَرضيَّ عنهم هم العِباد الحقيقيُّون الذين آمنوا به وأخلصوا له سبحانه، فيستحقّون رحمتَه وجنّته، وغيرُهم من الكافرين لا يستحقّون هذا الوصفَ، مع أنَّهم عبادُه وهو خالقُهم، والإضافة إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ بالإنعام والإكرام، والمراد: العِباد الصّالحون، بقرينة مقام الإضافة إلى ذاته سبحانه مع قَرنِه بقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾، فهو كقولِه تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾ [العنكبوت: 9](1).

المَـرضيُّ عنهم يـوم القيامة هـم العِـبادُ الحـقيـقيُّون المُسـتحـقّون للثّواب الجزيل

## نُكْتَة تكرارِ الأمر بفعل (ادْخُلي):

لمّا اختلف متعلَّق الأمر بالدّخول في قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، دلَّ على أنَّ الدّخول الأوّل إمّا أن يكون دخولًا حقيقيًّا، بمعنى أن يكون عبادُه في موضعٍ خاصٍّ يجتمعون فيه قبلَ دخول الجنَّة مفصولين عن غيرِهم، وإمّا أن يكون على الاستعارة بتشبيه أمر النّفس بكونِها في زمرة عبادِه بالدّخول إلى موضعٍ مختصٍّ بهم على سبيل تخصيصِهم وتشريفِهم، وأمّا الدّخول الثّاني فهو حقيقيٌّ وهو دخولُ جنّتِه سبحانه. كما أنَّ في تكرار الأمر بالدّخول إشعارًا بالاهتمام بالدّخول بخصوصه تحقيقًا للمَسرَّة للنّفس المطمئنّة(2)، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ ختامَ أمرِ المؤمن ونهايةَ مطافِه هو دخولُ جنّته سبحانه.

من بدأ بالصّحبة الـطّـيِّـبة كـان ختامُه في الإقامة الطّيّبة

## نُكْتَة تقديمِ الأمر بالدّخول في العباد على دخول الجنّة:

دلَّ الدّخول الأوّل على اكتساب الدّاخل شرفَ الصّحبة، والدّخولُ الثّاني دلّ على اكتساب الدّاخل شرفَ الإقامة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الصّحبة الطّيّبة تقود إلى طيب الإقامة.

الصّحبة الطّيّبة تقود إلى طيب الإقامة

## نُكْتَة تعديةِ فعلِ (ادْخُلي) الأوّل بحرف ﴿فِي﴾ والثّاني بنفسه:

عُدّيَ فعلُ (ادْخُلي) بحرف الجَرِّ في الأوّل وبنفسِه في الثّاني؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 345.

فقال تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، ونُكْتَة اختلافِ التّعديَة: الإشعارُ بأنَّ الدّخول الأوّل هو دخولٌ على معنى الظّرفيَّة؛ ليُفيدَ الاجتماعَ والأُلفة مع العباد الصّالحين، وأمّا تعديةُ الفعلِ بنفسِه في قولِه: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ فهو لإفادة أنَّها تدخل جميعَ الجنَّة، وليس في موضعٍ مخصوص منها، ففيه زيادةٌ في الإكرامِ والإنعامِ.

تنوّعُ تعديةِ الفعلِ لتنوّعِ المعنى المقصود

**نُكْتَة إفرادِ الجنّة:**

جاء لفظُ ﴿جَنَّتِي﴾ مُفردًا لإفادة أنَّ مراتب الجَنَّة كلَّها هي جنَّة واحدة في كونها دارَ كرامةٍ وإنعام، وأنَّ من دخل جنَّته فهو من أهل الكرامة، وإنِ اختلفت المراتبُ وتنوّعت الجِنانُ.

**دلالة إضافة الجنّة إلى الضّمير:**

أُضيف لفظُ الجنَّة إلى ضمير المتكلِّم العائد إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿جَنَّتِي﴾ إضافةَ تشريف[1]، بمعنى أنَّ الجنَّة إنَّما كانت موضعَ كرامةٍ وشرفٍ؛ لِكونِها جنَّتَه سبحانه، فأصلُ الأمرِ ومآلُه راجعٌ إلى فضلِه وكرمِه سبحانه.

كرامة الجنَّة وشرفُها لِكونِها جنَّتَه سبحانه

## الفُروقُ المُعْجَميَّة:

**الرّجوع والعَود:**

الرّجوع: هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبلُ، بعد أداء أمرٍ والانتهاء منه، ويَدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]، فإنَّه رجع بعد أداء أمرٍ مع ربِّه. وقولُه: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التّوبة: 122]، فإنَّهم يرجعون إليهم بعد تفقّههم في الدّين وأداءِ هذه المُهِمّة.

الرُّجوعُ هو رجوعٌ إلى المبدأ، والعَود تكرار العادة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 345.

والعَوْدُ يستعمل غالبًا في فعلِ عادة قديمة، أو تكرار فعلٍ ما، فالعَود متعلّقٌ بتكرار فعلِ، ومنه العادَةُ التي هي اسم لتكرير الفعل[1]، كما قد يستعمل في معنى المصير، من غير نظرٍ إلى أنَّه كان في مبدئِه عنده، وقد يُستعمل العَودُ في معنى الرّجوع إلى مبدأ كان عندَه من قبلُ، وهو بمعنى الرّجوع، ويستعمل كذلك بمعنى صار، فلا يستدعي الرُّجوعَ الى حالَة سابِقَة، بل عكس ذَلِك، وهوَ الاِنْتِقال من حالَة سابِقَة إلَى حالَة مستأنفة، والعرب تَقول: (عاد فلان شَيخًا) وهوَ لم يكن شَيخًا قطّ[2]، ويستعمل في ابتداء الشّروع في الشّيء مجازًا، إذ يُقال: قد عاد إليَّ من فلان مكروهٌ، وإن لم يكن قد سبقه مكروه قبلَ ذلك[3].

ونُكْتَة استعمالِ الرّجوع في قولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ دون أن يُقال: عودي إلى ربِّك؛ الإشعارُ بأنَّ رجوع النّفسِ هو رجوعٌ إلى خالقِها وفاطرِها، فهو رجوع إلى مُبْدِئِها بعد أدائِها مهامِّها في عبادة ربِّها وطاعتِه.

(1) الرّاغب، المفردات: (عود).

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 657.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 355.

# سُورَةُ البَلَدِ

# سُورَةُ البَلَدِ

## ❁ التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّيُّ والمدنيُّ وعد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة اتّفاق المُفسِّرين على مَكّيّتها، ولكنّه نقل عن بعضهم أنّه قال: هي مدنيّةٌ[1] ولم يُعلِّق عليه، وبمكّيّتها جَزَمَ القرطبيُّ[2]، وكذلك السّيوطيُّ الذي نقل قولًا بمدنيّتها وقولًا آخر بمدنيّة الآيات الأربع الأولى منها، ثمّ عقّب قائلًا: "وقوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يَردُّ القولَ بأنّها مدنيّةٌ"[3].

وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "وهي عشرون آيةً في جميع العدد، ليس فيها اختلافٌ"[4].

### ترتيبُ النزول وترتيب المُصحف:

جاء ترتيبُها المُصحفيُّ بين سورتيّ الفجرِ والشّمسِ

هذه السّورة هي التّسعون في التّرتيب المُصحفيِّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتيّ (الفجر) و(الشّمس).

وَأمّا ترتيبها النّزوليّ، فعُدَّت السّورَةَ الخامسةَ والثّلاثين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة (ق)، وقبل سورة (الطّارق)[5].

### فضائلُ السّورة:

هذه السّورة من سور المُفصَّلِ

لم يثبت شيءٌ من الرّوايات في فضل هذه السّورة سوى ما تقدّم فيها وفي غيرها من سور المفصّل، الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 483.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 59.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 67، 52.
(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 274.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 253، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 345، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 270.

عنه واثلةُ بنُ الأسقع ﷺ: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلْتُ بالمُفصَّلِ»(1).

**اسم السّورة ومناسبة تسميتها:**

سورةُ البلد اشتهرت بهذا الاسم وباسمِ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾

وردت تسميتها بسورة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ في صحيح البخاريّ(2)، ووردت تسمية هذه السّورة (سورة البلد) في المصاحف والتّفاسير وكتب السّنّة، وهو إمّا على حكاية اللّفظ الواقع في أوّلها، وإمّا لإرادة البلد المعروف وهو مكّة(3).

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودها: نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتُها لخالقه الدّيّان، وذلك هو معنى اسمها، فإنّ مَن تأمّل أمان أهلِ الحرم، وما هم فيه من الرّزق والخير، على قلّة الرّزق ببلدهم، مع ما فيه غيرهم، ممّن هم أكثر منهم وأقوى، من الخوف والجوع، علم ذلك"(4).

والحقّ أنّ تسميتها بـ "سورة البلد" فيه ارتباطٌ غير مباشرٍ بمحورها القائم على بيان طبيعة الإنسان عندما يُعطّل أدواتِ المعرفة ونوافذَ العِلم ويتّبع شهواتِه، فيقع في الحضيض إن هو لم يعتصم بربّه ويقتحم المفازاتِ ويتغلّب على الشّهوات، من هنا فإنّ تسميتَها بـ "سورة البلد" فيه إشارةٌ إلى رمزيّة ضعف الإنسان، ومدى حاجته إلى البوصلة التي تقوده إلى الاتّجاه الصّحيح عندما تتعطّل حواسّه، فالبلدُ الحرام هو رمزية الالتزام بدعوة نبيّ الإسلام ﷺ، حتّى يكون المسلمُ من أصحاب الميمنة. والبلد الحرام وما في الوصول إليه من مشقّة وتعب هو رمزٌ للتّضحيات والصّبر على المَشقّات.

(1) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).
(2) البخاريّ في صحيحه، باب: تفسير سورة (لا أقسم): 4/ 1888.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 345.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 190.

## المحورها العامِّ للسّورة:

محور السّورة يقوم على بيان طبيعة الإنسان وما أكرمَه الله تعالى به من نِعَم

المِحور الذي قامت عليه السّورةُ الكريمة يتلخّص في تناولها لأسباب الشّقاء البشريّ، من تعطيلٍ لأدوات المعرفة والانتفاع، ولتناولها مظاهرَ هذا الشّقاء من اغترار الإنسان بنفسه وظنّه أنّ بمقدوره أن يفعل ما يريد، ولتناولها آثارَ هذا الشّقاء عليه في آخرته ودنياه، ولتناولها علاجَ هذا الشّقاء من خلال الحثّ على الأعمال التي ذكرتها السّورة الكريمة.

**وتوضح ذلك في السورة بالنقاط الآتية:**

**أوّلاً:** ابتدأت السّورة بالقَسَم بالبلديّة والوالديّة وما يشتركان فيه من معاني التّعظيم والتّقديس مع المشقّة التي تجمع بينهما، فذِكْرُ البلد يوحي بمشقّة الوصول إليه، ومشقّة الإقامة فيه، وكذلك الوالديّةُ وما فيها من معاناة ومشقّة، وإن كان البلد والوالديّة يشتركان في معاني التّعظيم والتّقديس مع المشقّة والمعاناة، وكان جواب القَسَم أنّ الإنسان خُلِق ليعيشَ هذه الكبديّة التي تُحيط به من كلّ جانب.

ثانيًا: بينت السّورة طبيعةَ الإنسان الكافرِ الذي عطَّل سمعَه وبصرَه ونوافذَ معرفتِه التي أكرمه اللّه بها؛ فطغى وتجبّر ولم يحاول أن يقتحم المفازة العظيمة في نفسه، وأن يجاهدها ليقومَ بأعمال الخير المتنوّعة.

**ثالثًا:** ذكرت السورة مصير أولئك الذين تكبّدوا المشقّة في مجاهدة أنفسهم، فكانوا إمّا من أصحاب الميمنة، وإمّا من أصحاب المشأمة، كما اقتضاها أن تُبيِّن جزاءَ كلِّ فريقٍ.

## موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

تناولت السورة الموضوعات الآتية:

مَدارُ السّورة يدور على بيان طبيعة الإنسان وأسبابِ إعراضِه عن الحقّ

**أوّلاً:** بدأت السورة بالقسم من قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إلى قوله ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾؛ حيثُ أقسم بالبلد مُعظّمًا إيّاه، ومكانةُ النّبيّ ﷺ ظاهرةٌ في هذا القَسَم ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وفي ذلك بيان لسُنّةٍ من سُنن الله في خَلْق الإنسان، وهي الكَبَديّةُ التي يُعاينها الإنسان في كثير من مراحل حياته.

**ثانيًا:** ذكرت السورة بشكل مفصل أسباب الكبديّة، وطريقَ النّجاة من هذه الكبديّة.

**ثالثًا:** ختمت السورة بالحديث عن جزاء المؤمنين بكونهم من أصحاب الميمنة، وعن جزاء الكافرين أصحاب المشأمة؛ لأنّ وجودهم كان شؤمًا على البشريّة، وعلى إخوتهم في الإنسانيّة، فلم يَسعَوا في تخليص إخوتهم من العبوديّة، ولم يُطعِموا وقتَ الجوعِ يتيمًا ولا مِسكينًا، ولم تأخذهم رأفةٌ بذي يُتمٍ ولا بذي قُربى، بل شَحّوا بأموالهم وأنفسهم، ظانّين الفرارَ من الشّقاء، فوقعوا في أقسى دركاتِه، وعاشوا الدّنيا والآخرة في كَبَد لا يعلمه إلّا الله ﷻ.

## الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت سورةُ البلد بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

**أوّلاً:** يدور موضوع السّورة الرّئيس حولَ العَقَبة، ويتّضِح ذلك من فاتحة السّورة ووسطها وخاتمتها، فقد ذكرت السّورةُ في أوّلها أنّ الرّسول ﷺ كان في حال اقتحام للعَقَبة، وهو حالٌّ ببلد الله الحرام، يَلْقَى ما يَلْقَى من العنت والمشقة في تبليغ دعوة ربه، يستحلّ المشركون حُرْمَتَهُ وحُرْمَةَ البلد الحرام، وهو لا ينثني عنِ اقتحام عقبةِ التّبليغ.

**ثانيًا:** ذكرت السّورة في وسطها الدّعوة إلى اقتحام العقبةِ، ونَعَتَ على الكفّارِ الذين لم يقتحموها، وذكَرَت في خاتمتها جزاءَ الذين لم يقتحموا العقبةَ، وأنّهم سَيَبْقَوْنَ في عقبة جهنّم أبدَ الآبدين، مطبقةً عليهم.

**ثالثًا:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بالقَسَم، فيرتبط القَسَم ومتعلّقاته وجوابُه مع محور السورة.

### الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تمـيّزت سـورةُ البلد بأساليب ميزتها عن غيرها من السّور

**أوّلاً:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت قاموسًا مُعجميًّا يتعلّق بالألفاظ المتعلّقة بالإنسان وأعضائه، مثل: الإنسان، العينان، الشّفتان، اللّسان، الرّقبة، الميمنة، المشأمة.

**ثانيًا:** تميّزت السّورة الكريمة بوفرة المصادر الميميّة فيها، حيثُ نجد أنّها حوت ستّة مصادر، وهي: مسغبة، ومقربة، ومتربة، والمَرْحَمة، والمَيْمنة، والمشأمة. ونلحظ أنّ أربعة مصادر منها جاءت في الآيات التي تحثّ على العمل والبذل لليتامى والمساكين، ومصدرَين جاءا في الآيات التي تتحدّث عن جزاء المؤمنين والكافرين.

ويلاحظ أنّ المبالغة في المعنى هي من أقوى دلالات المصدر الميميّ، وقد جاءت هذه المبالغة في المصادر المتعلّقة بالعمل، لتدلَّ على مشقّة العمل، وجاءت في المصادر المتعلّقة بالجزاء لتَدلَّ على عِظَم ذلك الجزاء ومشقّة الطّريق إليه.

**ثالثًا:** تميّزت السّورةُ الكريمة بأنّها حوت أربعةَ استفهامات تقريريّة وإنكاريّة، جاءت منسجمةً مع مقصود السّورة ومحورها، وهي قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾، وقولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، وقولُه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾، وقولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾.

**رابعًا:** تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها حوت مركّباتٍ وصفيّةً؛ مثل: ﴿مَالٗا لُّبَدًا﴾، ﴿يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾، ﴿مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾، ﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

حوت السّورةُ الكريمة بعض ألفاظ التّثنية، كما حوت كذلك بعض

الثّنائيّات المتقابلة مثل: العينيْن، والشّفتيْن، والنّجديْن، والوالد وما ولد، والتّواصي بالصّبر والمرحمة، وأصحابُ الميمنة، وأصحاب المشأمة.

**خامسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنيةً صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿حِلٌّ﴾، و﴿وَوَالِدٍ﴾، و﴿أَهْلَكْتُ﴾، و﴿عَيْنَيْنِ﴾، و﴿ٱقْتَحَمَ﴾، و﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾، و﴿فَكُّ﴾، و﴿مَقْرَبَةٍ﴾، و﴿مَتْرَبَةٍ﴾، و﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، وغيرها.

**سادسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بانفرادها بألفاظٍ فريدةٍ مادّة وجذرًا؛ وهي: ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، و﴿كَبَدٍ﴾، و﴿مَسْغَبَةٍ﴾، و﴿وَشَفَتَيْنِ﴾.

**علاقة السورة بسورة الفجر:**

جاءت سورةُ البلد في اختيار الحكيم الخبير بعد سورة الفجر، فلا بدّ لهذا التّرتيب من وشائجَ وثيقةٍ تربط هذه السّورة بسورة الفجر، وهي كما يأتي:

**أوّلًا:** تلتقي معها في عُقَدٍ متينة؛ إذ تلتقي معها في الابتداء بالقَسَم بأشرف الأوقات -وقت الفجر- .

**ثانيًا:** وكذلك جاء القَسَم في سورة البلد بأشرف البلاد، كما أنّ الفجر يحمل دلالة النّور الذي ينبثق من الظّلام. وهذه الدّلالة تلتئم تمامًا مع جواب القَسَم المحذوف الذي دلّت عليه الآياتُ في المقطع الثّاني التي تبعت القَسَم، وتحدّثت عن إهلاك اللّه للأمم السّابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، بأنّ هؤلاء الذين يحاربون النّبيَّ ﷺ ناصيتُهم بيد اللّه، وهو قادر على أخذهم - كما أخذ الأمم السّابقة - عادًا وثمود. وهذا يلتقي تمامًا مع طبيعة هذه السّور التي نزلت في العهد المكّيّ؛ لتثبيت النّبيّ ﷺ والثّلّة المؤمنة معه.

**ثالثًا:** تحدّث سورة الفجر عن الأمراض الاجتماعية المتجذّرة، التي شاركتها فيها سورةُ البلد، كطُغيان الإنسان بأكل مال اليتيم، وإهمالِ المسكين وتَركِه وحُبِّ المال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: 17 - 18]، كما تحدّثت عن طغيان السّابقين كعاد وثمود، ثمّ جاءت سورةُ البلد تُعرِّض بطُغيان أهل مكّة، الذين لم يعتبروا بسُنَّة اللّه في الطّاغين من الأقوام السّابقة، وتحثّهم على فكّ الرّقاب وإطعام

اليتامى والمساكين، غيرَ أنّ سورة الفجر جاء فيها هذا الطّغيان على هيئة أوصاف وصفتهم بها، وأمّا سورةُ البلد فقد جاء فيها الحديثُ عن هذا الأمر على هيئةٍ تحضّ السّامع على إتيان هذه الفضائل، لتبقى الفرصة قائمة أمام هذه الأمّة لتتدارك أخطاء السّابقين.

**رابعًا:** إنّ سورة الفجر بيّنت أسبابَ الابتلاءِ والهلاك، وسورةَ البلدِ بيّنت طريقَ النّجاةِ منه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾.

**خامسًا:** عرضت السورتان مشهدَ القيامة والجزاء، وهو مشهدٌ مشترَكٌ بين سورتيّ الفجر والبلد، إلّا أنّ لكلِّ سورةٍ طريقةً خاصّةً بها في التّعبير عن هذا المشهد، بما يلتئم مع جوّ السّورة العامِّ.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ [البلد: 1 - 4]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإقسام بأعظم البلاد - وأفضلُ الخلق حالٌّ فيها - وبأفضل الخَلْق بعده

ذكر العلماء في مناسبة السّورة لما قبلها أقوالًا؛ منها: أنّه تعالى ذمّ في السّورة السّابقة من أحبّ المال وأكل التّراث، ولم يَحُضَّ على طعام المسكين، وذكر هنا الخصال الّتي تُطلب من صاحب المال من فكّ الرّقبة والإطعام في يوم المسغبة. ومنها: أنّه سبحانه بعد ما ختم السّورة السّابقة بالنّفس المطمئنّة، افتتح هذه مُقسِمًا بأعظم البلاد وأشرفها لأولي الأنفس المطمئنّة، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان؛ وهو الإيمان والتّواصي بالصّبر. ومنها: أنّه تعالى لمّا ذكر في السّابقة ابتلاءه للإنسان بحالة التّنعيم، وحالةِ التّقدير، وذكر من صفاته الذّميمة ما ذكر، وما آل إليه حالُه وحالُ المؤمن؛ أتبعه في هذه السّورة بنوع من ابتلائه، ومن حاله السّيّئ، وما آل إليه في الآخرة[1].

ومن مناسبات السّور الثّلاث المتعاقبة: (الفجر والبلد والشمس) أنّه سبحانه افتتح السّور الثّلاث بالقَسَم، وكان القَسَم في السّور الثّلاث بمُقسَمٍ به مُتعدِّدٍ.

ومنها: أنّه أقسَم في الأولى (سورة الفجر) بأفضل الأزمنة، بأن أقسم بأفضل ساعات اللّيل والنّهار ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾ [الفجر: 1]، وبأفضل اللّيالي ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢﴾ [الفجر: 2]، وبأفضل الأيام على أرجح الوجوه مع الاختلاف في المُراد بها ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر: 3]، وباللّيل حالَ سُراه، وهو آخره قُبَيْل الفجر، وسُرَى خاصّةِ عباده فيه ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 46، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 05/ 32.

يَسۡرِ ۝٤﴾ [الفجر: 4]، وأقسم في الثّانية (سورة البلد) بأفضل الأماكن مقيّدًا ذلك بكونه ﷺ حِلًّا به، وبعلاقة الوالديّة على العموم، أو ممثلةً في أشرف أشخاصها وأفضلهم، فأقسم سبحانه بأفضل البلاد، مَكّةَ أمِّ القُرى، البلدِ الحرام ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وقيّد القَسَم به بحلول أفضل الخَلْقِ على الإطلاق فيه، وهو رسولُ اللّه ﷺ، إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأنّ شرف المكان إنّما يزداد ويعظم بشرف أهله. أو قيّد القَسَم باستحلال أهل مكّة حرمتَه وهو فيه، مع أنّه أشرفهم نسبًا وأفضلهم مكانةً، أو قيّد القَسَم بجَعْله تعالى إيّاها حِلًّا له وقتَ فتحِها ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وأقسَم بأفضل أنواع المخلوقات الذين فضّلهم على غيرهم، وهم آدمُ وأولادُه، لأنّ كلّ إنسان إمّا والِدٌ، وإمّا ولَدٌ، أو بأفضل والد وأشرف ولد، على تفصيلٍ سيأتي إن شاء اللّه تعالى في قوله: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾.

وأقسم ﷻ في الثّالثة (سورة الشّمس) بالزّمان وآياته، وبالمكان في إحكامه وإتقانه، وبالمُكلَّفين وإلهامِه لهم الخيرَ والشّرَّ، فأقسم بآية النّهار وهي الشّمس في شِدّة ضحوها وتوهُّجِها ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشّمس: 1]، وبالقمر في قوّة ضوئه عند اكتماله ومجيئه بعد الشّمس في الزّمان وفي القوّة ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: 2]، وبالنّهار في جلائه ظلامَ الأرضِ بنوره ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشّمس: 3]، وباللّيل في غشيانه الأرضَ بظلامه ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشّمس: 4]، وبالسّماء وإحكام بنائها ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشّمس: 5]، وبالأرض في إتقان طحوها ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشّمس: 6]، وبنفوس المكلّفين وتمامِ تسويتهم وحُسْن تصويرهم، وإلهامِهم سبلَ الفجورِ والتّقوى، بأن هداهم النّجدَين، ليُثيبَ من زكّى نفسَه، ويعاقبَ من دسّاها، ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشّمس: 7 - 8].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾: (بلد) أصلٌ يدلّ على ظاهرٍ مُصمَت متّسعٍ، بحيثُ يُحتَبس فيه ولا ينفذ منه ما يُتَوقَّع أو يُعتاد نفاذُه، ومن ذلك: البَلَد: كلّ موضع متحيّزٍ من الأرض، والبلد المسكون: مساحةٌ خالية متميزّة تُتَّخذ للإقامة، والإقامةُ احتباس، وقد قيل: "البَلَد من

الأرض ما كان مأوى الحيوان، وإن لم يكن فيه بناء"[1]. وبَلَدَ الرَّجُلُ بالأَرْضِ: لَزِقَ بها، وبَلَدَ بالمكان: أقام به، فهو بالِدٌ، والبَلَد: المكان المُحيط المحدود المتأثِّرُ باجتماع قُطّانه وإقامتِهم فيه، وهو كلُّ موضعٍ متحيّز من الأرض، عامرٍ أو غيرِ عامرٍ، خالٍ أو مَسكون، والطّائفة منه بَلْدةٌ، والجميع البِلاد. والبَلَدُ اسمٌ يقع على الكوَر. ورُبَّما عُنيَ بالبَلَد التُّرابُ[2]، وجمعُه: بلادٌ وبُلدان، وسمّيت المفازة: بَلَدًا؛ لكونها موطنَ الوحشيّات، والمقبرةُ بَلَدًا لكونها موطِنًا للأموات[3]. والبلد المقصود في الآية: مكّة.

2) ﴿حِلٌّ﴾: (حلّ) أصله فتحُ الشّيء، بفكّه أو توسعَتِه أو تَسْييبه، يُقال: حللتُ العقدةَ أحلّها حَلًّا. والحلال: ضِدّ الحرام، وهو من الأصل المذكور، كأنّه من حللتُ الشّيء، إذا أبحتُه وأوسعتُه لأمرٍ فيه. وحَلّ: نزل، وهو أيضًا من هذا الباب؛ لأنّ المسافر يشدّ ويعقد، فإذا نزل حلّ، يُقال: حللت بالقوم[4]. والحِلُّ: الإباحةُ والإذنُ والجَوازُ، وضِدُّه: الحُرمَة والمَنع، يُقال: حَلَّ الشَّيءُ، يَحِلُّ، فهو حلالٌ، أي: صارَ مُباحًا مَأذونًا فيه بعدَما كان مَمنوعًا[5]، وحلَّ الدَّينُ: وجَبَ، والحِلُّ ما جاوز الحرم، وحلَّتِ المرأةُ: خرجت من عدّتها، وحلَّ المُحرِمُ: جاز له ما كان ممنوعًا أثناءَ إحرامه، خرج من إحرامه[6]. فمعنى ﴿حِلٌّ﴾ على الأرجح أنَ مكّةَ مباحةٌ للنّبيّ ﷺ عند فتحها ساعةً من زمان[7].

3) ﴿كَبَدٍ﴾: (كبد) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على شِدّةٍ في شيءٍ وقوّةٍ، من ذلك الكبَدُ، وهي المَشَقَّةُ. يُقال: لقي فلانٌ من هذا الأمر كبَدًا، أي: مشقَّةً. وكابدت الأمر: قاسيته في مشقّة[8]. أو يدلّ على اشتدادِ ما شأنُه التّسيُّبُ، وجمودِه وتَماسُكِه، إذ الكَبِدُ دَمٌ مُتَجَمِدٌ، والأصل في الدّم أنّه سائِلٌ[9]. والكَبَدُ في الآية هو المشقّة[10].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبل).
(2) الخليل، العين: (بلد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حل)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حل)، و(حلحل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلل).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (حلل).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 402.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبد).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كبد).
(10) الرّاغب، المفردات: (كبد).

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تعظيم البلد الحرام وساكنِه ﷺ

أقسم اللّه سبحانه بهذا البلدِ الحرام، وهو مكّةُ، وأخبر نبيّه ﷺ بأنّه حلالٌ في هذا (البلد الحرام) يصنع فيه ما شاء من قتل وأسر، ولم يحلّ له إلّا ساعةً من نهار. وأقسم بوالدِ البشريّة - وهو آدمُ عليه السلام - وما تناسلَ منه من ولد، على أنّ الإنسان خُلق في شِدّة وعناء في الدّنيا[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### براعة استهلال السّورة بالقَسَم:

التّشويق لِما يَرِد بعد القَسَم

افتُتِحَ قولُه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ بأسلوب القَسَم، والنّكتة في ذلك التّشويق لما يَرِد بعدَه، وأُطيلت جملةُ القَسَم زيادة في التّشويق، ومعلوم أنّ العظيم لا يُقسِم إلّا بعظيم، فلمّا وقع القَسَم بالبلد مع أنّه لا يدلّ على صفة من صفات الذّات الإلهيّة، ولا من صفات أفعاله؛ دلّ ذلك على تعظيم اللّه تعالى إيّاه وتفضيله[2].

### نوع ﴿لَآ﴾، ودلالتُها في مطلع السّورة:

توكيد القَسَم بحرف النّفي

ورد في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ حرف ﴿لَآ﴾ قبل فعلِ القَسَم، فذهب جمهور المفسّرين إلى كونها نافيةً، ثمّ اختلفوا في توجيه النّفي على أوجه؛ منها: أنّه لا يُقْسِمُ بالشّيءِ إلاّ إعظامًا له، يَدُلّ عليه قولُه تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 75 - 76]، فكأنّه بإدخالِ حرفِ النّفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كَلا إعظامٍ، يعني: أنّه يَسْتَأْهِلُ فوقَ ذلك.

اللـه تعالى عظيمٌ لا يُقسمُ إلّا بعظيم

ومنها: أنّ النّفي هنا لزيادة وضوحِ المُقْسَم عليه، بحيثُ لا يحتاج إلى قَسَمٍ، كأنّه تعالى يقول: إنّي لا أُقسِمُ إلّا بعظيم، مع أن هذا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 402، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 594.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 346.

المُقْسَم عليه لا يحتاج إلى قَسَم، لشِدّة وضوحه، وكثرةِ معاينته، فهو معلوم من الواقع بالضّرورة.

الله تعالى غيرُ محتاج إلى القَسَم

وذهب بعض العلماء إلى كون ﴿لَآ﴾ هنا صلة؛ أيّ: مزيدةٌ لتوكيد القَسَم. مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: 29]، مع أنّ أصلها نافية تدلّ على أنّ القائل غير محتاج إلى القَسَم، لأنّ الأمر واضح الثّبوت، ثم كثُر هذا الاستعمال فصار مُرادًا به تأكيدُ الخبر، فساوَى القَسَم؛ بدليل قولِه عقبَه في موضع الواقعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، وهذا الوجه الثّاني هو الأنسب بما وقع من مثله في القرآن. وعلى كِلا الوجهَيْن فهو إدماجٌ للتّنويه بشأن ما لو كان مُقسَمًا لأقسم به[1].

### بلاغة استعمال فعل القَسَم دون نظائره:

القَسَمُ أبلغُ من الحَلِفِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ التّعبيرُ بفعل ﴿أُقْسِمُ﴾ دون نظائره كـ (أحلف) مثلًا؛ لنُكتة كونِ القَسَم أبلغَ من الحَلِف، فمعنى قولِ المُقسِم: "أُقسمُ باللّه" أنّه صار ذا قَسَم باللّه، والقَسَم النّصيب، والمُراد: أن الّذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم باللّه. أمّا الحَلِف فمن قولك: "سيفٌ حليفٌ"؛ أي: قاطع ماض؛ فإذا قلت: "حلف باللّه"؛ فكأنّك قلت: قطع المخاصمة باللّه، فالأوّل أبلغُ لأنّه يتضمّن معنى آخر مع دفع الخصم ففيه معنيان، وقولنا: "حلف" يفيد معنًى واحدًا؛ وهو قطع المخاصمة فقط[2].

القَسَم يكون لمُطلق اليمين، ويختصّ الحَلِف بالحنث في اليمين

وكذلك يلفت صنيع القرآن إلى فرق دقيق بين (القَسَم) و(الحَلِف)، فإن لم نَقُلْ إنّ القَسَم لليمين الصّادقة - حقيقةً أو وهمًا - والحَلِف لليمين الكاذبة على إطلاقها، فلا أقلّ من أن يكون

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 10/ 561، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 330.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 56.

بين دلالتهما الفرق بين العامّ والخاصّ، فيكون القَسَم لمطلق اليمين بعامّة، ويختصّ الحَلِف بالحنث في اليمين، على ما اطّرد استعمالُه في البيان القرآنيّ"[1].

**نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع ﴿أُقْسِمُ﴾:**

دلالة المضارع على التَّجَدُّدِ والاستمرار في الحال والاستقبال

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ بصيغة المضارع في الفعل ﴿أُقْسِمُ﴾ دون غيره؛ للدّلالة على تَجَدُّدِ هذا القَسَم واستمراره في الحال والاستقبال ما دامت السّماوات والأرض، فيكون من أغراض المُقْسِم من القَسَم هو تأكيد المُقْسَم عليه؛ أيْ: جواب القَسَم؛ وهو هنا قولُه سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، بدلالة فعل القَسَم على التّجدد والاستمرار والدّوام؛ أيْ: خلقناه في كبد، وسيَظَلُّ الكَبَدُ مُستمرًّا معه مُحيطًا به من كلِّ جانبٍ.

**بلاغةُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِهَٰذَا﴾:**

الدّلالة على المصاحبة والملابسة

الباء في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ دالّةٌ على القَسَم، وهي الأصل في حروف القَسَم، أي: هي الأصل في الحروف التي يتعدّى بها فعلُ القَسَم، ولذَلِك خُصّت بجواز ذِكْر فِعْلِ القَسَم مَعها، نحو: أُقْسِمُ باللّه لتفعلن، لدلالتها على المصاحبة والملابسة في أصل معانيها، ولهذا فهي تدخل على الظّاهر والمُضمَر، بخلاف غيرها الدّاخلة على الظّاهر فقط، كما أنّ الواو والتّاء لاحقتان بها في القَسَم الإنشائيّ دون الاستعطافيّ"[2].

**بلاغة استعمال اسم الإشارة دونَ الاكتفاء بالمُشار إليه:**

تعظيم بلد الله الحرام، وتمييز المُقْسَم به أكملَ تمييز

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ باسم الإشارة (هذا) مع بيانه بلفظ ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ لنُكتة تمييزِ المُقسَم به أكملَ تمييز، حتّى لا يَدَّعيَ أحدٌ أنّ المُراد بلدٌ آخرُ غيره، ولقصد التّنويه به وتعظيمِ شأنه[3].

(1) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 224.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 346.

### بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للقريبِ دونَ البعيدِ:

للتّنويه بقُرْبِه إلى قلوب النّاس وحضوره في أذهان السّامعين

قد أوثِر استعمالُ اسمِ الإشارة للقريب دونَ البعيد؛ لنُكتة الإشارة إلى أنّه قريب إلى القلوب وحاضرٌ في أذهان السّامعين كأنّهم يرونه، لأنّ رؤيته متكرّرةٌ لهم، وهو بلد مكّة، ومثله ما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ [النّمل: 91][1]، ناهيك عن القُرب الحِسّيّ والحضور المُشاهَد لِمَن نزل القرآنُ فيهم، ولِمَن لا يزالون بها أو قريبٍ منها، وبذلك يُجمَع بين القُرب الحِسّيّ والمعنويّ.

### نُكْتَة استعمالِ مفردة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ دون (القرية):

البلد صدر القُرى المُتأثِّر باجتماع قُطّانه

أوثِر في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ دون القرية؛ لاختصاصه بزيادة معاني عن مطلق التَقرّي والتّجمّع، فهو في اللّغة المكان المحدود المُتأثِّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بلاد وبُلدان. وهو - أيضًا - كلّ قطعةٍ من الأرض متحيّزةٍ عامرةٍ أو غيرِ عامرة، ولهذا يُطلَق على القبر والمَقبرة والدّار والأثر، وأصل ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ من قولهم: بَلَد بالمكان بلودًا، أقام ولزمَه أو اتّخذه بلدًا، أو يكون من الصّدر، فالبلد صَدرُ القُرى[2].

### فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾:

الدّلالة على معهود في الأذهان لشُهرة إطلاق البلد على مكّة

جاء لفظُ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ معرّفًا بـ(أل) التّعريفيّة الدّالّة على العهد، ليُعلَمَ أنّ المُراد المقصود منه بلدٌ معهود في القلوب والأذهان، وهو مكّة بإجماع المفسّرين، وقد تكرّر في القرآن إطلاقُ هذا اللّفظ على مكّة، كما في قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ [النّمل: 91]. وقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [التّين: 3] وقوله تعالى: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: 35]، كأنّه لا يَستحِقُّ اسمَ البلدِ أو الاتّصافَ به من بين سائر البلاد - حقيقة أو مبالغة - إلّا مكّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 346.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (بلد)، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 26.

## بلاغة الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ﴾:

تنوّعُ المعنى وثراؤه باحتمال كونِ الواو للحال أو للاعتراض

يجوز في الواو من قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ وجهان؛ أحدهما: أن تكون واو الحال والجملة بعدها حاليّة، بمعنى: لا أُقْسِمُ بهذا البلدِ وأنت حالٌّ بها لِعِظَمِ قَدْرِك، أي: لا يُقْسَمُ بشيءٍ وأنت أحَقُّ بالإقسام بكَ منه. وقيل: المعنى لا أُقْسِم به وأنت مُسْتَحَلٌّ فيه، أي: مُسْتَحَلٌّ أذاكَ. وثانيهما: أن تكون الواو للاعتراض، والجملةُ اعتراضيّةٌ على أحد معنَيَيْن؛ إمّا على معنى أنّه تعالى أقْسَمَ بهذا البلدِ وما بعدَه على أنَّ الإنسانَ خُلِقَ في كَبَدٍ واعتُرِض بينهما بهذه الجملةِ، يعني: ومن المكابَدَةِ أنَّ مثلَكَ على عِظَمِ حُرْمَتِك يُسْتَحَلُّ بهذا البلدِ كما يُسْتَحَلُّ الصَّيْدُ في غير الحَرَم، وإمّا على معنى: أنَّه أقْسَم ببلدِه على أنَّ الإنسان لا يَخْلوا مِنْ مَقاساةِ الشّدائد. واعْتُرِض بأن وعَدَه فتحَ مكّةَ تَتْميمًا للتّسلية، فقال: وأنتَ حِلٌّ به فيما تَسْتَقْبِلُ، تصنعُ فيه ما تريدُ من القَتْلِ والأسْرِ، على أنّ ﴿حِلُّۢ﴾ بمعنى حَلال، قال معنى ذلك الزّمخشريّ[1]، ولا مانع من إرادة هذه المعاني كلّها، بل وغيرِها من المعاني طالما يحتملها الكلامُ، وهذا من بلاغة القرآن العجيبة.

## بلاغةُ الثّراءِ الدّلاليّ للفظ ﴿حِلُّۢ﴾:

تناقض المشركين من أهل مكّة في اعتقاداتهم

تنوّعت أقوالُ المفسّرين في معنى ﴿حِلُّۢ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ حسبَ القولِ بأصل اشتقاقه ونوع صيغته. أمّا أصلُ اشتقاقه: فمنهم مَن جعله اسمَ مصدرٍ للفعل (أحَلَّ)؛ أيْ: أباح؛ فالمعنى: وقد جعلك أهلُ مكّةَ حلالًا بهذا البلدِ الّذي يَحْرُم أذى صيدِه وعَضْدُ شجرِه، وهم مع ذلك يُحِلّون قتلكَ وإخراجَكَ.

ويجوز أن يكون مُشتقّا من الحِلّ، وهو ضِدّ المنع، أيِ: الّذي لا

(1) السَّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 11/ 05.

من نصرة الله لنبيّه أنّه ﷺ هاجر مُضطرًا وعاد منتصرًا

تَبِعَة عليه فيما يفعله. واختاره الطّبريّ بقوله: "وأنتَ يا مُحمّد ﷺ حِلٌّ بهذا البلد؛ يعني: بمكّة، يقول: أنتَ به حلالٌ تصنع فيه من قتل مَن أردتَ قتلَهُ، وأَسْر مَنْ أردتَ أَسْرَه، مُطلقٌ ذلك لك؛ يُقال منه: هو حِلٌّ، وهو حلال، وهو حِرْم، وهو حرام"(1).

جمعت مكّة بين شرف إضافتِها إلى الله تعالى، وبين شرف إقامتِه ﷺ فيها

وحكى ابن عطيّة عن بعض المُتأوِّلين: أنّ معنى وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد أنّه حالٌّ، أيْ: ساكِنٌ بهذا البلد، وجعلَه ابنُ العربيّ قولًا، ولم يَعْزُه إلى قائل، وحكاه آخرون، فيكون القَسَم بالبلد مقيّدًا باعتبار كونه بلدَ محمّدٍ ﷺ، فأقسم بمكّة لما جمعت من الشّرفين، شرفِها بإضافتها إلى الله تعالى، وشرفِها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، فصارت أهلًا لأن يُقْسَم بها(2).

## بلاغةُ التّعريضِ في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾:

التّعريض بالمشركين في عدوانهم وظُلْمِهم للنّبيّ الأمين

يتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ فنُّ التّعريضِ، وهو كون معنى الكلام مفهومًا من عُرضه؛ أيْ: جانبه(3). فعلى القول بأنّ ﴿حِلٌّ﴾ اسم مصدر (أحلّ)؛ أي: أباح؛ فالمعنى: وقد جعلك أهلُ مكّة حلالًا بهذا البلدِ الذي يحرم فيه أذى صيده وعَضْدُ شجره، وهم مع ذلك يُحلّون قتلَكَ وإخراجَكَ، فيكون المقصودُ التّعريضَ بالمشركين في عدوانهم وظُلْمِهم الرّسولَ ﷺ في بلد لا يظلمون فيه أحدًا. والمناسبة ابتداءُ القَسَم بمكّة الّذي هو إشعارٌ بحُرمتِها المقتضيةِ حُرمةَ مَن يَحِلّ بها؛ أي: فهم يُحَرِّمون أن يتعرّضوا بأذًى للدّواب، ويعتدون على رسولٍ جاءهم برسالةٍ من الله سبحانه.

للنّبيّ ﷺ خصوصيّةٌ اختصّه الله بها

كما يُستفاد منه التّعجيبُ من مضمون الجملة؛ وعليه فالإخبار

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 402.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 483، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 479 - 480، وقد ردّ ابن عاشور هذا الرّأي، ينظر: التّحرير والتّنوير: 30/ 348.

(3) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.

عن ذات الرّسول ﷺ بوصف ﴿حِلٌّ﴾ يُقدّر فيه مُضاف يُعَيّنُه ما يصلح للمَقام؛ أي: وأنت حلال منك ما حرُم من حقٍّ ساكن هذا البلد من الحُرمة والأمن[1].

اختصاصُ النّبيّ ﷺ بحِلّيّة البلدِ الحرام، أو بأذى المشركين له فيه

## نُكْتَةُ تقديمِ المُسنَد إليه (أنت):

تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ المسند إليه (أنت) لنُكْتَة اختصاصِ النّبيّ ﷺ بحِلّيّة البلد الحرام ليفعلَ به ما يشاء، كما دلّ عليه خبرُ ابنِ عبّاس فيما أخرجه عنه ابنُ جرير وغيره: "وأنتَ يا محمّد يحلّ لك أن تُقاتل به. وأمّا غيرُك فلا". وقال مجاهد: "أحلّه اللّه تعالى له ﷺ ساعةً من نهار، وقال سبحانه له: ما صنعت فيه من شيء فأنتَ في حِلٍّ لا تُؤاخَذ به"[2]. وقال ﷺ: «إنّ اللّه تعالى حرّم مكّة يومَ خلق السّماوات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم السّاعةُ، لا تحلّ لأحد قبلي، ولن تَحِلّ لأحد بعدي، ولم تحِلّ لي إلّا ساعةً من نهار، فلا يُعضَدُ شجرُها، ولا يُختلى خلاها، ولا يُنَفَّرُ صيدُها، ولا تحِلُّ لُقَطَتُها إلّا لمُنشِدٍ»[3].

سفاهةُ المشركين وتناقضُهم في إيذائِه ﷺ

أو: اختصاصُ النّبيّ ﷺ بأذى المشركين له فيه، فقد استحلّ أهلُ مكّة دمَك بهذا البلدِ الذي يحرم فيه أذى صيدِه وعَضْدُ شجرِه، فكيف يُحَرِّمُ المشركون التّعَرُّضَ بأذًى للدّواب، ويعتدون على رسول اللّه ﷺ، وتعريضٌ بالمشركين في عدوانهم وظلمهم الرّسولَ ﷺ في بلد لا يظلمون فيه أحدًا.

تباين المعنى بينهما، أو للتّعجب والتّعجيب بالإظهار في مقام الإضمار

## نُكْتَةُ تكرارِ جملة ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾:

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ تكرّر لفظِ ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، ونُكْتَة تكراره تغيّرُ المعنى، فليس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 347.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 350.

(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1834)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1353).

تكرارًا على التّحقيق، إذِ التّقديرُ: لا أُقسم بهذا البلدِ المُحرَّم، الّذي جُبلت العربُ على تعظيمه وتحريمه، ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ أي: أُحِلَّ لك فيه من حُرماتِه ما لم يَحِلَّ لأحدٍ قبلَكَ ولا بعدَكَ، من قتلِ "ابن خَطَل" وقتالِ المشركين ساعةً من نهار، فالمُراد بالبلد الأوّل الباقي على تحريمه، وبالثّاني الّذي أُحلَّ للنّبيّ ﷺ إكرامًا له، وتعظيمًا لمنزلته[1].

مكّة قدرُها عند النّبيّ ﷺ وعند مشركي مكّة

كما يمكن أن يكون تكرارُ لفظِ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ من باب الإظهار في مقام الإضمار، وذلك لقصد تجديد التّعجيب، ولقصد تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه والتّشديد على المشركين أن يخرج عن حَوزتهم، وفيه أيضًا إظهارٌ لمزيد فضله بحلوله ﷺ فيه[2].

### فائدة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَوَالِدٖ﴾:

تنويع القَسَم للدّلالة على عِظَم المُقسَم عليه

عُطِف قَوْلُه تعالى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالّةِ على الجمع والاقتران، فبعدَ أن أقسم اللّه سبحانه بالبلد الحرام، جمع إلى ذلك القَسَم بالوالد وما ولد، وذكر بينهما الجملةَ الحاليّة أو الجملةَ المعترضةَ بين المعطوف والمعطوف عليه، وهي قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ تأكيدًا على عظَمة المُقسَم عليه[3].

### بلاغة القَسَم بلفظ (والدٍ):

احتمال اللّفظ التّعميم والتّخصيص

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ القَسَمُ بالوالد وما ولد، فيُحتمل أن يكون الوالد النّبيّ ﷺ لتقدّم ذِكْره، وما ولد أُمّته، لقوله ﷺ: «إنّما أنا لكم بمنزلة الوالد»[4]، فأقسم تعالى به وبأُمّته بعد أن أقسم ببلده، مبالغةً في شرفه ﷺ، ويحتمل أن يكون الوالد آدمَ أو نوحًا أو إبراهيمَ عليهم السلام، قال مجاهد: "آدم عليه السلام وجميع ولده. وقيل:

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 612.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 349، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 29.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 165.
(4) التّرمذيّ في سننه، برقم: (2346)، وحسنه الألبانيّ.

والصّالحين من ذرّيّته. وقيل: نوح عليه السلام وذرّيّته. وقيل: إبراهيم عليه السلام وجميعُ ولده. والظّاهر أنّ قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، لا يُراد به والدٌ معيّن، ولا ولد مُعيّن، بل ينطبق على كلّ والد؛ وهو رأيٌ لابن عبّاس[1].

### نُكْتَة تنكيرِ لفظ (والِدٍ):

إفادة التّفخيم والتّعظيم في سياق القَسَم

جاء لفظُ (والِدٍ) في قَوْله تَعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ نكرةً، ونُكْتَة تنكيره الإبهامُ المستقلُّ بالمَدح والتّعجّب، أو يكون التّنكير للإبهام والشّيوع وقَصْدِ العموم، فيشملُ كلّ والد من الحيوان. وجعل بعضُ العلماء نُكْتَة التّنكير هنا إفادةَ التّفخيم والتّعظيم، إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القَسَم، فتعيّن أن يكون المُراد: والدًا عظيمًا[2].

### بلاغة الواو في قوله: ﴿وَمَا﴾:

الجمعُ بين الوالد وولده في الذِّكر

الواو في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ للعطف، فظاهرُ السّياق الجمعُ بين الوالد وولده في الذِّكر، وأجاز بعضُهم أن تكون الواو للقَسَم على الاستئناف[3].

### نُكْتَة التّعبير بـ(ما) الموصولة دون (مَنْ):

تعظيمُ خَلْقِ الإنسانِ والتّعجيب من شؤونه والدًا وغير والِدٍ

أوثِر في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ التّعبيرُ بـ (ما) الموصولة دون (من)، مع أنّ (من) أكثرُ استعمالاً في إرادة العاقل، وهو الظّاهر هنا، لنُكْتَة المبالغةِ في الوصف، إذ تُفيد التّعظيمَ في مقام المدح، وأنّه ممّا لا يُكتنَهُ كُنهُه لشدّة إبهامها، ولذا أفادت التّعجّب أو التّعجيب وإن لم تكن استفهاميّةً، والتّعظيم والتّعجيب على تقدير أن يُراد بما ولد ذرّيةُ آدمَ عليه السلام مثلًا، قيل: باعتبار التّغليب، وقيل: باعتبار الكثرة، أو بما خصّ به الإنسان من خواصّ البشر، كالعقل وحُسْن الصّورة،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 408، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 349، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 30.

(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 24.

ومن تأمّل في شؤون الإنسان من حيثُ هو إنسان يعلم أنّه من تلك الحيثيّة مُعَظَّم يُتعجَّب منه[1].

**نُكْتَةُ التّعبير بـ (ما) النّافية دونَ غيرها:**

أوثِر التّعبيرُ بـ (ما) النّافية - على القول بذلك - دون غيرها من أدوات النّفي؛ لأنّ (ما) تُستخدم غالبًا للنّفي المُطلَق، أو للدّلالة على العَدَم، مع دلالتها على نَفْي الماضي أصالةً، والنّفي بها مُؤَكَّدٌ؛ فهي أكثرُ دلالةً على نفي الجنس من (لا).

**براعة الجِناس في الآية:**

التَّفَنُّن في جمال اللَّفظ بالتّجانس اللّفظيِّ والصّوتيّ بعد البلاغة في جمال المعنى

في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ مُحسِّنٌ بديعيٌّ يُسمَّى بجِناس الاشتقاق، حيثُ توافقت كلمتا (والِدٍ) و﴿وَلَدَ﴾ في الحروف الأصول، فكلٌّ من الوالد والولد مشتقٌّ من الولادة[2]. وهو ملحَق بالجِناس الاصطلاحيّ، لأنّ كثيرًا ما يلحق بالتّجنيس الكلمتان الرّاجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة، ولما فيه من التّجانس اللّفظيّ والصّوتيّ[3].

الولادة نعمةٌ عظيمةُ القَدْر؛ فبها يكون بقاءُ الجِنس البشريّ

فضلًا عن الجمال المعنويّ، إذِ المقصودُ من القَسَم لفْتُ الانتباه إلى عِظَم قَدْرِ هذه النّعمة من نِعَم اللّه تعالى، وهي نعمة خَلْقِ الوالد أوّلًا من العدم، ثمّ نعمةُ نَسْلِ أنثى الحَيّ منه من بطنها صغيرًا من جنسه، ولفْت الانتباه إلى عِظَم قَدْرِ النّعمة الثّانية أوضح؛ فالتّعبيرُ عن الأب والابن بجِناس الاشتقاق (بالوالديّة والوَلديّة) أَدْخَلُ في الدّلالة على عِظَمِ قدر نعمة الوِلادة، التي تكون أبرزَ سببٍ من أسباب بقاء الجِنس.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 351.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 29.
(3) الأسفراييني، الأطول: 2/ 464.

### فائدة الجمع بين الوالد والمولود:

حُرمةُ الخَلْق كلِّهم داخلةٌ في القَسَم

حمل بعضُ المُفسّرين القَسَم في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ على الشّمول، فلا يُراد به مُعيّنٌ، بل ينطبق على كلّ والد ومولود، كما قال ابنُ عبّاس: هو على العموم يدخل فيه جميعُ الحيوان.

وزاد بعضُهم: بأنّ اللّه أقسم بكلّ والدٍ وولدِه من الإنسان والحيوان والنّبات. وهذا مناسبٌ؛ لأنّ حُرمة الخَلق كلِّهم داخلةٌ في هذا الكلام[1]، ويُؤيّد ذلك أنّ (ما) الموصولة و(ما) النّافية تُفيدان العمومَ في معناه؛ لأنّ الموصول من صيَغ العموم المدلول عليه بلفظه أو بصلته، و(ما) النّافية تُفيد عمومَ المَنْفيِّ بها نفيًا عامًّا لا يحتمل التّخصيص غالبًا.

### توجيه تخصيص الوالد والمولود بالقَسَم بعد البلد:

تخصيص إبراهيمَ عليه السلام بسُكنى البلدِ الحرام

اعتبر بعضُ المُفسِّرين في تقييد قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ - على أنّ (ما) موصولة - سياقَ الآيات السّابقة، فالّذي يناسبُ القَسَم بالبلد الحرام أن يكون المُراد بـ ﴿وَوَالِدٍ﴾ إبراهيمَ عليه السلام؛ فإنّه الّذي اتّخذ ذلك البلدَ لإقامة ولده إسماعيلَ وزوجِه هاجرَ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35] ثمّ قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37]، وإبراهيمُ والد سكّان ذلك البلد الأصليين، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجّ: 78]، ولأنّه والد محمّد عليه الصلاة والسلام[2].

### نُكْتَة التّعبير بقوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دون (ومولود):

قوّة الإبهام في (ما) أنسبُ بإرادة الجماعة

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ التّعبيرُ بقوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دون (ومولود) - على القول بأنّ (ما) موصولةٌ - لما تختصّ به (ما)

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 27.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 349.

من إرادة الوصفيّة، كأنّه قيل: والجامع لأوصاف عجيبة، كالنّطق والبيان والتّدبير والعِرفان واستخراج الصّنائع، وغيرِها، فيكون المَعْنَى: ومولود عجيب الشّأن، وكذلك فقوّةُ الإبهام في (ما) أنسبُ بإرادة الجماعة دون واحد معيّن[1].

### نُكْتَة فصلِ جملة ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾:

جملة جواب القَسَم هي الغرض من السّورة

وردت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ مفصولةً عن الجملة قبلَها؛ لأنّها وقعت جوابًا للقَسَم المتقدّم في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، فبينهما ما يُسمّى في البلاغة بـ (شِبه كمالِ الاتّصال)، وهو كون الجملة الثّانية قويّةَ الارتباطِ بالأولى؛ فتُفصل عنها كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال[2].

### العلاقة الرّابطة بين القَسَم وجوابِه:

تسلية الرّسول الله ﷺ

تتجلّى مناسبةُ قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ لما قبلَه من القَسَم أنّ فيه تسليةً لرسول الله ﷺ عمّا كان يلقاه من كفّار قريش، فإنّ من كان أعظمَ عِلمًا وعملًا، كان أشدَّ بلاءً وتعبًا، كما قال ﷺ: «أشدّ النّاس بلاءً الأنْبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ الأمثلُ فالأمثل»[3].

### دلالة التّوكيد في جملة جواب القَسَم:

كثرة التّأكيد للدّلالة على عظمة المُقْسَم عليه

جاء قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ مؤكَّدًا بجملة مُؤكِّدات، من لام القَسَم وحرفِ التّحقيق (قد)، لنُكْتَة التّأكيد على مضمون جملة القَسَم، فقد جاء الخبرُ على الضّرب الإنكاريّ مبالغةً في الاهتمام بالخبر من أنّ الإنسان يُكابِد مشاقَّ الدّنيا

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 675، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 350.
(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 675، والحديث أخرج البخاريّ الجملةَ الأولى منه معلّقًا، كتاب المرضى (كتاب الطب)، باب أشدّ النّاسِ بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل، وأخرجه التّرمذي موصولًا بتمامه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.

والآخرة، ومشاقُّه لا تكاد تنحصر من أوّل قطعِ سُرّته إلى أن يستقرّ في قراره، إمّا في جنّة فتزولُ عنه المَشقّات، وإمّا في نارٍ فتتضاعفُ مشقّاتُه وشدائدُه[1].

### فائدة ذِكْر (قد) في الجملة الفعليّة:

تحقُّقُ صدقِ المُخبِرِ في خبره

جاءت (قد) في جواب القَسَم من قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ للدّلالة على تحقّق صدق المُخْبِرِ سبحانه في خبره، وللدّلالة على تحقيق صدق ذلك الأمر على امتداد خلق الإنسان.

### بلاغة استعمال مفردة الخَلق دون غيرها:

لا يقدر على الإيجاد من العدم إلّا الخالق سبحانه

أوثِر في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ استعمالُ فعل (الخلق) دون غيره؛ لاختصاصه بالله سبحانه، فالخلق يشمل الإيجاد ويشمل التّقدير، والإيجاد خاصٌّ بالإخراج من العدم إلى الوجود، وهو لا يكون إلّا لله سبحانه، وقد أُطلِق الخَلْق في القرآن وكلام الشّريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، ولفظ الخلق هو أقرب الألفاظ في اللّغة العربيّة دلالةً على معنى الإيجاد من العدم الذي هو صفة الله تعالى، وصار ذلك مدلول مادّة (خلق) في اصطلاح أهل الإسلام، فلذلك خُصّ إطلاقُه في لسان الإسلام بالله تعالى، وخُصّ اسم الخالق به تعالى، فلا يُطلق على غيره إلّا تجوّزًا أو تنزُّلًا مع الخَصْم لإقامة الحُجَّة عليه، ولو أطلقه أحدٌ على غير الله تعالى بناء على الحقيقة اللُّغويّة؛ لكان إطلاقُه عجرفةً، فيجب أن ينبّه على تركه.

وقد يُطلَق الخَلْق على الجَعْل؛ بمعنى إيجاد حالة لها أثرٌ قويٌّ في الذّات كقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزّمر: 6]، وقوله: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [المائدة: 110]، فهو جَعْلٌ يُغيّر ذاتَ الشّيء[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 350.

### فائدة التّعبير عن خَلق الإنسان بالفعل الماضي:

عبّر السّياق القرآنيّ هنا عن خَلْق الإنسان بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾؛ للدّلالة على تَحقُّق وقوع الخَلْق على هذا النّحو فيما مضى وفيما يُستقبل، مع أن بعضهم قد مضى تمامُ خَلْقِه على هذا النّحو، والبعضَ الآخرَ لمّا يُخْلَق بعدُ، لكنّ تَحَقُّق وقوعِ خَلْق بعضِ أفراد الإنسان في الماضي وفقَ ما أخبر الخالق علامةٌ على تَحَقُّق وتيقّن وقوعِ ذلك في خلق بقيّة أفراد الإنسان فيما يستقبل.

تَحقُّقُ وقوعِ الخَلق على هذا النّحو فيما مضى وفيما يُستقبل

### غرض إسناد فعل (خلق) إلى ضمير العَظَمَة:

أُسنِدَ الفعل (خلق) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى ضمير العَظَمَة (نا)؛ للدّلالة على تعظيم المُتكلِّم سبحانه وعُلوّ قدرِه، لتعدُّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنّ مثل هذا التّعبير يُعبِّر به المُلوكُ والعُظماء، النّافذُ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العباد؛ لأنّ التّعبير بـ (نا) الدّالّةِ على العَظَمَةِ إشعارٌ بتعظيمِ الخَلقِ وتشريفِهِ والاهتمامِ به، وأنَّه جديرٌ بتوجُّهِ العنايَةِ إلَيْه[1].

لا يَقْدِر على الخَلْق إلّا العظيمُ سبحانه

### سرّ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ معرّفًا بـ (أل)، فذهب الجمهور إلى أنّها دالّةٌ على الجنس، أو على استغراق الأفراد، فيدخل في ذلك جميعُ بني آدم، والمعنى على هذا أنّ كلّ أفرادِ نوع الإنسان، أو جنسِ هذا الإنسان قد خُلِقَ في تعبٍ ومشقّة، فإنّه مع كونه أضعفَ الخَلْقِ لا يزال يُقاسي فنونَ الشّدائد، التي مبدؤها ظلمةُ الرّحم ومَضيقُهُ، ومنتهاها الموتُ وما بعدَه، فابن آدمَ يُكابِد من البلايا ما لا يكابده غيرُه، وهذا العموم والشّمول

تنوّع المعنى بين دلالة الجنس والاستغراق والعهد

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 208.

المنتزَعُ من دخول (أل) الدّالّةِ على الجنس أو الاستغراق على لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يتناغمُ ويتناسبُ مع القَسَم والسّياق[1].

ويجوز أن يكون التّعريفُ للعهد، فيُراد به إنسانٌ معيّن، فعن الكلبيّ: أنّه أبو الأشدّ، ويُقال: أبو الأشدّين، واسمه: أُسَيْد بن كِلْدَة الجُمَحيّ، وكان معروفًا بالقوّة والشّدّة، وكان يجعل الأديم العُكاظيّ تحتَ قدميه فيقول: مَن أزالني فلهُ كذا. فيَجْذِبُه عشرةُ رجالٍ حتّى يُمزّقَ الأديم ولا تزول قدماه، وكان شديدَ الكفر والعداوةِ للنّبيّ ﷺ. وقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: هو أبو جهل. وقيل غيرُ ذلك، وليس لهذه الأقوال مُرجِّح من النّقل الصّحيح، ولا يلائمها القَسَم ولا السّياق[2].

### بلاغةُ استعمال حرفِ الظّرفيّة:

**إحاطة الكَبَدِ بالإنسان إحاطةَ الظّرفِ بالمظروف**

ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ حرف ﴿فِي﴾، وهو دالّ على الظّرفيّة، بمعنى أنّ الكَبَدَ قد أحاط به إحاطةَ الظّرف بالمظروف، وفيه إشارةٌ إلى أنّه ليس في الدّنيا إلّا الكَبَدُ والنَّكَدُ والكَدُّ والمحنة، وجعل بعضُ العلماء حرفَ ﴿فِي﴾ هنا بمعنى اللّام لأنّهما متقاربان، تقول: إنّما أنتَ للعناء والنَّصَب، وإنّما أنت في العناء والنَّصَب[3]، وقال بعضُهم: إنّ الظّرفيّة هنا مستعملةٌ مجازًا في الملازمة، فكأنّه مظروف في الكبَدَ، ونظيره قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8][4]، والأوّلُ أولى؛ لأنّ دلالة الحرف على معناه الموضوع له في أصل اللّغة أولى من دلالته على معنى حرف آخر، وهو ما يُعْرَف بتناوب الحروف، ولأنّ هذا نوعٌ من المجاز، والحقيقة مقدّمةٌ على المجاز إلّا إذا دَلَّ دليلٌ على إرادة المتكلّم للمجاز، أو احتمالِ ذلك منه.

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 484، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 350.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 166.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 351.

مكابدةُ ابنِ آدمَ لأمر الدّنيا والآخرة

### نُكْتَة استعمالِ مفردة ﴿كَبَدٍ﴾:

عُبِّرَ بلفظ ﴿كَبَدٍ﴾ للدّلالة على مكابدة الإنسان كلَّ أمورِ الدّنيا والآخرة، وقد ذَكَر المُفسِّرون في معناه وجوهًا شتّى؛ **الأوّل**: الشِّدّة، وأصلُه عند بعض العلماء من قولك: كَبَدَ الرّجل كَبَدًا فهو كَبِدٌ، إذا وُجِعَت كَبِدُه وانتفخت، فاتُّسِع فيه حتّى استُعمِل مجازًا في كلِّ تعب. **وقال آخرون**: الكَبَد شِدَّةُ الأمر، ومنه: "تَكَبَّدَ اللّبَنُ" إذا غَلُظ واشتدَّ، ومنه الكبِدُ لأنّه دَمٌ يَغْلُظ ويشتدّ.

والفرق بين القولَيْن: أنّ الأوّل جعل اسم الكَبَد موضوعًا للكَبِد، ثمّ اشتُقَّت منه الشّدَّةُ. وفي الثّاني جعلَ اللّفظَ موضوعًا للشّدَّة والغِلَظ، ثمّ اشتُقّ منه اسم العضو.

وذهب الرّأي الثّاني: إلى أنّ الكبَدَ هو الاستواء والاستقامة. والثّالث: أنَّ الكبَدَ شِدَّةُ الخَلق والقوّة.

وقد رجّح الطّبريّ والجمهورُ أنّ أوْلى الوجوهِ بالصّواب هو الوجهُ الأوّل، فالكَبد المشقّة والمكابدة، ولا يُلفَى ابنُ آدمَ إلّا مكابدًا أمرَ الدّنيا والآخرة[1].

عظَمة المشاقّ في حياة الإنسان

### نُكْتَة تنكيرِ لفظ ﴿كَبَدٍ﴾:

جاء لفظُ ﴿كَبَدٍ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ نكرةً، ونُكْتَةُ تنكيرِه الإبهامُ، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرة بالتّعظيم والتّفخيم والتّكثير، فإنّ مَن أراد أن يُعظِّم شيئًا أبهمَه بحيثُ لا يُكتَنَه وصفُه، وتذهبُ النّفسُ فيه كلَّ مذهب، فالإنسان يُكابِد مشاقّ عظيمةً وكثيرة في الدّنيا والآخرة، ومشاقُّه لا تكاد تنحصِر من أوّل قَطْعِ سُرّتِه إلى أن يستقرّ قرارُه، إمّا في جنّة فتزولُ عنه المشقّات، وإمّا في نار فتتضاعف مشقّاته وشدائده[2].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 409، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 166.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.

### بلاغة الإدماج في الآية:

قدرة الله سبحانه على الخَلْقين الأوّل والثّاني

جعل بعض العلماء معنى الكَبَد في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ هو التّعب الّذي يلازم أصحابَ الشّرك من اعتقادهم تعدّدَ الآلهة، واضطرابِ رأيهم في الجمع بين ادّعاء الشّركاءِ للّه تعالى، وبين توجّههم إلى اللّه بطلب الرّزق وبطلب النّجاة إذا أصابهم ضرّ، ومن إحالتهم البعثَ بعد الموت مع اعترافهم بالخَلْق الأوّل، فقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ ليس دليلًا مقصودًا وحده؛ بل هو توطئة لقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾، إذِ المعنى: أيحسب أن لن نقدر عليه بعد اضمحلالِ جَسدِه فنعيدَه خلقًا آخر، أي: كما خلقناه أوّل مرّة في نصَبٍ من أطوار الحياة، كذلك نخلقه خلقًا ثانيًا في كَبَد من العذاب في الآخرة لكفره، وبذلك يظهر موقع إدماج قوله: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ لأنّ المقصود التّنظير بين الخلقَين الأوّل والثّاني، في أنّهما من مقدور اللّه تعالى[1].

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### البلد والقرية والمدينة:

دلالات القرية أوسعُ من دلالة البلد

ذُكرت القرية في القرآن الكريم في بضعة وثلاثين موضعًا، وتُسمَّى القرية قريةً إذا قُصِد منها: الأبنيةُ الجامعة للنّاس، وهو مأخوذ من قولهم: قريت الماء في الحوض؛ إذا جمعتُه، وسُمّيت القريةُ قريةً لاجتماع النّاس فيها، ولذا يُقال لبيت النّمل قرية؛ لجمعه النّمل داخلَه، ولفظ القرية يدلّ في أصل العربيّة على المدينة العظيمة، ويجوز أن يُراد بها الدّولة أو الأمّة أو الجماعة أيًّا كان عددُها، فدلالاتها أوسع من دلالة البلد[2].

وأمّا المدينة؛ فمأخوذة من قولهم: مَدَن بالمكان؛ إذا أقام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 351.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4352، وزيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 312.

به، وحقيقتُها: البلدة الّتي كثُر سكانها، وقد تُسمَّى القرية مدينة إذا اتّخِذت للإقامة والاستقرار فيها؛ لأنّ المكان الصّالح للاستقرار يكثر سكّانه. وأمّا البلد فهو المكان المختطّ المحدود، فحقيقته: كلّ موضع من الأرض عامرٍ أو غير عامر، مسكونٍ أو خال، والقطعة منه بلدة[1].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 316، 316.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥﴾ [البلد: 5]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تهديد الجبّار لصناديد قريش الكفّار

لمّا كانت الآية السّابقة تسلية لرسول الله ﷺ على ما يلاقيه من إذاية الكفّار، أردفَ بتهديد بعض صناديد قريش، الّذين كان ﷺ يكابِد منهم أكثرَ ممّا يُكابد من غيرهم، كالوليد بن المغيرة وأضرابِه[1].

## شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَحۡسَبُ﴾: (حسب) أصلٌ يدور حولَ جمع ما هو مُنتشرٌ في حيّز يضمُّه حتّى يمتلئَ به[2]، وهي عند ابن فارس أصولٌ أربعة؛ أحدُها: الحِسْبانُ: وهو الظَّنّ[3]، وهو المقصود هنا، والظَّنُّ: اجتماع رَأيٍ عند الإنسان مبنيّ على اعتقاد، يغلب على ظنِّه إثباتُه، سواءٌ أكان هذا الاعتقاد صوابًا أم خطأً، ومن الحسبان بمعنى الظّنِّ قولُه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، والحِسْبانُ: أن يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضَيْن من غيرِ أن يَخْطُرَ الآخَرُ ببالِه، فيَحْسبَه ويَعقِدَ عليه الإصبعَ، ويكون بعَرَضِ أن يَعْتَريَه فيه شَكٌّ، ويُقارِب فيه الظَّنَّ، لكنَّ الظَّنّ أن يخطُرَ النَّقيضان ببالِه، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخر[4]. والحُسبان: التّقدير أو الحُكم بناءً على اعتقاد أو رأيٍ مبنيٍّ على أساسٍ، سواءٌ كان هذا الأساس صحيحًا أو غيرَ صحيحٍ[5].

## المَعنى الإجماليُّ:

تهديد المغرورين بقُدرة ربّ العالَمين

يقول جلّ ثناؤه لرجل بعينه من بني جُمَح، كان يُدْعَى أبا

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 12.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 02/ 314.

الأشدَّين، وكان شديدًا، أو لغيره من سائر الكفّار المغرورين بقوّتهم: أيحسَب هذا القويّ بجَلَدِه وقوّته أن لن يقهرَه أحدٌ ويغلبَه، فاللّه غالبُهُ وقاهرُه[1].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### علّة فصل الآية عمّا قبلَها:

فصل الجُمَل لتمام امتزاجها

فُصل قَوْلُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ عن سابقه لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجُملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تنزّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[3].

### سِرُّ احتمال مرجع الضّمير المُستَتِر في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

تعدّد المعاني مع وجازة الكلام

اختلف المفسّرون في مرجع الضّمير من قَوْله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ تبعًا لاختلافهم في تعريف ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في الآية السّابقة بين الجنس والعهد، فقال بعضُهم وهو الظّاهر: إنّ الضّمير في ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ عائدٌ على الإنسان؛ أيْ: هو لشِدّة شكيمته وعِزّته وقوّته يحسب ألّا يقاومَه أحدٌ، ولا يقدر عليه أحدٌ لاستعصامه بعَدَدِه وعُدَدِه. وقال آخرون: الضّمير راجع لبعض صناديد قريش الذين كان رسول اللّه ﷺ يكابد منهم ما يكابد[4]، وراجعٌ كذلك لِمَنْ على شاكلتهم في الكفر من سائر النّاس.

من الحماقة أن يحسب الإنسان ألّن يقدر عليه أحدٌ

وقال غيرهم: إنّ الضّمير راجع لإنسان معيّن كما سبقت الإشارة. ولا مانع من إرادة كلّ هاتيك الاحتمالات، أيْ: أيحسب هذا الإنسان

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 352.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.

المعيَّن الكافر العاتي، وكذلك كلّ إنسان كافر الذي هو غالب جنسه، بل وسائر جنس الإنسان، أن لن يقدر عليه أحد.

### بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

تهديد الإنسان الكافر والتّعجيبُ من فاسد الحُسبان

جاء قَوْله تَعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ على أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، والغرضُ منه مع الإنكار هو التّعجيب من حسبانه الفاسد، وتهديدُه بقدرة اللّه عليه، والمعنى: أيظُنّ هذا الصّنديد القويّ في قومه المتضعِّف للمؤمنين: أن لن يقدر أحدٌ على الانتقام منه في الدّنيا، وأن لن تقوم قيامةٌ، ولن يقدر أحد على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه؟[1].

### نُكْتَة استعمالِ الحُسبان دونَ الظّنّ:

تصحيح الاعتقاد الباطل بعدم قدرة أحد على الإنسان

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ التّعبيرُ بلفظ الحُسبان دون الظّنّ للفرق الدّلاليّ بينهما، فالحُسبان معناه التّقدير، أو الحُكم بناءً على اعتقاد أو رأي مبنيّ على أساس، سواءٌ كان هذا الأساس صحيحًا أو غيرَ صحيح. أمّا الظّنّ فهو تخمين ليس له أساس قويّ أو دليل واضح. فلمّا آثرَ النّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ دلّ ذلك على أنّ هذا الإنسانَ الشّديد كان لشِدّته يحسب معتمدًا على أساس قوّته أن لا يقدرَ عليه أحد، فجاءت الآية تعجيبًا من حسبانه الفاسد، وتهديدًا له بقدرة اللّه عليه[2].

### دلالة التّعبير بصيغة المضارع (يحسب):

الدّلالة على استمرار الكافر على حسبانه الفاسد، وتَجَدُّدِه في الحال والاستقبال

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل (يحسب) دون غيره من الأزمنة لما يفيده المضارعُ من الثّبوت مع التّجدّد والاستمرار، ولما يُفيدُه المضارعُ أيضًا في الدّلالة على الحال والاستقبال، وفي ذلك دلالةٌ على استمرار

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 314.

هذا الإنسان في حسبانه الفاسد، وتَجَدُّدِ هذا الحُسبان مع فساده في الحال والاستقبال.

### بلاغة التّعبير بـ﴿أن﴾ المخفّفة:

الدّلالة على أنّ هذه الصّفة من لوازم شأن الكافر

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ لفظُ ﴿أَن﴾، وهي المخفّفة من الثّقيلة، سادَّةٌ مع معمولَيْها مَسَدَّ مفعولي الحُسبان؛ وهي لا تُفيد التّوكيدَ، ولذا قال العلماء: إذا وقعت (أنّ) المُشدّدة بعد أفعال الرُّجحان أفادت العِلم، نحو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، وإذا وقعت الخفيفة لم تُفِد ذلك تقول: (أظنّ أن يأتيَ محمّد). والمُخفّفة من هذه تأخذ حُكمَ المُشدّدة في كونها حرفًا مصدريًّا أيضًا، لكنّه يدخل على ما لا تدخل عليه المُشدّدة، كالأفعال الجامدة والإنشائيّة وغيرها، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النّجم: 39][1]، ومن لوازم (أن المخفّفة) أن يكون اسمُها ضميرَ الشّأن، وفي اختياره في الآية بدلًا من (أنَّ) المُشدَّدةِ الدّلالةُ على أنّ هذه الصّفةَ من لوازم شأن الكافر.

### دلالة استعمال أداة النّفي ﴿لَّن﴾:

الدّلالة على استمرار النّفي في المستقبل

عُبّر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ بحرف ﴿لَّن﴾ في سياق حكاية حسبان الكافر عدمَ قدرةِ أحدٍ عليه، والنّكتة في ذلك: أنّ حرف (لن) موضوع لنفي المستقبل، والنّفي به أقوى من النّفي بـ (لا)[2]، وقال الزّمخشريُّ المُعتزليُّ بإفادتها التّأبيدَ حقيقةً أو مجازًا، وتوسَّل بذلك لنُصرة مذهبِه الباطل في نفي رؤية اللّه ﷻ مُطلقًا؛ فصارت تُسمَّى (لن) الزّمخشريّة، وقد ردّ عليه ابنُ هشام في المغني بقوله: "ولا تفيد (لن) توكيدَ النّفي خلافًا للزّمخشريّ...، ولا تأبيدَه خلافًا له في أُنموذَجه، وكلاهما دعوى بلا دليل، ولو كانت

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 484، ودرويش، إعراب القرآن: 03/ 154.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 01/ 342.

للتّأبيد لم يُقيَّد منفيّها باليوم في قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾ [مريم: 26]، ولكان ذِكر الأبد في قوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: 95] تكرارًا، والأصل عدمُه"[1].

### دلالة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَقْدِرَ﴾:

حسبان الكافرِ عدمَ قدرةِ أحدٍ عليه في الحال ولا في المستقبل

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يَقْدِرَ﴾، دون غيره من الأزمنة، لما يفيده المضارع من الدّلالة على الحال والاستقبال، ولما يُفيده المضارع كذلك من الدّلالة على التّجدُّد والاستمرار، والمعنى: أيحسب هذا الإنسان الكافر أن لن يقدر على الانتقام منه أحدٌ في الدّنيا، ويحسب كذلك أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه بعد البعث أحد؟[2].

### معنى نفي القدرة في الآية:

غرور الإنسان بقوّته وجرأته على ربّه

تضمّن قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ حسبانَ الإنسان عدمَ قدرةِ أحد عليه، ويحتمل هذا الحسبان وجوهًا من المعنى، فقال بعضهم: إنّه لشدّة شكيمتِه وعزّته وقوّته يحسب أن لا يقاومَه أحد، وقال غيرهم: المُراد لن يقدر على تغيير أحواله ظنًّا منه أنّه قويٌّ على الأمور لا يُدافَع عن مرادٍ، وقال آخرون: حَسِب أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه، وأن لن يقدر على بَعْثِه ومُجازاتِه، فكأنّه خطاب مع من أنكر البعث[3].

### بلاغة استعمال حرفِ الاستعلاء:

حسبانُ الإنسانِ عدمَ استعلاء قدرةٍ على قدرته

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ حرفُ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 374.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.

(على)، وهو دالٌّ على الاستعلاء والغلبة، بمعنى أنّ الإنسان المعهود، أو سائرَ الإنسانِ الكافر، أو جنسَ الإنسان، يحسب عدمَ استعلاءِ قُدرةٍ على قدرته، وأنّه لن يغلبَه أحد.

### بلاغة استعمال مفردة ﴿أَحَدٌ﴾:

استغراق الجنس في النّفي، والدّلالة على تأكيد العموم فيه

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾ استعمالُ مفردة ﴿أَحَدٌ﴾، لنُكْتَة دلالته على الانفراد، وأنّه إذا استُعمل في النّفي؛ أفاد استغراقَ الجنسِ، متناولًا القليلَ والكثيرَ على طريق الاجتماع والافتراق، كقولهم: ما في الدّار أحد، أي: لا واحد ولا اثنان فصاعدًا، لا مجتمعين ولا مفترقين[1]، ثمّ إنّ لفظ (أحد) من أعمِّ ألفاظ اللّغة العربيّة، والتي هي نصٌّ في الدّلالة على العموم، بحيثُ لا يكاد يتَطَرَّق إلى عمومها تخصيص أبدًا، بل هي في هذا المعنى اللّفظُ الثّاني في ترتيب هذه الألفاظ بعد لفظ (شيء). ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ [الكهف: 38]؛ فإنّ فيه نفيًا مستغرقًا.

### الغرض من تنكير ﴿أَحَدٌ﴾:

نفي القدرة نفيًا عامًّا ولو كانت من عظيمٍ أو كثيرٍ

جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ من قول اللّه سبحانه: ﴿لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾؛ لإفادة العموم، وذلك لوقوع النّكرة في سياق النّفي، وهذا من الصّيغ المفيدة للعموم والاستغراق، والمعنى: أيحسب أن لن يقدر عليه أيُّ أحدٍ، ولو كان عظيمًا أو قويًّا بنفسه أو بغيره، أو: ولو كان كثيرًا، حتّى ولو كان ربُّه ﷻ القادرُ على الانتقام منه.

### نُكْتَةٌ في إيثار التّعبير بـ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (واحد):

دقّةُ البيان القرآنيّ في انتقاء الألفاظ المناسبة لسياقاتها

آثَر النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بـ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (واحد) من قول اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾؛ لنُكْتَة كونِ الأحدِ أبلغَ في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أحد).

النّفي من الواحد، فكان لفظُ الأحد أنسبَ في سياق حسبان الكافر نفيَ قدرةِ أحدٍ عليه.

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الحُسبان والظّنّ:

الظّنّ أعمُّ دلالةً من الحُسبان

يدلّ الظّنّ على معنيين متناقضين: يقين وشكّ[1]، والظّنّ غلبةُ المعنى الرّاجحِ منهما غالبًا، وهو اسمٌ لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العِلم، ومتى ضعُفت جِدًّا لم يتجاوز حَدّ التّوهّم. والظّنّ في كثير من الأمور مذموم[2].

في حين أنّ الحُسبان معناه التّقدير أو الحُكم بناءً على اعتقاد أو رأيٍ مبنيٍّ على أساس، سواءٌ كان هذا الأساسُ صحيحًا أو غيرَ صحيح[3]. والحسْبانُ كذلك: أن يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضَيْن مِن غيرِ أن يَخْطُرَ الآخَرُ ببالِه، لكنَّ الظَّنّ أن يخطُرَ النَّقيضان ببالِه، فيُغَلّبَ أحدَهما على الآخر[4]. فالظّنّ أعمّ دلالةً من الحُسبان.

### الأحدُ والواحد:

اللـه سبحانه واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيءٌ

حاصل الفرق بين الأحد والواحد يَرجِع إلى أوجه[5]:

أحدها: أنّ الأحد أخصُّ من الواحد، فإنّ الواحد يدخل في الأحد، من غير عكس.

وثانيها: أنّ الأحد أقوى في النّفي، وذلك لأنّك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد؛ جاز أن يُقال: ولكن يقاومه اثنان، بخلاف الأحد، فإنّك إذا قلت: فلانٌ لا يقاومه أحدٌ، لم يجز أن تقول: لكن يقاومُه اثنان.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظنّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 314.
(4) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 359 - 360، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).

وثالثها: أنّ الواحد هو المنفردُ بالذّات في عدم المثل والنّظير، والأحد هو المنفرد بالمعنى.

ورابعها: أنّ الأحد ليست له أجزاءٌ ولا أبعاضٌ، ولا يُثنّى، بخلاف الواحد.

وخامسها: الأحد يُذَكَّرُ دائمًا ولا يؤنث أبدًا، والواحد يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، فيُقال: واحد وواحدة.

وفرّق بينهما ثعلب بأنّ الواحد يدخل في العدد، بخلاف الأحد فإنّه لا يدخل فيه، إلّا أنّ أبا حيّان اعترض عليه بأنّه يصح أن يُقال: أحد وعشرون ونحوه، فدَخله العدد[1]، ومرادُ ثعلب - والله أعلم - أنّ الأحد لا يدخل في العدد منفردًا، وأمّا أحد عشر، أو أحد وعشرون؛ فالأحد ليس عددًا، بل هو جُزء من العدد المركّب أو المعطوف، وليس عددًا منفردًا.

وذكر بعضُ أهلِ العِلم فرقًا آخر، وهو أن الواحد يُستعمل في الإثبات، والأحد في النّفي[2]، وهذا الفرق فيه نظرٌ، ويَردُّه قولُ اللهِ سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1].

(1) أبو حيّان، البحر: 10/ 571، والقِنّوجي، فتح البيان: 15/ 447.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 360.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

[البلد: 6 - 7]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إتباعُ مساوئِ النّفسِ بمَذامِّ الأقوال

لمّا ذكر سبحانه في الآية السّابقة مساوئَ نفسِ الإنسان؛ أعقب ذلك بمَذامِّ أقوالِه، وهو التّفاخر الكاذبُ والتّمدُّح بإتلاف المال في غير صلاح(1).

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لُّبَدًا﴾: (لبد) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تكدُّس الشّيء بعضِه فوقَ بعض، من ذلك: تلبّدت الأرض، ولبَّدها المطرُ، وصار النّاس عليه لِبدًا، إذا تجمّعوا عليه. وجَمْعُ لبد: ألبادٌ ولُبودٌ. وقد يكون أصل ﴿لُّبَدًا﴾ من: ألبد بالمكان، إذا أقام، والأسد ذو لِبدة، وذلك أنّ قطيفته تتلبّد عليه، لكثرة الدّماء التي يَلَغُ فيها(2). ومعنى اللُّبَد في الآية: الكثير الكثيف.

## المَعنى الإجْماليُّ:

تباهي الإنسان بتبذير المال

يقول هذا الإنسان الجليد الشّديد متباهيًا: أهلكتُ مالًا كثيرًا في عداوة محمّد، فأنفقت ذلك فيه، وهو كاذبٌ في قوله ذلك، أيظنّ هذا القائل أن لم يره أحدٌ في كلّ أوقاته، وفي كلّ مواطنه، وفي كلّ أحوالِه وتقلّباتِه، لا سيما في حال إنفاقه ما يزعم أنّه أنفقه(3).

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### عِلّةُ فصل جملة ﴿يَقُولُ﴾ عمّا سبق:

فَصْلُ الجُمَلِ لكمال الاتّصال بينهما أو لشَبَهِهِ

فُصِل قَوْلُه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ عن سابقه لوجود

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 352.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (لبد).

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412 - 414.

كمالِ الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجُملتَين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسِها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ في موضع الحال من جملة: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[2].

وقد يكون سببُ فصلِ هذه الجملة عن الجملة قبلها أنّ بينهما شبهَ كمالِ الاتّصال، وهو كون الجملة الثانية قويّةَ الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم منَ الجملة الأولى، فتُفصَل عنها كما يُفصَل الجوابُ عن السّؤال[3]. فتكون جملة: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ استئنافَ جوابِ سؤالٍ تقديرُه: ما حالُه في وقت هذا الظّنّ؟ أو ما قولُه وقتَ الانتقام؟ فأُجيب: يقول: أهلكتُ مالًا كثيرًا، فلم ينفعني بل أضرّني[4]، أو يقول: أهلكتُ مالًا كثيرًا، وعندي منه أكثر؛ لأنّ الإنسان لا ينفق كلّ ما عندَه عادةً.

### غرضُ استعمالِ مُفردَةِ ﴿يَقُولُ﴾:

تباهي الكفّار بإتلاف المال

دلّ لفظُ ﴿يَقُولُ﴾ من قَوْله تَعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ على تباهي هذا القائلِ بهذا القول، وإعلانِه به، وتفاخرِه الكاذبِ بإتلاف المال في غير صلاح، وقد كان أهل الجاهليّة يتبجّحون بإتلاف المال، ويَعدّونه منقبةً لإيذانه بقلّة اكتراثِ صاحبِه به، أو للدّلالة على كثرته حدًّا لا ينتهي بكثرة إنفاقه له[5].

### نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ﴾:

تكرارُ التّبجُّح بإهدار المال في غير طائلٍ، واستمرارُ ذلك منه

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يَقُولُ﴾ دون غيره من الأزمنة لما يُفيدُه المضارعُ

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 353.
(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.
(4) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 677.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 353.

من التّجدّد والتّكرار والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على تكرار هذه المقالةِ من هذا الإنسان المغرور، كما أنّ في استعمال المضارع تصويرًا للحال الّتي هو عليها.

**بلاغة استعمال مفردة ﴿أَهۡلَكۡتُ﴾ دون (أفنيت) أو (أنفقت):**

هلاك المال عدمُ الانتفاع به في المآل

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ بلفظ ﴿أَهۡلَكۡتُ﴾ عن إنفاق المال إظهارًا لعدم الاكتراث به، وأنّ هذا الرّجلَ لم يفعل ذلك رجاءَ نفعٍ، فكأنّه جعلَ المالَ الكثير ضائعًا، وقال بعضهم: يقول ذلك إظهارًا لشِدّة عداوته لرسول اللّه ﷺ، مريدًا بالمال ما أنفقه في معاداته ﵇.

وقيل: يقول ذلك إيذاءً له ﵇، فعن مقاتل أنّ الحارث بن نَوْفل كان إذا أذنب استفتى الرّسولَ ﷺ فيأمرُه ﵇ بالكفّارة، فقال: لقد أهلكتُ مالًا لبدًا في الكفّارات والتّبِعات منذ أطعتُ محمّدًا ﵇[1]. كما أنّ في لفظ الإهلاك إشارةً إلى أنّ مالَه ضائعٌ في الحقيقة؛ إذ لا ينتفع به صاحبُه في الآخرة.

**نُكْتَةُ التّعبير بصيغةِ الماضي ﴿أَهۡلَكۡتُ﴾:**

تحقّق الإهلاكِ في زمنٍ مضى أو زمنِ الحسرة يومَ القيامة

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ﴾ استعمالُ الفعلِ ﴿أَهۡلَكۡتُ﴾ بصيغة الماضي دونَ غيرِها للدّلالة على تحقّق الإهلاك في زمن مضى، فقد رويَ أنّ الحارث بنَ عامرِ بنِ نَوفل كان إذا أذنب استفتى النّبيَّ ﷺ، فيأمرُه بالكفّارة، فقال: لقد أهلكت مالًا لبدًا في الكفّارات والتّبِعات منذ تبعتُ محمّدًا. وقد تكون نكتة الماضي أنّه يقول هذا القول وقتَ الانتقام منه، وذلك يومَ القيامة، والتّعبير عن الإنفاق بالإهلاك لما أنّه لم ينفعه يومئذ[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 482، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.

**نُكْتَة تنكير لفظ ﴿مَالًا﴾:**

دلالة الإبهام على التّكثير

جاء لفظُ ﴿مَالًا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالًا﴾، ونُكتة تنكيره التّكثير، فالعرب تقول: إنّ له مالًا، أي: كثيرًا، وقد يكون المقصود هنا كثرةُ ما أنفقه هذا الرّجل سمعةً ومفاخرةً، فيما كان أهل الجاهليّة يسمّونه مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر[1].

**بلاغة استعمال مفردة ﴿لُّبَدًا﴾ مادّة وصيغة:**

المال اللُّبد الكثير المجتمع بعضُه على بعض

ورد في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ وصفُ المال بلفظ ﴿لُّبَدًا﴾، وهو (فُعَلٌ) من التّلبُّدِ، وهو الكثير المجتمع بعضُه على بعض، يُقال منه: لبَدَ بالأرض يَلْبُدُ: إذا لَصَق بها، وقال اللّيث: هو الّذي لا يُخاف فناؤه لكثرته.

الـدّلالـة على المبالغة في الكثرة

وصيغة (فُعَل) من صيَغ المبالغة السّماعيّة، والتّعبير بها في وصف المال بكونه لُبَدًا في الآية للدّلالة على المبالغة في كثرة المال الذي أنفقه ذلك القائل، قال الزّجّاج: فُعَلٌ للكثرة، يُقال: رجل حُطمٌ همزٌ لمزٌ إذا كان كثير الحَطم والهمز واللّمز[2].

**توجيه القراءات في لفظ ﴿لُّبَدًا﴾:**

تـنـوّع المعـاني الدّلالية بتنوّع الـقـراءات القرآنيّة

تنوّعت القراءةُ في قوله تعالى: ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾، فقرأ أبو جعفر بتشديد الباء ﴿لُّبَّدًا﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها ﴿لُّبَدًا﴾[3]، فوَجْهُ قراءةِ الجمهور أنّه جمع لُبَدَةٍ بضمّ اللّام، وهي ما تلبَّدَ من صوف أو شعر، أي: تجمَّع والتصق بعضُه ببعض، ووجهُ قراءةِ أبي جعفر: أنّه جمع (لابدٍ) بمعنى مجتمع بعضه إلى بعض، مثل: صُيَّم وقوَّم، أو على أنّه اسم على زنة (فُعَّلٍ)، مثل زُمَّلٍ للجبان، وجُبَّأ للضّعيف. والمعنى في هذه القراءات كلِّها: مالًا كثيرًا متلبِّدًا بعضُه فوقَ بعض من التّكاثف والكثرة[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 328.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 401.

(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 484، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 353.

### نُكْتَة فصلِ جملة ﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

حُسبان الإنسان برواج كذبه على النّاس

فُصل قَوْلُه تَعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ عن سابقه لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجُملتيْن اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ بدلَ اشتمال من جملة: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾؛ لأنّ قوله: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا﴾ لبدًا يصدر منه وهو يحسب أنّه راجَ كذبُه على جميع النّاس، وهو لا يخلو من ناس يطّلعون على كذبه[2].

### علّة تكرار الفعل ﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

تغاير الحُسبانين باعْتبار مُتعلّقهما

يُلاحظ في قَوْله تَعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ تكرارُ فعلِ ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ بعد قوله في آية سابقة: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾، فلم يكتف النّظمُ المُعجز بأحدهما لنُكْتةِ التّنبيه عَلى تغاير الحُسبانين باعْتبار متعلَّقهما، فلكلٍّ منهما معنًى مستقلّ في جملته[3].

### بلاغة جملة الاستفهام ﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

توبيخ الإنسان على فاسد الحُسبان

جاء قَوْله تَعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ على أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، والغرض منه: توبيخُه على حُسبانه الفاسد، كما يتضمّن كذلك كنايةً عن عِلم اللّه تعالى بدَخيلته، وأنّ افتخاره بكثرة الإنفاق باطلٌ وكَذِبٌ[4].

### نُكْتة استعمالِ الحُسبان دونَ الظّنّ:

تصحيح الاعتقاد الباطل بعدم المحاسبة على المال

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ بلفظ (الحُسبان) دون الظّنّ للفرق الدّلاليّ بينهما، فالحُسبان معناه التّقدير أو الحكم بناءً على

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 353.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 677.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 353.

اعتقاد أو رأي مبنيّ على أساس، سواء كان هذا الأساس صحيحًا أو غيرَ صحيح. أمّا الظّنّ فهو تخمينٌ ليس له أساس قويّ أو دليلٌ واضح. فلمّا آثر النّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَيَحْسَبُ﴾ دلّ ذلك على أنّ هذا الإنسانَ كان يحسب أن ليس عليه حفظة يرون أعمالَه ويُحصونها إلى يوم الجزاء[1].

### نوع ﴿أَن﴾ ودلالتُها:

الـدّلالـة على أنّ هـذه الصّفة من لـوازم شأن الكافر

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لفظُ ﴿أَن﴾، وهي المخفّفة من الثّقيلة، سادَّةٌ مع معمولَيْها مَسَدَّ مفعولي الحُسبان؛ وهي لا تفيد التّوكيد، ولذا قال العلماء: إذا وقعت (أنّ) المشدّدة بعد أفعال الرُّجحان أفادت العِلم، نحو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، وإذا وقعت الخفيفة لم تُفِد ذلك، تقول: (أظنّ أن يأتي محمّد). والمخفّفة من هذه تأخذ حُكم المُشدَّدة في كونها حرفًا مصدريًّا أيضًا، لكنه يدخل على ما لا تدخل عليه المُشدَّدة، كالأفعال الجامدة والإنشائيّة وغيرها، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النّجم: 39]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجنّ: 16][2]، ومن لوازم (أن) المخففة أن يكون اسمها ضميرَ الشّأن، وفي اختياره في الآية مكانَ (أنَّ) المُشدّدة الدّلالة على أنّ هذه الصّفة من لوازم شأن الكافر.

### نُكْتَة النّفي بـ ﴿لَّمْ﴾:

عِلْمُ الله تعالى محيطٌ لا يَعزُبُ عنه شيءٌ

حمل بعضُ العلماء النّفيَ في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ على الاستقبال، بمعنى أنّه يحسب أنّه لن يره أحدٌ بعد الإنفاق، فقالوا: إنّ ﴿لَّمْ﴾ هنا بمعنى (لن)، ومدخولها مضارع عُبّر عنه بالماضي لتحقّقه، والاستقبال بعد الإنفاق يشمل الحاضر وقتَ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 484، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 314.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 484، ودرويش، إعراب القرآن: 3/ 154.

الخطاب. وحَمَل غيرُهم النّفيَ بـ ﴿لَّمۡ﴾ هنا على بابه، فقالوا: إنّه للماضي، أي: حين كان ينفق، ولا مقتضى للعدول عن الظّاهر[1]، وسياق الكلام المُعَبَّر عنه بالفعل المضارع المجزوم بـ ﴿لَّمۡ﴾ المُحَوِّل له من معنى الحال والاستقبال إلى معنى الماضي بما فيه من الإنكار والتّهديد المتضمّن عِلْمَ اللّه تعالى بذلك وغيره يحتمل إرادةَ الماضي والحاضر والمستقبل.

### دلالة استعمال فعل ﴿يَرَهُۥٓ﴾:

تـنـوّع المـعـاني التّفسيريّة بين الرّؤية العلميّة والبصريّة

يجوز في فعل الرّؤية من قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أن تكون بصريّة، وهو الظّاهر، فلمّا كان القائل كاذبًا لم ينفق شيئًا، والمعنى: أيظن أن اللّه تعالى ما رأى ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق، بل رآه وعلم منه خلاف ما قال[2]. وأجاز بعض العلماء أن تكون الرّؤية علميّةً، وتكون كنايةً عن السّؤال والجَزاء، والمُراد به: سؤال توبيخ، فيترتّب عليه الجَزاء[3].

مهما كانت قدرةُ العبد سيوجِده الله يومَ القيامة ويحاسبُه

وجوّز بعضُهم أن يكون المعنى: أن لم يجده أحدٌ، على أن المُراد بالرُّؤية الوجدان اللّازم له، و﴿لَّمۡ﴾ بمعنى (لن) وعبّر بها لتحقّق الوقوع، يعني: أنّه تعالى سيوجده يوم القيامة فيحاسبه على ذلك[4].

### بلاغة استعمال ﴿أَحَدٌ﴾ في النّفي الشّموليّ:

بـيـان اسـتـغـراق أفــراد الـجـنـس بالنّفي

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ استعمالُ مفردةِ ﴿أَحَدٌ﴾، لنُكتةِ دلالته على الانفراد، وأنّه إذا استُعمل في النّفي؛ أفاد استغراقَ الجنس، متناولًا القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق، كقولهم: ما في الدّار أحد؛ أي: لا واحد ولا اثنان

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 677، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 678.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.

فصاعدًا، لا مجتمعين ولا مفترقين[1]، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ [الكهف: 38]؛ فإنّ فيه نفيًا مستغرقًا.

**غرض تنكير ﴿أَحَدٌ﴾:**

نفي الرّؤية نفيًا عامًّا

جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ من قول الله سبحانه: ﴿أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ نكرةً لإفادة العموم، ووجه ذلك: وقوع النّكرة في سياق النّفي، وهذا من الصّيغ المفيدة للعموم والاستغراق، كما هو معلوم في علم الأصول، والمعنى: أَحَسِبَ هذا الكافر أن لم يَره أحدٌ في حال إنفاقه ما يزعم أنّه أنفقه[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (أحد).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 414.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 8 - 10]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إقامة الدّلائل على كمال القدرة

لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى استكبار ذلك الكافر، وأنكر عليه ذلك، وهَدَّدَه وتوعده في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؛ أقام الدّلالة على كمال قدرته تعالى على مجازاته ومحاسبته والاطّلاع على حاله[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: (نجد) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اعتلاءٍ وقوّةٍ وإشرافٍ وشِدَّةٍ وصعوبةٍ[2]؛ فالنّجد: المكان الغليظ الرّفيع، أو هو ما ارتفع من الأرض، والجمع: نِجادٌ ونُجودٌ وأَنْجُدٌ. ومنه قولهم: فلانٌ طَلّاعُ أَنْجُدٍ، وطلّاع الثّنايا، إذا كان ساميًا لمعالي الأمور[3]، والطّريقُ الواضح يُسمّى نجدًا، وأمرٌ نجدٌ: واضحٌ[4]. وقد ذهب جمهور المفسّرين في معنى ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ هنا أنّهما سبيلا الخير والشّرّ، أو الحق والباطل[5].

## المَعنى الإجماليُّ:

بيان نِعَم الرّحمن على الإنسان رجاءَ الشّكر

يقول تعالى ذِكْره: ألم نجعل لهذا القائل ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ عينيْن يُبصر بهما حُجَجَ اللّه عليه، ولسانًا يُعبِّر به عن نفسه وما أراد، وشفتين، نعمة منّا بذلك عليه، وبينّا له سبيلَي الخير والشرّ؟[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 352.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نجد).
(4) الخليل، العين: (نجد).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 482.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 414.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة الاستفهام وغرضه في قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل﴾:

تقرير الإنسان بالنّعم وإنكار الغفلة عليه

خرج الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ مخرجَ التّقرير بالنّعم؛ للإنكار والتّوبيخ على الحُسبان الفاسد المُبيَّن في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾، أو قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، والمعنى: هو غافل عن قدرة الله تعالى وعن علمه المحيط بجميع الكائنات، الدّالّ عليهما أنّه خلق حواسَّ الإدراك الّتي منها العينان، وخلق آلات الإبانة وهي اللّسان والشّفتان، فكيف يكون مفيض العلم على النّاس غيرَ قادرٍ وغيرَ عالمٍ بأحوالهم؟ قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14][1].

### دلالة ذِكْرِ (لَمْ) قبل الفعلِ المضارِع:

استغراق هذا الجَعْل الأزمنة كلّها

جاءت (لَمْ) قبل الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾، بدلًا من: (جعلنا له عينين) مع أنّ المعنى واحد؛ للدّلالة بصيغة الفعل المضارع على الحال والاستقبال، وللدّلالة عليه بعد دخول (لَمْ) على الماضي، ليشملَ التّعبيرُ بمجموع الكلمتَيْن ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل﴾ على الماضي والحال والاستقبال، وليدلَّ على أنّ هذا الجَعْل كان منذ خَلْق الإنسان، ولا يزال، وسيظل على تلك الحال حتّى ينتهي خَلْقُ كلّ أفراد الإنسان.

### فائدةُ استعمالِ لفظِ الجَعْل:

دلالة الفعل على الخلق والإيجاد مع احتمال معنى التّصيير

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ التّعبيرُ بالفعل (جعل) دون خلق أو صَيَّر ونحوهما؛ لأنّ معناه أعمَّ من هذه الأفعال، ويتضح معناه حسب السّياق الّذي يرد فيه، وهو في هذه الآية بمعنى أوجد وخلق، فيتعدّى إلى مفعول واحد، وهو ﴿عَيۡنَيۡنِ﴾، والجارّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ متعلّق بالفعل ﴿نَجۡعَل﴾، نحو قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 353.

﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النّحل: 78][1]، والمعنى: ألم نخلق ونوجِد له عينَين؟ ويجوز أن يكون ﴿نَجۡعَل﴾ في الآية بمعنى نُصَيِّر، فيتعدّى إلى مفعولَيْن، دلَّ عليهما قولُه: ﴿لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾، والمعنى: ألم نُصَيِّر هذه النّطفةَ بشرًا سويًّا ذا عينَيْن، نحو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ [الفرقان: 54].

### نوع اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾:

العيـنـان من أعـظـم الـنّـعـم نفعًا للإنسان

ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ حرفُ اللّام من لفظ ﴿لَّهُۥ﴾، ومعناه التّعليلُ، أي: اللّام المُبيِّنةُ سببَ الفعلِ الّذي قبلَها، فهي بمعنى (لأجله)، ولهذا سُمّيت (لام الأَجْلِ)[2]. أيْ: جعلنا عينين من أجله هو، فاللّه سبحانه خلق للإنسان عينين ليتمكّنَ من إبصار الكون وما فيه، وهذه النّعمة من أعظم النّعم على الإنسان، ولا يعرف قدرَها إلّا من فقدها.

### غرض تقديم ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول:

الاهـتـمـام بـالإنـكـار على مزاعم الإنسان مـع الـدّلالـة عـلى الـقَـصْـر والتّخصيص

تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ شبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول به ﴿عَيۡنَيۡنِ﴾؛ لنُكْتَة الاهتمام بالإنكار على هذا الإنسان الكافر الذي قال: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾، وحَسِبَ أن لم يره أحدٌ في إنفاقه الّذي يزعمه، فكان سياق الآية تقريره بنِعَم اللّه عليه، وإنكارُ مزاعمِه الباطلة.

ومن دلالات هذا التقديم أيضا: القصر والتخصيص، أما القصر فالمعنى: جعلنا له وحده عينين دون غيره، وأما التخصيص فالمعنى: اختصصناه بذلك، ولا يمنع من القصر أو التخصيص وجود عينَيْن لكثير من المخلوقات، إذِ القصر والتخصيص فُهِما من تقديم شبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول به ﴿عَيۡنَيۡنِ﴾ من جهة، ومما عُطِفَ عليه

(1) الرّاغب، المُفردات: (جعل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

من هداية النجديْن التي لا تكاد توجد في غيره من جهة أخرى، ثم إن القصر والتخصيص ليس في مجرد وجود عينيْن له، بل من وجود عينيْن تحملان جملة من أنواع الجمال الحسي والمعنوي.

**السّرّ في احتمال مرجع الضّمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾:**

تعدّد المعاني مع الإيجاز

اختلف المفسّرون في مرجع الضّمير في قَوْله تَعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ تبعًا لاختلافهم في مرجع الضّمير في الآيات السّابقة، فقال بعضهم: إنّه عائد على جنس الإنسان، وقيل: هو راجع لبعض صناديد قريش الّذين كان رسول اللّه ﷺ يكابد منهم ما يكابد[1]، وقيل: إنّ الضّمير راجع لإنسان معيّن - على النّحو الذي أشرنا إليه من قبل. ومع احتمال كلّ هذه الأقوال، فإنّه راجع كذلك لمن كان على شاكلتهم في الكفر من سائر النّاس.

**نُكْتَةُ البَدءِ بذِكْرِ العينيْن:**

مناسبة السّياق مع تقرير الإنسان بأنّها أعظمُ نعمة، وإنكارُ حُسبانه أنّه لم يره أحدٌ

أوثِر في قَوْله تَعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ البَدءُ بذِكْر العينيْن لمناسبة السّياق، ففي الآية السّابقة - وهي قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ - ذُكِرَت الرّؤية، وهي من عمل العينَين، فلمّا زعم هذا القائل أنّه أنفق مالًا لُبَدًا كذبًا وزورًا، وحسب أنّ اللّه سبحانه لم يره؛ ناسبَ ذلك البَدءُ بذِكْر العينيْنِ الَّذَيْنِ هما حاسّةُ الرّؤية، لإنكار حسبانه أنّه لم يره أحدٌ. ومن مناسبة السّياق في البّدء بذِكر العينين أنّ المُقْسَمَ به وأكثرَ المُقْسَم عليه من قبيل المُبصَرات[2]، إضافةً إلى كون نعمة البصر أعظمَ النّعم على الإنسان وأكثرَها نفعًا، مقارنةً بغيرها من الحواسّ، وأدلّ دليلٍ على ذلك أنّ العينين هما النّعمةُ الوحيدة التي بُشِّرَ صاحبُهما بالجنّة إن صبر على فقدهما، وقد وصفهما النّبيّ ﷺ بأنّهما حبيبتا الإنسانِ وكريمتاه[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 481.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 678.
(3) البخاريّ، كتاب: المَرْضَى، باب فضل مَن ذهب بصره، الحديث رقم: (5653).

### بلاغة التّعبير بالعينين دون الإبصار أو الرّؤية:

في العين نِعَم كثيرة، والرّؤية والإبصار واحدٌ منها، وهما لا يختصّان بالعين

يستلزم ذِكْرُ العين ذِكْرَ الرّؤيةِ أو الإبصار، أمّا ذِكْرُ الرّؤيةِ فلا تستلزم ذِكْرَ العينِ؛ لأنّ الرّؤية تكون بالعين والقلب والفكر وفي النّوم، على تفصيل في ذلك، وكذلك الإبصار أو البصر فإنّه يكون بالعين والقلب، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]. وفي العين الواحدة نِعَمٌ متعدّدة، وجوانب النّفعِ بها كثيرةٌ، ومواطنُ الجمال بها وفيها معروفة، والرّؤية أو الإبصار واحدٌ منها، وبعد كلّ ذلك يأتي تناغمُ الصّوت مع رؤوس الآي الآتيةِ بعدَها.

### بلاغة تنكير ﴿عَيۡنَيۡنِ﴾:

التّعظيم والتّفخيم

جاءت كلمة ﴿عَيۡنَيۡنِ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾؛ لما في التّنكير من التّعظيم والتّفخيم؛ أي: ألم نجعل له عينين عظيمتَين في جمالهما ومنافعهما، وكونهما مرتفعتَين في أعلى الرّأس، وغير ذلك، وفي هذا من تكريم الإنسان ما فيه.

### نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ على العينَين:

الإشارة إلى عِظَم نعمة النّطق والبيان

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لنُكتة تعدادِ نِعَم اللّه سبحانه المتظاهرة على الإنسان، فعَطَفَ على نعمة البصر الّذي آلتُه العينان نعمةَ النّطق الّذي آلتُه اللّسان والشّفتان؛ تقريرًا لعظيم الفضل، وحثًّا على الشّكر، وللإشارة إلى عِظَم نعمة النّطق والبيان الذي تميَّز بها الإنسانُ، بما فيه من الفصاحة والبلاغة، وهي من أجَلِّ نِعَم اللّه تعالى على العبد، كما ذَكر القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرّحمن: 3 - 4].

### نُكْتَةُ ذِكْرِ اللّسان مع الشّفتَين:

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ الجمعُ بين ذِكر

تصوير خَلْقِ آلةِ النّطق في مقام الاستدلال على القُدرة

الشّفتين مع اللّسان؛ لأنّ الإبانة تحصل بهما معًا، فلا ينطق اللّسان بدون الشّفتين، ولا تنطق الشّفتان بدون اللّسان، ومن دقائق القرآن أنّه لم يقتصر على اللّسان ولا على الشّفتين، خلافَ عادةِ كلام العرب أن يقتصروا عليه، يقولون: ينطق بلسان فصيح، ويقولون: لم ينطق ببنت شَفَة، أو لم ينبس ببنت شَفة، لأنّ المقام مقامُ استدلالٍ، فجيء فيه بما له مزيد تصويرٍ لخَلْق آلة النّطق[1].

**توجيه عدمِ ذِكْر حاسّة السّمع:**

الاستغناء عن الإعادة لنُكْتَة الاكتفاء

لم يَذْكر النّظمُ الكريم في هذه الآيات حاسّةَ السّمعِ هنا كما ذكر في أوائل سورة الدّهر، حيثُ قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: 2]، وكذا في سائر المواضع، لنُكْتة الاكتفاء بما ذُكر في مواضع كثيرة، ولم يعكس، مع أنّ السّمع أفضلُ من البصر؛ لأنّ ذِكر العينِ مناسبٌ هنا؛ إذِ المُقسَمُ به وأكثرُ المُقسَم عليه من قبيل المُبصَرات، وكذا وُجِّهَ عدمُ ذِكر الأفئدة للنّكتة ذاتها[2].

**توجيه عطف الهداية على الحواسّ:**

تبليغ المعلومات بعد اكتسابها بالآلات

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ على ما سبق من خَلْق الحواسّ؛ لنُكْتَة الإبانة عن المعلومات، فالفِكْر يُرشِد إلى النّظر والبحث بعدَ ذِكر وسائل اكتساب العِلم، فاستكمل النّظمُ بذلك الكلامَ عن أصول التّعلّم والتّعليم، فإنّ الإنسان خُلِقَ مُحبًّا للمعرفة مُحبًّا للتّعريف، فبِحواسِ الإدراكِ يكتسب المشاهداتِ، وهي أصول المعلومات اليَقينيّة، وبالنّطق يُفيدُ ما يعلمُه لغيره، وبالهداية إلى الخير والشّرّ يُميّز بين معلوماته ويُمحِّصها[3].

**نوع الهداية ودلالتُها:**

هداية الإرشاد بالبلاغ والبيان على يد الرّسل

ورد في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ذِكْرُ الهداية، وهي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 354.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 678.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 354.

هنا هدايةُ الإرشاد والبيان، وقد جعلها اللّه سبحانه على يد الرّسل، يهدون بالبلاغ والبيان، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصّلت: 17] وقال في حقّ نبيّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشّورى: 52]، فالبَشرُ هيّأهمُ اللّه سبحانه وجعلَ فيهم القابليّةَ للهدى، كما أخبر سبحانه في هذه الآية، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3]. فهذه الهدايةُ تعمّ الكافرَ أيْضًا؛ لأنّها بإنزال الكتب وإرسال الرّسل، أو بنصب الدّليل الدّالّ عليهما[1].

### نُكْتَةُ التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾:

تحقّقُ الهدايةِ ببعثة الرّسلِ وإقامة الحُجّة

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ استعمالُ الفعل (هَدَيْناهُ) بصيغة الماضي دون غيرها؛ للدّلالة على تحقّق الهداية ببعْثة الرّسل من أوّل الخَلق، وإقامةِ الحُجّة على النّاس، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]، فأدّتِ الرّسلُ أمانةَ التّبليغ، وبيّنوا للنّاس الحقّ، وأرشدوهم إلى سبل السّعادة في الدّنيا والآخرة.

### بلاغة التّعبير بـ (نا) الدّالّة على التّعظيم:

لا يملك هذه الهدايةَ على أكمل وجه إلّا عظيم

جاء الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ضمير (نا) الدّالّ على التّعظيم، فلا يقدر على هذه الهداية على أكمل وجهٍ، ولا يملكها إلّا عظيمٌ، ولا يُبَلِّغها ويُبَيِّنُها من البشر إلّا الرّسل، وهم عظماءُ بني آدمَ، بما مددناهم به من عظمتِنا؛ أي: هديناه بما لنا من العظَمة المترتبةِ على العِلم والقُدرة.

### بَراعةُ الاستعارة في استعمال لفظ ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾:

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ بلفظ (النّجد)، وأصل

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 678.

النّجد: ما ارتفع من الأرض وأشرف، وجمعُه نجود، ومنه سمّيت بلاد نجد نجدًا لارتفاعها عنِ انخفاض تهامة، فالنّجدان الطّريقان العاليان، وقد اسْتُعيرا للدّلالة على الخير والشّرّ، فكأنّه لمّا وضحتِ الدّلائلُ عليهما جُعِلت هذه الدّلائلُ كالطّريق المرتفعةِ العالية، بسبب أنّها واضحةٌ للعقول كوضوح الطّريق العالي للأبصار.

استعارة النّجدين للخير والشّرّ

ويجوز أنّ يكون اسْتُعيرا للخير والشّرّ لصعوبة اتّباع أحدهما، وهو الخير، فغُلّب على الطّريقين. أو لأنّ كلّ واحد صعب باعتبار، فطريقُ الخيرِ صعوبتُه في سلوكه، وطريقُ الشّرّ صعوبتُه في عواقبه، ولذلك عبّر عنه بعد هذا بالعَقبة، وإلى هذا التّأويل ذهب عامّة المفسّرين في ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾، وهو أنّهما سبيلا الخير والشّرّ.

وذهب بعضُ السّلفِ كابن عبّاس وعليّ وابنِ المسيّب والضّحّاك إلى أنّ النّجدين استعارةٌ للثّديَيْن؛ لأنّهما كالطّريقَيْن لحياة الولد ورزقه، واللّه تعالى هدى الطّفل حتّى ارتضعهما[1]، ولا مانع - واللّه أعلم - من أن يكون اللّفظ قد اسْتُعيرَ للمعنَيَيْن معًا، إذِ الاستعارةُ تصلح لهما معًا، كلٌّ بحسب معناه ودلالته.

سبحان مَن ألهم الطّفلَ الطّريقَ إلى حياته

### دلالة التّعريف بـ (أل):

جاء لفظُ ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل) الدّالّة على تعريف العهد، فقد تكرّر في القرآن الكريم أنّ الإنسان يختار بين طريقَيْن؛ طريق الخير أو طريق الشّرّ، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3]، وقولِه تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشّمس: 7 - 10].

تكرّر بيانِ الخيرِ والشّرِّ في القرآن

### نُكْتَة التّغليب في الآية:

يتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أسلوبُ التّغليب، على

تغليب النّجد في الخير والشّرّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 482.

القول بالتّغليب في الاستعارة، فإنّ وصف سبيلِ الخير بالرِّفعة والنّجديّة ظاهرٌ بخلاف سبيل الشّرّ، فإنّ فيه هبوطًا من ذروة الفطرة إلى حضيض الشّقاوة، فوصفُه بالنّجديّة على سبيل التّغليب أو على توهّم المتخيِّلة له صعودًا، ولذا استعمل التّرقّي في الوصول إلى كلّ شيء وتكميله[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 353.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣
أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا
ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: 11 - 17]

## ۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلَها:

بيان الإنفاق الفاضل من الفاسد

لَمّا ذكر سبحانه النّعمَ على الإنسان أخبر أنّه لم يشكر تلك الأيادي والنّعم بالأعمال الصّالحة؛ من فكّ الرّقاب وإطعام اليتامى والمساكين ... إلخ[1]. ويجوز أنّه لمّا ذكر اللّه سبحانه عن الكافر إنفاقَه الفاسد وغيرَ النّافع، دلّ عبادَه في هذه الآيات على الوجوه الفاضلة الّتي تُنفق فيها الأموال[2].

## ۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾: يدلّ القحم على تورّد الشّيء بأدنى جفاء وإقدام. يُقال: قَحَم في الأمور قُحومًا: رمى بنفسه فيها من غير دُربة. وقُحَمُ الطّريقِ: مصاعبُه. ويقولون: إنّ للخصومة قُحَمًا؛ أي: إنّها تُقحِم بصاحبها على ما لا يهواه، والقُحْمَةُ بالضّمّ: المَهْلَكَةُ[3]، والاقتحام: توسّط شِدّة مخيفة، ودخولٌ في الأمر الشّديد المُخيف بشِدّة من غير تَهيُّؤ أو تهيئةٍ (من غير اختيارٍ أو رَويَّة أو إعداد أو إذْن)[4]. ومعنى الاقتحام في الآية: التّجاوز.

2) ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾: (عقب) أصلان صحيحان؛ أحدهما: يدلّ على تأخير شيء وإتيانِه بعد غيره. والأصل الآخر: - وهو المقصود هنا -

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قحم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قحم).

يدلّ على ارتفاعٍ وشِدّة وصعوبة. فالعَقبة: طريقٌ وعَرٌ في الجبل، وجمعها عِقاب. ثمّ رُدّ إلى هذا كلُّ شيء فيه عُلوّ أو شِدّة[1]، ويجمع بينهما بأنّها كلّ ارتفاعٍ أو شِدَّةٍ أو صُعوبةٍ أو غِلَظٍ تلحقُ آخرَ الشّيء أو تكون خَلْفَه يَنْغَمِس فيه فيمتد معه[2]. وقد ذكر المفسّرون في معنى العَقبة في الآية وجهين؛ الأوّل: أنّها عقبةُ جهنّم، أو هي عقبة بين الجنّة والنّار، أو جبل زلال في جهنّم، أو الصّراط الذي يُضرب على جهنّم[3]. والثّاني: بمعنى مجاهدة النّفس والشّيطان في أعمال البرّ في الدّنيا[4].

3) ﴿فَكُّ﴾: (فك) أصل صحيح يدلّ على تفتُّح وانفراج. من ذلك فكاك الرّهن، وهو فتحُه من الانغلاق. وحكى الكسائيّ: الفِكاك بالكسر. ويُقال: فككت الشّيء أفكُّه فكًّا. وسقط فلان وانفكّت قدمُه؛ أي: انفرجت. وقولهم: لا ينفكّ يفعل ذلك، بمعنى لا يزال. والمعنى: هو وذلك الفعل لا يفترقان، فالقياس فيه صحيح[5]. وفككتُ الشّيء: خلّصتُه. وكلّ مشتَبِكين فصَلتَهما فقد فككتَهما، وكذلك التّفْكيكُ، وفَكَّ الرّقبةَ؛ أيْ: أعتقها[6]؛ أي: فكَّ غُلَّ الأسر والرِّقّ عنها[7].

4) ﴿مَسْغَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، مثل: المحمَدَة والمرحمة، من (سغب) وهو أصلٌ واحدٌ يدلّ على الجوع، وسَغِبَ بالكسر يَسْغَبُ سَغبًا؛ أي: جاع، فهو ساغِبٌ وسَغْبانُ، وامرأةٌ سَغْبى، ويتيمٌ ذو مَسْغَبَةٍ؛ أيْ: ذو مجاعة. قال ابن دريد: قال بعض أهل اللّغة: لا يكون السَّغَب إلّا الجوع مع التّعب. قال: وربّما سُمّي العطشُ سَغَبًا، وليس بمستعمل[8]. والمَسْغَبة في الآية: هي الجوع العامّ مع التّعب النّاشئ من شِدّة الجوع.

5) ﴿مَقْرَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، من(قَرُب) وهو أصل صحيح يدلّ على خِلاف البُعد. يُقال: قَرُب يَقرُب قُرْبًا[9]، والقرابة: القُربى في الرَّحم، وهو في الأصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عقب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 24/ 27.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فك).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (فكك).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فكك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات: (سغب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).

مصدرٌ. تقول: بيني وبينَه قرابةٌ، وقُرْبٌ، وقُربى ومقرَبة ومقرُبة، وقُرْبَةٌ، وقُرُبَةٌ بضمّ الرّاء، قال الفرّاء: إذا كان القريب في معنى المسافة يُذَكّر ويُؤنّث، وإذا كان في معنى النّسب يُؤنّث[1]. والمقربة في الآية: تعني القرابة.

6) ﴿مَتْرَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، من (ترب)، وهو أصلان؛ أحدهما: التّراب وما يُشْتَق منه. والآخر: تساوي الشّيئين. فالأوّل: التّراب، وهو المقصود هنا، فيُقال: تَرِبَ الرّجلُ، إذا افتقر كأنّه لصق بالتُّراب[2]، ويمكن أن يعودا إلى أصل واحد، وهو: تراكمٌ أو توالٍ لأشياء دقيقة أو ناعمة في ظاهر الشّيء لاصقة أو عالقة به: كتراب الأرض، ومن ملحظ التّراكم أو التّوالي: التِّرب بالكسر: اللِّدَةُ والسِّنُّ، وهذه تِرْبُ هذه: لِدَتُها، وُلِدَتْ معها في زمن واحد، ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: 37][3]، والمَتْرَبَةُ: المَسْكَنَةُ والفاقَةُ[4]؛ فقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: ذا لُصوق بالتُّراب من شِدّة فقْرِه[5].

### المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان وجوه الإنفاق الفاضلة لتجاوز مشقّة الآخرة

يَعِظُ ربُّنا سبحانه الإنسانَ أن يتجاوزَ مشقّةَ الآخِرة، ولا يُمَكِنُه ذلك إلّا بإنفاق ماله في وجوه الخير فيأمن، وأيُّ شيء أعلمه: ما مشقّةُ الآخرة، وما يعين على تجاوزها؟ إنّه عِتق رقبةٍ مؤمنة من أسر الرِّق، أو إطعامٌ في يوم ذي مجاعة شديدة يتيمًا - مات أبوه وهو صغير - من ذوي القرابة فيجتمع فيه فضلُ الصّدقة وصلةِ الرّحم، أو فقيرًا معدَمًا لا شيءَ عنده. ثمّ كان مع فِعْل ما ذُكر من أعمال الخير من الّذين أخلصوا الإيمانَ للّه سبحانه، وأوصى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ترب).
(5) الرّاغب، المفردات: (ترب).

بعضُهم بعضًا بالصّبر على طاعة اللّه وعن معاصيه، وتواصَوا بالرّحمة بالخَلق[1].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الفاء ودلالتُها:

تفريع اقتحام العقبة على بيان نَـجْـدَي الخير والشّرّ

عُطِفَ قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ على ما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، ويجوز أن يكون تفريعَ إدماجٍ بمناسبة قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: هديناه الطّريقين، فلم يسلك النّجدَ الموصلَ إلى الخير، ويجوز أن يكون تفريعًا على جملة: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، ويكون ما بينهما اعتراضًا، والمعنى: أنّه يَدّعي إهلاكَ مالٍ كثير في الفساد؛ من ميسر وخمر ونحوِ ذلك، فأنكر اللّه تعالى عليه عدمَ إنفاقِ ماله في القُرَب والفضائل بفَكِّ الرِّقاب وإطعام اليتامى والمساكين في زمن المجاعة، فإنّ الإنفاق في ذلك لا يخفى على النّاس، خلافًا لما يدّعيه من إنفاق في المعاصي والذّنوب[2].

### نوع (لا) في الآية وبلاغة استعمالِها:

أثــر حــروف المعاني في ثـراء البيان القرآنيّ

ورد في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ حرف (لا)، ويجوز فيها وجوه؛ **الأوّل**: أنّ تكون (لا) نافية، وهو قول أبي عُبيدة والفرّاء والزّجّاج، كأنّه قال: ووهبنا له الجوارحَ ودللناه على السّبيل فما فعل خيرًا، أي: فلم يقتحم. **والثّاني**: أن تكون دعائيّة، كقوله: (لا نجا ولا سَلِم)، دعاءٌ عليه ألّا يفعل خيرًا. **والثّالث**: أن تكون حرفَ تحضيض، والأصل: "فألا اقتحم"؛ ثمّ حُذِفت الهمزة وهو ضعيفٌ.

والرّاجح كونها غيرَ دعائيّة؛ فإنّ الدّعاء هنا ليس بمناسب أصلًا؛ إذِ المقام مقام ترغيب في فعل هذه الفضائل تَشكُّرًا لهذا

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 594.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 356.

النّعم الجليلة، لا الكفُّ عنها[1]، ولا مانع من إرادة كلِّ هاتيك المعاني، مع رُجحان بعضها على بعضٍ، فإنّ القرآن حَمّالٌ.

**توجيه عدمِ تكرار (لا):**

**التّكرار في المعنى يُغني عن التّكرار في اللّفظ**

يُلاحظ في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ عدمُ تكرارِ (لا)، مع أنّ الكثير في كلام العرب ألّا تقع (لا) الدّاخلة على الماضي إلّا مكرّرةً، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾ [القيامة: 31]، والنُّكتة في ذلك أنّها متكرِّرةٌ في المعنى؛ لأنّ معنى ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾: فلا فكَّ رقبةً، ولا أطعم يتيمًا ولا مسكينًا، ففسَّرَ اقتحامَ العقبةِ بذلك، ويجوز أن يكون قولُه الآتي: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ قائمًا مقامَ التّكرير؛ كأنّه قال: فلا اقتحم العقبةَ ولا آمن[2]. قال ابن هشام: "ولو صحّ لجاز: لا أكل زيد وشرب، وقال بعضُهم: (لا) دُعائيّة، دُعاءٌ عليه ألّا يفعلَ خيرًا. وقال آخر: تحضيضٌ، والأصل: فألا اقتحمَ، ثمّ حُذِفت الهمزة"[3]. وقال المُبرِّد وأبو عليّ الفارسيّ: "إنّ (لا) هنا بمعنى (لم)؛ أيْ: فلم يقتحم العقبة، ورويَ نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يَحتج إلى التّكرير[4].

**دلالة مفردة ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾:**

**الدّخول في أمر شديد ومجاوزتُه في صعوبة**

عُبّر في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ بالفعل ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾، ومعناه: الدّخول في أمر شديد ومجاوزتُه في صعوبة، يُقال: قَحَم يَقْحَمُ قُحومًا، واقتحم اقتحامًا وتقحَّم تَقَحُّمًا، إذا ركب القَحْمَ، وهي المهالك والأمور العِظام، أو إذا رمى بنفسه فيها فجأة بلا رويّة[5].

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 156.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 321.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 18.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168، والفيروزاباديّ، القاموس: (قحم)، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 18.

### بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾:

تكلّفُ الأعمالِ الصّالحة شديدٌ على النّفس

تضمّن قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ استعارةً بديعة، فالاقتحامُ: الدّخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، وهو (افتعال) للدّلالة على التّكلّف، مثل: اكتسب، فشُبِّه تكلّفُ الأعمالِ الصّالحة باقتحام العَقبة في شِدّته على النّفس ومشقَّتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصّلت: 35][1].

### تعيينُ مَرجعِ ضميرِ الغَيبة في قوله: ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾:

تـنـوّعُ المعنى بينَ التّخصيص والتّعميم

يجوز في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أن يكون مرجعُ ضميرِ الغَيبة هو جنس الإنسان الّذي قال سبحانه عنه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾. فأخبر هنا أنّه لم يشكر تلك الأيادي والنّعمَ بالأعمال الصّالحة؛ من فكِّ الرّقابِ وإطعامِ اليتامى والمساكين ... إلخ[2]. ويجوز أن يكون المقصودُ الرّجلَ الكافرَ الّذي يقول: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾، فلمّا ذكر اللّه سبحانه إنفاقَه الفاسدَ وغيرَ النّافع، دلّ في هذه الآيات على الوجوه الفاضلة الّتي تُنفَق فيها الأموالُ[3].

### دلالة لفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾:

مشقّةُ مجاهدةِ الإنسانِ نفسَه في فعل أعمال البِرّ حتّى يتغلَّب على عقبة الآخِرة

عُبِّر في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ بلفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾، وهي طريقٌ في الجبل وعْرٌ، يشُقّ سلوكَها على أكثر النّاس، وقد ذكر المُفسِّرون في معنى العقبة هاهنا وجهيْن؛ أنّها عقبةُ النّفس التي تحتاج إلى مجاهدة، أو عقبةُ جهنّم، على النّحو الذي أسلفنا من قبل. ولا مانع من إرادة العقبتيْن معًا؛ فمَن اقتحم عقبةَ الدّنيا بأن جاهد نفسَه والشّيطانَ في أعمال البِرّ في الدّنيا مع الإيمان الصّادق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 356.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.

والعملِ الصّالح؛ استطاع أن يتَغَلَّب على عقبة الآخرة، وهي النّار المُؤصدة في جهنّم، وينجو منها.

**فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾:**

تعريف الشّيء باعتبار عهديّتِه في الذّهن

جاء لفظُ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ معرّفًا بحرف (أل) الدّالّة على تعريف الجنس، ويُسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة)[1]، أي: حقيقة العقبة، وهي الطّريق الوَعْرُ في الجبل، وهي تعرُّفُ حقيقةٍ ذهنيّةٍ يُراد بها فردٌ مُبهَمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّتِه في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه كما في قوله: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13] وقولِهم: ادخل السّوق[2].

ويجوز أن يكون مُعرَّفًا بحرف (أل) الاستغراقيّة التي تَعُمُّ سائرَ أفرادِ العقبات، وتشملُ أنواعَها التي ذكرتها السّورةُ، والتي لم تذكرها، ويكون المعنى: فلا اقتحم عقباتِ الدّنيا بمجاهدة نفسِه والشّيطانِ في سائر أعمال البِرّ في الدّنيا التي لا تُقبل إلّا بالإيمان الصّادق وإخلاصِ العمل الصّالح للّه تعالى، استطاع أن يقتحم عقبةَ الآخِرة يومَ القيامة، فينجو منها.

**بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾:**

أثر تشبيه المعقول بالمحسوس على النّفوس

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ صورةً بيانيّة بديعة، فقد استُعير لفظُ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾ للدّلالة على العمل الموصل للخير؛ لأنّ عَقَبة النّجدِ أعلى موضع فيه، فهي اسْتعارَة تصريحيّة تحقيقيّة، ووجهُ الشّبهِ: العُلوُّ والرِّفعة عند اللّه في المُشبّه، والعُلوّ الحِسّيّ في المُشبّه به، وكون المشبّه به الطّريقَ في الجبل دون الجبل لكون المُشبَّه طريقًا موصلًا إلى الجِنان والرّضوان، ولكلّ نجد عَقَبة ينتهي بها، وفي استعمال (الاقتحام) ترشيحٌ لاستعارة العقبة لطريق الخير،

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 263.

وهو مع ذلك استعارة أخرى؛ لأنّ تزاحم النّاس إنّما يكون في طلب المنافع، وأفاد نفيُ الاقتحام أنّه عَدل عن الاهتداء إيثارًا للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العَقبة.

وقد تتابعت الاستعارات الثّلاث: النّجدين، والعَقبة، والاقتحام، وبُنِيَ بعضُها على بعض، وذلك من أحسن الاستعارة، وهي مبنيّة على تشبيه المعقول بالمحسوس(1).

**دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:**

الاعـــتراض بتفخيم شأن العَقبة

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ على ما قبله بحرف الواو؛ لأنّه خرج مخرجَ الاعتراضِ تعظيمًا لشأن العَقبة، وتعظيمًا لأمر الدّين، ولا بدّ من تقدير محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون فكَّ رقبةٍ، فالمُراد: وما أدراك ما اقتحام العَقبة(2).

**نُكْتَةُ الاستفهام بـ (ما) الأولى والثّانية:**

تعظيم شأن العَقبة، والتّشويقُ إلى معرفتها

أفاد الاستفهامُ بلفظ (ما) الأولى والثّانية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ التّشويقَ إلى معرفة المُراد من العَقبة، كما يتضمّن تعظيمًا لقَدْرِها وتنويهًا بها، وأنّها لأهمّيّتها يسأل عنها المخاطَب: هل أعلمَه مُعْلِمٌ ما هي؟ أي: لم يقتحم العقبة في حال جدارتها بأن تُقتَحم(3). ويستعمل هذا الأسلوب في القرآن في مواضع التّفخيم والتّعظيم، أو في مواطن التّهويل والتّفظيع(4).

**دلالة مجيء ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ بصيغة الماضي:**

شيوع الماضي في المتحقّق، والمضارع في الغَيبيّ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ الفعلُ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقّق الإدراك، قال ابن عبّاس: "ما قال تعالى فيه: (وما أدراك) فقد أدراه، وما قال تعالى فيه: (وما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 356، والقونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 357.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 28/ 347.

يُدريك) لم يُدره به"، وقال سفيان بن عيينة: "كلّ شيء قال فيه: وما أدراك؟ فإنّه أُخبر به، وكلّ شيء قال فيه: وما يدريك؟ فإنَّه لم يُخبر به".

وقد وردت عبارة (وما أدراك) في القرآن في ثلاث عشرة آية، ووردت عبارة (وما يدريك) في ثلاث آيات، كلّها في سياق الغيب والسّاعة، هي: [الشّورى: 17]، و[الأحزاب: 63]، و[عبس: 3]، فالتّزكية لا يعلمها إلّا الله سبحانه(1).

### تعيين مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾:

تخصيص الرّسول ﷺ بالخطاب، والنّاس تبعٌ له من بعده

اختلف العلماء في مرجع ضمير الخطاب من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾، فقال بعضهم: هو خطاب للكافر على وجه الزّجر له، وقال الأكثرون: إنّه خطاب للرّسول ﷺ، وإنّما خاطبه بذلك لأنّه ما كان عالمًا بذلك قبل الوحي، ورجّح بعضهم أنّ الخطاب لغير معيّن لأنّ هذا بمنزلة المثل(2). ولا مانع من إرادة كلّ هذه المعاني، ويكون تخصيص الرّسول ﷺ بالخطاب تشريفًا له وتعظيمًا، كأنّه وحدَه الذي يدري هذا الأمر، والنّاس تبعٌ له في الخطاب، أمّا خطاب المؤمن فيكون على وجه التّشريف والتّعظيم، لأنّه من أُمّته ﷺ، فيناله من التّشريف والتّعظيم على قدر تمسّكه بالدّين واتّباعه لسُنّته ﷺ، وأمّا خطاب الكافر فيكون على وجه الإنكار عليه والزّجر له، مع التّهديد والوعيد.

### بلاغة الاستفهام عن العقبة بعد الإخبار عن نفي اقتحامها:

زيادة التّقرير والتّنويه برفعة مكانتها

جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ الاستفهامُ عن العَقبة بعد الإخبار عن نفي اقتحامها؛ لزيادة تقريرها وكونها عند الله بمكانة رفيعة، ولا بدّ هنا من تقدير محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 66، والهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 25/ 25.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 80، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 30/ 357.

فكُّ رقبةٍ، فالمُراد: وما أدراك ما اقتحامُ العَقبة؟ وهذا تعظيمٌ لأمر التزام الدّين[1].

**دلالة الحذف في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾:**

كثرة المعاني مع قِلّة الكلمات

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾: محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون بفَكِّ الرّقبة والإطعام المذكور، وتقدير المحذوف إنَّما يكون على حسب المعنى الممكن في الآية، فيمكن أن يكون التّقدير: وما أدراك ما العمل الذي يُقْتَحَم به عقبة الدنيا، وما السّبيل إلى اقتحام عقبة الآخرة.

**جمال الفصل في جملة ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾:**

تَنَوُّع المعاني تبعًا لتنوّع أسباب الفصل حسب الإعراب

فُصل قَوْلُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ عن سابقه لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتَين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنَزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على قراءة رفع ﴿فَكُّ﴾ وإضافته إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾ بيانًا للعقبة، والتّقدير: هي فكّ رقبة، فحُذف المُسنَد إليه حذفًا لمتابعة الاستعمال. وتبيين العقبة بأنّها: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ مبنيٌّ على استعارة العَقبة للأعمال الصّالحة الشّاقّة على النّفس، تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، وأمّا على قراءة ﴿فَكَّ﴾ بفتح الكاف على صيغة الفعل الماضيّ، وبنصب ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعول لـ ﴿فَكَّ﴾ تكون جملة: ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ بيانًا لجملة ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ وما بينهما اعتراض، أو تكون بدلًا من جملة ﴿ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، فعلى الأوّل يكون التّقدير: فلا اقْتحم العقبَةَ ولا فكَّ رَقَبَةً، وما بينهما اعتراض[3]، وعلى الثّاني يكون التّقدير: فلا فكَّ رَقَبَةً وّلا أَطْعَمَ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 162.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 357.

### براعة استعمال مفردة ﴿فَكُّ﴾ دون (تحرير):

تصوير معاناة الرّقّ واستحضارُ مشهدِ القيود والأغلال

أوثِر في قَوْله تَعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿فَكُّ﴾ دون غيره لنُكتة تصوير معاناة الرّقّ، وأنّه كالقيد والغُلّ، فالفَكّ: الفرق بين الشّيئَين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفَكِّ القَيْدِ والغُلِّ، ولا يكون فكّ الرّقبة إلّا بالفرق بينها وبين صفة الرّقّ بإيجاب الحرّية، والمعنى: إعتاق نسمة بتخليصها من أسر الرّقّ، أو من القتل، أو من يد كافر، وسُمّي العتق فكًّا؛ لأنّ الرّقّ كالقيد، وسُمّي العبدُ المرقوق رقبةً؛ لأنّه بالرّقّ كالأسير المربوط في رقبته[1]، وقال بعض العلماء: إنّ الفَكَّ هو أخذ الشّيء من يد مَنِ احتاز به، فأُطلِق الفَكّ على تخليص المأخوذ في أسر أو مِلك، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالنّزع من يد القابض الممتنع[2].

### دلالة إضافة ﴿فَكُّ﴾ إلى رقبة:

تحقيق المسارعة إلى فعل ذلك، مع تخفيف اللّفظ بإضافته إلى معموله

الإضافة في قَوْله تَعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على قراءة الرّفع من باب إضافة المصدر إلى معموله، وهي عند النّحاة إضافةٌ غير محضة، وهي كذلك عندهم لا تفيد تعريفًا ولا تخصيصًا في المعنى، وإنّما تُفيد التّخفيفَ بحذف التّنوين، ولهذا تُسمّى أيضًا إضافةً لفظيّة لرجوع فائدتها إلى النّطق باللّفظ، ولمّا كان إعمال المصدر واسمُ الفاعل عندهم يدلُّ على الحال والاستقبال، وإضافتُه إلى معموله تدلّ على الماضي، كان في إضافته إلى معموله ما في الفعل الماضي بدلالته على تحقّق وقوع الفعل، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوب المسارعة إلى فكِّ الرّقبة والإطعام على الوصف المذكور.

### بلاغة المجاز المرسل في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾:

تصوير ذُلِّ العبد بذُلِّ رجل وُضِعَ الغُلُّ في رقبته

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ صورةً بيانيّة من نوع المجاز

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 18.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 357.

المرسل الّذي علاقته الجُزئيّة، فإنّ الرّقبة مُرادٌ بها الإنسان، من إطلاق اسم الجُزء على كلّه، مثل إطلاق رأس وعين ووجه، وإيثارُ لفظِ الرّقبة هنا لأنّ المُراد ذاتُ الأسير أو العبد، وأوّل ما يخطر بذِهن النّاظر لواحد من هؤلاء هو رقبتُه؛ لأنّه في الغالب يوثَق من رقبته[1]، وفي ذلك تصويرُ ذُلِّ العبد في صورة رجلٍ وُضِعَ الغُلّ في رقبته، فأحاط به الذُّلّ من كلّ جانب.

### بلاغة الكناية في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾:

فكُّ المرءِ رقبة نفسِه من رقّ الذّنوب

الظّاهر في قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أنّ معناه الحثّ على العتق وتحرير العبيد، وذهب بعضُ العلماء إلى أنّه كناية عن التّقوى، أي: أن يَفُكّ المَرءُ رقبةَ نفسِه من الذّنوب، وبما يتكلَّفُه من العبادة الّتي يتخلص بها من النّار، ويصير بها إلى الجنّة، فهي الحرّيّة الكبرى. قال الماورديّ: يحتمل أنّه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه باجتناب المعاصي وفعلِ الطّاعات، واللّفظ يساعد على هذا التّأويل[2]، ولا مانع من إرادة المعنَيين معًا، بل هو الأصل في الكناية، ففَكُّ الإنسانِ الرِّقابَ في الدّنيا والإطعامُ على الوجه المذكور سببٌ في فكِّ رقبتِه من عذاب النّار يوم القيامة.

### نُكْتَةُ تقديمِ فكِّ الرّقبة على الإطعام:

العِتقُ أفضلُ من سائر أنواع الصّدقة

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَـٰمٌ﴾ تقديمُ النّظمِ الكريم لفَكّ الرّقبة على الإطعام، فقال بعض العلماء: "تقديم العتق على الصّدقة يدلّ على أنّه أفضل منها، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه اللّه تعالى، وقد ورد في الكتاب الكريم والسّنة التّرغيبُ في العتق والحثّ عليه، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَن أعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أعْتَقَ اللّه بكُلِّ عُضْوٍ منه عُضْوًا مِنَ النّارِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 358.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169، والشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 539.

حتَّى يُعْتِقَ فرْجَهُ بفَرْجِه»[1]، وقال الرّاغب: "فكّ الإنسان غيرَه من العذاب إنّما يحصل بعد فكّ نفسِه منه، فإن مَن لم يَهْتَدِ ليس في قوَتِّه أن يَهْدي، وفكُّ الرّقبة من قبيل فكِّ النّفسِ؛ لأنّه من الأعمال الصّالحة الّتي لها مدخلٌ عظيم في فكِّها"[2].

### دلالة حرف ﴿أَوۡ﴾:

التّـنـويـع في خـصـال الـخير المنجيَة لصاحبها من عَقَبة جهنّم

عُطف قولُه تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَـٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ بحرف ﴿أَوۡ﴾ للدّلالة على التّنويع في خصال الخير والأعمال الصّالحة المنجية لصاحبها من عَقَبة جهنّم والعياذ باللّه، والتّنويع فرع عن التّخيير، والفرق بينه وبين التّخيير: أنّ التّخيير لا يبيح الجمع بين الشّيئين أو الأشياء، والتّنويع يبيحه، فيجوز الجمع بين فكّ الرّقاب وإطعام اليتامى والمساكين وسائرِ أعمال البِرّ[3].

### توجيه القراءات القرآنيّة في لفظ ﴿إِطۡعَـٰمٞ﴾:

الـقـراءة مع الـقـراءة كالآية مع الآية

تنوّعت القراءةُ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَـٰمٞ﴾، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيُّ ﴿أَوۡ أَطۡعَمَ﴾ بفتح الهمزة والميم من غير تنوين، ولا ألف قبلها، وقرأ الباقون ﴿إِطۡعَـٰمٞ﴾ بكسر الهمزة ورفع الميم مع التّنوين وألف قبلها[4]. فوَجْهُ قراءةِ الرّفع ﴿إِطۡعَـٰمٞ﴾ أنّه مصدرٌ مفردٌ غيرُ مضاف، فثبت التّنوينُ فيه لمكان الإفراد. ووَجْهُ قراءةِ الفتح ﴿أَطۡعَمَ﴾ أنّه بُنِيَ بناءَ الفعلِ الماضي، وفاعلُه الإنْسانُ المُقدّم ذِكْره[5].

الـتّرغـيب في تَجَدُّدِ الإطعام

ولمّا كان إعمال المصدر واسم الفاعل عند النُّحاة يدلُّ على الحال والاستقبال، بخلاف إضافته إلى معموله؛ فإنّها تدلّ على الماضي؛ كان في إعماله وتنوينه ما في الفعل المضارع من الدّلالة

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6715)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1509).
(2) الرّاغب، المُفردات: (فكك).
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 251.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 401.
(5) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 371.

على الحال والاستقبال والتّجَدُّدِ والاستمرار، وفي هذا إشارةٌ إلى التّرغيب في تَجَدُّدِ الإطعام على الوصف المذكور واستمراره، والمسارعة إلى فعل ذلك.

وبمجموع القراءتين يشمل الإطعامُ الزّمانَ كلّه، فقراءةُ الفتح (أَطْعَمَ) بصيغة الفعل الماضي تدلّ على الماضي بلفظه، وقراءة ﴿إِطْعَٰمٌ﴾ بصيغة المصدر العامل يدلُّ على الحال والاستقبال والتَّجَدُّدِ والاستمرار.

### بلاغة حرف ﴿فِي﴾:

الإطـعـام زمـن المـجـاعـة أثـقـلُ عـلـى الـنّـفـس وأوجبُ للأجر

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ حرفُ ﴿فِي﴾، وهو دالٌّ على الظّرفيّة الزّمانيّة، ونُكْتَة الظّرفيّة الدّلالةُ على أنّ الإطعام زمنَ المجاعةِ أجرُهُ عظيم؛ وذلك لأنّ إخراج المال في ذلك الوقت أثقلُ على النّفس وأوجبُ للأجر(1)، وفي هذا من جمال التّصوير المبالغةُ في وصف شدّة الجوعِ وعمومِه، بجعل يومِ المجاعة وشِدّةِ الجوع فيه محيطًا بالإنسان إحاطةَ الظّرف بالمظروف، وإحاطةَ الثّياب واللّباس بالإنسان، وامتداد ذلك الزّمان بالإنسان مع هذه الإحاطةِ.

### غرضُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿يَوۡمٖ﴾:

العمل يَعْظُم أجـــرُه حسـبَ زمانِه ومكانِه

عُبّر في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ بلفظ ﴿يَوۡمٖ﴾، والمُراد به الزّمانُ لا النّهارُ المعروف، ولا اليومُ الذي يشمل النّهار واللّيل، وفي التّعبير به دلالةٌ على أنّ العمل يَعظُم أجرُه حسبَ زمانِه ومكانه، فالعملُ الصّالح في رمضان مثلًا يُضاعَف فيه الأجرُ، وكذلك هنا، فالإطعامُ في زمن المسغبة أفضلُ من الإطعام في وقت الرّخاء، لشِدّة البخل في ذلك الوقت، خوفًا من الجوع والاحتياج، ولسَدِّ مجاعةِ المحتاجين من اليتامى والمساكين وغيرهم.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 20.

### دلالة الوصف بـ﴿ذِى مَسۡغَبَةٖ﴾:

اشتدادُ بُخلِ النّاس زمنَ المجاعة

أُضيف في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٖ ذِى مَسۡغَبَةٖ﴾ اسمُ ﴿ذِى﴾ إلى المسغبة، وهذه الإضافة تُفيد اختصاصَ ذلك اليوم بالمَسغبة، أيْ: يوم تشتدُّ فيه المجاعةُ وتَعْظُم، وذلك زمنُ البردِ وزمنُ القَحْطِ، ووجهُ تخصيصِ اليوم ذي المَسغبة بالإطعام فيه أنّ النّاس في زمن المجاعة يشتدّ شُحُّهم بالمال، خشيةَ امتدادِ زمنِ المجاعة والاحتياج إلى الأقوات، فكان الإطعامُ فيه عقبةً شديدةً تشُقّ على النّفس، ولهذا مدح اللّه سبحانه مَن يُؤتي المالَ ويُطعِم الطّعامَ مع شدّة حُبّه له وشِدّة احتياجه إليه[1].

### بلاغة استعمال مفردة ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ دون (مجاعة):

المسغبةُ جوعٌ شديدٌ أو جوعٌ مع تعب

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ ذِى مَسۡغَبَةٖ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾، وقد فسّره أئمّةُ السّلفُ بالجوع أو المجاعة. قال أبو عبيدة: ذي مجاعة؛ يُقال: سَغَبَ يَسْغَبُ سَغَبًا: إذا جاع، فهو ساغِب، وسَغْبانُ، وذو مسغَبَةٍ. وقال ابن عبّاس: يريد بالمَسْغبة الجوعَ، وقال مجاهد وعكرمة: ذو مجاعة، وقال الحسن: يومٌ محروصٌ فيه على الطّعام[2].

فالظّاهر أنّ أكثر المُفسّرين من السّلف جعلوا المسغبة بمعنى الجوع من غير قيد. وقال أبو حيّان: المسغبة الجوع العامّ، وقد ذكر الرّاغب فرقًا لطيفًا بين المسغبة والمجاعة، فقال: "المسغبة من السَّغَب، وهو الجوع مع التّعب، وقد قيل: في العطش مع التّعب"، فزاد وصفَ التّعبِ مع الجوع أو العطش[3].

### جمال المجاز في ﴿يَوۡمٖ ذِى مَسۡغَبَةٖ﴾:

إسناد الفعل إلى زمانه لوقوعه فيه

يُلاحَظ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٖ ذِى مَسۡغَبَةٖ﴾ إسنادُ المسغبة إلى اليوم، والأصل أنّها للإنسان الّذي يُصيبُه الجوعُ في ذلك اليوم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 358.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 24/ 29.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 479، والرّاغب، المُفردات: (سغب).

فيكون هذا الإسناد على سبيل المجاز العقليّ الذي علاقته الزّمانيّة لوقوع الجوع في ذلك اليوم(1)، وفي هذا مبالغةٌ في وصف شِدّة مجاعةِ النّاس بوصف الزّمان نفسِه بالمجاعة.

### سرُّ التّعبير بـ (المسغبة) بدلَ (السّغَب):

خيرُ الإطعام ما كان على مسغبة

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ لا (سَغَب)؛ لأنّ ذلك أبلغُ في الدّلالة على شدّة الاحتياجِ إلى الطّعام؛ لأنّ (المسغبة) و(المجاعة) ألفاظٌ تدلّ على تَحَقُّقِ الجوع الشّديد في جمع النّاس في سائر المكان في وقتٍ واحدٍ.

### بلاغة التّعريض بالمشركين في فكّ الرّقاب والإطعام:

تعيير المشركين بالتّفاخر والسّمعة وعدمِ الإخلاص

ذكر بعضُ العلماء أنّه إن كان المُراد بالإنسان الجنسَ المخصوص بالمشركين في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ كان نفيُ فكّ الرّقاب والإطعام كنايةً عن انتفاء تحلّي المشركين بشرائع الإسلام؛ لأنّ فكّ الرقاب وإطعامَ الجياع زمنَ المجاعات من القُرُبات الّتي جاء بها الإسلام. وفيه أيضًا تعريضٌ بتعيير المشركين بأنّهم إنمّا يُحبّون التّفاخرَ والسّمعةَ والمؤانسةَ، وذلك غالبُ أحوالهم؛ أيّ: لم يطعموا يتيمًا ولا مسكينًا في يوم مسغبةٍ، وليس مثلَ إطعامِكم في المآدِب والولائم والمنادمة الّتي لا تعود بالنّفع على المطعِمين.

وإن كان المُرادُ من الإنسان واحدًا معيَّنًا، جاز أن يكون ذمًّا له باللّؤم والتّفاخر الكاذب، وفضحًا له بأنّه لم يسبق منه عملٌ نافعٌ لقومه قبلَ الإسلام، فلم يَغْرَم غرامةً في فِكاك أسير أو مأخوذٍ بدمٍ أو منٍّ بحُرّيَّةٍ على عبدٍ(2).

### نُكْتَة تقديم ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ على ﴿يَتِيمٗا﴾:

الاهتمام بزمن الإطعام أكثرُ من غيره

يُلاحَظ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا﴾

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 359.

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ على المفعول به ﴿يَتِيمٗا﴾، والنّكتة في هذا تقديمُ الاهتمام بزمن الإطعام أكثرَ من غيره، إذ يعظُم الأجر على قدر المشقّة، ويتفاوت الثّوابُ حسبَ الأزمنة والأمكنة، ولاشكّ أنّ الإطعام في زمن الشّدّة والمسغبةِ ليس كالإطعام في زمن الرّخاء والميسرة، ولهذا كان العربُ يتمدّحون بإكرام الضّيف في زمن الشّتاء لعظَمِ الحاجة إلى الطّعام، وقِلّته في ذلك الوقت.

### نُكْتَة تقديم ﴿يَتِيمٗا﴾ في الإطعام:

تخصيص اليتيم لِصِغَر سِنِّه وضعفِهِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا﴾ تقديمُ إطعام اليتيم على المسكين، ونُكْتَة ذلك مراعاةُ الأضعف والأحوج، فاليتيمُ طفلٌ ليس له أبٌ، وهو دونَ البلوغ، فخُصِّص بالإطعام لأنّه مَظِنّةٌ قِلّة الشِّبع، ولو كان غنيًّا، لصِغَر سِنّه وضعفِ عمله وفَقْدِ مَن يعولُه، ولحيائه من التّعرّض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رُغِّبَ في إطعامه وإن لم يصل حَدّ المَسْكَنة والفقر[1].

### فائدة تنكير ﴿يَتِيمٗا﴾ و﴿مِسۡكِينٗا﴾:

جاء التّعبيرُ عن اليتيم والمسكين بالاسم النّكرة ﴿يَتِيمٗا﴾ و﴿مِسۡكِينٗا﴾، وتنكير الاسمين في الآية يُراد به تعظيمُ اليُتْم والمسكنة، للإشارة إلى بلوغ اليتيم والمسكين في كلٍّ من اليُتْمِ والمَسْكَنَة أسوأ أحوالِهما.

### غرض التّعبير بقوله: ﴿ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾:

الصّدقة على الأقارب صدقةٌ وصلةُ رَحِمٍ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ تقييدُ وصفِ اليتيم بأن يكون بينَه وبين المُطعِم قرابةٌ؛ وذلك لأنّه اجتمعت فيه جهتا الاستحقاق: اليُتم والقَرابة، فإطعامُه أفضل؛ لاشتماله على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 358.

الصّدقة وصلة الرّحم[1]، وهذا نحو ما قال رسولُ اللّه ﷺ لزينبَ امرأةِ عبد اللّه بن مسعود عندما سألت رسولَ اللّه ﷺ: «أيجزئُ عنّي منَ الصَّدقةِ النَّفقةُ على زَوجي، وأيتامٍ في حِجري؟ قالَ رسولُ اللّه ﷺ: لَها أجرانِ: أجرُ الصَّدقةِ، وأجرُ القرابة»[2].

### فائدة إضافة الصّحبة إلى المَقربة في قوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾:

ملازمة القرابة لليتيم

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ بلفظ ﴿ذَا﴾ بمعنى (صاحب) لما يُفيده لفظُ الصُّحْبَة من معنى الملازمة، فصحابةُ رسولِ اللّه ﷺ هم المُلازِمون له في الرّخاء والشّدّة، وأصحابُ النّار وأصحابُ الجنّة هم الملازمون لها، وهكذا، والمعنى: إطعام يتيم ملازم للقرابة، لا ينفكّ عنها بحال.

### دلالة ﴿أَوْ﴾ وفائدتُها:

تنويع أفعال الخيرِ ووجوهِ البِرِّ

عُطف قولُه تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ بحرف ﴿أَوْ﴾، وهو هنا للتّقسيم، ويدلّ على معنى الإباحة ومعنى التّخيير؛ لأنّ الكلام يتضمّن معنى الحضّ والأمر، وفيها أيضًا معنى التّفضيل المجرّد، لأنّ الكلام يجري مجرى الخبر الّذي لا تكون (أو) فيه إلّا منفصلةً، وأمّا معنى الشّكّ أو الإبهام فلا مدخلَ له في هذه الآية[3].

### توجيه اختيار لفظِ ﴿مِسْكِينًا﴾ دون (فقيرًا):

سكون حركات المسكين من شِدّة الجوع والجُهْد

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مِسْكِينًا﴾ دون لفظ (فقيرًا) أو نحوه لنُكْتَة مناسبةِ سياق الإطعام، فالمسكينُ مأخوذٌ من السّكون، أي: سكنت حركتُه من شدّة الجوعِ والجهدِ، فكان أولى بالإطعام لضَعْفِه وشدّة حاجته. كما يُلاحظ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1000).

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 359.

أنّ القرآن الكريم يكتفي بلفظ (المسكين) عن (الفقير) في أكثر الآيات، كما في [البقرة: 177] و[الإنسان: 8 - 9][1].

**غرض التّعبير بقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:**

**دلالةُ المَتربةِ على شدّة الفقر والحاجة**

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لفظُ ﴿مَتْرَبَةٍ﴾، وهو مفعَلَة من التُّراب، يُقال: تَرِبَ يترَب تَرَبًا ومَتْرَبَةً مثل مسغبَةً، وأصل تَرِب: ألصق جِلدَه بالتّراب لجلوسه في حفرة لعدم ما يستره، أو ألصق بطنَه بالتّراب لشِدّة الجوع، قال سفيان: هم المطروحون على ظهر الطّريق قعودًا على التّراب لا بيوتَ لهم، وقال ابن عبّاس: هو الذي يخرج من بيته ثمّ يقلب وجهه إلى بيته مستيقنًا أنّه ليس فيه إلّا التّراب. وعلى جميع التّقديرات يلزم من ذلك فرْطُ الفقر بحيثُ يستحقّ الإطعام[2].

**بلاغة الكناية في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:**

**شهرة التّراب في الكناية عن الفقر**

يجوز أن يُحمل قولُه تعالى: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ على الكناية، فالمَتربة من: (ترِب) إذا نام على التّراب؛ أيْ: لم يكن له ما يفترشُه على الأرض، وهو في الأصل كنايةٌ عن العُروِّ من الثّياب الّتي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع، وقريبٌ منه قولهم في الدّعاء: تربت يمينُك، وتربت يداك[3].

ولشُهرة هذه الكناية نجد بعض السّلف من المُفسِّرين قد حملوا (المتربة) هنا على معاني سياقيّة، فقال مجاهد: هو الّذي لا يقيه من التّراب لباسٌ ولا غيره، وقال قتادة: هو ذو العيال، وقال عكرمة: هو المديون، وقال أبو سنان: هو ذو الزّمانة، وقال ابن جُبير: هو الذي ليس له أحد، وقال عكرمة: هو البعيد التّربة الغريب عن وطنه ... إلخ[4].

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 681.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 359.

(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 21.

### فائدة الإضافة في ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:

ملازمة القَرابة لليتيم

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ بلفظ ﴿ذَا﴾ بمعنى (صاحب) لما يُفيده لفظُ الصُّحبَة من معنى الملازمة، فصَحابةُ رسولِ الله ﷺ هم المُلازمون له في الرّخاء والشّدّة، وأصحابُ النّار وأصحاب الجنّة هم الملازمون لها، وهكذا، والمعنى: إطعام مسكينًا ملازمًا للمَتربة، لا ينفكّ عنها بحال، فلا يجد الثّيابَ الّتي تحول بين جسده والأرض عند الجلوس والاضطجاع في كلّ حال.

### جمال التّعبير بصيغة (مفعلة) في الآية:

دلالة هذه الصّيغة الواحدة على معانٍ كثيرة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (مفعلة) في (المسغبة) و(المقربة) و(المتربة) لما تحمله هذه الصّيغة من المعاني، إذ تأتي صيغة (مفعلة) للدّلالة على المصدر أو اسم المصدر، كـ(مَحْزَنَة)، واسم زمان كـ(مَيْسَرة)، واسم مكان كـ(مَيْمَنة)، وللدّلالة على الكثرة أو سببِها أو هما معًا كـ(مطهرة)، والتّمييز بين هذه المعاني إنّما يكون بالقرائن، فإن لم توجد ثَمَّ قرينةٌ فهو صالح للزّمان والمكان والمصدر[1]. والأصل في صيغة (مَفْعَلَة) الظّرف من اسم المكان والزّمان، وليس ذلك لمطلق اسم الظّرف؛ بل لاسم ظرف بالنّظر إلى كثرة المظروف فيه، فاسم الظّرف دلالةُ المَفْعَل، والكثرةُ دلالةُ التّاء، ثمّ تأتي بعد هذه المعاني المتعدّدة لصيغة (مفعلة) معانٍ مجازيّةٌ أُخرى، وعلى هذا فالكلماتُ الثّلاث: (المَسغبة) و(المَقربة) و(المَتربة) تحتمل كلّ هاتيكَ الدّلالات، وما يَترتّب عليها من معانٍ.

### بلاغة التّعبير بالتّأنيث في المسغبة والمقربة والمتربة:

جاءت هذه الكلمات الثّلاث (المسغبة) و(المقربة) و(المتربة) مؤنَّثةً؛ لدلالة تأنيث صيغة (مَفْعَلَة) على اسم المكان والزّمان؛

(1) الحملاويّ، شذا العُرف، ص: 59.

بالنّظر إلى كثرة المظروف فيهما، فيجتمع بذلك الدّلالة على الظّرف والكثرة.

### نُكْتَة الاكتفاء بالعبادات الماليّة في الآية:

المال شقيق الرّوح وإخراجُه أشقّ على النّفس

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ اكتفاءُ النّظم الكريم في الذِّكر بالعبادات الماليّة عن العبادات البدنيّة، والنّكتة في ذلك أنّها أشقُّ عَلى النّفس؛ لكون المال شقيقَ الرّوح، لا لكونها أفضلَ الأعمال، فإنّ الصّلاة أُمُّ العبادات وأفضل المبرّات(1).

### بلاغة التّقييد في الإطعام واليتيم والمسكين:

أثر الزّمان والمكان والدّوافع والموانع والملابسات في تفاوت الثّواب والعقاب

لم يأت الإطعام واليتيم والمسكين مُطلقًا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾، فلم يَقُلْ: (أو إطعام يتيم ومسكين)، بل جاء مقيَّدًا بالوصف في الكلمات الثّلاث، فقيَّدَ الإطعامَ بقوله: ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، وقيَّد اليتيمَ بقوله: ﴿ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾، وقيَّدَ المسكينَ بقوله: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾؛ للدّلالة على أثر الزّمان والمكان والحدَث والدّوافع والموانع والملابسات المُحيطة بكلّ ذلك في الثّواب والعقاب من حيثُ القوّة والضّعفُ، والقِلّة والكثرةُ، وغيرُ ذلك، وهذا واضح في حديث السّبعة الذين يُظلِهُمُ اللّه في ظِلّه يومَ لا ظِلّ إلّا ظِلُّه، وغيرُه من الأحاديث الشّريفة.

### نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها البيانيّة:

أثر حروف المعاني في تنوّع البيان القرآنيّ

عُطف قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الموضوعِ في اللّغة للتّراخي، وقد جوّز المُفسّرون في دلالة التّراخي هنا وجوهًا بليغةً من المعاني(2):

**أوّلًا:** أنّ هذا التّراخي رُتَبيٌّ، أي: تراخي الإيمان وتباعدُه في

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 680.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 170.

الرُّتْبة والفضيلة عن العتق والصّدقة؛ لأنّ درجة ثوابِ الإيمان أعظمُ بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال. فدلّ على أنّ مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبةً في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوفة عليه، فيصير تقدير الكلام: فلا اقتحم العقبة بفكّ رقبة أو إطعام بعد كونه مؤمنًا.

**ثانيًا:** أنّ هذا التّراخي في الذِّكر فقط لا في الوجود، لأنّه لـمّا كان الإيمان شرطًا للانتفاع بالطّاعات المذكورة وجبَ كونُه مُقدَّمًا عليها.

**ثالثًا:** أنّ هذا التّراخي زمنيٌّ، فيكون المُراد: ثمّ كان في عاقبة أمره من الذين آمنوا، وهو أن يموت على الإيمان، فإنّ الموافاة شرطُ الانتفاع بالطّاعات.

**رابعًا:** أنّ مَن أتى بهذه القُرَب تقرُّبًا إلى اللّه تعالى قبلَ إيمانِه بمحمّد ﷺ، ثمّ آمنَ بعدَ ذلك به، فعند بعضِهم أنّه يُثاب على تلك الطّاعات، قالوا: ويدلّ عليه ما رويَ: أنّ حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول اللّه ﷺ: إنّا كنّا نأتي بأعمال الخير في الجاهليّة، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال عليه السلام: «أسلمتَ على ما قَدَّمتَ من الخير»[1].

### بلاغة ذِكر فعل ﴿كَانَ﴾:

شرط الاعتداد بالأعمال سبقُ الإيمان عليها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، وفيه إشعارٌ بأنّ إيمانَه سابقٌ على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التّوبيخ على انتفائها عنه. فعَطْفُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الجمل المسوقة للتّوبيخ والذّمّ يفيد أنّ هذا الصّنف من النّاس أو هذا الإنسان المعيّن لم يكن من المؤمنين، وأنّه ملوم على ما فرّط فيه لانتفاء إيمانه، وأنّه لو فعل شيئًا من هذه الأعمالِ الحسنة ولم يكن من الذين آمنوا ما نفعَه عملُه شيئًا؛ لأنّه قد انتفى عنه

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1436).

الحَظّ الأعظم من الصّالحات، فهو مُؤْذِن بأنّه شرطٌ في الاعتداد بالأعمال[1]، والمعنى: كان منهم كونًا جِبِلّيًا موافقًا للفطرة، وكونًا شرعيًّا بإعلان الإيمان باللّه تعالى ورسوله ﷺ.

**نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:**

اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف مِن اتّصافه بها مُنفردًا

ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حرف ﴿مِنَ﴾، ومعناه التّبعيض، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أبلغُ من القول: (ثمّ كان مؤمنًا)، لأنّ كونه من الذين آمنوا أدلّ على ثبوت الإيمان من الوصف بمؤمن، لأنّ اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف من اتّصافه بها منفردًا؛ من أجل كثرة الموصوفين بها، فإنّ كثرة الخير خير[2]، ولأنّ الإنسان يتأثّر بالمجتمع من حوله، ويؤثّر فيهم إيجابًا وسلبًا.

**بلاغة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:**

الثّناء على المؤمنين بإيمانهم وأوصافهم

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدلَ الاسمِ الظّاهر؛ لما يُفيده الاسمُ الموصول من عموم الوصف المدلول عليه بصلته، حيثُ أثنى اللّه سبحانه على المؤمنين بما في حيّز الصّلة من أوّل الأمر، وهو أنّهم صدّقوا بما جاء به محمّد ﷺ، واستقرّ الإيمانُ في قلوبهم، كما يُشعر الموصول بأنّهم عُرفوا بالإيمان بين الفِرق[3]، ثمّ إنّ صلة الموصول تكون كالعِلّة للحُكْم أو كالدّليل عليه.

**نُكْتَة إيرادِ الاسم الموصول جمعًا في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:**

في إيراد الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جمعًا في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارٌ بكثرة أهل الإيمان والصّالحين، وهم وإن لم يكونوا أكثرَ الخَلق إلّا أنّهم في أنفسهم كثير.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 360.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 361.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 361، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 03/ 151.

**غرض ذِكر الإيمان دون الإسلام في صلة الموصول:**

دلالة الإيمان على الإسلام

كلمة (الإيمان) يلزم منها الإسلام بما يدلّ عليه الإيمانُ من الطّاعات وعمل الصّالحات التي تستلزمه، فهو في الحقيقة بلفظه يدلّ على إسلام الإنسان وانقياده للّه تعالى، بينما الإسلام لا يلزم منه الإيمان، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، وقد فهم البخاريّ رحمه اللّه هذا المعنى فذكر هذه الآية تحت باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، وجعل هذا الباب في كتاب الإيمان من صحيحه، بينما الإسلام لا يدلّ على الإيمان؛ لأنّه قد يكون خوفًا من فوات مَلذّات الحياة الدّنيا أو حصول الآفات فيها، كالقتل وأخذ الأموال وسبي النّساء.

**نُكْتة حذفِ متعلّق فعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:**

الإيمان لقبُ الأمّة الإسلاميّة في عرف القرآن، ولدلالته على العموم

حُذف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متعلّق الإيمان للفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأنّ المُراد الذين اتّصفوا بالإيمان الّذي هو لقبٌ لدين الإسلام، وهو الّذي منه أُطلقت صلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على المسلمين، فصار كالعَلَم بالغلبة، وهذا كقولهم: أسلم، وأشرك، دون ذِكر مُتعلّقات لِهاتِه الأفعال، لأنّ المُراد أنّه اتّصف بهذه الصّفات الّتي صارت أعلامًا على أديان معروفة، فالفعل نُزِّلَ منزلة اللّازم.

ويجوز أن يكون حَذفَ مُتعلّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ للعِلم به؛ أيّ: آمنوا باللّه وحدَه وبرسوله محمّد ﷺ ودين الإسلام، فجعل الفعل كالمستغني عن المتعلِّق.

المؤمنون هم المسلمون الّذين صدّقوا بالرّسول ﷺ

والمُراد من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية هم المسلمون الّذين صدّقوا بالرّسول ﷺ، وهذا لقبٌ للأمّة الإسلامية في عُرف القرآن، ولأنَّ

الإيمانَ صار كاللَّقب للإيمان الخاصِّ الّذي جاء به دينُ الإسلام وهو الإيمانُ باللّه وحدَه(1).

ثمَّ إنَّ حذف مُتَعَلَّقِ الإيمان هنا للدّلالة على العموم أيضًا؛ أيّ: آمنوا بكلِّ ما يجب الإيمان به ممّا جاء به هذا الدّين؛ لأنّه لا يُقبل من الإنسان إيمانُه إلّا إذا آمن بكلِّ ذلك؛ فالإيمانُ ببعض ما جاء به الدّين دونَ البعض كالعدم، قال تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: 85].

### نُكتة الإتيان بالصّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعلًا:

جيء بالصّلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعلًا لإفادة التّجدُّد والحدوث مع الاستمرار؛ حثًّا بذلك على تجديد الإيمان والاستمرار عليه، وعلى سائر الأعمال الصّالحة والصّفات الحميدة.

### سرّ مجيء الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغة الماضي:

التّحقّق بالإيمان صفاتُ أهلِ الميمنة

في الإتيان بالصِّلة فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون إيرادها فعلًا مضارعًا إشعارٌ بأنّهم مُتحقِّقون بالإيمان، وذلك هو سبب استحقاقهم الجزاءَ العظيم، وهو كونهم من أصحاب الميمنة المُبشَّرين بدخول الجنّة؛ لأنّ التّعبير بالفعل الماضي يدلّ على تَحَقُّق حدوث الفعل وتَيَقُّنه.

### بلاغة عطف التّواصي بالصّبر على الإيمان:

التّنويه بصفات المؤمنين الفاضلة الّتي يتميّزون بها

عُطف في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ التّواصي بالصّبر على الإيمان تنويهًا بصفات المؤمنين الفاضلة الّتي يتميّزون بها، فخَصّ النّظمُ الكريم بالذِّكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصّبر؛ لأنّ ذلك من أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإنّ الصّبر ملاكُ الأعمال الصّالحة كلّها، سواءٌ كان الصّبر على الإيمان والثّبات عليه، أو

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 52.

الصّبر عن المعاصي، أو الصّبر على الطّاعات، أو الصّبر على البلاء والمحن الّتي يُبتلى بها المؤمن[1].

### بلاغة استعمال صيغة التّفاعل:

تشارك المؤمنين في الدّلالة على الخير

عَبَّر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ بالفعل ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾، وهو تفاعل من الوصيّة فيقتضي التّشارُكَ، بأن يشترك كلّ واحد منهم في الفعل، فكلّ واحد فاعل ومفعول به في الوقت نفسه؛ أيْ: كلُّ واحدٍ يوصي غيرَه، ويوصَى من غيره، أو يوصيه غيرُه، والمعنى: أوصى بعضُهم بعضًا بالصّبر على ما نابهم في ذات اللّه سبحانه، وهذا يدلّ على أنّه يجب على المَرء أن يدلّ غيرَه على طريق الحقّ، ويمنعَه من سلوك طريق الشّرّ والباطل ما أمكنه[2].

### دلالة تعدية فعل التّواصي بالباء في قوله: ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾:

الاستعانة بالصّبر ومصاحبته في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي كلّ فعل

تحتمل الباءُ في قوله: ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ أن تكون للاستعانة (باء الآلة)، وأن تكون للمصاحبة، وان تكون للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانة أو المصاحبة؛ أيْ: يوصي بعضُهم بعضًا مُستعينين في سائر أمورهم بالصّبر، مُصاحبين له ومستصحبينه في كلّ فعلٍ، وفي كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مكانٍ.

### بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾:

الدّلالة على شدّة احتياج المؤمنين إلى الصّبر

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ للاستعانة (باء الآلة)، أو للمصاحبة، أو للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانةِ أو المصاحبة، فتعود إلى واحد منهما، وهي في كلّ ذلك استعارةٌ مكنيّة، حيثُ جُعِلَ الصّبر آلةً يُستعان بها، أو شيئًا محسوسًا يَسْتَصْحِبُه الإنسان معه، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وجاءت الباء للدّلالة على ذلك، أمّا على كون الباء للآلة (للاستعانة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 171، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 361.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 431، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 171.

الآلية): فللإشارةِ إلى كون الصّبر آلةً لازمةً له ليستعينَ بها المؤمنُ على تثبيت الإيمان وتقويته، وأمّا على كونها للمصاحبة: فللإشارة إلى كون الصّبر أفضلَ صاحبٍ للمؤمن يُعينه على تثبيت الإيمان وتقويته، وفي الصّحبة طولُ زمان، فيحتاج المؤمن إلى مصاحبة الصّبر طيلةَ بقائِه على الإيمان؛ ليكون سَندًا له في شدائده كلّها.

### معنى تعريف لفظ (الصّبر):

قصد العموم في كلّ مصبور عليه

جاء لفظُ (الصَّبۡرِ) في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ معرّفا بـ(أل) الدّالّة على تعريف الجنس، أو على استغراق أفراده، وفي كلا الأمرين تقتضي العمومَ، فيشمل كلّ مصبورٍ عليه، كالصّبر على البلاء وشدائد الأقدار، والصّبر على مشاقّ الطّاعات، وعلى مشاقّ ترك الشّهوات، ويشمل ذلك الصّبرَ على مشاقّ أذى المشركين، وعلى مشاقّ الجهاد والفقر ورياضة النّفس ... إلخ[1].

### نُكْتَة عطفِ (المرحمة) على (الصّبر):

الصّبر والمرحمة أشـرفُ صفات المـؤمـنـين بعد الإيمان

عُطف التّواصي بالمرحمة على التّواصي بالصّبر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾؛ لأنّ هاتين الصّفتين أشرفُ صفاتِ المؤمنين بعد الإيمان، فإنّ الصّبر ملاكُ الأعمال الصّالحة كلّها؛ لأنّها لا تخلو من كبح الشّهوة النّفسانيّة، وتَحَمُّلِ مشاقّ الطّاعات، وذلك من الصّبر، وفيه صلاحُ الفرد، والمرحمة ملاكُ صلاحِ المجتمع الإسلاميّ، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]. والتّواصي بالصّبر والتّواصي بالمرحمة فضيلتان عظيمتان[2].

### دلالة تكرار فعل ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾:

التّـأكـيـد على أهمّيّة التّواصي بكلّ واحد منهما وفضله

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ تكرارُ فعلِ التّواصي ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾؛ للدّلالة على أهمّيّة التّواصي

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 304، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 361.

بهما، والتّأكيد على فضل كلٍّ منهما، لدلالتهما على الخير وفضائل الأعمال والصّفات، وفيه إشارةٌ إلى استقلال كلّ نوع منها بوجوه من البِرّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجوب التّواصي بكلّ واحد منهما منفردًا، فكيف بالتّواصي بهما مجتَمِعَيْن.

### سِرُّ تعدية فعل التّواصي بالباء في ﴿بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾:

الاستعانة بالرّحمة ومصاحبتُها في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي كلّ فعل

تحتمل الباءُ في قوله: ﴿بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ أن تكون للاستعانة (باء الآلة)، وأن تكون للمصاحبة، وان تكون للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانة أو المصاحبة، أي: يوصي بعضُهم بعضًا مستعينين في سائر أمورهم بالرّحمة، مُصاحبين لها في كلّ فعل، وفي كلّ وقتٍ، وفي كلِّ مكانٍ.

### نُكْتَة التّعبير بجملة ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ دون (وتراحموا):

التّواصي بالمرحمة يلزم منه تَحَقُّق وجودِ الرّحمة فيهم

يلزم من التّواصي بالمرحمة تَحَقُّقُ وجودِ الرّحمة فيهم؛ لأنّ الأصل في المؤمن ألّا يوصي به إلّا وقدِ اتّصف بها، وعَرَف قدرَها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصيَ بها، ولا يلزم من وجود الرّحمة في المؤمنين أن يتواصَوا بها.

### الكناية في التّواصي بالمرحمة:

الاتّصاف بالرّحمة شرطٌ في التّواصي بها

يحمل قولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ كنايةً عنِ اتّصاف المؤمنين في أنفسهم بالرّحمة؛ وذلك لأنّ من يوصي بالرّحمة هو الّذي اتّصف بها، وعرف قدرَها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصيَ بها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: 44][1].

### المجاز في التّواصي بالمرحمة:

بلاغة الإيجاز وذِكر المُسبَّب وإرادة السّبب تنبيهًا على كماله في السّببيّة

جعل بعضُ العلماء قولَه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ من قبيل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.

المجاز بالحذف، والتّقدير: بموجبات رحمته تعالى من الخيرات، وذلك على حذف المضاف، أو مجازًا مرسلًا بذكر المُسبَّب (المرحمة) وإرادة السّبب (الرّحمة)؛ تنبيهًا على كماله في السّببيّة.

التّواصي بالمرحمة يُؤْتي أُكلَهُ في المؤمن وفي المجتمع

ويجوز حملُه على ظاهره، فالمرحمة مصدر ميميّ بمعنى الرّحمة؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بالرّحمة على عباد الله، وهي الشّفقة لمن يستحقُّها من العباد يتيمًا أو فقيرًا، أو نحو ذلك[1]، ولا مانع من إرادة كلّ هذه الاحتمالات، فهم قد تَواصَوا بالرّحمة، وتواصوا بموجباتها من الخيرات التي تُرقّق القلوبَ، وتواصوا بالرّحمة التي تُفْضي إلى المرحمة، بل هذا الجمع أولى؛ لأنّ من لوازم التّواصي بالمرحمة التّواصي بأسبابها وموجباتها، حتّى تَيْنَعَ ثمارُها، وتُؤْتيَ أُكُلَها في المؤمن وفي المجتمع.

**بلاغة التّعريض بالمشركين في الآية:**

في ذكر حال الصّادقين تعريضٌ بحال المنافقين

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيان، وهو (التّعريض)، وهو كون معنى الكلام مفهومًا من عُرضه؛ أيّ: جانبه[2]؛ ففي هذه الآية ذكر الله صفاتِ المؤمنين من التّواصي بالصّبر والتّواصي بالمرحمة، وفيه تعريضٌ بأنّ أهل الشّرك ليسوا من أهل الصّبر ولا من أهل المرحمة، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصّلت: 33] إلى قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصّلت: 35][3].

**بلاغةُ الإطناب في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ﴾:**

الإشارة إلى رسوخ الصّفة فيه، وقوتِها بكثرة الموصوفين بها معه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ إطنابٌ في الظّاهر، فلم يقل مثلًا: (ثمّ آمن وتواصى)؛

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 22.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 361.

وذلك للدّلالة على أنّ فعله هذا لم يكن عارضًا، بل كان فعله كونيًّا ثابتًا راسخًا مستمرًّا، بما تدلُّ عليه ﴿كَانَ﴾، أي: كونًا جِبِلّيًّا موافقًا للفطرة، وكونًا شرعيًّا مطابقًا لما جاء به الرّسولُ ﷺ، ولم يفعل ذلك منفردًا، بل فعله وهو ضمن جماعة تشاركه فِعْلَه، وتفعل مثلَه، وهذا أبلغ من: (ثمّ آمن)، لأنّ كونه من الذين آمنوا أدلُّ على ثبوت الإيمان فيه من الوصف بمؤمن، لأنّ اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف من اتّصافه بها منفردًا من أجل كثرة الموصوفين بها، فإنّ كثرة الخير خير[1]، ولأنّ الإنسان يتأثّر بالمجتمع من حوله، ويُؤثّر فيهم إيجابًا وسلبًا.

## ۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### المَسغبةُ والمَجاعةُ:

السَّغَبُ جوعٌ مع التّعب

ذهب جمهورُ المفسّرين من السّلف وأربابِ اللّغة إلى شرح المَسغبة بالمجاعة أو الجوع من غير قيد. قال أبو عُبيدة: ذي مجاعة؛ يُقال سَغَبَ يَسْغَبُ سَغَبًا: إذا جاع، فهو ساغِبٌ، وسغبانٌ، وذو مسغَبَةٍ. وقال ابن عبّاس: يريد بالمَسغبة الجوع، وقال مجاهد وعكرمة: ذو مجاعة[2].

وفرّق بينهما أبو حيّان بكَونِ المسغبة هي الجوع العامّ[3]، كما نقل الرّاغب فرقًا لطيفًا بين المسغبة والمجاعة، فقال: "المسغبة من السَّغَب، وهو الجوع مع التّعب، وقد قيل: العطش مع التّعب"[4]؛ فزاد وصف التّعب مع الجوع في المسغبة، وعلى ذلك فالمَسغبة: هي الجوع العامّ مع التّعب النّاشِئ من شدّة الجوع.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 24/ 29.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 479.

(4) الرّاغب، المُفردات: (سغب).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد: 18 - 20]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيان مصير المؤمنين وأضدادِهم من الكافرين بعد ذكر صفاتِ الكافرين والمؤمنين

لمّا ذكر اللّه تعالى بعضَ صفاتِ الكافرين السّيّئةِ المُشينة في أوّل السّورة، ثمّ وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بأوصافهم الفاضلة وأعمالهم الصّالحة؛ أردف ذلك بتبشيرهم بمكانهم يومَ القيامة ومكانِ أضدادهم من الكافرين[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾: مَفْعَلَة من الشَّأم، و(شأم) أصل واحدٌ يدلّ على الجانب اليسار. من ذلك المشأمة، وهي خلاف الميمنة[2]، أو مَفْعَلَة من الشّأمة (الشامَةُ): وهي الخالُ، وفيه سواد مجتمع، والشُّؤْمُ من الإبل: السّود، وعلى هذا فـ(شأم) أصلٌ واحد يدلّ على كثافة تعتري الظّاهر متركزةٍ عليه، حِسّيّة أو معنويّة، كالخال وكالسَّواد. وأمّا الشُّؤم - ضِدّ اليُمْن - فهو من معنوي ذلك؛ لأنّ به تستشعر النّفسُ وقوعَ مكروه، فيغشاها غمٌّ وكَرْبٌ (كثافة) لذلك[3]، وعلى الأوّل فالشّام: أرضٌ سُمّيت بذلك لأنّها من مشأمة القِبلة، وشأمتُ القوم: يَسّرتهم. والمشأمة أيضًا من الشُّؤم، ويُقال: رجل مشؤوم، وقد شئِم[4]. وأصحاب المشأمة في الآية هم أصحاب النّار[5].

2) ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾: (وصد) أصل يدلّ على ضمّ شيءٍ إلى شيء،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (شأم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شأم).
(4) الخليل، العين: (شأم).
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 23.

وأوصدت الباب: أغلقتُه، والوصيد: النّبت المتقارب الأصول. والوصيد: الفناء لاتّصاله بالرّبع. والموصَدُ: المُطْبَقُ[1]. وآصَدْتُ البابَ (لغةٌ في أوصدّته): إذا أغلقَته. ومنه قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم وخلف العاشر وحمزة وصلًا: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةُۢ ٨﴾ [الهمزة: 8] بالهمز بمعنى مطبقة[2].

## ❁ المَعنى الإجْماليّ:

بيان جزاء الأعمال الصّالحة والصّفات الفاضلة

يُخبر ربّنا سبحانه أنّ الّذين فعلوا الأفعال المذكورة من فكّ الرِّقاب وإطعام اليتيم وغيرِ ذلك أنّهم أصحاب اليمين، الّذين يُؤخذ بهم يوم القيامة ذاتَ اليمين إلى الجنّة، وأنّ الّذين كفروا بآيات اللّه العظيمة، وأعلاها مكانةً وقدرًا القرآنُ، هم الذين يُؤخذ بهم يومَ القيامة ذاتَ الشّمال إلى النّار، فجزاؤهم جهنَم، مطبَقةٌ مغلقَةٌ عليهم[3].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### عِلّةُ فصْلِ الآية:

الاستئناف لبيان جزاء المبرّات وفضائل الصّفات

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ عمّا قبلَه لأنّه جاء على سبيل الاستئناف البيانيّ، فالسّامع إذا سمع ما تقدّم من صفات المؤمنين وأعمالهم الصّالحة ترقّب جزاءَ تلك الأعمال، فصُدِّر باسم الإشارة لأنّه يتضمّن جميعَ أعمالِهم المتقدّمة من فكّ الرّقاب وإطعام اليتيم والمسكين وغيرها، فالاستئناف لبيان أنّ هذه المبرّات والصّفات هي سبب كونِهم من أصحاب الميمنة، وكونِ أضدادهم من أصحاب المشأمة[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (وصد).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 431، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 594.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 112، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 242.

### بلاغة استعمالِ اسمِ الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

التّنويه بشأن المؤمنين الصّالحين وبُعْدِ منزلتهم وعُلوِّ مكانتهم

صُدّر في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتّنويه بشأن المتّصفين بما سبق تفصيلُه في حيّز صلته من الأعمال الجليلة، وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهدِ بالمشار إليه؛ للإيذان ببُعْدِ منزلتِهم وعُلوِّ مكانتهم وارتفاعِ درجتهم في الشّرف والفضل؛ أيْ: أولئك الموصوفون بالنّعوت الجليلة المذكورة، وفيهِ دلالةٌ على أنّهم متميِّزون بذلك أكملَ تميُّز، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدَة، وللتّنبيه على أنّ ما يَرِدُ بعدَه من البشارة كانوا أحرياء بها، لأجل ما ذُكِر قبلَ اسم الإشارة[1].

### بلاغة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

الميمنة للمؤمنين لا يشركهم فيها غيرُهم

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ جملة اسميَّةٌ، طَرفاها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو المبتدأ، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ خبرُهُ، وقد وقعا مَعْرِفَتَيْنِ، وتعريفُ جُزأي الجملةِ مفيدٌ القَصرَ، فالمؤمنون المذكورون بأعمال البرّ مُنْفَرِدونَ بالميمنة وحدَهم، لا يَشْرَكُهُمْ فيها غَيْرُهُمْ.

### نُكْتَة استعمالِ مفردة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

مُلازَمة أهل الميمنة للجنّة وتصرّفهم فيها

ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾، وهو جمع صاحب، وأصلُ اشتقاقه دالٌّ على مقارنةِ شيءٍ وملازمته، ولا يُقال في العُرف إلّا لمن كثرت ملازمتُه، كما يُقال للمالك للشّيء: هو صاحبه، وكذلك لمن يملك التّصرّف فيه، فأصحاب الميمنة هم أصحاب الجنّة يتصرّفون فيها كما يشاؤون، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزّمر: 74][2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 192، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (صحب).

### فائدة الجمع في كلمة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

كلّ واحد منهم صاحبُ ميمنة لا يشاركه أحدٌ فيما أعطاه الله من النّعيم

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ جاءت كلمة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ جمعًا بعد ذكر اسم الإشارة الدّالّ على الجمع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، بينما جاءت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ مفردةً، فأفاد ذلك الجمع في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مع إفراد ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، أن كلّ واحدٍ منهم يرى نفسَه صاحبَ الميمنة لا يشاركه فيها أحدٌ، ولا فيما أعطاه الله من النّعيم، يُعطَى كتابُه بيمينه، ويُسلَك به من طريق اليمين إلى الجنّة، وأنّ كلّ واحد منهم صاحبُ اليُمن والخير والسّعادة في نعيم الجنّة، فكأنّه يرى نفسَه في نعيم لم يبلغه أحد سواه، لأنّ مقابلة الجمع بالجمع تُنْتِج القَسَمة آحادًا.

### دلالة إضافة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنّة المختصّون بها

أُضيف في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؛ للدّلالة على اختصاصهم بها، وأصحابُ الميمنة هم أصحاب الجنّة، وتسميتُهم بأصحاب الميمنة إمّا لكونهم الّذين يُعطَون كتبَهم بأيمانهم، ويُسلَك بهم من طريق اليمين إلى الجنّة، أو أصحاب اليُمن والخير؛ لأنّ الصّلحاء ميامين على أنفسهم بطاعتهم وعلى غيرهم أيضًا، أو أصحاب اليد اليمنى، والمعنى: أنّ أولئك الّذين اقتحموا العقبة، ففكّوا الرّقاب، وأطعموا المساكين، وواسَوْا ذوي القُربى في يوم المسغبة هم السُّعداء المُمَتَّعون بجنّات النّعيم، وهم الّذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ الآيات [الواقعة: 27 - 40][1].

### نُكْتَة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

دلالة لفظ الميمنة على أكثر من معنى

ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 78، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 22.

وهو إمّا أن يكون (مفعَلَة) للمكان، مأخوذة من جهة اليمين؛ لأنهم يُعْطَوْنَ كتبَهم بأيمانهم، أو لأنّهم كانوا أصحابَ اليد اليمنى، أي: اليد الطّولَى والعُليا في الدّنيا[1]. أو مأخوذة من اليُمن، وهو سعة الخير وكثرة البركة، ومنه التّيامُن، أي: التّفاؤل بسعة الخير وكثرة البركة، فقد قيل: إنما سُمّيت اليد اليُمنى يمينًا ويُمنى لأنّها أَعْوَدُ نفعًا على صاحبها في يُسرِ أعماله، وعليه فهم أصحاب اليُمن والخير والسّعادة النّاجون، وهم أصحابُ الجانب الأشرف، الأَعْلَوْنَ المكرَمون المُكَرَّمون، ولا مانع من إرادة كلّ هذه المعاني، فقد وُجِدَت وتَحَقَّقَت فيهم.

### نُكْتَة التّعبيرِ بصيغة (مَفْعَلَة) في لفظ المَيْمَنَةِ:

الـدّلالـة على الـظّـرف مع كـثرة مـن فيه، والـدّلالـة على النّعيم الحِسّيّ والمعنويّ الكثير

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (مَفْعَلَة) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لما تحمله هذه الصيغة على جملة من المعاني، إذ تأتي للدّلالة على المصدر، أي: اليُمْن، وهو كثرة البركة وسعة الخير، وللدّلالة على الزّمان أو المكان، أي: الزّمان أو المكان الذي يكون فيه كثرةُ البركة وسعة الخير مع الدّلالة على الكثرة في كلّ ذلك، والتّمييز بين هذه المعاني أو الجمع بينها إنّما يكون بالقرائن، فإن لم توجد ثَمَّ قرينةٌ فهو صالح للزّمان والمكان والمصدر[2].

والأصل في صيغة (مَفْعَلَة)، بفتح العين، الظّرف من اسم المكان والزّمان، وليس ذلك لمُطلق اسم الظّرف، بل لاسم ظرف بالنّظر إلى كثرة المظروف فيه.

### بلاغةُ التّعبيرِ بالتّأنيثِ في المَيْمَنَةِ:

جاءت كلمةُ (المَيْمَنَة) مؤنثةً لدلالة تأنيث صيغة (مَفْعَلَة) على اسم المكان والزّمان (ظرف المكان والزمان) بالنظر إلى كثرة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 362.
(2) الحملاويّ، شذا العرف، ص: 59.

المظروف فيهما، وكثرة المتّصفين بها، فيجتمع بذلك الدّلالة على المصدر والظّرف والكثرة.

### الكناية في لفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

كناية الميمنة عن المرتبة السَّنيَّة وجهة الكرامة

في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ كنايةٌ عن المرتبة السَّنيَّة وجهة الكرامة والعناية في عُرف العرب، ولمّا كانت جهةُ اليمين جهةَ مَكرُمةٍ تعارفوا الجلوسَ على اليمين في المجامع كرامةً للجالس، فأصحابُ الميمنة: أي: أصحاب الكرامة عند اللّه ﷻ، وهم أهل السّعادة النّاجون، الّذين يُعطَون كتبَهم بأيمانهم، وهم من أصحاب الجانب الأشرف المُكْرَمون[1].

### نوع الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

احتمال الواو للعطف والاستئناف

يجوز في الواو من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أن تكون لعطف الشّيء على مقابِله، فلمّا ذَكَر النّظمُ الكريم أصحابَ الميمنة عطفَ عليه بذِكْر أضدادهم من أصحاب المشأمة، الّذين صدّوا عن سبيل اللّه سبحانه، وتواصَوا بالإثم وتواصَوا بالعدوان ومعصية الرّسول[2]. ويجوز أن تكون الواو للاستئناف بتفصيل أحوال أضداد الفريق الأوّل وبيانِ مصيرهم[3].

### غرض التّعبير بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

كفرُ الكافرين بآيات ربّ العالَمين سببُ استحقاقهم العذابَ المُهين

استُعمِلَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الاسمُ الموصول (الذين) وصلته ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لنُكْتَةِ الذّمّ والتّقريع بما في حيّز الصِّلة، والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فأوّل ما يُذَمّ به الكفّارُ كُفرُهم، ولهذا كثُر استعمالُ هذا التّعبيرِ في القرآن الكريم، فهو لفظٌ مطلقٌ يتناول كلَّ من صمَّم على الكفر ومن لم يصمِّم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 362.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 78، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 23.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 684.

وكذلك للإشعار بأنّ كفرهم هو العِلّة في كونهم أصحابَ المشأمة المستحقّين للنّار المُؤصَدة.

### سبب إيراد الاسم الموصول جمعًا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

كثرة المُخالفين للهدى من الكفّار والمُكذّبين

جاء الاسم الموصول جمعًا في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى كثرة الكفّار بآيات ربّ العالَمين، الّذين صَدّق عليهم إبليسُ ظنَّه، فقد أقسم الملعون بأنّه سيُغوي ما استطاع من بني آدمَ، كما ورد في الآية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40][1].

### نُكْتَة ذِكر الكفر دون الشّرك في الآية:

الكفر أعمّ من الشّرك دلالةً وأكثرُ خصالًا

أوثِر في قوله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التّعبيرُ بوصف الكفر دون الشّرك لقصد العموم، فالكفر خصالٌ كثيرة، وكلُّ خَصْلَة منها تُضادّ خصلةً من الإيمان؛ لأنّ العبد إذا فعل خَصْلةً من الكفر، فقد ضيّع خصلة من الإيمان، وأمّا الشِّرك فهو خصلةٌ واحدة، وهو إيجاد إله أو آلهة مع اللّه أو دونَ اللّه، واشتقاقه يُنبِئُ عن هذا المعنى، فلفظُ الشِّرْكِ مأخوذ من الشّريك، فالكافر الذي لم يجعل للّه شريكًا ليس مشركًا[2]؛ وبذلك يكون الكفر أعمَّ من الشِّرك[3].

يوم القيامة ينقسم النّاس إلى أصحاب يمين وأصحاب شمال

كما أنّ سياق الآيات في ذكر انقسام النّاس يوم القيامة إلى مؤمنين أصحاب ميمنة وكافرين أصحاب مشأمة، فناسبَ إيرادُ لفظِ الكفر؛ لأنّه نقيض الإيمان، في حين أنّ الشّرك نقيض التّوحيد[4].

### دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الفعلُ ﴿كَفَرُواْ﴾

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 242.
(2) ابن حزم، الفِصَل: 3/ 264.
(3) النّوويّ، شرح مسلم: 1/ 62.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 230.

تحقّقُ كفرِ الكافرين في دار الدّنيا ورسوخُهم فيه

بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقّق كفرِ الكافرين في دار الدّنيا، ورسوخِ هذا الوصف فيهم؛ وذلك لأنّ الإِخْبارَ عَنِ الشّيْءِ بصيغَةِ الماضي يَقْتَضي تحقُّقَ الخبرِ، ويقتضي كَوْنَ المخْبَرِ عنه متقدِّمًا على ذلك الإخبار[1].

### نوع الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تَعدّي الكفّار من الكفر بالله إلى الكفر بآياته العظيمة

الباء في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالّةٌ على التّعدية؛ وذلك لأنّ الفعل (كفر) قد يتعدّى بغير الحرف نحو قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ [هود: 60]، وقد يتعدّى إلى مفعوله بحرف الجرّ الباء، وهو الأكثر، والمقصود أنّ كفر الكافرين تعدّى إلى الكفر بآيات اللّه العظيمة.

### نُكْتَة التّعبير بالآيات:

كثرة آيات الله تعالى التي هي حججه وأدلّتُه على ربوبيّته وألوهيّتِه وصِدق رُسُلِه

ورد في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لفظُ الآيات، وهو جمع آية، وآيات اللّه تعالى هي حُجَجُه وأدلّتُه على ربوبيّته وألوهيّته، وما جاءت به رسلُه من شواهد على صدق ذلك[2]، فيدخل فيها الآيات الآفاقيّة والآيات الأنفسيّة، أو الآيات العُلويّة والآيات السُّفليّة، وآياتُ الرُّسل، وهي المعجزات التي أيّدَ اللّه بها رسلَه، ويدخل فيها كذلك الآياتُ السّمعيّة التي جاءت على ألسنة الرُّسل، كالتي في القرآن وغيره من الكتب السّماويّة[3].

### فائدة جمع الآيات في الآية:

كثرةُ آيات الله تعالى ووفرتُها وتنوّعُها

جاءت كلمة (الآيات) في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مجموعةً؛ للدّلالة على كثرتها ووفرتها وتنوّعها، فهي علامات كثيرة ودلائلُ متوفّرة ومتنوّعة على اللّه تعالى واستحقاقِه العبادةَ، وتَشَخُّصُها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 1/ 552.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 23.

في الآيات الكونيّة ظاهرٌ، وأمّا في الآيات الشّرعيّة ففيها معنى الجسامة المعنويّة، فهي لظهورها ووضوحِها كالشّيء المتشخِّص الّذي لا يخفى.

### دلالة إضافة (آيات) للضّمير:

زيادة التّشنيع على الكفّار بأنّهم كفروا بكلّ آيات الله

إضافة الآيات إلى الضّمير في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يفيد العموم، وإنّما أفادت الآية ذلك المعنى بسبب إضافة الجمع إلى المعرفة، والمعنى: كفروا بكلّ آياتنا، وكيف يكون المعنى: كفروا بكلّ آياتنا، وهم لم يكفروا بكلّ آيات اللّه تعالى، فالجواب: إنّما حُكِمَ عليهم بالكفر بكلّ الآيات؛ لأنّ مَنْ كَفَر برسولٍ واحدٍ أو معجزةٍ واحدةٍ أو آيةٍ واحدة؛ فقد كفر بسائر الرّسل والمعجزات والآيات، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشّعراء: 105] و﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشّعراء: 123]، وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣﴾ [القمر: 23] و﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾ [القمر: 33]، أو حُكِمَ عليهم بذلك لأنّ اللّه تعالى أخبر بكلّ آياته في القرآن إجمالًا أو تفصيلًا، فمن كفر بالقرآن فقد كفر بكلّ ما احتواه وتضمّنَه من الآيات.

### دلالة إضافة (آيات) لضمير العظَمة (نا):

الكُفْرُ بما جاءَ عَنِ العَظيمِ عَظيمٌ شنيع، والكفر بآيات العظيم مع كثرتها أعظم

إضافة الآيات إلى ضمير العظَمة (نا) الرّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يُراد به تعظيمُ المضاف وهو الآيات، لاسيما وأنّ الضّمير جاء بأسلوب العظَمة؛ لزيادة المهابة وإدخالِ الرّوعة في نفوس المتلقّين. وفي تعظيم الآيات على النّحو المتقدّم إظهارٌ لكمال قُبحِ الكفر بها(1). كما يُرادُ به زيادةُ التَّشنيعِ عليهم؛ إذِ الكفرُ بما جاء عَنِ العظيم الجليل بالغٌ في الشَّناعةِ غايَتَها(2).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/ 93.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 277.

ويزيدُ الأمرَ شناعةً جمعُ الآياتِ وإضافتُها إلى ضمير (نا)، الذي يفيد العموم؛ فهم إن كَفَروا بآية واحدةٍ من آيات الله تعالى كان ذلك شنيعًا، فكيف وقد كفروا بكلّ آيات الله تعالى.

### بلاغة الإيجاز بذِكر الكافرين بأنّهم كفروا بآياتنا:

التّعبيرُ عن الكفّار بأنّهم كفروا بآيات الله تعالى يُغني عن ذِكر كفرهم بغيرها؛ لأنّ الكفر بآيات الله يَلزَم منه الكفرُ بكلّ شيء ورد فيها أو أشارت إليه، لا سيما إذا كان المُراد بآيات الله آياتُه التّنزيليّة التي حواها القرآنُ الكريم.

### غرض استعمال ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾:

ذكرت الآيةُ ضميرَ الفصل ﴿هُمۡ﴾، على أحد الوجهين في إعرابها، بما يفيده من القصر والاختصاص؛ للدّلالة على أنّهم أصحابُ المشأمة وحدَهم دونَ غيرهم، وأنّهم مختصّون بالعذاب فيها.

### غرض استعمال ضمير الغائب ﴿هُمۡ﴾:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التّعبيرُ بضمير الغَيبة ﴿هُمۡ﴾ لنُكتة الدّلالة على سقوطهم عن شرف الحضور، وأنّهم أحقّاء بالإخفاء والتّجاهل، قال ربُّنا سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: 15][1].

### نُكْتَة التّغاير بين التّعبير عن الفريقين:

**المباينة التّامّة بين الفريقين بتكريم المؤمنين بالإشارة، وإهانةِ الكافرين بالغَيبة**

يُلاحظ أنّ النّظم المعجِز قد خالف في التّعبير عن الفريقين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، فقد أشار إلى المؤمنين، والإشارة لا تكون إلّا لحاضر، وليسوا حاضرين عند أيّ أحد، بل هم حاضرون عنده تعالى في مقام كرامته وبمثابة الجالسين أمامَه، وفي ذلك تكريمٌ لهم، لا

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 23.

يعدو الأمر أكثرَ من الإشارة إليهم، ثمّ استعمل لفظَ الإشارة الدّالّ على البُعد، فلم يقل هؤلاء إيذانًا ببُعد منزلتِهم وعُلو مكانتِهم ورِفعة شأنِهم عنده، ونيلهم شرفَ الحُظوة والقُرب منه، أمّا الكافرون فقد ذكرهم بضمير الغَيبة، إشارةً إلى أنّهم غائبون عن مقام الحضور والتّشريف، وأنّهم لا يستأهلون أن يَمُتّوا إليه ولو بأوهن الأسباب(1).

## بلاغة الجملة الاسميّة ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

قَصْر المشأمةِ عليهم وحدَهم دونَ من سواهم

قوله تعالى: ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ جملة اسميَّةٌ، طَرفاها: ﴿هُمۡ﴾ - وهو مبتدأٌ -، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ - وهو خبرُهُ -، على أحد الوجهين في الإعراب؛ للدّلالة على أنّهم أصحاب المشأمة وحدَهم دون غيرهم، وأنّهم مختصّون بالعذاب فيها دونَ من سواهم، ويجوز أن يكون ﴿هُمۡ﴾ ضميرَ فصلٍ لا محلّ له من الإعراب، على الوجه الثّاني في الإعراب، ويكون الغرضُ البلاغيُّ منه تقويةَ الحُكم وليس للقَصْر، إذ قد استُفيد القَصْرُ من ذِكر الجملة المُضادّة للّتي قبلَها، وهي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾(2)، ويمكن أن يكون الغرضُ البلاغيُّ منه القَصْر، ويدلّ على القَصْر أكثرُ من طريق، ويكون ذلك أقوى في الدّلالة على القَصْر من أن يدلّ اللّفظ على القَصْر بطريق واحد.

## نُكْتَة استعمالِ مفردة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

ملازمة أهلِ المشأمة للنّار وخلودُهم فيها

ورد في قوله تعالى: ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾، وهو جمع صاحب، وأصلُ اشتقاقه دالٌّ على مقارنة شيء وملازمتِه، ولا يُقال في العُرف إلّا لمن كثُرت ملازمتُه له، فأصحابُ المشأمة هم أصحابُ النّار، خالدون فيها ملازمون لحَرِّها، مُقاسون لسائر عذابها(3).

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 10/ 492.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 363.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (صحب).

### فائدة الجمع في كلمة ﴿أَصْحَٰبُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ جاء الجمع في كلمة ﴿أَصْحَٰبُ﴾ بعد الموصول الدّالِّ على الجمع ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، وواو الجمع التي لحقت الفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾، وضمير الجمع ﴿هُمْ﴾، فأفاد الجمع في ﴿أَصْحَٰبُ﴾ أنّ كلّ واحدٍ منهم يرى أنّه صاحبُ المشأمةِ وحدَه، لا يشاركه أحدٌ فيما يَجدُه فيها من شِدّة الحَرّ وأليمِ العذاب وعظيمِ الخِزي والذُّلّ، وكأنّه يرى نفسَه وحدَه في عذاب لم يبلغه أحدٌ سواه، لأنّ مقابلة الجمع بالجمع تُنْتِج القَسَمة آحادًا.

كلّ واحد منهم صاحب الميمنة، لا يشاركه أحدٌ فيما أعطاه الله من النّعيم

### دلالة إضافةِ ﴿أَصْحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

أضيف في قوله تعالى: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ لفظُ ﴿أَصْحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؛ وذلك للدّلالة على اختصاصهم بها، وأصحابُ المشأمة هم أصحاب النّار، وتسميتُهم أصحابُ المشأمة لأنّهم الّذين يُعطَون كتبَهم بشمائلهم ومن وراءِ ظهورهم، ويُسلَك بهم شمالًا إلى النّار، أو لأنّهم أصحابُ الشّؤم والشّرِّ والشّقاوة؛ لأنّ الفسّاقَ مشائيمُ على أنفسهم بمعصيتهم وعلى غيرهم أيضًا؛ أي: هم أهل الشِّمال الّذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾ الآيات[1] [الواقعة: 41 - 44].

أصحابُ النّارِ مشائيمُ على أنفسهم بمعصيتهم

### نُكْتَةُ التّعبير بأصحاب المشأمة دونَ أصحاب الشّمال:

في قوله تعالى: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ آثَر النّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ على لفظ (الشّمال)؛ لما في لفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ من دلالات متعدّدة ومعانٍ شتّى، فمنها: دلالتُه على صفات الكفّار، فهم أهل الشّؤم. ومنها: دلالتُه على مكانهم وزمانهم، فالمشأمة هي مكان أهلِ الشّؤم، وهو النّار، وهي زمانُهم أيضًا، وهو يوم القيامة الممتد إلى الأبد، كلّ ذلك مع الدّلالة على كثرة أهلِ الشّؤم، هؤلاء في نار جهنّم

الدّلالة على أهل الشّؤم ومكانهم وزمانهم مع الدّلالة على كثرتهم

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 23.

خالدين فيها أبدًا، بينما لفظ (الشّمال) لا يدلّ إلّا على الجهة، وقد يُفهَم من هذا معنى الشّؤم والتّشاؤم تبعًا لمعنى الجهة، لكنّه لا يدلّ على غير ذلك.

### بديعُ مُحسّنِ الطِّباق بين الميمنة والمشأمة:

بضِدِّها تتمايز الأشياء

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ طباقُ إيجابٍ بين لفظَي ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، وهو مُحَسِّن معنويٌّ، فبين تقابل اليمين والشّمال وتخالفِهما تضادٌّ يُثير الذِّهْنَ، ويجذبُ الانتباهَ، ويزيد الكلامَ حُسنًا وطَرافة، كما يُقوّي المعنى، إذ بضِدّها تتمايز الأشياء.

### نُكْتَة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

المشأمة مفعلَةٌ من الشَّأمِ أو منَ الشُّؤمِ

ورد في قوله تعالى: ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، وهو مفعَلَة للمكان مأخوذة من معنى الشَّأمِ (الشّمال)، وهو ضِدّ الميمنة، أو من معنى الشُّؤم، وهو ضِدّ اليُمْن، ونشأ على اعتبار ذلك تسميةُ بلاد الشّامِ شأمًا بالهمز؛ لأنّ بلاد الشّام من جهة شمال الدّاخل إلى الكعبة، وقد أبطل الإسلامُ ذلك بقول النّبيّ ﷺ: «اللّهمّ بارك لنا في شامنا وفي يَمَنِنا»(1)، وما تسميتُهم ضدَّ اليد اليمنى يسارًا إلّا لإبطال ما يُتوهَّم من الشّؤم فيها(2).

### الكناية في لفظ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

كناية المشأمة عن المرتبة الدّنيّة وجهةِ الإهانة

لفظ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ كنايةٌ عن المرتبة الدّنيّة وجهةِ الإهانة في عُرف العرب، ولمّا كانت جهةُ اليمين مَكْرُمة كانت جهة الشّمال بضِدّها، أي: هم مُحقّرون؛ وذلك كنايةً مبنيّةً على عُرف العرب يومئذ في مجالسهم، ولا ميمنةَ ولا مشأمةَ على الحقيقة؛ لأنّ حقيقة الميمنة والمشأمة تقتضيان حيّزًا

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1037).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 362.

لن تُنسَب إليه الجهةُ، فأصحابُ المشأمة أصحابُ الذُّلِّ والمهانة، وهم أهلُ الشّقاوة الّذين يُعطَون كتبَهم بشمالهم مُهانين(1).

التّتميم بذَمّ الإنسان سيّءِ الأقوال والأفعال

**بلاغة التّتميم في الآية:**

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تتميمٌ لما سبق من ذَمّ الإنسان المذكور آنفًا، إذ لم يُعقِب ذَمَّه هنالك بوعيده عنايةً بالأهمّ، وهو ذِكر حالةِ أضداده ووعدِهم، فلمّا قُضيَ حقُّ ذلك ثُنيَ العِنانُ إلى ذلك الإنسان، فحصل من هذا النّظم البديع مُحَسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدر(2).

فصل الجُمَل لتمام امتزاجها أو الاستئنافِ بها

**عِلّة فصلِ جملة ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾:**

فُصِلت الجملةُ في قَوْله تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ عن سابقتها لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجُملتَين اتّحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنَزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسِها(3)، فقد وقعت هذه الجملة خبرًا ثانيًا عن المبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أو بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أو يكون سببُ فصلِ هذه الجملة عمّا قبلَها أنّها استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن الإخبار عنهم بأنّهم أصحابُ المشأمة(4)، إجابةً لسؤال اقتضاه المقام، فكأنّ سائلًا سأل: وما جزاءُ أصحابِ المشأمة؟ فكانت الإجابة ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

تسليط النّار المُؤصدة على الكفّار ولزومُها لهم

**بلاغة حرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:**

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ حرفُ الجَرّ (على) الدّالّ على الاستعلاء، فيمكن أن يكون الاستعلاءُ حقيقيًّا، فالنّارُ تغشاهم من فوقهم كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 362.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 363.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(4) درويش، إعراب القرآن: 10/ 490، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 363.

﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: 16]، وقولُه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41]، وقولُه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55]. وقد يكون الاستعلاءُ مجازيًّا، بمعنى اللّزوم لهم وإن كرهوا، فهي مسلّطةٌ عليهم لا فكاك لهم منها[1].

وحرفُ الجَرّ (على) يُشير هنا إلى استعلاء النّار على الكفّار بمعنييه الحقيقيّ والمجازيّ.

### غرض تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾:

الاهتمام بتحقّق إطباقِ النّار عليهم تعجيلًا للتّرهيب مع القصْر والاختصاص

تقدَّمَ في قَوْله تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ شِبهُ الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وهو متعلّق بـ ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، وقُدِّم على عامله لنُكْتَة الاهتمام بتحقّق غَلْقِ النّار عليهم؛ تعجيلًا للتّرهيب، فهم أحقّاء بالنّار لكفرهم بآيات اللّه العظيمة، وقد استتبَّ أيضًا بهذا التّقديم رعايةُ الفواصل بالهاء، ابتداءً من قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾[2]، ومع بلاغة هذا المعنى فقد أفاد تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ هنا القَصْرَ والاختصاص أيضًا؛ أيْ: عليهم وحدهم دون غيرهم، يختصّون بذلك من بين سائر الخَلْق يومَ القيامة.

### غرضُ تنكير لفظ ﴿نَارٞ﴾:

عظمة النّارِ المُؤْصَدة على الكفّار

وَرَدَ لفظُ ﴿نَارٞ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ نكرةً، والنّكتة البلاغيّة في ذلك أنّ التّنكير يدلّ على الإبهام والتّعظيم والتّهويل، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرةٍ بالتّعظيم والتّهويل، فإنّ من أراد أن يُعظِّمَ شيئًا أبهمَه، بحيثُ لا يُكتَنَه وصفُه، وتذهب النّفسُ فيه كلَّ مذهب، فتوعّد اللّه سبحانه أصحابَ المشأمة بنارٍ عظيمة شديدة هائلةٍ لا يُكتَنَهُ كُنهُها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 363.

### بلاغة القراءات المتواترة في ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾:

دلالة كلٍّ منها على معنًى مختلف

تنوّعت القراءة في قَوْله تَعالى: ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، فقرأه بالهمز أبو عمرو، ويعقوب وحمزة وصلا وخلف العاشر وحفص، وقرأه الباقون بغير همز: ﴿مُّوصَدَةُۢ﴾[1]، وثمّة فرقٌ بين ﴿مُّوصَدَةُۢ﴾ و﴿مُّوصَدَةُۢ﴾، والخلاصة: أنّ ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ من (أصَدَ)، وهو: نوع إحكام وحَجْبٍ للشّيء بما يَسُدّ المنفذَ إليه بإغلاق بابه بإحكام، وإطباق البابِ عليه، بينما ﴿مُّوصَدَةُۢ﴾ من (وصد)، وهو إحكام حَجْبٍ للشّيء بما يَسُدّ المنفذ إليه من جوانبه بإحكام هذه الجوانب بالحجارة، أو ما يشبهها، كالوَصيدَة التي تُتَّخَذُ من الحجارة لحفظ المال (الخزنة)، ففي كلّ واحدة من القراءتين معنًى يُكَمِّل الآخر، فإحداهما تدلُّ على إحكام حَجْبٍ للشّيء بما يَسُدّ المنفذ إليه في بنائه من جوانبه، والأخرى تدلّ على إحكام حَجْبٍ للشّيء بما يَسُدّ المنفذ إليه من بابه، بإغلاق هذا الباب بإحكام، وإطباق الباب عليه.

### بلاغة المجاز في الآية:

المجاز العقليّ في إسناد المُؤْصَديّة إلى النّار

وُصِفت النّار في قَوْله تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بأنّها ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، فيجوز أن يكون مجازًا بالحذف، ويكون أصل المعنى: نارٌ أبوابُها مغلقةٌ عليهم، لا يُفتح لهم باب، فلا يُخرج منها غمّ، ولا يدخل فيها رَوْح أبدَ الآباد، إلّا أنّها جُعِلت صفةً للنّار إشعارًا بإحاطتها بهم، فأصلُ التّركيب: مؤصدةُ الأبواب، فلمّا تُركتِ الإضافةُ عاد التّنوين إليها؛ لأنّهما يتعاقبان، ويجوز أن يكون إسنادُ المُؤْصديّة إلى النّار مجازًا عقليًّا، والموصد هو موضع النّار، أي: جهنّم. والمقصود: أنّ عليهم نارًا مطبقةً في جهنّم مغلقة عليهم، فلا يستطيعون الفكاك منها، ولا الخلاص من عذابها، أعاذنا اللّه سبحانه وجميعَ المسلمين منها بمنِّه وكرمه، وجعلنا من أصحاب الميمنة[2].

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 1/ 395.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 364، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 23.

### فائدة التّقابل بين الفريقين في الآيات:

وضوح جزاء أهل اليُمْن وأهلِ الشُّؤْم وبيانُ سببِ ذلك

ذكرتِ الآياتُ التّقابلَ أو المقابلةَ بين ما فعلَهُ كلٌّ من أهل اليُمْن وأهلُ الشُّؤْم في الدّنيا، وما ترتّب على ذلك من الجزاء في الآخرة، والتَّقابُل هنا تَقابُلٌ بالتّضادّ، والمقابلة أسلوبٌ عربيٌّ يُبْرِز المعنى بجلاءٍ ووضوح، فذِكْرُ الضِّدَّين يَزيدُ في بيان كلٍّ منهما، ويُبْدي ما خَفي مِنْهُما، وقد قالوا: وبضِدِّها تتميَّزُ أو تتبيَّنُ الأشياءُ.

### بلاغة الاحتباك في الآيات:

الإيجاز والإبداع

في الآية احتباكٌ، تقديره: ثمّ كان من الذين آمنوا بآياتنا وتواصَوا بالصّبر وتواصَوا بالمَرحمة، أولئك أصحاب الميمنة، لهم جنّةٌ واسعة عالية منعَّمَة، والذين كفروا بآياتنا وتواصَوا بالجَزَع وتواصَوا بالقَسْوة هم أصحاب المشأمة، عليهم نارٌ مُؤْصَدة، وإنّما ذُكِرَ ما ذُكِرَ وحُذِفَ ما حُذِفَ لفوائدَ متعدِّدةٍ ومتنوّعة، فذِكْرُ أصحابِ الميمنة مُغْنٍ عن ذِكْرِ جزائهم؛ لأنّ ذلك من لوازم عدلِ الله تعالى أن يُثيبَ مَن هذه صفتُهم، وذِكْر أصحابِ المشأمة مُغْنٍ عن ذِكر سببِ ذلك، فإنّ ذِكرَ السّببِ من أنّهم كفروا بآياتنا وتواصَوا بالجَزَع وتواصَوا بالقَسْوة لا يَدُلُّ على أنّهم أصحابُ المشأمة، فقد يعفو الله عنهم.

## ۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### (اليمين والميمنة) و(الشّمال والمشأمة):

دلالةٌ على الصّفة والمكان والزّمان والكَثْرة، ودلالةٌ على المكان، أو المكان والصّفة

أتت كلمةُ (الميمنة) على صيغة (مفعلة)، وهذه الصّيغة تأتي للدّلالة على جملة من المعاني، إذ تأتي للدّلالة على المصدر، واسم الزّمان، واسمِ المكان، وللدّلالة على الكثرة أو سببِها أو هما معًا[1]، والأصل في هذه الصّيغة الظّرف من اسم المكان والزّمان، وليس

---

(1) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 162، 184، 185، 188.

ذلك لمطلق اسم الظّرف، بل لاسم ظرف بالنّظر إلى كثرة المظروف فيه، فاسم الظّرف دلالة المَفْعَل، والكثرة دلالة التّاء، وهذا معنى قولهم: جاءت هذه الصّيغة مؤنثةً لدلالة تأنيث صيغة (مفعلة) على اسم المكان والزّمان (ظرف المكان والزمان) بالنّظر إلى كثرة المظروف فيهما، فيجتمع بذلك الدّلالة على الظّرف والكثرة، بينما لفظُ اليمين أو الشّمال يدلّ على المكان فقط، أو المكان والصّفة.

**المؤْصدة والمغْلقة:**

المـُؤصـدة تـدلّ عـلى إحـكـام الإغلاق بسَدِّ كلّ المنافذ، بخِلاف الإغلاق

و﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ معناها مطبقة محكمة الإغلاق؛ لأنّ الإيصاد: هو إحكامُ حَجْب الشّيء وحَدَه، بما يَسُدّ المنفذ إليه، كالأُصْدة للعورة، ومنه: آصَدتُ البابَ، إذا أطبقتُه[1]، بمعنى لا ضوءَ ولا مخرجَ ولا فرج فيها، فهي مغلّقة لا تفتح إلّا لإدخال العُصاة، بينما المغلقة لا تدلّ إلّا على معنى الإغلاق.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أصد).

# سُورَةُ الشَّمۡسِ

# سُورَةُ الشَّمْسِ

## التّعريف العامُّ بالسّورة:

### المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة اتِّفاقَ المفسِّرين على مكّيَّتها، ولكنَّه نقلَ عن بعضِهم أنَّه قال: هي مدنيَّة[1] ولم يُعلِّقْ على هذا الرَّأي بشيء، وبمكّيَّتِها جزَمَ القرطبيُّ[2]، وهذا هو الصَّحيحُ الذي لا خِلافَ فيه، وما ذُكِرَ من أقوالٍ في مدنيَّتِها لا يُلتفَتُ إليه.

وأمّا عددُ آياتِها فيقولُ فيها الدّاني: "وهي سِتَّ عشرَة آيَة في المدنيِّ الأوَّل ويُقالُ في المَكّيِّ كَذَلِك، وخمْسَ عشرَة في عدد الباقينَ، ومحلُّ الاختلافِ في عدَدِها آيَة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ عدَّها المدنيُّ الأوَّل والمكّيُّ بخِلاف عَنهُ، ولم يَعدَّها الباقونَ"[3].

### ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبُها المصحفيُّ بينَ سورَتَي البلد واللَّيل

هذهِ السّورةُ هي الواحِدةُ والتِّسعونَ في التَّرتيبِ المُصحفيِّ الشَّريفِ، وهو التَّرتيبُ الثّابتُ والمُعوَّلُ عليهِ عند أهلِ النَّظرِ والتَّحقيقِ، وقد جاء ترتيبُها بين سورتي البلدِ واللَّيلِ، وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ، فعُدَّتِ السّورة السّادِسةَ والعِشرينَ في ترتيبِ نُزولِ السّوَرِ؛ نزلَتْ بعدَ سورةِ القَدْرِ وقبلَ سورةِ البُروجِ، وهذا يُؤكِّدُ مَكّيَّةَ السّورةِ.

### فضائل السّورة:

هذه السّورةُ من سوَرِ المفصَّل

هذه السّورةُ لها فضائلُ عظيمةٌ، دلَّ على ذلك عدَّةُ أحاديث؛ منها أنَّها من سوَرِ المفصَّل الذي قال فيه النَّبي ﷺ فيما رواهُ عنه واثلةُ بنُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 487.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72.
(3) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 275.

الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المَثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(1).

## اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

صلاحُ النُّفوسِ سببُ الفلاحِ أو الـهَـلاكِ، كأثَرِ الـشَّـمـسِ في النّورِ والظُّلمة

وردَتْ تسميَتُها بسورةِ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ في صحيح البخاري، وعند التِّرمذيِّ(2)، قال ابن عاشور: "وعنونها البخاري سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير، وهو أولى أسمائها؛ لئلا تلتبس على القارئ بسورة (إذا الشمس كورت) المسماة سورة (التكوير)"(3).

ووردَت تسميةُ هذه السّورة بسورة (الشَّمس) بدونِ الواوِ في المصاحف والتَّفاسير وكتب السُّنَّة(4)، وسُمّيَت بذلك لافتتاحِها بالقَسَمِ بالشَّمسِ، يُؤَكِّدُ هذا قولُ البقاعيِّ: "واسمُها (الشَّمس) واضحُ الدَّلالةِ على ذلك، بتأمُّلِ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه، بما أعلَمَ به، وأشارَ إليه"(5).

والحقُّ أنَّ تَسميتَها بسورةِ الشَّمسِ مرتبطٌ بمِحوَرِها ارتباطًا غيرَ مُباشرٍ، فكما أنَّ الشَّمسَ وضُحاها يُعَدّانِ رمزًا لقوَّةِ النَّهارِ وشدَّةِ السُّطوعِ وقوَّةِ الوُضوحِ، فإنَّ فلاحَ المؤمنين وهَلاكَ الكافرين مَرهونٌ بصلاحِ نُفوسِهم كما هي الشَّمسُ في رائِعةِ النَّهارِ، فالحقُّ أبلجُ ظاهرٌ للعيانِ ولا يَتزَعزَعُ.

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبطِ بين اسمِها ومَقصودِها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها: إثباتُ التَّصرُّفِ في النُّفوسِ التي هي سُرُجُ الأبدان،

(1) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطَّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).
(2) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة: (والشمس وضحاها): 4/ 1888، و التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ: (والشَّمسِ وضُحاها): 5/ 440.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 365.
(5) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 196 - 197.

تقودُها إلى سعادةٍ أو كَبدٍ ونكدٍ وهوانٍ، كما أنَّ الشَّمس سِراجُ الفلك، يتصرَّف سبحانه فيها بالاختيار إضلالًا وهدايةً، ونعيمًا وشقاوةً، كتصَرُّفِه في الشّمس بمثلِ ذلك، من صحَّةٍ واعتلال، وانتظامٍ واختلالٍ، وكذا في جميع الأكوان بما لهُ من عظيمِ الشأن"[1].

**المِحوَرِ العامِّ للسورة:**

المِحوَرُ الذي قامت عليه السّورةُ الكريمةُ يتلخَّصُ في ربطِ صَلاحِ البشَرِ بصَلاحِ نُفوسِهم، والتَّمثيل لذلك بجانبٍ من قصَّة قومِ ثمود.

فقد أقسَمَ ﷻ بالشَّمسِ وقوّةِ إشراقِها المتمثِّلِ بالضُّحى، وأقسَمَ بالقمرِ الذي يأتي ليُنيرَ بعد غيابِ إشراقِ الشَّمسِ، وكذلك أقسَمَ بالنَّهارِ واللَّيلِ اللَّذيْن يُظهِرانِ ضياءَ الشَّمسِ أو نورَ القمرِ، وكذلك أقسَمَ بالسَّماءِ والأرضِ وبالنَّفسِ البشريَّةِ على أنَّه قد أفلحَ مَن أشرَقتْ نفسُه وقد خابَ مَنِ انطمسَ نورُه.

ودلَّ ﷻ على ذلك بجانبٍ مِن قصَّةِ ثمودَ يُظهِرُ تكذيبَهم وطُغيانَهم وعدمَ تزكيتِهم لأنفسِهم؛ إذ أقدَموا على عَقرِ النّاقةِ التي أوصاهُم نبيُّهم أن يَعتنوا بها، فكانت عاقبةُ أمرِهم استئصالَهم بسببِ ذُنوبِهم التي اقترَفوها، وفي ذكرِ هذا الأُنموذجِ تهديدٌ لمُشركي مكَّةَ الذين سَلكوا مَسلكَهم واتَّبَعوا أهواءَهم.

**موضوعات السّورة وخصائصها:**

بيانُ طبيعةِ الإنسان وأسبابُ إعراضِه عن الحقّ

كُلُّ سورةٍ مِن سوَرِ القرآنِ لَها مَقْصِدٌ أساسيٌّ أَنْزَلَها اللّه من أجْلِه، ومِن ذلك سورةُ الشَّمس؛ أَنْزَلَها اللّه تعالى لِمَقْصِدٍ عظيم، هو التَّرغيبُ في الطّاعاتِ الَّذي هو سبيلُ تَزكيَةِ النُّفوسِ، والتَّحذيرُ مِنَ المعاصي الَّتي هي سببُ الخَيبَةِ والخُسّرانِ؛ لذلك كان الحديثُ فيها عن موضوعين مُهمَّين هما:

---

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 196.

**أوّلاً:** الإقسامُ بالمخلوقاتِ الكونيَّة العظيمة في العالم العُلويِّ والسُّفليِّ؛ وآلةُ التَّفكُّرِ في ذلك قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، ودورُ الإنسانِ في تَهذيبِها، وتَعويدِها الأخلاقَ الفاضلةَ ليَفوزَ ويَنجو، أو إهمالِها وتَركِها بحسَبِ هَواها فيَخيبَ، وفي هذا بيانٌ لِأهمّيَّةِ تَزكيةِ النَّفسِ والحِفاظِ عليها من مَوارِدِ الهلاك.

**ثانيًا:** بيانُ عاقبةِ الأُممِ التي كذَّبت أنبياءَها ورُسُلَها، وحلَّ بها العذابُ؛ فضرَبَ المثلَ بثمودَ لِمَن دَسَّ نفسَهُ وأهمَلَها، فتمادَتْ في الطُّغيانِ، فنزلَ بها العقابُ الشَّديدُ وأهلَكَها ودمَّرَها عيانًا في الدُّنيا، وفي هذا تهديدٌ لِمُشركي مكَّةَ الذين عانَدوا رسولَ الله وكذَّبوا بأنَّهُم سيُصيبُهم ما أصابَ الأُممَ التي كذَّبت قبلَهم[1].

**الخصائصُ المَوضوعيَّةُ للسورة:**

تميَّزَتْ سورةُ الشَّمس بخصائصَ أفرَدَتْها عن غَيرِها من السّوَر

من الخصائصِ الموضوعيَّة التي تميزت بها السورة:

**أوّلاً:** اهتمامُها بتزكيةِ النُّفوسِ اهتمامًا شديدًا؛ حيثُ تعدَّدَت المُقسماتُ على تزكيَتِها وإصلاحِها.

**ثانيًا:** بيانُ قُدرةِ الله تعالى على تصَرُّفِهِ في النَّفسِ البشَريَّةِ تصَرُّفَهُ في الأكوانِ العُلويَّة.

**ثالثًا:** ذِكرُ أنموذَجٍ للتَّطبيقِ العَمَليِّ للنُّفوسِ التي خابَتْ وخَسِرَتْ فأصابَها العذابُ والهَلاكُ.

**الخصائصُ الأسلوبيَّةُ للسورة:**

تميَّزَتْ سورةُ الشَّمس بخصائصَ أسلوبيَّةٍ أفرَدَتْها عن غَيرِها من السّوَر

**أوّلاً:** تميُّزُ السّورةِ الكريمةِ ببَراعَةِ الاستهلالِ بالقَسَم؛ إذ شارَكَتْها في هذه الميزةِ أُسرةٌ كبيرةٌ مُكوَّنةٌ من ستَّ عشرةَ سورةً غيرِها في الاستهلالِ بالقَسَم، وهي: الصّافّات، الذّاريات، الطّور، النَّجم، القيامة، المرسلات، النّازعات، البروج، الطارق، الفجر،

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 255 - 256.

البلد، اللَّيل، الضُّحى، التّين، العاديات، العصر. وهذا القَسَمُ ومتعلّقاتُهُ وجَوابُهُ يرتبطُ مع محورِ كلِّ سورةٍ من هذه السّوَر.

**ثانيًا:** امتازَتِ السّورةُ الكريمةُ بأنَّها حوَت أطوَلَ قَسَم في القرآنِ من خلالِ القَسَمِ بهذه الأمورِ الإحدى عَشْرَةَ التي استهلَّتْ فيها السّورةُ الكريمة؛ إذْ أقسَمَ ﷻ بالشَّمس، وبضُحاها، وبالقمر، والنَّهار، واللَّيل، والسَّماء، وما بَناها، والأرض، وما طَحاها، وبالنَّفس، وبما سَوّاها. وجوابُ القَسَمِ لها جميعًا فلاحُ مَن زكَّى نفسَهُ وخيبةُ مَن سارَ خلفَ هَواهُ.

**ثالثًا:** حوَتِ السّورةُ الكريمةُ ألوانًا من الطِّباقِ فيها مثل: الشَّمسِ والقمرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، والسَّماءِ والأرضِ، والفُجورِ والتَّقوى، والتَّزكيةِ والتَّدسية.

**رابعًا:** امتازَت السّورةُ الكريمةُ بكونِ فاصِلَتها موحَّدةً وآياتِها قصيرةً وشديدةً؛ ممّا أعطاها جَرْسًا موسيقيًّا خاصًّا بها.

**خامسًا:** تميَّزت السّورةُ الكريمة بأنَّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها من السّوَر بصِيَغِها الصَّرفيَّة هذه، مثل: ﴿تَلَىٰهَا﴾، ﴿جَلَّىٰهَا﴾، ﴿يَغْشَىٰهَا﴾، ﴿فُجُورَهَا﴾، ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾، ﴿زَكَّىٰهَا﴾، ﴿دَسَّىٰهَا﴾، ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾،﴿أَشْقَىٰهَا﴾، ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾، ﴿عُقْبَٰهَا﴾ وغيرها.

**سادسًا:** تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها انفردَت بألفاظٍ فريدةٍ مادَّةً وجَذرًا؛ وهي: ﴿طَحَىٰهَا﴾، ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، ﴿فَدَمْدَمَ﴾.

**سابعًا:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بوَفرةِ الأنساقِ التَّعبيريَّة التي لم تتكرَّر في غيرها حتَّى تكاد تكون كلُّ أنساقِها كذلك، ولكنَّنا نذكُر بعضَها على سبيل التَّمثيل، ومنهُ مَطلَعُها كاملًا: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وغيرها.

### مناسبة السورة لما قبلها:

**أوّلًا:** لمّا حضَّت سورةُ البلد على تجاوُزِ العقبةِ في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 11] جاءت سورةُ الشَّمس ببيانِ السَّببِ الموصِل إلى ذلك، وهو تزكيةُ النَّفس بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

تزكيةُ النَّفسِ السَّببُ الموصِلُ إلى تجاوُزِ العقبة

**ثانيًا:** تكلَّمت سورة البلد على الهدايةِ في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: 10]؛ فنَسَبَت الهدايةَ إليه ﷻ؛ لأنَّ الإنسانَ بقِصَرِ نظَرِه وقلَّةِ حيلتِه لا يُمكنُ له معرفةُ كلِّ أوجُهِ الخير والشَّرِّ؛ فجاءت سورةُ الشَّمس، وبيَّنت أنَّ الفُجورَ والتَّقوى تُدرِكُه النَّفسُ بإلهامٍ منَ اللّٰه ﷻ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ والهدايةُ وحيٌ وإلهامٌ، فانقطعَ الوحيُ بمَوتِ رسولِ اللّٰه ﷺ، وبقيَ أثرُهُ – وهو القرآن –، وبقيَ الإلهامُ ماثلًا في كلِّ نفسٍ يقودُها للهداية.

**ثالثًا:** ومن المناسبةِ بينهُما اشتراكُ السّورَتين في ذِكر مظاهرِ قُدرةِ اللّٰه؛ ففي سورة الشَّمسِ توالَت الآياتُ الكونيَّة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ فكانت هذه الآياتُ في مقابلِ آياتِ اللّٰه الماثلةِ في الإنسان في سورة البلد؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: 8 - 10]، فكأنَّ السّورتَين قَطعَتا عليه كلَّ عُذرٍ يَمنعُهُ من تَجاوُزِ العقبةِ واقتِحامِها.

**رابعًا:** ومن وجوهِ ارتباطِ السّورتَيْنِ أنَّه لمّا ختمَ اللّٰه سبحانه سورة البلد بتعريفِ أصحاب المَيمَنةِ وأصحابِ المَشْأمَة، أوضَحَ المُرادَ من الفريقَين في سورةِ الشَّمس بعملِ كلٍّ منهما؛ إذْ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

**خامسًا:** ومنها؛ لمّا أبانَ اللّٰه تعالى في آخرِ آياتِ السّورةِ السّابقةِ مصيرَ الكفّارِ، ومآلَهم في الآخرةِ وهو النّارُ، ذكرَ تعالى في أواخرِ هذه السّورةِ عقابَ بعضِ الكفّارِ في الدُّنيا، وهو الهلاكُ، فاختتمتِ السّابقةُ بشيءٍ من أحوالِ الكفّارِ في الآخرةِ، واختتمتِ هذه بشيءٍ من أحوالِهم في الدُّنيا[1].

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 30/ 255.

**سادسًا:** ومنَ المناسبةِ بينهما اشتراكُ فاتحَتِهما في القسَم؛ فسورةُ البلدِ تبدأ بالقسَم بالبيتِ الحرامِ، والثَّناءِ على نبيِّنا ﷺ، وسورةُ الشَّمسِ تبدأ بالقسَمِ بالشَّمسِ وتَعطِفُ عليها عدَّةَ معطوفاتٍ، وأيضًا تأخَّرَ جوابُ القسمِ في كلٍّ منهما.

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: 1 - 10]

## ❁ مناسبةُ مَطلَعِ السّورةِ لآخرِ سورةِ البلد:

اللّه تعالى هو المُتولّي للثّواب والعِقاب

لمّا خُتِمَتْ سورةُ البلد بذِكرِ أصحابِ المَيمَنةِ وأصحابِ المَشْأمَةِ، جاءَتْ سورةُ الشَّمس بذِكْرِ الفَريقَين في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

ومنها لمّا أثبتَ اللّه ﷻ في سورةِ البلدِ أنَّ الإنسانَ في كَبَدٍ، وختمَها بأنَّ مَن حادَ عن سبيلِهِ كان في النّارِ المُؤصَدَةِ؛ أقسمَ أوَّلَ هذهِ السّورةِ على أنَّ الفاعلَ لذلك أوَّلًا وآخِرًا هو سبحانَهُ؛ لأنّه يَحولُ بين المرءِ وقلبِهِ، فأقسمَ بما يدلُّ على تمامِ علمِهِ وشُمولِ قُدرتِهِ في الآفاقِ والأنفُسِ، وبدأ بالعالمِ العُلويِّ؛ فأفادَ ذلك قَطعًا العِلمَ بأنَّ اللّه هو الفاعلُ المختار[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: (ضحى) أصلٌ يدلُّ على بُروزِ الشَّيء، ومن ذلك: الضَّحاء والضُّحى، وهو انبساطُ الشَّمسِ وامتدادُ النَّهار، وسُمّيَ الوقتُ به، قال اللّه تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات: 46][2]، ويقال: ضَحيَ الرَّجل يضحَى، إذا تعرَّض للشَّمس، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 119]، أي: لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحي).

يُؤذيكَ حرُّ الشَّمس[1]، ويقال: ضَحيتُ، أي: عرقْتُ، وضحَّى فلانٌ غَنَمَه: رَعاها بالضُّحى[2]. والمُرادُ بالضُّحى هنا: ضوء الشَّمس وإشراقُها، أو النَّهار[3].

2) ﴿تَلَىٰهَا﴾: (تلو) أصلٌ يدلُّ على الإتباعِ، يقال: تلوتُه إذا تَبِعْتُه، وذلك يكون تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحكم، وسُمّيت تلاوةُ القرآنِ بذلك؛ لأنَّ القارئَ يُتبِعُ كلَّ كلمةٍ أختها[4]، وتَتالت الأمورُ: تلا بعضُها بعضًا، وأتليتُه إيّاه: أتبَعتُه إيّاه، ويقال: ما زلتُ أتلوهُ حتَّى أتليتُه، أي: تقدَّمتهُ وصار خلفي، وأتلَيتُه: سبقتُه[5]. والمراد بـ ﴿تَلَىٰهَا﴾: تبعَها بطلوعه بعد غروبها، أو تبعَها ليلة الهلال، وذلك أنَّه إذا سقطت رُئيَ الهلال[6]، أو تبعَها في الاستدارة وكمال النّور[7]. ويكون المرادُ الاتِّباعَ على سبيلِ الاقتداءِ والمرتبة، وذلك أنَّه يُقالُ إنَّ القمرَ هو يَقتبسُ النّورَ من الشَّمس، وهو لها بمنزلةِ الخليفة[8].

3) ﴿جَلَّىٰهَا﴾: (جلو) أصلٌ يدلُّ على انكشافِ الشَّيء وبُروزه، ومن ذلك يُقال: تجلَّى الشَّيءُ، إذا انكشف[9]، والجَليُّ: ضدُّ الخفيِّ[10]، وأجليتُ القومَ عن منازلهم فجلَوْا عنها، أي: أبرزتُهم عنها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [الحشر: 3] والتَّجلّي قد يكونُ بالذّات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: 2]، وقد يكونُ بالأمرِ والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143][11]. والمرادُ بـ ﴿جَلَّىٰهَا﴾: كشفَها وأزالَ الظُّلمة[12].

4) ﴿يَغْشَىٰهَا﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ[13]، ومن ذلك يُقال: غشَّيتُ الشَّيءَ تغشيةً إذا غطَّيته، والغِشاء: الغِطاء[14]، والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشَى الخلقَ، أي:

(1) الخليل، العين: (ضحي).
(2) الجوهري، الصحاح: (ضحي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 451، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (تلو).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 73.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 163.
(8) الراغب، المفردات: (تلو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلو).
(10) الرازي، مختار الصحاح: (جلو).
(11) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (جلو).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (غشي).

تُغطّيهم وتُصيبهم بأفزاعها وأهوالها، ويُقال: غشيَتْهُ غاشيةٌ، أي: أصابَتْهُ داهية، وغاشيةُ السَّيف والرَّحل: غِطاؤه[1]، ويقال: غَشيَ اللَّيلُ، وأغشَى، أي: أظلمَ[2]. والمراد بـ ﴿يَغْشَىٰهَا﴾: يُغطّيها فتغيبُ فتُظلِمُ الآفاق[3].

5) ﴿بَنَىٰهَا﴾: (بني) أصلٌ يدلُّ على بناء الشَّيء بضمِّ بعضِهِ إلى بعض[4]، ومن ذلك يُقال: بنيتُ أبني بناءً وبنيةً وبنًى، قال ﷻ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبأ: 12]، والبناء: اسمٌ لما يُبنى، قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: 20]، والبَنِيَّة: الكعبة[5]، ويُقال: أبنيتُ الرَّجل: أعطيتُهُ بناءً أو ما يَبني به دارَهُ[6]، والبِنى: الأبنية من المَدَر والصّوف[7]. والمراد بـ ﴿بَنَىٰهَا﴾ هنا: خلقَها ورفعَها[8].

6) ﴿طَحَىٰهَا﴾: (طحو) أصلٌ يدلُّ على البسطِ والمدِّ[9]، ومن ذلك يُقال: طحا الشَّيءَ يَطحوهُ ويطحيه طَحْيًا، أي: بَسَطَه، والطّاحي: المُنبسطُ على وجه الأرض، ويُقال: طحا بك همُّك، إذا ذهبَ بك في الأمر، ومدَّ بك فيه[10]، وما أدري أينَ طحا، أي: أين ذهب، من طحا الرَّجلُ، إذا ذهبَ في الأرض[11]، وطحا به قلبُه، إذا ذهبَ به في كلِّ شيء[12]. والمراد بـ ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسَطَها من كلِّ جانب[13].

7) ﴿وَنَفْسٍ﴾: (نفس) أصلٌ يدلُّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، ومن ذلك: التَّنفُّس، وهو خروجُ النَّسيم من الجوف[14]، والمنافسةُ: مجاهدةُ النَّفس للتَّشبُّه

(1) الخليل، العين، والزمخشري، أساس البلاغة: (غشي).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (غشي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 453، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).
(5) الخليل، العين: (بني).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (بني).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طحو).
(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طحو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طحو).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (طحو).
(13) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

بالأفاضلِ واللُّحوق بهم، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: 26][1]، والنَّفسُ: ذاتُ الشَّيء وجملتُهُ، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185][2]، والنَّفس أيضًا: الرّوح[3]، ويقال: دَفَقَ نفسَهُ، أي: دمَهُ[4]. والمرادُ بالنَّفس هنا: آدمُ أو جميعُ الأنفس[5].

8) ﴿سَوَّاهَا﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين[6]، والاستواءُ يُقال للتَّماثل والتَّساوي، نحو: استوى زيدٌ وعمرو في كذا، أي: تساويا وتماثلا، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 19]، ومنه قولهم: هذا يساوي درهمًا، أي: تعادل قيمتُه درهمًا[7]. ويقال أيضًا لاعتدال الشَّيءِ في ذاتِه، كقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم: 6][8]، والسَّويُّ: ما يُصانُ عن الإفراط والتَّفريط من حيثُ القَدْرُ والكيفيَّةُ، ومن ذلك يقال: رجلٌ سَويٌّ، أي: استوَتْ أخلاقُهُ وخِلْقتُهُ عن الإفراط والتَّفريط[9]. والمراد بالتَّسوية هنا: الخَلْقُ والتَّهيئةُ والتَّعديل[10].

9) ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾: (لهم) أصلٌ يدلُّ على ابتلاع شيء[11]، ومن ذلك يقال: التَهَمَ الشَّيءَ، إذا ابتلَعَهُ، ولهِمَ الماءَ لَهْمًا: جرعَهُ، وجيشٌ لهّامٌ: كثيرٌ يَلتهِم كلَّ شيء[12]، والتَهَمَ الفصيلُ ما في الضَّرع: استوفاه[13]، وفرسٌ لَهِمٌ: كأنَّه يلتهِمُ الأرض لشدَّة عَدْوِه، ومن هذا الباب: الإلهامُ، كأنَّه شيء أُلقيَ في الرّوع فالتهمَهُ، ويختصُّ الإلهام بما كان من جهةِ اللَّه تعالى، وجهةِ الملإ الأعلى[14]. والمُرادُ بـ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ هنا: فعرَّفها[15].

10) ﴿فُجُورَهَا﴾: (فجر) أصلٌ يدلُّ على التَّفتُّح في الشَّيء، ومن ذلك: الفجر، وهو

---

(1) الراغب، المفردات: (نفس).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (نفس).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نفس).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (نفس).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (سوي).
(8) الراغب، المفردات: (سوي).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (سوي).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهم).
(12) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لهم).
(13) الجوهري، الصحاح: (لهم).
(14) الراغب، المفردات: (لهم).
(15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.

انفجارُ الظُّلمة عن الصُّبح[1]، وانفجرَ الماء والدَّم ونحوُهما، وتفجَّر: انبعث سائلًا[2]، وفجر الرَّجلُ القناةَ فجْرًا: شقَّها، وفجَّر الماءَ: فتحَ له طريقًا فانفجَر، أي: فجَرَى[3]، والفُجْرة: موضعُ تفتُّح الماء، وفجَرَ فُجورًا، أي: فسقَ، وفجَرَ: كذَبَ، وأصلهُ المَيل، والفاجر: المائل[4]. والمراد بالفُجور هنا: طريق الشَّرِّ[5].

11) ﴿أَفۡلَحَ﴾: (فلح) أصلان: أحدهما يدلُّ على فوزٍ وبقاءٍ[6]، والفلاحُ: الفوز والظَّفرُ بالبُغيةِ[7]؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5][8]، والفَلاحُ نوعانِ: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفَرُ بالسَّعاداتِ الَّتي تَطيبُ بها الحياةُ، وهي البقاءُ والغِنى والعِزُّ، والأُخرويُّ أربعةُ أشياءَ: بقاءٌ بلا فناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعلمٌ بلا جهلٍ[9]. والمراد بالفلاح هنا: إدراكُ المطلوب[10].

12) ﴿زَكَّىٰهَا﴾: (زكي) أصلٌ يدلُّ على نماء وزيادة[11]، ومن ذلك يقال: زكا الزَّرعُ يزكو، أي: نما[12]، وسُمّيَتِ الزَّكاة بذلك؛ لأنَّها ممّا يُرجَى به زيادةُ المال ونماؤه، أو لأنَّها طهارةٌ له، وكلُّ شيءٍ يَزداد ويَسمَنُ فهو يزكو[13]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ [الكهف: 19] إشارةٌ إلى ما يكون حلالًا لا تُستوخم عُقباه[14]، وبزَكاء النَّفس وطَهارتها يَصير الإنسان بحيث يستحقُّ في الدُّنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرةِ الأجرَ والمثوبة، وهو أن يتحرَّى الإنسانُ من الطّاعاتِ ما فيه تطهيرُه[15]. وهو المراد هنا[16].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فجر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (فجر).
(4) الجوهري، الصحاح: (فجر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(7) الجوهري، الصحاح: (فلح).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(9) الراغب، المفردات: (فلح).
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكو).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة: (زكو).
(14) السمين، عمدة الحفاظ: (زكو).
(15) الراغب، المفردات: (زكو).
(16) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

13) ﴿خَابَ﴾: (خيب) أصلٌ يدلُّ على حرمانٍ وعدمِ فائدة[1]، ومن ذلك يقال: خاب يخيب خيبةً: لم يظفر بما طلبَ[2]، قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: 15]، وقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه: 61][3]، والخيّاب: القدح الَّذي لا يوري، والَّذي لا يفوز من السِّهام أيضًا[4]، وخيَّبَهُ اللّه: حرَمَهُ[5] وجعله خائبًا. والمرادُ بالخيبة هنا: الخسران[6].

14) ﴿دَسَّىٰهَا﴾: (دسس) أصلٌ يدلُّ على دخول الشَّيء تحت خفاءٍ وسرٍّ[7]، ومن ذلك يقال: دسَسْتُ الشَّيءَ في التُّراب أدسُّه: أخفيته فيه[8]، قال تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: 59][9]، ويقال: دسَّه إذا أدخَلهُ في الشَّيء بقهرٍ وقوَّة، والدَّسيس: إخفاء المكر[10]، والدَّسّاسة: حيَّةٌ صَمّاءُ تندَسُّ تحت التُّراب اندِساسًا، أي: تندَفِنُ فيه[11]. والمراد بـ ﴿دَسَّىٰهَا﴾: أضلَّها وأغواها بالمعاصي[12].

### ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسان مُعتِقٌ نفسَه أو موبِقُها

صُدِّرَت هذه السّورةُ بالقسَم؛ إذْ أقسَمَ اللّه تعالى بجملةٍ من المخلوقات، فيقول: والشَّمسِ وضوئِها، والقمرِ إذا تَبِعَها، والنَّهارِ إذا أضاءَ وغَشيَها، أو: وأزالَ الظُّلمةَ، واللَّيلِ إذا يغشَى الشَّمسَ حين تغيبُ فتُظلم الآفاقُ[13]، والسَّماءِ ومَن خلقَها ورفعَها وصيَّرَها للأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيب).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (خيب).
(3) الراغب، المفردات: (خيب).
(4) الخليل، العين: (خيب).
(5) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلام الناس: (خيب).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دسس).
(8) الجوهري، الصحاح: (دسس).
(9) الخليل، العين: (دسس).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (دسس).
(11) الزمخشري، أساس البلاغة: (دسس).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.
(13) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 410 - 411.

سقفًا، والأرضِ ومَن بسَطَها يمينًا وشمالًا ومن كلِّ جانب، ونفسٍ - وهي آدمُ أو كلُّ نفسٍ - ومَن خلقَها وعدَّل خَلْقها، فبيَّن لها ما ينبغي أن تأتيَ أو تذرَ من خيرٍ أو شرٍّ، أو طاعةٍ أو معصية؛ ثم أكَّد أهميَّة تزكيةِ النَّفس، وبيَّنَ فوزَ مَن زكَّى نفسَه، وطهَّرها من الكفر والمعاصي، وأصلحَها بالصّالحات من الأعمال، وخُسرانَ مَنْ غَويَ، فركبَ المعاصيَ، وتركَ طاعةَ اللّه[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالة افتتاح السّورة بالقسَم:

إقامةُ الأدلةِ على تمامِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرَتِه في الآفاقِ وفي الأنفُس

افتُتحتِ السّورة بهذه الأقسام المُتتابعة؛ لتأكيد مقصدِ هذه السّورة من حثِّ المشركين على الإيمانِ وتركِ الكُفرِ والعِصيان، وهم منكرون، فأُكِّد لهم الكلام، والمقصودُ بالتَّأكيد هو ما في سَوقِ الخبرِ من التَّعريض بالتَّهديد، والوعيدِ بالاستئصال[2]، وذلك بذِكرِ قصَّةِ ثمودَ وعَقرِهم النّاقةَ، واستئصالِ اللّه تعالى لهم؛ ليَعرِفوا أنَّ عاقبة الكُفرِ واحدة.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ افتتاحِ السّورةِ بالقسَم أنَّهُ سبحانهُ لمّا أثبتَ في سورةِ البلدِ أنَّ الإنسانَ في كَبَدٍ، وختمَها بأنَّ مَن حادَ عن سبيلِهِ كان في النّارِ المُؤصَدَة؛ أقسمَ أوَّلَ هذهِ السّورةِ على أنَّ الفاعلَ لذلك هو ﷻ؛ لأنَّهُ يَحولُ بين المرءِ وقلبِه، وقد أقسَمَ بما يدلُّ على تمامِ علمِهِ وشُمولِ قدرتِهِ في الآفاقِ؛ عُلْويِّها وسُفْليِّها، والأنفُسِ سَعيدِها وشَقيِّها؛ للحثِّ على العِلمِ بذلك، وعلى شكرِ النِّعم[3].

### بلاغةُ الإيجازِ في أسلوبِ القسَم في السّورة:

مراعاةُ تَناسُبِ فواصلِ السّورة من حيث القِصَر

في الأقسام المذكورة في السّورة إيجازٌ، وذلك باختيار الواو؛ لأنَّها

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 453 - 457.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 366.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 70.

يُطَّرَحُ معها إبرازُ الفعل اطِّراحًا كلّيًّا، فكان لها شأنٌ خلافُ شأن الباء؛ إذ أُبرِزَ معها الفعلُ وأُضمِر، فكانت الواوُ قائمةً مقامَ الفعلِ والباءِ سادَّةً مسَدَّهما معًا[1]، والتَّقدير: (أُقسِمُ والشَّمسِ وضُحاها ...)، وغرَضُ الحذفِ هو التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتناسُبِ الفواصلِ من حيث القِصَر.

### سرُّ القسَم بالشَّمس:

منافعُ الشَّمسِ كثيرةٌ عظيمة

أقسَمَ ﷻ بالشَّمس في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾؛ للتَّنبيه على عِظَمِ شأنها[2]، وتضمُّنِها للمنافع العظيمة؛ حتَّى يتأمَّلَ المكلَّفُ فيها ويشكرَ اللّه تعالى عليها؛ لأنَّ الَّذي يُقسِمُ اللّه تعالى به يحصُلُ له وقعٌ في القلب، فتكون الدَّواعي إلى تأمُّلِه أقوَى. ومن جملة ذلك: أنَّ أهلَ العالَم كانوا كالأموات في اللَّيل، فلمّا ظهَرَ أثرُ الصُّبحِ في المَشرِقِ صار ذلك كالصّوْرِ الَّذي يَنفُخُ قوَّةَ الحياة، فصارت الأمواتُ أحياءً[3].

### نكتةُ ابتداء الأقسام بالقسَم بالشَّمس:

حرُّ الشَّمس مُذكِّرٌ بنارِ الآخرة

ابتُدئتِ السّورة بالقسَم بالشَّمس قبلَ غيرِها من الأقسام؛ لِما فيها من مُلاءَمَةِ خاتمةِ سورةِ البلد؛ إذْ جاءَ فيها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد: 19 - 20]، والقسَمُ بالشَّمس مُذكِّرٌ بالنّار[4] بجامعِ الحرارةِ بينهما.

وممّا يُذكَرُ في نُكتةِ ابتداءِ الأقسامِ بالقسَم بالشَّمسِ، تسليَةُ رسولِ اللّه ﷺ عن إنكارِ المُنكِرينَ وكُفرِهم بأنَّ هذا الدّينَ سيَنتَشِرُ في العالمِ كانتشارِ نورِ الشَّمسِ في الأُفُق[5]. ولأنَّ الشَّمسَ أعظَمُ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 487.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 487.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 173 - 174.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 70.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

النَّيِّراتِ التي يصلُ منها نورٌ شديدٌ إلى الأرض؛ وفي هذا إشارةٌ إلى ظُهورِ الإيمانِ بعد الكُفر.

### دلالةُ تعريفِ الشَّمس:

الشَّمسُ المعروفةُ عظيمةُ الشَّأن

تعريفُ الشَّمس في قوله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ للعهد، ويُشيرُ إلى الشَّمس المعروفةِ التي تُشرقُ كلَّ يومٍ بحُكْمِ العادةِ الَّتي أجراها اللهُ تعالى في هذا الكون.

ويجوزُ أن تكونَ (أل) في الشَّمس للجنسِ باعتبارِ وُجودِ شُموسٍ مُتعدِّدة، وتكونُ الشَّمسُ المعروفةُ لنا إحدى هذه الشُّموس، وقد يبعُد هذا التوجيه بأمارة لفظ القمر وعود الضمير في ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على الشمس؛ وفي ذلك ترجيح لمعنى العهديّة؛ إذ الحديث عن الشمس المعهودة المعلومة بإشراقها، بوصفها آية للنهار المقابل للقمر، بوصفه آية الليل في النور.

### دلالة الواو في ﴿وَضُحَىٰهَا﴾:

ضوءُ الشَّمس مَبعثُ الحياة ومَجلَى الهداية

اختُلِفَ في دلالةِ الواو في قوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾، وما بعدَها من الواواتِ الواقعةِ بعد الفواصل؛ بينَ أن تكون للقسَم، أو هي للعطف؛ لأنَّ إدخالَ القسَم على القسَم قبلَ تمامِ الأوَّل لا يَجوز[1]. وعلى القول: إنَّ الثّانية للقسم؛ فالقسَمُ بضُحى الشَّمس - وهو ضوءُها وإشراقُها[2] - لِما فيه مِن زيادةِ المُبالغةِ في القسَمِ بالشَّمسِ، والمعنى: وضوئِها النّاشئَ عن جِرْمِها العظيمِ الشَّأنِ؛ فالمُقسَمُ به ليس مُطلَقَ الضَّوءِ، بل ضَوءها إذا أشرقَتْ وقامَ سُلطانُها كإشراقِ أنوارِ العُقول[3]، وهذا الضَّوء هو مبعَثُ الحياةِ ومَجلَى الهداية، فلا ترى حيًّا أو تُبصر ناميًا لولا ضياء الشَّمس.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 647 - 648.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72 - 73، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 545.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.

الـضَّـوءُ نتيجة ارتفاعِ الشَّمس

### سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (والضُّحى):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دونَ والضُّحى؛ لأنَّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ من إضافةِ الضُّحى إلى الضَّمير الرّاجع إلى الشَّمس في قول الباري ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ولأنَّه إنَّما يكونُ بارتفاعِ الشَّمس[1]. وممّا يُذكَر في إيثارِ الإضافةِ على أنْ يقال: (والضُّحى) رعايةُ تَلاؤُمِ الفواصل.

### سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (وضَوئِها):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (وضَوئِها)؛ لِأنَّ التَّعبيرَ بالضُّحى يَشمَلُ الضَّوءَ، ويَدُلُّ على شِدَّتِه إذا استَمكَنَ مِنَ الأرض؛ فالضُّحى تُطلَقُ إذا امتَدَّ النَّهارُ وقَرُبَ أن يَنتَصِف، ولِأنَّ التَّعبيرَ بها يَدُلُّ على وقتِ الضُّحى، ويَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ بالضُّحى (النَّهارَ)، ويَكونَ القَسَمُ بالشَّمسِ ونَهارِها، ولِكَونِ الضُّحى إشراقَ الشَّمسِ ووَقتَ قيامِ سُلطانِها، وهو مَقامُ تَمَدُّحٍ، يُقالُ: كأنَّ وجهَهُ شَمسُ الضُّحى. وهذهِ المَعاني لا تَتَأتَّى من التَّعبيرِ بالضَّوءِ؛ لذلك عَبَّرَ بقولِه: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾[2].

### دلالةُ الجَمْعِ في القسَمِ بينَ الشَّمسِ وضُحاها:

أقسَمَ ﷻ بالشَّمسِ وضُحاها لكثرةِ ما تعَلَّقَ بها من المَصالِح؛ فإنَّ أهلَ العالَمِ كانوا كالأمواتِ في اللَّيل، فلمّا ظهَرَ أثرُ الصُّبحِ في المَشرِق صارَ ذلك كالصّوْرِ الذي يَنْفخُ قوَّةَ الحياة، فصارَتِ الأمواتُ أحياءً، ولا تزالُ تلكَ الحياةُ في الازْدِيادِ والقوَّةِ والتَّكامُل، ويكونُ غايَةُ كمالِها وقتَ الضَّحوة؛ فهذهِ الحالةُ تشبهُ أحوالَ يوم القيامة، ووَقتُ الضُّحى يُشبِهُ استقرارَ أهلِ الجنَّةِ فيها.[3].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 286.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 193.

### نُكتة القسَمِ بالقمَر دونَ غيره:

القـمَـرُ شريفُ المَـنـزِلَـة كـثيرُ المَنَافع

أقسَمَ ﷻ بالقمَر في قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ دون النَّجمِ أو الكوكب؛ لتشريفِهِ والتَّنبيهِ على كثرةِ منافعه، ولمُلاءَمته القسَمَ بالشَّمس؛ فهي آيةُ النَّهار، وهو آيةُ اللَّيل، وهو مكتسَبٌ من نورِها، كما أنَّ أنوارَ النُّفوسِ من أنوارِ العُقول[1]. ولأنَّه الآيةُ المُقابلةُ لآيةِ الشَّمسِ، ونورُهُ مكتسَبٌ منها، وهو عندَ اكتمالهِ شديدُ الإنارةِ مثلُها، فيكونَ أعظمَ في الاستدلالِ على قُدرةِ اللّه تعالى، وأنسَبَ بالقسَم.

### دلالةُ تعريفِ القمر:

المُقسَمُ بـه هو القمَرُ المعروف

تعريفُ القمرِ في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ للعهد، وهو القمرُ المُنيرُ المعروفُ، وفي تعريفِه دعوةٌ للإيمانِ باللّه ﷻ؛ لأنَّه يُنيرُ ظَلامَ اللَّيلِ كما أنَّ الإيمانَ يُنيرُ القلوبَ؛ فهذا القمرُ الَّذي تُشاهدونَه وتعرِفونَه هو آيةٌ من آياتِ اللّه تَدُلُّ على إلهيَّته سبحانه.

### دلالةُ ﴿إِذَا﴾ في ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ وما بعدَها:

تقييدُ الأشياء بـهـا بـأعـظَـمِ أحوالِها

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾، وقوله: ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾، وقوله: ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾؛ في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّة، متعلِّقة بكونٍ هو حال من القمر، ومن النَّهار، ومن اللَّيل، فهو ظرفٌ مستقرٌّ، أي: مُقسِمًا بكلِّ واحدٍ من هذه الثَّلاثة في الحالة الدّالَّة على أعظم أحواله وأشدِّها دلالةً على عظيم صُنعِ اللّه تعالى[2].

وممّا يُذكَرُ في دلالة التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ في هذه المواضع دون غيرها؛ الإشارةُ إلى ثبوتِ هذه المظاهرِ الكونيَّة، وأنَّها محسوسةٌ ومشاهَدةٌ أمامَ أعيُنِ النّاظرينَ لِتستَنْطِقَهُمُ الإيمانَ باللّه ﷻ؛ لأنَّه لا يقدِرُ عليها إلّا هو.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

### سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَلَىٰهَا﴾ ماضيًا:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتُّلُوِّ في قوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لأنَّ التُّلُوَّ يعني المتابعة، يقال: (تلاه): (تبعَهُ متابعةً ليسَ بينهما ما ليسَ منهما)، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ إنَّما يُرادُ به هاهنا الاقتداءُ والمَرتبة، وذلك أنَّه فيما يُقال: (إنَّ القمرَ يقتبسُ النّورَ من الشَّمس، وهو لها بمنزلة الخليفة)[1]. يُؤكِّدُ هذا ما قالَهُ الزَّمخشريُّ في معنى ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ طالعًا عندَ غُروبها آخِذًا من نورِها[2]. وممّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالتُّلُوِّ، بيانُ أنَّ القمرَ يجيءُ بعدَ غياب الشَّمسِ في كلِّ وقت.

وجيءَ بالفعل ﴿تَلَىٰهَا﴾ ماضيًا؛ للتَّنبيه على تحقُّق هذه الصّورة البديعة - وهي تَلُوّ القمرِ الشَّمسَ - وكأنَّها ماثلةٌ أمامَ العَين، وهي حقيقةٌ ثابتةٌ مشاهَدةٌ تُنبئُ عن نظامٍ فلكيٍّ مُحكَمٍ بين حركةِ الشَّمس والقمرِ؛ كلٌّ منهما في فلكٍ يَسبَحون.

### سرُّ تقييد القسَم بالقمَر بـ ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾:

**تُـلُـوُّ القمـر الشَّمسَ محلُّ العِبْرة والتَّفكُّر**

قيَّدَ القرآنُ الكريمُ القسَمَ بالقمر بقوله ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لِأنَّ القمرَ يتبعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كثيرةٍ، منها استهلالُه؛ فالهلالُ يظهرُ للنّاظرينَ عقبَ غروبِ الشَّمسِ، ثم يبقى كذلك ثلاثَ ليالٍ، وهو أيضًا يتلو الشَّمسَ حينَ يُقارِبُ الابتدارَ، وحين يصيرُ بدرًا، فإذا صارَ بدرًا صارَ تَلُوُّهُ الشَّمسَ حقيقةً؛ لأنَّه يَظهرُ عندما تغربُ الشَّمسُ، وقريبًا من غروبها قبلَه أو بعدَه، وهو أيضًا يُضيءُ في أكثرِ ليالي الشَّهر، جعلَه اللهُ عِوَضًا عن الشَّمسِ في عدَّةِ ليالٍ في الإنارة، ولذلك قيَّدَ القسَم بحين تَلْوِه.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ تقييدِ القسَم بقوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛الإشارةُ إلى أن تَلْوَه للشَّمس حينئذٍ تظهَرُ منه مظاهرُ التّلو للنّاظرين، فهذا

(1) الراغب، المفردات: (تلو).

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 455.

الزَّمانُ مثل زمانِ الضُّحى في القسَم به، فكان بمنزلةِ قسَم بوقتِ تَلْوِه الشَّمسَ، فحصلَ القسَمُ بذاتِ القمرِ وبتَلْوِه الشَّمسَ. وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نورَ القمرِ مُستفادٌ من نورِ الشَّمسِ، أي: من توَجُّهِ أشعَّةِ الشَّمسِ إلى ما يُقابلُ الأرضَ من القمرِ، وليس نيِّرًا بذاتِه، وهذا إعجازٌ عِلميٌّ مِن إعجازِ القرآنِ[1].

وممّا يُذكر في دلالةِ التَّقييد بقوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أنَّهُ يَصدُقُ على حالَيْنِ: حالِ تَلّي طُلوعِه طُلوعَ الشَّمسِ أوَّلَ الشَّهرِ، والمرادُ طُلوعُ القمرِ وبُروزُه مِن الأُفُقِ وما يَليهِ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ لِمُدَّةِ ثلاثِ لَيالٍ يُرى فيها هِلالًا في اللَّيالي الأوَل.

وحالٍ بعدَ غُروبِها لَيلَةَ البَدْرِ، والمقصودُ لَيلَةُ الرّابعَ عَشَرَ من الشَّهرِ، وذلكَ لِمُقابَلَتِهِ للشَّمسِ وتَمامِ نورِهِ المُستفادِ منه، والبُعدُ بَيْنَهُما نِصفُ دورِ الفَلَكِ؛ فإذا غَرَبَت طَلَعَ القمرُ مِن الأُفُقِ الشَّرقيِّ، وبالعكسِ في أكثرِ الأوقاتِ[2].

### بلاغةُ المجازِ في إسنادِ ﴿تَلَىٰهَا﴾ إلى القمر:

ظُهورُ ضوءِ القمرِ بعد مَغيبِ ضوءِ الشَّمس

المرادُ بتَلْوِ القمَرِ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾: أنَّ ضوءَهُ يَتبَعُ ضوءَها، أي: إذا ظهَرَ بعدَ مَغيبِها، فكأنَّهُ يَتبَعُها في مكانِها، و"المرادُ بالتَّلْوِ: التَّلُوُّ في المرتبةِ لا في الطُّلوعِ في الزَّمانِ المُتأخِّرِ عن طُلوعِها، وعلى هذا يكونُ التَّلُوُّ مَجازًا عن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ"[3].

### دلالةُ ذِكْرِ (النهار) بعد الشَّمسِ والقمر:

لمّا ذكرَ الآيتين ذكرَ ما هُما آيَتاهُ، وبدأ بهما، وأنَّه لا صلاحَ له إلّا بهما كما أنَّه لا صلاحَ للبدَنِ إلّا بالنَّفسِ والعقل؛ فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ الذي هو محلُّ الانتشارِ في ما جرَت به الأقدارُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 366 - 367.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 237.
(3) حاشية ابن التمجيد على هامش حاشية القونوي 20/ 237.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.

### نُكتة القسَم بالنَّهار:

النَّهارُ من آياتِ اللهِ ونِعَمِهِ الكُبرى

أقسَمَ ﷺ بالنَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّه محلُّ انتشار ضوء الشَّمس[1] وإظهارها، وذلك عندَ انتفاخِ النَّهارِ وانبساطِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى تعظيم أمرِ الضّياءِ وإعظام قَدْرِ النِّعمةِ فيه، ولَفْتِ أذهانِنا إلى أنَّهُ من آياتِ اللّه الكبرى، ونِعَمِه العُظمى[2]؛ لأنَّه محلُّ أسباب توفيرِ المعيشةِ في الغالب للإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ القَسَم بالنَّهارِ، تَوبيخُ المُشركينَ وتَبكيتُهم لإشراكِهم باللّه وعِبادتِهم الأصنامَ التي لا تَقدِرُ على إيجادِ الضَّوْءِ فضلًا عن إيجادِ النَّهارِ.

### دلالةُ تعريفِ (النَّهار):

تعظيمُ النَّهارِ وتفخيمُ شأنه

تعريفُ (النَّهار) في قول الحقِّ جلَّ مِن قائل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ للجنس المستغرِق لجميع أفرادِه دونَ تخصيص نهارٍ معيَّن؛ فكلُّ نهارٍ آيةٌ من آياتِ اللّه، ونعمةٌ عظيمةٌ على عِبادِه، ودليلٌ على قُدرتِه ووَحدانيَّتِه.

### سرُّ التَّعبير بالنَّهار دون الصُّبح:

انبساطُ النَّهارِ أنسَبُ بتجلية الشَّمس

عبَّر بالنَّهار دون الصُّبحِ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ الصُّبحَ أوَّلُ النَّهار، وهو وقتُ احمرارِ الأُفقِ بحاجب الشَّمس[3]، والقَسَمُ بالنَّهارِ كاملًا أبلَغُ وأحسَنُ؛ إذ تَجليةُ النَّهارِ للشَّمس إنَّما تَظهَرُ حَقَّ الظُّهورِ عندَ انبساطِ النَّهارِ واتِّساعِه، والصُّبحُ لا يَفي بذلك؛ فالنَّهارُ يُظهِرُ الشَّمسَ بحِلْيَةٍ عظيمةٍ بَعضُها أعظَمُ مِن بَعضٍ باعتبارِ الطّولِ والقِصَرِ، والصَّحوِ والغَيْمِ، والضَّبابِ والصَّفاءِ والكَدَرِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 71.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 480، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 67!.
(3) الراغب، المفردات: (صبح).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.

### دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ ماضيًا:

تجليةُ النَّهار للشَّمس آيةٌ معلومةٌ لا يُنكِرُها إلّا الجاحِدون

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالتَّجليةِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ دون الإظهار؛ لأنَّ التَّجلية أخَصُّ من مُطلَق الإظهار، وجيء بصيغةِ الماضي في قوله تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لِلتَّنبيهِ على تَحقُّق هذه الآيةِ العظيمةِ، وهي تَجليةُ النَّهارِ للشَّمسِ، والتَّنبيهِ على أنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ مُشاهَدةٌ، وقد شاهَدَها ويُشاهِدُها كلُّ عاقلٍ بَصيرٍ. فالإشارةُ إلى أنَّ تَجليةَ النَّهارِ للشَّمسِ نِظامٌ كونيٌّ مُحكَمٌ قَدَّرَهُ اللّه أزلًا لاستقرارِ النِّظامِ الكونيِّ، ولتيسيرِ أسبابِ المَنفعةِ لِلناسِ.

### نُكتةُ صيغةِ التَّضعيفِ في ﴿جَلَّىٰهَا﴾:

إظهارُ النَّهارِ ضوءَ الشَّمسِ حدثٌ عظيم

جيءَ بصيغةِ التَّضعيفِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ للمبالغة في هذا الحدَثِ الكونيِّ العظيم، وهو إظهارُ النَّهار للشَّمس، بحيث يملأ شعاعُها الآفاقَ، ويُنيرُ الدُّنيا.

وفي التَّعبير بالتَّضعيف إشارةٌ إلى السَّعة والامتداد في تجليةِ الشَّمسِ في امتدادِ الكُرةِ الأرضيَّة مع اختلافِ مَواقِعِها من ناحيةِ الشُّروقِ والغُروب.

### دلالةُ الإضمارِ دونَ الإظهارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾:

النَّهارُ مُجَلّي الشَّمسِ على الأظهَر

آثرَ التَّعبيرَ بالإضمار دونَ الإظهارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ لتعدُّدِ المُرادِ بالضمير؛ فيَجوزُ أن يَعودَ على الشَّمسِ؛ لأنَّه عندَ انبساطِ النَّهارِ تَنجَلي الشَّمسُ في ذلك الوقتِ تَمامَ الانجلاءِ. ويَحتَمِلُ أن يَعودَ على الظُّلمةِ، أو على الأرضِ، أو على الدُّنيا، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ، يقولون: أصبَحَت باردةً، يُريدون الغَداةَ، وأرسَلَت، يُريدون السَّماءَ لِلعِلم بها.

ومن دلالةِ الإضمارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ تعدُّدُ المُرادِ بالفاعل؛ فيجوزُ أن يعودَ على النَّهار، ويحتملُ أن يكون عائدًا على اللّه تعالى، والتَّقدير: والنَّهارِ إذا جلَّى اللّه الشَّمسَ[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.

### بلاغةُ المَجاز في إسنادِ التَّجليةِ إلى النَّهار:

انجلاءُ الشَّمسِ يكونُ عندَ انبساطِ النَّهارِ

أُسندتِ التَّجليةُ إلى النَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّه لمّا كانَ جلاءُ الشَّمسِ واقعًا في النَّهار، وأُسنِدَ فِعلُ التَّجليةِ إليه، كانَ ذلكَ من باب الإسنادِ المَجازيِّ كالإسنادِ في نحو: صامَ نهارَه[1]، ويكونُ المعنى: والنَّهارِ إذا جلَّى الشَّمسَ، أي: أظهَرَها؛ فإنَّها تنجلي وتظهَرُ إذا انبسَطَ النَّهارُ ومضَى منه مدَّة.

### بلاغةُ تقييدِ القسَمِ بالنَّهارِ بوَقتِ التَّجلية:

وقتُ التَّجليةِ هو وقتُ كمالِ النَّهارِ والانتفاعِ فيه

تقييدُ القسَم بالنَّهار في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ بقيدِ وقتِ التَّجلية؛ إدماجٌ للمِنَّة في القسَم[2]؛ إذْ بهذه التَّجليةِ تظهَرُ الأشياءُ وتتمايز، ويستعينُ النّاسُ بذلك على إقامة مصالح دنياهُم وقضاءِ حوائجِهم. وهذا القيدُ أيضًا قسَمٌ بالنَّهارِ في أكمَلِ حالاته[3]، وبيانٌ للحالة الَّتي ينطقُ فيها النَّهارُ بتلكَ الحكمةِ الباهرة، والآيةِ الظّاهرة، وهي حالةُ الصَّحو، أمّا يومُ الغيمِ الَّذي لا تظهَرُ فيه الشَّمسُ فحالُهُ أشبَهُ بحالِ اللَّيل[4].

### نُكتةُ القسَمِ باللَّيل بعد النَّهار:

اللَّيلُ وقتُ الرّاحةِ والسُّكون

القسَمُ باللَّيل في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ بعدَ القسَم بالنَّهار فيما سبَقَ، فيهِ تَشريفٌ له، وتَنبيهٌ على عَظيمِ خَلقِه وكثرةِ مَنافِعِه الدّالَّةِ على تَعظيم اللَّه تعالى؛ فاللَّيلُ مَحلُّ السُّكونِ والانقِباضِ، فيكونُ لِباسًا للنّاسِ، وظَرفًا لِراحتِهم واستعادةِ قواهم؛ ليواصِلوا أعمالَهم في النَّهارِ، ولو جُعِلَ عليهمُ النَّهارُ سَرمدًا لَما طابَ لهم عَيْشٌ، ولا استقرَّت لهم حياةٌ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 367.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 367.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.

﴿عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 72].

### دلالةُ تعريفِ (اللَّيل):

كلُّ ليلٍ في الكرة الأرضيَّة مُندرجٌ ضمنَ القسَم

تعريفُ (اللَّيلِ) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميع أفراده، فالجِنسُ المُسمَّى باللَّيلِ كثيرُ المَنافِع، وفي كُلِّ فردٍ من أفرادِه دليلٌ من دَلائلِ قُدرةِ اللّه تعالى، وتَنبيهٌ على أنَّ انتظامَ العالَمِ بيدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيه إشارةٌ إلى اندِراجِ كُلِّ لَيلٍ في الكُرَةِ الأرضيَّةِ تحتَ هذا المُسمَّى لِوُجودِ اللَّيلِ في نِصفِ الكُرَةِ الأرضيَّةِ تقريبًا ويُقابلُه النَّهارُ، ووُجودِ النَّهارِ في النِّصفِ الآخَرِ ويُقابِلُه اللَّيلُ؛ فالتَّعريفُ شامِلٌ لَهما.

### سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ مضارعًا:

اللَّيلُ يُذهِبُ الضِّياءَ شيئًا فشيئًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّغشيةِ دون التَّغطيةِ في قوله: ﴿يَغْشَىٰهَا﴾؛ لأنَّ التَّغشيةَ أخصُّ من التَّغطية، فهيَ تَغطيةٌ مُبالَغٌ فيها، ولِذلك كانت الغاشيةُ من أسماءِ يوم القيامة، وقد عُبِّرَ بالتَّغشيةِ هنا للدَّلالةِ على المُبالغةِ في تَغطيةِ اللَّيلِ للشَّمس؛ بحيثُ يذهبُ ضوءُها حين تغيبُ، فتمتدُّ ظلالُ الأرضِ على وجهِها المُماسِّ لنا، فيأخذُ الأفقُ الشَّرقيُّ في الإظلام، ويمتدُّ ذلك الظَّلامُ بحسب طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه[1].

وعُبِّرَ بالمضارع، ولم يُعبَّر بالماضي كما في النَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ لا يُذهِبُ الضّياءَ مرَّةً واحدةً، بل شيئًا فشيئًا، ولا ينفكُّ عن نور، بخِلافِ النَّهار؛ فإنَّه إذا أبدَى الشَّمسَ، ولم يكُن غَيْمٌ ولا كَدَرٌ؛ جلَّى الشَّمسَ في آنٍ واحدٍ، فلم يبقَ معهُ ظَلامٌ بوَجه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ التّعبيرِ بالمُضارعِ في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾؛ التّنبيهُ على استواءِ الأزمنةِ عنده تعالى، أو لأنَّ المُرادَ باللّيلِ الظُّلمةُ الحادثةُ بعدَمِ الضّوءِ لا العَدَمِ الأصليِّ والظُّلمةِ الأصليَّة؛ فإنَّ هذه أظهَرُ في الدَّلالةِ على القُدرةِ، وهي مُستقبَلةٌ بالنِّسبةِ لِما قبلَها، فلا بُدَّ مِن تَغييرِ التّعبيرِ؛ ليَدُلَّ على المراد[1]. أو لقلَّةِ أوقاتِ الظُّلمة، والمضارعُ يُفيدُ لحاقَ الشّيءِ وعروضَهُ متأخِّرًا عمّا هو أصلٌ في نفسه، أمّا النَّهارُ فإنَّه يُجلّي الشّمسَ دائمًا من أوَّلِهِ إلى آخره، وذلك شأنٌ لهُ في ذاتِه، ولا ينفكُّ عنه إلّا لعارِضٍ، كالغيمِ أو الكُسوفِ قليلِ العُروض، ولهذا عُبِّرَ في جانبِهِ بالماضي المُفيدِ لوقوعِ المعنى من فاعله، بدونِ إفادةِ أنّه ممّا ينفكُّ عنه[2]. ولم يقُلْ غشّاها أيضًا؛ لأنَّهُ يَحتاجُ إلى حذفِ أحدِ المَفعولَينِ لتعَدّيهِ إليهما؛ فإنَّه يُقال: غشَّيتُه كذا[3].

ومِمّا يُذكرُ في دَلالةِ التّعبيرِ بالمُضارِعِ، رِعايةُ الفاصِلةِ؛ لأنَّ الفواصِلَ في هذهِ السّورةِ تَرَتَّبَت على ألفٍ وهاءٍ للمُؤنَّث، ولو أُتيَ بالماضي - كالَّذي قبلَه وبعدَه - لَكان يكونُ التَّركيبُ: إذا غَشيَها، فتَفوتُ الفاصِلةُ؛ وهي مقصودة[4].

### دلالةُ الإضمارِ دونَ الإظهارِ في قولِهِ: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾:

الإضمار لتكوين صـورة واسعة لكل الموجودات التي يغشاها اللّيل، ومنها الشّمس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرُ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ لأنَّ مرجعَ الضّميرِ في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ متعدِّدٌ، فيحتملُ أن يعودَ للشّمس، والمعنى: واللّيلِ إذا يغشى الشّمسَ، فبدُخولهِ تغيبُ، وتُظلِمُ الآفاقُ[5]. ويحتملُ أن يعود على الدُّنيا، والمعنى: يغشى الدُّنيا بالظّلام، فتُظلمُ الآفاقُ، فالضّميرُ راجعٌ إلى غيرِ مذكورٍ[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 358.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 30/ 141.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 486/ 10.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.

والَّذي تقتضيه الفصاحةُ أنَّ الضَّمائرَ كلَّها إلى قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ عائدةٌ على الشَّمس، وكما أنَّ النَّهارَ جلّاها كان النَّهارُ هو الَّذي يغشاها، وهذه الأقسامُ بالشَّمس في الحقيقة بحسب أوصافٍ أربعة: ضوئِها عند ارتفاعِ النَّهار وقتَ انتشارِ الحيوان وطلبِ المعاش، وتَلْوِ القمرِ لها بأخذِهِ الضَّوءَ، وتكامُلِ طُلوعِها وبُروزِها، وغَيبوبَتِها بمجيء اللَّيل، ومَن تأمَّلَ قليلًا في عظَمَةِ الشَّمس، ثمَّ شاهدَ بعَينِ عَقلِهِ فيها أثرَ المَصنوعيَّةِ والمَخلوقيَّة، من المِقدارِ المُتناهي، والتَّركُّبِ من الأجزاء؛ انتقلَ منهُ إلى عظَمَةِ خالقِها؛ فسبحانه ما أعظمَ شأنَه[1].

### بلاغةُ المَجازِ في إسنادِ التَّغشيةِ إلى اللَّيل:

الـلَّـيـلُ زمـنُ الـتَّـغـشـيـةِ أو مُسبِّبُها

تظهرُ بلاغةُ المجازِ في إسنادِ التَّغشيةِ إلى اللَّيل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ والمعنى: واللَّيلِ إذا يغشَى الشَّمسَ، فبدُخوله تغيبُ، وتُظلِمُ الآفاقُ، ونسبةُ ذلك إلى اللَّيل مجازٌ[2]؛ فاللَّيلُ ليس بمُغَطٍّ للشَّمس على الحقيقة، ولكنَّه مُسبَّبٌ عن غَشْيِ نِصْفِ الكرةِ الأرضيَّة لقُرصِ الشَّمس ابتداءً من وقتِ الغروب، وهو زمنٌ لذلك الغَشْيِ، فإسنادُ الغَشْيِ إلى اللَّيل مجازٌ عقليٌّ، من إسنادِ الفعلِ إلى زَمنِهِ أو إلى مُسبَّبِه بفتح الباء، والغاشي في الحقيقة هو تكويرُ الأرض ودوَرانُها تجاهَ مظهَرِ الشَّمس، وهي الدَّورة اليوميَّة[3].

### نُكتةُ تقييدِ القسَم باللَّيل بوقتِ التَّغشية:

فـي حُـدوثِ الظُّـلـمـةِ بعد الـنّـورِ عِـبْـرةٌ عظيمة

تقييدُ القسَم باللَّيل بوقتِ تغشيَتِهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾؛ تذكيرٌ بالعِبرَة بحُدوث حالةِ الظُّلمَةِ بعدَ حالةِ النّور[4]. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللَّيل يطرأ على الشَّمس فيُذهب ضوءَها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 175، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 358.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

ويُحيلُ نورَ العالَمِ ظلامًا، فهو على جليلِ نفعِهِ وعظيمِ فائدَتِهِ لا يُتَّخَذُ إلهًا؛ لأنَّ الإله لا يَحول ولا يَزول، ولا يَعتريهِ تغيُّرٌ ولا أُفول؛ وفيه رَدعٌ وتأنيبٌ للمشركين على تأليهِهِ وعِبادته(1).

**بلاغةُ ترتيبِ الأقسامِ المذكورة:**

**الإســـلامُ نــورٌ وهدًى للعالمين**

ابتُدِئ بالشَّمس في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لمُناسبةِ المَقام إيماءً للتَّنويه بالإسلام؛ لأنَّ هَدْيَهُ كنور الشَّمس لا يترُكُ للضَّلال مسلكًا، وفيه إشارةٌ إلى الوعد بانتشارِهِ في العالم كانتشار نورِ الشَّمس في الأُفق، وأُتبِعَ بالقمر في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لأنَّه يُنير في الظَّلام كما أنارَ الإسلامُ في ابتداء ظُهورِهِ في ظُلمة الشِّرك، ثم ذُكِرَ النَّهارُ واللَّيلُ معه في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾؛ لأنَّهما مَثَلٌ لوضوحِ الإسلام بعدَ ضلالةِ الشِّركة(2).

وممّا يُذكَر في بلاغةِ ترتيبِ الأقسام المذكورة أنَّ هذه الأقسامَ الأربعةَ ليستْ إلّا بالشَّمس في الحقيقة، لكنْ بحسَبِ أوصافٍ أربعة: أوَّلُها: الضَّوءُ الحاصِلُ عندَ ارتفاعِ النَّهار، وهو الوقتُ الَّذي تكتملُ فيه مصالحُ العبادِ في المَعاش، وثانيها: تَلُوُّ القمرِ لها، وأخذُه الضَّوءَ عنها، وثالثُها: تَكامُلُ طُلوعِها وبُروزِها بمَجيءِ النَّهار، ورابعُها: وجودُ خلافِ ذلك بمَجيءِ اللَّيل، وكلُّ ذلك يدلُّ على عَظَمةِ خالِقِها ﷻ(3).

**نُكتةُ القسَم بالسَّماء بعد الأقسامِ السّابقة:**

**التَّرقّي في كمالِ الخَلْقِ وعجائب الصَّنعة**

بعدَما ذكرَ ﷻ آيتي الشَّمس والقمر، وذكرَ محلَّ أثرِهما - وهو النَّهار واللَّيل - ذكرَ محلَّ الكلِّ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، أي: الَّتي هي محلُّ ذلك كلِّه، كما أنَّ الأبدانَ محلُّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 194.

النُّفوس، والنُّفوس مَركَبُ العقول[1]. وفي القسَم بالسَّماء تنبيهٌ على عجائب الصَّنعة فيها[2].

وممّا يُذكرُ في سِرِّ القَسَم بالسَّماءِ بعدَ الأقسامِ السّابقة، أنَّه سبحانه لمّا وصَفَ الشَّمسَ بالصِّفاتِ الأربعةِ الدّالَّةِ على عَظَمَتِها أتْبَعَ ذلك ببيانِ ما يدلُّ على حُدوثِها، وحُدوثِ جميعِ الأجرامِ السَّماويَّة؛ فنَبَّهَ بهذا على أنَّ الخالقَ هو الله، ولا يجوزُ أن تُعبَدَ من دونِه[3].

### دلالةُ تعريفِ السَّماء وإفرادِها:

جـمـيـعُ السَّماوات محلُّ عِبْرة

تعريفُ السَّماء في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ للجنس الشّامل لجميع أفراد السَّماوات، فهي كلُّها محلُّ عِظَةٍ وعِبرة، ودليلٌ باهرٌ على قُدرته تعالى. وإنَّما أوثِرَ الإفرادُ على الجمع؛ لموافقةِ إفرادِ الأرض، ولدلالةِ تعريفِ الجنسِ على إرادةِ جميعِ السَّماوات.

### دلالةُ الواو في ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾:

ذِكرُ المبدِعِ بعد ذِكرِ آثارِ إبداعِه

الواو في قوله تبارك شأنه: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ للقسَم، فتفيدُ أنَّ (ما بناها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياء المعظَّمةِ بهذا القسَم. ومن لطائفِ القسَم بـ ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ على أنَّ (ما) موصولةٌ كما هو الظّاهر: أنَّه لمّا كانت السَّماءُ والأرضُ ثابتتين حتى ظنَّ مَن ظنَّ أنَّهما قديمتان؛ ذُكِرَ مع الإقسام بهما بانيهما ومُبدِعُهُما[4].

### سِرُّ التَّعبيرِ بـ (ما):

مُـبـدِعُ السَّماء عظيمُ الشَّأن

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ لتعدُّدِ معناها؛ فيجوزُ أن تكون مصدريَّةً والتَّقدير: السَّماءُ وبُنيانها، ويجوزُ أن تكون موصولةً مَعَ أنَّها في الأصل موضوعةٌ لِما لا يَعقل، وإنَّما أوثِرَت على (مَنْ) الموضوعة لِما يَعقل؛ لإرادة معنى الوصفيَّة؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 195.
(4) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 19.

لقصدِ التَّفخيم كأنَّه قيل: والقادرِ العظيمِ الشَّأنِ الَّذي بَناها، ودلَّ على وجودِه وكمالِ قُدرتهِ بناؤُها[1].

ويجوزُ أن يكون التَّعبيرُ بها على أنَّها بمعنى (من)، وتقديرُ الكلام: ومَن بَناها، كما وردَ ذلك في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: 3]، ويكونُ توجيهُ ذلك على معنى المصدريَّة؛ كأنَّه قال: والسَّماء ومَنْ بَناها.

وذكرَ ابنُ عطيَّة أنَّ (ما) في الآية مُحتملةٌ للقولين، وعلَّلَ ذلك بأنَّ (ما) تقعُ عامَّةً لِمَنْ يَعقِلُ ولِمَنْ لا يَعقِل؛ فيَجيءُ القسَمُ بنفسِه تعالى.

ويجوزُ أن يكونَ إيثارُ (ما)؛ لأنَّ الخِطابَ موَجَّهٌ إلى قوم لا يَعرفونَ اللّه بجليلِ صِفاته، والقصدُ منه أن يَنظُروا في هذا الكونِ نظرةَ مَن يطلُبُ للأثر مؤثِّرًا، فينتقلوا من ذلك إلى معرفتهِ تعالى، فعبَّرَ تعالى عن نفسِه بلفظ (ما) الَّتي هي الغايةُ في الإبهام[2].

واصطفاءُ (ما) أيضًا لبيانِ جَهْلِ المُشركين في مساواتهِم الخالقَ بالمخلوق؛ فجعلوا له شريكًا منَ الجَماداتِ الَّتي عبَدوها معَ ما لهُ من صفاتِ الكمالِ الَّتي ليسَ لغيره ما يُداني شيئًا منها، زجرًا لهم بالإشارةِ والإيماءِ عن ذلك[3].

### سِرُّ التَّعبير بفِعل البناءِ ماضيًا:

خلقُ السَّماءِ مُحكَمٌ مُتقَن

في التَّعبير بالبناء في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ تشبيهٌ لرفعِ السَّماء فوق الأرض بالبناء[4]، أي: ومَن رفعَها، وصيَّرَها بما فيها من الكواكب كالسَّقف أو القُبَّة المحكَمة الزِّينةِ المحيطة بنا[5]. وفي ذلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72 - 73.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481.

إشارةٌ إلى ما انطوَى عليه رَفعُها وتسويتُها من بارعِ الحِكمةِ وتَمام القُدرة، وأنَّ لها صانعًا حكيمًا قد أحكَمَ وضعَها، وأجادَ تَقديرَها، فإنَّه شَدَّ هذه الكَواكِبَ بعضَها إلى بعضٍ بِرباطِ الجاذبيَّةِ العامَّة كما تُربَطُ أجزاءُ البناءِ الواحدِ بما يوضَع بينها حتَّى يتماسك[1]. وفي لَفظِ البناءِ إشارةٌ إلى ما اكتشفَه العُلماءُ من وُجودِ مخلوقاتٍ في هذا الفضاءِ لها دَورٌ أساسيٌّ في استِقرارِ النِّظامِ الكَونيِّ، وليس كما كان يُقالُ قَديمًا بوجودِ فراغٍ بين السَّماءِ والأرض.

خلقُ السَّماءِ آيةٌ مشاهَدةٌ لكلِّ بصير

وجيءَ بفِعلِ البناءِ على صيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ خَلقَ السَّماءِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومَضى قبل خَلقِهم بأزمنةٍ مُتطاولةٍ، وهو آيةٌ ثابتةٌ في الآفاقِ يُعاينُها كلُّ بَصيرٍ، ويَعتَبِرُ بها كلُّ عاقلٍ حَكيم. وفي التَّعبيرِ بالماضي أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ خَلقَ السَّماءِ دليلٌ على وحدانيَّته، وفى ذلك تَوبيخٌ للمُشركين لِعِبادتِهم الأصنامَ التي لا تَملِكُ من أمرِهم شيئًا.

### سِرُّ تقديم القسَم بالسَّماءِ على الأرض:

طَحوُ الأرضِ كان بعدَ بناءِ السَّماء

تقديمُ القسَم بالسَّماء وما بناها على القسَم بالأرض وما طَحاها؛ لأنَّ طحوَ الأرضِ متأخِّر عن بناء السَّماء، بدليل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: 27 - 30][2].

ولا تعارُضَ في تقديمِ القسَم بالسَّماءِ على الأرض مع بعض الآيات التي تُفيد تقديمَ الأرض على السَّماء؛ لأنَّ اللّٰه تعالى خلقَ الأرضَ أوَّلًا قبلَ السَّماء غيرَ مَدحوَّة؛ ثمَّ استوَى إلى السَّماء فسَوّاهُنَّ سبعًا في يومين، ثمَّ دحا الأرضَ بعد ذلك، وجعلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ، وغيرَ ذلك؛ فدَحْوُ الأرضِ وطَحْوُها بعَد خلقِ السَّماء[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 368.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 176.

(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 10/ 14.

### بلاغةُ القسَمِ بالأرض:

تعظيمُ شأنِها والتَّنبيهُ على بعضِ عجائبِ صُنعها

القسَمُ بالأرض في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ لتعظيم شأنِها وتفخيمِه، والتَّنبيهِ على ما فيها من عجائبِ الصَّنعةِ الدّالَّة عليه[1]. ومن لطائفِ هذا القسَم: الإشارةُ إلى العالمِ السُّفليِّ بعدَ الإشارة إلى العالمِ العُلويِّ[2].

### دلالةُ تعريفِ (الأرض):

الأرضُ كلُّها من مخلوقاتِ الله العجيبة

تعريفُ (الأرضِ) في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميع أفرادِها، فهي كلُّها عظيمةُ الشَّأن، كثيرةُ المنافع، وفيها دليلٌ ظاهرٌ على قُدرةِ اللّه ﷻ.

### سرُّ إفرادِ (الأرضِ) دون جَمعِها:

ألفاظُ السّورة خفيفةٌ على اللِّسان

أُفرِدَت (الأرضُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ لأنَّها عالَمٌ واحدٌ، ولأنَّ جَمعَها: (أرَضونَ) و(أرَضاتٌ) و(أُروضٌ)، والنُّطقُ بِه ثقيلٌ، ولهذا لمّا أُريدَ ذِكرُ جمعِ الأرَضينَ، قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12]، وللإشارةِ إلى أنَّ الأرضَ تختلفُ عن السَّماءِ في طبقاتها؛ فطوابقُ السَّماءِ مُتعدِّدةٌ وظاهرةٌ؛ بخِلافِ الأرض.

### دلالة الواو في ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾:

تعظيمُ المخلوقِ تمهيدٌ لتعظيمِ الخالق

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ للقسَم، فتُفيدُ أنَّ (ما طحاها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياءِ المُعظَّمة بهذا القسَم؛ لأنَّ الواوَ من معانيها الجَمعُ، والمرادُ جَمعُ هذه الأشياءِ المُقسَم بها معَ بعضِها، ومن لَطائفِ هذا القَسَم: الانتقالُ من تَعظيمِ المخلوقِ إلى تَعظيمِ الخالِق، وما تَعظيمُ المخلوقِ إلّا وسيلةٌ لِتَعظيمِ خالِقِه.

### سِرُّ التَّعبيرِ بـ (ما) دون (من) في ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 75.

العظيم سبحانه باسطُ الأرض

﴿طَحَىٰهَا﴾ لتعدُّدِ معناها؛ فيحتملُ أن تكون مصدريَّةً والمعنى: وطَحْوِها[1]، فيكونُ القسَمُ بأمرٍ من آثارِ قُدرةِ الله تعالى، وهو تسويتُهُ الأرضَ[2]، ويحتملُ أن تكون موصولةً، وهي في الأصلِ موضوعةٌ لِما لا يَعقِل، وإنَّما أوثِرَت على (مَنْ) الموضوعةِ لِما يَعقِل؛ لإرادةِ معنى الوصفيَّة، كأنَّه قيل: والشَّيءِ القادِرِ الَّذي بَسَطَها، ودلَّ على وُجودِه وكمالِ قُدرَتِه بسطُها[3].

### سِرُّ التَّعبيرِ بالطَّحْوِ فِعلًا ماضيًا:

طَحْوُ الأرضِ آيةٌ ظاهرةٌ منذ أزمانٍ مُتطاولة

آثرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿طَحَىٰهَا﴾ دون غيره؛ لأنَّه لفظٌ يدلُّ على معنى البسط؛ أي: بسَطَها، وهو أعمُّ من الدَّحو؛ لأنَّ المُرادَ من قوله: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ الذي بسَطَها من كلِّ جانب، وهذا ما عليه جمهورُ المُفسِّرين[4].

وجيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ طحوَ الأرض أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى قبلَ خَلقِهم بأزمنةٍ متطاولة، وهو آيةٌ مُثبَتَةٌ في الآفاق، لا تَخفَى على ذي عَقلٍ وبَصيرة. وفيه أيضًا الإشارةُ إلى كمالِ الطَّحو، وأنَّ الأرضَ وُضِعَ فيها كلُّ احتياجاتِ البَشر مع كَثرتِهم وازديادِ أعدادِهم قبلَ أن يُخلَقوا، ولا يكون ذلك إلّا من العَليم الخَبير.

### نُكتة القسَم بالنَّفس في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

عظَمَةُ تسويةِ الأنفُسِ في الدَّلالةِ على الله تعالى

أقسَمَ المَولَى سبحانه بالنَّفسِ في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ لتعظيمها وتشريفها، ولِما فيها من عجائبِ الصَّنعةِ الدّالَّة عليه ﷻ[5]. وفي القسَمِ بها أيضًا بعد الأقسام السّابقة استدلالٌ على

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 449.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.

الغائب بالشّاهد، والشّاهدُ ليس إلّا العالَم الجسمانيَّ؛ وهو قسمان: بسيط، ومركَّب، والبسيطُ قسمان: العلويَّةُ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والسُّفليَّةُ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والمركَّبُ هو أقسام، وأشرَفُها ذواتُ الأنفُسِ، وإليه الإشارة بهذه الآية(1).

**نكتةُ تنكير لفظ (نفس):**

عَظَمَةُ شأنِ نفسِ آدمَ عليه السلام

آثرَ القرآنُ تنكيرَ النَّفسِ في قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ دون تعريفِها كما سبقَ مع الأقسام السّابقةِ للتَّفخيم، على أنَّ المُرادَ نفسُ آدمَ عليه السلام، كأنَّه قيل: وواحدةٍ من النُّفوس.

أو للتَّكثيرِ كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير: 14]، وذلك لأنَّ الحيوانَ أنواعٌ لا يُحصي عددَها إلّا اللّه، ولكلِّ نوعٍ نفسٌ مخصوصةٌ متميِّزةٌ عن سائرها بالفضل المقوِّم لماهيَّته، والخَواصِّ اللّازمةِ لذلك الفصل، فمَن الذي يُحيط عقلُه بالقليل من خواصِّ هذا الحيوان، فضلًا عن التَّوغُّل في بحارِ أسرارِ اللّه سبحانه وتعالى. والتَّكثيرُ هو الأنسبُ بما بعده(2) من الآيات لِما فيها من الأوصاف التي لا تكون إلّا للجنس، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ كيف يقتضي التَّغايرَ في المزكّي وفي المُدَسّي(3).

**براعةُ إيثارِ إفرادِ النَّفسِ على جمعِها:**

تسويةُ النُّفوسِ مَهما كَثُرَتْ يسيرةٌ على الله تعالى

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإفراد في النَّفس دون جَمعِها في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾؛ لاحتمالِ أن يكونَ المُرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام، وعلى هذا؛ فإفرادُها ظاهر، وإنْ كان المرادُ بها جميعَ النُّفوس - بحسب ما هو الظّاهر - فالإفرادُ للإشارة إلى أنَّ تسوية هذه النُّفوسِ جميعًا يسيرةٌ عليه تعالى، وكأنَّها نفسٌ واحدةٌ، وذلك كقوله سبحانه: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 176.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 488.

### دلالة الواو في ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

تعظيمُ مُبدِعِ النُّفوس أثرٌ من آثارِ التَّدبُّر في أحوالها

الواو في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ للقسَم، فتفيدُ أنَّ (ما سوّاها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياءِ المعظَّمة بالقسَم. ومن لطائفِ هذا القسَم: الانتقالُ من تدبُّر أمرِ النُّفوس إلى تعظيم مُبدِعها ﷻ؛ للسَّعي في إصلاح شأنها[1]، ولأنَّ حدوثَ النَّفس غيرُ مشهود، حتَّى ظنَّ بعضُهم قِدَمَها، فذُكِرَ مع الإقسام بها مُسوّيها وفاطرُها[2]؛ للدَّلالةِ على حُدوثِها، وأنَّها آيةٌ تدلُّ على الخالقِ سبحانه، وفي ذلك توبيخٌ للمشركين لعبادتهم الأصنام.

### سِرُّ التَّعبير بـ (ما) دون (من) في قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

العظيمُ سبحانه مُسَوّي النُّفوس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ لتعدُّدِ المُراد بها، ويحتملُ أن تكون مصدريَّةً والمعنى: وتَسْويَتِها[3]، فيكونُ القسَمُ بأمرٍ من آثارِ قُدرةِ الله تعالى، وهو تسويتُه الإنسانَ[4]. ويحتملُ أن تكون موصولةً، وهي في الأصل موضوعةٌ لما لا يعقل، وإنَّما أوثِرَتْ على (مَنْ) الموضوعة لما يعقِل؛ لإرادةِ معنَى الوصفيَّة، كأنَّه قيل: والشَّيءِ القادرِ العظيمِ الَّذي سوّاها[5].

### دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿سَوَّىٰهَا﴾ ماضيًا مضعَّفًا:

كمال التَّسويةِ وجَمالِها في خَلْقِ الإنسان

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالتَّسوية في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ دون الخَلْق؛ لأنَّ التَّسوية مرحلةٌ تاليةٌ للخَلْق؛ فإذا حُمِلَت النَّفسُ على الجسد، فتسويَتُها تعديلُ أعضائها على ما يَشهدُ به علمُ التَّشريح، وإنْ حمَلْناها على القوَّةِ المُدبِّرة؛ فتسويَتُها إعطاؤها القوَّةَ الكثيرة؛ كالقوَّةِ السّامعةِ والباصرةِ والمُفكِّرة[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 75.
(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 19.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 195.

وجيء بالفعل ماضيًا في قوله ﷻ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ تسويَتَهُ قد مضَت وتحقَّقت، ولا سيَّما إنْ كان المرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام. ودلَّ التَّضعيفُ في الفعل ﴿سَوَّىٰهَا﴾ على كمالِ التَّسويةِ وجَمالِها في خَلْقِ الإنسانِ على أحسَنِ تقويمٍ بإكمالِ عَقْلِه ونَظَرِه.

**سِرُّ تأخيرِ القسَم بالنَّفس وما سوّاها:**

شرفُ النَّفسِ بخِدمةِ الأكوانِ لها

أُخِّرَ القسَمُ بالنَّفسِ عمّا قبلها - معَ شرَفِها وفخامةِ شأنِها - لطولِ الجُملة؛ فإنَّ قوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ الآية، بيانٌ لأحوالها[1]؛ ففي تقديمِها إخلالٌ بجزالةِ النَّظم. ومِمّا يُذكَرُ في سَرِّ تأخيرِ القَسَم بالنَّفسِ وتَسويَتِها عَمّا قبلَها من الأقسامِ أنَّ ما سَبقَها من المُحسوساتِ، وأعظَمُها الشَّمسُ مع أوصافِها المذكورةِ في الآياتِ، وهي دالَّةٌ على عَظمةِ الخالِق، ثُمَّ تَرَقَّى الأسلوبُ القُرآنيُّ بنَقلِ العَقلِ من عالَمِ المُحسوساتِ إلى المَعنويّاتِ والمَكنوناتِ في خَلقِ النَّفسِ؛ فكانَ ما سَبقَ بمثابةِ التَّمهيدِ للوصولِ إلى المَقصود.

**معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾:**

رحمةُ اللهِ بعبادِه قبلَ التَّكليف

الظّاهرُ أنَّ الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ لعَطفِ هذه الجملةِ على (سوّاها)[2]، فإلهامُ الفُجورِ والتَّقوى مَعطوفٌ على التَّسويةِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى رَحمةِ اللّه تعالى بعبادِه، فهو كَمَّل خَلقَهُم أوَّلًا - ومِن جُملةِ ذلك تَزيينُهم بالعُقولِ - ثُمَّ ألهَمَهُم الفُجورَ والتَّقوى.

وتَدُلُّ الفاءُ أيضًا على التَّعقيبِ لعدمِ الاعتدادِ بما بينَ التَّسويةِ والإلهامِ لانتفاءِ الفَهمِ حينئذ؛ أو لأنَّ المُسبَّبَ كالمُتَعقِّبِ للسَّببِ، وإن تَراخى عنه لِفقدانِ شرطٍ أو وجودِ مانعٍ.

ويَجوزُ أن تُحمَلَ الفاءُ على السَّببيَّةِ لا التَّعقيبِ؛ لكنَّ المُسبَّبَ

---

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.

يَتراخَى عنه لِفَقدِ شرطِه، والحاصلُ أنَّ السَّببيَّة ناقصة؛ فلا محذورَ في التَّخلُّف، وما نحنُ فيه كذلك؛ فلا إشكالَ بأنَّ التَّسوية قبلَ نفخِ الرّوح، والإلهامَ بعدَها بزَمَنٍ طويل[1].

**بلاغةُ التَّعبير بالإلهام في قوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾:**

شُمولُ الإلهامِ جميعَ علومِ الإنسان

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإلهام دون التَّعبير بالتَّعريف في قولهِ تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ الإلهامَ أعمُّ مِن التَّعريف؛ فيندرجُ تحته التَّعريفُ والتَّبيين؛ لأنَّ الإلهامَ هو أن يوقِعَ اللّه في قلبِ العبدِ شيئًا، وإذا أوقعَ في قلبه شيئًا فقد ألزَمَه إيّاه. وأصلُ معنى الإلهام مِن قولهم: لهمَ الشَّيءَ والتَهَمَه إذا ابتلَعَه، وألهَمْتُهُ ذلك الشَّيءَ، أي: أبلعتُه، وهذا هو الأصلُ، ثم استُعمِلَ ذلك فيما يقذِفُهُ اللّه تعالى في قلبِ العبد؛ لأنَّه كالإبلاغ[2].

وممّا يُذكر في دلالةِ التَّعبيرِ بالإلهام دلالتُهُ على جَعلِ النَّفسِ عارفةً بالخير والشَّرِّ، مستعدَّةً ومتهيِّئةً لكلٍّ منهُما[3]، وليَشمَلَ جميعَ عُلومِ الإنسانِ المتعلِّقةَ به من ناحيةِ الخَلْقِ والتَّكوينِ والتَّعليم، ولذلك فهذا اللَّفظُ له خاصّيَّةٌ تُميِّزُه من غيرِه بأنَّه من فرائدِ التَّعبيرِ القُرآني، ولذلك يقولُ ابنُ عاشور: "هذا اللَّفظُ إن لَم يكُنْ مِن مُبتكراتِ القرآنِ يَكُنْ ممّا أحياهُ القرآن؛ لأنَّه اسمٌ دقيقُ الدَّلالةِ على المعاني النَّفسيَّة، وقليلُ رواجِ أمثالِ ذلك في اللُّغةِ قبلَ الإسلام لقلَّةِ خُطورِ مثلِ تلكَ المعاني في مخاطباتِ عامَّةِ العرب"[4].

**بلاغةُ التَّعبير بالماضي في ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾:**

الشَّقاءُ والسَّعادةُ مقدَّران مكتوبان

عُبِّر بصيغة الماضي في قول الباري ﷻ: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ هذا الإلهامَ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ، وجرَتْ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 293.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

به مقاديرُ اللّه ﷻ، فمَن كُتبَ اسمُهُ في سِجلِّ السُّعداء كان سعيدًا، ومَن كُتبَ اسمُهُ في سِجلِّ الأشقياء كان شقيًّا.

### دلالة الإضافة في ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾:

اختيارُ الخير أو الـشَّرِّ منسوبٌ للعبد

أوثرتِ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ دون أن يقال: (الفجور والتَّقوى)؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك كلَّه منسوبٌ إلى النَّفس، ومكتوبٌ عليها، وإنْ كان بخَلْقه وتقديره تعالى؛ لأنَّه أودعَها قوَّة، وجعلَ لها اختيارًا صالحًا لكلٍّ من النَّجدَين، وأوضحَ أمرَ النَّجدَين بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10]، وعلى لسانِ رسوله ﷺ بما وهبَهُ لها من الفطرة القويمة، وأخفَى عنها سرَّ القضاء والقدر وعِلْمَ العاقبةِ، فأقامَ بذلك عليها الحجَّة، وأوضح المحَجَّة[1]. فضلًا عمّا في الإضافة من رعايةٍ للفواصل[2].

### سرُّ التَّعبير بالفُجور دون الكفر:

عُبِّر بالفُجور دون الكفر في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّه أعمُّ من الكفر، والمرادُ به هنا: انبعاثُها في المَيل معَ دواعي الشَّهوات وعدمِ الخوفِ الحاملِ على خرقِ سياج الشَّريعة[3].

### سرُّ تقديم الفُجورِ على التَّقوى:

رعـايـةُ أحــوالِ المُخاطَبين وهُمُ المشركون، وأكثرُ أعمالهِم الفجور

تقديمُ الفُجورِ على التَّقوى في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ إلهامَهُ بهذا المعنى من مبادئ تجنُّبه، وهو تخلية؛ والتَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحلية[4]، ولرِعايةِ الفواصل[5]، ولرعايةِ أحوال المخاطَبين بهذه السّورة، وهُمُ المشركون، وأكثرُ أعمالهِم فجورٌ، ولا تقوى لهم، والتَّقوى صفةُ أعمالِ المسلمين؛ وهم قليلٌ يومئذ[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77 - 78.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ تقديمِ الفُجورِ على التَّقوى بيانُ الواقعِ البشَريِّ في كلِّ العُصور من ناحية الإيمان وعدمه؛ فالنّاظرُ إلى تاريخ الأُمَم معَ أنبيائها يجد أنَّ الكثرةَ دائمًا متَّصفةٌ بأفعالِ الفُجور، والقلَّة متَّصفون بالتقوى.

### سرُّ التَّعبير بالتَّقوى دون الإيمان:

التَّقوى تشملُ الإيمان

عُبِّر بالتَّقوى دون الإيمان في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ العبد لا يكون متَّقيًا حتَّى يكونَ مؤمنًا؛ فإيمانُه حاصلٌ ضمنًا، ومن جملة التَّقوى: خوفُ النَّفسِ الَّذي أوجبَ سُكونَها وتحرُّزَها بوِقاياتِ الشَّريعة[1].

وفي لفظ التَّقوى مراعاةٌ للتَّناسُب في التَّعبير؛ فالفُجور يدلُّ على الزيادة في المعاصي والكفر، والتقوى تدلُّ على الزّيادة في أخذِ الحذرِ والحيطةِ من الوقوعِ في المعاصي؛ لهذا المعنى عُبِّرَ بالتَّقوى دون الإيمان.

### سرُّ تعدية الإلهام إلى الفُجور والتَّقوى:

العقولُ وسيلةُ إفهامِ ما جاءَت به الرُّسل

تعديةُ الإلهام إلى الفُجور والتَّقوى في قولهِ ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ مع أنَّ اللّه أعلمَ النّاسَ بما هو فُجورٌ وما هو تَقوى بوساطةِ الرُّسل؛ باعتبار أنَّه لولا ما أودعَ اللّه في النُّفوسِ مِن إدراكِ المعلوماتِ على اختلافِ مَراتبِها لَمَا فهِموا ما تَدعوهُم إليه الشَّرائعُ الإلهيَّة، فلولا العُقولُ لَمَا تَيَسَّرَ إفهامُ الإنسانِ الفُجورَ والتَّقوى، والعِقابَ والثَّواب[2].

### دلالةُ إسنادِ الفعل (ألهمها) إلى ضميرٍ مذكَّر:

جاء فعلُ (ألهمها) بصيغةِ الإسنادِ إلى ضميرٍ مذكَّرٍ باعتبار أنَّ تأنيثَ مصدر التَّسوية، تأنيثٌ غيرُ حقيقي، أو لمُراعاةِ لفظ (ما) على جَعلِها موصولة[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

### بلاغةُ الاحتباك في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ احتباك، وذلك أنَّ ذِكرَ الفُجورِ أوَّلًا دالٌّ على السُّكون الذي هو ضدُّه ثانيًا، وذِكرَ التَّقوى ثانيًا دالٌّ على ضدِّه، وهو عدمُ الخوف أوَّلًا[1].

### بلاغةُ جواب القسَم بين الحذفِ والذِّكر:

فــلاحُ المـؤمـنِ وخيبةُ المُشرِكِ محقَّقان

تعدَّدتِ الأقوالُ في تعيين جواب القسَم؛ فيحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ جوابَ القسَم، وحذفُ اللّام لطولِ الكلام[2] المقتضي للتَّخفيف؛ لأنَّ الماضيَ إذا كان جوابًا يقترن بـ (قد) واللّام، والأصل: (لقد أفلح) (ولقد خاب)، فحُذفت اللّام دون (قد)؛ إذ المقامُ يقتضي التَّأكيدَ بحرف التَّحقيق[3]، والمقصودُ تحقيقُ فلاحِ المؤمنينَ وخيبةِ المُشركين، وجملة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ في موقعِ الدَّليل لمضمونِ جملة ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خابَ كخيبة ثمود[4].

ويحتملُ أن يكون جوابُ القسَم محذوفًا تعويلًا على دلالةِ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ عليه، وتقديرُ الجواب: لَيُدَمْدِمَنَّ اللّه تعالى على كُفّار مكَّة؛ لتكذيبِهم رسولَ اللّه ﷺ، كما دَمدَمَ على ثمود؛ لتكذيبِهم صالحًا عليه السلام[5].

ويجوزُ أن يكونَ تقديرُ الجواب؛ لقد سَعِدَ أهلُ الطّاعةِ وشَقيَ أهلُ المعصية[6]. أو أن يكونَ جملةً معترضةً بين القسَم والجواب؛ لمناسبةِ ذِكْر إلهام الفُجورِ والتَّقوى، أي: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه، واتَّبعَ ما ألهَمَهُ اللّه من التَّقوى، وخابَ مَن اختارَ الفُجورَ بعد أن أُلهِمَ التَّمييزَ بينَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 294.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 371.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 648، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 545.
(6) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 978.

الأمرَين بالإدراك والإرشاد الإلهيِّ. وهذه الجملةُ توطئةٌ لجملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾؛ فإنَّ ما أصابَ ثمودَ كان من خَيبتِهم؛ لأنَّهم دسّوا أنفسَهم بالطَّغوى(1).

### سرُّ التَّناسب بين الأقسام وجوابها:

ذِكرُ الأدلَّة على وجودِ الله يحثُّ على تزكيةِ النَّفس

لَمّا أراد ﷻ الحثَّ على تزكيةِ النَّفس، أقسَمَ على ذلك بما يَدُلُّهم على العِلم بوجودِ الصّانع، وتنزيهِ ذاته، وكمالِ صِفاتِه الَّذي هو أقصى دَرَجاتِ القوَّةِ النَّظريَّة، ويُذَكِّرُهم عَظائِمَ الإله؛ ليَحمِلَهم على الاستِغراقِ في شُكرِ نعمائِه الَّذي هو مُنتَهى كمالاتِ القوَّة العمليَّة(2).

### بلاغةُ ترتيبِ هذه الآيات:

صلاحُ البدنِ بسلامةِ النَّفسِ ورَجاحةِ العقل

لَمّا افتتحَ بذِكر آية النَّهار - وهي الشَّمس - أتبَعَهُ ذِكرَ آية اللَّيل، وهي القمر، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾. ولمّا ذَكر الآيتين، ذكَرَ ما هُما آيتاه، وبدأ بهما؛ لأنَّه لا صلاحَ له إلّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبدَن إلّا بالنَّفس والعقل، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾.

ولمّا ذكرَ أصلَ الضّياء؛ ذكرَ محلَّ الظَّلام، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾. ولمّا ذكر الآيتين ومحلَّ أثرِهما؛ ذكرَ محلَّ الكلِّ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾. ولمّا ذكرَ البناءَ - وهو السَّماء - ذكر المِهادَ، وهو الأرض، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. ولمّا أتمَّ الإشارة إلى النُّفوس لأهل البصائر؛ صرَّح بالعبارة لِمَن دونهُم، فقال: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

أمرُ الهدايةِ والغوايةِ بيد الله

ولمّا كان أعجبُ أمورِ النَّفس الفُجورَ مع عِلمِها بأنَّه قبيحٌ ومعاقَبٌ عليه، وبأنَّ التَّقوى حسنةٌ ومُثابٌ عليها - لأنَّ البهيمة لا تُقدِمُ على ما يضرُّها وهي تُبصر، والآدميَّ يُقدِمُ على ما يضرُّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 371.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 482.

وهو يعلم - قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ مُخبِرًا بأنَّ هذا لا يَقدرُ عليه سِواه[1].

ذِكرُ جزاءِ المُطيعينَ والعاصين

وبعد أن ذكرَ تعالى أنَّه ألهَمَ النُّفوسَ معرفة الخيرِ والشَّرِّ؛ ذكرَ ما تلقاهُ جزاءً على كلٍّ منهما، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

**دلالة ﴿قَدْ﴾ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾:**

الفلاحُ لمَن زكَّى نفسَهُ حكمٌ ربّاني

﴿قَدْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ لتأكيد فلاحِ مَن زكَّى نفسَهُ، وتحقيقِ حصوله، وبيانِ أنَّه أمرٌ قد حكمَ اللّه تعالى به.

**دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أَفْلَحَ﴾ ماضيًا:**

حقيقةُ زكاةِ النَّفسِ جَمعُها بين خيرَي الدُّنيا والآخرة

عُبِّر بالفلاح في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ للدَّلالة على أنَّ مَن زكَّى نفسه قد فاز بكلِّ مطلوب، ونجا من كلِّ مكروه[3]؛ لأنَّ الفلاحَ هو الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ دُنيويَّةً كانت أو أُخرَويَّةً. والفلاح: نيلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه[4]. وجيءَ بالفعلِ ماضيًا؛ لزيادة تأكيدِ حصولِ الفلاح، وبيانِ أنَّه أمرٌ لا يَعتريهِ ريبٌ ولا شكٌّ.

**دلالة ﴿مَن﴾ في ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾:**

الفلاحُ حكمٌ شاملٌ لكلِّ مَن زكَّى نفسَهُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ دون (الذي) لدلالتها على العُموم؛ فهي صادقةٌ على كلِّ إنسانٍ زكَّى نفسَهُ بأن اختارَ لها ما به كمالُها ودفعُ الرَّذائل عنها، فالإنسانُ والنَّفسُ شيءٌ واحدٌ، ونُزِّلا منزلة شيئَين باختلافِ الإرادة والاكتساب[5]. والإتيانُ بلفظ ﴿مَن﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الفلاحَ حُكمٌ شاملٌ لكلِّ مَن زكَّى نفسه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 78.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 168.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 210 - 211.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بفِعلِ التَّزكيةِ ماضيًا مُضعَّفًا:

الـدَّعـوةُ إلى الاستـزادةِ من أبواب الخير

عُبِّر بالتَّزكية في قول الباري ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه استزادَ من الخير[1]، ونمّاها وأصلحَها، وصفّاها تصفيةً عظيمةً بما يسَّرَهُ اللّه له من العلوم النّافعةِ والأعمالِ الصّالحة، وطهَّرَها على ما يسَّرَهُ لُمجانبَتِه من مذامِّ الأخلاق؛ لأنَّ كُلًّا ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له[2]. وصَوغُ الفعلِ ماضيًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الفلاحَ إنَّما يكونُ لَمن تحقَّقَ منه تزكيةُ نفسِه، ولأنَّ تزكية النَّفسِ سابقةٌ على حُصولِ الفلاح؛ لأنَّها شرطُ حُصوله.

ويدلُّ تضعيفُه على بذلِ الجُهدِ في إصلاحِ النَّفسِ وتطهيرِها من الذُّنوب، والارتقاءِ بها بالإيمانِ والعملِ الصّالح.

### دلالةُ إضمارِ الفاعلِ في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ و﴿دَسَّىٰهَا﴾:

الإنـسـانُ يُـزكِّي نـفسَهُ بتقديرِ الـلـه وخَـلْـقـهِ وتمكينِه

أضمَرَ الأسلوبُ القرآنيُّ فاعلَ (زكَّى) و(دسَّى)، وجعلَهُ ضميرًا يعودُ على ﴿مَن﴾[3]، والمعنى: قد أفلحَ مَن زكّى نفسَه، أي: اكتسَبَ الزَّكاءَ الَّذي قد خَلقَهُ اللّه[4]. ويجوزُ أن يكون الفاعلُ ضميرًا يعودُ على اللّه تعالى[5]، والمعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللّه تعالى نفسَهُ، أو: قد أفلحَت الفِرقةُ أو الطّائفة الَّتي زكّاها اللّه تعالى، و(مَنْ) تقعُ على الجَمْعِ والإفراد[6].

### نُكتةُ عدمِ ذِكرِ المُزكَّى به:

حُذِفَ المُزَكَّى به في قولِه ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ لظُهورِه من المقام، والمعنى: قد أفلحَ مَن زكَّى نفسَه - أو مَن زكَّى اللّه نفسَه - بالطّاعة وصالحِ الأعمال[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

### سرُّ تقديمِ الفلاحِ على الخَيبة:

مُلاءَمةُ الفلاحِ للتَّقوى، وملاءَمةُ الخَيبةِ لِذِكْرِ ثمود

قُدِّمَ الفلاحُ على الخَيبة في قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ مع سَبقِ تقديمِ الفُجور على التَّقوى؛ لمُناسبته للتَّقوى، وأُردِفَ بخَيبةِ مَن دسَّى نفسَه؛ لتهيئةِ الانتقالِ إلى المَوعظةِ بما حصلَ لثمودَ من عقابٍ على ما هو أثرُ التَّدسية[1].

### نكتة عطف ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

ذِكرُ عاقبةِ السّالكِ سبيلَ الفُجورِ ترهيبٌ لمَن آثرَ النُّفور

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ على قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ لذِكر عاقبةِ مَن سلكَ سبيلَ الفُجورِ بعدَ ذِكرِ عاقبةِ مَن سلكَ سبيلَ التَّقوى؛ ليكونَ كلُّ عاقلٍ على بصيرةٍ من نفسِه واختيارِه، ولبيانِ منهجِ القرآنِ في ذِكرِ عاقبةِ الضَّلالِ بعدَ ذِكرِ عاقبةِ الهدايةِ والتَّزكية.

### بلاغةُ تكرير (قد) في ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

تكريرُ (قد) في قولِ الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِ هذه الآيةِ في إثباتِ الخُسْرانِ لمَن دسَّى نفسَهُ وأهلَكَها، والإيذانِ بتَعلُّقِ القسَمِ به أيضًا أصالةً[2].

### بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿خَابَ﴾ ماضيًا:

مَن حادَ عن طريقِ الحقِّ خسِرَ كلَّ مطلوب

آثرَ التَّعبيرَ بالخَيبة في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ دونَ الخُسْرانِ وغَيره؛ للتَّنبيهِ على أنَّه حرَمَ نفسَهُ ممّا أُعِدَّ لغيره في الدّارِ الآخرة، وخسرَ وكان سعيُه باطلًا[3]، ولم يَظفر بمَطلوبه[4]، ولأنَّ الخَيبَةَ تُطلَقُ على شِدَّةِ الخُسرانِ لِما سَعَى إليه الإنسانُ، وبَذَلَ الجُهدَ فيه، ولكنَّه فقَدَه عند طَلَبِ احتياجِه؛ بخِلافِ الخُسرانِ فيَدُلُّ على النَّقص، والمُرادُ في الآيةِ الدَّلالةُ على فواتِ المَطلوبِ لا نُقصانِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.

وصَوْغُ الفِعلِ ماضيًا؛ لِزيادةِ تأكيدِ حُصولِ الخَيْبَةِ لِمَن دَسَّى نَفسَه، وبَيانِ أنَّه ثابتٌ لا يَتَطَرَّقُ إليه شَكٌّ.

**دلالةُ** ﴿مَن﴾ **في** ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾:

الخيبةُ عاقبةُ كلِّ من دسَّى نفسَهُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ لدلالتها على العموم؛ فهي صادقةٌ على كلِّ إنسان، دسَّى نفسَهُ بأنِ اختارَ لها ما بهِ نُقصانُها وجَلبُ الرَّذائل لها؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ للإيذان بأنَّ الخَيبةَ شاملةٌ لكلِّ مَن دسَّى نفسَه.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّدسية:**

ظُلمُ المُعرِضِ عن الحقِّ لنفسِه بخبائثِ الاعتقادِ ومساوئ الأعمال

عُبِّر بالتَّدسية في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ دون الإدساءِ ونحوِه؛ لأنَّه تتعدَّدُ مَعانيه؛ فيدلُّ على النَّقص والإخفاء والإغواء؛ لذلك كان التَّعبيرُ به هو الأوفقَ للسّياق؛ لدلالتهِ على أنَّه أغواها إغواءً عظيمًا، وأفسَدَها ودنَّس مُحيّاها، وقذَّرها وحقَّرها وأهلكَها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وقبائح النِّيّات والأحوال[1]، وحالَ بينها وبين فعلِ الخير؛ لأنَّ أصلَ (دسَّى) أدخلَ شيئًا تحت شيءٍ فأخفاه[2].

**غرضُ عدمِ ذِكرِ المُدسَّى به:**

حُذِفَ المُدَسَّى به في قوله ﷻ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لظُهورِه من المقام، والمعنى: وقد خابَ مَن دسَّى نفسَه - أو مَن دسَّى اللّٰه نفسَه - بالمعاصي[3].

**بلاغةُ القسَم بقوله:** ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

تدسيةُ النُّفوس تكون بالمعاصي

يَدُلُّ هذا الخِتامُ على أنَّ نَفْسَ الإنسانِ أمانةٌ عنده؛ فيَجِبُ عليه أن يَرعاها وألّا يَظلِمَها بالمعاصي؛ لأنَّ المعاصي تُصَغِّرُ النَّفسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

وتُحَقِّرُها، وتجعلها كالّذي يُدَسُّ في التُّراب، كما أنَّ الطّاعاتِ تُنمّيها وتُزكّيها وتُعْلي من شأنِها، وفي هذا الخِتامِ إشارةٌ إلى إثباتِ فِعلِ العبدِ من التَّزكيةِ والدَّسِّ.

### بلاغةُ الطِّباقِ في الأقسامِ المذكورة:

صورة جميلة تجمعُ بين الشَّيءِ وضِدِّه تُنبئُ عن قُدرةِ الخالقِ سبحانه

في هذهِ الأقسامِ يوجدُ طِباقٌ بين الشَّمسِ والقمر، والنَّهارِ واللَّيل، والسَّماءِ والأرضِ، وفُجورِها وتَقواها، وفي كلِّ اثنَيْنِ من هذه المُتضادّاتِ يَرى القارئُ للآياتِ صورةً جميلةً تجمعُ بين الشَّيءِ وضِدِّه تُنبِئُ عن قُدرةِ الخالقِ سبحانه، وقد سَبقَتِ الإشارةُ إلى ذلك في الإيضاحِ اللُّغويِّ والبلاغيِّ.

### بلاغةُ المُقابلةِ في الأقسامِ المذكورة:

تتميَّزُ الأشياءُ بالضِّدِّ

في هذه الآياتِ توجدُ مُقابلاتٌ قُرآنيَّةٌ بين قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾، وبينَ قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وفي هذه المُقابلات يَرى السّامعُ صورتَين مُتقابلتَين، وفي ذلك تأكيدٌ للمَعاني المقصودة؛ إذْ بضِدِّها تتميَّزُ الأشياء.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الصُّبح والضُّحى والفجر:

الحقُّ والهِدايةُ كالشَّمسِ السّاطعة

الصُّبح: أوَّلُ النهار، وهو وقتُ احمرارِ الأُفقِ بحاجب الشَّمس[1]. والضُّحى: انبساطُ الشَّمسِ واشتدادُ حرارتها[2]. والفجرُ فجران: الكاذب، وهو ظُهورُ خَيطٍ أبيضَ عموديٍّ يَظهَرُ من جهةِ طُلوعِ الشَّمس، ثمَّ لا يلبثُ أن يَختفيَ، ويَعقُبه ظُهورُ خيطٍ أبيَضَ أُفقيٍّ يَبدأ بالانتشار؛ إيذانًا بشُروقِ الشَّمس، ويُسمَّى الفجرَ الصّادق[3].

(1) الراغب، المفردات: (صبح).
(2) الراغب، المفردات: (ضحى).
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 656.

وقد عُبِّر بالضُّحَى هنا؛ لأنَّ المَقصودَ ذِكْرُ حالةِ انبساطِ الشَّمسِ واشتدادِ حَرارَتِها؛ ليُمثَّل بها صورةُ ظُهورِ الحَقِّ والهداية.

**التّالي والتّابع:**

القمرُ يأتي بعدَ الشَّمس

علاقةُ التّالي بالمَتلوِّ زمانيَّة حسب، تقول: تلا الشَّيءَ، إذا جاءَ بعدَهُ عن قصدٍ وعِلم، أو عن غير قصدٍ وعِلم، وتقول: تبعَهُ، إذا اقتفَى طريقتَه أو معتقَدَه أو فِكرَه أو منهجَه أو نحوَ ذلك. والتّالي من جِنسِ المَتلوِّ، ويأتي بعدَهُ مباشرةً، والتّابعُ لا يُشترَط فيه هذان الأمران[1]. وقد يكونُ التّابعُ قبلَ المتبوع في المكان؛ كتقدُّمِ المَدلولِ وتأخُّرِ الدَّليل[2].

وقد عُبِّر بـ ﴿تَلَىٰهَا﴾ هنا؛ لأنَّ المُرادَ هنا أنَّ القمَرَ يَجيءُ بعدَ غيابِ الشَّمسِ دأبًا في كلِّ وقت[3]، ولو قيل: تبِعَها؛ لكان المرادُ أنَّه يَتبعُها في طريقتها، ويسيرُ على مِنوالها، وليس ذلك بمُراد[4]. وإنْ أُريدَ أنَّه يَتلوها في الاستدارة وكمالِ النّور فالتَّلُوُّ مجازٌ عن التَّأخُّر في الرُّتبة، والعلاقةُ مُطلَقُ التَّأخُّر[5].

**الطَّحو والدَّحو:**

الأرضُ مبسوطةٌ من كلِّ جانب

الدَّحوُ والطَّحوُ كِلاهُما يدلُّ على بَسْطِ الشَّيء، وقد يُستعمَلُ الدَّحوُ في قَشْرِ ظهرِ الأرضِ، وجَرْفِ ما عَلَيها تمهيدًا لتسويتِها، والطَّحو: ما تؤولُ إليه بعد الدَّحو[6]. وقد عُبِّر بالطَّحو هنا؛ للدَّلالةِ على بسطِ الأرضِ من كلِّ جانب[7]، وتمهيدِها للسُّكنَى والجُلوس

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 349 - 350.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 310.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 485.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 350.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 287 - 288.
(6) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 527 - 528.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 163.

والاضطجاعِ والسَّير[1]، وجَعلِ النّاس ينتفعونَ بما على ظهرِها من نباتٍ وحيوان، وبما في باطنها من مختلف المعادن[2].

### النَّفسُ والرّوح:

جملةُ الإنسان معدَّلةٌ أحسَنَ تعديل

قد يُطلَقُ لفظُ النَّفس، ويُرادُ به جملةُ الشَّيء وحقيقتُه، يقال: قتلَ فلانٌ نفسَه، وأهلكَ نفسَه، أي: أوقعَ الهلاكَ بذاته كلِّها وحقيقته. والنَّفس: عينُ الشَّيء وكُنهُه وجَوهَرُه، ويُؤكَّد به، يُقال: جاءني الملكُ بنفسِه، ومن اللُّغويّين مَن سوَّى بين النَّفس والرّوح، وقال: هُما شيءٌ واحد، إلّا أنَّ النَّفس مؤنَّثة، والرّوح مذكَّرة، وقال غيرُه: الرّوح: الَّذي به الحياة، والنَّفس: الَّتي بها العقل، فإذا نامَ النّائمُ قبضَ الله نفسَهُ، ولم يَقبضْ روحَهُ، ولا تُقبض الرّوحُ إلّا عند الموت، وبالرّوح تكونُ حركةُ الإنسانِ ونُموُّه[3]. وقد عُبِّر بالنَّفس هنا؛ للإشارة إلى جُملةِ الإنسانِ الَّتي عدَّلها ﷻ أحسنَ تعديلٍ، ووهَبَها العقلَ.

### التَّسوية والتَّعديل:

خِلْقةُ الإنسانِ عجيبةٌ غيرُ متفاوتة

يُقال: عدَّلَ القسّام الأنصباءَ للقَسْم بين الشُّركاء، إذا سوّاها على القيَم[4]. وتسويةُ الشَّيء: جعلُه سواء، إمّا في الرِّفعة، أو في الضَّعَة[5]. وقد عُبِّر بتسوية النَّفس هنا؛ للإشارة إلى خَلقِها سواءً - أي: غيرَ متفاوتة الخلق[6] - وإكمالِ عقلِها ونظَرِها[7]، وللحثِّ على تدبُّر أمرِها للاستدلالِ على مُبدِعِها؛ للسَّعي في إصلاح شأنِها، والمعنى: عدَّلَها على هذا القانون الأحكَم في أعضائها، وما فيها من الجَواهرِ والأعراضِ والمَعاني، وعجائبَ المِزاجِ من الأخلاطِ المُتنافرةِ الَّتي لاءَمَ بينها بالتَّسوية، فجَعلَها مُتمازِجة[8].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 168.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نفس).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عدل).
(5) الراغب، المفردات: (سوي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 75.

شمولُ الإلهامِ جميعَ علومَ الإنسان

من زكَّى نفسه نال كلَّ مطلوبٍ ومرغوبٍ، ونجا من كلِّ مكروه

### الإلهامُ والتَّعريفُ والتَّعليم والتَّبيين:

التَّعليمُ والتَّعريفُ والتَّبيينُ دون الإلهام؛ فإنَّ الإلهامَ هو أن يوقِعَ اللّه في قلبِ العبدِ شيئًا، وإذا أوقعَ في قلبهِ شيئًا فقد ألزَمَهُ إيّاه. وأصلُ معنى الإلهامِ من قولهم: لَهمَ الشَّيءَ والتهَمَهُ إذا ابتلعَهُ، وألهَمتُه ذلك الشَّيءَ، أي: أبلَغتُه، وهذا هو الأصلُ، ثمَّ استُعمَلَ ذلك فيما يَقذِفُهُ اللّه تعالى في قلبِ العبدِ؛ لأنَّه كالإبلاغ[1].

وقد عُبِّرَ بالإلهامِ هنا؛ للدَّلالةِ على جعلِ النَّفسِ عارفةً بالخَيرِ والشَّرِّ، مُستعِدَّةً ومُتهيِّئةً لكلٍّ منهما[2]، وليَشمَلَ جميعَ علومِ الإنسان، والمعنى هنا: أنَّ من آثارِ تسويةِ النَّفسِ إدراكَ العُلومِ الأوَّليَّة، والإدراكَ الضَّروريَّ المُدَرَّجَ ابتداءً من الانسياقِ الجِبِلّيِّ نحو الأمور النّافعة؛ كطلبِ الرَّضيعِ الثَّديَ أوَّلَ مرَّةٍ، ومنه اتِّقاءُ الضّارِّ؛ كالفِرارِ ممّا يُكرَهُ، إلى أن يَبلُغَ ذلكَ إلى أوَّلِ مَراتبِ الاكتسابِ بالنَّظرِ العَقليِّ، وكلُّ ذلك إلهام[3].

### الفلاحُ والفوزُ والنَّجاح:

الفلاح: الظَّفَر وإدراكُ البُغية؛ دنيويَّةً كانت أو أُخرَويَّةً. والفوز: الظَّفَرُ بالخير مع حصول السَّلامة[4]، والخلاصُ من المكروهِ مع الوصول إلى المحبوب. والفلاح: نيلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه[5]. والنَّجاح: إدراكُ الشَّيء والوصولُ إليه[6].

وقد عُبِّر بالفلاحِ هنا للدَّلالة على أنَّ مَن زكَّى نفسَهُ قد فاز بكلِّ مطلوبٍ، ونجا من كلِّ مكروه[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369 - 370.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 731 - 732.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 210 - 211.
(6) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 732.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾

[الشمس: 11 - 15]

العـاقلُ يعتبرُ بالأمثال

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكر تعالى خَيبةَ مَن دسَّى نفسَهُ، ذَكرَ فِرقةً فعَلَتْ ذلك؛ وهُم قومُ ثمودَ الذين انبعثَ أشقاهُمْ لعَقرِ النّاقة، ولم يَستجيبوا لتحذيرِ رسولِهم، وذَكرَ العقابَ الذي وقعَ عليهم بقوله: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾؛ ليعتبَرَ بها كفّارُ مكَّة، ويَنتهوا عن مِثل فعلهم[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَمُودُ﴾: (ثمد) أصلٌ يدلُّ على القليل من الشَّيء[2]، ومن ذلك: الثَّمَد، وهو الماءُ القليلُ الَّذي لا مادَّة له[3]، وفلانٌ مثمودٌ، إذا كثُرَ السُّؤال عليه حتَّى يَنفدَ ما عنده، وماءٌ مثمود، إذا كثُرَ عليه النّاسُ حتَّى يُنفِدوه إلّا أقلَّه[4]، و(ثمود) قيل: هو أعجميٌّ، وقيل: هو عربيٌّ، وتُرِكَ صَرفُه؛ لكونِه اسمَ قبيلةٍ أو أرضٍ، ومَن صَرَفَهُ جَعَلَهُ اسمَ حيٍّ أو أبٍ؛ لأنَّه يُذكَّر، وهو فعول من الثَّمَد، وهو الماءُ القليل[5].

2) ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾: (طغي) أصلٌ يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ في العصيان[6]، ومن ذلك يُقال: هو طاغٍ، لكلِّ مَن جاوزَ حدَّه[7]، كما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمد).
(3) الخليل، العين: (ثمد).
(4) الجوهري، الصحاح: (ثمد).
(5) الراغب، المفردات: (ثمد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(7) الرازي، مختار الصحاح: (طغي).

طغا الماءُ على قوم نوح، وكما طغَت الصَّيحةُ على ثمود، والرّيحُ على قوم عادٍ[1]، وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 24]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق: 6]، ويُقال: أطغاهُ كذا، أي: حمَلهُ على الطُّغيان[2]، ويقال: طغَى السَّيل، إذا جاء بماءٍ كثير، وطغَى البحر: هاجَت أمواجُه، والطَّغْوَى مِثل الطُّغيان[3]، أي: مجاوزةُ الحدِّ. وهو المُراد هنا على الأظهر[4].

3) ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: (بعث) أصلٌ يدلُّ على الإثارةِ للشَّيء[5]، بحيثُ يندفعُ ناهضًا أو مُبتعدًا[6]، يقالُ: بَعَثْتُهُ فانبعث، ويختلفُ البَعْثُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثتُ البعيرَ: أثَرْتُهُ وسيَّرتُهُ، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36] معناهُ: يُقيمُهم للحَشْرِ[7]، ويومُ البَعْث: يومُ القيامةِ[8]، وقولُهُ ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: 31]، أي: قيَّضَهُ ويسَّرَهُ، وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: 46]، أي: ذهابَهم ومُضيَّهم[9]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: 12]، أي: أيقَظْناهم؛ سُمّيَ إيقاظُهم بَعْثًا؛ تشبيهًا للنَّوم بالموتِ، وقولُهُ: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: 35]، أي: أرْسِلوا[10]. والمراد بالانبعاث هنا: النُّهوض والقيام للأمر[11].

4) ﴿أَشْقَىٰهَا﴾: (شقي) أصلٌ يدلُّ على المُعاناةِ وخلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[12]، وكما أنَّ السَّعادةَ نوعانِ: أُخرويَّةٌ، ودُنيويَّةٌ، كذلكَ الشَّقاوةُ، وإلى الشَّقاوةِ الدُّنيويَّةِ أشارَ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: 117]، وإلى الشَّقاوةِ الأُخرويَّةِ أشارَ بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: 123][13]. ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (طغي).
(2) الراغب، المفردات: (طغي).
(3) الرازي، مختار الصحاح: (طغي).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(7) الراغب، المفردات: (بعث).
(8) الخليل، العين: (بعث).
(9) الراغب، المفردات: (بعث).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (بعث).
(11) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 548.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقي).
(13) الراغب، المفردات: (شقي).

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ [مريم: 4]: لم تُشْقِني بالرَّدِّ مِنْ غيرِ إجابةٍ، ويقالُ لِمَنْ أدركَ أمرًا سعَى فيهِ: قد سَعِدَ بهِ، ولِمَنْ فاتَهُ: قد شَقِيَ بهِ[1]. والمرادُ بأشقاها هنا: قُدار بن سالف[2].

5) ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾: (سقي) أصلٌ يدلُّ على تحصيلِ الماءِ ونحوِهِ مِنَ المائعِ في الجوفِ بإنفاذِهِ إليهِ[3]، تقولُ: سَقَيْتُهُ أَسْقيهِ سَقْيًا، وأسقَيْتُهُ، إذا جعلتَ لهُ سُقْيا[4]، قالَ تعالى في السَّقْيِ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21]، وقالَ في الإسقاءِ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: 27]، وقالَ: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21]، وقيلَ: السَّقْيُ والإسقاءُ بمعنًى، والاستسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ أو الإسقاءِ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 60][5]، والسِّقايةُ: الموضعُ يُتَّخذُ فيهِ الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها[6]. والمرادُ بالسُّقيا هنا: الشّربُ من الماءِ[7].

6) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: (عقر) أصلٌ يدلُّ على جرحٍ في الشَّيءِ[8]، ومن ذلك يقال: عقرَه، أي: جرحَهُ[9]، وعقرتُ النَّخلَ: قطعتهُ من أصلِه[10]، وعقرتُ الفرسَ، أي: كسعتَ قوائمَه بالسَّيفِ، وفرسٌ عقيرٌ ومعقور[11]، وعقرَ النّاقةَ يَعقِرُها ويَعقُرُها عَقْرًا، وعقرَها: إذا قطعَ قوائمَها، حتَّى تسقط فينحرَها مستمكِنًا بها[12]، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ [هود: 65]، ويقال: عاقرَ صاحبَه: فاضلَه في عَقْرِ الإبل، كما يُقال: كارَمَهُ وفاخَرَهُ، وتعاقرَ الرَّجلان: عقرا إبلَهما، ليُرى أيُّهما أعقرُ لها[13].

7) ﴿فَدَمْدَمَ﴾: (دمم) أصلٌ يدلُّ على غشيانِ الشَّيءِ من ناحيةِ أن يُطلَى به[14]، تقول:

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (شقي)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي).

(5) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (سقي).

(6) الخليل، العين: (سقي).

(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 548.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).

(9) الجوهري، الصحاح: (عقر).

(10) الراغب، المفردات: (عقر).

(11) الخليل، العين: (عقر).

(12) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عقر).

(13) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عقر).

(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمم).

دمَمْتُ الثَّوبَ، إذا طليتَه، أي: صبغته، والمَدمومُ: الأحمر، والمَدمومُ: المُمتلئُ شحمًا من البعير وغيره[1]، والدُّمُّ: القُدورُ المطليَّة[2]، ويقال: دَمدَمَ فلانٌ على فلان، أي: تكلَّم وهو مُغضَب، أو كلَّمه بكلام أزعجَهُ وحرَّك قلبَه[3]، والدَّمدَمَةُ: الإهلاكُ والإزعاج، وهو المُرادُ هنا[4].

8) ﴿عُقۡبَٰهَا﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِهِ، والآخرُ يدلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصعوبةٍ[5]، ومن ذلك يقالُ: جاءَ في عَقِبِ الشَّهرِ، أي: آخِرِه، وعقَّبَهُ، إذا تلاهُ[6]، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ، أي: تتبَّعتُهُ[7]، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّواب، قالَ تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ۝٤٤﴾ [الكهف: 44]، وقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ [الرعد: 22]، وإطلاقُ العاقبةِ يختصُّ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد تُستعمَلُ في العقوبةِ، نحوُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10][8]. والمراد بالعُقبى هنا: التَّبِعة[9].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جزاءُ مَن حاربَ اللهَ ورسولَهُ سوءُ العاقبة

في هذهِ الآياتِ ذِكرٌ لأُنموذَجٍ ممّا حَلَّ بالمُكَذِّبينَ مِنَ الأُممِ السّابقة، وهُم قومُ ثمود. قال ﷻ: كَذَّبَت ثمودُ بالحقِّ بسَببِ تَجاوُزِها الحَدَّ في المعاصي، أو بعَذابِها الذي هَدَّدَهُم به صالحٌ عليه السلام. وكانَ التَّكذيبُ أو الطُّغيانُ حين نَهَضَ وقامَ أشقَى ثمودَ، وهو قُدارُ بنُ

(1) الجوهري، الصحاح: (دمم).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دمم).
(3) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 1/ 189.
(4) الراغب، المفردات: (دمم)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(6) الراغب، المفردات: (عقب).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (عقب).
(8) الراغب، المفردات: (عقب).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.

سالِف، فقالَ لهم صالحٌ عليه السلام: احذَروا ناقةَ اللّه وسُقْياها، فلا تَعتدوا على يَوم شِربها الذي جَعلهُ اللّه لها، فيَحِلَّ عليكم العذاب. لكنَّهُم كذَّبوا صالحًا فيما أخبرَهُم به، ونَحَروا النّاقةَ، فأهلكَهُم اللّه إهلاكًا شديدًا بسَببِ ذُنوبهم، وشَملَهُم بالعُقوبة، فلم يُفلِتْ منهم أحد؛ لأنَّهُم رَضوا عن فِعلِ صاحِبهم، ولا يَخافُ سبحانه تَبِعةَ إهلاكِهم؛ فهو القاهِرُ الذي لا يُغالَب، ولا يُرَدُّ عذابُه[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### عِلَّةُ فصلِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ عمّا قبله:

ثمودُ مِثالٌ لكلِّ مَن دَسَّى نفسَهُ

فُصِلَتْ هذه الآيةُ عمّا قبلها لأنَّها استئنافٌ وارِدٌ لتقريرِ مَضمونِ جُملةِ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خابَ كخَيبةِ ثمود[2]، على أنَّ جملة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جوابُ القسَم؛ فجملة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾، تقريرٌ لمضمونِ ما سبَق.

وإن كانت جملةُ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الآية، معترضة؛ كانت جملةُ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ جوابًا للقسَم باعتبارِ ما فُرِّعَ عليها بقوله: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾، أي: حقًّا لقد كانَ ذلك لذلك، ولامُ الجوابِ محذوفٌ تخفيفًا لاستطالةِ القسَم.

### فائدةُ الاستئنافِ بجُملة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾:

الاستئنافُ بجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ الغَرَضُ منهُ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشرِكينَ الَّذينَ كذَّبوا رسولَنا ﷺ طُغيانًا، وهم يَعلَمونَ ذلكَ مِن أنفُسِهم، كما كذَّبَتْ ثَمودُ رسولَهم طُغيانًا، وذلكَ هو المُحتاجُ إلى التَّأكيدِ بالقَسَم؛ لأنَّ المُشرِكينَ لم يَعقِلوا أنَّ ما حَلَّ بثَمودَ من الاستِئصالِ كان لأجلِ تَكذيبِهم رسولَ اللّه إليهم، فنَبَّهَهمُ اللّه بهذا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 458 - 461.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 372.

لِيَتَدَبَّروا، أو لِتَنزيلِ عِلمِ مَن عَلِمَ ذلكَ منهم منزلةَ الإنكارِ؛ لِعَدمِ جَريِ أمرِهم على موجبِ العِلم، فكأنَّهُ قيلَ: أُقسِمُ لَيُصيبَنَّكم عذابٌ كما أصابَ ثَمودَ، ولقد أصابَ المُشركينَ عذابُ السَّيفِ بأيدي الَّذينَ عادَوْهُم وآذَوْهُم وأخرَجوهُم، وذلكَ أقسى عليهم وأنكى.[1].

**دلالةُ التَّعبيرِ بالتكذيبِ مادَّةً وصيغةً:**

تكذيبُ ثمودَ لصالحٍ عليه السلام مُتحقِّقٌ وأثرُهُ ضعيفٌ أمامَ عِقابِ الله لهم

عُبِّرَ بالتَّكذيبِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ثمودَ لم يُصدِّقوا رَسولَهُم صالحًا عليه السلام فيما أنذَرَهُم به مِنَ العَذاب، ولم يَعتبروا من تَحذيرِهِ لهُم بحُلولِ العذاب عليهم إذا اعتدَوا على النّاقة.

وجيءَ بصيغةِ الماضي المضعَّف ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّكذيبِ وحُصولِه، ولذلكَ استحَقّوا الإهلاكَ والتَّدمير، وفي ذلك مزيدُ تأكيدٍ لمحلِّ العِظَةِ والعِبرَةِ للمُشركينَ المُكذِّبين للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

وَدَلَّ تأنيثُ الفِعلِ على ضَعفِ أثَرِ تكذيبِهِم لرسولهِم صالحٍ عليه السلام، وأنَّ هذا التَّكذيبَ لِكُلِّ ما أتى بهِ الرَّسولُ عن اللّه بسببِ ما كانَ من طُغيانِهِم، ومُجاوزَةِ القَدْرِ، والغُلوِّ في الكُفرِ لا قيمةَ لهُ أمامَ عَذابِ اللّه لهم؛ لِوُضوحِ آيةِ النّاقةِ، وقبيحِ غايتِهِم[2] في التَّعامُلِ معها.

**سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذِّكرِ دونَ بقيَّةِ الأقوامِ المُكذِّبة:**

أخبارُ ثمودَ معروفةٌ مشهورةٌ عند قريشٍ وسائرِ العرب

تخصيصُ ثمودَ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ مع أنَّ هناك مكذِّبين غيرَهم؛ لأنَّ آيَتَهُم - كانت أوضحَ الآياتِ في نفسها - ولأنَّ قريشًا وسائرَ العربِ يَعرفونَهُم؛ لِما يرونَ من آثارِهم، ويَتناقلونَ من أخبارِهم[3].

ولأنَّ آيةَ النّاقةِ قد أوجبَتْ لثمودَ البصيرةَ، فآثروا الضَّلالةَ والكُفرَ عن عِلمٍ ويقينٍ، فذُكِرَت قِصَّتُهُم في هذهِ السّورةِ؛ لأنَّهُ ذُكِرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 372.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.

فيها انقِسامُ النُّفوسِ إلى الزَّكيَّةِ الرّاشِدةِ المُهتَدية، وإلى الفاجِرَةِ الضّالَّةِ الغاوية، وذُكِرَ فيها الأصلانِ: القَدَرُ والشَّرعُ، فقيل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، فهذا قَدَرُهُ وقضاؤُه، ثم قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فهذا أمرُهُ ودينُه. وثمودُ هداهُم الله، فاستحبّوا العمَى على الهُدى، فذُكِرَت قصَّتُهم؛ لتبيينِ سوءِ عاقبةِ مَن آثرَ الفُجورَ على التَّقوى، والتَّدسيَةَ على التَّزكية[1].

### دلالةُ الباء في ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾:

فعلُ ثمودَ التَّكذيبَ؛ بطُغيانها

في الباء في قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ثلاثةُ أوجُه: أحدُها: أنَّها للاستعانةِ مجازًا، كقولك: كتبتُ بالقلم[2]، والمعنى: فعَلَتِ التَّكذيبَ بطُغيانِها، كقولك: ظَلمَني بجُرأتِه على الله تعالى.

الثّاني: أنَّها للتَّعدية، أي: كذَّبت بما أوعِدَت به من عَذابها الشَّديد؛ كقوله: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5]، وهذا المعنى ليسَ بعيدًا؛ لأنَّ الطُّغيانَ مجاوزَةُ الحدِّ؛ فسمَّى عذابَهُم طَغْوًا؛ لأنَّه كالصَّيحةِ في مُجاوَزةِ القَدْرِ المُعتاد.

والثّالث: أنَّها للسَّببيَّة، أي: كذَّبت بسبب طُغيانها[3]، وهو خروجُها عن الحدِّ في العصيان[4].

### غرضُ حذفِ مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾:

تكذيبُ ثمودَ بالعذابِ أو الوَعدِ به بسبب الطُّغيان

حُذف مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ ويقدر بناءً على معنى الباء؛ فإذا كانت الباء سببيَّةً فالمكذَّبُ به محذوفٌ، والتَّقدير: كذَّبت ثمودُ صالحًا عليه السلام بسبب طُغيانها، أو كذَّبت ما أوعِدَت به من العذاب بسبب طُغيانها، وكلا التَّقديرَين يدلُّ عليه السّياق اللّاحِق. وأمّا إذا كانت للتَّعدية

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/ 92.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 760.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والسّمين، الدر المصون: 11/ 22 - 23.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، وابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 20/ 268.

فهي صلة ﴿كَذَّبَتۡ﴾، والمعنى: كذَّبت بما أوعِدت به من عذابها[1].

وكذلك يكون المفعول محذوفًا إذا كانت الباء للاستعانة مجازًا.

**دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿ثَمُودُ﴾:**

ما حلَّ بثمودَ من العذابِ قطعَ وجودَهُم على الأرض

عبَّر القرآنُ الكريمُ عن قومِ صالح بلفظ ﴿ثَمُودُ﴾ في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾، وهو اسمُ قبيلةٍ أو الأرضِ الَّتي يسكُنونَها، ويُطلقُ على قطعِ مادَّةِ ماءِ الرَّجُل، وفقدِ مادَّةِ مالِه إذا كثُرَ عليه السُّؤال؛ فاللَّفظ يَحمِلُ مادَّةَ القَطعِ، وهذا مُناسِبٌ لِما حَلَّ بهِم مِن العَذاب؛ إذ قُطِعَ وُجودُهُم على الأرض. ولم يُعبَّر بـ (قومِ صالحٍ) أيضًا؛ لأنَّهُم قُطِعَت صِلتُهُم بصالحٍ عليه السلام، فلم تَعُد بينهُم عَلاقةٌ لكي يُلقَّبوا بقومِهِ إلّا مَجازًا باعتِبارِ ما كان.

**براعةُ التَّعبير بالطَّغوى:**

مجاوزةُ ثمودَ الحَدَّ في المعاصي والكفر

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالطَّغوى في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ لِما يَحمِلُهُ هذا الوَصفُ من تصويرِ حُلولِ العَذابِ بهِم؛ فيَصِحُّ أن يُقالَ إنَّها فعَلتِ التَّكذيبَ بطُغيانِها، والمُرادُ أنَّ طُغيانَهُم حَمَلَهُم على التَّكذيبِ به. ويَجوزُ أن يَكونَ اسمًا لِعذابِهِمُ الَّذي أُهلِكوا بهِ؛ أي: لم يُصَدِّقوا رَسولَهُم فيما أنذرَهُم بهِ مِن العَذاب، وبِذلك سُمّيَ ما أُهلِكوا بهِ مِن العَذاب. (طغوى)[2].

وفيه تعريضٌ بتنظيرِ مُشرِكي قُريشٍ في تكذيبِهم بثمودَ، في أنَّ سببَ تكذيبِهم هو الطُّغيانُ، والتَّكبُّرُ عن اتِّباعِ مَن لا يَرَونَ له فضلًا عليهم، كما أخبرَ اللّٰه تعالى عنهمُ بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31][3].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 297.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 198.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 372 - 373.

**سرُّ التَّعبير بـ ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ دون (بطغيانها):**

بلوغُ ثمودَ النِّهايةَ في تكذيبِهم

أوثِرَتِ الطَّغوى دون الطُّغيان؛ لأنَّ الطَّغوى أشبَهُ برؤوسِ الآيات[1]، ولأنَّ الواوَ في الطَّغوى قويَّة، فأفهَمَ هذا اللَّفظُ أنَّهم بَلَغوا النِّهايةَ في تكذيبِهم، فكانوا على الغايةِ من سوءِ تعذيبِهم[2]. ولأنَّ (طغواها) أصلُها: طُغيَها، وفَعلَ إذا كانت من ذواتِ الياءِ أُبدِلَتْ في الاسمِ واوًا ليُفصَلَ بين الاسم والصفة[3].

**نكتةُ الإضافة في ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾:**

الإضافةُ في قولِه ﷻ: ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ تدلُّ على أنَّ سببَ هلاكهِم هو طُغيانُهم لا طغيانُ غيرِهم؛ إذْ لا تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى، أو بأنَّهم كذَّبوا بعذابِهم المَوعودِ لا بعذاب غيرِهم؛ إذْ ما يَعنيهم هو عَذابهُم.

**دلالة الظَّرفيَّة ﴿إِذِ﴾ في ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾:**

انبعاثُ أشقَى ثمودَ أظهَرَ شدَّةَ عُتوِّهِم وكُفرِهم

﴿إِذِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ ظرفٌ للزَّمنِ الماضي يتعلَّق بـ (طغواها)؛ أي طغَتْ حين انبعثَ أشقاها للعَقر؛ لأنَّ وقتَ انبعاثِ أشقاها لعَقرِ النّاقة هو الوقتُ الَّذي بدَتْ فيه شدَّةُ طَغواها، فبَعَثوا أشقاهُم لعَقر النّاقةِ الَّتي جُعِلَتْ لهُم آيةً، وذلك مُنتهَى الجُرأة[4]. ويحتملُ أن يكونَ متعلِّقًا بـ ﴿كَذَّبَتۡ﴾[5]؛ أي: كذَّبوا نبيَّهُم حين انبعثَ أشقاهُم لعَقرِ النّاقة، وهو علامةٌ من علاماتِ تكذيبِهم.

**سرُّ تقديم الظَّرفِ في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ عن موقعه:**

انبعاثُ الأشقَى بإغراءٍ من قومِه له

قُدِّمَ الظَّرفُ ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ عن موقعِه بعد قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ لأنَّ انبعاثَ أشقاها لِعقرِ الناقةِ جُزئيٌّ مِن جُزئيّاتِ طغواهم، فهو أشدُّ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 178.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.

تعَلُّقًا بالتَّكذيبِ المسبَّبِ عنِ الطّغوى، ففي تقديمِه قضاءٌ لِحقِّ هذا الاتِّصالِ، ولإفادة أنَّ انبِعاثَ أشقاهُم لِعقرِ النّاقةِ كان عن إغراءٍ منهُم إيّاه، ولا يَفوتُ مع ذلك أنَّه وقعَ بعد أن قالَ لهم رسولُ اللّه: ناقةَ اللّه وسُقياها[1]، وهذا المعنى ظاهرٌ إذا كانَ الظَّرفُ ﴿إِذِ﴾ متعلِّقًا بـ(طغواها).

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالانبعاثِ مادَّةً وصيغةً:

شِدَّةُ حِرصِ ثمودَ على عَقرِ النّاقة

عُبِّر بالانبعاثِ في قوله ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾؛ للدَّلالةِ على خُروجِ أشقاهُم إلى عَقرِ النّاقة بنشاطٍ وحرصٍ[2]، وأنَّه قد جدَّ في هذا الأمرِ القبيحِ[3]. وفي ذلك ما لا يَخفى من تفظيعِ شأنِ ثمود؛ إذ كانوا حريصينَ على مَحوِ كلِّ أثرٍ للحقِّ والهُدى، ومن ذلك أبلغُ آيةٍ لهُم، وهي النّاقة.

وجاء بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ انبعاثِ أشقاهُم وحُصولِه، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِه وحالِهم، ولأنَّ العادة جاريةٌ بحكايةِ أفعالِ القصصِ السّالفةِ بصيغةِ الماضي.

### نُكتةُ صيغةِ الانفعالِ في ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾:

عَقرُ الأشقى للنّاقةِ كان بطلبٍ من قومه

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بصيغةِ ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ في قولِه جلَّ من قائل: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ مُطاوعَ (بعث)؛ لأنَّ الانبعاثَ هو الإسراعُ في الطّاعةِ للباعث، يُقالُ: بعثتُ فلانًا على الأمر فانبعَثَ لهُ أي: نهضَ وأسرَعَ، والمعنى: أنَّه كذَّبت ثمودُ بسبَبِ طُغيانِهم حين انبَعَثَ أشقاها، وهو عاقرُ النّاقة[4]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ نهوضَهُ لعَقرِ النّاقةِ كان بطلَبٍ منهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 298.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.

مُباشِرو عَقرِ النّاقةِ أشقى قومِهم

آيةُ النّاقةِ كانت بعد تكذيب ثمود

الإعلامُ بسوءِ حالِ عاقرِ النّاقة

**بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ دون (أشقوها):**

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظِ الأشقَى في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ دون (أشْقوها)؛ لتعَدُّدِ المُراد به، فيحتملُ أن يكون المقصودَ شخصٌ معيَّنٌ، واسمُه قُدار بن سالف، ووجهُ التَّفضيل: أنَّه أشقَى قومِه وأشقَى الأوَّلين؛ لمُباشَرَتِه عَقرَ النّاقة، ويُضرَبُ به المَثَلُ، فيُقال: أشأمُ من قُدار.

ويحتملُ أن يكونَ المُرادُ به جماعةً، وإنَّما جاء على لفظِ الوحدان؛ للتَّسويةِ في أفعل التَّفضيل إذا أُضيفَ بين الواحدِ والجمع، والمذكَّرِ والمؤنَّث، تقول: هذان أفضلُ النّاس، وهؤلاءِ أفضلُهم، وهذا يتأكَّد بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، وكان يجوزُ أن يُقال: أشقَوها؛ كما يُقال: أفاضلُهم[1]، أو يُقال: أفعلُ التَّفضيل إذا أُضيفَ إلى معرفةٍ جازَ إفرادُه وإنْ عُنيَ به جمعٌ[2]. وفضلُ شَقاوتِهم على مَن عَداهُم؛ لمُباشَرَتِهم العَقرَ مع اشتراكِ الكلِّ في الرِّضا به[3].

**دلالةُ الإضافة في ﴿أَشْقَىٰهَا﴾:**

تدلُّ الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ على سوءِ حالِ قُدار بن سالف الَّذي باشرَ عقْرَ النّاقة، أو سوءِ حالِ الجماعةِ الَّذين باشروا ذلك، حتَّى كأنَّهم انتدَبوا لهذا الفعلِ الشَّنيع أرذلَهم وأقبحَهُم فعلًا وصنيعًا.

**سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَقَالَ﴾:**

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفاءِ في قولهِ ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ دونَ غيرِها من حروفِ العطف؛ لأنَّها مع أداءِ وظيفةِ العطفِ لقوله: (قال) على ﴿كَذَّبَتْ﴾، تُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ كما

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 760، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.

هو الغالبُ فيها، ويكونُ معنى الكلام: كذَّبوا رسولَ اللّه صالحًا عليه السلام؛ فتحدّاهُم بآيةِ النّاقة، وحذَّرَهُم من التَّعرُّضِ لها بسوءٍ، ومِن مَنْعِهم شربَها في نَوْبتِها من السُّقيا، وهذا يقتضي أنَّ آية النّاقةِ أُرسِلَتْ لهم بعد أن كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آيات الرُّسل.

ويجوزُ أن تكون الفاءُ للتَّرتيب الذِّكْريِّ المجرَّد، وهي تفيدُ عَطْفَ مفصَّلٍ على مُجْمَل، فيكون المعنى: (كذَّبت ثمودُ بطَغواها؛ إذ انبعث أشقاها)، ثمَّ فصَّل ذلك بقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والعقرُ عند انبعاثِ أشقاها، وعليه فلا ضرورة إلى اعتبارِ الظَّرف - وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ - مقدَّمًا من تأخيرٍ[1].

ويجوزُ أن تكون للسَّببيَّة، والمعنى: فقال لهم ما قال بسبب الانبعاثِ أو التَّكذيبِ الَّذي دلَّ على قصدِهم لها بالأذى[2].

### دلالةُ التَّعبير بفعل القولِ مادةً وصيغةً:

تحذيرُ الرَّسولِ لهم واقعٌ يقينًا

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالقول في قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ صالحًا عليه السلام وجَّه القولَ إليهم مباشرة، وهذا دليلٌ على بلاغِهِ لهم دون وساطةٍ ليُقيمَ الحُجَّة عليهم.

وعُبِّرَ بصيغة الماضي للدَّلالةِ على أنَّ تحذيرَهُ لهُم متحقِّقٌ واقعٌ، فلا عُذرَ لهُم في إقدامِهم على عَقرِ النّاقة.

### دلالة اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ للتَّبليغ، والمرادُ أنَّه جعلَ القولَ منتهيًا إليهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه لم يُقصِّر في تحذيرِهم وأداءِ ما كلَّفَهُ اللّه تعالى به.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373 - 374.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.

التَّحذيرُ موجَّهٌ لثمودَ أو لأشقاها

### دلالةُ الإضمار في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالإضمار دون الإظهار في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ لتعدُّدِ المُراد بالضَّمير؛ فإنْ كانَ المُرادُ بـ ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ جماعةً فعَودُ الضَّمير من ﴿لَهُمۡ﴾ عليهم واضحٌ، وإنْ كان المرادُ به واحدًا بعَينه فالضَّميرُ من ﴿لَهُمۡ﴾ يعودُ على ثمود[1]، ولا يتأتَّى ذلكَ من الإظهار.

### علَّةُ جمعِ الضَّميرِ في ﴿لَهُمۡ﴾ وما بعدَهُ:

أُعيدَتْ عليهم ضمائرُ الجمع في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وما بعده باعتبارِ أنَّهُم جمعٌ، وإن كانت الضَّمائرُ قبله مُراعًى فيها أنَّ ثمودَ اسمُ قبيلة[2].

تحذيرُ ثمودَ محلُّ العناية

### دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على الفاعلِ ومَقولِ القولِ في قولهِ ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ للعنايةِ بتحذيرِهِم وإيصالِ القولِ لهم، وللتَّشويقِ للمُؤَخَّر، ولأنَّ في الفاعلِ ومَقولِ القولِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُه بتجاوبِ أطرافِ النَّظم.

عِصيانُ ثمودَ مَن تجبُ عليهم طاعتُه

### سرُّ التَّعبير عن صالح عليه السلام بعنوان الرِّسالة:

عُبِّر عن صالحٍ عليه السلام في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ بعنوان الرِّسالة مضافًا إلى لفظِ الجلالة؛ إيذانًا بوجوب طاعته؛ لأنَّ هذا القولَ كان من عندِ اللّه وبأمره، وبيانًا لغايةِ عُتوِّهم وتماديهِم في الطُّغيان[3]؛ إذ لم يُبالوا بتحذيرِ مَن تجبُ عليهِم طاعتُه.

---

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 24.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 362، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 299.

### دلالةُ التَّعبير بالرَّسول دون النَّبيِّ:

عِصمةُ الرُّسُلِ مِن قتلِ أقوامِهم

عُبِّر بالرَّسول دون النَّبيِّ في قولِ الحقِّ جلَّ من قائلٍ: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ لأنَّ وظيفته الإبلاغُ والتَّحذيرُ الذي ذُكِرَ هنا[1]، فيكونُ أنسَبَ بالمقام. وفيه إشارةٌ أيضًا إلى حِفظِ اللّه لرُسلهِ من القتلِ من أعدائهم.

### سرُّ إيثارِ لفظِ الجَلالة دونَ غيرِه في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

التَّنبيهُ على وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ وتعظيمِه

أوثِرَ لفظُ الجلالةِ في قولِه تعالى شأنه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى زيادةِ تعظيم صالحٍ عليه السلام، والتَّنبيهِ على وجوبِ طاعتهِ، أي: رسولُ المِلكِ الَّذي لهُ الأمرُ كلُّه؛ فتعظيمُهُ من تعظيمِ مُرسِلِهِ عز وجل[2].

### بلاغةُ الحذفِ في ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾:

مسُّ النّاقةِ بالأذى عِلَّةُ سُرعةِ التَّعذيب

تظهَرُ بلاغةُ الحذفِ في إعرابِ قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ فهو منصوبٌ على التَّحذير، أي: اِحذَروا ناقةَ اللّه - أي: عَقْرَها - فلا تقرَبوها، فالكلامُ من تعليقِ الحُكم بالذَّوات، والمرادُ أحوالُها[3]. وإضمارُ النّاصبِ هنا واجبٌ لِمكانِ العطف؛ فإنَّ إضمارَ النّاصبِ يَجِبُ في ثلاثةِ مواضِع؛ هذا الموضعُ منها. ويَجوزُ أن يكونَ مَنصوبًا على تَقدير: ذَروا ناقةَ اللّه، كما في آيةِ سورةِ الأعراف، وفي حَذفِ العاملِ إشارةٌ إلى ضيقِ الحالِ عن ذِكرِه؛ لِعظيمِ الهَولِ وسُرعةِ التَّعذيبِ عندَ مَسِّها بالأذى[4].

### سِرُّ إيثار لفظِ الجلالة وإضافةِ النّاقةِ إليه:

شرَفُ النّاقةِ وتعظيمُ قَدرِها

أُضيفَ لفظُ ﴿نَاقَةَ﴾ إلى اسم الجلالة في قولِه تبارك شأنه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها آيةٌ جعلها اللّه دليلًا على صِدقِ رسالةِ صالحٍ عليه السلام؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(3) السمين، الدر المصون: 11/ 24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.

لأنَّ خُروجَها لهم كان خارِقًا للعادة[1]. وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لها، وبيانُ أنَّ عَقْرَها من شِدَّةِ طُغيانهم، فاستَحَقّوا بذلك العذابَ[2].

سوءُ المصير مآلُ مَن انتهكَ حُرُماتِ الله

وإنَّما عُدِلَ إلى إظهارِ لفظِ الجَلالةِ في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ والظّاهر أن يُقال: (ناقته)؛ لزيادةِ التَّعظيم، أي: ناقةَ الملِك الأعظَم الَّذي له الجبروتُ كلُّه، فلا ينبغي أن يقتربَ أحدٌ من انتهاكِ حُرُماتِ اللّه، ولا أن يَتجَرَّأ أحدٌ على ما أضافَهُ إليه[3].

### دلالة الواو في ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾:

حُرمة التَّعرُّضِ ليومِ سَقْيِ النّاقة

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ للعطف، والسُّقيا: معطوفٌ على التَّحذيرِ المقدَّر، أي: اِحذَروا غَصْبَ سُقياها؛ فالكلامُ على حَذفِ مُضافٍ، أو أُطلِقَ لفظُ السُّقيا على الماءِ الَّذي تُسقى منه، إطلاقًا للمصدرِ على المفعول؛ فيرجِعُ إلى إضافةِ الحُكم إلى الذّات، والمُرادُ حالةٌ تُعرَفُ مِنَ المقام؛ فإنَّ مادَّةَ (سُقيا) تُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ التَّحذيرُ من أن يَسقوا إبلَهُم من الماءِ الَّذي في يوم نَوْبتِها[4].

### سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ دونَ شَرابِها:

تحذيرُ ثمودَ من منعِ النّاقةِ نصيبَها من الماء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالسُّقيا في قوله: ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ دونَ الشُّرب؛ لأنّ السُّقيا: أن يُعطيَهُ ما يَشرَب[5]؛ لذلك عُبِّرَ بها هنا؛ لأنَّ المُرادَ أن يُعطوا النّاقةَ نصيبَها من الماء في اليوم المخصَّصِ لها، وتحذيرُهم من منعِ ذلك؛ بخِلافِ الشَّراب؛ فيُطلَقُ على ما يُتناوَلُ من كلِّ مائعٍ؛ ماءً كان أو غيرَهُ[6]، وعلى هذا فالشَّرابُ أعَمُّ من السُّقيا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(5) الراغب، المفردات: (سقي).
(6) الراغب، المفردات: (شرب).

### دلالة الإضافة في ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظ (سُقيا) إلى ضمير النّاقة في قوله: ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾؛ لزيادة تأكيدِ النَّهي عن التَّعرُّضِ لنصيبِ النّاقةِ من الماء؛ فالإضافةُ تُشعِرُ باختصاصِ السُّقيا بها، وأنَّها لها لا لغيرها.

### دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

وضعَت ثمودُ التَّكذيبَ موضعَ التَّصديق

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفاء في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دون غيرها من حروف العطف لتعدُّدِ معناها؛ فيجوزُ أن تكون للسَّببيَّة إذ الأمرُ المذكورُ سببٌ للتَّصديق، وهم قد جعلوه سببًا للتَّكذيب[1].

ويحتملُ أن تكون الفاءُ هي الفصيحةَ، أي: قال لهم ذلك، فكانت بعدَهُ بينَهُ وبينهم في أمرِها أمورٌ، فأوقعوا تكذيبَه فيها كلِّها[2].

### دلالةُ مضيِّ الأفعالِ في الآية:

مصيرُ ثمود محلُّ تحذيرٍ وعِظةٍ وعِبرة

جيءَ بالأفعالِ على صيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾؛ لِلدَّلالةِ على تَحقُّقِها وحُصولِها كما هو شَأنُ حِكايةِ القَصَصِ والأحداثِ السّالِفَة، وفي ذلك مُلاءَمةٌ لِمَقام تَحذيرِ قُرَيشٍ من مثلِ مَصيرِ ثمودَ؛ لأنَّ حُكمَ اللهِ جَرى بِعِقابِ مَن يَعتَدي على آياتِهِ حتَّى يكونَ عِظَةً وعِبرَةً لِمَن بَعدَهُ.

### سِرُّ حذفِ المكذَّبِ به في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

عقابُ مَن يعتدي على آيات الله تعالى سنَّتُهُ الجارية

في قولِه ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ إيجازٌ بحذفِ متعلّق التَّكذيب؛ لظُهوره من السّياق، والمعنى: فكذَّبوهُ فيما حذَّرهُم منه؛ من حُلولِ العذابِ بهم إن تعرَّضوا لسُقيا النّاقة[3].

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّه ما كان يَنبغي لهم أن يُكذِّبوهُ في مِثلِ هذا

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 483.

التَّحذير؛ لأنَّ سُنَّةَ اللهِ جَرَتْ بِعِقابِ مَن يَعتَدي على آياتِهِ، وما سَبَقَ من أحوالِ الأُمَمِ أكبرُ دليلٍ على ذلك.

### دلالةُ تكرارِ ذِكرِ التَّكذيب في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

التَّكذيبُ المذكورُ في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبٌ ثانٍ، وهو تكذيبُهم بما اقتضاهُ التَّحذيرُ من الوَعيدِ والإنذارِ بالعذاب إن لم يَحذَروا الاعتداءَ على تلك النّاقة، وقد صُرِّحَ به في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، وبهذا الاعتبار استقامَ التَّعبيرُ عن مقابلةِ التَّحذيرِ بالتَّكذيب مع أنَّ التَّحذيرَ إنشاء، فالتَّكذيبُ إنَّما يتوجَّه إلى ما في التَّحذير من الإنذار بالعذاب[1]. وفي تكرير ذِكرِ التَّكذيب إشارةٌ إلى أنَّ نفوسَهُم قد ضَرِيَتْ به، حتَّى صار خُلُقًا وطبعًا لها.

التَّكذيبُ خُلُقٌ راسخٌ في ثمود

### سِرُّ التَّعبير بالتَّكذيب:

أسندَ القرآنُ التَّكذيبَ إلى قومِ ثمودَ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع أنَّهُم رَضوا بأن يكونَ لِلنّاقةِ شِرْبٌ ولَهُم شِرْبٌ، وقد يُفهَمُ من ذلك أنَّهُم ما كذَّبوا؛ لذلك أجابَ العُلَماءُ على ذلك بأنَّ المرادَ إقرارُهُم بتقسيمِ الشِّربِ بينهم وبينَ النّاقةِ من غيرِ تَصديقٍ إيمانيٍّ، أو أنَّ الكلامَ ليس على أصلِهِ في التَّرتيب، إنَّما أصلُهُ: (فعَقَروها فكَذَّبوهُ)، فيقعُ التَّكذيبُ أوَّلًا والعَقرُ بعدَهُ[2].

### نُكتةُ إسنادِ التَّكذيب إلى جَميعِهم مع إيمانِ بعضِهم:

أُسنِدَ التَّكذيبُ إلى جَميعِهِم معَ أنَّ منهُم مَن آمَنَ بصالح عليه السلام - كما دلَّ على ذلك آياتٌ في سوَرٍ أخرى - لأنَّ الكلامَ عن الَّذين استمَرّوا على تَكْذيبِهم لهُ بعد مَجيئِه بالنّاقة، ويُمكنُ أن يُقالَ: إنَّهم بعد تَسليمِهِم بقِسمةِ الشَّرابِ بينهُم وبينَ النّاقة، أجمَعوا على مَنْعِها

الدَّلالةُ على كثرة المكذِّبين وقلَّةِ المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 269.

الشِّرْبَ ورَضوا بقَتلِها، ولم يُبالوا بشدَّةِ التَّحذيرِ والوعيد، وهذا هو موطنُ العِظَة والعِبرةِ الَّتي أُريدَ أن تتَّعظَ بها قريش[1].

## سِرُّ تقديمِ التَّكذيبِ على العَقر:

قُدِّمَ التَّكذيبُ على العَقر في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾؛ لأنَّه هو الَّذي كان سببَ العَقر[2]، والسَّببُ سابقٌ على المسبَّب.

## معنى الفاء في ﴿فَعَقَرُوهَا﴾:

تـكـذيـبُ ثـمـودَ حملَها على عَقرِ النّاقة

الفاءُ في قولِه جلَّ مِن قائل: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: فعَقروها بسَبَبِ ذلكَ التَّكذيب[3]، ولو آمَنوا وصَدَّقوا ما أقدَموا على هذا الفعلِ الشَّنيع الَّذي كانت عاقبتُهُ هلاكَهم ودمارَهم. ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ لترتيبِ العَقرِ على التَّكذيب، وبذلك يكونُ المُرادُ منها التَّعقيب؛ لأنَّ بينَ العَقر وحُلولِ العَذابِ ثلاثةَ أيام[4].

## سرُّ التَّعبيرِ بالعَقر دونَ الذَّبح:

تـكـذيـبُ ثـمـودَ كـان قـبـلَ عَـقـرِ النّاقة

عُبِّرَ بالعَقرِ في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ دونَ الذَّبحِ؛ لوجودِ فرقٍ بينَهُما؛ فالذَّبحُ شَقُّ حَلْقِ الحَيواناتِ على العُموم، أمّا العَقْرُ؛ فهوَ جَرْحُ البَعيرِ في يدَيْهِ ليبرَكَ على الأرضِ من الألمِ فيُنْحَرَ في لُبِّه، وبذلك يكونُ العَقْرُ أخَصَّ من الذَّبحِ؛ لأنَّه خاصٌّ بالبَعيرِ.

## وجهُ إسنادِ العَقر للجميع والفاعلُ واحدٌ منهُم:

رضـا ثـمـودَ بـعَـقـرِ الـنّـاقـةِ وتحريضُها عليه

أسنَدَ القُرآنُ الكريمُ عَقرَ النّاقةِ إلى الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مع أنَّ الفاعلَ واحدٌ، وهو قدار بن سالف، ومعَ ذلك أُضيفَ الفِعلُ إلى الكلِّ؛ لأنَّهم رضوا بفِعلِه، وحرَّضوهُ عليه، وقد ذُكِرَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان 24/ 460.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.

أنَّه لم يَعقِرْها حتَّى تابَعَهُ صَغيرُهُم وكَبيرُهم، ذَكَرُهُم وأُنثاهم[1]؛ قال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: 29][2].

### دلالة الفاء في قوله: ﴿فَدَمۡدَمَ﴾:

الفاء في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّة؛ فعَقرُهُم للنّاقة كان سببَ هلاكِهم، وقد كان بين العَقرِ وبين حُلولِ العذاب بهِم ثلاثةُ أيّام، فلا تضرُّ دلالةُ الفاء على التَّعقيب[3].

### سرُّ التَّعبير بالدَّمدَمَة:

إهلاكُ ثمودَ هلاكُ استئصال

عبَّر القرآنُ الكريم بالدَّمْدَمَة دونَ الهلاكِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ لأنَّ لفظَ الدَّمدَمَةِ يَحمِلُ معانيَ زائِدَةً على الهَلاكِ؛ فتُطلَقُ على ترديدِ الحالِ المُستَكرَهَة، وعلى التَّدميرِ والهَلاكِ، وإطباقِ العذابِ عليهم؛ يُقالُ: دَمْدَمْتُ على الشَّيءِ إذا أطبَقتَ عليه، وعلى هذا يكونُ المُرادُ أنَّه ﷻ أهلكَهُم هَلاكَ استئصالٍ[4] ولم يُبقِ منهم أحدًا.

### الدلالة الصوتية لقوله: (دمدم):

التَّعبيرُ بـ(دَمْدَم) بصوتِه ليَدُلَّ على المُبالغةِ في العذاب

الفعلُ (دمدم) فعلٌ انفردَت به سورةُ الشَّمس، ولم يَرِدْ في غيرِها في سورِ القرآن، وقيل أصلُه: (دمّ) فضُعِّفَ (دَمْدَم)، والمرادُ بها حكايةُ صوتِ الهَدَّة، ومنهُ (دَمْدَمَ فُلانٌ في كلامِه)، وتُطلَقُ على صوتِ الصّاعقةِ والرَّجفةِ الَّتي أُهلِكوا بها، أي: صاحَ عليهم ربُّهم صيحةَ غَضَبٍ، إلى غيرِ ذلك من المَعاني الَّتي تحتملُها هذهِ اللَّفظة، ولا سيَّما أنَّ الدَّلالةَ الصَّوتيَّة فيها تتناسبُ مع معنى إرجافِ الأرضِ بهم، والمُرادُ تحريكُها بشِدَّةٍ عليهم؛ فكأنَّ كُلَّ مَقطعٍ في الكلمةِ يُصوِّرُ حركةَ الأرضِ وهيَ ترتجِفُ بهِم، وهذا مناسبٌ لطبيعةِ بُنيانِ قومِ صالح، فكانوا يَنحِتونَ من الجِبالِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.

بيوتًا، ويظنّونَ أنَّها تَحميهم من العذابِ لِصَلابةِ الجِبالِ وقوَّةِ حَصانَتِها؛ فجاءَ التَّعبيرُ بـ (دَمْدَم) بصوتِه ليَدُلَّ على المُبالغةِ في العذاب.

### بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الدَّمدَمةِ إلى الله:

أسندَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الدَّمدَمَة إلى اللهِ في قوله: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ من باب المجاز العقليِّ؛ لأنَّ اللهَ هو خالقُ الصَّيحةِ وكيفيّاتِها[1]. أو المعنى: أطبقَ عليهم الأرضَ، أو سوّاها عليهم؛ بأن أهلكَهُم فجَعلَهم تحتَ التراب[2].

### دلالةُ التَّعبير بحرفِ الاستعلاء:

إحاطةُ العذابِ الشَّديدِ بثمودَ من كلِّ جانب

التَّعبيرُ بأداةِ الاستعلاء (على) في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ يدلُّ على شدَّةِ العذاب وإحاطتهِ بهم من كلِّ ناحية؛ فلا يجدونَ مفرًّا ولا مَهْرَبًا، ويكونُ المرادُ أنَّ اللهَ عذَّبَهُم عذابًا شديدًا أحاطَ بهِم واستأصَلَهُم.

### دلالة تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

وقوعُ العذابِ على ثمودَ محلُّ العِظةِ والعِبرة

تقديمُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل في قولِه تعالى شأنه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ للعناية بكونِ العذابِ محيطًا بهِم، والمسارعةُ في الإخبارِ بِهِ لأخذِ العِظةِ والعِبرَةِ، والتَّشويقِ للمُؤَخَّر.

### سِرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم:

كُفرُ الإحسانِ موجِبٌ لقَطْعِهِ وشدَّة الانتقام

التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم في قولِه ﷻ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ العذابِ لشدَّةِ الغضب، وذلك بذكرِ صفةِ الإحسانِ الَّتي كفَروها؛ لأنَّه لا أشدَّ غضبًا ممَّن كُفِرَ إحسانُه، والمعنى: فدَمدَمَ عليهم الَّذي أحسَنَ إليهم، فغرَّهُم إحسانُه، فقطعَه عنهُم، فعادوا كأمْسِ الدّابرِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179 - 180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82 - 83.

### دلالةُ الباء في ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾:

الذُّنوبُ سببُ الهلاكِ والعذاب

الباءُ في قولِهِ جلَّ شأنه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: فدَمدَمَ عليهم ربُّهم بسبب ذنبهم[1]، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ لكُفّار قريش الَّذين يُقارفون الذُّنوب، ويُعادون أهل الحقِّ؛ لأنَّ سنَّة اللّه تعالى في إهلاكِ الظّالمين واحدة.

### سرُّ التَّصريح بالذَّنب مع دلالة الفاء عليه:

ذِكرُ عاقبةِ الذَّنب عِبْرةٌ لكلِّ مذنب

صرَّح القرآنُ الكريمُ بسببيَّة الذَّنب للدَّمدَمة في قوله ﷻ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ - مع دلالة الفاء على ذلك - للإنذار بعاقبة الذَّنب؛ ليَعتبرَ به كلُّ مذنب[2]، ولتبشيع صورةِ الذَّنب؛ فلا يُقدِم أحدٌ على فِعل مثلِ هذا الذَّنب لشدَّة العقوبة المُترتِّبة عليه.

### سِرُّ التَّعبير بالذَّنب دون العَقْر:

تبشيعُ فِعلِ عَقرِ النّاقة لأخذِ العِظة والاعتبار

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن عَقرِ قومِ صالحٍ للنّاقة بالذَّنب في قوله تعالى: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للإشارة إلى التَّعميم[3]، وأنَّ كلَّ ذنبٍ من ذُنوبهم له مدخلٌ في هلاكهِم واستئصالهِم، ويَدخُل في ذلك عَقرُهم النّاقة دخولًا أوَّليًّا، وجاء بالإفراد ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ لأنَّه مصدر، والمصدرُ يدلُّ على المفرد والمثنى والجمع.

### نكتة الإضافة في ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾:

هلاكُ ثمودَ بما صنعَتْ يداها

دلَّتِ الإضافةُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكرُه: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ على أنَّ هلاكهُم بذَنبهم لا بذنبٍ لغيرهم، وفي ذلك مزيدُ بيانٍ لاستحقاقهم العذابَ، وأنَّه تعالى لا يظلمُ أحدًا، والمعنى: أهلكَهُم وأطبقَ عليهم العذابَ بذنبهِم الَّذي هو الكفرُ والتَّكذيبُ والعَقْرُ[4].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 165.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.

### دلالةُ الفاء في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

تفريعُ التَّسوية على الدَّمدمة

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ لتفريعِ التَّسوية على الدَّمدَمة[1]، وبيانِ أنَّها ناتجة عنها، وأثرٌ من آثارها؛ لأنَّه لمّا تمادَى قومُ ثمودَ في الظُّلم والكُفر بسببِ عَقرِ النّاقةِ من بعضِهم ورِضا بعضِهم، قال مُسبِّبًا عن ذلك ومُعقِّبًا ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾[2].

### مرجع الهاء في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

الدَّمدَمَةُ شاملةٌ لكُفّار ثمود

الضَّميرُ المنصوب في قولِه ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يجوزُ عَوْدُه على ثمود باعتبار القبيلة، كما أعادَهُ في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، ويشملُ أبنيَتَهُم؛ أي: سوَّى أبنيَتَهُم بهَدمِها وإخرابِها ويجوزُ عَوْدُه على الدَّمدَمَة والعقوبة، أي: سوّاها عليهم جميعًا، فلم يُفلِتْ منهم أحدٌ[3].

ومَن فسَّروا (دمدم) بمعنى: أطبقَ عليهم الأرضَ؛ قالوا: معنى (سوّاها): جعل الأرضَ مستويةً عليهم، لا تظهَرُ فيها أجسادُهم ولا بلادُهم، وجعلوا ضميرَ المؤنَّث عائدًا إلى الأرض المفهومة من فعلِ (دمدمَ)، فيكون كقوله تعالى: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء: 42][4].

### بلاغةُ التَّعبير بالتَّسوية في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

عذابُ ثمودَ عامٌّ فظيعٌ مُطبِقٌ عليهم

إنْ فُسِّرت الدَّمدمة بالإطباق والعُموم؛ كان معنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فسوَّى الدَّمدمةَ عليهم، وعمَّهُم بها، وذلك أنَّ هلاكهم كان بصيحةِ جبريل عليه السلام، وتلك الصَّيحةُ أهلكتْهُم جميعًا، فاستوَتْ على صَغيرِهم وكبيرِهم، وإنْ فُسِّرت بالتَّسوية، كان المراد: فسوَّى عليهم الأرض[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 443.
(3) السمين، الدر المصون: 11/ 25.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179 - 180.

### براعةُ الجِناس في ذِكر التَّسوية:

بين قوله ﷻ هنا: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ وقوله قبله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ محسِّنُ الجناس التّامِّ[1]. وفيه أيضًا إيهامُ الطِّباق بالإثباتِ والنَّفي.

### توجيه القراءات في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:

في هلاكِ ثمودَ رَدعٌ لأمثالِهم من المشركين

قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء، وقرأ الباقون ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو[2]؛ فوجهُ مَن قرأ بالفاء أنَّها للعطف والتَّعقيب[3]، وفيها معنى التَّفريع على ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾. ومعنى التَّفريع: تفريعُ العِلم بانتفاء خوفِ اللّه منهم مع قوَّتهم؛ ليَرتدعَ بهذا العِلم أمثالُهم من المشركين[4]، قال الداني: "وفي الشمس في مصاحف أهل المدينة والشام: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ بالفاء، وفي سائر المصاحف: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو"[5].

ووجهُ مَن قرأ ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو أنَّها للحال، أي: والحال أنَّه لا يخافُ عُقباها، أو للاستئناف[6].

### مرجعُ ضمير الفاعل في ﴿وَلَا يَخَافُ﴾:

اللهُ تعالى لا يَخافُ عاقبةَ هلاكِ ثمود

تعدَّدَتِ الأقوالُ في مرجع ضميرِ الفاعلِ في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾؛ فيحتملُ أنَّه يعودُ على الرَّبِّ؛ لكونِه أقربَ مذكور، والمعنى: ولا يخافُ ﷻ عاقبةَ هلاكِهم؛ فهو القويُّ المتينُ الَّذي لا يُغالَب، وهو الأظهَر.

ويحتملُ أن يعودَ على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا يخافُ عُقبَى هذه العقوبة؛ لإنذارِه إيّاهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 401.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والسّمين، الدر المصون: 11/ 25.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(5) الداني، المقنع: ص 112.
(6) السمين، الدر المصون: 11/ 25، وابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات وعللها: 3/ 1377.

ويحتملُ أن يعودَ على ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: انبعثَ لعَقرِها والحالُ أنَّه غيرُ خائفٍ عاقبةَ هذه الفَعْلَةِ الشَّنعاء[1].

**بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:**

ملكُ الملوكِ لا يخافُ عاقبةَ هلاكِهم واستئصالِهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، استعارةٌ تمثيليَّةٌ لإهانتهم، وبيانِ أنَّهم أذِلّاءُ عند الله[2]. والمُرادُ: أنَّهُ بالَغَ في عذابِهم إلى غايةٍ ليسَ فوقها غايةٌ؛ فإنَّ مَن يَخافُ العاقِبَةَ لا يُبالِغُ في الفِعل، أمّا الَّذي لا يَخافُ العاقِبَةَ ولا تَبِعَةَ العَمَلِ فإنَّهُ يُبالِغُ فيه؛ ليَصِلَ إلى ما يُريد، ولمّا كانَ الأمرُ صادِرًا مِنَ الله؛ فهو لا يَخشى تَبِعَةَ إهلاكِهِم؛ لأنَّهُ العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، أو لا يَخافُ عاقِبَتَها كما يَخافُ المُلوكُ عاقِبَةَ ما يَفعلونَهُ.

**بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:**

عقابُ الله للمُشركين واستئصالُه لهُم لا يَردُّه أحد

تظهَرُ بلاغةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ في إبرازِ عظمَتِه سبحانه في تمكُّنِ سُلطانِه من عِقابِ المُشركين؛ لأنَّه لمّا كانَ المذكور فيما سبَق عِقابًا وغلَبَةً، وكان العُرفُ أنَّ المغلوبَ يُكِنُّ في نفسه الأخذَ بالثَّأر من غالِبِه، فلا يَهدأ له بالٌ حتَّى يَثأر لنفسه، فكان الَّذي يَغلبُ غيرَهُ يتَّقي؛ حذرًا من أن يتمكَّن مغلوبُه من الثَّأر؛ أخبرَ الله سبحانه أنَّه الغالبُ الَّذي لا يقدرُ مَغلوبُه على أخذِ الثَّأر منه، وهذا كنايةٌ عن تمكُّنِ الله من عقابِ المشركين، وأنَّ تأخيرَ العذاب عنهم إمهالٌ لهم، وليس عن عجزٍ؛ فجملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تذييلٌ للكلام، وإيذانٌ بالختام.

ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تمثيلًا لحالهم في الاستئصال بحالِ مَن لم يترك مَن يثأرُ له، فيكون المَثَل كنايةً عن هلاكِهم عن بَكْرةِ أبيهم، لم يَبقَ منهم أحد[3].

---

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 25.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 366، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 363، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 483.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.

### دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾:

الله تعالى متنزِّهٌ عن الخوفِ على الدَّوام

جاءَ التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ انتفاءِ الخوف، والمعنى: لا يخافُ في وقتٍ من الأوقات[1]؛ لأنَّه لم يَظلمْهُم فيُخيفَه الحقُّ، وليس هو بالضَّعيف حتَّى يَنالَهُ منهم مكروهٌ، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[2].

### مرجعُ الهاء في ﴿عُقْبَاهَا﴾:

إهلاكُ ثمودَ مأمونُ العواقب عند الله

الهاءُ في قوله تعالى شأنه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ للدَّمدَمَة، أي: ولا يَخافُ اللهُ عاقبةَ الدَّمدَمَة[3]، أو للفَعْلَةِ الَّتي هي إهلاكُ ثمود، أي: ولا يخافُ عاقبة هذه الفَعْلَة[4].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالعُقبى:

الله تعالى متَّصفٌ بالعظمة والجلالِ والكبرياء

عبَّر بالعُقبى في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾؛ لدلالتها على خاتمةِ الشَّيء وما يجيءُ من الأمور بعَقِبه[5]، سواء كان ذلك عِقابًا لفاعلِه أو مثوبةً[6]، فيفيدُ اختيارُ هذا اللَّفظِ هنا أنَّه ﷻ لا يَخشى العقابَ أو الانتقامَ أو الثَّأر؛ لإهلاكِه ثمود، وفي ذلك ما لا يَخفى من التَّنصيص على العظَمة والجلال والكِبْرياء.

### سرُّ رجوعِ آخِرِ السّورةِ على أوَّلها:

صاحبُ التَّدبيرِ الحكيم لا يَخافُ العواقبَ

لمّا أفادَ قولُه ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أنَّه تعالى هو المِلكُ الأعلى الَّذي كلُّ شيءٍ في قبضَتِه؛ عُلم أنَّه ﷻ يُعلي أولياءه؛ لأنَّهم على الحقِّ، ويُسفِّلُ أعداءَهُ؛ لأنَّهم على الباطل، فلا يَضِلُّ بعد ذلك إلّا هالكٌ؛ بصيرتُه أشدُّ ظلامًا من اللَّيل الحالك، وقد رجع آخرُ السّورة على أوَّلِها بالقسَمِ وجَوابه المحذوف الَّذي هو طبعُ النُّفوسِ على طبائعَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 84.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 171.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.

مختلفةٍ، والتَّقدُّم إليهم بالإنذار من الهلاك، ونفسِ القسَم أيضًا؛ فإنَّ مَن له هذه الأفعالُ الهائلةُ وهذا التَّدبيرُ المُحكَمُ؛ هو بحيثُ لا يُعجِزُهُ أمرٌ، ولا يخشَى عاقبةً(1).

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الخوف والخشية:

لا يلحقُ الله تعالى مكروهٌ بإهلاكِهِ ثمودَ

الخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويُضادُّ الخوفَ الأَمْنُ، ويُستعمَلُ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]، وقالَ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: 3](2)، ويُطلَقُ الخوفُ على أثَرِهِ؛ وهو السَّعيُ في مَرْضاةِ المَخوفِ منهُ، وامتثالِ أوامرِهِ؛ كقولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: 175](3).

وأمّا الخشيةُ فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علم بما يُخشى منهُ، ولذلكَ خُصَّ بها العُلَماءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28](4). وقد أوثِرَ الخوفُ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّه تعالى لا يَلحَقهُ مكروهٌ بسببِ إهلاكِه ثمودَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 84.

(2) الراغب، المفردات: (خوف).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 409.

(4) الراغب، المفردات: (خشي).

# سُورَةُ اللَّيۡلِ

# سُورَةُ اللَّيْلِ

## التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

### المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة اتِّفاقَ الجمهور على مكّيَّتِها، ولكنَّه نقلَ عن المهدويِّ أنَّها مدنيَّة، وعن بعضِهم أنَّ فيها آياتٍ مدنيَّة[1] ولم يعلِّق على هذه الأقوال، وكذلك فعلَ القُرطبيُّ[2]، والسُّيوطيُّ[3].

ويَبدو أنَّ السَّببَ الَّذي حَمَلَ بَعضَهُم على القولِ بمَدَنيَّتِها هو اعتِمادُهُم على بَعضِ الرِّواياتِ الضَّعيفةِ في أسبابِ النُّزولِ لِبَعضِ آياتِها في شَأنِ قِصَّةِ النَّخلةِ الَّتي اشتَراها أبو الدَّحداحِ الأنصاريُّ، والقِصَّةُ بتمامِها أورَدَها السُّيوطيُّ[4]، والصَّحيحُ هو القولُ بمَكّيَّتِها؛ لأنَّهُ رأيُ جُمهورِ المُفسِّرين، وما اعتُمِدَ عليه مِن بَعضِ الرِّواياتِ في القولِ بمَدَنيَّةِ بَعضِ آياتِها لَيسَ لهُ دَليلٌ صَحيح، ومِمّا يُؤَكِّدُ ذلك أنَّ سورةَ اللَّيلِ نَزَلَت بَعدَ سورةِ الأعلى وقَبلَ سورةِ الفَجر[5].

وأمّا عددُ آياتِها فيقولُ فيها الدّاني: "وهي إحْدَى وعِشْرونَ آيَةً في جميع العدَد ليْسَ فيها اختِلاف "[6].

### ترتيب النُّزول وترتيبُ المُصحف:

ترتيبُها المُصحفيُّ بينَ سورتَي الشَّمس والضُّحى

هذه السّورةُ هي الثّانيةُ والتِّسعونَ في التَّرتيبِ المُصحَفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيبُ الثّابتُ والمُعوَّلُ عليهِ عندَ أهلِ النَّظرِ والتَّحقيق، وقد جاءَ ترتيبُها بَينَ سورَتَي الشَّمسِ والضُّحى.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 490.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 53.
(4) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص: 455.
(5) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص: 455.
(6) الداني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 276.

وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ، فعُدَّتِ السّورة التّاسعة في ترتيبِ نُزولِ السّوَر، نَزَلت بعدَ سورةِ الأعلى، وقبلَ سورة الفجر(1).

### فضائل السّورة:

هذه السّورة من سوَرِ المُفصَّل

هذه السّورةُ من سوَرِ المُفصَّل الذي قال فيه النَّبي ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بنُ الأسقعِ رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّل»(2).

### اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

شُهرةُ لفظِ (اللّيل) اسمًا للسّورة

ورَدَت تسميتُها بسورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ في صحيح البخاري(3)، وعند التِّرمذيِّ(4)، ووردَت تسميتها بسورة (اللّيل) بدون الواو في المصاحف والتَّفاسيرِ وكتُبِ السُّنَّة(5). ووجهُ تسميَتِها افتتاحُها بقسَمِ اللّه تعالى باللَّيلِ إذا غَشيَ الكونَ وسَترَ النَّهارَ والأرضَ والوجودَ بظَلامِهِ وعَتمَتِه(6).

وقد قامَ البِقاعيُّ بالرَّبطِ بينَ اسمِها ومَقصودِها خيرَ رَبطٍ، فقال: "ومَقصودُها: الدَّلالةُ على مَقصودِ الشَّمس؛ وهو التَّصرُّفُ التّامُّ في النُّفوسِ بإثباتِ كمالِ القُدرَةِ بالاختِلاف، وباختِلافِ النّاسِ في السَّعي معَ اتِّحادِ مَقاصِدِهِم، وهي الوُصولُ إلى الملاذِّ من شَهوَةِ البَطنِ والفَرجِ، وما يَتبَعُ ذلكَ مِنَ الرّاحَةِ، واسمُها (اللَّيل) أوضَحُ ما فيها على ذلك، بتأمُّلِ القَسَمِ وجَوابِهِ، وأيضًا: اللَّيلُ نَفسُهُ دالٌّ على

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 525، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 377، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 138.

(2) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415).

(3) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة الليل: 4/ 1888.

(4) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ (واللَّيْلِ إذا يَغْشَى): 5/ 441.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 377.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 377 (بتصرّف).

ذلك، بأنَّهُ على غيرِ مُرادِ النُّفوسِ بما فيهِ مِنَ الظَّلامِ، والنَّومِ الَّذي هو أخو المَوت، وذلكَ صادِرٌ عن كَثرةِ المُرادات"[1].

والحَقُّ أنَّ البقاعيَّ قد لَفَتَ النَّظَرَ إلى أنَّ تَسميتَها بسورةِ اللَّيلِ مُرتبطٌ بمَحورِها ارتِباطًا غيرَ مُباشِرٍ، فكما أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ يُعَدّانِ رمزًا لشدَّةِ التَّمكُّنِ مع تَبَدُّلِ أحوالِهما، فإنَّ اختِلافَ أعمالِ النّاسِ بين مُؤمِنينَ وكافِرينَ عائِدٌ إلى مَقصِدٍ ظاهِرٍ وهو بَحثُهم عن اللَّذّاتِ والمَصالِحِ الخاصَّةِ بهم، وإنْ كان بَعْضُها زائِلًا وبَعْضُها دائمًا.

## المِحوَر العامِّ للسورة:

مِـحـوَرُ الـسّـورةِ يـقـومُ على بيانِ سَـعـيِ الإنسانِ وعـمَـلِهِ وجـزائـه في الآخرة

احتوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذَمّة المشركين ومساويهم، وبيان أنَّ اللّٰه يهدي النّاس إلى الخير فهو يَجزي المُهتدين بخير الحياتين والضّالّين بعَكس ذلك.

وأوضحت أنَّ اللّٰه أرسَل رَسولهُ ﷺ للتَّذكير باللّٰه وما عنده فينتفع مَن يخشى فيفلحُ ويصدفُ عن الذِّكرى من كان شَقيًّا فيكون جَزاؤه النّار الكبرى وأولَئِكَ هم الَّذينَ صَدَّهُم عَنِ التَّذَكُّرِ إيثارُ حُبِّ ما هُم فيهِ في هذهِ الحَياة، وأُدمِج في ذلك الإشارة إلى دلائلِ قدرة اللّٰه تعالَى وبديعِ صُنعه.

## موضوعات السورة وخصائصها:

ربـطـت الـسـورة بـيـن صـلاح الناس الظاهري وصـلاح نفوسهم

ومن موضوعات السورة الأمور الآتية:

**أوّلاً:** القسَمُ على تفاوُتِ حالِ الخَلْقِ في الإساءة والإحسان، والهداية والضَّلال.

**ثانيًا:** تَصنيفِ النّاسِ بحسَبِ أعمالِهم؛ فمَدَحَتِ المؤمنينَ لإنفاقِهم في سبيلِ اللّٰه، وذمَّتِ المشركينَ ببُخلِهم وحرصِهم على الدُّنيا، وتكذيبِهم بالآخرة.

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 198 - 199.

**ثالثًا:** بيانِ سُنَّةٍ من سُنَنِ اللّه تعالى في الأنفُسِ والآفاق، وهي تَنَوُّعُ توزيعِ الأعمالِ بحسَبِ المقاصدِ والغايات، وذلك من خلالِ رَبْطِ الصَّلاحِ البشريِّ بصلاحِ النُّفوس، وبيانِ سُنَّةِ اللّه تعالى في التَّنَوُّعِ والاختلاف، وقامتِ السّورةُ الكريمةُ ببيانِ مَصيرِ كلِّ فريقٍ من النّاس ترغيبًا وترهيبًا، وأيضًا إرشادِ الخَلْقِ إلى طريقِ الخير، والجزاءِ المترتِّبِ على اختيارِ الخير.

**رابعًا:** بيانِ سَعْيِ الإنسانِ وعَمَلِه وجزائِه في الآخرة، فأوضَحت السورة أنَّ النّاسَ فريقان، وحدَّدتْ منهجَ كلِّ فريقٍ، وطريقَه، وجزاءَ كلٍّ منهم في الآخرة: أهلُ الإيمانِ والسَّعادةِ والجَنَّة؛ وهم الذين بَذَلوا المالَ وصَدَّقوا بوَعْدِ اللّه في الآخرة. وأهلُ الكُفرِ والشَّقاوةِ والنّار؛ وهُمُ الذين بَخِلوا بالأموالِ واستَغْنَوا عن ربِّهم ﷻ، وأنكَروا ما وعَدَ اللّه به من الجَنَّة.

**خامسًا:** أعقبَت السورة ذلكَ ببيانِ عَدَمِ جَدوى المالِ في الآخرة، وأنَّ اللّه واضِعُ دُستورِ الهداية، وأنَّه مالِكُ الدُّنيا والآخرة: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الآيات: 11 - 13] ودلَّ هذا التَّحذيرُ من عذاب اللّه والإنذارُ بالنّار على أنَّه العقابُ المستحَقُّ لكلِّ مَن كذَّبَ بآياتِ اللّه تعالى وبرسوله ﷺ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الآيات: 14 - 16][1].

**الخصائصُ الموضوعيَّةُ للسورة:**

**أوّلًا:** بيَّنَتْ في ثلاثِ آياتٍ قولُهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ وقولُهُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾: اختلافَ مساعي النّاسِ بين تقيٍّ وشقيٍّ.

تميَّزَت سورةُ اللَّيل بخصائص موضوعيَّةٍ أفردَتها عن غيرها من السّوَر

**ثانيًا:** بيَّنت السورة أن أمرَ الهدايةِ هو من عندِ اللّه يَقذِفُهُ في قلبِ مَن أرادَ الهدايةَ وسَعَى لها.

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 266 - 267.

**ثالثًا:** كشفت السورة أنَّ جزاءَ الدُّنيا والآخرةِ هو بيدِ اللّه تعالى لا بيدِ غيرِه، فمَن كان همُّه الدُّنيا فليسَ له في الآخرةِ خَلاقٌ، وأمّا مَن أرادَ الآخرةَ وسَعَى لها فإنَّ الجنَّة هي المَأوى.

## الخصائصُ الأسلوبيَّةُ للسورة:

جاء بالسورة أساليب تعبيرية أفردتها عن غيرها من السور

**أوّلاً:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ ببراعةِ الاستهلالِ بالقسَم؛ إذ شارَكتْها في هذه الميزَةِ أُسرَةٌ كبيرةٌ مكوَّنةٌ من ستَّ عشرةَ سورةً غيرِها في الاستهلالِ بالقسَم؛ وهي: الصّافّات، الذّاريات، الطّور، النَّجم، القيامة، المُرسَلات، النّازعات، البروج، الطّارق، الفجر، البلد، الشَّمس، الضُّحى، التّين، العاديات، العصر. وهذا القسَمُ ومُتعلَّقاتُه وجَوابُه يرتبطُ مع مِحوَرِ كلِّ سورةٍ من هذه السّوَر.

**ثانيًا:** امتازَت السّورة الكريمة بكَونِ فاصِلَتِها موحَّدةً، وآياتها قصيرةً وشديدةً؛ ممّا أعطاها جَرسًا وطابعًا صوتيًّا خاصًّا بها.

**ثالثًا:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بأنَّها حوَت صوَرًا من المُتقابلات والألفاظِ المُتطابقة بشكلٍ لافتٍ للنَّظَرِ، حيثُ برزَ أسلوبُ الطِّباقِ جَليًّا في السّورةِ الكريمة مثل: اللَّيل والنَّهار، والذَّكر والأنثى، والصِّدق والكذب، ويغشى ويتجلَّى، واتَّقى واستغنى، والإعطاء والبُخل، واليُسرى والعُسرى، والأشقى والأتقى، ويَصلاها ويتجَنَّبُها، والأولى والآخرة، وغيرها.

**رابعًا:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بأنَّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرِها من السّوَرِ بصيَغِها الصَّرفيَّة هذه، مثل: ﴿لَشَتَّىٰ﴾، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ مرَّتيْن، ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، ﴿تَلَظَّىٰ﴾، ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾، وغيرها.

**خامسًا:** تميَّزت السّورةُ الكريمة بوفرةِ الأنساقِ التَّعبيريَّة التي لم تتكرَّر في غيرِها؛ ومنها: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ

لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾، وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾، وغيرها.

**سادسًا:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بوُجودِ بعضِ الكلماتِ التي تكرَّرَت فيها مرَّتيْن وهي: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، (كَذَّبَ)، (مالُهُ)، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾، (أمّا).

**سابعًا:** تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بتَوالي المؤكِّداتِ في بعض آياتِها؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾

### مناسبة السورة لما قبلها:

سـورة اللّيـل متَّصلةٌ تمامًا بسورةِ الشَّمسِ مضمونًا وأسلوبًا

ارتباطُ السّورتيْن ظاهرٌ للعيانِ؛ فسورَةُ الشَّمسِ استُهِلَّت بأطوَلِ قسَمٍ في القرآن، وسورةُ اللَّيلِ أقسَمَت ببعضِ ما أقسَمت به سورةُ الشَّمس، وجاءَ جوابُ القسَمِ في سورة اللَّيل مؤكِّدًا لجواب القسَمِ في سورة الشَّمس؛ إذ بيَّنَتْ أنَّ أعمالَ النّاسِ شتَّى؛ فمِنهُم مَن يُزكّي نفسَهُ ومنهُم مَن يُتبِعُها هَواها، ثمَّ بيَّنَتْ بعضَ مسالكِ تزكيةِ النَّفسِ ومسالكِ تَدسيَتِها، ثمَّ بيَّنَتْ مآلَ الأمرَينِ عند اللّه تعالى.

ومنَ المُناسَبَةِ الأمور الآتية:

**أوّلًا:** أنَّ كِلتا السّورتيْنِ صُدِّرَتا بالقسَمِ؛ فسورةُ اللَّيلِ أقسَمَ اللّه فيها بالزَّمانِ ومُشتمِلاتِه، وسورةُ الشَّمسِ أيضًا؛ أقسَمَ بالزَّمانِ ومُستَتبِعاتِهِ، والمُقسَمُ عليهِ في سورةِ اللَّيلِ افتِراقُ سَعْيِ البَشَرِ، والمُقسَمُ عليهِ في سورةِ الشَّمسِ فلاحُ مَن زَكّاها وخَيبَةُ مَن دَسّاها، وفي هذا دَليلٌ على شِدَّةِ الارتِباطِ بَينهُما.

**ثانيًا:** ومن المناسبةِ بينَهُما اتِّفاقُهُما في الحديث عن الهدايةِ

والتَّوفيقِ إليها، وأنَّ ذلكَ من الله ﷻ بقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 8]، وفي سورةِ اللَّيل: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾.

**ثالثًا:** ومنها أنَّ سورة اللَّيل تفصيلٌ للإجمال الواردِ في سورةِ الشَّمس؛ فقولُهُ تعالى في سورة اللَّيل: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ وما بعدها تفصيل لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: 9] في سورة الشَّمس، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ وما بعدَها تفصيلٌ لقوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 10][1].

(1) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 160.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ
وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: 1 - 4]

## مناسبةُ مطلعِ سورةِ اللَّيل لآخِرِ سورة الشَّمس:

اختلافُ النّاس في تحصيل الخير والشَّرِّ فِطرةٌ بشرية

لمّا بيَّنَ تعالى في سورة الشَّمس حالَ مَن زكَّى نفسَه، وحالَ مَن دسّاها، وأوضحَ في آخِرها من مخالفةِ ثمودَ لرسولهِم ما أهلكَهُم، فعُلم أنَّ النّاس مختلفون في السَّعي في تحصيل الخير والشَّرِّ، بعد أن أثبتَ أنَّه هو الَّذي تصرَّف في النُّفوس بالفجور والتَّقوى؛ أقسَمَ على ذلك أوَّلَ هذه السّورة بما يدلُّ على عجائب صُنعهِ في ضرِّه ونفعِه، وهو اللَّيل والنَّهار؛ تنبيهًا على تمام قُدرتهِ في أنَّه الفاعلُ بالاختيار، يَحولُ بين المَرءِ وقلبه؛ حتَّى يحملَهُ على التَّوصُّل إلى مُراده[1].

ومنها أنَّه سبحانه ذكرَ في نهاية سورة الشَّمس ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾ [الشمس: 14 - 15]، وفيها تصويرٌ للعذاب الذي حلَّ على قوم ثمودَ بأن سوَّى عليهم الأرضَ ودسَّهم فيها؛ لأنهم دسّوا أنفُسَهم في ظُلمة الكفر جزاءً وفاقًا، وجاءت سورةُ اللَّيلِ مبدوءَةً بالقسَم به لتؤكِّدَ على كمالِ قُدرته، فالذي فعلَ بهم هذا ودسَّهم تحت الأرض هو الذي خلقَ اللَّيلَ ليُغطّيَ الكونَ كلَّهُ ويَستُرَه.

## شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَغۡشَىٰ﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تغطية شيءٍ بشيء[2]، ومن ذلك يُقال: غشَّيت الشَّيءَ تغشيةً إذا غطَّيته، والغِشاء: الغِطاء[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 85 - 86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غشي).

والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشى الخلقَ - أي: تُغطّيهم وتُصيبهم - بأفزاعها وأهوالها[1]، ويقال: غشيَتْه غاشيةٌ، أي: أصابته داهية[2]، وغاشيةُ السَّيف والرَّحل: غِطاؤه[3]، ويقال: غَشيَ اللَّيلُ، وأغشى، أي: أظلم[4]. والمراد بـ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ هنا: يُغطّي النَّهارَ بظُلمَته[5].

2) ﴿تَجَلَّىٰ﴾: (جلو) أصلٌ يدلُّ على انكشافِ الشَّيء وبُروزِه، ومن ذلك يُقال: تجلَّى الشَّيءُ، إذا انكشف[6]، والجليُّ: ضدُّ الخفيِّ[7]، وأجليتُ القومَ عن منازلهم فجلَوا عنها، أي: أبرزتُهم عنها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الحشر: 3][8]، والتَّجلّي قد يكون بالذّات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، وقد يكون بالأمر والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143][9]. والمراد بـ ﴿تَجَلَّىٰ﴾: انكشفَ ووضحَ وظهَرَ، وبانَ بضوئه عن ظُلمةِ اللَّيل[10].

3) ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾: سَعَى الرَّجلُ يَسْعَى سَعْيًا، إذا عَمِلَ وكَسَبَ، وكلُّ مَنْ وليَ شيئًا على قوم فهو ساعٍ عليهم، وأكثرُ ما يُقالُ ذلكَ في وُلاةِ الصَّدَقة[11]، والسَّعْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كانَ أو شَرًّا؛ قالَ تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وقالَ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾[12]، والمُساعاةُ بالفُجور، والمَسْعاةُ بطلبِ المَكْرُمةِ[13]، ويقالُ: مَضَى سَعْوٌ مِنَ اللَّيلِ، أي: قِطَعٌ منهُ، والسَّعْوَةُ: الشَّمَعةُ[14]. والمراد بالسَّعي هنا: العمل[15].

4) ﴿لَشَتَّىٰ﴾: (شتت) أصلٌ يدلُّ على تفرُّقِ أفراد الشَّيء بمسافةٍ واضحةٍ بين كلٍّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (غشي).
(3) الخليل، العين: (غشي).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غشي).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 465، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلو).
(7) الرازي، مختار الصحاح: (جلو).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (جلو).
(9) الراغب، المفردات: (جلو).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(11) الجوهري، الصحاح: (سعي).
(12) الراغب، المفردات: (سعي).
(13) السمين، عمدة الحفاظ: (سعي).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعي)، والزبيدي، تاج العروس: (سعي).
(15) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 467، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.

منها والآخر[1]، ومن ذلك يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّق، وشتَّ الأمرُ شتًّا وشتاتًا: تفرَّق، واستشتَّ مثله، وكذلك التَّشتُّت[2]، ويقال: شتَّته تشتيتًا[3]، وأشتَّ بي قومي: فرَّقوا أمري، وشتَّ بقلبي كذا وكذا، أي: فرَّقه[4]، والشَّتيت: المفرَّق[5]. ومعنى ﴿لَشَتَّىٰ﴾: لمختلف[6].

### ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّـاسُ مذاهبُ مـخـتـلـفـةٌ في الخير والشَّرِّ

افتتحَ اللّه تعالى هذه السّورة مُقسِمًا باللَّيلِ إذا غشَّى النَّهارَ بظُلمَته، فأذهبَ ضوءَهُ، والنَّهارِ إذا أضاءَ فأنارَ، وظهرَ للأبصار، والَّذي خلقَ الذَّكرَ والأنثى بقُدرته، إنَّ عمَلَكُم لَمُختلفٌ أيُّها النّاس؛ لأنَّ منكم الكافرَ برَبِّه، والعاصيَ لهُ في أمرِهِ ونَهيِه، والمُؤمنَ به، والمطيعَ له في أمرِهِ ونَهيِه[7].

### ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

#### دلالةُ افتتاح السّورة بالقسَم:

مساعي النّاسِ مـخـتـلـفـةٌ في الخير والشَّرّ

افتُتحت السّورة بالقسَم؛ لتأكيد الخبر؛ لأنَّ القسَم طريقٌ من طُرُقِ توكيدِ الكلام وإبراز معانيه لإزالة شكِّ الشّاكّينَ ودفعِ إنكارِ المُنكِرين، وسورةُ اللَّيلِ مكّيَّة، ومن مَقاصِدِها حَثُّ المشركين على الإيمانِ وتركِ الكفرِ والعصيان، وهم مُنكِرون، فأُكِّدَ لهم الكلام[8]، والمقصودُ بالتَّأكيد هو ما في السّورة من بيانِ اختلاف مساعي النّاس في الخير والشَّرِّ، وبيانِ عاقبة أهلِ الخير، وعاقبة أهل الشَّرِّ؛ ليُرغَبَ في طريق الخير، ويُحذَرَ من طريق الشَّرِّ والفساد[9].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شتت).
(2) الجوهري، الصحاح: (شتت).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (شتت).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 467، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 465 - 467.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(9) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 85 - 86.

### بلاغةُ الإيجاز في أسلوب القسَم في السّورة:

التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتَناسُبِ الفواصل

في الأقسام المذكورة في السّورة إيجاز، وذلك باختيار الواو؛ لأنّها يُطَّرحُ معها إبرازُ الفعل اطِّراحًا كلّيًّا، فكان لها شأنٌ خِلافُ شأن الباء؛ حيث أُبرِزَ معها الفعلُ وأُضمِرَ، فكانت الواوُ قائمةً مقامَ الفِعل والباءِ سادَّةً مَسَدَّهما معًا، والتَّقدير: (أُقسِمُ واللَّيلِ إذا يَغشَى ...)، وغرَضُ الحذفِ هو التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتَناسُبِ الفواصل من حيث القِصَر غالبًا.

### نكتةُ القسَم باللَّيل:

اللَّيلُ آيةٌ دالَّةٌ على حِكمَةِ الله تعالى وقُدرَتِه

أقسَمَ الله تعالى باللَّيلِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ لتشريفِه وتعظيمِه؛ فهو الَّذي يَأوي فيه كلُّ حيوانٍ إلى مَأواه، ويسكُنُ الخَلقُ فيه عن الاضطراب، ويَغشاهُمُ النَّومُ الَّذي جعلَهُ الله راحةً لأبدانهم، وغِذاءً لأرواحهم[1]، وهو محلُّ الأسرار[2]، وفي كلِّ ذلك تنبيهٌ على الاعتبار به في الاستدلال على حِكمةِ نظامِ الله في هذا الكون وبديعِ قُدرته[3].

### دلالةُ تعريف (اللَّيل):

اللَّيلُ المَعهود محلٌّ للعِظَة والاعتبار

تعريف (اللَّيل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ للجنس المستغرِق لجميعِ أفراده، فكلُّ ليلٍ محلٌّ للعِظَة والعِبرة، ودليلٌ على قُدرةِ الخالقِ جلَّ ذِكرُه.

ويحتملُ أن يكون للجنس الصّادق على جميع أجزائه؛ فالمُقسَمُ به اللَّيلُ كلُّه لا بعضُه[4]؛ لأنَّ اللَّيل يشمَل نصفَ الكرةِ الأرضيَّة في مقابلة النَّهار، وكذلك النَّهار في مقابلة اللَّيل، والمُراد هنا القسَمُ باللَّيل في كلِّ مراحله.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 181.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 365 - 366.

**بلاغةُ التَّعبير بالظَّرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ مع الغشيان والتَّجلّي:**

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ في محلِّ نصبٍ على الظَّرفية، متعلِّقة بكونٍ هو حالٌ من اللَّيل، ومن النَّهار، فهو ظرف مستقرٌّ، أي: مُقسَمًا بكلٍّ واحدٍ منهما في الحالة الدّالَّة على أعظمِ أحواله، وأشدِّها دلالةً على عظيم صُنعِ اللّه تعالى[1].

إبرازُ كمالِ قُدرتِهِ سبحانه في الجَمعِ بينهما

**نكتةُ تقييدِ القسَم باللَّيل بـ ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾:**

قُيِّد القسَمُ باللَّيل بالغشيان في قوله: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ مع ما في اللَّيل من آياتٍ عِظام؛ لِما في حالة غشيانِه من العجَبِ الدّاعي إلى الاتِّعاظِ والاعتبار، فهو يَغشى الجانبَ الَّذي يَغشاه من الأرض، ويَغشى ما فيه من الموجودات، فتعُمُّها ظُلمَتُه، فلا تبدو للنّاظرين؛ لأنَّ ذلك أقوى أحوالِه[2]. وفي ذلك دلالةٌ على جلالةِ مُبدِعه، وعظيمِ ماحقِهِ ومُطلِعه[3].

صورةُ غشَيانِ اللَّيل عظيمةُ الدَّلائل

**سرُّ التَّعبير بالغشَيان دون التَّغطية:**

عُبِّر بالغشَيان دونَ التَّغطية في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ لأنَّ الغشَيان أخَصُّ من التَّغطية، فهو تغطيةٌ مُبالَغٌ فيها، ولذلك كانت الغاشيةُ من أسماءِ يومِ القيامة[4]، فيُفيد الكلامُ المبالغةَ في بيانِ تغطية اللَّيل للشَّمس بحيث يُذهِبُ ضوءَها عند الغياب، أو تغطية اللَّيل للنَّهار، أو لكلِّ شيء.

تغطيةُ اللَّيل للشَّمس تُذهِبُ ضوءَها عند الغياب

**بلاغةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَغۡشَىٰ﴾ والماضي في ﴿تَجَلَّىٰ﴾:**

عُبِّر بالمضارع بالفعل ﴿يَغۡشَىٰ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ للدَّلالة على عُروضِ الظُّلمة لأصل النّور الَّذي هو أكمَلُ

غشَيانُ اللَّيل تدريجيٌّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 86 - 87.

(4) زيدان، الفروق، ص: 101.

مظاهرِ الوجود؛ لأنَّ اللَّيلَ غشيانُه تدريجيٌّ شيئًا فشيئًا، وهذا يحتاجُ إلى زمنٍ يمتدُّ فيه؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالمُضارع، أمّا تجلّي النَّهار فيكون دفعةً واحدةً بمجرَّدِ طُلوعِ الشَّمس، لذا عُبِّرَ عنه بالماضي[1]. وفي المضارع أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ غشيانَ اللَّيلِ يكونُ على التَّدريج قليلًا قليلًا[2].

وممّا يُذكر في دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡشَىٰ﴾ أنَّ المرادَ باللَّيل: الظُّلمةُ الحادثةُ بعد النَّهار؛ لأنَّها أدلُّ على القدرة، لا الظُّلمة الأصليَّة، والظُّلمةُ الحادثةُ مستقبلةٌ بالنِّسبة إلى تجلّي النَّهار، فلذا اختيرَ لفظُ المستقبل؛ تنبيهًا على ذلك، ولو عُبِّر بالماضي لم يُفهَمْ ذلك، بل فُهِمَ اللَّيل المتقدِّم على النَّهار في أوَّل الخِلْقة[3].

### سرُّ عدم ذِكرِ مفعولِ ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

إفادةُ العُمومِ في سَعَةِ ما يَغشاهُ اللَّيل

في قوله ﷻ: ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعول؛ لاحتماله لكلِّ المعاني المُرادة، والتَّقدير: واللَّيلِ إذا يَغشَى الشَّمسَ، من قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: 4]، أو: واللَّيلِ إذا يَغشَى النَّهارَ، من قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ [الرعد: 3]، أو: واللَّيل يَغشى كلَّ شيءٍ يواريه بظلامه، من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ ٣﴾ [الفلق: 3][4]، أو: واللَّيل يَغشَى الأرضَ، أو الخلائق[5].

ويحتملُ أن يكون حذفُ المفعول؛ لتنزيلِ الفعل منزلة اللّازم؛ لأنَّ العِبرة بغشَيانِه كلَّ ما تغشاه ظُلمتُه[6].

### بلاغةُ إسنادِ التَّغشية إلى اللَّيل:

تغطيةُ اللَّيلِ مكانَ ضوءِ الشَّمس

إذا كان مفعولُ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ هو الشَّمس، فالمعنى أنَّ اللَّيل يُغطّي

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 484.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 86 - 87.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 761، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 650.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.

مكانَ ضوءِ الشَّمس، وهو جوُّ الهواء، فجُعِلَ مُغطّيًا نفسَ الشَّمسِ مجازًا للمبالغة[1].

وممّا يُذكر في بلاغةِ إسنادِ التَّغشيةِ إلى اللَّيل؛ الإشارةُ إلى أنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ كانت غالبةً لضوءِ النَّهار، وأنَّ النَّهارَ يَعقُبُها ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: 13].

### سرُّ اختيارِ القسَمِ باللَّيلِ والنَّهار:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ القسَمَ باللَّيلِ والنَّهارِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ لتناسُبِهما مَعَ غرَضِ السّورةِ، من بَيانِ البَونِ الشّاسعِ بينَ حالِ المؤمنينَ والكافرين في الدُّنيا والآخرة.

وفي القَسَمِ بهما إشارةٌ كَونيَّةٌ إلى اختلافِ الأحوالِ للبَشَر؛ فاللَّيلُ سُكونٌ، والنَّهارُ حَرَكَةٌ، وحالُ الإنسانِ بينَ الحَرَكةِ والسُّكون.

وفي القَسَمِ بهما تحذيرٌ لِلإنسانِ مِنَ الغَفلة؛ لأنَّهُ يَعيشُ فيهما، ويقتربانِ بهِ إلى نِهايةِ الأجَل؛ فكما يَأخُذُ اللَّيلُ مِنَ النَّهارِ، يَأخُذُ الزَّمَنُ من عُمرِ الإنسان.

ولِلدَّلالةِ على عَظَمَتِهما لِما فيهما من المَنافِعِ ولتعاقُبِهما الَّذي هو مِن خَصائِصِ قُدرَتِهِ سُبحانَه وتَفَرُّدِهِ بها، يَدُلُّ على ذلك ما ورَدَ في سورةِ القَصَص. [الآيات: 71 - 72] ولتعلُّقِ العباداتِ بهما.

### سرُّ تقديم القسَم باللَّيل على القسَم بالنَّهار:

**كثرةُ أهلِ الكُفر وقِلَّةُ أهلِ الإيمانِ زمنَ نزولِ السّورة**

ابتُدِئَ في هذه السّورة بذِكرِ اللَّيلِ ثمَّ ذِكرِ النَّهارِ عكسَ ما في سورةِ الشَّمس؛ لأنَّ هذه السّورةَ نزلت قبلَ سورةِ الشَّمسِ بمُدَّة، وهي سادسةُ السّوَر، وأيّامئذٍ كان الكفرُ مُخيِّمًا على النّاسِ إلّا نفرًا قليلًا، وكانَ الإسلامُ قد أخَذَ في التَّجلّي، فناسبَ تلك الحالةَ بالإشارةِ إلى

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 302.

تمثيلها بحالةِ اللَّيل حين يَعقُبُهُ ظُهورُ النَّهار، ويتَّضِحُ هذا في جوابِ القسَم بقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[1].

**سرُّ تقديمِ القسَم في سورةِ اللَّيل بخِلافِ سورة الضُّحى:**

ظهور النِّعمةِ ووُضوحها ببَعثتِه ﷺ

في سورةِ اللَّيل قُدِّمَ القسَمُ باللَّيل على النَّهار؛ بخِلافِ سورةِ الضُّحى؛ فقُدِّمَ القسَمُ بالضُّحى على اللَّيلِ في قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى: 1 - 2]، وذلك لأنَّ سورةَ اللَّيلِ تتكلَّمُ على اختلافِ سعيِ البشَرِ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، وهذا السَّعيُ منهُ ما يكونُ في الخَيرِ ومِنهُ ما يكونُ في الشَّرِّ، والسّاعونَ إلى الشَّرِّ أكثرُ من السّاعينَ إلى الخيرِ؛ لذلك كان القسَمُ باللَّيلِ مناسِبًا مع حالةِ الشِّركِ والضَّلالِ الَّتي كانت مُنتشِرةً في مكَّة، والوَصفُ المُناسِبُ لهذه الحالةِ الظَّلامُ المقرونُ باللَّيل.

أمّا سورةُ الضُّحى فالخِطابُ فيها لِلنَّبيِّ ﷺ على سَبيلِ الامتِنانِ والإكرام؛ فقال له ربُّه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: 3] لمّا تكلَّمَ النّاسُ في تأخيرِ الوحي فترةً مِنَ الزَّمَن؛ لذلك كان المُناسِبُ البَدءَ بقسَمِ الضُّحى على اللَّيل؛ لأنَّ الضُّحى يَدعو إلى الأمَلِ والفرَحِ والسُّرور، وظهورِ النِّعمةِ ووُضوحِها ببَعثتِه ﷺ.

**دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾:**

ضوءُ النَّهار مبعثُ الحياةِ ودليلُ قدرةِ الله

الواو الأولى في ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ للقَسَم بالاتِّفاق، وكذا الثّانية وما بعدَها عند البعض، أو أنَّ الثّانية وما بعدَها للعطف؛ لأنَّ إدخالَ القسَم على القسَم قبلَ تمامِ الأوَّل لا يَجوز. وعلى القولِ إنَّ الثّانية للقسَم: فالقسَمُ بالنَّهارِ إذا تجلَّى؛ لأنَّ النَّهارَ إذا جاءَ انكشَفَ بضوئهِ ما كان في الدُّنيا من الظُّلمة، وجاء الوقتُ الَّذي يتحرَّك فيه النّاسُ لمَعاشِهم، وتتحرَّكُ الطَّيرُ من أوكارِها، والهوامُّ من مَكامِنها، فلو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.

كان الدَّهرُ كلُّه ليلًا لتعذَّر المعاشُ، ولو كان كلُّه نهارًا لبطَلت الرّاحةُ، لكنَّ المصلحة كانت في تَعاقُبهما على ما قالَ سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: 62]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33][1]، ولأنَّ النَّهارَ سببُ انكشافِ الأمور، كالموت الذي يُزيلُ عن الرّوحِ علائقَ البدَن، فينجلي لها ما كانت فيه من القبائح، والجهرِ الذي يَشرَحُ النَّفسَ بإزالةِ اللَّبس[2]. وفي كلِّ ذلك دليلٌ على قُدرتهِ تعالى وحِكمته[3].

وممّا يُذكرُ في دَلالةِ عَطفِ النَّهارِ بالواوِ على اللَّيل؛ الإشارةُ إلى اشتراكِهما في المَنفعَة؛ فالجامِعُ بينهُما كمالُ القُدرَةِ وحُسنُ الصَّنعَة.

### دلالةُ تعريفِ النَّهار:

كلُّ نهارٍ مَعْدِنٌ للحِكَمِ والأسرار

تعريفُ النَّهارِ في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفراده؛ فكلُّ نهارٍ فيهِ ما مرَّ من الآياتِ والعِبَرِ والحِكَم الَّتي لا يحيطُ بكُنهِها إلّا اللّه تعالى[4]، وذلك لأنَّ الكُرة الأرضيَّةَ بعضُها نهارٌ وبعضُها ليلٌ؛ فتعريفُ النَّهارِ يَصدُقُ وصفًا لِلنَّهارِ في أيِّ جُزءٍ مِنَ الكُرةِ الأرضيَّة.

### بلاغةُ إيثارِ لفظِ التَّجلّي على الظُّهور:

ظهورُ النَّهار ظهورٌ بيِّن

عُبِّرَ بالتَّجلّي في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ دون الظُّهور؛ لأنَّ التَّجلّيَ هو الانكشافُ الظّاهرُ للشَّيء، فهو أخصُّ من مُطلق الظُّهور، وللإشارةِ إلى أنَّ النَّهار يَظهَر ظهورًا عظيمًا؛ إمّا بزوالِ ظُلمةِ اللَّيل، وإمّا بنورِ الشَّمس[5]، فيُظهِرُ ما كان خفيًّا، ولا يدعُ لمُبصِرٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 181، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 174.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 492.

شيئًا من لبْس؛ فمَن كان يُريدُ السِّرَّ قصَدَ اللَّيلَ، ومَن أرادَ الجَهرَ قصَدَ النَّهارَ، سواء كان من الأبرار أو من الفُجّار[1]. وفي التَّعبير بالتَّجلّي أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ ظُلمة اللَّيل كانت غالبةً لضوءِ النَّهار، وأنَّ النَّهار يَعقُبها[2]. والتَّجلّي استعارةٌ للظُّهور، أو مجازٌ مرسَل؛ لأنَّه لازمٌ للتَّجلّي[3].

**نُكتةُ تكرارِ ذِكْرِ التَّجلّي مع سَبْقِ ذِكْرِه:**

النَّهارُ جليٌّ في نفسِه ومُجلٍّ لغيره

ذُكر التَّجلّي في قوله هنا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بعد ذِكْرِ التَّجلية في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشمس: 3] في سورة الشَّمس، وذلك للإشارةِ إلى جمعِ النَّهار بين وصفين متكاملين؛ فهو جليٌّ في نفسِه، مُجَلٍّ لغيرِه.

وممّا يُذكَرُ في دَلالةِ ذِكْرِ التَّجلّي مع سَبْقِ ذِكرِهِ في سورةِ الشَّمس؛ اختِلافُ السّياقِ في كُلٍّ مِنهُما؛ ففي سورةِ اللَّيلِ جاءَ بَعدَ ذِكرِ زَمَنِ الرّاحةِ والسُّكون؛ ثُمَّ أعقبَها بذِكْرِ النَّهار؛ لِأنَّهُ زَمَنُ سَعْيِ الإنسان؛ بخِلافِ سياقِ سورةِ الشَّمس، فلَم يَرِدْ فيه تَقَدُّمُ اللَّيلِ على النَّهار، بَل كانَ الحَديثُ عنِ الشَّمسِ وأضوائِها.

**نُكتةُ تقييدِ القسَم بالنَّهار بـ ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾:**

حالةُ تجلّي النَّهارِ لوحةٌ بديعةٌ في الكون

تقييدُ القسَم بالنَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بحالةِ التَّجلّي، فيهِ إبرازٌ لأعظَمِ حالاتِه في الظُّهور؛ إذْ تَبدأُ الحَياةُ والحَرَكةُ على الأرضِ بَعدَ السُّكونِ والنَّوم، وفي ذلك ما لا يَخفَى مِنَ الامتِنانِ، والحَثِّ على الاعتبارِ والإيمانِ والشُّكر.

**بلاغةُ إسنادِ التَّجلّي إلى النَّهار:**

أُسند التَّجلّي إلى النَّهار في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.

مدحًا لهُ بالاستنارة الَّتي يراها كلُّ أحد، ويُحِسُّ بها حتَّى البُصَراء[1]، ولِما يدلُّ عليه من دقيقِ النِّظامِ في العالم الأرضي.

### براعةُ المُقابَلة في الآيتين:

بضدِّها تتبيَّنُ الأشياء

في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ مقابلةٌ لطيفة[2]؛ فاللَّيلُ والنَّهارُ ضِدّان، والغشَيان والتَّجلّي كذلك. ومن محاسنِ هذا التَّقابُل: رؤيةُ صورتَين مُختلفتَين مُتقابلتَين، يُفيدُ كلٌّ منهُما في تقريرِ الأخرى؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء.

### نكتةُ القسَمِ بـ (خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى):

ذوو الأرواحِ أشرَفُ المخلوقاتِ وأرفَعُها

آثرَ القرآنُ الكريمُ القسَمَ بالذَّكرِ والأنثى في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ دون بقيَّة المخلوقات؛ لتعظيم ذوي الأرواحِ الَّذين هم أشرفُ المخلوقات[3]، وفيهما دليلٌ على عَظيمِ صُنعِ اللّٰه تعالى، وباهِرِ ابتداعِهِ وقُدرَتِه؛ فإنَّهُ قد دلَّ تَفريقُهُ بَينَهُما وهُما مِن أصلٍ واحِدٍ على تمامِ قُدرَتِهِ المُستلزِمِ لِشُمولِ عِلمِهِ وفِعلِهِ بالاختيار[4]، ولأنَّ الإنسانَ على الخُصوصِ هو المَخلوقُ الأرفعُ في عالَم المادّيّات، وهو الَّذي يُدرِكُ المُخاطَبونَ أكثرَ دَقائِقِه؛ لِتكرُّرِه على أنفُسِهِم؛ ذُكورِهِم وإناثِهِم، بخِلافِ تكوُّنِ نَسلِ الحَيوان؛ فإنَّ الإنسانَ يُدرِكُ بَعضَ أحوالِهِ، ولا يُحصي كثيرًا منها[5].

### براعةُ الاحتباكِ في الآية:

عظَمَةُ الصّانعِ وإتقانُ المَصنوعِ

قوله تعالى: ﴿ٱلذَّكَرَ﴾، أي: حِسًّا بآلةِ الرَّجل، ومعنًى بالهمَّة والقوَّة، ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، أي: حِسًّا بآلةِ المرأة، ومعنًى بقلّة الهمَّة وضعفِ القوَّة، وما دلّا عليه من عظيم الاصطناع، وباهرِ الاختراعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 182.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379 - 380.

والابتداعِ، فإنَّه دلَّ تفريقُه بينهُما وهُما من أصلٍ واحدٍ على تمام قدرته المستلزمِ لشُمولِ عِلْمِه وفِعلِه بالاختيار، فالآيةُ من الاحتباك: ذكرَ أوَّلًا الصَّنعة دلالةً على حَذفِها ثانيًا، وثانيًا الصّانعَ دلالةً على حَذفِه أوَّلًا[1].

عَظَمَةُ الخالقِ ﷻ وصفاته

## نُكتةُ إيثارِ (ما) على (من):

أوثِرَت (ما) على (مَن) في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ لأنَّ (ما) تُستعمَلُ لغير العاقل، ولصفةِ العاقل؛ ففيها دلالةٌ على تعظيمِه ﷻ، والمعنى: والقادرِ العظيم القُدرةِ الَّذي قدِرَ على خَلْقِ الذَّكر والأنثى من ماءٍ واحد[2]، فيكونُ ﷻ قد أقسَمَ بنفسه[3]. وفي التَّعبير بـ (ما) أيضًا تنبيهٌ لهم على أنَّهم لمّا أشرَكوا به ﷻ ما لا يَعقل؛ نزَّلوهُ تلك المَنزلةَ وقد أحاطَ بكلِّ شيءٍ، وهو الَّذي خلقَ العُلَماءَ، وهُم لا يُحيطونَ به عِلمًا، مع ما تُفيده (ما) من التَّعجُّب منهم في ذلك؛ لكونِها صيغة التَّعجُّب[4].

ويحتملُ أن تكون (ما) موصولةً، وعُبِّرَ عن (من) بـ (ما) أي: ومَنْ خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى، وسِرُّ ذلكَ الدَّلالةُ على الوصفيَّةِ وقَصدُ التَّفخيم؛ لأنَّها لِتوَغُّلِها في الإبهام أفادَت أنَّ الوَصفَ الَّذي استُعمِلَت هي فيه بالِغٌ إلى أقصى درجاتِ القوَّةِ والكمال؛ بحيثُ كانَ ممّا لا يُكتَنَهُ كُنهُهُ، وأنَّهُ لا سَبيلَ لِلعَقلِ إلى إدراكِهِ بخُصوصِه، وإنَّما المُمكنُ هو إدراكُهُ بأمرٍ عامٍّ صادِق[5].

ويحتملُ أن تكون (ما) مصدريَّةً، والمعنى: وخَلْقِه الذَّكرَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 762، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80 - 81.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان 32/ 61.

والأنثى[1]. أقسَمَ اللّٰه بأثرٍ من آثار قُدرتِه، وهو خَلْقُ الزَّوجَين وما يَقتضيهِ من التَّناسل[2].

وبناءً على ما سَبَق؛ فالقسَمُ إمّا أن يكونَ بذاتِه، أو بفِعلٍ من أفعالِه، وهو خَلْقُ الذَّكرِ والأُنثى، واحتِمالُ المَعْنيَينِ من باب التَّوَسُّعِ في الدَّلالةِ لـ (ما).

### سِرُّ التَّعبيرِ بالخَلْقِ دونَ الجَعْلِ:

إبـداعُ الـذَّكَـرِ والأُنثَى مُتقَن

آثرَ التَّعبير بالخَلْقِ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ دونَ الجَعْلِ؛ لِوُجودِ فرقٍ بَينهُما؛ فأصلُ الخَلْق: التَّقديرُ المُستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ من غيرِ مِثالٍ سابِق. والجَعْلُ لهُ استِعمالاتٌ كثيرة؛ منها تصْييرُ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالة[3]. وهذا غيرُ مُرادٍ هُنا؛ لذا آثَرَ التَّعبيرَ بالخَلْقِ؛ لِما فيه من أنَّهُ تعالى قد أبدَعَ كلَّ ذَكرٍ وأنثى من غيرِ مِثالٍ سابقٍ، مع تقديرٍ مُتقَنٍ مستقيم.

### نُكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَلَقَ﴾:

خَـلْـقُ الـذَّكَـرِ والأُنـثـى واقـعٌ متحقِّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ خَلْقَ الذَّكرِ والأنثى أمرٌ متحقِّقٌ محسوسٌ، يشاهدُهُ كلُّ عاقل، ولا يُنكِرُه إلّا أهلُ الكِبْرِ والعِناد الَّذين طُمِسَتْ بصائرُهم.

### دلالة (أل) في ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾:

كـلُّ ذَكـرٍ وأُنثى دلـيـلٌ عـلى خـالـقِـهِـمـا العظيم

(أل) في الذَّكر والأنثى في قوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للجنسِ الشّامل لكلِّ ذَكرٍ وأنثى، أي: والقادرِ العظيم القُدرةِ الَّذي خلقَ صِنفَي الذَّكرِ والأُنثى من الحيوان المتَّصف بذلك[4]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لا يَخرجُ مخلوقٌ من ذي روحٍ عن الذَّكرِ والأنثى[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 762، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 404 - 405.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303 - 304.

ويحتملُ أن تكون (أل) للعهد، والمرادُ خُصوصُ خَلْقِ الإنسانِ وتكوُّنِه من ذَكرٍ وأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]؛ لأنَّه هو المخلوق الأرفعُ في عالم المادّيّات، وهو الَّذي يُدرِكُ المخاطَبون أكثرَ دقائقِهِ؛ لتكرُّرِه على أنفُسِهم؛ ذُكورِهِم وإناثِهِم، بخِلافِ تكوُّنِ نسْلِ الحيوان؛ فإنَّ الإنسانَ يُدرِكُ بعضَ أحوالِه، ولا يُحصي كثيرًا منها، والمعنى: وذلكَ الخَلْقِ العجيبِ من اختلافِ حالَي الذُّكورةِ والأُنوثةِ مَعَ خُروجِهِما من أصلٍ واحدٍ، وتوَقُّفِ التَّناسلِ على تزاوُجِهِما[1]، وعلى هذا فالتَّعريفُ للعَهد.

ويحتملُ أن يكون المرادُ بالذَّكَر: آدمَ عليه السلام، وبالأنثى: حوّاءَ رضي اللّه تعالى عنها، وعلى هذا فالتَّعريفُ للعهد[2]، والأولى حَمْلُها على الجِنسِ لإفادَةِ العُموم، وموافقةً لِسياقِ الآياتِ في السّورة الَّتي تَدُلُّ على العُموم.

### غرَضُ تقديم ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ على (الأنثى):

الذَّكَرُ أسبَقُ من الأنثى

قُدِّم ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ على (الأنثى) في قولِ الحقِّ تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ مراعاةً لأصلِ الخِلْقة؛ فآدَمُ أوَّلًا وحَوّاءُ ثانيًا؛ على أنَّ المُرادَ بالذَّكرِ والأنثى آدَمُ وحَوّاء، وعلى أنَّ المَقْصودَ الجِنسُ لِلذَّكرِ والأنثى، يَكونُ التَّقديمُ؛ لِأنَّهُ الأقوى مِن حيثُ الخِلْقَة، ولِأنَّ تَأخيرَ (الأنثى) أنسَبُ بالفَواصِل.

### سِرُّ تخصيصِ الخَلْقِ بالذَّكرِ والأنثى:

تميُّزُهما من سائرِ الخلْقِ بالعقلِ والتَّكليف

تخصيصُ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ بالذِّكر في قوله عزَّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ مَعَ وُجودِ مَخلوقاتٍ كَثيرةٍ؛ تَنبيهًا لِلإنسانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379 - 380.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303 - 304.

على تَفْضيلِهِ وتَكريمِهِ بالعَقْل؛ فلا يَنبغي أن يَدَّعيَ الإلهيَّةَ أو يَتَّخِذَ أصنامًا، أو غيرَ ذلكَ مِن وُجوهِ الإلحاد[1].

### سِرُّ القَسَم بالخَلْقِ هنا بعدَ القسَمِ بالتَّسويةِ في سورةِ الشَّمس:

الجمعُ بين البناءِ الجسَديِّ والبناءِ النفسيِّ

كان القسَمُ في سورةِ الشَّمسِ بتسويةِ النَّفس، أي: خَلْقِ العقلِ والمعرفةِ في الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾ [الشمس: 7]، وأمّا القَسَمُ هُنا فبِخَلْقِ جَسَدِ الإنسانِ واختلافِ صِنفَيْه - على أنَّ المُرادَ بالذَّكرِ والأنثى مِن الإنسانِ - فيَحصُلُ بمَجموعِ الآيتَيْنِ الكَلامُ عنِ الإنسانِ مِنَ النّاحيةِ الجسديَّةِ، ومن النّاحية العقليَّة والنَّفسيَّة[2]، وفي ذلك ما لا يَخفَى من الامتنان، والحثِّ على الاتِّعاظِ والتَّدبُّر والاعتبار.

### بلاغةُ مُلاءَمَةِ جوابِ القسَمِ للمُقسَمِ به:

اختلافُ سعيِ النّاسِ كاختلافِ المقسَمِ به

التَّلاؤمُ والتَّناسبُ بينَ المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليه ظاهرٌ جليٌّ؛ فكما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهارُ والذَّكرُ والأنثى في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ اختلفَ سعيُ العبادِ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ فسعيُ النّاسِ منه خيرٌ، ومنه شرٌّ؛ وهُما يُماثلان النّورَ والظُّلمة، وإنَّ سعيَ النّاسِ يَنبَثِقُ عن نتائجَ منها النّافعُ، ومنها الضّارُّ، كما يُنتِجُ الذَّكرُ والأنثى ذرّيَّةً صالحةً وغيرَ صالحةٍ[3]. وأيضًا: لمّا كان القسَمُ بهذه الأشياءِ المُتضادَّة؛ كان القسَمُ عليه أيضًا متضادًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، أي: أعمالُ العِبادِ الَّتي اكتسَبوها مُتضادَّةٌ أيضًا ومُتخالفة؛ فمِن فاعلٍ خيرًا، ومن فاعلٍ شرًّا[4]؛ فمَصيرُ كلٍّ منهُما مُختلفٌ عن الآخر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 417.

### سِرُّ عدَمِ التَّصريحِ بلفظِ الزَّوجينِ في الآية:

تفصيلٌ للقُدرةِ الإلهيَّةِ في الجَمعِ بين الأضدادِ؛ من الضَّحكِ والبكاءِ، والموتِ والحياةِ، والغِنى والفقر.

النّاظرُ في هذه الآية يجد حديثًا عن خَلْقِ الذَّكرِ والأنثى دون ذِكرٍ لكلمةِ الزَّوجين كما وردَت في سورةِ النَّجم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النجم: 45]، وكما في سورةِ القيامة في قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39].

ويَظهَرُ سِرُّ عَدَمِ التَّعبيرِ بكَلِمةِ الزَّوجَيْنِ في سورةِ اللَّيلِ كما ورَدَت في سورَتَي النَّجمِ والقيامَةِ مِن خِلالِ السّياق؛ فسورةُ النَّجم والقيامَة المَبنيُّ فيهما على التَّفصيل؛ إذْ ذُكِرَ في سورةِ القيامَةِ تَفصيلُ مَراحِلِ خَلْقِ الإنسانِ من قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]، وفي سورة النَّجم تفصيلٌ للقُدرةِ الإلهيَّةِ في الجَمعِ بين الأضدادِ؛ من الضَّحكِ والبكاءِ، والموتِ والحياةِ، والغِنى والفقر.

أمّا سورةُ اللَّيلِ فمَبناها على الإجمال؛ لأنَّ اللّٰه أقسَمَ بلا تفصيلٍ، والمُقسَمُ عليهِ بقَولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ لا يَتَناسَبُ مع الزَّوجيَّة؛ لأنَّ كلمةَ شَتَّى تَعني التَّباعُدَ، والزَّوجيَّةَ تَعني التَّقارُبَ والاقترانَ؛ لذلك لم تُذكرْ كلمةُ الزَّوجيَّةِ[1].

### دلالةُ توالي المُؤَكِّداتِ في ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾:

**اختلافُ سعي النّاسِ حقيقةٌ ثابتة**

توالت المُؤَكِّداتُ بـ ﴿إِنَّ﴾ واللّامِ واسميَّةِ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾؛ لأنَّه لا يكاد يُصدَّقُ اختلافُ وجوهِ السَّعي مع اتِّحادِ المراد[2]، فبيَّنت الآيةُ أنَّ ذلك حقيقةٌ ثابتةٌ، لا ينبغي أن يُشَكَّ فيها.

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ص 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.

### سِرُّ التَّعبير بالسَّعي دون العمل:

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّعي في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ دونَ العمَلِ لوجودِ فرقٍ بينهما؛ فالسَّعيُ يُطلَقُ على المشي السَّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعملُ للجدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[1]؛ بخلافِ العمل؛ فيُطلق على كلِّ فعلٍ يكونُ من الحيوان بقصدٍ[2]. وعُبِّرَ بالسَّعي ليبذلَ كلُّ إنسانٍ في عمَلِه غايةَ جُهدِه[3]، فالسَّعيُ مُستعارٌ هنا للعمَلِ والكدِّ[4].

وجوبُ بَذْلِ الإنسانِ غايةَ جُهدِهِ في أعمالِهِ

### سِرُّ إفرادِ ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾:

أُفرِدَ قولُهُ تعالى: ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾ مع تعدُّدِ المَساعي بتعدُّد النّاس؛ لِأَنَّ المَصْدَرَ المُضافَ يُفيدُ العُمومَ، فيَكونُ جَمعًا مَعنًى، ولِذا أُخبِرَ عَنهُ بـ (شتَّى)، وهو جَمع. وأيضًا: هو مُفرَدُ مَصْدَرٍ مُؤنَّثٍ، كـ (ذِكرى)، و(بُشرى)، فهوَ بتَقْدير مُضافٍ، أو مُؤَوَّلٍ، أو بجَعْلِهِ عَينَ الافتِراقِ مُبالَغَةً.[5].

السَّعيُ مفردٌ لفظًا جمعٌ معنًى بدلالة السّياق

### بلاغةُ الإضافة في ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾:

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾ لاميَّة، والمعنى: سَعيًا لكم، وفيها تنبيهٌ على أنَّ سَعيَ كلِّ إنسانٍ مختلفٌ عن سَعي غيرِه، ويتفرَّعُ عن ذلك أنَّ سلوكَه طريقَ الخير أو طريقَ الشَّر متعلِّقٌ بعملِه هو لا بعملِ غيرِه؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ المسؤوليَّة فرديَّةٌ.

الإنسانُ مسؤولٌ عن عملِه لا عَن عملِ غيرِه

### دلالةُ الخطاب في ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ لجميع النّاس من مؤمنٍ وكافر[6]، والمعنى: سَعْيُكم أيُّها المكلَّفون مختلفٌ ومتفاوتٌ

وجوبُ تيقُّظِ الإنسانِ لمصيره

(1) الراغب، المفردات: (سعي).
(2) الراغب، المفردات: (عمل).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 485.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.

بحسَبِ النَّشاطِ والكَسَلِ والعَجْزِ والقوَّة، والإخلاصِ وعدَمِه، وعلى هذا؛ ففائدةُ الخطابِ مَزيدُ الإيقاظِ والتَّنبيهِ لمضمونِ الكلام، والحثُّ على استماعِه، والتَّيقُّظِ لما بعدَه من التَّفصيل.

### سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ دون (المختلف) ونحوه:

جـزاءُ المـؤمـنِ والكافرِ مُتباعد؛ فمُثابٌ بالجنَّة، ومعاقَبٌ بالنّار

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿لَشَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ دون (مختلف)؛ لدلالتِه على التَّفَرُّقِ الشَّديدِ؛ فهو جَمْعُ شَتيت، مثل مريضٍ ومَرْضى، وإنَّما قيل للمُختلف: شتَّى؛ لِتَباعُدِ ما بين بعضِه وبعضِه، أي: إنَّ عملَكم لَمُتَباعِدٌ بعضُه من بعض؛ لأنَّ بعضَه ضَلالة، وبعضَه هُدًى، أي: فمِنكم مؤمنٌ وبَرٌّ، وكافرٌ وفاجِر، ومُطيعٌ وعاصٍ.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بـ﴿لَشَتَّىٰ﴾، دَلالتُه على بُعدِ الجزاءين للمؤمن والكافر؛ فمِنكم مُثابٌ بالجنَّة، ومِنكم مُعاقَبٌ بالنّار. أو لمُختلِفُ الأخلاق؛ فمِنكم راحِمٌ وقاسٍ، وحليمٌ وطائشٌ، وجوادٌ وبخيلٌ، وشِبهُ ذلك[1].

### بلاغةُ الاستعارةِ أو الكنايةِ في ﴿لَشَتَّىٰ﴾:

أعمالُ النّاسِ مختلفةٌ متفاوتة

(شتَّى) في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ مشتقٌّ من الشَّتِّ، وهو التَّفرُّق الشَّديد، يقال: شتَّ جمعُهُم، إذا تفرَّقوا، وأُريدَ به هنا التَّنوُّعُ والاختلافُ في الأحوال، وهو استعارةٌ أو كنايةٌ عن الأعمال المُتخالفة؛ لأنَّ التَّفرُّق يلزمُه الاختلافُ[2].

### بلاغةُ الإجمال في ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾:

الإنسانُ العاقلُ ينظرُ في عاقبةِ أمرِه

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إجمالٌ يُفيد التَّشويقَ إلى تفصيله بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآية؛ ليتمكَّنَ تفصيلُهُ في الذِّهن[3]، فمَصيرُ الإنسانِ مرتبطٌ بإدراكِ هذا التَّفصيل؛ ليسلكَ بعد ذلك سبيلَ النَّجاةِ أو سبيلَ الهلاك.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: 5 - 7]

### ۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لا يَستوي مَن سَعى في الخيرِ ومَن سَعى في الشَّرِّ

لمّا أجمَلت الآيةُ السّابقةُ سعيَ الإنسانِ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ جاءت هذه الآيةُ ببيانِ وتَفصيلِ هذا السَّعيِ من ناحيةِ اختِلافِ الأعمالِ، والعاقِبةِ المُترتِّبةِ على كلِّ عملٍ من الثَّوابِ والعِقاب.

ومِنها لَمّا طابَقَ بينَ القَسَم والمُقسَم عليه، ونبَّهَ بالقَسَم والتَّأكيدِ مع ظُهورِ المُقسَم عليه على أنَّهُم في أمْنِهم مع التَّحذيرِ كَمَن يَدَّعي أنَّه لا فرْقَ، وأنَّ مَآلَ الكُلِّ واحدٌ؛ شَرَعَ في بيانِ تشتُّتِ المَساعي وبيانِ الجَزاءِ لها[1].

### ۞ شرحُ المفرداتِ:

1) ﴿أَعۡطَىٰ﴾: (عطو) أصل يدلُّ على أخذٍ ومناولة، ومن ذلك: العَطْوُ، وهو التَّناول باليد، يقال: عطا الشَّيءَ وعطا إليه: تناوله، والمعاطاة: المناولة[2]، والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: 29]، وأعطى البعيرُ: انقادَ، وأصلُه: أن يُعطيَ رأسه فلا يتأبَّى[3]، ورجلٌ معطاء: كثيرُ العطاء، والعطاءُ والعطيَّة: اسمٌ لما يُعطى[4]. والمرادُ بالإعطاءِ هنا: البَذل[5].

2) ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: (وقي) أصلٌ يدلُّ على دفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 89 - 90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(3) الراغب، المفردات: (عطو).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 83.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).

ومِنْ ذلكَ: الوِقايةُ، وهي فرْطُ الصّيانة[1]، وحفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيهِ ويضرُّهُ، قالَ ﷻ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: 11][2]، والوِقاءُ: ما وقَيْتَ بهِ شيئًا[3]، والتَّقوى: جعلُ النَّفسِ في وِقايةٍ ممّا يُخافُ، وصارَتْ في عُرْفِ الشَّرعِ حفظَ النَّفسِ عمّا يُؤثِمُ، وذلكَ بتركِ المحظورِ[4]، والمرادُ بالاتِّقاء هنا: تجنُّبُ محارمِ اللّه[5].

3) ﴿وَصَدَّقَ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَهُ[6]، ومِنْ ذلكَ: الصِّدقُ، وهو خلافُ الكذبِ[7]، سُمّيَ بذلكَ؛ لقوَّتِهِ في نفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ، فهو باطلٌ[8]، ويُستعمَلُ التَّصديقُ في كلِّ ما فيهِ تحقيقٌ، يقالُ: صدَّقَني فعلُهُ وكتابُهُ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 89][9]، والمصدِّق: الَّذي يُصدِّقك في حديثك، والَّذي يأخذ صدقات الغنم[10]، ويقال للرَّجل الجوادِ والفرسِ الجواد: إنَّه لذو مَصْدَق، أي: صادقُ الحملة[11].

4) ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: (حسن) أصلٌ يدلُّ على ضدِّ القُبح[12]، ومن ذلك يقال: رجل حسنٌ، وامرأة حسناء، وحسَّن الشَّيءَ تحسينًا: زيَّنَه[13]، وحسَّن اللّه خلقه، وأحسنَ إلى أخيه، وأحسنَ به[14]، والحَسَنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهجٍ مَرغوبٍ فيه، والحَسَنَةُ يُعبَّر بها عن كلِّ ما يُسِرُّ من نعمةٍ تَنالُ الإنسانَ في نفسِه وبَدَنِه وأحوالِه، والسَّيِّئَةُ تُضادُّها. والمُرادُ بالحُسنى: الخَلَفُ من اللّه على الإعطاءِ، أو شهادةُ التَّوحيدِ، أو الجَنَّةُ، أو ما وعَدَ اللّه تعالى به[15].

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (وقي).
(2) الراغب، المفردات: (وق).
(3) الجوهري، الصحاح: (وقي).
(4) الراغب، المفردات: (وق).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 468.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(7) الجوهري، الصحاح: (صدق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(9) الراغب، المفردات: (صدق)، والسّمين، عمدة الحفاظ: (صدق).
(10) الجوهري، الصحاح: (صدق).
(11) الخليل، العين: (صدق).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(13) الرازي، مختار الصحاح: (حسن).
(14) الزمخشري، أساس البلاغة: (حسن).
(15) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 469 - 470.

5) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: (يسر) أصلٌ يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّته، ومن ذلك: اليَسَرات، وهي القوائم الخِفاف[1]، ويقال: فرسٌ حسنُ التَّيسور، أي: حسنُ نقلِ القوائم[2]، واليَسْر: اللّين والانقياد[3]، واليُسْرُ: ضدُّ العُسْرِ، قالَ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ويقالُ: تيسَّرَ كذا، واستيسرَ، أي: تسهَّلَ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة: 196]، وقالَ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: 20] أي: تسهَّلَ وتهيَّأ، واليسيرُ والميسورُ: السَّهْلُ، ويُطلَقُ اليسيرُ أيضًا على الشَّيءِ القليلِ[4]. والمرادُ بتيسيرِه لليُسرى: إرشادُه لأسبابِ الخيرِ والصَّلاحِ، حتَّى يسهُلَ عليه فِعلُها[5].

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

مَن سلكَ سبيلَ الخيرِ فُتحَت له أبوابُ النَّجاحِ والفلاحِ

يقول تعالى ذِكرُه: فأمّا من بَذَلَ من مالِه، وأنفَقَ في وجوهِ الخيرِ، واجتَنَبَ محارِمَ اللهِ، وابتَعَدَ عن كلِّ ما لا يَنبغي، وصدَّقَ بالخَلَفِ من اللهِ على إعطائِه ما أعطى من مالِه، أو صدَّقَ بثبوتِ الفَضيلةِ والعملِ الطَّيِّبِ، أو صدَّقَ بموعودِ اللهِ؛ فسنُهَيِّئُه للخُلَّةِ اليُسرى، وهي العملُ بما يُرضي اللهَ في الدُّنيا؛ ليوجِبَ له به في الآخرةِ الجَنَّةَ[6].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الفاءِ في ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾:

تفصيلُ مَساعي النّاسِ بعد إجمالِها

الفاءُ في قولِه جلَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ للتَّفريع[7]، وبيانِ ترتُّب التَّفصيل على الإجمال[8]، وذلك أنَّه لمّا أجمَلَ مساعيَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (يسر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (يسر).
(4) الراغب، المفردات: (يسر)، والسّمين، عمدة الحفاظ: (يسر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 83.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 468 - 471.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 381.
(8) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 304.

النّاس في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ فصَّلها هنا مبيِّنًا أنَّه لا تجوزُ تسويةُ المُحسِن بالمُسيء[1].

ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحةً؛ لأنَّها أفصَحَت عن جوابِ شرطٍ مُقدَّر، تقديرُه: إذا عرَفتُم أنَّ سَعْيَكم شتَّى، وأردتُم بيانَها وتفصيلَها لكم، فأقولُ لكم: أمّا من أعطى واتقى[2].

### دلالة (أمّا) في ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾:

(أما) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ تُفيدُ الشَّرطَ والتَّفصيل للإجمال في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، وهي تبيينٌ لأحكام تلك المساعي المشتَّتة[3]، وتقسيمٌ لأصحابها[4].

### سرُّ بيان أحوالِ السّاعينَ دون السَّعي:

اختلافُ أحوالِ السّاعينَ يَنتجُ عنه اختلافُ السَّعي

عدَلَ القرآنُ الكريمُ عن تفصيلِ السَّعيِ مع أنَّهُ المُحتاجُ إلى التَّفصيلِ لإجماله في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، ولكنْ جُعلَ التَّفصيلُ ببيانِ السّاعينَ بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾؛ لأنَّ المُهمَّ هو اختلافُ أحوالِ السّاعينَ، ويُلازِمُهم السَّعيُ؛ فإيقاعُهُم في التَّفصيل بحسَبِ مساعيهِم يُساوي إيقاعَ المَساعي في التَّفصيل، وهذا تَفنُّنٌ من أفانينِ الكلامِ الفصيح يَحصُلُ منه معنَيان.

### سرُّ حصرِ السّاعينَ في فريقين:

مقامُ التَّرغيب والتَّرهيب يَقتضي ذِكرَ مثالٍ لأهلِ الخير ومثالٍ لأهل الشَّرِّ

انحصرَ تفصيلُ ﴿لَشَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيات، في فريقين: فريقٍ ميسَّرٍ لليُسرى، وفريقٍ ميسَّرٍ للعُسرى؛ لأنَّ الحالين هما المهمُّ في مقامِ الحثِّ على الخير، والتَّحذيرِ من الشَّرِّ، ويَندرجُ فيهما مختلَفُ الأعمال، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 89 - 90.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 32/ 64.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 166، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 366.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 490.

﴿أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 6 - 8][1].

ويجوزُ أن يكون تفصيلُ ﴿لَشَتَّىٰ﴾ هو مَن أعطى واتَّقى وصدَّقَ بالحسنى، ومَن بَخِلَ واستغنى وكذَّبَ بالحُسنى، وذلك عددٌ يصحُّ أن يكون بيانًا لشتَّى[2].

أعمـالُ الخير مَجلَبةٌ للتَّيسير

### دلالة ﴿مَنۡ﴾ في ﴿فَأَمَّا مَنۡ﴾:

وردت ﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ في سياقِ الشَّرط؛ لإفادة العموم، وإن كانتِ الآيةُ - كما ورَدَ في أسبابِ النُّزول - أنَّها في أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه حينما اشترى بلالًا وأعتقَه، إلّا أنَّ حَمْلَها على العُموم أولى؛ لأنَّ العِبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بِخُصوصِ السَّببِ[3].

التَّيسيرُ لليُسرى لِمَن كـان راسخًا في أفعال الخير

### نُكتة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّيسير لليُسرى لا يكونُ إلّا لمَن تحقَّق منه الإعطاءُ والاتِّقاءُ والتَّصديقُ، وتحلَّى بهذه الصِّفات حتَّى كانت بمنزلة الصِّفات الجِبِلِّيَّة التي لا تنفكُّ عنه، وصار العطاءُ عنده سجيَّةً، والتَّخلُّقُ بالأخلاق الحسنة صارت طبعًا لهُ فلا يعرف أخلاقَ السّوء.

المُعطي محلُّ ثناءٍ أيًّا كانت عطيَّته

### سرُّ حذفِ المفعول في ﴿أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾:

في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ إيجازٌ بليغ، وذلك بحذف مفعولَيۡ ﴿أَعۡطَىٰ﴾، ومفعولِ (اتَّقى)، ومفعولِ (صدَّق) المجرور بـ (على)؛ لأنَّ الغرضَ ذِكرُ هذه الأحداث

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 381.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 381.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382.

دون متعلّقاتها[1]، فالمَقصودُ الثَّناءُ على المُعطي دون تعرُّضٍ للمُعطَى والعطيَّة[2]. وأيضًا: فعلُ الإعطاء إذا أُريدَ به إعطاءُ المالِ بدون عِوَض؛ يُنَزَّل منزلةَ اللّازم؛ لاشتهار استعمالهِ في إعطاء المال، ولذلك يُسمَّى المالُ الموهوبُ عطاءً، والمتَّقَى معلوم، وهو اللّه تعالى[3].

وممّا يُذكر في دلالةِ الحذف؛ إفادةُ العموم ليعمَّ المفعول الجنس الذي هو له من الأفعال المذكورة؛ فعطاؤه عامٌّ، واتَّقى كلَّ المحارم.

**سرُّ تخصيصِ الإعطاء بالذِّكر مع دلالةِ الاتِّقاء عليه:**

**الإعطاءُ والتَّقوى والتَّصديقُ بالحُسنى شعارُ المسلمين**

خُصَّ الإعطاءُ بالذِّكر في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ مع شُمول (اتَّقى) لمفاده؛ لتحريضِ المسلمين على الإعطاء، فالإعطاءُ والتَّقوى شِعارُ المسلمين مع التَّصديق بالحُسنى، وضدُّ الثَّلاثة من شِعار المشركين[4].

وممّا يُذكر في تخصيصِ الإعطاءِ بالذِّكر بيانُ أنَّ كثيرًا من النّاس يرسبُ في امتحانِ المالِ لشدَّةِ الحِرصِ عليه، ولأنَّه شقيقُ الرّوح؛ فخَصَّهُ بالذِّكر لمزيدِ الاهتمام، يُؤَكِّد ذلك أنَّ بعضَ العُلَماء خصَّه بإعطاءِ المال؛ لكونِه ظاهرَ الآية، ولوُقوعِهِ في مُقابلةِ البُخل.

**نُكتةُ تقديمِ الإعطاء على الاتِّقاء:**

**الإعطاءُ بابٌ لكلِّ صفاتِ الخير**

قُدِّمَ الإعطاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ على الاتِّقاء؛ لأنَّه بابُ كلِّ خير؛ فمَن جادَ بالمالِ طابَت نفسُهُ للطّاعةِ والالتزام، ولأنَّ الإعطاءَ فيه إشارةٌ إلى آداءِ حقوقِ اللّه تعالى بامتثالِ المأموراتِ واجتنابِ المنهيّات؛ أمّا الاتِّقاءُ فهو إشارةٌ إلى ما يشملُ سائرَ العبادات؛ من فعلِ الحسناتِ وتركِ السيِّئاتِ مطلقًا، والتَّصديقُ بالحُسنى إشارةٌ إلى الإيمانِ بالتَّوحيدِ أو بما يعمُّه وغيرَه

---

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 29.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 493.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 386.

ممّا يجبُ الإيمانُ به، وذكرَ البعضُ أنَّ تقديمَ الإعطاءِ بناءً على سببِ النُّزول؛ إذْ نزلتِ الآيةُ في حقِّ أبي بكر رضي الله عنه[1].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالاتِّقاء:

عُبِّر بالاتِّقاء في قولِ الحقِّ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾؛ لدلالته على كمالِ الاحترازِ والتَّوقّي، فيُفيدُ كمالَ الحِرصِ على تجنُّبِ كلِّ ما يُسبِّبُ غضبَ الباري جل جلاله، وذلكَ من كمالِ الإيمانِ والعقلِ والفِطْنة.

اجتنابُ غضبِ اللهِ كمالُ الإيمانِ والعقلِ والفِطنة

### سرُّ تأخيرِ التَّصديقِ بالحُسنى عن الاتِّقاء:

لمّا كان الإيمانُ أمرًا مُعتنًى به في نفسه؛ أُخِّرَ عن الاتِّقاء في قوله تعالى شأنه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ ليكونَ ذِكرُه بعدَهُ من باب ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، مع ما في ذلك من رعايةِ الفاصلة[2].

ومّما يُذكَر في سرِّ تأخيرِ التَّصديقِ بالحُسنى عن الاتِّقاءِ مع أنَّ الأصلَ فيه التَّقديمُ؛ لأنَّه يتعلَّقُ بالتَّوحيدِ؛ لأنَّ الطّاعةَ والاتِّقاءَ يدلّان على التَّوحيدِ، وبالنَّظرِ إلى ذلك يستحقّان التَّقديمَ، وإنْ كان التَّوحيدُ مقدَّمًا عليهما في الوجودِ، وشرطًا لصِحَّتهما[3].

الطّاعةُ والاتِّقاءُ يَدلّان على التَّوحيد الَّذي هو شرطُ صِحَّتهما

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّصديق:

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالتَّصديقِ في قولِه تبارك وتعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ لأنَّ التَّصديقَ يدلُّ على الاعترافِ والاعتقادِ بالحُسنى مع تعدُّدِ المرادِ بها؛ فهو المِلَّةُ الحُسنى وهي ملَّةُ الإسلام، أو المَثوبةُ الحُسنى وهي الجنَّةُ، أو الكلمةُ الحُسنى، وهي لا إله إلا اللّه. وعلى الوجوهِ كلِّها فالتَّصديقُ بها الاعترافُ بوقوعِها، ويُكنى به عن الرَّغبةِ في تحصيلِها[4].

المؤمنُ راغبٌ في تحصيلِ ما هو سببُ نجاتِه في الآخرة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 367.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 367.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 305.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382 - 383.

وفي التَّعبيرِ بالتَّصديقِ إشارةٌ إلى شدَّةِ اليقينِ في الاعترافِ بهذه المعاني السّابقةِ دون شكٍّ أو تردُّدٍ كما وقعَ من المنافقين.

### دلالةُ الباء في ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

التَّصديقُ متعلِّقٌ بالإسلام والجنَّة

الباءُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ للتَّعدية، فتفيدُ تعلُّقَ التَّصديقِ بالحُسنى الَّتي هي ملَّةُ الإسلام، أو الجنَّة، أو كلمة التَّوحيد[1]؛ فلا ينفكُّ تصديقُهُ بهذه الأشياء؛ فأعمالُهُ متعلِّقةٌ في صُدورِها بمبدأ الإسلام والجزاءِ المترتِّب عليه.

### نكتةُ حذفِ الموَصوفِ في ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

إفادةُ العُمومِ في التَّصديقِ بالمَطالب الحسَنة

الحُسنَى في قوله ﷻ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيثُ الأحسَن، فهي بالأصالة صفةٌ لموصوفٍ مُقدَّرٍ لم يُعيَّن؛ لذلك يحتملُ أمورًا كثيرةً مثل: الملَّة الحُسنى وهي ملَّةُ الإسلام، أو المثوبة الحُسنى وهي الجنَّة، أو الكلمةُ الحسنى، وهي لا إله إلا اللّه[2]، وتأنيثُها مُشعِرٌ بأنَّ موصوفَها المقدَّرَ يُعتبرُ مؤنَّث اللَّفظ.

### بلاغةُ التَّعبير بالحُسنى ودلالةُ (أل) فيها:

العاقلُ لا يتركُ الأحسَنَ - الَّذي هو سببُ النَّجاح - إلى غيره

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالحُسنى دون غيرها من الأوصافِ في قوله ﷻ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لأنَّه يُطلق على معانٍ كثيرةٍ؛ منها ملَّةُ الإسلام، أو الجنَّة، أو كلمةُ التَّوحيد، أو الخَلَفُ من اللّه تعالى على العطاء؛ والحُسْنُ فيها بالغٌ وظاهر، والعاقلُ لا يتركُ الأحسَنَ الَّذي هو سببُ النَّجاحِ إلى غيره.

يؤكِّدُ هذا أنَّ (أل) في الحسُنى للعَهد؛ إذِ المُرادُ بها خصلةٌ معهودةٌ معروفةٌ، وهي ملَّةُ الإسلام، أو الجنَّة، أو كلمةُ التَّوحيد، أو الخَلَفُ من اللّه تعالى على العطاء.

وهذه المعاني متقاربةٌ ولا تعارُضَ بينها؛ لأنَّها في خُلاصَتها تعودُ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 762، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 650.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382 - 383.

إلى معنيَين: إمّا: صدقٌ بالخَلَفِ من اللّه تعالى على نَفقتِهِ، وسياقُ الآيةِ في الإنفاقِ يؤكِّدُ ذلك، وإمّا: صدقٌ بالجنَّةِ، ويَشهَدُ له قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]؛ فالحُسنى هي الجنَّة، والزّيادةُ النَّظَرُ إلى وجهِ اللّه الكريم.

**سرُّ الاقتصار على هذه الطّاعات دون غيرها:**

جمعُها لمراتبِ الدّين

اقتُصِر على هذه الطّاعاتِ الثّلاثِ دونَ غيرِها في قولِه تعالى شأنه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمّيَّتها؛ إذ انتَظَمَت أمورَ الدّين، وجمعَتِ العِلْمَ والعمَلَ؛ فالدّينُ يَدورُ على ثلاثِ قواعدَ: فعلُ المأمور، وتركُ المَحذور، وتصديقُ لخبَر؛ فالإعطاءُ فِعلُ المَأمورِ، والتَّقوى تركُ المحظور، والتَّصديقُ بالحُسنى تصديقُ الخبر.

**دلالة الفاء في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾:**

التَّيسيرُ مُترتِّبٌ على الخِصال السّابقة

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ واقعةٌ في جواب (أمّا)؛ لتضَمُّنها معنى الشَّرط، وتدلُّ على التَّرتيب؛ إذ جَعلتِ التَّيسيرَ مُترتِّبًا على فعلِ هذه الطّاعات السّابقة؛ فهي سببُ دخولِ الجنَّة، ونيلِ المكانةِ الرَّفيعةِ عندَ اللّه ﷻ.

**دلالةُ السّين في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾:**

وعدُ اللّه بالتَّيسير آتٍ لا محالة

دلَّ دخولُ السّين في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ على تحقُّق الوعد وثبوته؛ لأنَّه من اللّه قطعٌ ويقينٌ على سبيل التَّرفيق والتَّلطيف، ولأنَّ الثَّواب لمّا كان أكثرُه واقعًا في الآخرة، وكان ذلك ممّا لم يأتِ وقتُه، ولا يقفُ على وقته إلّا اللّه؛ دخلَه تراخٍ، فأُدخلت السّين؛ لأنّها حرفُ التَّراخي؛ ليدلَّ بذلك على أنَّ الوعدَ آجلٌ غيرُ حاضر[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 185.

### نكتةُ صيغةِ المضارع في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾:

جيءَ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على التَّدريج، والمعنى: سيَظهر تدريجُنا إيّاه في عمل الخير، حتَّى يُختمَ له بخاتمةٍ حسنةٍ قد كانت في عِلم اللّه أوَّلًا[1].

### بلاغة إسناد التَّيسير إلى نون العظمة:

تيسيرُ الطّاعة الشّاقّة على النَّفس عظيمُ الشَّأن

إسنادُ التَّيسير إلى نون العظمة في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ لتعظيم التَّيسير، والإشارةِ إلى صُعوبةِ الطّاعةِ على النَّفس وإن كانت في غايةِ اليُسر في نفسها؛ لأنَّها في غاية الثِّقل على النَّفس، والمعنى: فنُهَيِّئه بما لنا من العظمةِ بوَعدٍ لا خلفَ فيه[2].

### بلاغة التَّعبير بالتَّيسير:

المؤمنون الصّادقون موفَّقون للطّاعات والجنّات

من فسَّر اليُسرى في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ بالجنَّة فسَّر التَّيسير لليُسرى بإدخال اللّه تعالى إيّاهم في الجنَّة بسهولةٍ وإكرام، وأمّا من فسَّر اليُسرى بأعمال الخير فالتَّيسير لها هو تسهيلُها على مَن أراد، حتَّى لا يَعتريَه من التَّثاقُلِ ما يَعتري المُرائين والمنافقينَ من الكسَل، فكان التَّيسيرُ هو التَّنشيط[3]، والمُرادُ من التَّنشيطِ تكميلُ النَّفس إلى أن تبلغَ المقامَ الذي تجدُ فيه سعادتها بتهيئَتِها لأداءِ الطّاعات.

### بلاغةُ حذفِ الموصوفِ في ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾:

تيسيرُ أهلِ الصّلاح لطريق الجنَّة

في قوله تقدَّست أسماؤه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ إيجازٌ بحذفِ الموصوف. واكتفى بذِكر الصِّفة، ولم يذكُر الموصوفَ لإفادة العموم، ولو أرادَ تقييدَ المعنى لقال: فسنُيَسِّره للخصلة اليسرى وما في

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 491.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 90.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 184.

معناها من اليُسر والرّاحة المقتضيةِ للعمل بما يُرضيه ﷻ؛ ليصلَ بذلكَ إلى الحياةِ الطيِّبةِ ودُخولِ الجنَّة[1].

**بلاغةُ التَّعبير باليُسرى:**

**أهــلُ الإيـمـانِ مُيَسَّرون للرّاحة والنَّعيمِ والمكانةِ العالية**

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ باليُسرى في قوله جلَّ ذِكره: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا اللَّفظ يحتملُ دلالاتٍ كثيرةً تندرجُ في معاني النَّفعِ الَّذي لا يشقُّ على صاحبه، أي: الملائم[2]؛ لأنَّها تدلُّ على خِلاف المشقَّة، والمعنى: نُيسِّرُه للخصلة الَّتي تُؤدي إلى يُسْرٍ وراحةٍ كدُخول الجنَّة ومباديه، ووصفُها باليُسرى: إمّا على الاستعارةِ المُصرّحة، أو المَجاز المُرسل، أو التَّجوُّز في الإسناد[3]. ويحتملُ أن يُراد باليُسرى المكانة.

**دلالةُ تعريف اليُسرى:**

**الرّاحة والسُّرور مآلُ أهل الطّاعة**

اليُسرى في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ هي ما لا مشقَّة فيه، والمرادُ بها حالةُ النَّعيم، أو المكانة، أو الجنَّة، وتعريفُها للجنس؛ إذْ يُطلق على كلِّ ما هو الأيسَرُ من أعمال الدُّنيا أو الآخرة أو التَّعريف للعهد[4]، والمُراد الجنة.

**عِلَّةُ تأنيثِ اليُسرى:**

جاء التَّعبيرُ بالتَّأنيث في لفظِ اليُسرى دون المُذكَّر (اليسر)؛ لأنَّ المُرادَ منها جماعةُ الأعمال، فوجهُ التَّأنيثِ ظاهِر، وإنْ كانَ المُرادُ عمَلًا واحدًا رجعَ التَّأنيثُ إلى الخُلَّة أو الفَعْلة. ويحتملُ أن يكونَ مرجعُ التَّأنيث إلى الطَّريقة، فكأنَّه قال: للطَّريقةِ اليُسرى[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 90 - 91.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 367، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 486.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 183 - 184.

### بلاغةُ الإظهارِ موضعَ الإضمارِ في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾:

كلُّ عملِ خيرٍ فهو بتوفيق الله وتيسيره

المتيسِّر في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ هو تيسيرُ الدَّوامِ على الإعطاء والاتِّقاء والتَّصديق ونحوِ ذلك من أعمال الخير، واليُسرى صفةٌ للأعمال، وذلك من الإظهار في مقامِ الإضمار، والأصل: مُسْتيسِرٌ لهُ أعمالُه، وعُدِلَ عن الإضمار إلى وصفِ اليُسرى؛ للثَّناء على تلكَ الأعمال بأنَّها ميسَّرةٌ من اللّه؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾ [الأعلى: 8][1].

### بلاغة الجناس في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾:

حثُّ المطيعِ على الاستمرار في الطّاعة

في قوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ جناسُ اشتقاق، ومن لطائفه: تناغُمُ ألفاظ الآية، وتكرارُ مادَّةِ التَّيسير عند تلاوة الآية، وفي ذلك مزيدُ ترغيبٍ لأهلِ الإيمان والطّاعة؛ ليستمرّوا على ما هُم عليه من الطّاعاتِ وأفعالِ الخير.

### براعةُ القلب في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾:

تهيئةُ أهلِ الإيمان لدوامِ العملِ الصّالحِ واستمراره

ترتيبُ النَّظم في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ واردٌ على عكس المتبادر؛ إذ جُعل ضميرُ الغيبة في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ العائدُ إلى مَن أعطى واتَّقى هو الميسَّرَ، أي: الَّذي صارَ الفعلُ سهلَ الحصول حاصلًا له، وإذْ وقعَ المجرورُ باللّام (اليُسرى)، وهو لا ينتفع بسهولة مَن أعطى؛ تعيَّن تأويلُ نظمِ الآية بإحدى طريقتين: **الأولى**: إبقاءُ فعلِ (نيسِّر) على حقيقته، وجعلُ الكلام جاريًا على خِلاف مقتضى الظّاهر بطريقِ القلب، بأن يكون أصلُ الكلام: فسنيسِّر اليُسرى له، ولا بدَّ من مقتضٍ للقلب، فيُصارُ إلى أنَّ المقتضيَ إفادةُ المبالغة في هذا التَّيسير، حتَّى جُعلَ الميسَّر ميسَّرًا له، والميسَّرُ له ميسَّرًا. **والثّانية**: أن يكون التَّيسيرُ مستعمَلًا مجازًا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 386.

مرسلًا في التَّهيئة والإعداد بعلاقة اللُّزوم بين إعداد الشَّيء للشَّيء وتيسُّره له، وتكون اللّام من قوله: ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ لامَ التَّعليل، أي: نُيسِّره لأجل اليُسرى، فالمُرادُ باليُسرى الجنة، على أن يكون الوصفُ صار علَمًا بالغلَبة على الجنَّة، والتَّهيئة لا تكون لذات الجنَّة، فتعيَّنَ تقديرُ مضافٍ بعد اللّام يُناسب التَّيسيرَ، فيُقدَّر: لدخول اليُسرى، أي: سنعجِّل به ذلك، والمعنى: سنَجعلُ دخولَ هذه الجنَّةِ سريعًا.

ويجوزُ أن يكون معنى الآية: أن يُجعلَ التَّيسيرُ على حقيقته، وتُجعلَ اليُسرى وصفًا، أي: الحالة اليُسرى، وليس في التَّركيب قلبٌ، والتَّيسيرُ بمعنى الدَّوام على العمل(1).

### بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ مع سورةِ الأعلى:

أمـورُ الـرَّسـول ﷺ مـيـسَّـرةٌ امتنانًا وتشريفًا

تشابَه قولُه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ في هذه السّورة مع قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾ [الأعلى: 8]، والنّاظرُ في سياقِ الآيتين يجدُ أنَّ الخطابَ مختلفٌ؛ ففي سورةِ الأعلى الخطابُ فيها لرسولِ اللّه ﷺ، وأمورُه كلُّها ميسَّرةٌ في الحالِ والاستقبالِ دون تقييدٍ امتنانًا وتكريمًا له ﷺ.

سبيلُ التَّيسير والتَّسهيل العطاء، والاتِّقاء

أمّا في سورة اللَّيل فالخطابُ فيها على العموم؛ إذ جاءت بعدَ قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ فالتَّيسيرُ مرتبطٌ بالعطاء والاتِّقاءِ والتَّصديق بالحُسنى(2).

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الإعطاء والإيتاء:

الإيتاءُ أقوَى من الإعطاء وأعَمُّ

الإعطاءُ فيه دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ، ويُؤيِّدُه قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ فإنَّ لهُ منعَ مَنْ شاءَ منهُ كالمالكِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 384 - 385.

(2) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ص 371.

للمِلْكِ، وأمّا القرآنُ فحيثُ إنَّ أمَّتَهُ مُشارِكونَ لهُ في فوائدِهِ قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87][1]. والإيتاءُ أقوَى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[2]. والإيتاءُ فيهِ غالبًا معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[3]. والإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، وأمّا الإيتاءُ فيكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ[4]. وقد عُبِّر بالإعطاء هنا؛ لأنَّ المُرادَ أنَّهم يُعطونَ غيرَهم من أموالهم، ويُملِّكونه إيّاه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.

(3) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.

(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 251.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 8 - 11]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ حالِ أهلِ الشَّقاوةِ بعدَ بيانِ حالِ أهلِ السَّعادة

لمّا ذكرَ ﷻ فيما سبقَ المزكّيَ وثمَرَته؛ أتبعَهُ المُدسّيَ وشِقْوتَه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ الآيات.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَخِلَ﴾: (بخل) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الكرم[1]، والبخل: إمساكُ المقتنَياتِ عمّا لا يحقُّ حبسُها عنه، ويقابلُه الجود، وأمّا البخيلُ فهو الَّذي يَكثُر منه البخل، والبخلُ نوعان: بخلٌ بقُنْياتِ نفسه، وبخلٌ بقُنْياتِ غيره، وهو أكثرُها ذمًّا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء: 37][2]، والمرادُ بالبُخل هنا: عدمُ إنفاقِ المالِ في الخير[3].

2) ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ ﴿وَمَا يُغۡنِي﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكفاية[4]، ومِنْ ذلكَ: الغِنى، وهو يقالُ على أنواعٍ: أحدُها: عدمُ الحاجاتِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّه تعالى. والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ. والثّالثُ: كثرةُ القُنْياتِ. ويقالُ: غَنيتُ بكذا، واستغنيتُ وتغنَّيتُ، وتغانيتُ. ويقالُ: أغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا، إذا كفاني[5]. والمرادُ بالاستغناء: الاستغناءُ عنه تعالى بتركِ التّقوى[6]، أو إيثارِ

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بخل).
(2) الراغب، المفردات: (بخل).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 84.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(5) الراغب، المفردات: (غني).
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 651، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 421.

شهواتِ الدُّنيا عن نعيمِ الآخرة[1]. والمرادُ بعدمِ الإغناءِ هنا: عدمُ النَّفع والمنعِ والحمايةِ[2].

3) ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾: (عسر) أصلٌ يدلُّ على صعوبةٍ وشدَّة[3]، ومن ذلك: العسير، وهو النّاقة الَّتي لم تُرَضْ، والعُسرُ: ضدُّ اليُسر[4]، قال تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق: 7]، ويُقال: أعسَرَ الرَّجلُ: أضاقَ[5]، وتعاسَرَ القومُ، أي: طلبوا تعسيرَ الأمر، ويومٌ عسير: شديدٌ تتصعَّبُ فيه الأمور[6]. والمُراد بالعُسرى هنا: طريقُ الشَّرِّ[7].

4) ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: (ردي) أصلٌ يدلُّ على رميٍ أو تَرامٍ وما أشبَه ذلك[8]، ومن ذلك يُقال: ردَّيتُ الحجرَ بصخرةٍ أو بمِعْوَلٍ، إذا ضربتَه بها لتكسِرَهُ[9]، وتردَّى وارتدى: لبس الرِّداء[10]، ورَدِيَ يَرْدَى رِدًى فهو ردٍ، أي: هالكٌ، وأرداهُ اللّه[11]، وتردَّى في الهوَّة، وتردَّى من الجبل: سقط[12]، والتَّرَدّي: التَّعرُّض للهلاك[13]. والمُرادُ به هنا: السُّقوطُ في جهنَّم[14].

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

سوءُ مآلِ البخيلِ تاركِ الإيمانِ والتَّوحيد

يقولُ تعالى ذِكرُه: وأمّا مَن بَخِلَ بالنَّفقةِ في سبيلِ اللّه، ولم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 651.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (عسر).
(4) الجوهري، الصحاح: (عسر).
(5) الرازي، مختار الصحاح: (عسر).
(6) الراغب، المفردات: (عسر).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 417.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردي).
(9) الجوهري، الصحاح: (ردي).
(10) الرازي، مختار الصحاح: (ردي).
(11) الخليل، العين: (ردي).
(12) الزمخشري، أساس البلاغة: (ردي).
(13) الراغب، المفردات: (ردي).
(14) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 476.

يَصرِفُ ما وهَبَ اللّه له من فضلِهِ في الوجوهِ الَّتي أمرَهُ اللّه بصَرفِهِ فيها، واستغنى عن ربِّهِ، فلم يَرغَبْ إليه بالعملِ بطاعتِهِ، وكذَّبَ بالخَلَفِ من اللّه على ما أنفق، أو بمَوعودِ اللّه، أو بـ (لا إله إلا اللّه)؛ فسنُهَيِّئُهُ للعمَلِ بما لا يُرضي اللّه تعالى، ولا ينفعُهُ مالُهُ إذا سقط في جهنَّم[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ عطفِ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾:

تتميمُ مقامِ التَّرغيبِ والتَّرهيب

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾. ونكتةُ العطف: ذِكرُ المُدسّي وشِقْوتهِ بعدَ ذِكرِ المُزكّي وثمرَته[2]؛ ليكونَ السّامعُ على إحاطةٍ بحالِ الفريقين، وفي ذلك توفيةٌ لمقام التَّرغيب والتَّرهيب.

### دلالة (أمّا) في الآية:

تفصيلُ إجمالِ السَّعيِ بذِكرِ سَعيِ أهلِ الشَّقاء

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ تفيد الشَّرطَ والتَّفصيلَ، وهو يتضمَّن أداةَ شرطٍ وفعلَ شرطٍ؛ لأنَّه بمعنى: مهما يكُنْ من شيء، والآيةُ من تتمَّة تفصيلِ السَّعي المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

### دلالة ﴿مَنۡ﴾ في ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾:

التَّيسيرُ للعُسرى نتيجةُ الأفعالِ القبيحة

لمّا كان الوعدُ بتيسير العُسرَى لصاحب الصِّلاتِ الدّالَّة على أعمال البُخلِ والاستغناء والتَّكذيب؛ كان سلوكُ طريق الموصوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾؛ للإيماء إلى وجهِ بناءِ الخبر، وهو التَّيسيرُ للعُسرى، فتعيَّن أنَّ التَّيسيرَ مسبَّبٌ عن تلك الصِّلات، أي: جزاءٌ عن فِعلِها[3].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 471 - 476.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 91.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382، 386.

والموصولُ من ألفاظ العموم، فيعمُّ كلَّ مَن يفعلُ البُخلَ، ويَستغني، ويُكذِّبُ بالحُسنى.

**نُكتةُ التَّعبير بالماضي:**

التَّيسيرُ للعُسرى لمَن كانَ راسخًا في أفعالِ الشَّرِّ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّيسيرَ للعُسرَى يكونُ لمَن تحقَّقَ منه البخلُ والاستغناءُ والتَّكذيبُ، واتَّصَفَ بهذه الصِّفات، حتَّى كانت بمنزلةِ الصِّفاتِ الجِبلِّيَّة الَّتي لا تنفكُّ عن صاحبها.

**سرُّ التَّعبيرِ بالبُخل دون الشُّحّ:**

منعُ الكافرِ حقَّ الله في مالِهِ

آثرَ التَّعبير بالبُخلِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ دونَ الشُّحِّ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالشُّحُّ: الحرصُ على مَنعِ الخَير، والبُخلُ: منعُ الحقِّ[1]، والشُّحُّ: البُخلُ مع حِرصٍ، فهو أبلغُ وأشَدُّ[2]. وقد عُبِّرَ بالبُخلِ هنا؛ لدلالتهِ على أنَّ الكافرَ يَمنَعُ حقَّ اللّه في مالِهِ؛ فلم يَبذُلْهُ في وجوهِ الخير.

**سرُّ تخصيصِ البُخل بالذِّكر مع شُمول الاستغناء له:**

البُخلُ بالحقوقِ من شعارِ المُشركين

خُصَّ البُخلُ بالذِّكر في قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مع شمولِ الاستغناء له؛ لتحريضِ المسلمين على الإعطاء؛ فالإعطاءُ والتَّقوى شِعارُ المسلمينَ مع التَّصديق بالحُسنى، وضدُّ هذه الصِّفاتِ السّابقة البُخلُ وعدمُ التَّقوَى وعدمُ التَّصديقِ بالحُسنَى من شِعار المشركين[3].

**سرُّ الابتداءِ بالبُخل مع أنَّه أدنى رتبةً ممّا بعده:**

البُخلُ أصلٌ في التَّيسير للعُسرى

صُدِّرتِ الآيةُ بالبُخلِ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨

(1) العسكري، الفروق، ص: 176.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 267.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 386.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ مع أنَّه أدنى رتبةً ممّا بعده في استتباعِ التَّيسير للعُسرى؛ للإيذانِ بأنَّه أصلٌ فيما ذُكر، لا تتمَّةٌ لِما بعدَهُ من التَّكذيب والاستغناء(1).

### نُكتةُ حذفِ متعلّق ﴿بَخِلَ﴾:

اتِّصافُ البخيل بكلِّ صوَرِ البُخل

لم يُذكر متعلّق فعل ﴿بَخِلَ﴾ في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾؛ لظُهورِه من المقام، والمرادُ به: البخلُ بالمال(2)، وعدمُ بذلهِ في سبيلِ الخير(3). ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾. ويحتملُ أن يكون أعمَّ من ذلك، فيشمل البخلَ بالإيمان وغيرِه من الأقوال الَّتي حقُّ الشَّريعة ألّا يُبخَلَ بها(4).

### نكتةُ عطفِ ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾:

عطف ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ على ﴿بَخِلَ﴾ من قبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لزيادة تفظيعِ شأنِ الكفرة، والتَّنصيصِ على رؤوسِ قبائحهم.

### بلاغةُ التَّعبير بالاستغناء:

المشركون يكتفون بولايةِ الأصنام

في التَّعبير بالاستغناء في قوله تقدَّست أسماؤه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ تقبيحٌ لحالِ المشركين؛ إذِ المرادُ به: الاستغناءُ عنِ امتثالِ أمرِ اللّٰه ودعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكفرِ المُعرِضَ عنِ الدَّعوةِ يعدُّ نفسَه غنيًّا عنِ اللّٰه، مكتفيًا بولايةِ الأصنامِ وقومِه. وقد يُرادُ به استغناؤُه بمالِه عن وعدِ اللّٰه للمُنفقينَ من مضاعفةِ الثَّوابِ، وعلى كلا المعنيينَ فالمرادُ أنَّهُ استغنى عنِ اللّٰه ورحمتِه وإنعامِه كما يزعمُ المشركُ.

### سِرُّ مقابلة ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ بـ ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾:

تاركُ التَّقوى مذمومٌ، ومِن رضا الله محروم

النّاظرُ في هذا التَّفصيلِ للسَّعيِ يَجِد مُقابلةَ الفِعل ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 166.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 490 - 491.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ بالفعل ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ معَ أنَّ العبدَ لا يمكنُ أن يَستغنيَ عن ربِّه في أيِّ لحظةٍ، ولاسيَّما المُتَّقي فهو أكثرُ الناسِ استشعارًا بفقرِه وحاجتِه لربِّه؛ فلمّا قابلَ التَّقوى بالاستغناءِ هنا، كان الغرضُ تبشيعَ حالِ تاركِ التَّقوى والمبالغةَ في ذمِّه بأنَّه فعَلَ فِعلَ مَن يستغني عن ربِّه، لا فِعلَ الفقيرِ المُضطرِّ إليه سُبحانه؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه لا غِنى لهُ عن فضلِ اللّه وجودِه.

ووجهُ جعلِ (استغنى) مقابلًا لـ (اتَّقى) دون أن يقال (ولم يتَّقِ): أنَّ المرادَ به الاستغناءُ عن امتثالِ أمرِ اللّه ودعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكُفرِ المُعرِضَ عن الدَّعوةِ يعدُّ نفسَه غنيًّا عن اللّه، مُكتفيًا بولاية الأصنام وقومه[1]، أو المراد: استغنى بشَهوات الدُّنيا عن نعيمِ الجنَّة[2].

### دلالةُ السّين والتّاء في ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾:

المُشرك يُبالغُ في الإعراض عن الله

السّينُ والتّاءُ في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾: للمبالغة في الفِعل، مثل سين استجابَ بمعنى أجابَ، والمُرادُ أنَّه بالغَ في طلبِ الغِنى بمالِه وولدِه ومتاعِه، ولم يرغب في أن يَسألَ ربَّه من فضلِه أو يطلبَ ثوابَهُ، ويكون المرادُ بالاستغناءِ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾: الاستغناءُ عن امتثالِ أمرِ اللّه ودعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكفرِ المُعرِضَ عن الدَّعوةِ يعدُّ نفسَه غنيًّا عن اللّه، مكتفيًا بولايةِ الأصنامِ وقومِه، وقد يُرادُ به زيادةُ طلبِ الغِنى بالبُخلِ بالمال، فتكونُ السّينُ والتّاءُ للطَّلَبِ.

### نُكتةُ حذفِ متعلّق الاستغناء:

حُذفَ متعلّق الاستغناءِ في قوله تبارك شأنه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ لظُهورِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 387.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 471.

من المقام؛ إذ المُراد: واستغنى عن امتثال أمرِ اللّه ودَعوَتِه[1]، وفي الحذفِ إيجازٌ ورعايةٌ لتلاؤمِ الفَواصِل.

**بلاغةُ عطفِ** ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ على ما قبله؛ للمبالغةِ في تعدادِ قبائحِ المشركين، وبيانِ أنَّها متعدِّدةٌ ومتنوِّعة، وما ذُكِرَ هنا هو بعضُها الَّذي هو أصلُ كثير من المفاسد.

**دلالةُ الباء في** ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

التَّكذيبُ منصَبٌّ على الحُسنى

الباء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ للتَّعدية، فتفيد أنَّ التَّكذيب منصبٌّ على الحُسنى ومتعلِّق بها، وفي ذلك تهجينٌ لحالهم؛لأنهم لا ينفكون عن التكذيب بالحسنى عنادًا واستكبارًا مع أن حقَّ الحُسنى التَّصديقُ بها، لا التَّكذيب بها.

**بلاغةُ التَّعبير بلفظ الحُسنى معرَّفًا:**

الجاهلُ يقطعُ أسبابَ السَّعادة

الحُسنى في قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيثُ الأحسَن[2]، فتفيد حُسْنَ الموصوف بها - وهو ملَّة الإسلام، أو الجنَّة، أو كلمة التَّوحيد، أو الخَلَفُ من اللّه تعالى على العطاء والإنفاق - حُسنًا بالغًا، ومع ذلك فإنَّ المشركين يُعرضون عمّا فيه فلاحُهم ونجاحهم، ويسلكون سبيل الكفر والتَّكذيب، وهذا دليلٌ على قُبحِ فِكرِهم وسوءِ أخلاقِهم. وتعريف الحُسنى للعَهد؛ إذ المرادُ بها خصلةٌ معهودةٌ معروفة، وهي ملَّة الإسلام، أو الجنَّة، أو كلمة التَّوحيد، أو الخَلَفُ من اللّه تعالى على العطاء كما سبق.

**نكتةُ حذفِ الموصوف في** ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

الإيمانُ والتَّوحيدُ والجنَّة مطالبُ حسنة

الحُسنى في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيثُ الأحسَن، فهي بالأصالة صفةٌ لموصوفٍ مقدَّر، وتأنيثُها مُشعِرٌ بأنَّ موصوفها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382 - 383.

المقدَّر يُعتبر مؤنَّثَ اللَّفظ، ويحتمل أمورًا كثيرةً مثل: الملَّة الحُسنى وهي ملَّة الإسلام، أو المثوبة الحُسنى وهي الجنَّة، أو الكلمة الحسنى، وهي لا إله إلا اللّه[1].

البـخـل والاستغناءُ والتَّكذيبُ بالحُسنى سلوكُ المشركين

**براعةُ الكناية في ﴿بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:**

الأفعالُ المذكورةُ في قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ كنايةٌ عن كون المتَّصفِ بها من المشركين[2]؛ إذ لا يُقدِمُ عليها غيرُهم؛ لأنَّهم سُلبوا رجاحةَ العقل، ورزانةَ الأحلام.

**دلالة الفاء في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾:**

الفاءُ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ واقعةٌ في جواب (أمّا)؛ لتضمُّنها معنى الشَّرط، وفي الإتيان به تنبيهٌ على أنَّ التَّيسير للعُسرَى مترتِّبٌ على الخصال السّابقة.

وعــدُ اللـه بالتَّعسير واقعٌ يقينًا

**دلالةُ السّين في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾:**

السّينُ في قوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للتَّأكيد، كقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: 181][3]، فتفيدُ أنَّ التَّيسير للعُسرى متحقِّقٌ لا محالة، أو للدَّلالة على أنَّ الجزاء الموعود مُعظمُه يكون في الآخرة الَّتي هي أمرٌ منتظَرٌ متراخٍ[4]، أو هي واردةٌ على سبيلِ التَّرفيق والتَّلطيف، وهو من اللّه تعالى قطعٌ ويقين، ولأنَّ المُطيعَ قد يَصيرُ عاصيًا، والعاصيَ قد يَصيرُ بالتَّوبة مطيعًا[5].

**نُكتةُ صَوغ فعلِ التَّيسير مضارعًا:**

جيءَ بصيغة المضارع في قوله تعالى ذكره: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على التَّدريج، والمعنى: سيَظهَرُ تدريجُنا إيّاه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382 - 383.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 382.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 367، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 367.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 185.

عملِ الشَّرِّ، حتَّى يُختمَ له بخاتمةٍ سيِّئةٍ قد كانت في عِلم اللّه أوَّلًا.

### بلاغةُ إسنادِ التَّيسيرِ إلى نونِ العظمة:

عظمةُ شأنِ التَّيسير للعُسرَى

إسنادُ التَّيسيرِ إلى نونِ العظمَةِ في قول اللّه ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ لتعظيم التَّيسير وتهويلِ شأنِه؛ ليَحذرَ منه العاقلُ، والمعنى: فنُهيِّئُه بما لَنا من العظمةِ للخصلة العُسرَى، ونُسهِّلُها له حتى تتعثَّرَ عليه أسبابُ الخير والصَّلاح، ويضعُفَ عن فِعلها[1].

### بلاغةُ التَّعبير بالتَّيسير:

الكافرون مُنهَمِكونَ في المعاصي

مَن فسَّرَ العُسرَى في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ بجهنَّم فسَّرَ التَّيسيرَ للعُسرَى بإدخالِ اللّه تعالى إيّاهم في النّار بسهولة، ومَن فسَّرَ العُسرَى بأعمالِ الشَّرِّ فالتَّيسيرُ لها عنده هو تسهيلُها على مَن أراد، وفي ذلك إيماءٌ إلى انهماكِ المُشركينَ في المعاصي، ولا مجالَ للاعتراضِ في إسنادِ التَّيسيرِ للعُسرَى؛ لأنَّ الواقعَ المُشاهَدَ يؤكِّدُ إقبالَ العُصاةِ والمشركينَ على ارتكابِ الأفعالِ السَّيئةِ دونَ غَضاضةٍ أو استشعارٍ للمشقَّة.

### دلالة اللّام في ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾:

اللّامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للتَّعدية، فتُفيدُ أنَّ التَّيسيرَ متعلِّقٌ بالعُسرَى، وهي بمنزلةِ مفعولِه الثّاني.

### بلاغةُ حذفِ الموصوفِ في ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾:

تيسيرُ أهلِ الشِّركِ والفسادِ لطريقِ النّار

في قوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ إيجازٌ بحذفِ الموصوف، والمعنى: فسَنُيَسِّرُه للخصلة المؤدّية إلى العُسرِ والشِّدَّة[2]، أو فسَنُيَسِّرُه لمكان العُسرِ والشِّدة، وهو جهنَّم؛ لأنَّها مكانُ العُسر والشَّدائد على أهلها، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 9 - 10][3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 91.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.

أهلُ الكفر ميسَّرون للشّقاء والعذابِ بما عَلِمَ الله فيهم من سوءِ عقيدتهم

### بلاغةُ التَّعبير بالعُسْرى:

آثرَ التَّعبيرَ بالعُسرى في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ لِما تحملُهُ هذه الكلمةُ من بلاغةٍ في الآداء؛ إذ تدلُّ على المشقَّة، والمعنى: فسَنُيَسِّرُهُ للخصلة الَّتي هي أعسَرُ الأشياء وأنكَدُها، وتُؤدّي إلى العُسر والشِّدَّة، وهي العملُ بما يُغضبُه سبحانه، وذلك يوجبُ دخولَ النّار وما أدَّى إليه[1]، ووصفُها بالعُسرَى باعتبار عاجِلِها وآجِلِها على صاحبها، وهذا إمّا على الاستعارة المصرّحة، أو المجازِ المُرسَل، أو التَّجوُّز في الإسناد[2]. ويحتمل أن يُرادَ بالعُسرَى النّار أو العذاب، ويكون المرادُ تسهيلَ ارتكابِ المعاصي[3].

### دلالةُ تعريفِ العُسرَى:

العُسرَى في قوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ هي ما فيه مشقَّةٌ وشدَّة، والمُرادُ بها حالةُ العذاب، أو المكانةُ، أو النّار، وتعريفُها تعريفٌ للجنسِ أو العهد[4].

### علَّة تأنيث العُسْرَى:

الكافرُ مهيَّأ لأعمال الشَّرِّ والفسادِ

يدلُّ التَّأنيثُ في لفظ العُسرَى في قوله تعالى: ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ على أنَّ المُراد بها جماعةُ الأعمال، وعلى هذا فوَجهُ التَّأنيث ظاهر، وإنْ كان المراد عملًا واحدًا رجعَ التَّأنيثُ إلى الخُلَّة أو الفَعْلة. ويحتمل أن يكون مرجعُ التَّأنيث إلى الطَّريقة، فكأنَّه قال: للطَّريقة العُسرَى[5]، أو الحالة، أي: حالةِ العُسرِ والشِّدَّة، أو المكانةِ[6].

### سِرُّ الجَمعِ بين التَّيسير والعُسرَى:

إطلاقُ التَّيسير تهكُّمٌ بالمشركين

الجمعُ بين التَّيسير والعُسرَى في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 91.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 183 - 184.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 383.

﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ مع أنَّه ليس في العُسرَى تيسير؛ واردٌ على طريقةِ التَّهكُّم، كما في قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، والبشارةُ في الأصلِ على المُفرِحِ والسّارِّ، فإذا جُمِعَ في كلامَين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ؛ جاءت البشارةُ فيهما. وكذلك التَّيسيرُ في الأصل على المُفرِح، فإذا جُمِعَ في كلامَين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ؛ جاءَ التَّيسيرُ فيهما جميعًا[1].

وممّا يُذكَر في سِرِّ الجمع بينهُما أنَّه من باب تسميةِ أحدِ الضِّدَّين باسم الآخر، وهو مجاز مشهور كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40]، ويكون المعنى: لمّا سمَّى اللّه تعالى فِعلَ الألطافِ الدّاعية إلى الطّاعات تيسيرًا لليُسرَى، سمَّى تركَ هذه الألطافِ تيسيرًا للعُسرَى[2].

## براعةُ القلب في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾:

**العُسرَى عاقبةُ الكافرين**

ترتيبُ النَّظم في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ واردٌ على عكسِ المُتبادِر؛ إذ جُعلَ ضميرُ الغيبة في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ العائدُ إلى مَن بخِلَ واستغنى وكذَّبَ بالحُسنى هو الميسَّر، أي: الَّذي صارَ الفعلُ صعبُ الحصولِ حاصلًا له، وإذْ وقع المجرور باللّام ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، وهو لا ينتفعُ بسهولة من بخل؛ تعيَّنَ تأويلُ نظم الآيةِ بإحدى طريقتين: **الأولى**: إبقاء فعلِ (نيسِّر) على حقيقته، وجعلُ الكلام جاريًا على خِلافِ مُقتضَى الظّاهر بطريق القلب، بأن يكونَ أصلُ الكلام: فسنيسِّر العُسرى له، ولا بدَّ من مُقتَضٍ للقلب، فيُصارُ إلى أنَّ المُقتضيَ إفادةُ المُبالغةِ في هذا التَّيسير، حتَّى جُعلَ الميسَّر ميسَّرًا له، والميسَّرُ لهُ ميسَّرًا. **والثّانية**: أن يكون التَّيسيرُ مستعملًا مجازًا مرسَلًا في التَّهيئة والإعداد بعلاقة اللُّزوم بين إعدادِ الشَّيءِ للشَّيء وتيسُّرِهِ له، وتكون اللّامُ من قوله: ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ لامَ التَّعليل،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 85.
(2) الرازي التفسير الكبير: 16/ 204.

أي: نُيسِّرُه لأجلِ العُسرى، فالمرادُ بالعُسرَى جهنَّم، على أن يكون الوصفُ صارَ علَمًا بالغلَبة على جهنَّم، والتَّهيئةُ لا تكون لذات جهنَّم، فتعيَّن تقديرُ مضافٍ بعد اللّام يناسب التَّيسيرَ، فيُقدَّر: لدخول العُسرَى، أي: سنعجِّل به ذلك، والمعنى: سنجعلُ دخول جهنَّم سريعًا.

ويجوزُ أن يكون معنى الآية: أن يُجعلَ التَّيسيرُ على حقيقته، وتُجعلَ العُسرَى وصفًا، أي: الحالة العُسرَى، وليس في التَّركيب قلبٌ، والتَّيسيرُ بمعنى الدَّوام على العمل[1].

**سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾:**

التَّحذير الشَّديد للمؤمنِ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ ولم يَقُلْ: (نُسهِّلُ لهُ المعصية)؛ لبيانِ أنَّ المُرادَ تيسيرُ الطَّريقِ للمعصية فيَسهُلُ عليهِ السَّيرُ فيه بالرَّغمِ من أنَّه عسير؛ إلّا أنَّ اللّه تعالى جعلَ من السَّهلِ عليه الوصولَ لطريقِ المَعصيةِ والسَّيرَ فيه، وبذلكَ يكونُ هذا التَّعبيرُ من بابِ التَّحذيرِ الشَّديدِ للمؤمنِ؛ خشيةَ أن يجدَ الطَّريقَ إلى الهاويةِ سهلًا ميسورًا، ويتعايشَ فيه مع المُحرَّماتِ بكلِّ أريحيَّةٍ وطيبِ خاطر.

**سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾:**

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، ولم يقُلْ: نُعسِّرهُ للعُسرَى من بابِ المُقابلةِ لقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ لإفادةِ الثَّناءِ على عكسِ المَقصودِ بالآية في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، وللإشارةِ إلى أنَّه يُعسِّرُ الأمورَ على غيرِهِ وعلى نفسِهِ، وفي الآخرةِ يُعسِّرُ عليه دخولَ الجنَّة[2].

**بلاغةُ الطِّباقِ والمُقابلةِ في الآيات:**

شتّانَ بين أهلِ الجنَّة وأهلِ النّار

الطِّباقُ في هذه الآيات: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 384 - 385.
(2) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: ص 372.

بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨
وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، بين ﴿أَعۡطَىٰ﴾ و﴿بَخِلَ﴾،
وبين ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ و﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾، وبين ﴿وَصَدَّقَ﴾ و﴿وَكَذَّبَ﴾، وبين
﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ و﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، والمقابلةُ في هذه الآيات ظاهرة، فلا
تحتاجُ إلى مزيدِ إيضاح.

### بلاغةُ الجَمْعِ والتَّقسيمِ في الآيات:

بيانُ سبيلَي الخيرِ والشَّرِّ

في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكرُه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ
وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ
وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ محسِّن الجمع
مع التَّقسيم[1]، وذلك أنَّه جمَعَ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، ثمَّ
قسَّمَ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، وفي ذلك رسمٌ لطريقِ الخيرِ
وعاقبته، وطريقِ الشَّرِّ وعاقبتِه.

### دلالة الواو في ﴿وَمَا﴾:

مَن يُسِّرَتْ له اليُسرَى لا يُغني عنه مالُه شيئًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ عاطفة،
والجملةُ عطفٌ على جملة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، أي: سنُعجِّل به
إلى جهنَّم إذا تردَّى فيها، ولا يُغني عنه مالُه الَّذي بَخِلَ به شيئًا
من عذاب النّار. وإذا كانت (ما) استفهاميَّةً فيجوزُ أن تكون
الواو للاستئناف[2].

### سرُّ مناسبة مجيءِ هذه الآيةِ في السياق مترتبة على ما قبلها:

زيادةُ ذمِّ الكافرين وتقبيح حالهم

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ بعد قوله:
﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾؛ ذمًّا بعد ذمٍّ؛ لأنَّ الذي بَخِلَ بمالهِ واستغنى
به، جاءت هذه الآيةُ لتوبِّخَهُ على مسلكهِ وتنفِّرَ منه، وأمّا في الفريق

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 387.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 387.

الأوَّل فاكتفى فيه وفي مدحِه بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾؛ لأنَّه من جوامع الكلم المحتويةِ جميعَ المحاسن[1].

**دلالة (ما) في ﴿وَمَا يُغۡنِي﴾:**

طريقُ الخلاصِ من العذاب مسدودٌ في وجه الكافرين

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ دون غيرها لتعدُّدِ معانيها؛ فيحتملُ أن تكونَ نافية، والمعنى: ولا يُغني عنه مالُه شيئًا. ويحتملُ أن تكون استفهامًا معناه التَّوبيخ، والمعنى: أيّ شيءٍ يُغني عنه مالُهُ إذا تردَّى[2]، فيكون نافيًا للإغناءِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه[3]، وهذا من بلاغةِ القرآن في توسيعِ المعنى؛ لأنَّه لو أرادَ الاستفهامَ لأتى بلفظٍ صريحٍ، نحو (ماذا يُغني عنهُ مالُه)، ولو أرادَ النَّفيَ لَقالَ: (لا يُغني عنهُ مالُهُ)، وإنَّما عبَّر بـ (ما) لتعدُّدِ المَعاني المُرادَةِ في الآية.

**بلاغةُ التَّعبير بالمضارعِ في ﴿وَمَا يُغۡنِي﴾:**

لا أمَلَ للكافرين في الخَلاصِ والنَّجاة

جيءَ بالمضارع في قولهِ ﷻ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإغناءَ مُنتَفٍ؛ على الاستمرارِ والتَّجدُّد، وفي ذلك قطعٌ لرَجائهِم وأمَلِهم في الخلاص.

وفيه توبيخٌ لَمن ظنَّ أنَّ مالَهُ يُغني عنه يومَ القيامة شيئًا، وهذا المعنى ظاهرٌ في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقة: 28].

**معنى (عن) في قول: ﴿عَنۡهُ﴾:**

(عن) في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ للتَّعدية، فتُفيدُ أنَّ انتفاءَ الإغناءِ متعلِّقٌ بالذي بَخِلَ بمالِه.

**غرضُ تقديم ﴿عَنۡهُ﴾:**

تقديم ﴿عَنۡهُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾؛

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 85 - 86، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 167.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92.

للعنايةِ بكونِ انتفاءِ الإغناءِ متعلِّقًا بالبخيل، وللتَّشويقِ إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّنَ في النَّفسِ عند وُرودِهِ عليها فضلَ تمكُّن.

### دلالةُ الإضافة في ﴿مَالُهُۥٓ﴾:

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ لاميَّة، أي: مالٌ له، وفي ذلك زيادةُ تيئيس؛ لأنَّه إذا لم يُغنِ عنه مالُهُ؛ فمالُ غيرِه من باب أولى، وفي ذلك بيانٌ لسوءِ عاقبةِ منعِ حقِّ الشّارعِ في المال.

### سرُّ اختصاصِ المالِ بالذِّكر:

تخصيصُ المال بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ الإغناءَ إنَّما يُتوهَّم فيه[1]؛ إذ يظنُّ المرءُ أنَّ مالَهُ يُخلِّصُهُ من كلِّ شدَّة.

### دلالة ﴿إِذَا﴾ في ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾:

المــالُ في حــينِ العذابِ لا ينفعُ الكافرَ

﴿إِذَا﴾ في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ظرفٌ بمعنى (حين)، والمعنى: وما يُغني عنه مالُهُ حين تَرَدّيه. ويجوزُ أن يكون الغرضُ من التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ التَّأكيد على حُصولِ التَّردي بمَن استغنى بمالِهِ عن الله.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّردّي:

هــلاكُ المــرءِ بكَسْبِ يدَيه

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالتَّردّي في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ دونَ غيرِه لِما يَحمِلُهُ هذا اللَّفظُ من دلالاتٍ متعدِّدة؛ فإمّا أن يكونَ من قولِكَ: تَرَدَّى من الجَبلِ، أي: سَقَط، فيكونَ المعنى: تَرَدَّى في الحُفرةِ إذا قُبِر، أو تَرَدَّى في قعرِ جهنَّم. وإمّا تفعَّلَ من الرَّدَى، وهو الهلاكُ[2]، أي: إذا هلكَ. وفي التَّعبير به إشارةٌ إلى أنَّه بما قدَّمَهُ من أعمالهِ الخبيثةِ هو المُهلِكُ والموقِعُ لنفسه[3].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 185.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 486.

المالُ لا يُغني عمَّن تحقَّق عذابُهُ وهَلاكُهُ

### نكتةُ التَّعبير بالماضي في ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾:

عُبِّر بصيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ المالَ لا يُغني عنه في وقتِ تحقُّقِ تردّيه، وهو الوقتُ الَّذي يبذلُ فيه الإنسانُ عادةً أنفَسَ ما يملك؛ ليخلِّصَ نفسَهُ ممّا هو فيهِ من المِحَنِ والشَّدائد.

هلاكُ الكافرِ أشدَّ الهلاكِ وأفظعَه

### نُكتةُ صيغةِ التَّفعُّل في ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّفعُّل في ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ دون (هلك)؛ لِما تحمِلُه هذه الصّيغةُ من المُبالغة، كأنَّه تكلَّف في الهلاك، فهلكَ أشدَّ الهلاك، فهو أبلغُ من (هلك)، مع ما فيه من رعايةِ الفاصلة. أو هو (تفعّل) من الرَّدى بمعنى الوقوع، وعُبِّر به للفاصلة[1].

ضياعُ فائدةِ المالِ عند شدَّةِ الاحتياجِ إليه

### براعةُ تقييدِ عدمِ الإغناءِ بوقتِ التَّردّي:

تقييدُ عدمِ إغناءِ المال بقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ - أي: إذا هلكَ - لأنَّه أحوَجُ ما يكون[2]، وهذا المعنى دلَّت عليه آياتٌ من القرآنِ الكريم؛ منها قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: 88 - 89]؛ فالمُشركُ وقتَ العذاب يُعلن عدمَ انتفاعهِ بمالهِ ويقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقة: 28]، وكأنَّهُ التفتَ إلى مالِهِ وسُلطانِهِ وقتَ الهلاك وأدركَ أنَّهما وبالٌ عليه وما استفادَ منهُما في دفعِ العذابِ عنه.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306.

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾ [الليل: 12 - 13]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تفضُّل الله تعالى على خلقه بالدّلالة والبيان

لمّا بيّنتِ الآيات السّابقة أنَّ سعي النّاس شتَّى في العواقب، وبيَّن سبحانه ما للْمُحسن من اليُسرى، وللمسيء من العُسرى؛ ناسب أن يُخبرهم أنَّه قد قضى ما عليه من البيان والدّلالة، والتَّرغيب والتَّرهيب، والإرشاد والهداية[1]، ولمّا بيَّن تعالى ما ألزم به نفسَه تفضُّلًا، فكان ربَّما أوهمَ أنَّه يلزمه شيءٌ؛ أتبعَه ما ينفيه ويفيد أنَّ له غايةَ التَّصرُّفِ، فلا يعسُر عليه شيء أراده، فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾[2].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَلۡهُدَىٰ﴾: (هدي) أصلٌ يدلُّ على التَّقدُّم للإرشادِ، يقالُ: هديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُهُ لأُرشِدَهُ، وهديتُه الطَّريقَ والبيتَ هدايةً، أي: عرَّفته[3]، والهادي: الدَّليل، والهدايةُ: الرَّشاد والدلالة[4] بلُطْفٍ، ومنهُ: هَوادي الوَحْشِ، أي: مُتقدِّماتُها الهاديةُ لغيرِها[5]، وهدايةُ اللّه تعالى للإنسانِ على أربعةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: الهدايةُ الَّتي عمَّ اللّه بجنسِها كلَّ مُكلَّفٍ؛ مِنَ العقلِ والفِطْنةِ والمعارفِ الضَّروريَّةِ. والثّاني: الهدايةُ الَّتي جعلَ للنّاسِ بدعائِهِ إيّاهم على ألسنةِ الأنبياءِ، وبإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ. والثّالثُ: التَّوفيقُ الَّذي يختصُّ بِهِ مَن اهتدى. والرّابعُ: الهدايةُ في الآخرةِ إلى الجنَّةِ[6]. والمراد بالهدى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 185.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (هدي).
(5) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(6) الرّاغب، المفردات: (هدي).

هنا: بيان الأحكام، والحلالِ والحرام، والطّاعةِ والمعصية[1]، فالهداية هي هداية إرشاد ودلالة وبيان.

2) ﴿وَٱلۡأُولَىٰ﴾: (أول) أصلٌ يدلُّ على ابتداءِ الأمرِ، ومن ذلك: الأوَّلُ، وهو مبتدأُ الشَّيءِ، ومؤنَّثُه: الأولى، والأوَّل: نقيض الآخِرِ[2]، والأوَّلُ: هو الَّذي يترتَّبُ عليهِ غيرُهُ، ويُستعمَلُ على أوجهٍ، منها: المُتقدِّمُ بالزَّمانِ، كقولِكَ: عبدُ الملكِ أوَّلًا ثمَّ المنصورُ، والمُتقدِّمُ بالرّياسةِ في الشَّيءِ، وكونُ غيرِهِ مُحتذيًا بهِ، نحوُ: الأميرُ أوَّلًا ثمَّ الوزيرُ، وإذا قيلَ في صفةِ اللّه: هو الأوَّلُ؛ فمعناهُ: أنَّهُ الَّذي لم يَسْبِقْهُ في الوجودِ شيءٌ[3]، والقُرونُ الأولى في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [القصص: 43]: قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ وقومُ لوطٍ[4]. والمراد بالأولى: الدُّنيا[5].

## ۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيان طريق الحق والباطل على الله تعالى كما أنَّ الآخرة والأولى له دون سواه

تُبيِّن الآيتان أنَّ بيانَ الحقِّ من الباطل على اللّه تعالى، وأنَّ مُلكَ ما في الدُّنيا والآخرة له سبحانه، يُعطي منهما من أراد من خلقِه، ويحرِمُ من شاء، فيوفِّق لطاعته من أحبَّ من خلقه، فيكرمه بها في الدُّنيا، ويهيِّئ له الكرامة والثَّوابَ في الآخرة، ويخذل من شاء من خلقِه، فيُهينُه بالمعصية في الدُّنيا، ويُخزيه بالعقوبةِ في الآخرة[6].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بيان الهدى من الضَّلال من حكمته تعالى ورحمته المُحيطة بالعبادِ

### علَّة فصل ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ عمّا قبله:

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (أول).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (أول).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 129.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 368.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 476 - 477.

مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: إنَّ علينا بموجَب قضائنا المبنيِّ على الحِكَم البالغة حيث خلقنا الخلقَ للعبادة؛ أن نبيِّن لهم طريقَ الهدى وما يُؤدّي إليه من طريق الضَّلال وما يؤدّي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بيَّنّا حال من سلك كلا الطَّريقين ترغيبًا وترهيبًا[1]؛ وذلك لإلقاء التَّبِعة على من صار إلى العُسرى، بأنَّ اللّه أعذر إليه إذ هداه بدعوة الإسلام إلى الخير، فأعرض عن الاهتداء باختياره اكتسابَ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّ التَّيسير لليُسرى يحصل عند ميل العبد إلى عمل الحسنات، والتَّيسير للعُسرى يحصل عند ميله إلى عمل السَّيِّئات[2].

### دلالة توالي المؤكِّدات:

بيـان طـريـق الهداية محضُ فضلٍ من الله تعالى لا واجب

أكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ ولام لابتداء؛ تنبيهًا على أنَّه يجب العلم بأنَّه لا حقَّ لأحد على اللّه تعالى أصلًا، وأنَّه تعالى بيَّن الهدى تفضُّلا مِنْهُ بما له من اللُّطف والكرم[3]؛ فإنَّ الظّنَّ بأنَّ هناك واجبًا على اللّه تعالى يجب أن يُصدَّ ويردَّ، وإيماءً إلى أنَّ هذا كالجواب عمّا يجيش في نفوس أهل الضَّلال عند سماع الإنذار السّابق من تكذيبه بأنَّ اللّه لو شاء منهم ما دعاهم إليه لألجأهم إلى الإيمان، فقد حُكيَ عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: 20][4].

### دلالة التعبير بحرف الاستعلاء:

إنـزالُ الحقِّ والآيـات كإنزال الرزق والخيرات محضُ خيرٍ ورحمة

حرف (على) إذا وقع بين اسم وما يدلُّ على فعلٍ يفيدُ معنى اللُّزوم، ومعنى ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾: لازمٌ لنا هدى النّاس، وهذا التزام من اللّه اقتضاه فضلُه وحكمتُه ورحمته، كما رزق العبادَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 167، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 306، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 486.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 388.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 388.

بإنزالِ الخيرات والبركات، فقد أنزل الحقَّ والآيات، فتولَّى إرشادَ النّاس إلى الخير قبل أن يؤاخذَهم بسوء أعمالهم الَّتي هي فسادٌ فيما صنع اللّه من الأعيان والأنظمة الَّتي أقام عليها فطرةَ نظام العالم، فهدى اللّه الإنسانَ بأنْ خلقَه قابلًا للتَّمييز بين الصَّلاح والفساد، ثمَّ عزَّز ذلك بأنْ أرسل إليه رسلًا مبيِّنينَ لما قد يخفى أمره من الأفعال، أو يشتبه على النّاس فساده بصلاحه، ومنبِّهين النّاسَ لما قد يغفلون عنه من سابق ما علموه[1].

### دلالة نون العظمة:

جيء بنون العظمة في قول الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم[2]، وفي ذلك مزيد تفخيمٍ لشأن الهدى، وشأن الإرشاد إليه.

### بلاغة تقديم ﴿عَلَيۡنَا﴾:

قدِّم ﴿عَلَيۡنَا﴾ على ﴿لَلۡهُدَىٰ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص، أي: إنَّ علينا لا على غيرنا للهدى، وكلُّ هدًى خارج عن الوحي فلا اعتبار له.

### دلالة تعريف الهدى:

الدّلالة على طريق الحقّ والرّشاد بيد الله

تعريف الهدى في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ للعهد؛ إذ المراد به هدًى مخصوص، وهو الهداية إلى طريق الحقِّ والرَّشاد، وآثر النّظم التعبير بالهدى دون الهداية في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنَّه أوجز وأخصر وأنسب برعاية الفواصل.

### نكتة تخصيص الهدى بالذّكر:

ذكر الهدى يُنبِّه على ضدِّه وهو الضلال

آثر النّظم الكريم ذكر الهدى دون الضَّلال في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾، وذلك أنَّ اللّه تعالى قد بيّن الهدى للنّاس، فإذا

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 178 - 179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 388.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92.

بان فقد بان ببيانه ضدُّه وهو الضّلال، كما أنَّ إثبات النّهار يدلُّ على انتفاء الليل، ونكتة ذكر الهدى دون الضّلال هو أنَّ المقام لبيانِ الإحسان والإنعام[1]، فاقتُصر على ما يلائمه.

### دلالة عطف ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾:

الهدى من الله موصلٌ إلى الحياة الطيبة في الدنيا وحياةِ النّعيم في الآخرة

عطفُ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ على جملة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ لبيان العلاقة بين الهدى والدّارين، فإنَّ الهدى في الدنيا هو طريق النّجاة في الآخرة، فدلَّ العطف على أنَّ الهادي هو المالك للدّارين، وهو صاحب الحقِّ في الكشف عن طريق الحق الموصل إلى النّجاة يوم الحقِّ، ففيه تتميمٌ وتنبيه على أنَّ تعهُّد الله لعباده بالهدى فضلٌ منه، وإلّا فإنَّ الدّار الآخرة والدّار الأولى ملكه بما فيهما، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ﴾ [المائدة: 17]، فله التَّصرُّف فيهما كيف يشاء، فلا يحسبوا أنَّ عليهم حقًّا على الله تعالى إلّا ما تفضَّل به[2].

### دلالة توالي المؤكِّدات:

أكِّد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ بـ (إنَّ) واللّام؛ للعناية بمضمونه، وللرَّدِّ على من قد تسوِّل له نفسُه أنَّ له شيئًا من الأمر في الدُّنيا أو في الآخرة.

### نوع اللّام ودلالتها:

التَّصرُّف الكامل في الدُّنيا والآخرة لله تعالى

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَا﴾ للملك، والمعنى: إنَّ لنا ملكَ الدّارين، نُعطي ما نشاء من نشاء[3]، أو ثوابَ الهداية للمهتدين[4]، ومن طلب ذلك من غيرنا فقد أخطأ الطَّريقَ[5]؛ فالتَّصرُّف الكلّيُّ فيهما لنا[6].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 307.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 388 - 389.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 186، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 421.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 651.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 167، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 368 - 369.

### دلالة نون العظمة:

جيء بنون العظمة في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، أي: إنَّ لنا لَلآخرة والأولى، وفي ذلك تعظيمٌ وتفخيمٌ لشأن ملكه ﷻ.

### غرض تقديم ﴿لَنَا﴾:

قدِّم ﴿لَنَا﴾ على ﴿لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص[1]، أي: إنَّ لنا لا لغيرنا لَلآخرة والأولى، وفيه مراعاة الفاصلة.

### بلاغة المجاز بالحذف:

في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ إيجازٌ بحذف الموصوف، والتَّقدير: وإنَّ لنا للدّارَ الآخرة والدّارَ الأولى، وكثُر الحذف في القرآن؛ لظهوره من السّياق.

### نكتة تقديم الآخرة على الأولى:

تقديم الغايات على الوسائل لربط السّياق بالمقاصد

قُدِّمت الآخرة على الأولى في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ والدنيا سابقة للآخرة؛ لأنَّ العناية بها أشدُّ لأجل إنكار المشركين لها[2]، فإنَّ غاية الهداية هو العمل للآخرة في الأولى، فالآخرة غاية والدنيا وسيلة، فهو من تقديم الغايات على الوسائل، كما أنَّ فيه رعايةً للفاصلة[3].

### بديع فنِّ الطباق:

لله تعالى نطلق الملك؛ فله ما عَظُمَ شأنُه وما قلّ

في الجمع بين الآخرة والأولى في قول الباري ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ محسِّن معنويّ، وهو الطِّباق، ومن لطائفه: إظهار صورتين مختلفتين غايةَ الاختلافِ والتَّفاوتِ مملوكتين للّه تعالى وحده.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 92 - 93.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 307.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الهدى والرُّشد:

الهدى طريق الرُّشْد فمن اهتدى بداية فقد رَشَد انتهاءً

الرُّشد خلاف الغيِّ، وهو يدلُّ على استقامة الطَّريق والوصول إلى الغاية المنشودة، والهدى: الدّلالة على طريق من شأنه الإيصالُ إلى الغايات المنشودة[1]، فمن اهتدى فقد رَشَد، ولا يوصف الرّاشد بالرُّشْد إلّا بعد الهداية، فالهداية مقدِّمة الرشاد.

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 563 - 569.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: 14 - 16]

### مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذكر عموم الهدى إلى خصوص الإنذار

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة بأنَّ الآخرة هي ملك لله تعالى، وأنَّه يلزم عن ذلك حساب أهل الدنيا فإمّا إلى نارٍ وإما إلى جنَّة، ناسب بعد ذلك ذكر عاقبة من ضلَّ ومن اهتدى، وبيان جزاء كلِّ فريقٍ من النّاس، بذكر إنذار النّاس النّار، التي يصلاها المكذّبون الضّالّون، وسيُجنبها الأتقياء المؤمنون، فهو انتقال من ذكر الدنيا والآخرة، إلى ذِكر المآل بعد ذلك.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويفِ، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ [غافر: 18]، أي: خوِّفْهم[1]، ويقالُ: تناذَروا، أي: خوَّفَ بعضُهم بعضًا، والنَّذيرُ: المُنذِرُ[2]، وهو المُخبِرُ بما فيهِ تخويفٌ ويقعُ على كلِّ شيءٍ فيهِ إنذارٌ، إنسانًا كانَ أو غيرَهُ. والمراد بالإنذار هنا: التَّخويف والتَّحذير[3].

2) ﴿تَلَظَّىٰ﴾: اللَّظى: النّار، أو اللهب الخالص، ويقال: لَظيَتِ النّارُ وتلظَّتْ، إذا التهبت[4]، والتظاء النّار: التهابُها. وتلظّيها: تلهُّبها، ولَظَى غير مصروفة: اسم لجهنَّم، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج: 15][5]، سمّيت بذلك؛ لأنَّها أشدُّ النّيران[6]، ويقال: فلان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نذر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نذر).
(3) الراغب، المفردات: (نذر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (لظي).
(5) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (لظي).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لظي).

يتلظَّى على فلان تلظّيًا، إذا توقَّدَ عليه من شدَّة الغضب، والتظّتِ الحربُ اتَّقدت[1]، ومعنى ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تتوهَّج وتتوقَّد وتلتهب[2].

3) ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ﴾: (صلي) أصلٌ يدلُّ على النّارِ وما أشبهَها مِنَ الحُمَّى[3]، والصَّلْيُ: الإيقادُ بالنّارِ، يقالُ: صَليَ النّارَ، واصطلَى بها، وصَليَ بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾ [مريم: 70][4]، ويقال: صَلَيْتُ الشّاةَ: شَوَيْتُها، فهي مَصْليَّةٌ، وصلى اللَّحمَ وغيره يصليه صَلْيًا: شواهُ، وصلى العصا بالنّار: ليَّنَها وقوَّمَها[5]. ومعنى ﴿يَصۡلَىٰهَآ﴾: يدخلها ويُقاسي حرَّها[6].

4) ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾: (شقي) أصلٌ يدلُّ على المُعاناةِ وخلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[7]، وكما أنَّ السَّعادةَ نوعانِ: أُخرويَّةٌ، ودُنيويَّةٌ، كذلكَ الشَّقاوةُ، وإلى الشَّقاوةِ الدُّنيويَّةِ أشارَ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، وإلى الشَّقاوةِ الأُخرويَّةِ أشارَ بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123][8]. ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤﴾ [مريم: 4]: لم تُشْقِني بالرَّدِّ مِنْ غيرِ إجابةٍ، ويقالُ لِمَنْ أدركَ أمرًا سعَى فيهِ: قد سَعِدَ بهِ، ولِمَنْ فاتَهُ: قد شَقيَ بهِ[9].

5) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أصل يدلُّ على قُرْبٍ، ومن ذلك يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: بعدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: ممّا يُقارِبُني، والمَوْلَى لهُ معانٍ؛ منها: المُعتِقُ، والمُعْتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخرَ فهو وليُّهُ[10]، ويقالُ: ولَّى وتولَّى هاربًا توليةً، إذا أدبرَ وذهبَ، ويقالُ: ولَّى عنهُ، إذا أعرضَ أو نأى، وكذلكَ: تولَّى عنهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ [يوسف: 84][11]. والمراد بقوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرض[12].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لظي).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 186، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلي).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (صلي).
(5) الراغب، المفردات، والرازي، مختار الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صلي).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقي).
(8) الراغب، المفردات: (شقي).
(9) السمين، عمدة الحفاظ، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ولي).
(11) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنــذار الـنـاس بــالــنّــار من جـمـلـة رحـمـة الـلـه بـعـبـاده لـتـحـاشـيـهـا في الآخرة

تُبيِّن الآيات الكريمة رحمةَ الله تعالى بعبادِه إذ أنذرهم النّار من جملة ما بيّنه في هداية النّاس إلى طريق الحقِّ ليجتنبوا ويتحاشوا طريق النّار، أي: فأنذرتكم أيُّها النّاس نارًا تتوهَّج وتتوقَّد، وهي نار جهنَّم، فاحذروا أن تعصوا ربَّكم في الدُّنيا، وتكفروا به، فتصلَونها في الآخرة، وهذه النّار لا يدخلها فيصلَى بسعيرها إلّا الشقيُّ الكافر، الَّذي كذَّب بآيات ربِّه، وأعرضَ عنها، ولم يُصدِّق بها[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الفاء ودلالتها:

الـنّـارُ الموقـدةُ كـالـفـرعِ عن أصـلِ التَّكذيب والاستغناء

يجوز أن تكون الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ لمجرَّد التَّفريع الذِّكريِّ إذا كان فعل: (أنذرتُكم) مستعملًا في ماضيه حقيقةً، وكان المراد الإنذار الَّذي اشتمل عليه قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾، وهذه الفاء يُشبه معناها معنى فاء الفصيحة؛ لأنَّها تدلُّ على مراعاة مضمون الكلام الَّذي قبلها، وهو تفريع إنذارٍ مفصَّلٍ على إنذار مجمَلٍ.

ويجوز أن تكون الفاء للتَّفريع المعنويِّ، فيكون فعل (أنذرتُكم) مرادًا به الحال، وإنَّما صيغ في صيغة الماضي؛ لتقريب زمان الماضي من الحال، كما في قولهم: (عزمتُ عليك إلّا ما فعلت كذا)، أي: أعزم عليك، وهو تفريع على جملة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، والمعنى: فهديتكم بالإنذار وبالغت في هدايتكم[2]، أو تفريع على كون الآخرة له تعالى[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 477 - 478.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 369، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 389.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 307.

### دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

قيام الحجَّة بالإنذار على تارك الإيمان والهدى

جاء التَّعبير بصيغة الماضي في قوله جلَّ من قائل: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الإنذار ووقوعه، وفي ذلك مزيد تسجيل عليهم بإقامة الحجَّة عليهم، وبيان أنَّهم لا عذر لهم في ترك الإيمان والهدى، والمعنى: حذَّرتُكم أيُّها المخالفون للطَّريق الَّذي بيَّنته[1]، ومن جملة الإنذار قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾، ويجوز أن يكون المراد بالماضي الحالَ، وإنَّما صيغ في صيغة الماضي؛ لتقريب زمان الماضي من الحال، كما في قولهم: (قد قامت الصَّلاةُ)[2].

### نكتة ترك التعبير بنون العظمة:

تغليبُ جانب التّرغيبِ على التّرهيبِ إشعارًا بعظيمِ الرّحمةِ

جُرِّد قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴾ من ضمير العظمة الموافق لما سبق من ضمائر المتكلِّم، فلم يقل: (فأنذرناكم)؛ للتَّرفُّق بالمخاطَبين في تبعيد الوهم، وتقريب الفهم[3]، وللإشعار بالرحمة في سياق الإنذار، فإنَّ الإنذار له دلالة الترهيب ودلالة الترغيب، فالترهيب لمضمون الإنذار من النار الملتهبة، والترغيب في الإشعار بحبِّ الله تعالى لعباده الخير في الآجلة، فترك النون أشعر بتغليب الرحمة على الغضب.

### غرض تنكير لفظ ﴿نَارٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿نَارٗا﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ للتَّهويل[4] والتَّعظيم، أي: نارًا هائلةً فظيعةً، ففيه حثٌّ للعقول السَّليمة على التَّفكُّر في شأنها، وترك الكفر والعصيان.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 22/ 93.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 389.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 93.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 389.

### بلاغة التَّعبير بمفردة التَّلظّي:

تصوير شدَّة توقُّد نار جهنَّم على الأشقياء

آثر النّظم الكريم التَعبيرَ بمفردة التَّلظّي في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾؛ للدّلالة على شدَّة توقُّد النار، وأنَّها تتَّقد وتتلهَّب تلهُّبًا هو في غاية الشِّدَّة من غير كُلفة فيه على موقِدها أصلًا، ولا على أحدٍ من خَزَنتها[1]، ويُلحظ في هذه المفردة شِدّة الغضب، فهيَ مأخوذة مِن تَلَظّي الغاضبِ على المغضوب عليه، فيُقال: فُلانٌ يَتَلَظَّى على فلان تلظّيًا، إذا توقَّدَ عليه من شدَّة الغضب[2]، والتَظَّتِ الحِرابُ اتَّقدت[3]، فهو ليس مجرّد لهبٍ صاعدٍ منها، بل هو لهب شديد يعكس غضبها الشديد على الدّاخلين فيها من الأشقياء، كما قال تعالى في وصف غضب النّار: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12].

### نكتة التعبير بصيغة المضارع:

جيء بصيغة المضارع: ﴿تَلَظَّىٰ﴾؛ للدلالة على استمرار التَّلظّي وتجدُّده، وأنَّ النار متوقِّدة متوهِّجة باستمرار، فلا أمل في خمودها وانقطاع لهبها، وفي ذلك زيادة تخويف وتهويل.

### لطيفة حذف التّاء في فعل ﴿تَلَظَّىٰ﴾:

حذف الحروف للتّخفيف وللطائف بلاغية تُتأمّل بنظرٍ أنيق

أصل قوله تعالى: ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تتلظَّى، فحُذفت إحدى التاءين تخفيفًا[4]، للتّنبيه على أنَّ تلهُّبها في غاية الشدَّة من غير كُلفة فيه على موقِدها أصلًا، ولا على أحد من خَزَنتِها، وللإشارة إلى أنَّ أدنى نار الآخرة كذلك، فيصير إنذارُ ما يتلظَّى وما فوق ذلك من باب الأولى[5]، وللإيماء إلى أنَّ تلظّي نارِ جهنّم متداخلٌ داخلٌ في جوفها،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 93.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لظي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لظي).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 552.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 93.

ما يظهر من لهبها أقلُّ ممّا يبطن فيها، فهي ليست كنار الدّنيا لهبها صاعد ذاهب، فهذه لهبها شديد غليظ.

### بلاغة اختيار مفردة الصَّلْي:

أشدُّ العذابِ الدّائم المُبقي للمعذَّبِ لا الماحق

آثر النظم الكريم استعمال مفردة الصَّلي في قوله ﷻ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾؛ للدّلالة على دخول النّار مع مقاساة شدَّتها وتحمُّل عقابها[1]، والصّلي هو تعريض المَصْليّ للنّار دون إخمادِه وإنهائه، فليس المراد بالصّلي إلا العذاب دون إحراق المصلي بحيث يتلاشى وجوده، ولذلك يُقال: صَلَيْتُ الشّاةَ: شَوَيْتُها، فهي مَصْليَّةٌ[2]، وصلى اللَّحمَ وغيره يصليه صَلْيًا: شواهُ[3]، وصلى العصا بالنّار: ليَّنَها وقوَّمَها[4]، وهذا هو استعمال العرب لهذه المفردة، وهو أشدُّ من العذاب الذي يمحق المعذَّب فلا يبقى له وجودٌ بدني.

### نكتة التعبير بصيغة المضارع:

تجدُّدُ العذابِ لونٌ آخر من العذاب

جاء التّعبير بصيغة المضارع المنفيِّ في قول الباري ﷻ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾؛ للدلالة على أن الصّليَ المستمرَّ المتجدِّد خاصٌّ بالأشقى، لا يتعدّاه إلى غيره، والمعنى: لا يدخلها للخلود فيها إلّا الأشقى[5]، كما أنَّ فيه تصويرًا للصّلي بالنّار.

### دلالة التعبير بصيغة أفعل التَّفضيل:

شقاء رؤوس الكفر ليس كشقاء غيرِهم

المراد بالأشقى في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾: الكافرُ الَّذي يخلد في النّار، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ فهذه صفات الكافر، وإنَّما أوثرَ (أفعل) التَّفضيل، ولم يُقل: (الشَّقيُّ)؛ لأنَّ العرب تجعل (أفعل) في موضع (فاعل) للمبالغة[6]، وبناءً على

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 308.
(2) الراغب، المفردات: (صلي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صلي).
(4) الرازي، مختار الصحاح: (صلي).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 651.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 492.

ذلك لا تفضيل في الكلام؛ لأنَّ النّار ليست مختصَّة بالأكثر شقاءً[1]، ويحتمل أن يراد به معيَّن كأميَّة بن خلف وأمثاله، فيكون في الكلام تفضيل؛ لشدَّة كفر رؤوس المشركين[2]، والمعنى: الشَّديد الشَّقاء، ويدلُّ على هذا المعنى زمان النزولِ، فإنَّ الناس ما بين شديد الإيمان وشديد الكفر، وأنَّ النّار دركات؛ فمنزلة الأشقى ليست كمنزلة أصحاب الكبائر.

### دلالة أسلوب القصر:

نفي الصَّلْي عن كلِّ أحدٍ وإثباته للأشقى زيادة في العذاب

القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾؛ لبيان أنَّ الكافر مختصٌّ بالخلود في النّار، والمعنى: لا يصلاها صليًا لازمًا إلّا الكافر[3]؛ فإنَّ الفاسق غير الكافر وإن دخلَها لم يلزمها، ولم يُؤبَّد فيها، فالحصر بالنِّسبة إلى الملازمة والخلود، لا بالنِّسبة إلى الدُّخول[4]، وفي هذا الأسلوب زيادة في العذاب المعنوي.

### دلالةُ وصف الأشقى بالتّكذيبِ والتّولّي:

مدار شقاءِ المشركين على تكذيبهم وإعراضهم

أُتبع النّظم الموصوف ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ بصفة ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لزيادة التَّنصيص على أنَّ الكفّار هم المقصودون بصلي النّار على سبيل الخلود؛ فإنَّهم يعلمون أنَّهم كذَّبوا وأعرضوا، وقد انحصر ذلك الوصف فيهم يومئذ؛ فقد كان النّاس في زمن ظهور الإسلام أحد فريقين: إمّا كافر، وإمّا مؤمن تقيٌّ، ولم يكن الَّذين أسلموا يغشَون الكبائر؛ لأنَّهم أقبلوا على الإسلام بكلّيَّتهم، ولذلك عُطف ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ تصريحًا بمفهوم القصر، وتكميلًا للمقابلة[5]، وصفة ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ صفة ذامَّة[6].

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 30 - 31.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 167.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 308.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 390.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 308.

### فائدة التَّعبير بالاسم الموصول:

وصفُ الأشقى بصلة ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ للإيذان بأنَّ للصِّلة تسبُّبًا في الحكم[1]، وهو الخلود في النّار ومقاساةُ حرِّها وشدَّتها، فكأنَّه قيل علّة صَلْيِ النّار التكذيبُ والتّولّي.

### دلالة التّعبير بصيغة الماضي وفائدته:

مقصود الكلام بيان تحقّقِ الأفعال عند الموت لا تصويرها عند الخطاب

جيء بصيغة الماضي في قول الحقِّ تقدَّس ذكره: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ دون المضارع؛ للتَّنبيه على تحقُّق التَّكذيب والتَّولّي، وأنهما أمران واقعان من الكافر، ولذلك استحقَّ العذاب الدائم، فليس المقصود وصف الأشقى بما يصدر عنه وقت الخطاب، وإنَّما وصفه بما تحقَّق صدوره عنه، وفي ذلك ما لا يخفى من إقامة الحجَّة وقطع الأعذار، وبيان أنَّ اللّه ﷻ لا يظلم أحدًا، ولا يحكم بخلود أحد في النّار إلّا بسوء اختياره.

### دلالة حذف متعلّق فعلَي ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾:

تكذيب الكافر وإعراضه لازمان لأفعال المشركين المذمومة

حُذف متعلّق فعل التّكذيب والتَّولّي في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إيجازًا؛ لظهوره من المقام، والمعنى: الَّذي كذَّب بآيات ربِّه، وأعرض عنها، ولم يُصدِّق بها[2]، أو كذَّب بنبيِّ اللّه محمَّد ﷺ، وأعرض عن الإيمان[3]، أو من باب تنزيل اللازم منزلة المتعدي لتمحيضِ الوصفِ للفعل، أي: المتصف بالتكذيب والتّولّي.

### غرض تقديم التَّكذيب على التَّولّي:

قُدِّم فعل التَّكذيب على التَّولّي في قول الحقِّ ﷻ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لأنَّه سببه؛ إذ الكافر إنما تولَّى عن الحقِّ؛ لتكذيبه به، كما فيه رعاية للفواصل.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 390.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 478.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 86.

### توجيه تخصيص الوصفين بالذّكر:

التَّكذيب أصلُ الباطل والتَّولّي علّة الاستمرار والثبات عليه

خصَّ النظم الكريم صفتي التَّكذيب والتَّولّي في قوله تعالى شأنه: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بالذِّكر مع كثرة خصال الكافر القبيحة؛ لأنَّ هذين الوصفين أساس كلِّ رذيلة وخطيئة، ففي الاقتصار عليهما توفية لمقام الإيجاز حقَّه؛ لذكره أصول أخلاق الكافر البغيض نصًّا، وجمعه لبقيّة الأوصاف إيماءً وتلميحًا، فالتّكذيب أصل الباطل، والإعراض الثبات على الباطل، والتكذيب وحده لا يستمرّ ما لم يكن معه ثباتٌ وهو الإعراض.

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الإنذار والتَّخويف:

الإنـذار تخويفٌ مع تنبيهٍ على ما فيه الهلاك، والتخويف أعمّ

الإنذار تخويفٌ مَعَ التَّنبيهِ على موضعِ المَخافةِ، مِنْ قولكَ: نَذِرْتُ بالشَّيءِ، إذا علمتَهُ فاستعددتَ لهُ، فإذا خوَّفَ الإنسانُ غيرَهُ وأعلمَهُ حالَ ما يُخوِّفُهُ بِهِ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعلِمْهُ لم يُقَلْ: أنذرَهُ[1]، والتخويف أعمُّ من الإنذار.

وقد عُبِّرَ بالإنذارِ هنا: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾؛ لأنَّ اللّه تعالى قد خوَّف عباده، ونبَّههم على موضع المَخافة؛ ليحذروا ويتجنَّبوا ما فيه هلاكهم وعذابهم.

### التَّولّي والإعراض:

سببُ التّولّي في الغالب عقديٌّ، وسببُ الإعراض يـكـون عـقـديًّا وأخلاقيًّا

التَّولّي يكونُ بالبدن المحسوس وبتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][2]، وسبب التّولّي في الغالب هو الاعتقاد، ويغلب عليه جانب الذّمِّ، ويأتي في آيات قلائل بالمعنى اللغوي، والإعراض يكون بالبدن وهو الغالب، وسبب الإعراض عقدي أو أخلاقي، والإعراض يكون محمودًا مأمورًا به، ويكون مذمومًا بغيضًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(2) الراغب، المفردات: (ولي).

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل: 17 - 21]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإنـذار الإلهـيُّ يـشمل جميع العباد

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة حال الأشقى الذي كذّب وتولى، وأنّه سيصلى نار جهنّم، ناسب ذكر المقابل لذلك وهو حال الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، فوقع التقابل بين أهل النّار وأهل الجنّة، وبين الأشقياء والأتقياء، ليُعلم أنَّ الإنذار يصيبُ جميعَ النّاس.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: (جنب) أصلٌ يدلُّ على النّاحيةِ والبُعد[1]، والجَنْبُ: الجارحةُ، وجمعُهُ: جُنوبٌ، قالَ سبحانَهُ: ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191]، ويُستعارُ للنّاحيةِ الّتي تَليها، كاستعارةِ سائرِ الجوارحِ لذلكَ، نحوُ اليمينِ والشِّمالِ لجهتِهما وناحيتِهما[2]، والجنبُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء: 36]: الجارحةُ المعروفةُ، وعُبِّرَ بذلكَ عن ملازمتِهِ لهُ وقُرْبِهِ منهُ؛ لأنَّ الصّاحبَ غالبًا يُلصِقُ جَنْبَهُ إلى جَنْبِ الآخرِ في المماشاةِ والمحادثةِ والمصاحبةِ وغيرِ ذلكَ، ويقالُ: جانبَه مجانبةً وجنابًا: صار إلى جنبه، وجنَّبتُهُ عن كذا، أي: أبعدتُهُ عنهُ[3]، وحقيقتُهُ جعلتُهُ منهُ في جانبٍ. ومعنى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: سيكون بعيداً منها[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(2) الراغب، المفردات: (جنب).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والسّمين، عمدة الحفاظ: (جنب).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 88.

2) ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾: (وقي) أصلٌ يدلُّ على دفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[1]، ومِنْ ذلكَ يقال: وقاهُ اللّه وقْيًا ووِقايةً وواقيةً: صانَهُ وحماهُ وحفظه، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]، وكلُّ ما وقى شيئًا فهو وِقاءٌ له ووِقايةٌ[2]، والوِقايةُ: فرْطُ الصّيانةِ، والتَّقوى: جعلُ النَّفسِ في وِقايةٍ ممّا يُخافُ، وصارت التَّقوى في عُرفِ الشَّرعِ حفظَ النَّفسِ عمّا يؤثمُ، وذلكَ بتركِ المحظورِ، ويكون ذلكَ بتركِ بعضِ المباحاتِ[3]. والمراد بالأتقى: الذي اجتنب الشِّرك والمعاصيَ جميعًا[4].

3) ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: (زكي) أصل يدلُّ على نماء وزيادة، ومن ذلك يقال: زكا الزَّرع يزكو، أي: نما[5]، وسُمّيّتَ الزّكاة بذلك؛ لأنّها ممّا يُرجى به زيادةُ المال ونماؤه، أو لأنَّها طهارة له، وكلُّ شيء يزداد ويسمن فهو يزكو[6]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: 19] إشارة إلى ما يكون حلالًا لا تُستوخم عُقباه[7]، وبزكاء النَّفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقُّ في الدُّنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرة الأجرَ والمثوبة، وهو أن يتحرَّى الإنسان من الطّاعات ما فيه تطهيره[8]. ومعنى ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليطهِّر نفسه وماله وما وهبه اللّه من دين ودنيا[9].

4) ﴿نِّعۡمَةٖ﴾: (نعم) أصل يدلُّ على ترفُّه وطيب عيش وصلاح[10]، ومن ذلك يقال: فلان واسع النِّعمة، أي: واسع المال[11]، والنَّعماء: اسم النِّعمة، والنَّعيم: الخفض والدَّعة، والنِّعمة: اليد الصالحة، والنُّعم بالضم: خلاف البؤس[12].

5) ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾: (جزي) أصل يدلُّ على قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إيّاه، ومن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (وقي).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 318.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (زكو).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (زكو).
(8) الراغب، المفردات: (زكو).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 492، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 422.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(11) الجوهري، الصحاح: (نعم).
(12) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).

ذلك يُقال: جزيت فلانًا أجزيه جزاءً، وجازيتُه مجازاةً[1]، وجازيته فجزيته، أي: غلبته، وجزى عنّي هذا الأمرَ، أي: قضى، والجزاء يكون ثوابًا، ويكون عقابًا[2]، والجزاء: الغَناء والكفاية، وقال تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: 33]، ومعنى ﴿تُجْزَىٰٓ﴾: يُجازَى صاحبها عليها[3].

6) ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: (بغي) أصل يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ، وابتغيته، وتبغَّيته، واستبغيته[4]، وتقول: لا ينبغي لك أن تفعل كذا، ويقال: بَغَيْتُكَ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ لك، والبُغْيَةُ: الحاجةُ، تقول: هو بُغيتي، أي: طلبتي[5]، والبُغية أيضًا: الضّالَّة المطلوبة، ويقال: أبغاهُ الشَّيءَ، أي: طلبَه له، أو أعانَه على طلبه[6]، والابتغاءُ: الاجتهادُ في الطَّلبِ. وهو المراد هنا[7].

7) ﴿يَرْضَىٰ﴾: (رضي) أصلٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْطِ[8]، ومن ذلك يقال: رضيتُ الشيءَ وارتضيتُه، فهو مرضيٌّ، ورضيتُ عنه[9]، ويقال: هو راضٍ، من قوم رُضاة وأرضياء، وأرضاه: أعطاه ما يُرضيه، واسترضاه وترضّاه: طلب رضاهُ، ورضيَه لهذا الأمر: رآه أهلًا له[10]، ورضا العبدِ عنِ اللهِ: ألا يكرهَ ما يَجْري بِهِ قضاؤُهُ، ورِضا اللهِ عنِ العبدِ: هو أنْ يراهُ مُؤتمِرًا لأمرِهِ، ومُنتهيًا عن نَهْيِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: 119][11].
ومعنى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾: ولسوف يُعطيه في الجنَّة ما يُرضي[12].

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

تُبيِّن الآيات الكريمة حال الأتقى الذي سيقيه الله تعالى صليَ النّار الَّتي تلظَّى، وهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (جزي).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 88.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بغي).
(5) الخليل، العين، والرازي، مختار الصحاح: (بغي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بغي).
(7) الراغب، المفردات: (بغي)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 492.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(9) الجوهري، الصحاح: (رضي).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (رضي).
(11) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (رضي).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 89.

حال الأتقى من النّاس يجمع بين البرهان المالي والإخلاص القلبي

التَّقيُّ الَّذي يُعطي ماله في الدُّنيا في حقوق اللّه الَّتي ألزمَه إيّاها، يتطهَّر بإعطائه ذلك من ذنوبه، وما لأحد من خلق اللّه عنده من يد يكافئه عليها، فهو لا يُنفق ما يُنفق من ذلك، ويُعطي ما يُعطي؛ مجازاةً لإنسان على يدٍ له عنده، ولكن يُؤتيه في حقوق اللّه ابتغاءَ وجه اللّه، ولسوف يرضى هذا المُؤتي مالَه في حقوق اللّه ﷻ إذا لقيَ ربَّه ﷻ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الواو ودلالتها:

المنذَرون ما بين شقيٍّ وتقيٍّ

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ عاطفةٌ حال الأتقى، بعد بيانِ حال الأشقى، فهي داخلة في حكم كلٍّ منهما في شأن الإنذار، فشمل الإنذار جميعَ النّاس، فمن كفر وتولّى دخل النّار، ومن آمن واتّقى جُنِّبها، كأنّه قال: أنذرتكم النّار، سيصلاها الأشقى وسيُجنبها الأتقى، فهو من التوسط بين الكمالين، إذ وقع الإنذار على الجميع، واختلفت النتيجة في الاستجابة ما بين شقي وتقي.

### دلالة السّين والمضارع:

التَّقيُّ مُبعَدٌ عن النّار يقينًا

السّين في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ لتأكيد أنَّ الأتقى سيُجنَّب النّارَ الموصوفة بوعدٍ لا خُلف فيه عن قُربٍ[2]، والإتيانُ بالمضارع لإفادة الاستمرار، فيدلُّ على أنَّ التَّقيَّ لا يدخلها دخولَ المعذَّبين فيها[3].

### نكتة بناء الفعل للمفعول:

الجزاء بيد الله وحده صليًا وتجنيبًا

بُنيَ فعلُ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ للمفعول؛ للدّلالة على أنَّ تجنيبه في غاية

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 478 - 480.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 94.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 308.

السُّهولة[1]، ولأنَّ المجنِّب معلومٌ، وهو الحقُّ ﷻ؛ إذ لا حكم لأحد غيره، والجزاء بيده وحده، وفي ذلك ما لا يخفى من تعظيم شأنه، وتفخيم أمره؛ مع ما فيه من إكرامِ الأتقى وتشريفه.

### براعة استعمال مفردة التَّجنيب دون الإبعاد:

التَّجنيبُ بدايةُ الإبعاد الكليِّ عن النّار والإبعاد غايته ونهايته

أوثر التَّعبير بالتَّجنيب دون الإبعاد ونحوه في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ للدّلالة على غاية تبعيده عن النّار، والمعنى: سيُبعَّدها ويُجعل منها على جانبٍ، يقال: جنَّبته الشَّيءَ، أي: بعَّدته وجنَّبته عنه[2]، ولبيان هول الموقفِ، فإنَّ الأتقى سيُجنّب طريق النّار فيشهده ويقع في قلبه هول الأمر وشديد الموقف، والتّجنيب بداية الإبعاد، فهنا ذكر التّجنيب، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، ذكر الغاية وهي الإبعاد التّام، كما أنَّ في مفردة التّجنيب إيماءً إلى العنايةِ التّامة بالمجنَّب لقاء ما سيكون للأشقياء من المكذّبين.

### دلالة التَّعبير بصيغة أفعل التّفضيل:

التَّقي الثابت على تقواه لا تقربه النّار لاتّصافه بأعلى درجات السلوك

التَّفضيل في قوله ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ للمبالغة، والمعنى: وسيُجنَّبها المبالغ في اتِّقاء الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلًا عن دخولها أو صَلْيِها الأبديِّ، وأمّا من دونه ممَّن يتَّقي الكفرَ دون المعاصي فلا يُبعَّدُ عنها هذا التَّبعيدَ، وذلك لا يستلزم صَلْيَها بالمعنى المذكور، فلا يقدح في الحصر السّابق في قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾[3].

ويحتمل أن يراد بالأتقى: التَّقيُّ، وتوضع (أفعل) موضع فعيل، نحو قولهم: اللّه أكبر؛ بمعنى كبير، فلا يكون في الكلام تفضيل[4]؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 94.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 187.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 168.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 88.

لأنَّ النّار ليست مختصَّة بالأكثر شقاءً، وتجنُّبها ليس مختصًّا بالأكثر تقوى[1].

**بلاغة التَّقابل بين الأتقى والأشقى:**

العاقل يُخلِّص نفسَه من صلي النّار للفوز والنَّجاة

بين قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ مقابلة وعظيَّةٌ تزرع قيم الهداية في قلوب العقلاء؛ إذ الصَّليُ وقوعٌ في وسط النّار ومقاساةٌ لحرِّها، والتَّجنيب فيه شدَّة إبعاد عنها، وفي ذلك تصويرٌ لصورتين في غاية التَّباين والتَّباعد، وصاحب العقل السَّليم لا يسلك سبيلَ الهلاكِ والعذاب، بل يختار سبيلَ الفوز والنَّجاة.

**بديع محسن الجناس والطباق:**

من بديع التّقابل اجتماعُ المحسّن اللفظيّ والمعنويّ في لفظٍ

بين الأشقى في قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ والأتقى في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ محسِّن الجناس المضارع[2]، في الجانب اللفظي، لوقوع تاء التّقوى موقع شين الشّقاء، كما أنَّ في اللفظي محسن الطّباق؛ لما بينهما من التّقابل الضدّي، ففي اللفظي اجتماع محسِّنين من محسنات البديع، الجناس وهو محسِّنٌ لفظي، والطباق وهو محسنٌ معنويّ، وفي الإتيان بهما إظهارٌ لحُسن التّناغم الصَّوتيِّ بين الألفاظ.

**دلالة الوصف بالموصول:**

الإنفاق لوجه الله تعالى يقي وجه الأتقى من عذابِ النّار

وصف الأتقى بالموصول في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للإيذان بأنَّ للصِّلة تسبُّبًا في الحكم[3]. وهو تبعيده عن النّار، كأنَّه قيل: وسيُجنَّبها الأتقى؛ لأنَّه يُؤتي ماله يطلب به أن يكون عند الله زاكيًا، ولا يطلب بذلك رياءً ولا سُمعةً، بل يتصدَّق به مبتغيًا وجه الله تعالى[4]، ففي الصِّفة مدح له أيضًا[5].

---

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 30 - 31.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 390.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 88.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 309.

**نكتة التّعبير بصيغة المضارع:**

الإنفاقُ منهجٌ ثابتٌ لا سلوكٌ عابرٌ أو فعلٌ نادر

جيء بصيغة المضارع في قوله ﷻ: ﴿يُؤۡتِي مَالَهُۥ﴾؛ لإفادة الاستمرار[1]، وفي ذلك من المديح ما لا يخفى؛ إذ يفيد أنَّ إيتاءَ المال عادةٌ للأتقى مستمرَّة، فهو يُؤتي مالَه في كلِّ أحواله، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: 134]، فليستِ التّقوى سلوكٌ عابرٌ، أو فعلٌ نادر، بل هي منهج ثابت.

**نكتة حذف متعلّق ﴿يُؤۡتِي﴾:**

حُذف متعلّق فعل ﴿يُؤۡتِي﴾ في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ لظهوره، والمعنى: يؤتي ماله للفقراء[2]، ولتنزيل المتعدّي منزلة اللازم؛ فالإيتاء وصفٌ راسخٌ له.

**نوعُ الإضافة ودلالتها:**

الأتقى يُؤثر رضا اللّه على مالٍ اختصَّ به اكتسابًا وكدحًا

المال: اسمُ جنس لما يختصُّ به أحد الناس من أشياء ينتفع بذاتها أو بخراجها وغلَّتها، مثل الأنعام والأرضين والآبار الخاصَّة والأشجار، ويُطلق عند بعض العرب مثل أهل يثرب على النَّخيل، وليس في إضافة اسم الجنس ما يفيد العموم، فلا يدلُّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ على أنَّ الأتقى آتى جميع ماله[3]، والإضافة بمعنى اللام، فأفادت الاختصاص، أي: آتى مالًا له، وفي الإضافة مدح له بأنه يُخرج من ماله الخاصِّ به، ويُؤثر رضا اللّه تعالى على حظِّ نفسه وحبِّها للمال.

**موقع جملة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ الإعرابي:**

حالُ المنفقِ طلب التّزكية لزيادة الثّواب

فُصل قوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه بدل من ﴿يُؤۡتِي﴾، فلا محلَّ له؛ لأنَّه داخل في حكم الصِّلة، والصِّلات لا محلَّ لها، أو

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 309.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 651.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 391.

أن يكون حالًا من الضمير في ﴿يُؤۡتِي﴾ فمحلُّه النَّصب[1]، أي: يُؤتيه متزكّيًا به[2]، وفائدة الحال التَّنبيه على أنَّه يُؤتي ماله لقصد النَّفع والزّيادة من الثواب، تعريضًا بالمشركين الَّذين يؤتون المال للفخر والرّياء والمفاسد والفجور[3]، والحال هو مقتضى البلاغة.

**بلاغة التَّعبير بمفردة التَّزكية دون التَّطهر:**

حرص الأتقى على تنمية نفسه وبدنه وماله

أوثرَ التَّعبير بالتَّزكية دون التَّطهر في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الأتقى يتطهَّر من الأوضار والأدناس بتطهيره لنفسه، وتنميتها بذلك الإيتاءِ بالبُعد عن مساوئ الأخلاق، ولزوم محاسنها؛ لأنَّه ما كذَّب وما تولَّى[4]، والتّزكية فيها معنى الطُّهر والنّماء والزيادة، وتشمل التّزكية تزكية النّفس والبدن والمال، أما التّطهر فدلالتها دون ذلك.

**بلاغة التَّعبير بصيغة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾:**

المنفق حريصٌ على الإنفاقِ باستمرار

جاء التّعبير بصيغة المضارع في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّه يحرص باستمرار وتجدُّد على تزكية نفسه وتطهيرها من الذُّنوب والآثام، وأنّها مدار العمل، كما جيء بصيغة التَّفعُّل ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ لدلالتها على حرص المنفق على التَّزكية، وما فُعل بالتَّكلُّف يقع على وجه الكمال[5]، وفي ذلك تفخيم لشأن تزكية الأتقى.

**نكتة حذف متعلّق التَّزكية:**

حُذف متعلّق فعل التَّزكية في قول الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ لظهوره من السّياق، والمعنى: يتطهَّر من الأوضار والأدناس النَّفسية، ففي الكلام إيجاز بالحذف.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 188.

(2) السمين، الدر المصون: 11/ 31.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 391.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 310، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 391.

### توجيه تخصيص إيتاء المال بالذّكر:

إيتاءُ المالِ برهان الإيمان فمن بذله فقد حقّق إيمانَه وتحقّق من إحسانه

خصَّ النّظم الكريم إيتاء المال في سبل الخير في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ لأنَّ إيتاءَ المال هو برهانُ الإيمان، وهو أشقُّ على النَّفس من حيث إنَّ المال شقيقُ الرّوح، فمن بذل نفسه لوجه الله ثبَّت بعضَ نفسه على الإيمان، ومن بذل روحه أيضًا ثبَّت كلَّ النَّفس على الإيمان، فبذلُ المال كبذل الرّوح، ولا ريب في أشقّيَّتها على النَّفس، ويحصل بالإنفاق تزكيةُ النَّفس عن البخل أشنعِ الرَّذائل، وحبِّ المال الَّذي هو رأس كلِّ خطيئة[1]. وفي الكلام أيضًا عناية عظيمة بالإنفاق، وترغيبٌ شديد في اللَّحاق به، كيف لا وبالمال قوام الأعمال، ورفعُ مباني الرَّشاد، وهدمُ صروح الفساد[2].

### براعة الاحتباك بين المتقابلين:

ذكر التّكذيب لأنّه سبب صلي النّار، وذكر الإنفاق لأنّه ثمرة شجرة الإيمان

في قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ احتباك؛ ذكر التَّكذيب أوَّلًا دليلًا على حذف ضدِّه ثانيًا، وذكر إيتاءَ المال ثانيًا دليلًا على حذف ضدِّه أوَّلًا[3]، والتَّقدير: الَّذي كذَّب وتولَّى ومنع ماله يتدسّى، والَّذي صدَّق وأقبل وآتى ماله يتزكّى؛ فذكر في الأول الأمر الأشنع الموجب للنّار، وهو التكذيب والتّولّي دون إيتاء المال؛ فليس للشجر المقلوع إثمار، وذكر في الآخر إيتاءَ المالِ للتّزكية، وهو برهان وجود الإيمان والإقبال، فوجود الثمرة دالٌّ على الشجرة.

### نوع الواو ودلالتها:

احتمال الاستئناف والعطف والحالية

تَحْتمل أن تكون الواو في قول الباري ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 309.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 487.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95.

﴿نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ استئنافيَّة، والجملة استئناف مقرِّر لكون إيتائه للتَّزكّي خالصًا لوجه اللّه تعالى، أي: ليس لأحد عنده نعمةٌ من شأنِها أن تُجزَى وتُكافأ فيقصد بإيتاء ما يُؤتي مُجازاتَها[1]، وإنَّما يبتغي بصدقته وجه اللّه تعالى[2]، وتحتمل أن تكون حاليّة والمعنى: والحالُ أنَّه ما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى[3]، كما تحتمل أن تكون معطوفة على السّابق[4].

### بلاغة التَّكميل والاحتراس:

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ تكميل لبيان مقصد المنفق، واحتراس؛ لدفع توهُّم أن يقصد الأتقى بإيتاء ماله مجازاةَ نعمةٍ لأحد عنده، بل يقصد وجه اللّه تعالى[5].

### بلاغة القصر ودلالته:

العلَّة الوحيدة الدّافعة لإيتاء الأتقى مالَه طلب رضا الله

أسلوب القصر بالنَّفي والاستثناء في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ لتأكيد كون إيتاء الأتقى مالَه لوجه اللّه تعالى؛ إذ يفيد الكلام استقصاء العلل والأسباب الدّاعية للإيتاء لدى البشر، ثم نفيها جملةً وإثبات سبب واحد وهو ابتغاء وجه اللّه تعالى، بحيث لا يكون هناك علَّة سوى طلب رضا اللّه تعالى.

### نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ للملك والاستحقاق، فتفيد بمعونة المقام انتفاءَ أن يملك أحدٌ نعمةً عند الأتقى تجعل إيتاءه ماله لمكافأتها.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 168، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 370.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 553.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 504.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 310.

### نكتة اختيار لفظ (أحَد) وتنكيره:

اختير لفظُ (أحَد) ونُكِّر في قوله تبارك شأنه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ لإفادة العموم بقرينة النَّفي، فتفيد الاستغراق في نفي أن يكون لأحدٍ منَّةٌ على الأتقى.

### غرض تقديم ﴿لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾:

دفعُ توهم الإنفاق بسبب نعمٍ سابقة

قُدِّم قوله تعالى: ﴿لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ على قوله: ﴿مِن نِّعۡمَةٖ﴾ في قول الباري ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾؛ للعناية بالمقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر، ولارتباط النِّعمة بصفتها، وهي ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾، فنفي أن يكون لأحدٍ عند الأتقى نعمة تُجزى هو الأهم من ذكر النعمة، ولو قدّم ذكر النعمة لكانتِ العناية بوجود النعمة أكثر من العناية بذكرِ خُلُق الجزاء، الذي كان في خاطرِ العربِ عند إيتاء المال للآخرين، فسداد النّعم عليه غالب مدار العمل في خلق الإنفاق على الآخرين عند العرب.

### بلاغة التّعريض بذكر الظرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ إنفاق غالب النّاس جزاءَ نعمٍ سابقة سابغة عليهم

استُعمل ظرف المكان ﴿عِندَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾، مجازًا في تمكّن المعنى من المضاف إليه؛ كتمكُّن الكائن في المكان القريب[1]، وذلك لتصوير نفي وجود نعمة عند الأتقى، فتصوُّر وجودِ نعمةٍ منفيّة، إيماء إلى استحضار صورة إثبات نعمةٍ أخرى، ففيه تعريضٌ بمن يُنفق ماله جزاء نعمِ الآخرين عليه.

### فائدة التعبير بحرف ﴿مِن﴾:

أفاد ذكر ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾: الاستغراق في النَّفي[2]، وتأكيده[3]، وكأنَّه لم يوقَفْ - بعد البحث - على نعمة لأحد يقصد الأتقى مكافأتَها بإيتاء ماله.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 391.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 391.

### بلاغة التَّعبير بمفردة النِّعمة:

مباهج الدُّنيا لا تُغري الأتقى بطلبها عند النّاس

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة النِّعمة في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾؛ لدلالتها على أثر فعل المنعم المتفضِّل، فالنّعمة تُشير إلى وجودِ مُنعم متفضِّلٍ، وهو المقصود بالسّياق، ففي مفردة ﴿نِّعۡمَةٖ﴾ تفسيرٌ للفظ ﴿لِأَحَدٍ﴾، أي: أحدٌ منعم، كما أنَّ ذكر النعمة دون سائر الألفاظ المقاربة، هو لبيان أنَّ النعمة قد وجدت قبولًا عند المنعَم عليه، ففي نفسه قبولٌ لها، وعليه فيكون الجزاء أقوى من عطاءٍ ضعيفٍ غير مقبول، وليعمَّ أنواع الخير والبِرِّ وسعة العيش ورغده، فتلائم سياق انتفاءِ منَّة الخلق على الأتقى، وانتفاءِ أن يقصد وجوهَهم بصدقاته؛ إذ تفيد أنَّ مباهج الدُّنيا لا تحمله على أن يقصد وجوههم.

### غرض تنكير لفظ ﴿نِّعۡمَةٖ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿نِّعۡمَةٖ﴾ في قول الله تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾؛ لإفادة العموم؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم.

### بلاغة الوصف بفعل ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾:

لا يضرُّ الأتقى نعمةٌ لا تستوجب المكافأة

أفاد وصف النِّعمة بفعل ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ التَّخصيص، فلا يضرُّه أن يكون لأحدٍ عنده نعمةٌ ليس من شأنها المكافأةُ بها(1)، أو للتوضيح والبيان والتوكيد؛ فإنَّ شأن النّعمة أن تُجزى، وهذا يُعلم من عادات العرب وأساليب حياتهم.

### نكتة التعبير بصيغة المضارع المبنيِّ للمفعول ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾:

الأتقى هو المعنيُّ بمجازاة ما عليه من النِّعم

جيء بفعل ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾ مضارعًا مبنيًّا للمفعول؛ لظهور أنَّ الفاعل هو الأتقى؛ إذ هو المعنيُّ بمكافأةٍ ما قد يكون للنّاس عليه من المِنَنِ والنِّعَمِ، فليس المراد وجود فاعل بعينه، بقدر ما أنّ المراد وجود فاعلٍ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 310.

للنّعمة يستحقّ بسببها الجزاء، كما أنَّ التعبير بصيغة المضارع، إيماءٌ إلى أنَّ النّعم عند الكرام تستحقّ الجزاء، وهي في نيّة المنعَم عليه حاضرة، تنتظر وقت الجزاء بإنفاذها.

### دلالة الاستثناء ونوعه:

صلابة قوّة الحقِّ في نفس المُنْفِق جعلتْهُ غير آبهٍ إلّا بطلب رضا الله

قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ مستثنًى من غير جنسه، وهو النِّعمة، أي: ما لأحد عنده نعمةٌ لكن ابتغاء وجه ربه، فالاستثناء منقطع[1]، وفيه إشارة إلى أنَّ الابتغاء المذكور كأنَّه نعمة ممَّنْ آتاه المال؛ لأنَّ الابتغاء - وهو تطلُّب رضا اللّه - كان السَّبب في ذلك الإيتاء بغاية التَّرغيب، وقد آل الأمر بهذه العبارة الرَّشيقة والإشارة الأنيقة، مع ما أومأت إليه من التَّرغيب، وأعطته من التَّحبيب؛ إلى أنَّ المعنى: إنَّه لا نُعمَى عليه لأحدٍ في ذلك إلّا اللّه تعالى، ويحتمل أن يُضمر الإنفاق على تقدير: ما يُنفق إلّا ابتغاء وجه ربِّه الأعلى[2]، فيكون الاستثناء متَّصلًا عن محذوف[3].

### دلالة التعبير بصيغة الافتعال:

الأتـقى يتحرَّى وجه الله تعالى لصعوبةِ الإنفاق الخالص

جيء بصيغة الافتعال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالة على الطلب والقصد[4] بجدٍّ ومبالغة، وهو أبلغ من البغي[5]، فأفاد الكلام أنَّ الأتقى لا يتحرَّى بإيتاء ماله إلّا وجه اللّه ﷻ.

### بلاغة التَّعبير بالوجه:

قصد الأتقى هو أعلى القصود

المقصود بالوجه في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الذّات، وقصد بالذات رضا اللّه تعالى، وقصد النّظم التعبير بالوجه دون ذكر الرضا الإشارة إلى أنَّ قصد الأتقى أعلى القصود، فلا نظر له إلّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 188.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 188.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 318.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 392.

إلى ذاته ﷻ الَّتي عبِّر عنها بالوجه؛ لأنَّه أشرف الذات، وبالنَّظر إليه تحصل الحياة والرَّغبة والرَّهبة، لا إلى طلب شيء من دنيا ولا آخرة[1].

### سرُّ إيثار عنوان الرُّبوبية:

كلُّ ما عند العبد من النعم فمن المنعم سبحانه

أوثرَ عنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير الأتقى في قول الباري ﷻ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للفت الأنظار إلى صفة الإحسان؛ إشارةً إلى وصفه بالشُّكر، والمعنى: إلّا ابتغاءَ وجه الَّذي أوجده وربّاه وأحسن إليه، بحيث إنَّه لم يرَ إحساناً إلّا منه ولا عنده شيء إلّا وهو من فضله[2]، واسمُ الرَّبِّ هنا أوقعُ من سائر الأوصاف الجليلة؛ لأنَّ الابتغاء المذكور من آثار التَّربية[3].

### بلاغة التّخصيص بوصف ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

التعريضُ بمن يبتغي وجه المخلوقين للمديح والخلاص من الذَّمِّ

صفة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ من نعت الرَّبِّ الَّذي استحقَّ صفات العلوِّ[4]، والمعنى: إلّا ابتغاء وجه ربه الرَّفيع بسلطانه، المنيع في شأنه وبرهانه[5]، وخصَّ النظم الكريم صفة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ بالذّكر دون سائر الصِّفات؛ لبيان أنَّ نظر المنفق هو للأعلى سبحانه، تعريضًا بالدون من المخلوقين، ففيه تعريضٌ بمن يُنفق ماله ابتغاء وجه المخلوقين؛ لأنَّه لن ينالَ من ذلك إلّا مديح الدنيا، والخلاص من ذمِّ المخلوقين.

### دلالة التَّفضيل في صفة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

الإتيان بالتَّفضيل في قوله تعالى شأنه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدِّلالة على أنَّه سبحانه أعلى من كلِّ شيء، فلا يمكن أن يعطيَ أحد من نفسه شيئًا يقع مكافأةً له[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 95 - 96.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 311.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 89.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 652.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 96.

### نوع الواو ودلالتها:

من كان قصده الله حاز المكرمات

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ تحتمل أن تكون استئنافيَّة[1]، والجملة مستأنفة لبيان جزاء الأتقى المتَّصف بالصِّفات الجليلة السّابقة، وفي الكلام إيماء إلى أنَّ من كان قصده وجه اللّٰه فله من المكرمات ما لا تحيط به العبارة، وتحتمل العطف على السّابق[2].

### نوع اللام ودلالتها:

رضا الأتقى متحقّق يقينًا

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ واقعة في جواب قسم مضمَر[3]. أي: واللّٰه لسوف يرضى[4]، وتحتمل أن تكون لام الابتداء، دخلت على الخبر بعد حذف المبتدأ، والتقدير: ولهو سوف يرضى[5]، والغرض منها تأكيد الخبر[6].

### دلالة استعمال (سوف) دون السين:

رضا الأتقى في الدّنيا رائحة الرضا الأخرويّ

جيء بـ (سوف) والفعل المضارع في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾؛ لتحقيق الوعد في المستقبل، وبيان أنَّه واقع لا محالة وإن تأخَّر ليوم الجزاء، كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: 98]، أي: يتغلغل رضاه في أزمنة المستقبل المديد[7]، أي: بإعطاء الجنَّة العليا والمزيد بوعدٍ لا خُلف فيه[8].

### بلاغة التَّعبير بمفردة الرِّضا:

حصول الرّضا كنايةٌ عن السّعادة الأبدية

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردةِ الرِّضا في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾؛ لأنَّ الرضا هو غاية ما يرجوه التّقي في الآخرة، فإن تحقَّق

(1) صافي، الجدول: 15/ 349.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 504.
(3) السمين، الدر المصون: 11/ 33.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 168.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 311.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 392.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 392.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 96.

الرضا دلَّ على تحقق جميع النّعم، فهو كناية عن الطُّمأنينة النفسية، والمتع الجسدية، بنيل ما لا يخطر على بال، كما أنَّه يدلُّ على خلافِ السُّخط؛ فيفيد أنَّه لا يحصل في الآخرة ما يكدِّر خاطره، وفي ذلك ما لا يخفى من الإشارة إلى سعة إكرام اللّٰه تعالى له.

### نكتةُ حذف متعلّق فعل ﴿يَرۡضَىٰ﴾:

جزاء الأتقى لا يُدرك كُنْهُه ولا تُحيط به العبارة

آثر النّظم الكريم حذف متعلّق فعل ﴿يَرۡضَىٰ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾، فلم يُقل: يرضى بكذا؛ لزيادة المبالغة في تعظيم جزائه عند الحقِّ جلَّ ذكره، ولبيان عموم وكثرة ما يُرضيه في الآخرة؛ فلا تُحيط به العبارة، ولا تُنادي عليه الألفاظ الرنّانة، فكان الحذف أكثر رضًا من الذّكر، لما فيه من العموم الشُّموليّ، المُنادي على كلِّ ما من شأنه أن يُحقِّق رضا الأتقى في الآخرة.

### فائدةُ الإخبارِ بقوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾:

قرَّة عين الأتقى بما يكرمه الأعلى

الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ لإفادة الوعد، وهو وعد كريم بنَيْلِ جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقَّق الرِّضا[1]، وتقرُّ عينه، وهو كقوله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5][2].

### بلاغة التَّتميم في ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾:

الأتقى ناجٍ من العذاب وظافر بالثَّواب

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ وعدٌ بالثَّواب الجزيل الَّذي يُرضي صاحبَه، وهذا تتميم لقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ لأن ذلك ما أفاد إلّا أنَّه ناجٍ من عذاب النّار لاقتضاء المقام الاقتصارَ على ذلك؛ لقصد المقابلة مع قوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾، فتمَّم هنا بذكر ما أعدَّ له من الخيرات[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 168.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 652.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 392.

**بلاغة التصدير في ردِّ الختام على المطلع:**

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ دالٌّ على أنَّ من صفَّى نفسَه وزكّاها بالتَّجلّي بالنّور المعنويِّ من إنارة ظلام اللَّيل بما يُجلّيه به من ضياء القيام وغير ذلك من أنواع الخير؛ يرضى بالنّور الحسّيِّ بعد الموت[1]، فيتناسب آخِر السّورة مع ما ذُكر في أوَّلها من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

من عمر نفسه بالأنوار فاز بالخيرات الواسعة

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

**الإيتاء والإعطاء:**

الإعطاءُ فيه دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ، ويُؤيِّدُهُ قولُه سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ فإنَّ لهُ منعَ مَنْ شاءَ منهُ كالمالكِ للمِلْكِ، وأمّا إيتاء القرآنِ للنبيِّ ﷺ فحيثُ إنَّ أمَّتَهُ مُشارِكونَ لهُ في فوائدِهِ قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87][2]. والإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[3]. والإيتاءُ فيه - غالبًا - معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[4]. والإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، وأمّا الإيتاءُ فيكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ[5]، وقد عبَّر بالإيتاء؛ لأنّه أقوى من الإعطاء، وللدّلالة على أنَّ الأتقى يرى أن إعطاء الفقراء من ماله كالواجب عليه، وفي ذلك ما لا يخفى من المدح له.

الإيتاء أقوى في الفعليّة من الإعطاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 99.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.
(3) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.
(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.
(5) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 251.

# سُورَةُ الضُّحَىٰ

# سُورَةُ الضُّحَىٰ

## التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّي والمدنيّ وعدد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة اتّفاق الجمهور على مكّيّتها[1]، وكذلك فعل القرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3]، وأمّا عدد آياتها فهي إِحْدَى عشرَة آيَة في جَميع العدَد لَيْسَ فيها اخْتِلاف[4].

### ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

اتّفق ترتيبها النّزولي والمصحفيّ في أسبقيتها لسورة الشّرح

هذه السّورة هي الثّالثة والتّسعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ اللّيل والشّرح، وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فعُدّت السّورة الحادية عشرة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الفجر وقبل سورة الشّرح[5]، فتوافق ترتيبها النزولي والمصحفي في أسبقيتها للشرح.

### فضائل السّورة:

هذه السّورة من قصار سور المفصّل

هذه السّورة من قصار سور المفصّل الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 493.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 91.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 277.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 549، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 394، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 152.
(6) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

### اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سـورةُ الضّحى اشتـهـرت بهذا الاسم

وردت تسميتها بسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ في صحيح البخاري[1]، وعند التّرمذيّ[2]، ووردت تسمية هذه السّورة بسورة (الضّحى) بدون الواو في المصاحف والتّفاسير وكتب السّنّة[3].

وقد ربط البقاعيّ بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: الدّلالة على آخر اللَّيل، بأنَّ أتقى الأتقياء الذي هو الأتقى على الإِطلاق في عين الرّضا دائمًا، لا ينفكّ عنه في دنيا ولا في آخرة، لما تحلّى به من صفات الكمال، التي هي الإِيصال للمقصود، بما لها من النّور المعنويّ، كالضّحى بما له من النّور الحسّيّ، الذي هو أشرف ما في النّهار وقد عُلم بهذا: أنّ اسمها دالٌّ على مقصودها"[4].

والحقّ أنّ البقاعيّ قد لفت النّظر إلى أنّ تسميتها بسورة الضّحى مرتبطٌ بسورة اللّيل ارتباطًا مباشرًا، حيث إنّها بيّنت بجلاء ووضوح صفات الأتقى الذي تناولته السّورة السّابقة، وهو لفظٌ عامٌّ يشمل كلَّ من كان مع النّبيّ ﷺ، والحقّ أنّ تسميتها بالضّحى مرتبطٌ بمحورها الذي قامت عليه وبسبب نزولها، فالضّحى يمثّل قوّة النّهار وسطوع ضوئه، وسجى اللّيل يمثّل سكون اللّيل وهدوءه، وجواب القسم أنّ الله تعالى لم يترك نبيّه ولم يبغضه، ولكنّ الوحي قد يشتدّ ويتتابع، وقد يسكن في بعض الفترات ويخفت ضياؤه، وفي كلا الحالَيْن هذه سنن الله تعالى في الأنفس كما هي في الآفاق، وتسميتها بالضّحى دون اللّيل للدّلالة على دوام اتّصال الوحي ووضوحه وعدم انقطاعه، فهو النّور الثّابت الدّائم الذي يستمدّ منه

(1) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة (والضحى): 4/ 1891.
(2) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ (والضُّحَى): 5/ 442.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 393.
(4) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 202 - 203.

نبيّنا ﷺ طاقته وإشراقه، والضّحى هو رمزٌ للوضوح والثّبات فيما يقرّره ربّ العباد.

### المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على مؤازرة النّبيّ ﷺ وتأييده في دعوته

المحور الذي قامت عليه السّورة واضحٌ للعيان وضوح ضحى النّهار، فهي تأييد ومؤازرة للنّبيّ ﷺ في دعوته، وتثبيتٌ له على الطّريق المستقيم الذي أمرهم باتّباعه.

فقد أقسم تعالى بأشدّ حالات النّهار قوّة وأشدّ حالات اللّيل سكونًا أنّه ما ودّع نبيّه وما قلاه كما يزعمون، ولكنّها سنن الله الكونيّة في تغيّر الأحوال حسب مقتضيات الحكمة الإلهيّة، فتارة قد يشتدّ فيه نزول الوحي، وتارة قد يفتر، وليس هذا أو ذاك دليلٌ على المحبّة أو البغض، وبشّره بعدها بأنّ آخر دعوته خيرٌ له من أولاها، وأنّ آخرته خيرٌ له من دنياه.

### موضوعات السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة يدور حول بيان طبيعة الإنسان وأسباب إعراضه عن الحقّ

قامت هذه السّورة على ركائز أربع وهي:

**أوّلًا:** ابتدأت بالقسم الإلهيّ العظيم على أنّ الله ﷻ ما قلا رسوله ولا أبغضه، ولا هجره ولا تركه، وإنّما هو محلّ العناية الربانيّة، وهو عظيم القدر عند الله تعالى.

**ثانيًا:** بشّره الله تعالى بالعطاء الجمّ في الآخرة ومنه الشفاعة العظمى.

**ثالثًا:** عدّدت السورة نعم الله على نبيّه منذ صغره، وذكّرته بنعم ثلاث.

**رابعًا:** ختمت السورة بإيصائه بفضائل ثلاث: العطف على اليتيم، وصلة المسكين، وشكر النّعمة العظمى، وهي النّبوّة وغيرها من هذه النّعم المذكورة[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 280.

تميّزت سورة الضّحى بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

### الخصائص الموضوعيّة للسورة:

**أوّلاً:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بالقسم بالضّحى دون غيره، حيث شاركتها في هذه الميزة في الابتداء بالقسم أسرة كبيرة مكوّنة من ستّ عشرة سورة غيرها وهي: الصّافّات، الذاريّات، الطّور، النّجم، القيامة، المرسلات، النّازعات، البروج، الطارق، الفجر، البلد، الشّمس، اللّيل، التّين، العاديّات، العصر. وهذا القسم ومتعلّقاته وجوابه يرتبط مع محور كلّ سورة من هذه السّور.

**ثانيًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها كانت من أوّلها لآخرها خطابًا موجّهًا للنّبيّ ﷺ، وقد شاركها هذه الميزة سورتا الشّرح والكوثر.

**ثالثًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها جاءت على ثلاث فواصل، فقد كانت فاصلتها موحّدة في الآيات الثمان الأولى منها، وهي الألف المقصورة، ثمّ كانت فاصلتها في الآيتيْن التّاليتيْن على حرف الرّاء، والآية الأخيرة على حرف الثّاء، ومع اختلاف فاصلتها في الآيات الثّلاث الأخيرة إلّا أنّ لها جرسًا خاصًّا بها وقوّة في الصّوت تتناغم مع مقصودها.

### الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

**أوّلاً:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت صورًا من المتقابلات والألفاظ المتطابقة بشكلٍ لافتٍ للنّظر، حيث برز أسلوب الطّباق جليًّا في السّورة الكريمة مثل: الضّحى واللّيل، والوداع الذي يكون بين الأحبّة مع القلى الذي يكون بين الأعداء، والآخرة مع الأولى، واليتم مع الإيواء، والضّلال مع الهداية، والفقر مع الإغناء، وهذا كلّه يتناسق مع مقصود السّورة ومحورها.

**ثانيًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت في آخرها أسلوبًا جميلًا في اللّفّ والنّشر سواءً أكان مرتّبًا أم مشوشًا، فقد تناسبت حالةُ

اليتم بالنّهي عن قهر اليتيم، وتناسبت حالة الافتقار إلى الوحي وما لا يُعلم إلّا عن طريق الوحي مع النّهي عن نهر السّائل عن أمر الدّين، وكذلك تتناسب حالة العوّل مع التّحديث بنعم اللّه تعالى، ويمكن أن يكون لفًّا ونشرًا غير مرتّب بأن يتناسب تذكيره بنعمة الهداية والضّلال عمّا لا يُدرك إلّا بالوحي مع الأمر بأن يحدّث بهذه النّعمة ويدعو النّاس لها، ويتناسب تذكيره بالإغناء بعد العوّل مع أمره بالتّحدّث عن نعم ربّه.

**ثالثًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها ذكرت لفظة الرّبوبيّة ثلاث مرّات مضافة إلى ضميره ﷺ ممّا يدلّ على مدى عنايتها به وبمؤانسته والتّسرية عنه. وكذلك ذكرت الفعل (وجد) ثلاث مرّات أيضًا بمعنى العلم، يتبعها مفعولاها، وكذلك تكرّرت فيه (أمّا) التّفصيليّة ثلاث مرّات.

**رابعًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنيّة صرفيّة وصيغًا انفردت بها عن غيرها من السّور مثل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَدَّعَكَ﴾، ﴿قَلَىٰ﴾، ﴿يُعۡطِيكَ﴾، ﴿يَجِدۡكَ﴾، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ﴾ مرّتين، ﴿ضَآلّٗا﴾، ﴿عَآئِلٗا﴾، ﴿تَقۡهَرۡ﴾، ﴿فَحَدِّثۡ﴾، وغيرها.

**خامسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت لفظة فريدة في مادّتها وجذرها وهي ﴿سَجَىٰ﴾ وقد جاءت لوصف شدّة سكون اللَّيل وهدوئه.

### مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الضّحى متّصلة تمامًا بسورة اللّيل مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة شديدة الاتّصال بسورة اللّيل ولا تحتاج إلى مزيد تكلّفٍ في الرّبط، فالسّورتان قد استهلّتا بالقسم، تلك باللّيل إذا غشي وهذه بالضّحى إذا اشتد وباللّيل إذا سكن، وفي كليهما بشرى للنّبيّ ﷺ، "فهذه السّورة متّصلة بسورة اللّيل من وجهين:

**أوّلاً:** ختمت سورة اللّيل بوعد كريم من اللّه تعالى بإرضاء الأتقى في الآخرة، وقال تعالى في سورة الضحى مؤكّدًا وعده لنبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾.

**ثانيًا:** ذكر تعالى في السّورة السّابقة: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ [الليل: 17] ثمّ عدّد اللّه تعالى نعمه على سيّد الأتقياء في هذه السّورة وهو محمّد ﷺ"[1].

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 30/ 279.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

[الضحى: 1 - 3]

## مُناسَبَة مَطْلَعِ السّورة لما قبلها:

الانتقال من ذكر الأتباع إلى ذكر المتبوع بجامع الرضا عن الجميع

لمّا خُتمت سورة الليل بذكر إرضاء التّقيّ النّقي الذي يؤتي ماله طلبَ زكاةِ نفسِه، وكان في ذلك إشراقة نفسٍ، وهدوء بالٍ، ودليلٌ على المحبّة والإكرام، ناسب البدء في سورة الضحى بالقسم بوقت الضحى الذي هو أشرف أوقات النّهار في طلب الأرزاق، وبالليل إذا سجى وهو أشرف أوقات الليل في مناجاة الرزّاق، وجاء بعد ذلك ذكرُ نفي بغض الله تعالى لنبيِّه ﷺ، فكان بينهما ختامٌ بذكر الأتقى، وابتداء بذكر سيد الأتقياء وإمام الأنقياء، فهو انتقالٌ من ذكر الأتباع إلى ذكر المتبوعين، بجامع الرضا عليهم.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: (ضحى) أصل يدلُّ على بروز الشَّيء، ومن ذلك: الضَّحاء والضُّحى، وهو انبساط الشَّمس وامتداد النَّهار، وسُمّيَ الوقت به، قال الله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46][(1)]، ويُقال: ضَحيَ الرَّجل يضحَى، إذا تعرَّض للشَّمس، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 119]، أي: لا يُؤذيك حرُّ الشَّمس[(2)]، ويقال: ضَحيتُ، أي: عرقتُ، وضحَّى فلان غَنَمَه: رعاها بالضُّحى[(3)]. والمراد بالضُّحى هنا: ضوء الشَّمس وإشراقها[(4)].

2) ﴿سَجَىٰ﴾: (سجو) أصل يدلُّ على سكون وإطباق، ومن ذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحي).
(2) الخليل، العين: (ضحي).
(3) الجوهري، الصحاح: (ضحي).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 482.

يقال: سجا الشيءُ يسجو سَجْوًا: سكن ودام[1]، وليلة ساجية، أي: ساكنة الرّيح غير مظلمة، وسجا البحر، أي: سكنت أمواجه[2]، ومنه استعير تسجية الميِّت، أي: تغطيته بالثَّوب، ويقال: امرأة ساجية: فاترة الطرف ساكنته[3]، وناقة سَجْواء: ساكنة عند الحلب[4]. ومعنى ﴿سَجَىٰ﴾: أقبل بظلامه، أو استوى وسكن، أو غطَّى كلَّ شيء بظلامه[5].

3) ﴿وَدَّعَكَ﴾: (ودع) أصل يدلُّ على التَّرك والتَّخلية، ومن ذلك يقال: ودَعه، إذا تركه، والتَّوديع: ما يكون عند الرَّحيل[6]، وهو التَّرك، والدَّعة: الخفض في العيش والرّاحة[7]، والوَدَعات: خَرَزات بيض تخرج من البحر، تتفاوت في الصِّغر والكِبَر، واسمها مشتقٌّ من ودَعْتُه بمعنى: تركته؛ لأنَّ البحر ينضب عنها[8]، ومعنى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: ما تركك[9].

4) ﴿قَلَىٰ﴾: (قلو) أصل يدلُّ على خِفَّةٍ وسرعة، من ذلك القِلْوُ، وهو الحمار الخفيف، ويقال: قلَتِ النّاقة براكبها قَلْوًا، إذا تقدَّمت به[10]، واقلولى: ارتفع، والقِلى: البُغض[11]، أو شدَّة البُغض، قال تعالى: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشعراء: 168]، فمن جعلَه من الواو فهو من القِلْو، أي: الرَّمي، من قولهم: قلت النّاقة براكِبها، فكأنَّ المَقْلوَّ هو الَّذي يَقْذِفُهُ القلب من بغضه فلا يقبله، ومن جعلَه من الياء فمن قَلَيْتُ البُسْرَ والسَّويق على المِقلاة، ويقال: تقلَّى، أي: تبغَّض[12]. ومعنى ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: وما أبغض[13].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُقسم الله تعالى بالضُّحى وما جُعل فيه من الضّياء، واللَّيلِ إذا سكن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (سجو).
(2) الخليل، العين: (سجو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (سجو).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سجو).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 484، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 92.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ودع).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودع).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (ودع).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 485، والرازي، مختار الصحاح: (ودع).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلو).
(11) الخليل، العين: (قلو).
(12) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (قلو).
(13) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 485.

فأظلم وادلهمَّ، ليقع الخطابُ للنبيِّ ﷺ: ما تركك ربُّك يا محمَّد وما أبغضَك[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة تصدير السّورة بالقسم:

توكيدُ حبِّ الله لنبيِّه ليس لذاته بل ردًّا على المشركين

افتُتِحت السّورة بهذين القسمين ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ لتأكيد الخبر ردًّا على زعم المشركين أنَّ الوحيَ انقطع عن النَّبيِّ ﷺ حين رأوه لم يقُم اللَّيلَ بالقرآن بضعَ ليال، فالتَّأكيد منصبٌّ على التَّعريض المعرَّض به لإبطال دعوى المشركين، فالتَّأكيد تعريض بالمشركين، وأمّا رسول اللّه ﷺ فلا يتردَّد في وقوع ما يُخبره اللّه بوقوعه[2].

### بلاغة الإيجاز بالحذف:

رعاية الإيجاز في تناسب الفواصل

في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ إيجاز، وذلك باختيار الواو؛ لأنَّها يُطَّرح معها إبرازُ الفعل اطِّراحًا كلّيًّا، فكان لها شأنٌ خلافُ شأن الباء، حيث أُبرز معها الفعل وأُضمر، فكانت الواو قائمةً مقام الفعل، والباء سادَّةً مسدَّهما معًا، والتَّقدير: أقسمُ والضُّحى واللَّيلِ إذا سجى، وغرضُ الحذف هو التَّخفيف والإيجاز الَّذي هو أنسبُ بتناسب فواصل الآيات من حيث القِصَر.

### مناسبة القسم بالضُّحى لموضوع السورة:

الضُّحى تمثيل لنزول نور الوحي الأشرف بعد ظلمة الليل

آثر النّظم الكريم القسم بالضُّحى في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؛ لأنَّه وقت اجتماع الناس وكمالِ الأُنس بعد الاستيحاش في زمان اللَّيل، فبشَّره أنَّ بعد استيحاشه بسبب احتباس الوحي يظهر ضُحى نزول الوحي، ولأنَّها السّاعة الَّتي كلَّم فيها موسى ربَّه، وأُلقيَ فيها

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 425.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 394.

السَّحرة سُجَّدًا، فاكتسى الزَّمان صفة الفضيلة لكونه ظرفًا، فكيف فاعل الطاعة! وأفاد أيضًا أنَّ الَّذي أكرم موسى لا يدع إكرامَ النَّبيِّ ﷺ، والَّذي قلب قلوب السَّحرة حتَّى سجدوا يقلب قلوب أعدائه[1]، ولأن الضُّحى وقت انبثاق نور الشَّمس، فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به[2].

### دلالة تعريف لفظ (الضُّحى):

المراد بالضُّحى في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: الجنس، أي: وجنسِ الضُّحى[3]، فأفاد الكلام تعظيمَ كلِّ فردٍ من أفراد الضُّحى، فهو قسم بهذا الوقت على مدى الزّمان.

### لطيفة الطباق في مقابلة الضُّحى للَّيل:

الضُّحى فيه انكشافُ الخلقِ والليل فيه خفايا الخلق وخباياهم

ذُكر الضُّحى وهو ساعة من النَّهار، وذُكر اللَّيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ لأنَّه إشارة إلى أنَّ النَّهار وقت السُّرور والرّاحة، واللَّيل وقت الوحشة والغمِّ، فهو إشارة إلى أنَّ هموم الدُّنيا أدومُ من سرورها؛ فإنَّ الضُّحى ساعة، والليل كذا ساعات، ولأنَّ وقت الضُّحى وقت حركة النّاس وتعارفهم، فصارت نظير وقت الحشر، واللَّيل إذا سكن نظيرُ سكون النّاس في ظلمة القبور، فكلاهما حكمة ونعمة، لكنَّ الفضيلة للحياة على الموت، ولما بعد الموت على ما قبله[4]، ولأنَّ النَّهار يقوى فيه بعد ما كان ضعيفًا حين طلوع الشَّمس وتباعدها عن الأُفق المرئيِّ، فله شرفٌ حيث خرج الوقت المكروه، ودخل وقت الصَّلاة الَّتي هي أمُّ العبادات، وأشرف القُرُبات[5]، وإن جعلنا الضُّحى وقتَ انكشافِ الخلقِ، والليلَ وقتَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 191، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 91 - 92.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 394 - 395.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 372.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 191.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 765، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 319، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 30/ 313.

خفائهم واختبائهم، تكون المقابلة من الطّباق[1]، وفي ذلك رسم لصورتين متقابلتين إحداهما في غاية الضياء، والأخرى في غاية النّور، ولا شكَّ أنَّ اجتماع الأضداد منبعٌ للحُسن.

اللَّيل مقسَمٌ به عظيمُ الشَّأن

### نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ للقسم عند بعض النحاة، وللعطف عند آخرين؛ لأنَّ إدخال القسم على القسم قبل تمام الأوَّل لا يجوز عندهم[2]، وأيًّا ما كان فاللَّيل داخل في القسم أصالةً أو تبعاً.

### نكتة القسم باللَّيل:

مناسبة القسم بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: أنَّ اللَّيل وقت قيام النَّبيِّ ﷺ بالقرآن، وهو الوقتُ الَّذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم أو من المسجد الحرام[3].

### دلالة تعريف اللَّيل:

المراد باللَّيل في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: الجنس، أي: وجنسِ اللَّيل إذا سَجى[4]، فيكون كلُّ ليل مقسَمًا به.

### توجيه متشابه تأخير القسم باللَّيل وتقديمه في السّابقة:

التّقديم والتّأخير باعتبارات ترتبط بسياق السورة ومقاصدها

قدَّم ﷻ ذكر اللَّيل في قوله في السّورة الماضية: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: 1 - 2]، وأخَّره في قوله في هذه السّورة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ لأنَّ باللَّيل والنَّهار تنتظم مصالحُ المكلَّفين، واللَّيل له فضيلةُ السَّبق؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وللنَّهار فضيلة النّور، بل اللَّيل كالدُّنيا، والنَّهار كالآخرة، فلمّا كان لكلٍّ واحدٍ فضيلةٌ ليست للآخر قدَّم هذا على ذاك تارةً،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 91.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 647 - 648.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 394 - 395.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 372.

وذاك على هذا أخرى[1]، وناسب تقديم الليل في سورة الليل باعتبار تقديم الأصل، وهنا بدأ بالضحى باعتبار بيان مشابهة الوحي لنور الضحى، فلمّا أراد إثبات دوامه واستمراره ناسب البدء بالضحى دون الليل.

### توجيه تخصيص وقتي الضُّحى واللّيل بالقسم:

أقسم في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ بالضُّحى واللَّيل إذا سجى دون سائر الأوقات؛ لأنَّ هذين الوقتين هما أشدُّ الأوقات التي يكون النّاس فيها غافلين عن الله تعالى وذكره، فالضحى هو وقت الانشغال بالتجارة والزراعة وإقامة المعاش، والليل إذا سجى وهدأ تجد النّاس قد ناموا وغفلوا عن ذكر الله تعالى وعبادته، فالضحى وقت الانشغال مع اليقظة، والليل وقت الانشغال بالنوم، فمن انتبه وآثر ذكرَ الله في هذين الوقتين، خالف الغافلين، وقدَّم ذكرَه تعالى على ذكر الدنيا من متاع الجمع ومتعة النوم، وهو مناسب لتعليل عدم ترك النبي ﷺ وعدم بغضه، لأنّه لا يغفل في هذين الوقتين عن الله تعالى، فكيف يتركه الله ويقلاه، ولذلك شرعت صلاة الضحى وقيام الليل، وكان ﵇ شديد المواظبة عليهما، كما أنَّ في ذكرِ هذين الوقتين تنبيهًا على أنَّه ﵇ في غيرهما أشدّ مواظبة.

أشدُّ الأوقات غفلةً عن الذّكر هما أكثر الأوقات ذكرًا عند أهل الذّكر

### دلالة ﴿إِذَا﴾ في ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ في محلِّ نصب على الظَّرفية، متعلِّقة بكونٍ هو حال من اللَّيل، فهو ظرف مستقَرٌّ، أي: مُقسمًا به في وقت سجوّه وهدوئه.

### بلاغة تقييد القسم باللّيل:

لمّا كان اللَّيل وقت قيام النَّبيِّ ﷺ بالقرآن، ناسب تقييده بالسجوِّ؛

وقت القيام عند تمكُّن الغفلة من العباد ويقظة النَّبيِّ للذّكر والقيام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 190 - 191، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 319.

لأنَّ بداية الليل يكون فيها ضوضاء وإزعاج، فناسب ذكر هذا القيد للإشارة إلى وقت هدوء الليل، أي: نوم النّاس وسباتهم، ففيه يُقيم النبيَّ ﷺ صلاته، ويتقرّب إلى الله تعالى، من حيث تتمكّن الغفلةُ من العبادِ، ولو ذكر الليل مطلقًا بدون تقييد؛ لمّا اتّضح هذا المعنى، ولما ظهرت هذه الدّلالة.

### نكتة التّعبير بصيغة الماضي:

جيء بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ للتَّنصيص على تحقُّق الحالة الَّتي هي مدار القسم باللَّيل، ومدار التَّعظيم والتَّشريف، أي: إذا تحقق الهدوء وثبت.

### دلالة التَّعبير بمفردة ﴿سَجَىٰ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة ﴿سَجَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ لدلالته على السُّكون والهدوء، والمعنى: واللَّيل إذا سكن أهلُه، على أنَّه من السَّجو وهو السُّكون مطلقًا.

### بلاغة المجاز في فعل ﴿سَجَىٰ﴾:

تعدُّد الاحتمالات المجازيّة باعتبار التّوجيه البياني

إسناد فعل ﴿سَجَىٰ﴾ إلى الليل مجازيٌّ، لأنَّ الليل لا يسجو، أو هو على تقدير المضاف، أي: رَكَد ظلامُه من سجا البحرُ، إذا سكنت أمواجُه[1]، فيكون إسنادُه إلى الليل مجازًا مرسلًا والعلاقة محليّة، أو استعارة[2] بتشبيه الليل بالبحر، على سبيل الاستعارة المكنيّة، وذكر لازمٍ من لوازمه.

### مناسبة جواب القسم للقَسَم:

الوحي مستمرٌّ كاستمرار ذكر النبيِّ لله في جميع الأوقات

جملةُ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ جوابُ القسم، ولم يقترن باللّام؛ لأنَّه جملة منفيَّة[3]، ولمّا كان الإقسام بالضُّحى والليل إذا سجى؛ دالًّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 372 - 373.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 315.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 395.

على ديمومة اتّصال النبي ﷺ بالله ذكرًا وقيامًا وصلاة، ناسب أن يكون جواب القسَم مرتبطًا بهذا المعنى كذلك، وهو أنَّه تعالى لم يترك النَّبيَّ ﷺ، ولم يُفارقه إلطافُه تعالى[1]، ولأنَّ الضُّحى وقت ارتفاع الشَّمس ومواصلة الوحيِ والكرامة، وهي المراد بعدم التَّوديع، يرتفع بها شمسُ النُّبوَّة[2].

### نكتة التعبير بصيغة الماضي المنفيّ:

جيء بصيغة الماضي المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾؛ موافقةً لعبارة المشركين، حيث وقع ذلك في كلامهم، وإلّا فالله تعالى لا يودِّعه ولا يُبغضه[3].

### بلاغة الاستعارة ودلالتها:

الاستعارة البليغة هي التي تُدني المعاني من الأفهام دون التَّصريح بمراد العلّام

التوديع في الأصل: تحيَّة من يريد السَّفر، واستُعير في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ للمفارقة بعد الاتِّصال تشبيهًا بفراق المسافر في انقطاع الصِّلة، حيث شُبِّه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينةُ إسناد ذلك إلى الله الَّذي لا يتَّصل بالنّاس اتصالًا معهودًا، وهذا نفي لأن يكون الله قطع عنه الوحيَ[4]، وفيه من اللُّطف والتَّعظيم ما لا يخفى؛ فإنَّ الوداع إنَّما يكون بين الأحباب ومن تعزُّ مفارقته[5].

### نكتة التّعبير بصيغة التَّفعُّل:

لما بالغ المشركون في إثبات التّوديع ناسب ذلك المبالغة في الصيغة

جيء بصيغة التَّفعُّل في قوله ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ للمبالغة في الوداع؛ لأنَّ من ودَّعك مفارقًا فقد بالغ في تركك[6]، ولا يلزم أن يكون المنفيُّ التَّركَ المبالغَ فيه دون أصل التَّرك مع أنَّ الظّاهر نفيُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 372.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 316.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 315.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 395.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 369.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 192.

ذلك؛ لأنَّه إنَّما نفى ذلك؛ لأنَّه الواقع في كلام المشركين الَّذي نزلت له الآية، أو لأنَّ المبالغة تعود على النَّفي، فيكون المراد المبالغة في النَّفي لا نفي المبالغة[1].

### بلاغة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

المحسنُ المربّي سبحانه لا يترك من هيَّأه لخير البشريّة

آثر النّظم الكريم التعبير بعنوان الرُّبوبية مضافاً إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ لدلالته على العناية والرِّعاية الملائمين لعدم التَّوديع، والمعنى: ما ودَّعك الَّذي أحسن إليك بإيجادك أوَّلاً، وجعلك أكمل الخلق ثانيًا، وربّاك أحسن تربية ثالثًا[2].

### دلالة واو العطف:

إبطال كلِّ مزاعم المشركين حول انقطاع الوحي

الواو في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ لعطف هذه الجملة على جملة ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾. ونكتة العطف: الإتيان على إبطال مقالتي المشركين جميعًا؛ إذ قال بعضهم: ودَّعه ربُّه، وقال بعضهم: قلاه ربُّه، يريدون التَّهكُّم[3]، ولأنَّه لمّا كان ربَّما تعنَّت متعنِّت فقال: ما تركَه، ولكنَّه لا يُحبُّه، فكم من مواصل وليس بواصل؛ نفى البُغضَ[4].

### بلاغة التَّعبير بمفردة القِلى دون البُغض:

الرَّدُّ على الخصومِ من مقتضيات مقاصد النّصِّ الكريم

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة القِلى دون البُغض، مع أنَّ القِلى هو البغض الشديد في قول الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ لأنَّ اللفظ وقع في عبارة المشركين، حيث زعموا أنه وقع منه تعالى بغضٌ شديدٌ؛ فناسب الإتيان باللفظ الذي نطقوا به، ليُعلم أنَّ المراد الردُّ على مزاعمهم، والواقع أنَّه لم يكن منه تعالى كره ضعيف ولا شديد.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 374.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 102.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 395.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 102 - 103.

**مقامُ النبيِّ ﷺ رفيعٌ عند ربِّه فلا يقربه ما يسوؤه**

### نكتة حذف مفعول فعل ﴿قَلَىٰ﴾:

آثر النّظم الكريم ترك الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، فلم يُقل: (وما قلاك)، إما اكتفاءً بما سبق من الكلام، لظهوره من السّياق، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35]، أي: والذاكراتِ اللّه[1]، وإمّا للمبالغة في نفي إيقاع فعل القِلى على ضمير النبي ﷺ، والقصد إلى نفي صدور الفعل عنه تعالى بالكلّيَّة[2]، وللتَّنبيه على أنَّ المعنى: ما قلاك، ولا قلا أحدًا من أصحابك ولا أحدًا ممَّن أحبَّك إلى قيام القيامة[3]، مع مناسبة كونه رأس آية، فتُرك رعايةً للفواصل[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 766.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 169.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 192.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 94.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: 4 - 5]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من نفي شبهات الخصوم إلى إثبات خير قوادم العلوم

لما أقسمتِ الآيات السّابقة بأشدِّ وقتي اليوم انشغالًا عن الذكر، إشارةً إلى العناية بالذّكر من النبيِّ ﷺ، ولمّا كان قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ متضمِّنًا للتَّشريف العظيم، فكأنَّه ﷺ استعظم هذا التَّشريفَ، فقيل له: هذا التَّشريف وإن كان عظيمًا إلّا أنَّ ما لك عند الله في الآخرة خير وأعظم(1). ولمّا بيَّن ﷻ أنَّه لا يزال يواصل نبيَّه بالوحي والكرامة في الدُّنيا؛ وعد له ما هو أعلى وأجلُّ من ذلك في الآخرة(2).

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَيْرٌ﴾: (خير) أصلٌ يدلُّ على العَطْفِ والمَيْلِ، والخير: ضدُّ الشَّرِّ(3)، وقد سُمّيَ الخيرُ بذلكَ؛ لأنَّ كلَّ أحد يميلُ إليهِ، ويعطفُ على صاحبِهِ(4)، والخيرُ: ما يرغبُ فيهِ الكلُّ؛ كالعقلِ، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النّافعِ(5)، والخيرة: الفاضلة من كلِّ شيء، والخيار: خلاف الأشرار(6). والمرادُ بالخيرِ هنا صيغةُ التَّفضيلِ مِنَ الخيرِ، والمقصود الأفضليَّة.

2) ﴿يُعْطِيكَ﴾: (عطو) أصل يدلُّ على أخذٍ ومناولة، ومن ذلك:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 193.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 319، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 106 - 107.
(3) الرازي، مختار الصحاح: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منع).
(5) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (خير).
(6) الرازي، مختار الصحاح: (خير).

العَطْوُ، وهو التَّناول باليد، يقال: عطا الشَّيءَ وعطا إليه: تناوله، والمعاطاة: المناولة[1]، والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: 29]، وأعطى البعيرُ: انقاد، وأصله: أن يُعطيَ رأسه فلا يتأبَّى[2]، ورجل معطاء: كثير العطاء[3]، والعطاء والعطيَّة: اسم لما يُعطى[4]. والمراد بالإعطاء هنا: البذل.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

حظوظ الدُّنيا لا تُساوي شيئًا من حظوظ الآخرة

تُبيِّن الآيتان الكريمتان ما وعد اللّه به نبيَّه ﷺ، بأنَّ الدّار الآخرة وما أعدَّ اللّه له فيها خيرٌ له من الدّار الدُّنيا وما فيها، فلا يقع الحزنُ على ما فات منها، ولسوف يُعطيك - يا محمَّد ﷺ - ربُّك في الآخرة من فواضل نِعَمِه حتَّى ترضى[5].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الواو ودلالتها:

البشارة بالزّيادة بعد نفي النُّقصان كمال في الوعدِ الصادق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ لعطف هذه الجملة على جملة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، فهو كلام مبتدأ به، والجملة معطوفة على الجمل الابتدائيَّة، وليست معطوفة على جملة جواب القسم، بل هي ابتدائيَّة، فلمّا نُفيَ القِلى بُشِّرَ بأنَّ آخرته خير من أولاه، وأنَّ عاقبته أحسن من بدأته[6]، ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة مستأنفة[7].

### بلاغة توالي المؤكّدات:

الثقةُ في أوقات المحن أعظم من الثقة في زمن الرخاء

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ جواب قسم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(2) الراغب، المفردات: (عطو).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عطو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 487، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 425.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 397.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 378.

مضمَر[1]، وقد أُكِّدَ الكلام بالقسم واللّام واسميَّة الجملة لزيادة تسليته ﷺ، وزيادة تشريفه وتعظيمه، وللرَّدِّ على من قد يسمع الكلام فيُنكره[2]، لاسيّما وقت نزولِ الآيات؛ فإنَّ اللّه تعالى يعد نبيَّه ﷺ لتثبيته، في وقت انتشار أقوال تكذيبه، وهذا من عظيم حسن الظنِّ باللّه تعالى الذي ينال به المؤمن عظيمَ الأجر، وكبيرَ الثّواب، فإنَّ الثقة في أوقات المحنِ أعظم من الثقة في أوقات الرخاء.

## معنى تعريف لفظي الآخرة والأولى وتأنيثهما:

آجل أمر النَّبيّ ﷺ خير من عاجله

عُرِّف لفظا الآخرة والأولى في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ للتَّعميم بقصد جعل الجملة في معنى التَّذييل الشّامل لاستمرار الوحي وغير ذلك من الخير، والآخرة مؤنَّث الآخِر، والأولى مؤنَّث الأوَّل، وغُلِّبَ لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة، وعلى الدّار الآخرة، كما غُلِّبَ لفظ الأولى على حياة النّاس الَّتي قبل انخرام هذا العالَم، فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كلا معنييه، فيفيد أنَّ الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة؛ تبشيرًا له بالخيرات الأبديَّة.

كلّ مآلات النبيّ ﷺ خير من سوابقها

ويفيد أيضًا أنَّ حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها، فيكون تأنيث الوصفين جاريًا على حالتي التَّغليب وحالتي التَّوصيف، ويكون التَّأنيث في هذا المعنى الثّاني لمراعاة معنى الحالة، ويومئ ذلك إلى أنَّ عودة نزول الوحي عليه هذه المرَّة خير من العودة الَّتي سبقت، أي: تكفَّل اللّه بألّا ينقطع عنه نزولُ الوحي من بعدُ، فاللّام في الآخرة والأولى لامُ الجنس، أي: كلُّ آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدُّنيا وفي الأخرى[3].

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 37، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 557 - 558.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 106 - 107.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 397.

**بلاغة المجاز بحذف الموصوف:**

**فخامة حال النَّبيِّ في جميع حالات الدُّنيا والآخرة**

في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ إيجاز بحذف الموصوف لإغناء الصِّفة عنه بسبب كثرة الاستعمال، والمعنى: وللدّارُ الآخرةُ خير لك من الدّار الأولى، أو للحالةُ الأولى لك في الدُّنيا خير لك من الحالة الثّانية في الدُّنيا[1]، فيُفهم منه أنَّه ﷺ لا يزال في ترقٍّ من عليٍّ إلى أعلى منه، وكاملٍ إلى أكملَ منه دائمًا أبدًا لا إلى نهاية[2].

**نكتة التَّعبير بلفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ ووجهُ خيِّرية الآخرة:**

**الآجلة في حقّ المؤمنين خيرٌ من العاجلة في جميع النّواحي**

جاء التّعبير بلفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لدلالته على الأفضليَّة والمزيَّة، ووجه خيرية الآخرة من وجوه: أحدها: كأنَّه تعالى يقول له: إنَّك في الدُّنيا على خير؛ لأنَّك تفعل فيها ما تريد، ولكنَّ الآخرة خير لك؛ لأنّا نفعل فيها ما نريد. وثانيها: الآخرة خير لك تجتمع عندك أمّتك؛ إذ الأمَّة له كالأولاد، وهو أبٌ لهم، وأمَّته في الجنَّة، فيكونون قرَّة عين له. وثالثها: الآخرة خير لك؛ لأنَّك اشتريتها، أمّا هذه فليست لك. ورابعها: الآخرة خير لك من الأولى؛ لأنَّ في الدُّنيا الكفّار يطعنون فيك، أمّا في الآخرة فأجعل أمَّتك شهداء على الأمم، وأجعلك شهيدًا على الأنبياء، ثمَّ أجعل ذاتي شهيدًا لك. وخامسها: أنَّ خيرات الدُّنيا قليلة مشوبة منقطعة، ولذّات الآخرة كثيرة خالصة دائمة[3].

**نوع اللّام ودلالتها:**

**تبشير النَّبيِّ بالنَّصر وخيرات الدُّنيا والآخرة له ولأمَّته**

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّكَ﴾ لام الاختصاص، أي: خير مختصٌّ بك، وهو شامل لكلِّ ما له تعلّق بنفس النَّبيِّ ﷺ في ذاته وفي دينه

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 493 - 494، وأبو حيان، البحر المحيط: 19/ 496.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 107.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 193، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 169 - 170.

وفي أمَّته، فهذا وعد من اللّه بأن ينشر دين الإسلام، وأن يُمكِّنَ أمَّته من الخيرات الَّتي يأملها النَّبيُّ ﷺ لهم(1). ولا يَرِدُ عليه أنَّ الآخرة خير من الأولى لكلِّ من فاز؛ لأنَّ تحقُّقه فيه ﷺ على وجهٍ أكمل لا يوجد في غيره على هذا الوجه الأعمِّ(2).

### معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي الدّاخلة على المفضَّل عليه، وهي تكون لابتداء الغاية، ولا تخلو من التَّبعيض عند سيبويه(3).

### براعة الطِّباق بين الآخرة والأولى:

عظمة أمر النَّبيِّ في الحال والمآل

في الجمع بين الآخرة والأولى في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ رعاية لمحسِّن معنويٍّ، وهو الطِّباق(4)، ومن لطائفه تصوير ابتداءِ أمر النبي ﷺ في الدنيا حيث دعوتُه وانتهاء أمره، وهو الآخرة، حيث النَّعيم المقيم والهِبات والمكرمات.

### نوع الواو ودلالتها:

الواو في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ لعطف هذه الجملة على جملة القسم كلِّها(5). ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة مستأنفة(6).

### نوع اللّام ودلالتها:

إعطاء النَّبيِّ ورضاه متحقِّقان يقينًا مستقبليًّا

اللّام الدّاخلة على (سوف) في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ هي لام الابتداء المؤكِّدة لمضمون الجملة، والمبتدأ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 397 - 398.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 317.
(3) المرادي، الجنى الداني: 1/ 475.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 377.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 398.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 378.

محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربُّك[1]. ويحتمل أن تكون اللام الواقعة في جواب قسم محذوف، أقسم تعالى على أربعة أشياء: اثنان منفيّان، وهما توديعه وقِلاه، واثنان مثبَتان مؤكّدان، وهما كون الآخرة خيرًا له من الدُّنيا، وأنَّه سوف يُعطيه ما يُرضيه[2].

### بلاغة الجمع بين اللام و(سوف):

الإعطاء والرِّضا حـاصـلان ولـو بعد حين

الجمع بين حرف التَّوكيد اللّام وحرف التَّأخير (سوف) في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾؛ لبيان أنَّ العطاء كائن لا محالة، وإن تأخَّر لما في التَّأخير من المصلحة[3]، وللرَّدِّ على من يكذِّب بمضمون هذا الكلام[4].

### نكتة استعمال سوف دون السّين:

ردُّ استعجال المشركين موتَ النَّبيِّ ﷺ

آثر النظم الكريم استعمال (سوف) فقال تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾، ولم يُقل: (وسيعطيك ربك)؛ لأنَّه ما قرُب أجله، بل سيعيش بعد ذلك زمانًا، ولأنَّ المشركين لمّا قالوا: ودَّعه ربُّه وقلاه، فردَّ اللّه تعالى عليهم بعين تلك اللَّفظة، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، ثمَّ قال المشركون: سوف يموت محمَّد، فردَّ اللّه عليهم ذلك بهذه اللَّفظة فقال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[5].

### نكتة التعبير بالمضارع:

تحقُّق وعد الله في الدُّنيا والآخرة قائمٌ مستمرّ

على احتمال أن يكون الإعطاء والرِّضا حاصلين في الآخرة[6]، فالتَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾ لدلالته بمعونة المقام على تحقُّق الوعد في الاستقبال. ويحتمل أن يكون المراد بالعطاء: ظهور الدّين، وإظهار علوِّه شرقًا وغربًا، وما ادُّخر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 195.
(2) السمين، الدر المصون: 11/ 37.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 195.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 108.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 195.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 487، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 654.

له ﷺ في الآخرة، فقوله: ﴿يُعۡطِيكَ﴾ للاستمرار الشّامل للماضي والحال والاستقبال[1].

### نكتة التَّعبير بالإعطاء دون الإيتاء:

تكريم النَّبيّ بتمليكه ما لا يتصوّره عقل البشر

جاء التّعبير بالإعطاء دون الإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾؛ لأنَّ فيه دليلَ التَّملُّك، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ فإنَّ لهُ منعَ مَنْ شاءَ منهُ كالمالكِ للمِلْكِ، ولأنَّ الإعطاءَ فيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[2]، فيفيد الكلام أنَّه ﷺ يُملَّك ما لا تُحيط به العبارة من الخيرات.

### نكتة حذف المفعول الثّاني:

عطاء الله لنبيّه لا حصر له ولا تصور له

حذف المفعول الثّاني لفعل ﴿يُعۡطِيكَ﴾؛ ليعمَّ كلَّ ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمَّته، فكان مفاد هذه الجملة تعميمَ العطاء[3]. ومن جملة ذلك: النَّصر في الدُّنيا، والثَّواب في الآخرة، والحوض والشفاعة، وما لا يعلمه إلّا اللّه[4].

### لطيفة الخطاب في قوله: ﴿يُعۡطِيكَ﴾:

إكــرام الأتـبـاع إكرام للمتبوع

قيل: ﴿يُعۡطِيكَ﴾، ولم يُقل: (يعطيكم) مع أنَّ هذه السَّعادات حصلت للمؤمنين أيضًا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو المقصود بالخطابِ ابتداءً فما ناله في الدّنيا يناله أتباعه كذلك، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اتّباعَه كفيلٌ بتحقيق العطاء الربانيّ، فإكرام أصحابه وأحبابه فذاك في الحقيقة إكرام له؛ لأنّ اللّه يعلم أنَّه بلغ في الشَّفقة عليهم إلى حيث يفرح بإكرامهم فوق ما يفرح بإكرام نفسه[5].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 319.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 319، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 398.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 95.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 195.

### نكتة تكرار عنوان الرُّبوبيَّة:

تعريف ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافة دون اسم الله العلَم؛ لما يُؤذن به لفظ (ربّ) من الرَّأفة واللُّطف، والإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة (ربّ) إلى ضميره[1].

### نوع الفاء ودلالتها:

رضا النبيّ ﷺ تحقَّق بمجرّدِ الوعد الربّاني

الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾ للتَّعقيب والتَّسبُّب، وقد جيء بها؛ لإفادة كون العطاء عاجل النَّفع، بحيث يحصل به رضا المعطَى عند العطاء، فلا يترقَّب أن يحصل نفعُه بعد تربُّص وانتظار[2]، أو أنَّ الرّضا بالوعدِ ابتداءً لا برؤية العطاء سواء في الدنيا أم في الآخرة، وبه يكون التّعقيب أسرع، وهو الأظهر والأنسب بمقام النبيِّ ﷺ، فإنَّ رضاه هو المتحقِّق ابتداءً، وإن تأخر العطاء.

### نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

جيء بصيغة المضارع في قوله ﷻ: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾؛ لأنَّ الرِّضا أمرٌ حاصل بمجرّد نزول الآية، وهو مستقبلي التجدد والاستمرار، فيحصل الرضا عند الوعد وبعده.

### نكتة حذف متعلّق فعل ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾:

آثر النّظم الكريم حذف متعلّق فعل ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾، فلم يُقل: فترضَى بكذا؛ للمبالغة في تعظيم رضاه بما يُعطيه الحقُّ جلَّ ذكره، فإنَّ الرضا ممتد ومتعلقاته كثيرة لا حصر لها.

### بلاغة استعمال مفردة الرِّضا:

تصوير تمام الطمأنينة وكمال الراحة النفسية واستقرارها

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الرِّضا في قوله ﷻ: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾؛ لدلالته على تمام الطُّمأنينة، وكمال الراحة النفسيّة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 380، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 398.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 398.

واستقرار النّفس بما نالت من حظوة الوعد، قبل رؤية عين الموعود، فأفاد أنَّه لا يحصل له ﷺ بعد عطاء اللّه ما يُكدِّر خاطره، وفي ذلك ما لا يخفى من الإشارة إلى سعة إكرام اللّه تعالى له.

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 6 - 8]

## ❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من الوعد المستقبلي إلـى المـاضي والحاضر

لمّا بيّنتِ الآيات السّابقة وعدَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ، بإرضائه بعطائه، ناسب الانتقال إلى البرهان المشهود بذكر نعم اللّه تعالى عليه، من إيوائه بعد يتمه، وهدايته، وإغنائه بعد فقره، فهو انتقالٌ من الوعد المستقبلي في الإعطاء، إلى الإعطاء الماضي والحاضر.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتِيمٗا﴾: اليُتم في النّاس من جهة الأب، ويقولون لكلِّ منفرد: يتيم، حتَّى قالوا: بيت من الشِّعر يتيم، ودُرَّة يتيمة، تنبيهًا على أنَّه انقطع مادَّتها الَّتي خرجت منها[1]، واليتيمة: الرَّملة المنفردة[2]، ويقال: أيتمت المرأة فهي موتم، أي: صار أولادها أيتامًا، ويتَّمهم اللّه تيتيمًا: جعلَهم أيتامًا[3]. والمراد باليتيم هنا: فاقد الأب[4].

2) ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: (أوي) أصل يدلُّ على التَّجمُّعِ والإشفاقِ[5]، ومن ذلك يقالُ: أَوَى إلى كذا يَأْوِي أُوِيًّا ومَأْوًى، أي: انضمَّ إليه، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيهِ إيواءً، قالَ ﷻ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69][6]. والمأوى: كلُّ مكان يأوي إليه شيء ليلًا أو نهارًا[7]، ويقالُ: أَوَيْتُ لفلانٍ آوي لهُ مَأْوِيَةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (يتم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (يتم).
(3) الجوهري، الصحاح: (يتم).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 96.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (أوي).
(7) الجوهري، الصحاح: (أوي).

وهو أنْ يَرِقَّ لهُ ويرحمَهُ[1]. والمراد بـ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: فجعل لك مأوًى تأوي إليه، ومنزلًا تنزله عند عمِّك أبي طالب[2].

3) ﴿ضَآلًّا﴾: (ضلل) أصلٌ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غيرِ حقِّهِ[3]، وغيابِ الشَّيءِ في أثناءِ شيءٍ بحيثُ لا يتميَّزُ هذا عن ذاكَ[4]، ومن ذلك يقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبَنِ، أي: غابَ، وأضلَلْتُ الميِّتَ: دَفَنْتُهُ، والشَّيءَ: غيَّبْتُهُ، وكأنَّهُ شيءٌ قد ضاعَ[5]، والضَّلالُ في الأصلِ: إمّا العُدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيم، وإمّا الضَّياعُ، والأوَّلُ يقابلُهُ الهدايةُ، والثّاني يقابلُهُ الوُجْدانُ، والضَّلالُ يقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[6]، ويقالُ: ضلَّ الكافرُ إذا غابَ عنِ الحُجَّةِ[7]، والمراد بالضَّلال هنا: الحيرة عمّا يُراد من أمر النُّبوَّة[8].

4) ﴿عَآئِلًا﴾: العَيلة: الفاقة والحاجة[9]، يُقال: عالَ يَعيلُ عَيلة، إذا احتاج، قال ﷻ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً﴾ [التوبة: 28]، أي: فقرًا[10]، ويقال: أعال، إذا كثُر عياله[11]، وعيال الرَّجل: الَّذين يتكفَّل بهم، وعيَّل عيالَه: أهملَهم، وأعال الذِّئبُ والأسد والنَّمر، إذا التمس شيئًا، وعالَني الشَّيءُ: أعوزَني، وعالَ في مَشْيِه، وتعيَّل: تمايل واختال[12]. والمراد بالعائل هنا: الفقير الَّذي لا مال له[13].

5) ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكفايةِ[14]، ومِنْ ذلكَ: الغِنى، وهو يقالُ على أنواعٍ: أحدُها: عدمُ الحاجاتِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّه تعالى، وهو المذكورُ في قولِهِ تعالى:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوي).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 487، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 96.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 96.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عيل).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عيل).
(11) الراغب، المفردات: (عيل).
(12) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عيل).
(13) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 488، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 99.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [الحج: 64]، والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ، والثّالثُ: كثرةُ القُنْيات، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا﴾ [النساء: 6][1]، ويقال: استغنى الرَّجل، أي: أصاب غنًى[2]، وغنيتِ المرأة بزوجها، أي: استغنَتْ، ويُقال: ما يُغني عنك هذا، أي: ما يُجزئ عنك وما ينفعك، وأغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا، إذا كفاني[3]. والمراد بالإغناء هنا: تحصيل ما يكون به الغنى كمال خديجة والغنائم، أو القناعة[4].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّذكير بالنِّعَم إرشادٌ إلى شكرِ المنعم

يذكِّر اللّه تعالى نبيَّه ببعض نِعَمِه عليه، فيقول: ألم يعلمك ربُّك يا محمَّد فاقدَ الأب، فجعل لك مأوًى تأوي إليه، ومنزلًا تنزله، وهو منزل عمِّك أبي طالب، ووجدك غافلًا عن النُّبوَّة والشَّرائع، فهداك إلى النبوة والرِّسالة، ووجدك فقيرًا فأغناك بمال خديجة والقناعة والرِّضا[5].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّة فصل ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا﴾ عمّا قبله:

التّذكير بنعم اللّه مساءة تلحق المشركين واطمئنان يُخالج قلوب المؤمنين

فُصل قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئناف مسوق مساقَ الدَّليل على تحقُّق الوعد في قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾، أي: هو وعد جارٍ على سَنَنِ ما سبق من عناية اللّه بك من مبدأ نشأتك ولُطفه في الشَّدائد باطِّراد، بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصُّدف؛ لأنَّ شأن الصُّدف ألا تتكرَّر، فقد عُلم أنَّ اطِّراد ذلك مرادٌ للّه تعالى. ففيه تذكيرٌ للنبيِّ

(1) الراغب، المفردات: (غني).
(2) الخليل، العين: (غني).
(3) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (غني).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 655، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 99.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 487 - 488.

ﷺ، والتّعريض بالمشركين للرَّدِّ على اتِّهامهم، بأنَّ ما وعده اللّه به محقَّق الوقوع قياسًا على ما ذكره به من ملازمة لُطفه به فيما مضى، وهم لا يجهلون ذلك، عسى أن يُقلعوا عن العناد، ويُسرعوا إلى الإيمان، وإلّا فإنَّ ذلك مَساءة تبقى في نفوسهم، وأشباحُ رُعبٍ تخالج خواطرَهم، ويحصل مع هذا المقصود امتنانٌ على النَّبيِّ ﷺ وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد اللّه تعالى إيّاه[1]، والحاصل: أنَّ الجملة بمنزلة البيان بالنِّسبة إلى بعض العطاء[2].

### غرض الاستفهام وبلاغته:

الاستفهام في قول الحقِّ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: لإنكار النَّفي وتقرير المنفيِّ على أبلغ وجهٍ، كأنَّه قيل: (قد وجدك يتيمًا... إلخ)[3]، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ الآيات[4].

### بلاغة التَّعبير بمفردة الوجدان:

علمُ الله بحال نبيِّه في نشأته اقتضى إيواءه عن يُتمٍ

الوجدان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ مأخوذٌ من الوجود الَّذي بمعنى العلم، والمنصوبان مفعولا (وجد)، والوجود من اللّه، والمعنى: ألم يعلمك اللّه يتيمًا فآوى[5]، ويحتمل أن يكون من (وجد) بمعنى ألفى، وهو الَّذي يتعدَّى إلى مفعول واحد، ومفعوله ضمير المخاطَب، و﴿يَتِيمًا﴾ حال، وكذلك ﴿ضَآلًّا﴾ و﴿عَآئِلًا﴾، والكلام تمثيل لحالة تيسير المنافع للَّذي تعسَّرت عليه بحالة من وجد شخصًا في شدَّة يتطلَّع إلى من يُعينه أو يُغيثه[6]، ويحتمل أن يكون بمعنى: أصابك على صفة، ويراد بالوجود العلم مجازًا بعلاقة اللُّزوم[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 399.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 321.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 170، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 558.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 322.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 196.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 399.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 380.

### غرض تنكير ﴿يَتِيمًا﴾:

دفع منّةِ الخلق وإثبات ذلك للمربّي المنعم

نُكِّر لفظ ﴿يَتِيمًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ للإفراد، أي: ألم يجدك فردًا من أفراد اليتامى، مندرجًا في جملتهم، ولدفع منّة أحدٍ عليه، فلم يقل: (يتيم أبي طالب) ونحو ذلك، فالامتنان للّٰه وحده، فهو الذي هيَّأ الخلقَ لأحبابه.

### نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾؛ لإفادة سببيَّة ما قبلها لما بعدها، فاليُتم سبب للإيواء، فالإيواء نعمة جسيمة، وذكرُ اليتم تمهيدٌ له وإن لم يكن نعمة[1]، وإفادة التّعقيب وسرعة الإيواء.

### بلاغة التَّعبير بمفردةِ الإيواء:

الإيواء مجازٌ عن كفالة الله تعالى لنبيِّه وكفايته حاجتَه

الإيواء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ مصدر أوى إلى البيت، إذا رجع إليه، فالإيواء: الإرجاع إلى المسكن، فهمزته الأولى همزة التعدية، أي: جعله آويًا، وقد أُطلق الإيواء على الكفالة وكفاية الحاجة مجازًا أو استعارة، فالمعنى: أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة، وكنت على تربية كاملة مع أنَّ شأن الأيتام أن ينشؤوا على نقائص؛ لأنَّهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم وتعهُّد أحوالهم الخُلُقيَّة، فكان تكوين نفسه الزَّكيَّة على الكمال خيرًا من تربية الأبوين[2].

### نكتة التّعبير بصيغة الماضي:

جيء بصيغة الماضي في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ الإيواء قد مضى وتحقَّق وثبت، وأنَّ منّةَ الحقِّ سبحانه في حقِّ نبيِّه لا يعتريها شكٌّ أو ريب.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 322.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 399.

### نكتة المجاز بحذف المفعول:

حُذفت مفاعيل ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾؛ لتوسيع المعاني التي يحتملها النظم الكريم، فإمّا أن يكون حذفًا للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها، والتَّقدير: (فآواك، فهداك، فأغناك)[1].

أو على تقدير: (فآوى بك اليتيم)، (وهدى بك كل حائر ضالٍّ)، و(أغنى بك كل محتاج ذي عيال)، وهذا من تمام المناسبة بين هذه الآيات وبين الآية قبلها: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾، فيُرضيه اللّه تعالى بخاصية الرحمة النّافذة في هذه الأصناف التي لابسها محمد ﷺ بنفسه.

### دلالة العطفِ بالواو:

تـوالي النِّعـم دليـل العنـاية وبرهان الرعاية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ للعطف، والجملة عطف على ما يقتضيه الإنكارُ السّابق أو على المضارع المنفيِّ بـ (لم)، داخلٌ في حكمه، كأنَّه قيل: (ألم يجدك ضالًا فهدى؟!)[2]، فهو عطف إنشاء النّعم على نبيِّه عليه السلام.

### دلالة التَّعبير بمفردة الضَّلال:

الضّلال في حقِّ النبي محمولٌ على الابتعاد عن الطّريق لعدم وجود الإرشاد

الضَّلال هو الحيرة المانعة للوصول إلى المقصود، سواء سلك السّائر طريقًا آخر يبلُغ إلى غير المقصود أم وقف حائرًا لا يعرف أيَّ طريق يسلك، قال الراغب: "ويقال الضَّلالُ لكلّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرا كان أو كثيرا"[3]، والمقصود في قوله تعالى هنا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾؛ ليس العدول المدفوع بسفالة النفس، بل هو الضلال على وجهه اللغوي، لأنَّ المعنى في الآية: أنَّك كنت في حَيْرةٍ عامّة، في حيرة من حال أهل الشِّرك من قومك، فأراكَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 400.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 170 - 171، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 558.

(3) الراغب، المفردات: (ضل).

اللّه غيرَ محمود، وكرَّهه إليك، وفي حيرة في عدم درايتك بأيِّ الحقّ تتبّع، وفي حيرة في سُبُل الوصول إلى الواحد الأحد، وليس المراد بالضَّلال هنا اتِّباعَ الباطل؛ فإنَّ الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النُّبوَّة باتِّفاق العلماء[1].

ويجوز أن يكون الضَّلال هنا مستعارًا من (ضلَّ في طريقه)، إذا سلك طريقًا غير موصلة لمقصده؛ لعدم ما يوصِلُه للعلوم النّافعة من طريق الاكتساب[2]، أو المعنى: لا تعلم الشَّرائع، فأطلق اللّازم - وهو الضَّلال - على الملزوم، والمسبَّب على السَّبب، وهو عدم العلم[3].

وقال القرطبي: "وقيل: ووجدك محبا للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 95] أي في محبتك"[4]، وحبّه للهداية وتشوّقه إليها مع عدم إدراكها استحقّ عليه المنة الربانية بالهداية المطلقة، لئلا يقع في الحيرة والضلال.

### نكتة عدم تقييد الضّلال:

أُطلق لفظ ﴿ضَآلّٗا﴾ ولم يُقيّد؛ فلم يقل: ضالًّا عن الحقِّ، أو ضالًّا عن الدين؛ لأنَّ المراد حمل الضلالة على معناها اللغوي وهو الحيرة عن إدراك المطلوب، والجمهور من العلماء على أنه ﷺ ما كفر باللّه لحظة واحدة[5].

### نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لبيان سببيَّة ما قبلها لما بعدها، فوجدانه ضالًّا سببٌ لهدايته، فالهداية نعمة جليلة، والضَّلال تمهيد لها[6]، وأفادت الفاء سرعة الاهتداء وسرعة الاستجابة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 400.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 492.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 109.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 97.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 197.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 322.

### بلاغة التَّعبير بالهداية:

الهداية بداية طريق الإحسان وتحصيل منافع الامتنان

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الهداية في قوله ﷻ: ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ للدّلالة على الإرشاد إلى الطَّريق الموصل إلى النُّبوَّة والشَّرائع، وإلى إخراجه ﷺ من الحيرة في أمر قومه وعبادتهم للأصنام، وما الَّذي ينبغي أن يفعله لإنقاذهم من ذلك، والهداية من أعظم النّعم التي كانت لبشرٍ، فذكرها للامتنان، ولبيان بداية طريق الإحسان.

### براعة الطِّباق بين الضَّلال والهداية:

هداية الرسول امتنان يُحيط بالأمّة كلّها

في الجمع بين الضَّلال والهداية في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ رعاية لمحسِّن معنويٍّ، وهو الطِّباق، ومن لطائفه في هذا الموضع: ذكر حالين متغايرين للنَّبيِّ ﷺ، والضِّدُّ يُظهر حُسْنَهُ الضِّدُّ، ولبيان أثر المنعم سبحانه على نبيِّه، وأنَّه لولا اللّه تعالى ما اهتدى رسول هذه الأمة، فهو امتنانٌ على الأمةِ بكاملها.

### دلالة تكرار فعل (وجدك):

استقلال كلّ نعمة من النِّعم المقرَّر بها

كرِّر فعل (وجد) في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾، ولم يُقل: (وعائلًا فأغنى)؛ لما يفيده تكرار الفعل من زيادة التَّنبيه على استقلال كلِّ نعمة من النِّعم المقرَّر بها، وبيان أنَّها ليست تابعة لغيرها.

### غرض تنكير ﴿عَآئِلٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿عَآئِلٗا﴾ في قوله تعالى شأنه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾؛ للدّلالة على الإفراد، أي: ووجدك فردًا من أفراد العائلين ومندرجًا في زمرتهم.

### بلاغة التَّعبير بمفردة الإغناء:

تحقيق الاستغناء عن النّاس كان بالمال وبغنى النّفس معًا

جاء التّعبير بمفردة الإغناء في قوله تعالى: ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾؛ للدلالة على إعطاء اللّه نبيَّه ما يدفع عنه الفقر والحاجة؛ ليفرُغ باله لشؤون

النُّبوَّة وهداية الخلق؛ فإنَّ الإغناء فيه تحصيل الاستغناء عن البشر، والالتجاء إلى اللّه تعالى في طلب الحاجات، وليس الغنى هو كثرة المال مع بقائه، وإنما هو تحصيل الاستغناء سواء وجد المال أم عُدِم، والآية صريحة في تحقيق الأمرين، بدليل مقابلة الإغناء للفقر، ولو كان المقصود من الغنى غنى النّفس فقط، لم يكن هناك داعٍ لذكره في مقابلة العيلة الدّالة على عدم وجود المال؛ لاستواء الأمرين في السّابق واللاحق.

**بلاغة الطِّباق بين ﴿عَآئِلًا﴾ و﴿فَأَغۡنَىٰ﴾:**

بيان أنَّ الغنى نعمةٌ عظيمة ومنّة جليلة

في الجمع بين العيل والغنى في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ رعاية لمحسِّن معنويٍّ هو الطِّباق، ومن لطائفه هنا: ذكر حالين متغايرين للنَّبيِّ ﷺ، وهما حالة الفقر والحاجة السّابقة، وحالة الغنى اللّاحقة، وباستحضارهما تعظُم المنَّة.

**غرض الامتنان بالنِّعم السّابقة:**

نعم الله لا تفارق نبيَّه في كلِّ حينٍ؛ الواقعُ منها والمتحقّق بعد حين

عدَّد اللّه تعالى على نبيِّه نِعَمَه في قوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾، وهي لم تفارقه منذ نشأته؛ تقويةً لما أراد به، ليقيس المترقَّب من فضل اللّه على ما سلف منه، لئلّا يتوقَّع إلّا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره، ولا يقلَّ صبره[1].

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

**العيلة والفقر:**

الفقر أعمُّ من العيلة؛ إذ العيلة هي الفقر والحاجة اللذان يكونان غالبًا بسبب كثرة العيال، والفقرُ مطلق العَوَزِ والاحتياج، فكلُّ عائلٍ فقير، وليس كلُّ فقيرٍ عائلًا.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 767.

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 9 - 11]

## ❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مقابلة إحسان الخالق بالإحسان إلى الخلق

لمّا ذكَّر اللّه نبيَّه بما أنعم عليه من النِّعم الثَّلاث المذكورة؛ ناسب الانتقال إلى وصيّته بما يفعل في ثلاثٍ مقابلةٍ لها، فلمّا بدأ بما كان بدايةً له، ثنَّى بما هو نهاية له من حيث كونه يصير رأس الخلق، فيصير محطَّ الرِّجال في كلِّ سؤال من علم ومال.

ولمّا ذكر له تفصيل ما يفعل في اليتيم والفقير والجاهل، أمرَهُ بما يفعل في العلم الَّذي آتاه إيّاه إعلامًا بأنَّه الآلة الَّتي يستعملها في الأمرين الماضيين وغيرهما؛ لأنَّها أشرف أحوال الإنسان[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقۡهَرۡ﴾: (قهر) أصلٌ يدلُّ على غلَبةٍ وعلوٍّ وتذليلٍ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: قهرَهُ قَهْرًا، أي: غلبَهُ[2]، وأخذَهُ مِنْ غيرِ رضاهُ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد: 16]، والقهّارُ هو الغالبُ، وأقهرَهُ، إذا سلَّطَ عليهِ مَنْ يقهرُهُ[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: كن كالمقهور لهما[4]. ومعنى ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾: فلا تتسلَّطْ عليه بالظُّلم، ادفع إليه حقَّه، واذكر يُتمك، أو فلا تحتقرْ[5].

2) ﴿تَنۡهَرۡ﴾: (نهر) أصل يدلُّ على تفتُّح شيءٍ أو فتحه، ومن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 110 - 111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (قهر).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (قهر).
(4) الجوهري، الصحاح: (قهر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 100.

ذلك يقال: أنهرت الدم، أي: فتحته وأرسلته، وسُمّيَ النَّهر؛ لأنَّه ينهر الأرض، أي: يشقُّها[1]، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، والنَّهار: الوقت الَّذي ينتشر فيه الضَّوء، والنَّهر والانتهار: الزَّجر بمغالظة[2]، يقال: نهره وانتهره، أي: استقبله بكلام يزجره به[3]. ومعنى ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾: فلا تُغلظ له بالقول، ولا تزجره[4]، ولكن ردَّه ببذل يسير، أو ردٍّ جميل، واذكر فقرَك[5].

3) ﴿فَحَدِّثْ﴾: (حدث) أصل يدلُّ على كون الشَّيء بعد أن لم يكن، ومن ذلك يقال: حدث أمر، أي: وُجد بعد أن لم يكن، والإحداث: الإيجاد[6]، وحدثان الدَّهر وحوادثه: نوَبُهُ وما يحدث منه[7]، والحديث: هو الخبر قليله وكثيره، واستحدث خبرًا: وجد خبرًا جديدًا، ورجل حَدَثٌ، أي: شابٌّ[8]، وكلُّ كلام يبلغ الإنسانَ من جهة السَّمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: 3]، وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1][9]. ومعنى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: انشُر ما أنعم الله عليك بالشُّكر والثَّناء[10].

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

وجـوب رعـاية حــقِّ اليـتيـم والسّائل وشكر نِعَمِ الله

يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمَّد ﷺ: فأمّا اليتيم فلا تظلمه فتذهب بحقِّه؛ استضعافًا منك له، وأمّا من سألك من ذي حاجة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (نهر).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: (نهر).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 320.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 655، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 101.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حدث).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حدث).
(8) الرازي، مختار الصحاح: (حدث).
(9) الراغب، المفردات: (حدث).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 102.

فلا تزجُره، ولكنْ أطْعِمْهُ واقضِ له حاجته، وأمّا بنعمة ربِّك فأخبِرْ بها، واشكُرْه عليها(1).

### ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

#### نوع الفاءين و(أمّا) ودلالتهما:

عند الإقرار بالنِّعم وإثبات المِنَن يحسُن بيانُ ما يترتَّب عليها من الشكر

الفاء الأولى في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ فصيحة، و(أمّا) تفيد شرطًا مقدَّرًا تقديره: مهما يكن من شيء، فكان مفادها مشعرًا بشرطٍ آخر مقدَّر هو الَّذي اجتُلبت لأجله فاءُ الفصيحة، وتقديرُ الكلام: إذ كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربِّك، وبيَّنَ له الشُّكر بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ الآيات، وقد جُعل الشُّكر هنا مناسبًا للنِّعمة المشكور عليها، وإنَّما اعتُبر تقدير: إذا أردت الشُّكر؛ لأنَّ شكر النِّعمة تنساق إليه النُّفوس بدافع المروءة في عُرف النّاس، وصُدِّرَ الكلام بـ (أمّا) التَّفصيليَّة؛ لأنَّه تفصيل لمجمل الشُّكر على النِّعمة. ولمّا كانت (أمّا) بمعنى: ومهما يكن شيء؛ قُرن جوابها بالفاء في ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾(2). ومثل ذلك يقال في ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

#### توجيه تخصيص اليتيم بالذِّكر:

من ذاق الإكرام بعد اليُتم أحسن للأيتام حقَّ الإحسان

خصَّ النّظم الكريم اليتيم بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾؛ لمناسبة ذكر نعمة إيوائه ﷺ عندما كان يتيمًا، أي: فكما آواك ربُّك وحفظك من عوارض النَّقص المعتاد لليُتم، فكن أنت مكرمًا للأيتام رفيقًا بهم، كما كان ذلك لك، مع التّعريض بالمشركين؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام(3).

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 488 - 489.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 401.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 324، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 401 - 402.

### نكتة تعريف لفظ اليتيم:

تعريف لفظ اليتيم في قوله جلَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ للجنس[1]؛ إذ المراد عدم قهر أيِّ يتيم من الأيتام، بقطع النّظر عن جنسه ولونه؛ فالإحسانُ لجميعهم واجب.

### غرض تقديم لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ على الفعل:

قُدِّم لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ وهو مفعول لفعل ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾؛ للاهتمام بشأنه، ولهذا القصد لم يُؤتَ به مرفوعًا، وقد حصل مع ذلك كونُ جواب (أمّا) مفصولًا عن (أمّا) بشيء؛ كراهيةَ موالاة فاء الجواب لحرف الشَّرط. ويظهر أنَّهم ما التزموا الفصلَ بين (أمّا) وجوابها بتقديم شيء من علائق الجواب إلّا لإرادة الاهتمام بالمقدَّم؛ لأنَّ موقع (أمّا) لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتمامًا يرتكز في بعض أجزاء الكلام، فاجتلابُ (أمّا) في الكلام أثرٌ للاهتمام، وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلّقات الجملة، فذلك هو الَّذي يعتنون بتقديمه[2].

**الاهتمام بالإحسان لليتيم نظمًا كالاهتمام به أمرًا**

### غرضُ النَّهي ودلالته:

النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ للتحريم؛ لأنَّه الأصل، ولا صارف عنه، أي: لا تغلبه على شيء؛ فإنَّما أذقتك اليُتم تأديبًا بأحسن الآداب لتعرف ضعف اليتيم وذلَّه، وفوق ذلك كفالته، وهي خلافة عن اللّٰه؛ لأنَّ اليتيم لا كافل له إلّا اللّٰه[3]. وهذا النَّهي وإن كان موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ فهو شامل لأمَّته أيضًا. ويُستفاد من النَّهي عن القهر النَّهيُ عمّا هو أشدُّ منهما في الأذى، كالشَّتم والضَّرب والاستيلاء على المال وتركه محتاجًا[4].

**الإحسان إلى جميع الأيتام واجبٌ في عنق الناس**

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 110.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 401.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 110.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 403.

### بلاغة اختيار مفردة القهر:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة القهر في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وذلك لما تشتمل عليه هذه المفردة من دلالات منع الظلم والاحتقار والازدراء والانتقاص وإهمال اليتامى، ونكتة الاختيار تكمن في كون هذه المفردة دالّة على معنًى دقيق في كلام العرب، وهو قولهم: "قَهَرْنا اللحمَ نَقْهَرُه: وذَلِكَ أول ما تَأْخُذ فيه النارُ فيسيل ماؤُهُ"[1]، وقهر اليتيم يُشبه ذلك، فأول ما يلقى اليتيم من الإذلال أو الإهانة فإنّه يُقهر فيسيل دمعه، فأول القهر ممنوعٌ فمن باب أولى ما هو أعظم منه شأنًا، فدلّت المفردة على تحريم بدايات القهر ونهاياته الصغرى والكبرى.

كلُّ ما من شأنه إلحاق الأذى باليتيم فهو ممنوعٌ محرّم

### دلالة واو العطف:

الواو في قوله تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ لعطف هذه الجملة على الجملة السّابقة، فتفيد نهيَ النَّبيِّ ﷺ عن أمرٍ آخر، وهو زجر السّائل.

### غرض تقديم لفظ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ على الفعل:

قُدِّم لفظ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ على النّهي ﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾؛ اهتماماً به؛ إشارةً إلى أنَّ جبرَ الخواطر واستئلافَ الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدّين[2].

### نكتة تعريف لفظ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾:

تعريف ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ للجنس، فيعمُّ كلَّ سائل عمّا يُسأل النَّبيُّ ﷺ عن مثله، فلا يختصُّ السّائل بسائل العطاء، بل يشمل كلَّ سائل، كالسّائل عن العلم[3].

لفظ السائل يعمُّ سائل العلم والمال

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قهر).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 402.

نهر السّائل ممنوع شرعًا وممجوجٌ ذوقًا

### دلالةُ النَّهي في ﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾:

النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ للتحريم؛ لأنَّه الأصل، ولا صارف عنه، والمعنى: لا تزجره؛ فقد علمت مضاضة الفقر والحاجة، بل أعطِه ولو قليلًا، أو ردَّه ردًّا جميلًا، وكذا السّائل في العلم[1]. ويستفاد من النَّهي عن النَّهر النَّهيُ عمّا هو أشدُّ منهما في الأذى، كالشَّتم والضَّرب، وليس من النَّهر نهيُ السّائل عن مخالفة آداب السُّؤال في الإسلام[2].

### دلالة واو العطف:

الواو في قوله تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ لعطف هذه الجملة على الجملة السّابقة، فتفيد أمرَ النَّبيِّ ﷺ بأمر جديد، وهو التَّحديث بنعمة اللّه تعالى.

### نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ سببية، فالأمر بفعل (حدِّث) كان بسبب النّعمة التي أولاها اللّه لنبيِّه ﷺ، فإنَّ إيجاد النّعمة علّة التحديث.

### بلاغة إفراد لفظ النِّعمة دون جمعها:

النعمة تشمل جميع النعم من جميع الاعتبارات وتحتمل نعمة الدين خاصة

أُفرِد لفظ النِّعمة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مع كثرة نِعَمه سبحانه؛ لأنَّ المراد بها الجنس[3]، فتشمل جميع النِّعم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوعٍ من أنواعها[4]. ويدخل تحتها تعليم القرآن والشَّرائع[5]. وبهذا العموم تكون الجملة تذييلًا جامعًا[6]، كما أنَّ في الإفرادِ لطيفةً وهو أنَّ التّحديث هو لكلِّ نعمةٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 403.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 325.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 559.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 655.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 403.

باعتباراتها المختلفة والمتعدِّدة، والأمر بالتحديث بالنّعمة الواحد أمرٌ بالتحديث بكلِّ النّعم، فيكون الإفرادُ أبلغَ من الجمعِ؛ لأنَّه شمل جميع النّعم استقصاءً، ومن جميع الاعتبارات، ويحتمل أن يكون المراد بالنّعمة نعمة الدين خاصّة.

### نوعُ الإضافة ودلالتها:

نعمُ الله منه ومقتضاها إيصال الشكر إليه

إضافة النعمة للرب في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ لاميَّة، والمعنى: بنعمة لربِّك؛ وتحتمل الإضافة أن تكون بمعنى (من)، أي: بنعمةٍ من ربِّك، فالنِّعم كلُّها من الله تعالى وإن جرى بعضها على يد العباد، ففي الإضافة معنى المصدريّة والمآل المقتضي الشكر.

### بلاغة التَّعبير بعُنوان الرُّبوبيَّة:

تشريف العبد بالإضافة إلى الرَّبِّ دائمٌ راسخ

أوثر عنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميره ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾؛ لدلالة لفظ (الرَّبِّ) على الإحسان، وللتَّوصُّل بالإضافة إلى تشريفه ﷺ، أي: بنعمة الَّذي أحسن إليك بإصلاح جميع ما يهمُّك من العلم وغيره[1].

### غرض الأمر ودلالته:

التَّحديث بنعمة الله واجب وهو أوجب لمن عظمت عنده النعمة

الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَحَدِّثْ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وأصل الأمر للوجوب، فيُعلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ واجبٌ عليه التَّحديث بنعمة الله، وأمّا مخاطبة أمَّته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمَّة لنبيِّها فيما فُرض عليه ما لم يدلَّ دليل على خلاف ذلك[2].

### نكتة اختيار التَّحديث دون الإخبار:

أوثر ﴿فَحَدِّثْ﴾ على (فخبِّر)؛ ليكون ذلك عنده حديثًا لا ينساه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 403.

ويوجده ساعةً بعد ساعة[1]، فهو ليس خبرًا يُذكر، بل حديث يؤثر، ومنّة تتكرّر، وفضل يُشكر.

### سرُّ تأخير حقِّ الله عن حقِّ اليتيم والسّائل:

غناه ﷺ عن شكر عبيده واحتياج اليتيم والسّائل لعطاء العباد

لّما تقدَّم ذكرُ الامتنان عليه ﷺ بذكر الثَّلاثة، أمره اللّه بثلاثة: فذكر اليتيم أوَّلًا، وهي البداية، ثمَّ ذكر السّائل ثانيًا، وكان أشرف ما امتنَّ به عليه من النعم الهداية، فترقَّى من هذين إلى الأشرف، وجعله مقطع السّورة[2]. وأيضًا: كأنَّه تعالى يقول: أنا غنيٌّ، وهما محتاجان، وتقديمُ المحتاج أولى. وقد وضع في حظِّهما الفعلَ، ورضيَ لنفسه بالقول، ولأنَّ المقصود من جميع الطاعات استغراقُ القلب في ذكر اللّه، فخُتمت به[3].

### بلاغة بديعِ اللَّفِّ والنَّشر:

تعدُّد احتمالات النَّشر ترتُّبًا وغير مرتّب

قوبلت النِّعم الثَّلاث المتفرِّع عليها هذا التَّفصيل بثلاثة أعمال تقابلها، فيجوز أن يكون هذا التَّفصيل على طريقة اللَّفِّ والنَّشر المرتَّب، وهو جارٍ على تفسير السّائل بالسّائل عن الدّين والهدى، فقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ لا محالة، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّ الضَّلال يستدعي السُّؤال عن الطَّريق، فالضّالُّ معتبَر من صنف السّائلين.

فإن فُسِّرَ السّائل بسائلٍ معروفٍ كان مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾، وكان من النَّشر غير المرتب، أي: المخالف لترتيب اللَّفِّ، وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾؛ فإنَّ الإغناء نعمة، فأمرَه اللّه أن يُظهر نعمة اللّه

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 491.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 498.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 491.

عليه بالحديث عنها وإعلان شكرها، وليس المراد بنعمة ربِّك نعمة خاصَّة، وإنَّما أُريد الجنس، فإن جُعل قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ على طريقة اللَّفِّ والنَّشر غير المرتَّب كان قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ على طريقة اللَّفِّ والنَّشر غير المرتب أيضًا، وكان المراد بنعمة ربِّه نعمة الهداية إلى الدّين الحقِّ[1].

## الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### القهر والغلبة:

القهر مختصّ بالإذلال والغلبة أعمّ

القهر أخص من الغلبة؛ لأنَّه غلبة مع إذلال، وهو المناسب هنا، وتكون هذه المعاني بالفعل، وتكون بالقول، وتكون بالإشارة مثل عبوس الوجه، فالقهر المنهيُّ عنه هو القهر الَّذي لا يعامل به غير اليتيم في مثل ذلك، فأمّا القهر لأجل الاستصلاح كضرب التَّأديب فهو من حقوق التَّربية، قال تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ [البقرة: 220][2].

### النَّهر والزَّجر:

النَّهر أخصُّ من الزَّجر؛ لأنَّه زَجر بالقول، وقد عبِّر به؛ لأنَّ المراد النَّهي عن الزَّجر بالقول، كأن يقول له: إليك عنّي، والزَّجر بالفعل كالضَّرب والشَّتم ممنوع من باب أولى[3].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 490، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 401 - 403.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 402.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 403.

# سُورَةُ الشَّرح

# سُورَةُ الشَّرح

## التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّي والمدنيّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة اتّفاق الجمهور على مكّيّتها[1]، وكذلك قال القرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3]، وأمّا عدد آياتها فهي ثَماني آيات في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختِلاف[4].

### ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتيّ الضّحى والتّين

هذه السّورة هي الرّابعة والتّسعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ الضّحى والتّين، وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فعُدّت السّورة الثّانية عشرة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الضّحى وقبل سورة العصر[5].

### فضائل السّورة:

هـذه السّـورة من قصار سور المفصّل

هذه السّورة من قصار سور المفصّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

### اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سـورةُ الـشّـرح اشتـهـرت بهـذا الاسم

وردت تسميتها بسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ في صحيح البخاري، وعند

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 496.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 104.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 278.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 558، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 407، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 160.
(6) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

التّرمذيّ[1]، وسمّيت في بعض التّفاسير سورة (الشّرح)، ومثله في بعض المصاحف المشرقيّة تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾، وفي بعض التّفاسير تسميتها (سورة الانشراح)[2].

وقد ربط البقاعيّ بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: تفصيل ما في آخر الضّحى من النّعمة، وبيان أنّ المراد بالتّحدّث بها: هو شكرها بالنّصب في عبادة اللّه، والرّغبة إليه بتذكّر إحسانه، وعظيم رحمته بوصف الرّبوبيّة، وعلى ذلك دلّ اسمها الشّرح"[3].

والحقّ أنّ تسميتها بسورة الشّرح ظاهر الارتباط بمحورها الذي قامت عليه، فالسّورة متمّمة للنّعم التّي بدأت بذكرها سورة الضّحى على نبيّنا محمّدٍ ﷺ، فلئن كانت النّعم الثّلاث التي ذكرتها سورة الضّحى تتعلّق بالجوانب النّفسيّة والاجتماعيّة والرّوحيّة للنّبيّ ﷺ.

### المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على تذكير الله تعالى نبيّه بنعم الله عليه

المحور الذي قامت عليه هذه السّورة مرتبطٌ بالسّورة السّابقة لها في تعداد نعم اللّه تعالى على نبيّه وما أكرمه به من النّعم المادّيّة والمعنويّة، ثمّ ما يجب عليه بعد ذلك من أداء شكرها.

**أوّلاً:** محور هذه السّورة قائمٌ على دعوة النّبيّ ﷺ على الثّبات في دعوته، بما شرح اللّه به صدره لتحمّل مشاقّها، وبما أراحه منه من حمل همّ ذنوبه أو ذنوب النّاس جميعًا، وبما رفع به مكانته بين الأمم والأنبياء جميعًا.

(1) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة (ألم نشرح): 4/ 1892، و التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ (ألم نشرح): 5/ 442.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 407.

(3) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 207 - 208.

**ثانيًا:** السّورة هي تكريمٌ وتثبيتٌ للنّبيّ ﷺ والدّعاة والمصلحين من بعده للصّبر والثّبات على الطّريق القويم؛ لذلك بشّرت السّورة الكريمة النّبيّ ﷺ والدّعاة والمصلحين من بعده بأنّ العسر الذي يلاقونه يحوي بداخله أنواعًا كثيرة من اليسر.

### موضوعات السّورة وخصائصها:

قامت هذه السّورة على ركائز أربع هي:

مَدارُ السّورة يدور حول بيان طبيعة الإنسان وأسباب إعراضه عن الحقّ

**أوّلًا:** تعداد ثلاث نعم أنعم اللّه بها على نبيّه المصطفى ﷺ وهي شرح صدره بالحكمة والإيمان، وتطهيره من الذّنوب والأوزار، ورفع منزلته ومقامه وقدره في الدنيا والآخرة، وذلك بقصد تسلية الرّسول ﷺ وإيناسه.

**ثانيًا:** وعد اللّه له بتيسير المُعْسِر، وتفريج الكرب عليه، وإزالة المحن والشدائد، وتبشيره بقرب النّصر على الأعداء: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾.

**ثالثًا:** أمره بمواظبة العبادة والتفرغ لها بعد القيام بتبليغ الرسالة؛ شكرًا للّه على ما أنعم عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾.

**رابعًا:** أمره بعد كل شيء بالتّوكّل على اللّه وحده، والرّغبة فيما عنده: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾[1].

### الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت سورة الشّرح بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

**أوّلًا:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، حيث لم يشاركها في مطلعها بالبدء بالاستفهام سوى خمس سور أخرى هي: الإنسان، النّبأ، الغاشية، الفيل، والماعون، ولا شكّ أنّ هذه الأسرة من السّور المبتدأة بالقسم قد جمعتها روابط موضوعيّة وأسلوبيّة كثيرة.

**ثانيًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها كانت من أوّلها لآخرها

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 292.

خطابًا موجّهًا للنّبيّ ﷺ، وقد شاركها هذه الميزة سورتا الضّحى والكوثر. حيث يكاد أن تُعدّ هذه السّور الثّلاث خاصّة بالنّبيّ ﷺ.

### الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها

**أوّلًا:** تميّزت السّورة الكريمة ببروز أسلوب التّقديم والتّأخير جليًّا في آياتها في أشباه الجمل.

**ثانيًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنيّة صرفيّة وصيغًا انفردت بها عن غيرها من السّور مثل: ﴿نَشْرَحْ﴾، ﴿وَوَضَعْنَا﴾، ﴿وِزْرَكَ﴾، ﴿أَنقَضَ﴾، ﴿ظَهْرَكَ﴾، ﴿ذِكْرَكَ﴾، ﴿فَرَغْتَ﴾، ﴿فَٱنصَبْ﴾، ﴿فَٱرْغَب﴾.

### مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الشّرح متّصلة تمامًا بسورة الضّحى مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة شديدة الاتّصال بسورة الضّحى ولا تحتاج إلى مزيد تكلّفٍ في الرّبط بينهما، فالسّورتان متّصلتان نزولًا وموضوعًا وأسلوبًا، فمن حيث التّرتيب النّزوليّ والمصحفيّ فالشّرح نزلت ورُتّبت بعد الضّحى.

ومن حيث الموضوع فكلتاهما في تعداد نعم اللّه تعالى على نبيّه، ثمّ ما ينبغي أن يؤدّيه من الشّكر إزاء هذه النّعم؛ لذا قال الغرناطيّ: "معنى هذه السّورة من معنى السّورة التي قبلها، وحاصل السّورتين تعداد نعمه عليه سبحانه"[1]. فالنّعم الثّلاث في سورة الضّحى شملت الجوانب والتّحدّيات النّفسيّة والاجتماعيّة والرّوحيّة التي واجهها النّبيّ ﷺ قبل نبوّته، وهذه السّورة شملت التّحدّيات الثّلاثة الدّعويّة التي واجهته في دعوته وما أكرمه اللّه به، وكلتا السّورتيْن طالبته بما ينسجم مع التّحدّيات التي تواجهه.

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 368.

وأمّا أسلوبًا فالسّورتان قد اشتركتا بوجود الاستفهام، وكلتاهما اشتركتا بكون ضمائرهما في الخطاب تعودان على النّبيّ ﷺ، واشتركتا باشتمال كلّ منهما على ثلاث نعم، واشتركتا بأمره ونهيه بما يجب إزاء هذه النّعم.

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: 1 - 4]

## ❁ مناسبة مطلع السورة لما قبلها:

الانـتـقـال من ذكر النعم إلى تفصيلها وبيانها بجمع صفات الكمال والجمال

لمّا أُمر ﷺ آخر الضُّحى بالتَّحديث بنعمة اللّه الَّتي أنعمها عليه؛ ناسبَ تفصيلَ أهمِّها في هذه السّورة، ولمّا كانت سَعَةُ الصَّدر بالعلم والحكمة هي الجمال باجتماع المحاسن، وكان ذلك مع حمل أعظم النَّكد، وكان الجمال بجمع المحاسن لا يكمُل إلّا إذا جُمع إلى الجمال الجلالُ بانتفاء الرَّذائل، بيَّن تعالى ذلك، فقال: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾، ولمّا شرَّفه في نفسه بالكمال الجامع للجلال إلى الجلال، وكان ذلك لا يصفو إلّا مع الشَّرف عند النّاس؛ قال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَشۡرَحۡ﴾: (شرح) أصل يدلُّ على الفتح والبيان، ومن ذلك يقال: شرحت الكلام، إذا بيَّنته، واشتقاقه من تشريح اللَّحم[2]، وكلُّ سمين من اللَّحم ممتدٍّ فهو شريحة[3]، والشَّرح: السَّعة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: 22]، أي: وسَّعه فاتَّسع لقول الخير[4]، وكلُّ ما فُتح من الجواهر فقد شُرح أيضًا[5].

2) ﴿صَدۡرَكَ﴾: (صدر) أصل يدلُّ على جارحة الإنسان وغيره[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 115 - 120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرح).
(3) الرازي، مختار الصحاح: (شرح).
(4) الخليل، العين: (شرح).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (شرح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدر).

والصَّدر: أعلى مقدَّم كلِّ شيء وأوَّله، حتَّى إنَّهم ليقولون: صدر النَّهار واللَّيل، وصدر الشِّتاء والصَّيف[1]، وجمع الصَّدر: صُدور، قال الله ﷻ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: 10][2]، والصِّدار: ثوب يغطِّي الرَّأس والصَّدر[3]، ومعنى شرح الصَّدر: فتحه وفسحه وتليينه[4].

3) ﴿وَوَضَعۡنَا﴾: (وضع) أصل يدلُّ على الخفض للشَّيءِ وحطِّه[5]، ومن ذلك يقال: وضعت المرأة ولدها، والدّابَّة تضع في سيرها، وهو سير دون سير[6]، والموضع: مكان الوضع، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46]، ويقال: وضعت الحِمل فهو موضوع، قال تعالى: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤﴾ [الغاشية: 14][7]، والوضيعة: واحدة الوضائع، وهي أثقال القوم، والمواضعة: أن تواضع أخاك أمرًا فتناظره فيه، والتَّواضع: التَّذلُّل[8].

ومعنى ﴿وَوَضَعۡنَا﴾: حططنا[9].

4) ﴿وِزۡرَكَ﴾: (وزر) أصل يدل على الثقل في الشيء، والوِزر: حمل الرَّجل إذا بسط ثوبه، فجعل فيه المتاع وحمله[10]، وسُمِّيَ الذَّنب وِزرًا؛ تشبيهًا بالحِمل في ثقله؛ لأنَّه يُثقل صاحبه[11]، والوزر أيضًا: السَّلاح، والوزير المُوازر؛ لأنَّه يحمل عنه وِزره، أي: ثقله[12]، وجمع الوِزر: أوزار، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 31]، أي: أثقالَهم، ويقال: وضعت الحربُ أوزارها، إذا وضع القوم السلاح عنهم[13]. ومعنى ﴿وِزۡرَكَ﴾: ذنبك، أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهليَّة؛ لأنَّه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عَبَدَ صنمًا ولا وثنًا[14].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صدر).
(2) الراغب، المفردات: (صدر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (صدر).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 104.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(6) الزمخشري، أساس البلاغة: (وضع).
(7) الراغب، المفردات: (وضع).
(8) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (وضع).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 105.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزر).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (وزر).
(12) الرازي، مختار الصحاح: (وزر).
(13) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وزر).
(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 105.

5) ﴿أَنقَضَ﴾: (نقض) أصل يدلُّ على نكث شيء، ومن ذلك يقال: نقض الحبلَ والبناءَ والعهدَ، والنِّقض: المنقوض[1]، ومن نقض الحبل والعقد استُعير نقض العهد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ [الأنفال: 56][2]، والمناقضة في القول: أن يتكلَّم بما يتناقض معناه، وأنقض الحِملُ ظهره: أثقله، والانتقاض: أن يعود الجُرح بعد البُرء[3]. ومعنى ﴿أَنقَضَ﴾: أثقل[4].

6) ﴿وَرَفَعۡنَا﴾: (رفع) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الوضعِ، يقال: رفعته فارتفع[5]، وبرق رافع، أي: ساطع، والرِّفعة نقيض الذِّلَّة، والرَّفعُ يقالُ تارةً في الأجسامِ الموضوعةِ إذا أعليتَها عن مقرِّها، وتارةً في البناءِ إذا طوَّلتَهُ، وتارةً في الذِّكرِ إذا نوَّهتَهُ، وتارةً في المنزلةِ إذا شرَّفتَها[6]، ورفع الزَّرع: أن يُحمل بعد الحصاد إلى البيدر[7].

7) ﴿ذِكۡرَكَ﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النِّسيانِ، ومن ذلك: الذّكر، وهو الحفظ للشَّيء، وجريُ الشَّيء على لسانك[8]، ويقالُ الذّكر أيضًا لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلكَ قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ[9]، ويقال: ما زال منّي على ذُكْرٍ، أي: لم أنسَهُ[10]. وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63] معناه: ادرُسوا ما فيه، واستذكر الرَّجلُ: ربط في إصبعه خيطًا ليذكُر به حاجتَهُ[11]، ومعنى ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾: نوَّهت باسمك، فلا ذُكرتُ إلّا ذُكرتَ معي في الأذان والإقامة والتشهُّد وغيرها[12].

## المَعنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمَّد ﷺ، مذكِّرًا له بآلائه عنده، وإحسانه إليه، حاضًّا

(1) ابن فارس، مجمل اللغة: (نقض).
(2) الراغب، المفردات: (نقض).
(3) الخليل، العين، والرازي، مختار الصحاح: (نقض).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 105.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (رفع).
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رفع).
(7) الجوهري، الصحاح: (رفع).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(9) الراغب، المفردات: (ذكر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (ذكر).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ذكر).
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 497، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 106.

تشريف النَّبيِّ بتخفيف الأثقال وتفخيم الشَّأن

له بذلك على شكره: ألم نوسِّع لك صدرك للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحقِّ، فنليِّن لك قلبك، ونجعله وعاءً للحكمة، وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيّام الجاهليَّة الَّتي كنت فيها، ورفعنا لك ذكرك، فلا أُذكر إلا ذُكرتَ معي(1).

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغة الاستفهام ودلالته:

تقرير العالم منّةٌ حاضرة وشرحُ صدر النَّبيِّ أمر ظاهر

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ استفهام تقريريٌّ؛ لأنَّ إنكار النَّفي إثبات، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، وفي ذلك إيذان بأنَّ ثبوته من الظُّهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير (بلى)(2). وهذا التَّقرير مقصود به التَّذكير؛ لأجل أن يراعيَ هذه المنَّة عندما يخالجه ضيقُ صدر ممّا يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النّار، ورفع شأنهم بين الأمم؛ ليدوم على دعوته العظيمة نشيطًا غير ذي أسف ولا كمدٍ(3).

### بلاغة الاستعارة باستعمال مفردة الشَّرح:

التّخلية قبل التّحلية وشرح الصدرِ تخلية قُبيل تلقّي الوحي

حقيقة الشَّرح: فصل أجزاء اللَّحم بعضها عن بعض، ومنه الشَّريحة للقطعة من اللَّحم، والتَّشريح في الطبِّ، ويُطلق على انفعال النَّفس بالرِّضا بالحال المتلبِّس بها، وهو من المجاز الَّذي يساوي الحقيقة؛ لأنَّ الظّاهر أنَّ الشَّرح الحقيقيَّ خاصٌّ بشرح اللَّحم، وأنَّ إطلاق الشَّرح على رضا النَّفس بالحال أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضّيق وما تصرَّف منه على الإحساس بالحزن والكمد، قال تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ [هود: 12]، فجُعل في قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ إزالة ما في

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 493 - 494.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 408.

النَّفس من حزن مثل شرح اللَّحم، وهذا الأنسب بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، كما أنَّ في المفردة إيماءً إلى شرحٍ مقصودٍ بإخراج كدرٍ وتخليةٍ من عسرٍ؛ ليكون الصدرُ جاهزًا لتلقّي الوحي، فالتّخلية قبل التّحلية.

### دلالة إسناد الأفعال إلى نون العظمة:

عظمة شأن الشَّرح والوضع والرَّفع من عظمة الصّانع

أُسند فعل الشَّرح إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ لأنَّ عظمة المنعِم تدلُّ على عظمة النِّعمة، فدلَّ ذلك على أنَّ ذلك الشَّرح نعمة لا تصل العقول إلى كُنه جلالتها[2]، والمعنى: ألم نشرح لك صدرك شرحًا يليق بعظمتنا[3]، وكذلك إسناد ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فيه تعظيم للوضع، والمعنى: حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطًّا لا رجعة له ولا فيه بوجهٍ بما لنا من العظمة[4]، ومثله إسناد ﴿وَرَفَعْنَا﴾ فيه تشريف وتعظيم لرفع الذكر، والمعنى: وضعنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة[5].

### دلالة التعبير باللّام:

شرح الصَّدر تكريمٌ لشأنِ النَّبيِّ ﷺ

اللام في قوله: ﴿لَكَ﴾ لام التَّعليل، وهو يُفيد تكريمًا للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ الله فعل ذلك لأجله[6]. وفيه تنبيه على أنَّ منافع الرِّسالة عائدة إليه ﷺ، كأنَّه تعالى قال: إنَّما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي[7].

### فائدة الإطناب بذكر ﴿لَكَ﴾ دون الاستغناء عنها:

الانتقال من الإجمال إلى التفصيل بذكر المبهم بقصد التشويق

آثر النَّظم الكريم ذِكْر الجارّ والمجرور ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، دون أن يقول: (ألم نشرح صدرك)،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 408.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 206.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 115.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 117.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 120.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 409.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 206.

مع وضوح الكلام وظهوره؛ وذلك لسلوك طريقة الإبهام بغرضِ التَّشويق؛ فإنَّه لمّا ذكر فعل ﴿نَشۡرَحۡ﴾ علم السّامع أنَّ ثمَّ مشروحًا، فلمّا وقع قوله: ﴿لَكَ﴾ قويَ الإبهامُ، فازداد التَّشويق؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يفيد معنى: شيئًا لأجلك، فلمّا وقع بعده قوله: ﴿صَدۡرَكَ﴾ تعيَّن المشروح المترقَّب، فتمكَّن في الذِّهن كمالَ تمكُّن[1].

### غرض تقديم ﴿لَكَ﴾ ودلالته:

شرحُ صدر سيّد الخلقِ لم يكن ابتداءً لأحدٍ سواه من سائر الخلق

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾؛ للإيذان من أوَّل الأمر بأنَّ الشَّرح من منافعه ﷺ ومصالحه؛ مسارعةً إلى إدخال المسرَّة في قلبه ﷺ، وتشويقًا له إلى ما يعقُبه ليتمكَّن عنده وقت وُرودِه فضْلَ تمكُّن[2]، مع ما فيه من الامتنان العظيم بأنَّ الشّرح كان له ﷺ ابتداءً على وجه الخصوص، دون طلبٍ سابقٍ، بخلاف ما كان لموسى عليه السلام فإنَّه قد شرح صدره بدعائه وطلبه.

### بلاغة التَّعبير بالصَّدر دون القلب:

الصدر وعاء القلب فبشرحه يُشرح القلب

ذُكِرَ الصَّدر دون القلب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾؛ لأنَّ محلَّ الوسوسة هو الصَّدر على ما قال: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: 5]، فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشَّرح، فلا جرم خصَّ ذلك الشَّرح بالصَّدر دون القلب[3]. وللمبالغة أيضًا؛ إذ المراد شرح القلوب، لكنَّ اتِّساع الشَّيء يتبعه اتِّساع ظرفه، أو اتِّساع الظَّرف يستلزم اتِّساع مظروفه[4]، فالصدر وعاء القلب، فبذكره يُعلم ذكر القلب، فيشمل الشرح القلب والصدر.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 5/ 321، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 656، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 409 - 410.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 388.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 206، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 562.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 327.

### نوعُ الإضافة ودلالتها:

إضافة لفظ الصدر إلى الضمير ﴿صَدْرَكَ﴾ بمعنى اللام، وتفيد الاختصاص، فهو صدر النبيّ ﷺ فحسب، ولا يكون لغيرِه من سائر البشر، وأمّا مدّعيه لنفسه فكاذب.

### بلاغة الكناية ودلالاتها:

الإيـمـاء إلى الـرضا الـربّاني لتحقيق النصر الصّمداني

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ كناية عن الإنعام على النبي ﷺ بما كان له من تلك التّوطئة التي سيعقبها الخير العميم، وفيه إيماء إلى تمام الرّضا الربّاني، والإشارة إلى "ما تطمح إليه نفسه الزَّكيَّة من الكمالات، وإعلامه برضا اللّه عنه، وبشارته بما سيحصل للدّين الَّذي جاء به من النَّصر"[1].

### دلالة واو العطف:

وَضْعُ وِزْرِ النَّبيِّ ﷺ مـن جملة نعم الله عليه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ للعطف، والجملة عطف على مدلول جملة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ من الإثبات، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك[2]. وهذه منة جديدة من اللّه تعالى على نبيِّه ﷺ.

### توجيه عطف الماضي على المضارع المنفي:

وضع الوِزر ورفع الـذِّكـر نعمتان متحقِّقتان

جاء التّعبير بصيغة الماضي لفعلي ﴿وَوَضَعْنَا﴾ و﴿وَرَفَعْنَا﴾، وعُطف على فعل ﴿نَشْرَحْ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّ (لم) قلبت زمن الحال إلى المضيِّ، فصورته مضارع لكنّه في المعنى ماضٍ، فعُطف عليه الفعلان بصيغة المضيِّ لموافقة المعنى؛ ولأنَّهما داخلان في حيِّز التَّقرير، وفي المضيِّ إشارة إلى تحقُّق هاتين المنَّتين، وذلك أدعى للشُّكر والامتنان.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 408.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 172.

### بلاغة التعبير بمفردة الوضع:

تصوير الوزر الموضوع عن النبيِّ ﷺ

آثر النظم الكريم التّعبير بمفردة الوضع في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾؛ لدلالته على الحطِّ الكامل للوِزر، فيفيد زيادة التَّشريف والامتنان، فهو إزالة كاملة للوزر، وليس تخفيفًا منه، وفي ذلك ما لا يخفى من الإشارة إلى اعتناء الله تعالى بأمر نبيِّه ورفع الحرج عنه، وفيه إشعارٌ بثقل الوزر الموضوع، وفيه تشبيه الوزر بالشيءِ الثقيل الذي يوضع، على سبيل الاستعارة المكنية بقرينة لفظ الوضع؛ بغرض تصوير المعنى.

### دلالة التّعبير بحرف (عن):

(عن) في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ للمجاوزة، والمعنى: حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطًّا لا رجعة له ولا فيه بوَجهٍ بما لنا من العظمة مجاوزًا عنك وزرك[1].

### غرض تقديم ﴿عَنكَ﴾:

التّشويق إلى المؤخّر والإشعار باختصاص الوضع عنه

قدَّم ﴿عَنكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ على المفعول الصريح مع أنَّ حقَّه التَّأخُّر عنه؛ للقصد إلى تعجيل المسرَّة والتَّشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ في وصفه - وهو ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ - نوعَ طول، فتأخير الجارِّ والمجرور عنه مُخِلٌّ بتجاوب أطراف النَّظم الكريم[2]. ولا يخلو التقديم من الدِّلالة على الاختصاص، أي: عنك لا عن غيرك.

### بلاغة الإطناب بذكر القيد:

وضع الوِزر من دواعي السرور عند سيدِ البشر

آثر النّظم الكريم ذكر ﴿عَنكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾، دون الاكتفاء بأن يُقال: (ووضعنا وزرك)؛ وذلك لسلوك طريقة الإبهام؛ للتَّشويق؛ فإنَّه لمّا ذكر فعل (وضعنا) علم السّامع أنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 117.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 388.

ثمَّ موضوعًا، فلمّا وقع قوله: ﴿عَنكَ﴾ قويَ الإبهامُ، فازداد التَّشويق؛ لأنَّ ﴿عَنكَ﴾ يفيد معنى: شيئًا عنك، فلمّا وقع بعده قوله: ﴿وِزْرَكَ﴾ تعيَّن الموضوع المترقَّب، فتمكَّن في الذِّهن زيادة تمكُّن(1).

### نكتة الإضافة في ﴿وِزْرَكَ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿وِزْرَكَ﴾ لاميَّة، فتفيد تعظيم المنَّة والتَّشريف، ببيان أنَّ الموضوع وزره لا وزر غيره، وذلك أدعى للشُّكر، وأدلُّ على الامتنان.

### بلاغة الكناية والتَّمثيل:

تمثيل المعاني بأثواب الألفاظ أنقى في بيان المراد من الكلام المباشر

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ كناية عن عصمته من الذُّنوب وتطهيره من الأدناس، عبِّر عن ذلك بالحطِّ على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعت عنك مشقَّة الزّيارة، لمن لم يصدُر منه زيارة، على طريق المبالغة في انتفاء الزّيارة منه(2).

ويحتمل أن يكون الكلام تمثيلًا لحال إزالة الشَّدائد والكروب بحال من يحطُّ ثقلًا عن حامله؛ ليريحه من عناء الثّقل، والمعنى: أنَّ الله أزال عنه كلَّ ما كان يتحرَّج منه من عادات أهل الجاهليَّة الَّتي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه من الزَّكاة والسُّموِّ، ولا يجد بدًّا من مسايرتهم عليه، فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرِّسالة، وكذلك ما كان يجده في أوَّل بعثته من ثقل الوحي، فيسَّره الله عليه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6] إلى قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: 8](3).

(1) الزمخشري، الكشاف: 5/ 321، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 656، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 409 - 410.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 500.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 410.

نقض الظَّهر علَّة وضع الوِزر

### دلالة التَّعبير بالاسم الموصول:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾؛ للتَّوصُّل بما في حيِّز الصِّلة - وهو نقض الظَّهر - إلى بيان علَّة الحكم، وهو وضع الوزر، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّه تعالى لم يُسلِمْ نبيَّه ﷺ للمشقَّة والحرج.

### نكتة التَّعبير بالماضي:

جيء بصيغة الماضي ﴿أَنقَضَ﴾؛ للتَّنبيه على تحقُّق النَّقض ووقوعه، فأفاد الكلام بمجموعه تحقُّق وضع الوزر بعد تحقُّق نقضِه للظَّهر، وذلك أثبت في الامتنان، وألذُّ للمخاطَب.

تصوير المعاني وتشخيص الدّلالات أرسخ في الأذهان معنًى

### بلاغة إسناد النَّقض إلى الوِزر:

إسناد فعل ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الضمير العائد على الوِزر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ مجاز عقليٌّ[1]، وهو إسناد للسَّبب الحامل[2]، وفيه تشبيه الوزر بشخص يقوم قام بفعل ﴿أَنقَضَ﴾، فحذف المشبّه به وذكر لازم من لوازمه وهو الفعل على سبيل الاستعارة المكنية، بغرض تشخيص المعنى، وتصوير معناه.

### نوع الإضافة ودلالتها:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿ظَهۡرَكَ﴾ لاميَّة، فتفيد تفخيم الامتنان وزيادة التَّشريف، ببيان أنَّ المثقَل هو ظهره لا ظهر غيره، وذلك أدعى للشُّكر بعد الإخبار بوضع الوِزر.

تصوير الوزر بالحمل الشديد يزيد منّة الإكرام والتشريف

### بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة:

معنى فعل ﴿أَنقَضَ﴾ جعل الشَّيء ذا نقيض، والنَّقيض: صوت صرير المحمل والرَّحل، وصوت عظام المفاصل وفرقعة الأصابع، وتعدية ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الظَّهر تبع لتشبيه المشقَّة بالحِمل، فالتَّركيب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 410.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 389.

تمثيل لمتجشّم المشاقّ الشَّديدة بالحُمولة المثقَلة بالإجمال تثقيلًا شديدًا حتى يُسمع لعظام ظهرها فرقعةٌ وصرير، وهو تمثيل بديع؛ لأنَّه تشبيهٌ مركَّب قابل لتفريق التَّشبيه على أجزائه، ووصفُ الوِزر بهذا الوصف تكميل للتَّمثيل بأنَّه وِزر عظيم(1).

**معنى واو العطف:**

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ للعطف، والجملة معطوفة على ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ باعتبار أنَّ مآله الإثبات، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، ورفعنا لك ذكرك.

**بلاغة الاستعارة في لفظ الرَّفع:**

وضوح رفعة شأن النَّبيِّ ﷺ لكلِّ عاقل

عبِّر بمفردة الرَّفع في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ لزيادة تفخيم ذكر النَّبيِّ ﷺ، ببيان منزلته الرّفيعة، وأنَّه استحقَّ بالنبوّة الفضل العظيم، والشرف الكبير، وقد شُبِّه إعلام البشر والملائكة والجن بمنزلة النبي ﷺ بالرفع، والرفع يكون للمحسوسات، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، بغرض تمكين المعنى في العقول، وتثبيته في النفوس.

**معنى اللّام في ﴿لَكَ﴾:**

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ للتَّعليل، فتفيد أنَّ رفع الذِّكر لأجل النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك ما لا يخفى من التَّنبيه على محبَّة اللّه لنبيِّه، وتقريبه له.

**غرض تقديم ﴿لَكَ﴾:**

رفع الذِّكر خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ

قدِّم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول الصَّريح في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ للعناية بالمقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر، والتَّنبيه على الخصوصيَّة، والمعنى: ورفعنا لك خاصَّة ذكرك رفعة تتلاشى عندها رفعة غيرك من الخلق كلِّهم(2).

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 494 - 495، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 410.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 120.

### بلاغة الإطناب بذكر ﴿لَكَ﴾:

آثر النّظم الكريم ذكر الجار والمجرور كالسابق في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾، ولم يُقل: (ورفعنا ذكرك)؛ لسلوك طريقة الإبهام بغرض التَّشويق؛ فإنَّه لمّا ذكر فعل ﴿وَرَفَعۡنَا﴾ علم السّامع أنَّ ثمَّ مرفوعًا، فلمّا وقع قوله: ﴿لَكَ﴾ قويَ الإبهامُ، فازداد التَّشويق؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يفيد معنى: شيئًا لأجلك، فلمّا وقع بعده قوله: ﴿ذِكۡرَكَ﴾ تعيَّن المرفوع المترقَّب، فتمكَّن في الذِّهن زيادةَ تمكُّن[1].

التفصيل بعد الإجمال تقوية للمعنى وتثبيت للمقصود

### بلاغة الاستعارة في لفظ الذِّكر:

أوثر التّعبير بلفظ الذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾؛ للتَّنبيه على زيادة تشريف منزلة النَّبيِّ ﷺ في العالَمين، ببيان أنَّ منزلته ومرتبته بمنزلة شيء معروف تتداوله الألسنة، ولا يغيب عن العقول والقلوب، والرفع يكون للمحسوسات، ففيه تشبيه الذّكر بشيءٍ يُرفع ليراه جميع النّاس، ففيه استعارة مكنيّة بحذف المشبّه به وذكر لازم من لوازمه وهو الرّفع، وقد أصبح ذكره ﷺ مرفوعًا في كلِّ مكانٍ؛ في الأرض والسماء، لا يخفى ذكره على أحد.

منزلة النَّبيِّ ﷺ ظـاهـرة لأعـين الخلق

### نوع الإضافة ودلالتها:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿ذِكۡرَكَ﴾ لاميَّة، فتفيد أنَّ المرفوع ذِكْرُه ﷺ لا ذِكْرُ غيره، وذلك أجلبُ لسروره واغتباطه، وأدعى لشكر نعمة اللّه تعالى عليه.

### بلاغة فنِّ الطِّباق:

في ذكر الرَّفع بعد الوضع في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ لطف لا يخفى[2]، وذلك

وضـع الـوزر تخلية سابقة لـتـحـلـيـة رفـع الذِّكر

(1) الزمخشري، الكشاف: 5/ 321، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 656، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 409 - 410.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 389.

لما فيه من الطِّباق، وإظهار صورة القلّة تعقُبها صورةٌ في أعلى الارتفاع، فوضع الوزر تمهيد لرفع الذِّكر، وما كان الوضع إلّا توطئة للرفع، وما ألطف رفع الذكر بعد وضع الوزر؛ للتّباعد بينهما في المنزلة والمكانة.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح: 5 - 6]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من ذكر الكمال إلى ذكر أسبابه الموجدة له

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة المآثر الشَّريفة الَّتي هي الكمال، وكان الكمال لا يصفو إلّا مع مساعدة الأقدار؛ بيَّن أنَّه أزال عنه العوائق، فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، ولمّا كان العُسر مكروهًا إلى النُّفوس، وكان للّه ﷻ فيه حكم عظيمة، وكانت الحِكَم لا تتراءى إلّا للأفراد من العباد؛ كرَّره ﷻ، فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعُسْرِ﴾: (عسر) أصل يدلُّ على صعوبة وشدَّة[3]، ومن ذلك: العسير، وهو النّاقة الَّتي لم تُرَض، ويقال: أعسرَ الرَّجلُ: أضاقَ[4]، وتعاسرَ القومُ، أي: طلبوا تعسيرَ الأمر، ويومٌ عسير: شديدٌ تتصعَّب فيه الأمور[5]، ويقال: تعاسر البيِّعان: لم يتَّفقا، واستعسر الأمرُ، أي: اشتدَّ والتوى[6]، والعُسرى: خلاف الميسَرة، والعُسر: ضدُّ اليُسر[7]، والمراد هنا: الضّيق والمشقَّة[8].

2) ﴿يُسْرًا﴾: (يسر) أصل يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّته، ومن ذلك: اليسرات، وهي القوائم الخِفاف[9]، ويقال: فرس حسنُ التَّيسور، أي: حسنُ نقل القوائم، واليَسَر: اللّين والانقياد[10]، واليُسْرُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر، ص: 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 123.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (عسر).
(4) الجوهري، الصحاح، والرازي، مختار الصحاح: (عسر).
(5) الراغب، المفردات: (عسر).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عسر).
(7) الجوهري، الصحاح: (عسر).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 107.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (يسر).

ضدُّ العُسْرِ، قالَ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ويقالُ: تيسَّرَ كذا، واستيسرَ، أي: تسهَّلَ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196]، وقالَ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] أي: تسهَّلَ وتهيَّأ، واليسيرُ والميسورُ: السَّهْلُ، ويُطلَقُ اليسيرُ أيضًا على الشَّيءِ القليلِ[1]، ويقال: ياسرَهُ إذا ساهلَهُ[2]. والمراد باليُسر هنا: السَّعة والغنى[3].

## المَعنى الإجماليُّ:

شدَّة الحال لا تدوم

يقول تعالى: فإنَّ مع الشِّدَّة الَّتي أنت فيها من جهاد هؤلاء المشركين وغير ذلك رجاءً وفرجًا بأن يُظفرك بهم، حتَّى ينقادوا للحقِّ الَّذي جئتهم به طوعًا وكرهًا[4].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نوع الفاء ودلالتها:

بيان الشرح باليُسر ووضع الوزر بالعُسر

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ لترتُّب ما بعدها على ما قبلها؛ إذ شرح الصَّدر ووضع الوِزر يسرٌ بعد عُسر[5]، وتحتمل الفاء أن تكون فصيحة، تُفصح عن كلام مقدَّر يدلُّ عليه الاستفهام التَّقريريُّ، أي: إذا علمت هذا وتقرَّر تعلم أنَّ اليسر مصاحب للعسر[6].

### غرض توالي المؤكِّدات:

توكيد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة

(1) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (يسر).
(2) الرازي، مختار الصحاح: (يسر).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 107.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 495.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 332.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 423.

للاهتمام بالخبر[1]، وللتَّرغيب في حمل مثل ذلك رجاء في الإثابة بما يليق من هذه المعالي[2].

**بلاغة استعمال المعيَّة وفائدتها:**

زمـــان الـيـسـر قريب من زمان العسر

﴿مَعَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ للمصاحبة، وفائدتها: المبالغة في معاقبة اليسر للعسر، واتِّصالِه به اتِّصالَ المتقاربين[3]، وفي ذلك زيادة في التَّسلية وتقوية القلوب[4]. وكلمة ﴿مَعَ﴾ هنا مستعملة في غير حقيقة معناها؛ لأنَّ العسر واليسر نقيضان، فمقارنتهما معًا مستحيلة، فتعيَّن أنَّ المعيَّة مستعارة لقُرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره، بقرينة استحالة المعنى الحقيقيِّ للمعيَّة[5].

**غرض تقديم ﴿مَعَ ٱلۡعُسۡرِ﴾:**

معـيَّـة اليـسر للـعـسر محطُّ العناية

قُدِّم ﴿مَعَ ٱلۡعُسۡرِ﴾ على ﴿يُسۡرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾؛ للعناية بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر، فالمراد هو استيثاقُ ذكر العسر إذ وقت نزول الآيات هو المتحقق في الواقع، فكان المؤمنون يعيشون عسرَ الدّعوة ومواجهة المشركين، فكان في التقديم مزيد تشويق لما سيأتي بعده، كما أنّ فيه رعاية للفواصل.

**معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡعُسۡرِ﴾:**

جنس العسر مـصـحـوب باليسر؛ سنّة ماضيةٌ في دعوة المرسلين

الظّاهر أن تعريف العسر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ للجنس؛ إذ ليس هناك معهود سابق، فينصرف إلى الحقيقة[6]، ويحتمل أن يكون التَّعريف للعهد، أي: العسر الَّذي عهدته وعلمته، والكلام وعد للنَّبيِّ ﷺ بأن ييسِّر اللّه له المصاعب كلَّما عرضت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 414.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 121.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 321.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 657.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 413.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 209.

له، فتكون السّورة كلُّها مقصورة على بيان كرامة النَّبيِّ ﷺ عند ربِّه تعالى[1].

### بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿ٱلۡعُسۡرِ﴾:

في ثنايا لفظ العسر وعدٌ بالوصول إلى المطلوب

دلّ لفظُ ﴿ٱلۡعُسۡرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾؛ على المشقَّة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود[2]، واختيار هذا اللفظ دون سواه؛ لبيان أنَّ ما يعانيه المؤمنون ما هو إلّا عسرٌ لا منع، فالوصول إلى الغاية المرجوّة حاصلٌ لكنّه عسير بسبب ما يُحيط به من ظروف، لا أنّه مستحيل وممنوع، فكان في لفظ العسر وعدٌ بتحقيق المقصود، لكنّه لن يأتي سهلًا يسيرًا.

### نكتة التَّعبير بلفظ اليُسر:

جيء بلفظ اليسر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾؛ لدلالته على سهولة تحصيل المرغوب وعدم التَّعب فيه[3]، وفي ذلك من إدخال المسرَّة على النفس ما لا يخفى.

### غرض تنكير ﴿يُسۡرًا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿يُسۡرًا﴾ للتَّعظيم[4]، أي: يُسرًا عظيمًا في مقابلة عسر، ويحتمل أن يكون التَّنكير للتَّكثير مع التَّعظيم[5]، فيفيد كثرة أبواب التَّيسير، فيقوى الأمل والرَّجاء.

### بلاغة فنِّ الطباق:

العسر بداية واليسر نهاية وبينهما رحلة الطاعة

في الجمع بين العسر واليسر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ رعاية لمحسِّن معنويٍّ وهو الطِّباق، وكأنَّ الكلام يرسم صورة اقتران متضادَّين يغلب أحدهما مرارة الآخر وقسوته وشدَّته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 413.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 415.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 415.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 321.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 332.

على النَّفس، فالعسر بداية واليسر نهاية، وما بينهما رحلةٌ مليئة بالابتلاءات والصعوبات.

### بلاغة الكناية والتَّعريض:

فضل الله تعالى على نبيِّه لا ينقطع

لمّا كان اليسر نقيض العسر كانت مصاحبةُ اليسر للعسر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ مقتضيةً نقض تأثير العسر ومبطلةً لعمله، فهو كناية رمزيَّة عن إدراك العناية الإلهيَّة به فيما سبق، وتعريضٌ بالوعد باستمرار ذلك في كلِّ أحواله[1].

### علَّة فصل ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ عمّا قبله:

مَنْ وثِق بوعدِ الله شرح الله صدرَه وألان له أسباب يُسْرَه

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ عن قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾؛ لأنَّه جملة مؤكِّدة له، وفائدته تحقيق اطِّراد الوعد وتعميمه؛ لأنَّه خبر عجيب[2]، ولتقرير معنى هذه الحقيقة في النُّفوس وتمكينها في القلوب[3]، ويحتمل أن يكون ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ وعدًا مستأنفًا؛ لأنَّ التَّأسيس أقوى على التَّأكيد، والاستئناف نحويٌّ[4]، أو بيانيٌّ جواب سؤال بأنَّ اليسر في مقابلة العسر هل هو مِثله أو ضِعفه؟ فأجيب: بأنَّه مشفوع بيسرٍ آخر[5]، أو جواب سؤال مَنْ يقول: وهل بعده من عسر؟[6].

### نكتة إعادة العُسر معرَّفًا واليُسر منكَّرًا:

اليُسْرُ غالبٌ لِلْعُسر وأكثر منه

أُعيد لفظ العسر معرَّفًا واليسر منكَّرًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾؛ لأنَّ المراد عُسْرٌ معهود، وهو العسر المذكور سابقًا، فالتَّعريف للعهد[7]، وتنكير اليسر؛ لأنَّ المراد به يسر آخر، فيكون العسر الواحد قد قوبل بيسرين، وفي ذلك ما فيه من تقوية الأمل والرَّجاء.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 413.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 415.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 390.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 390.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 333 - 334.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 123.
(7) السمين، الدر المصون: 11/ 46.

ويحتمل أن تكون الجملة الثّانية تأكيدًا للأولى، كما كُرِّرَ قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ [المطففين: 10]، ويكون الغرض تقرير معناها في النُّفوس وتمكينها في القلوب[1]، كتأكيد جملة: (إنَّ مع الفارس سيفًا، إنّ مع الفارس سيفًا)، وعلى هذا فلا يكون يُسران بل يُسر واحد، وهو الأظهر في النّظم، وإن كان خلاف الأشيع.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 209، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 107.

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾ [الشرح: 7 - 8]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة نعمَه تعالى على نبيِّه، ووَعْدَه بالنِّعم الآتية؛ ناسَبَ أن يدلّه على المطلوب، وهو الشُّكر والاجتهاد في العبادة[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَغۡتَ﴾: (فرغ) أصل يدلُّ على خلوٍّ وسَعَةِ ذرع[2]، فالفراغ: خلاف الشُّغل، تقول: أفرغت الماء، إذا صببته[3]، ومنه استُعير: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [الأعراف: 126][4]، وتقول: افترغت، إذا صببت الماء على نفسك[5]، ويقال: تفرَّغ لكذا، واستفرغ مجهوده في كذا، أي: بذلَه[6]، وقال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]، أي: خاليًا من الصَّبر، ويقال: فرغَ له، وإليه: قصدَ[7]. ومعنى ﴿فَرَغۡتَ﴾: انتهيت مما أنت منشغل به[8].

2) ﴿فَٱنصَبۡ﴾: (نصب) أصلٌ يدلُّ على إقامةِ شيءٍ في استواءٍ[9]، ومِنْ ذلكَ: الأنصابُ، وهي حجارةٌ تُنصَبُ وتُصَبُّ عليها دماءُ الذَّبائح[10]، والنَّصيبُ: الحظُّ مِنَ الشَّيءِ، يقالُ: هذا نصيبي، أي: حظّي، كأنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لكَ وعُيِّنَ[11]، ويقال: ناقة نصباء، أي: مرتفعة الصَّدر، وغبار منتصب، أي: مرتفع، والنَّصَبُ: الإعياء[12]، يقال: أنصبَني هذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 772، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 309.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرغ).
(3) ابن فارس، مجمل اللغة: (فرغ).
(4) الراغب، المفردات: (فرغ).
(5) ابن فارس، مجمل اللغة: (فرغ).
(6) الرازي، مختار الصحاح: (فرغ).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (فرغ).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 397.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(10) الزمخشري، أساس البلاغة: (نصب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (نصب).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).

الأمرُ، أي: أعياني وأتعبَني[1]. ومعنى ﴿فَٱنصَبۡ﴾: بالغْ في الدُّعاء وسله حاجتك[2]، واتعب في ذلك[3].

3) ﴿فَٱرۡغَب﴾: (رغب) أصل يدلُّ على طلب لشيء، ومن ذلك تقول: رغبت في كذا، إذا أردته[4]، ورغَّبه فيه ترغيبًا، وأرغبه فيه أيضًا[5]، ورغَّبه: أعطاه ما رغب، والرَّغيبة: الأمر المرغوب فيه، ورغب عن الشَّيء: تركه متعمِّدًا[6]، والرَّغبة أيضًا: السَّعة في الشَّيء، يقال: رغب الشَّيء: اتَّسع، وحوض رغيب، وفلان رغيبُ الجوف، وفرس رغيب العَدْوِ[7]. ومعنى ﴿فَٱرۡغَب﴾: اجعل رغبتك إليه[8].

## المَعنى الإجْماليُّ:

طريق التيسير عبادة الله وحده والانشغال بطاعته

تأمر الآيات الكريمة النبيَّ ﷺ بأن يجعل فراغه من كلِّ ما كان به مشتغلًا من أمر دنياه وآخرته؛ مؤدّيًا إلى التَّعب في عبادته، والاشتغال فيما يُقرِّبه، وأن يجعل رغبته وحوائجه إلى اللّه تعالى وحده[9].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الفاء في ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾:

تيسير العسير يوجب العناية بالتبليغ

الفاء الأولى في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ تفريع على ما تقرَّر من التَّذكير باللُّطف والعناية، ووعده بتيسير ما هو عسير عليه في طاعته الَّتي أعظمُها تبليغ الرِّسالة دون ملل ولا ضجر[10].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نصب).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 108.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 209.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رغب).
(5) الرازي، مختار الصحاح: (رغب).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (رغب).
(7) الراغب، المفردات: (رغب).
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 209.
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 397.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 416.

### نكتة التَّعبير بأداة (إذا) دون (إنْ):

الفراغ من الانشغال لازم الوقوع لتحقيق العبادة

جيء بـ (إذا) دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾؛ لأنَّ (إذا) تستعمل في الأمر المقطوع به، و(إنْ) تستعمل في الأمر المحتمل غير المقطوع به، ولا شكَّ أنَّ فراغه ﷺ مما هو مشتغل به أمر مقطوع به، فناسبه استعمال (إذا).

### نكتة التَّعبير بالماضي:

جاء التعبير بصيغة الماضي ﴿فَرَغْتَ﴾ باعتبار وقوعه في المستقبل؛ لأنَّ (إذا) تقلب الماضي إلى المستقبل، فالمراد الأمر بالعبادة لما سيأتي باعتبار أنّه واقع لا محالة.

### بلاغة التَّعبير بمفردة الفراغ:

إذا فرغ الإنسان من الأعمال خلا الذّهن للعبادة وحقّق المقصود بالتمام

الفراغ في الأصل: خلوُّ باطن الظَّرف أو الإناء؛ لأنَّ شأنه أن يُظرف فيه، وفعل (فرغ) يفيد أنَّ فاعله كان مملوءًا بشيء، وفراغُ الإنسان - كما في قوله تعالى هنا: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ - مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله[1]، فليس المراد بالفراغ الخلو المطلق، بل الانتهاء من الانشغال، وجاء استعمال هذه المفردة دون مقارباتها؛ لبيان أنَّ الإنسان أقوى في عبادته بعد فراغه من أعماله الأخرى.

### نكتة حذف متعلّق ﴿فَرَغْتَ﴾:

أيُّ انشغالٍ يُؤثِّر علـى العبـادةِ فالفراغ منه هو الأولى

لم يُذكر متعلّق فعل ﴿فَرَغْتَ﴾، وسياق الكلام يقتضي أنَّه لازم أعمالٍ يعملها الرَّسول ﷺ، كما أنَّ مساق السّورة في تيسير مصاعب الدَّعوة وما يحفُّ بها، فالمعنى: إذا أتممت عملًا من مهامِّ الأعمال فأقبِلْ على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلَّها بالأعمال العظيمة، فحذف المتعلّق هنا لقصد العموم، وهو عموم عُرفي لنوع من الأعمال الَّتي دلَّ عليها السّياق؛ ليشمل كلَّ متعلّق عمله ممّا هو مهمٌّ، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 416.

أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماعُ كثير منها بقدر الإمكان[1].

### غرض تقديم ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبۡ﴾:

قُدِّم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبۡ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره؛ لتتعاقب الأعمال[2]، ولأنّ الأمر بالعبادة متوقف على شرطه فقدِّم لبيانِ العناية به.

### نوع الفاء ودلالتها:

ارتـبـاط المـؤخَّـر بالمقدَّم بواسطة الفاء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ وفي قوله: ﴿فَٱرۡغَب﴾ رابطة للفعل؛ لأنَّ تقديم المعمول يتضمَّن معنى الاشتراط والتَّقييد؛ فإنَّ تقديم المعمول لمّا أفاد الاختصاص نشأ منه معنى الاشتراط، وهو كثير في الكلام، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: 66]، وقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾ [المدثر: 3 - 5]، وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26][3].

### غرض الأمر ودلالته:

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ للوجوب؛ لأنَّه الأصل، ولا صارف عنه، بل سياق الحثّ على الشُّكر والطّاعة يقتضيه.

### بلاغة التَّعبير بالنَّصب دون التعب:

علوّ شأن القدوة يُعطي مزيدًا للهمّة لدى المقتدين

آثر النظم الكريم التّعبير بمفردة النَّصب دون التَّعب في قوله ﷻ: ﴿فَٱنصَبۡ﴾؛ لأنَّ النَّصب هو التَّعب الشديد، فيكون المراد المبالغة في التَّعب[4]، وهو أوفق بمقام حثِّ النَّبيِّ ﷺ على الشُّكر، والأجرُ على قدر النَّصب في الطّاعة، وليكون لمن بعده قدوة في الاجتهاد في العبادة والطّاعة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 416 - 417.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 417.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 418.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 128.

### دلالة العطف بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ للعطف، عُطف على تفريع الأمر بالشُّكر على النِّعم أمرٌ بطلب استمرار نعم اللّه تعالى عليه، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7][(1)].

**من أراد استمرار النِّعم داوم على الطّاعة**

### غرض تقديم ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

قدِّم ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿فَٱرۡغَب﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص، والمعنى: وإليه لا إلى غيره فارغب بالسُّؤال، ولا تسأل غيره؛ فإنَّه القادر وحده على إسعافك وتحقيق مطلوبك[(2)].

### نوع (إلى) ودلالتها:

(إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ لانتهاء الغاية، فتفيد أنَّ الحاجة المطلوبة ينبغي أن يكون منتهاها هو اللّه ﷻ.

**اللّه تعالى هو منتهى آمال الطّالبين**

### فائدة تعدية فعل ﴿فَٱرۡغَب﴾ بحرف (إلى):

الرَّغبة: طلب حصول ما هو محبوب، وأصله أن يُعدَّى إلى المطلوب منه بنفسه، ويُعدَّى إلى الشَّيء المطلوب بـ (في)، ويقال: رغب عن كذا بمعنى صرف رغبته عنه بأن رغب في غيره. وأمّا تعدية فعل ﴿فَٱرۡغَب﴾ هنا بحرف (إلى) فلتضمينه معنى الإقبال والتَّوجُّه تشبيهًا بسير السّائر إلى من عنده حاجتُه، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: 99][(3)].

**تضمين فعل الرغبة معنى الإقبال**

### سرُّ التَّعبير بعنوان الرُّبوبية:

التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾؛ لما يدلُّ عليه من التربية والإحسان،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 417.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 322.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 417 - 418.

فيكون أنسب بمقام طلب الحاجات، والمعنى: إلى المحسن إليك[1].

وفي الإضافة تشريف وتعظيم للنَّبيِّ ﷺ.

### دلالة الأمر في ﴿فَٱرۡغَب﴾:

الأمر في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱرۡغَب﴾ للوجوب؛ لأنَّه الأصل، ولا صارف عنه، بل سياق الاستمداد من الله خاصَّة يقتضيه.

### غرض حذف مفعول ﴿فَٱرۡغَب﴾:

الآخـرة مطمح أنظار النَّبيِّ ﷺ

حُذف مفعول ﴿فَٱرۡغَب﴾؛ ليعمَّ كلَّ ما يرغبه النَّبيُّ ﷺ، وهل يرغب النَّبيُّ إلّا في الكمال النَّفسانيِّ وانتشار الدّين ونصر المسلمين؟![2]، أو لتنزيل المتعدي منزلة اللازم، فيكون فعل الرغبة متمثلًا في سلوكه الدّائم ﷺ، وهو الأنسب بمقامه ومكانته، فهو راغب فيما عند الله تعالى.

### ردُّ ختام السّورة على أوَّلها:

مـا بـين شـرح الصدر والرغبة كما بين العلة والمعلول

لمّا كان المطلوب بقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ أن يكون الافتقار إلى الله شعار العبد دائمًا في كلِّ حال، كأنَّه قيل: افعل ذلك ألم نشرح لك صدرك؟ فقد اتَّصل آخِرُ السّورة بأوَّلها اتِّصالَ المعلول بالعلَّة[3]، وذلك أنَّ الأمر بالعبادة والرغبة بما عند الله تعالى، كان نتيجة لشرح الصدر، فالتّوفيق من الله تعالى وحده، وواجب العبد إدامة الشكر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 418.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 128.

# سُورَةُ التِّينِ

# سُورَةُ التِّينِ

## التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّي والمدنيّ وعد الآي:

ذَكَرَ القرطبيّ أنّ الأكثرين على مكّيّة السّورة، ولكنّه نقل عن ابن عبّاس وقتادة أنها مدنيّة[1]، وعدّها السّيوطيّ مكّيّة اتّفاقًا ولم يذكر خلافًا في ذلك[2]، وقال ابن عاشور: "الصَّحيح عن ابن عبّاس أنَّه قال: هي مكّيَّةٌ"[3].

وأمّا عدد آياتها: فيقول فيها الدّانيّ: "وَهي ثَماني آيات في جَميع العدَد لَيْسَ فيها اخْتِلاف"[4].

### ترتيب النُّزول وترتيب المُصحف:

جاء ترتيبُها المصحفيّ بين سورتَي الشّرح والعَلَق

هذه السّورة هي الخامسة والتّسعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتَي الشّرح والعَلَق. وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فعُدّت الثّامنة والعشرين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة الإيلاف[5].

### فضائل السّورة:

هذه السّورة من قِصار سور المُفصّل

هذه السّورة من قصار سور المُفصّل الذي قال فيه النَّبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ»[6].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 110.

(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 40.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 419.

(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 279.

(5) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 419، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 229.

(6) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في المعجم الكبير: 22/ 76، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2415).

سورةُ التّين اشتهرت بهذا الاسم

## اسم السّورة ومناسبة التسمية:

وردت تسميتها بسورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾ بإثبات الواو في صحيح البخاريّ[1]، وعند التّرمذيّ[2]، وسُمّيت في بعض التّفاسير سورة (التّين)[3].

والحقّ أنّ تسمية السّورة باسم ما، قد يكون مرتبطًا بمحور السّورة مباشرة، وقد يكون ارتباطُه غيرَ مباشر بأحد محاور السّورة، وقد تُسمّى السّورةُ باسم لفظةٍ تَرِد في الآيات الأولى منها، وهذا هو الغالب في أسماء سور القرآن، وهو الذي نلحظه في هذه السّورة على وجه الخصوص، ومع ذلك فإنّنا لا نعدم ربطًا لاسمها مع محورها، فمقصودُ السّورةِ ونسقُها يقوم على بيان قَسَمِ اللّه تعالى بمواطن الرّسالات الثّلاث ومهابطِ الوَحي.

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها من حيث مطلقُ القدرة فقال: "ومقصودها: سِرّ مقصود ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشّرح: 1]، وذلك هو إثبات القدرة الكاملة، وهو المشار إليه باسمها، فإنّ في خلق التّين والزّيتون من الغرائب، ما يدلّ على ذلك، وكذا فيما أُشير إليه بذلك من النّبوّات، وضمّ القَسَم إلى المُقْسَم عليه، وهو الإنسان، الذي هو المُحِبّ لما في الأكوان، واضح في ذلك"[4].

تذكير الإنسان بأنّ الأديان السّماويّة قامت على الدّعوة إلى عبادة الله والاستقامة على شريعته

## المحور العامّ للسورة:

المحور الذي قامت عليه هذه السّورة هو بيانُ سنّة اللّه تعالى في أنّه خلق الإنسان على فطرة سويّة تُرشِده إلى الدّين القويم، وأنّ الانحراف هو مكسبٌ بشريٌّ لمن تنكّب هذا المنهجَ الفطريّ.

لذا فقد اقتضاها هذا المِحور بيان الأمور الآتية:

(1) البخاريُّ في صحيحه، باب: تفسير سورة (والتين): 4/ 1893.

(2) التّرمذيّ في سننه، باب: ومِنْ سورَةِ (والتّين): 5/ 443.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 419.

(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 209.

**أوّلاً:** القسم بمهابط الرّسالات السّماويّة الثّلاث، التي جاءت تدعو إلى توحيد الله وعبادته على أنّه خَلَق الإنسانَ على أحسن فطرة، من شأنها أن تدلّ عليه.

**ثانيًا:** بيّنت أنّه إن تنكّبَ الجادّة وانحرف عن الطّريق فإنّ الله يَردُّه أسفلَ سافلين، وهي حالة الكفر التي يصل إليها، ثمّ من جزائه في جهنّم بعد ذلك، مستثنيًا المؤمنين الذين يعملون الصّالحات.

**ثالثًا:** ثمّ اقتضاها هذا المِحور أن تسأل النّبيّ ﷺ سؤالًا تعجيبيًّا عن شأن من سيُكذِّبُه بعد ذلك في شأن هذا الدّين الذي أرسله الله تعالى به، وهذا الجزاءِ الذي سيُلاقيه الكافرون بها.

**رابعًا:** تقرر السّورةُ أنّ الله تعالى هو أحكم الحاكمين فيما اختاره لنا من دين، وفيما أعدّه لنا بعد ذلك على حسب تنوّع أحوالنا من مؤمنين وكافرين.

### موضوعات السّورة وخصائصها:

مَــدارُ الـسّــورةِ يـدور حـولَ بيان أنّ الدّين مركوزٌ في الفطرة

احتوَت هذه السّورَة على التّنبيه بأنَّ الله خلَق الإنسان على الفطرة المستقيمَة ليعلموا أنَّ الإسلام هوَ الفطرة، وأنَّ ما يُخالف أصوله بالأصالة أو بالتّحريف فسادٌ وضَلالٌ.

تضمّنت السّورةُ المكّيّة بيان أمورٍ الآتية:

**أوّلاً:** تكريم النّوع الإنسانيّ، حيثُ خلق الله الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاء، حسنَ التَركيب.

**ثانيًا:** بيان انحدار مستوى الإنسان وزجّ نفسِه في نيران جهنّم بسبب كُفره بالله تعالى ورسوله ﷺ، وإنكارِه البعثَ والنّشور، بالرّغم من توافر الأدلّة القاطعة على قدرة الله ﷻ بخلق الإنسان في أحسن تقويم[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 300، 301.

## الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت سورة التّين بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

**أوّلًا:** تميّزت هذه السّورة الكريمة بجمعها بين هذه الأمور الأربعة المُقْسَم بها في صدر السّورة. وهذه الأمورُ المُقسَم بها شمِلَت نبتَتيْن ومَكانيْن، ويبدو أنّ النّبتتيْن كانتا رمزًا لمكانٍ ثالث اتّسق مع مهابط الوحي الرّئيسة، التي مهّدت لظهور الأديان السّماويّة الثّلاثة التي اجتمعت على الدّعوة إلى الدّين الحقّ.

## الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تميّزت سورة التّين بأساليب تعبيرية أفردتها عن غيرها من السّور

**أوّلًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها حوت ثلاثة تراكيب فيها صيغة (أفعل) التّفضيل، أوجزت مقصودَ السّورةِ ومِحورَها الذي قامت عليه، وهي: ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، ﴿ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

**ثانيًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها على قِلّة آياتها وعدد كلماتها، فقد حوت ستّة عشرة اسمًا، نصفُها معرّفٌ بـ(أل)، وهي: ﴿وَٱلتِّينِ﴾، ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، ﴿وَهَٰذَا﴾، ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾، ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾، ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، ﴿تَقۡوِيمٖ﴾، ﴿سَٰفِلِينَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿أَجۡرٌ﴾، ﴿مَمۡنُونٖ﴾، ﴿بِٱلدِّينِ﴾، ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

**ثالثًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها حوت استفهامَيْن إنكاريّيْن متتابعيْن في آخرها، رغم أنّها ثمان آيات فقط، وهما: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

**رابعًا:** تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنيّةً صرفيّة انفردت بها عن غيرها من السّور، مثل: ﴿سِينِينَ﴾، ﴿تَقۡوِيمٖ﴾، كما انفردت السّورة بلفظة: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ التي لم ترد في القرآن الكريم إلّا في هذه السّورة.

**خامسًا:** تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها، حتّى إنّها تُعدّ جميعها نسقًا فريدًا لا يشاركها فيه غيرُها من السّور.

سورة التّين متّصلة تمامًا بسورة الشّرح مضمونًا وأسلوبًا

**مناسبة السورة لما قبلها:**

هذه السّورة شديدة الاتّصال بسورة الشّرح، حيثُ اختصّت سورة الشرح بتحقّق الكمال الإنسانيّ في علم النّبوّة، ثمّ جاءت هذه السّورة لتبيّن الطّريقَ القويم لتحقيق هذا الكمالِ عند سائر البشر.

وقد ذكر اللّه تعالى في السورة المتقدمة حال أكمل الناس خلقًا وخلقًا، وأنَّه أفضل العالم، ثم ذكر في هذه السورة حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من التدني ودخول جهنم إن عادى رسول اللّه ﷺ، أو دخول الجنة إن آمن به وعمل صالحًا[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 301.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ
٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ
سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ
مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التّين: 1 - 8]

## مُناسبةُ السّورةِ لما قبلَها:

أنَّه تعالى ذكر في السّورة السّابقة حالَ أكملِ خَلْقِ اللّه تعالى ﷺ، وذكر هنا حال النَّوع الإنسانيِّ وما ينتهي إليه أمرُه من ضعف بعد قوَّة، وشيخوخةٍ بعد شباب وفتوّة، وما أعدَّه اللّه ﷻ من تمام نعمته لمن آمن باللّه ورسوله، ودوامها واستمرارها، وعدم انقطاعها، وأجر المؤمنين موصول، وكرامتهم عند اللّه تعالى محفوظة، وهم بإذن اللّه تعالى لا يخرفون ولا يهرمون، ولا يذهب عقل من كان عالمًا عاملًا منهم، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم[1].

من حفظ جوارحه وصانها أكرمه اللّه ومتَّعه بها

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلتِّينِ﴾: (التّينُ) هذه الفاكهةُ المَعروفة[2]، والمرادُ به في الآية: إمّا هذا المعنى الحقيقيّ؛ للتّذكيرِ بعظَمةِ الخالقِ تعالى، وكبيرِ نعمتِهِ على الإنسان، وإمّا للدّلالةِ به على اسم جبلٍ يُنبِتُ التّينَ، فقد قيل: إنَّ (التّين والزّيتون): "اسمانِ لجبلينِ يُنبِتانِ التّينَ والزّيتون بالشّام، يُسمَّيانِ بطورِ تينا وطورِ زيتا[3]، وقيل: (التّينُ) مَسجدُ نوحٍ المبنيُّ على الجوديّ، و(الزَّيتونُ) مسجدُ بيتِ المَقدس. وعن ابنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 130، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 123، والمعجم الوسيط، ومجمع البحوث: 10/ 1958.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (تين).
(3) الحمويّ، معجم البلدان: 4/ 47.

عبّاس رضي الله عنهما: "هو تينُكُم الَّذي تأكلونَ، وزيتونُكُم الَّذي تَعصِرونَ، وقيلَ: التّينُ جبلُ دمشقَ، والزّيتونُ جبلُ القُدْسِ"[1].

2) ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾: (الزَّيتونُ) ثمرٌ معروفٌ، والزّيتُ دُهنُهُ، وزاتَهُ يُزيتُهُ: إذا دهنَهُ بالزَّيت[2]، والزّيتُ: مخّ الزَّيتون، وطعامٌ مُزيّتٌ ومزيوتٌ: جُعِلَ فيهِ الزّيت[3]، فهو مجموعُ الشّجَرة وثمرتُها، ويدلُّ على هذا عدمُ وجودِ كلمةٍ تدلُّ على خصوصِ الشّجَرة[4]. والزّيتونُ: اسمُ جنسٍ، واحدُهُ زيتونةٌ، كقمْحٍ وقَمْحةٍ، وازْداتَ فلانٌ، أي: ادّهَنَ بالزَّيت. وقولُهم: أرضٌ زَتِنةٌ، أي: كثيرةُ الزّيتون؛ يدلُّ على أنَّ نونَهُ أصليَّة وياءَهُ زائدةٌ، لكنَّهم بوَّبوا عليه في مادّة (زيت)"[5]. والمرادُ به في الآية إمّا المعنى الحقيقيُّ وهي الثّمرةُ المعروفةُ؛ بيانًا لِمنّة اللّه على الإنسانِ وتعدادًا لنِعَمِه العظيمةِ عليه، وإمّا المعنى المجازيّ فهو اسمُ جبلٍ ينبتُ عليهِ الزَّيتون.

3) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: (الطّورُ) (طور) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ، وهو الامتدادُ في شيءٍ، مِن مكانٍ أوْ زمانٍ، ولذلك يقالُ: عدا طَوْرَه، أي: جازَ الحدَّ الّذي هو لهُ من دارِه، والطّورُ أيضًا جبلٌ، فيجوزُ أن يكونَ اسمًا علَمًا موضوعًا، ويجوزُ أنْ يكون سُمّي بذلك لما فيه من امتدادٍ طولًا وعَرضًا[6]، ورجلٌ طوريٌّ، أي: غريبٌ، وحَمامٌ طوريٌّ: إذا جاءَ من بلدٍ بعيد[7]، ولا يُسمَّى الجبلُ (طورًا) حتَّى يكونَ ذا شجرٍ، ولا يقالُ للأجرد طورٌ، وبلسانِ النّبط: كلُّ جبلٍ يقالُ له طور؛ فإذا كان عليه نبتٌ وشجرٌ قيلَ: طورُ سَيناء، وقال الجوهريُّ: طورُ سَيناء جبلٌ بالشّام، وهو طورٌ أُضيفَ إلى سَيناء، وهو شجرٌ، وكذلك طورُ سينينَ، والسّينيّة: شجرةٌ، حكاهُ أبو حنيفةَ عن الأخفش، وجمعُها سينين[8]، وقيل: معنى (سينينَ) حَسَنٌ مُبارك، وقيلَ معناهُ: ذو الشّجَر[9]. والمرادُ به في الآية على أرجحِ الأقوالِ: الجبلُ الّذي كلَّم اللّه تعالى عليهِ موسى عليه السلام.

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 1/ 272.
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (زيت).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (زيت).
(4) المُصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 352.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 155.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طور).
(8) الحمويّ، معجم البلدان: 4/ 47.
(9) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 395.

4) ﴿تَقۡوِيمٖ﴾: (قوم) أصلانِ صَحيحان، يدلّ أحدُهما على جماعةِ ناسٍ، وربَّما استُعير في غيرِهم، والآخر على انتصابٍ أَوْ عَزْمٍ[1]، وقامَ بالأمر يقومُ به قيامًا، فهو قوّامٌ وقائمٌ، والقَوامُ: العَدْلُ والاعتدال، وقوّمتُهُ تقويمًا فتقوَّمَ، بمعنى عدَّلتُهُ فتعدَّلَ، وقوّمتُ المتاعَ: جعلتُ لهُ قيمةً معلومةً[2]، والتَّقويمُ تفعيلٌ يُلاحَظُ جهةُ الوقوعِ فيه، أي: يكونُ النَّظرُ إلى جهةِ تعلُّقِ الفعلِ إلى المفعولِ، فالتَّقويمُ بمعنى جَعْلِ الشّيءِ قائمًا ومُنتصِبًا، وليس بمعنى التَّعديل[3]. والمرادُ به في الآية: كمالُ الاستعدادِ البدنيِّ والرّوحيِّ لتلقّي الحكمةِ الإلهيَّة.

5) ﴿مَمۡنُونٖ﴾: (مَنَّ) أصلانِ؛ أحدُهما: يدلُّ على قَطْعٍ وانقطاعٍ، والآخَرُ: على اصطناعِ خيرٍ[4]، ومَنَّ عليه بالعِتق وغيرِهِ مَنًّا (من بابِ قتلَ)، وامتنَّ عليهِ به أيضًا: أنعمَ عليهِ به، والاسمُ المِنّة، والجمعُ مِنَنٌ، ومننتُ عليه منًّا: عددتُ له ما فعلتُ لهُ منَ الصَّنائع، وهو تكديرٌ تنكسِرُ منهُ القلوب، ونهى الشّارعُ عنه بقولِه: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، ومننتُ الشَّيءَ مَنًّا أيضًا: قطعتُهُ، فهو مَمنونٌ. والمَنونُ: المَنيّة، وكأنّها اسمُ فاعلٍ من المَنِّ وهو القطعُ، لأنّها تقطعُ الأعمارَ[5]، فهو بِرودُ النِّعمة المعيّنة المقطوعةِ المَخصوصة، وبهذه المناسبةِ تُطلَقُ على معنى القَطْعِ[6]. والمُرادُ به في الآية: عطيّةٌ مطلَقةٌ غيرُ محدودةٍ لا انقطاعَ فيها بوجهٍ.

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أقسمَ المَولى تعالى بأماكنِ نزولِ الرّسالات السَّماويَّة، إثباتًا لصحّةِ الرِّسالة الإسلاميّة، وردًّا على مَن يحاولُ التّشكيكَ فيها وفي صدقِ المُبلِّغ لها ﷺ، والغرضُ من القَسَم: إثباتُ أنَّ الإنسانَ قادرٌ بما خلقَهُ اللّه مِن استعداداتٍ وملَكاتٍ عقليّةٍ أن يؤمن بتلك الرِّسالة ويرتقي بها، لكنَّه برفضِهِ وتشكيكِهِ نزلَ إلى أسفلِ خَلْقِ اللّه، فجَحدَ المُنعِمَ، وردَّ الرِّسالات، ورفضَ الدّينَ الحقَّ، إلّا نفرًا تمسَّك بالإيمان والعملِ الصّالح، فبقي على

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) المُصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 320.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منن).
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (منن).
(6) المُصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 173.

تكذيبُ النَّبيّين اعتراضٌ على أحكَمِ الحاكِمين

سموُّهِ ورقيِّه الإنسانيّ، وهم لذلك يستحقّونَ الأجرَ العظيم الّذي لا يَنقطِعُ ولا ينتهي، ومن خلقَ الإنسانَ وخلقَ له ما ينتفعُ به بَدَنًا وروحًا يستلزمُ التَّصديقَ لا الجحودَ به، فلا يكون هنالك دافعٌ لتكذيبِ النَّبيِّ ﷺ في دَعوى النُّبوَّةِ؛ لأنَّ اللّه أحكمُ الحاكمينَ في اختيارِ مَن يشاء لرسالتِهِ ونُبوّتِهِ.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ (الواوِ) والغرضُ منها:

مِنَ الاهتمامِ بالكلامِ استئنافُهُ بالأقسامِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾؛ للدّلالة بها على القَسَمِ، فهي حرفُ جرٍّ مُتعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: أُقسِمُ مثلًا؛ والغَرضُ من الابتداءِ بالقسَمِ التَّوكيدُ ولفتُ انتباهِ المُخاطَبِ بالكلامِ إلى أهمّيَّتِهِ، وتشويقُ المُخاطَبِ لسَماعِ جوابِهِ الَّذي جاء القَسَمُ له، قال ابنُ عاشور: "ابْتِداءُ الكَلامِ بالقَسَمِ المُؤَكِّدِ يُؤْذِنُ بأهَمّيَّةِ الغَرَضِ المَسوقِ لَهُ الكَلامُ"[1].

### براعة الاستهلال في السّورة بالمُقسمات الأربعة:

تناسبُ الأقسامِ مع غرضِ السّورة

بناء على ما يقع في المُقسَمات الأربعة من الإشارة الضّمنيّة إلى مهابط الأديان السّماويّة، وعلى ما تحويه النّماذج الرّبّانيّة المَرموزِ لها بالتّين والزّيتون في إبداع الخالق تعالى، جاءت الأقسام متناسبةً مع "غَرَضِ السّورَةِ، وهوَ أنَّ اللّه خَلَقَ الإنْسانَ في أحْسَنِ تَقْويم، أي: خَلَقَهُ عَلَى الفِطْرَةِ السَّليمَةِ مُدْرِكًا لِأدِلَّةِ وجودِ الخالِقِ ووحدانيِّته، وفيهِ إيماءٌ إلَى أنَّ ما خالَفَ ذَلِكَ مِنَ النِّحَلِ والمِلَلِ قَدْ حادَ عَنْ أُصولِ شَرائِعِ اللّه كُلِّها بقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ اخْتِلافِها في الفُروعِ، ويَكْفي في تَقَوُّمِ مَعْنَى بَراعَةِ الِاسْتِهْلالِ ما يَلوحُ في المَعْنَى مِن احْتِمالٍ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 420.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 423.

### سرُّ اختيارِ (التّينِ) مُقسَمًا بهِ نظرًا للحقيقةِ:

الصَّنعةُ المُحكَمة دالّةٌ على القُدرة المُطلَقَةِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (التّين) مُقسَمًا به في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾؛ إمّا باعتبارِ ظاهِرِه ومعناهُ الحقيقيِّ، وهي الثَّمَرةُ المَعلومةُ وحالةُ هذه الثَّمرة ببديع الخَلْق أنّها "دالَّةٌ عَلَى دِقَّةِ صُنْعِ اللّه، ومُؤْذِنَةٌ بعِلْمِه وقُدْرَتِه، فالقَسَمُ بها لِأَجْلِ دلالَتِها عَلَى صِفاتٍ إلَهيَّةٍ، كَما يُقْسَمُ بالِاسْمِ لِدَلالَتِهِ عَلَى الذّاتِ، مَعَ الإيذانِ بالمِنَّةِ عَلَى النّاسِ؛ إذْ خَلَقَ لَهُمْ هَذِهِ الفاكِهَةَ الَّتي تَنْبُتُ في كُلِّ البِلادِ، والَّتي هيَ سَهْلَةُ النَّباتِ لا تَحْتاجُ إلَى كَثْرَةِ عَمَلٍ وعِلاجٍ"[1].

### سرُّ اختيارِ (التّينِ) مُقسَمًا بهِ نظرًا للمجازِ:

مَنابتُ التّين براعةُ استهلالٍ على خلقِ الإنسانِ بالفِطرة على الدّين

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (التّين) مُقسَمًا به في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ الدّالَّ مَجازًا على المكانِ الّذي يَنبتُ فيه، فيكونُ من إطلاقِ الحالِّ وإرادةِ المَحلّ، أي: مَنبَت التّين الَّذي هو مسجدِ نوحٍ عليه السلام[2]، بقرينةِ عطفِ (الطّور والبلد الحرام) وهما من أسماءِ الأماكن، فيكونُ (التّينُ) مَجازًا عن المكانِ الَّذي ينبُتُ فيه، وهو مَهبَطُ أوّلِ شريعةٍ، والغرضُ حينَئذٍ القسَمُ بما يَشْمَلُ مَهابِطَ أشْهَرِ الأدْيانِ الإلَهيَّةِ[3].

### تفصيل الاستدلال بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

التّينُ والزّيتون دالّتانِ على فاكهةٍ أو مَكانٍ مَصون

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (التّينِ والزَّيتون) في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾؛ للدّلالة به إمّا على المعنى الحقيقيِّ، بمعنى: الثَّمرتين المَعلومَتين[4]، أوْ بمَعنى الشَّجرتَين المَعلومتين، قال ابن عاشور: "ويَجوزُ عِنْدي أن يَكونَ القَسَمُ بـ (التّينِ والزَّيْتونِ) مَعْنيًّا بهِما: شَجَرُ هاتَيْنِ الثَّمَرَتَيْنِ، أيِ: اكْتَسَبَ نَوْعاهُما شَرَفًا مِنْ بَين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 420.

(2) وهو المرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعن غيره، يُنظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 504.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 423.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 144.

الأشْجار بكونِ كَثيرٍ مِنْهُ نابتًا في هَذَيْنِ المَكانَيْنِ المُقَدَّسَيْن"[1]. أو للدّلالة بهِ على المعنى المجازيِّ، وهي منابتُ التّين، فيكونُ مَجازًا مُرسَلًا لعلاقةِ الحاليّة، أي: "بإطلاقِ الحالِّ وإرادةِ المَحلِّ، على القولِ بأنَّه أرادَ موضِعَهما"[2]، "فيجوزُ أنْ يكونَ على حذفِ المُضاف، بتقدير: (ومنابتِ التّينِ والزّيتون)، ويجوزُ أن يكونَ قد أطلقَ عليها اسمَ ما تُنبتُهُ"[3].

والحاملُ على إرادة المعنى المجازيِّ هو عدَّة قرائن؛ منها: دلالةُ العطفِ لاِسْمَي مكانَين هما: (الطّورُ والبلدُ الحرام) على اسمَي الفاكهة، فذلك دليلٌ مرجِّحٌ لإرادة المعنى المجازيِّ، قال ابن عاشور: "وَلَكِنَّ مُناسَبَةَ ذِكْرِ هَذَيْنِ مَعَ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ومَعَ ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ تَقْتَضي أنْ يَكونَ لَهُما مَحْمَلٌ أوْفَقُ بالمُناسَبَةِ؛ فروِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أيْضًا تَفْسيرُ (التّينِ) بأنَّهُ مَسْجِدُ نوحٍ الَّذي بُنِيَ عَلَى الجوديِّ بَعْدَ الطّوفانِ"[4].

ومن القرائن المساندة لإرادة المعنى المجازيِّ: أنَّ المعنى العامَّ للسّورةِ الدّالَّ على صدقِ نُبوّةِ محمَّد ﷺ، ببيانِ أنَّه كسائرِ الأنبياءِ والمُرسَلين الّذين هبطتْ عليهم الرِّسالات، وأنّ خلقَ الإنسان في أحسنِ إبداعٍ وتكميلٍ عقليٍّ يُناسبُ إرادةَ أمكنةِ نُزولِ الوحي الإلهيِّ؛ وإلّا فمن لم يَتبعْ رُدّ إلى أسفلِ سافلينَ في الإدراك العقليّ.

### دلالةُ الكِنايةِ أوِ التّورية في ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾:

الجمعُ بينَ المعنيين مِن خلال الكنايةِ الدّالّة على المُتلازمَين

ذهبَ جمهورُ المفسِّرين في تسميةِ العدولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ إلى أنَّه من المجازِ المُرسَل، وعلاقتُهُ ذكرُ الحالِّ وإرادةُ المحلّ، بحسب التَّفصيل الآنف الذِّكر. ويجوز أن يكون من قبيل

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 420.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 141.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 144.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 420.

الكنايةِ أوِ التّورية[1]، وهي ذِكرُ الملزوم وإرادةُ لازمِهِ في الكِناية، أوْ تبادرُ المعنى القريبِ من اللَّفظ وإرادةُ المعنى البعيدِ منه في التَّورية؛ إذ كلٌّ من (التّين والزّيتون) بالقرينةِ المُرجِّحة (الطّور والبلد الأمين) يجوزُ فيهما إرادةُ المعنى الحقيقيِّ والمعنى الكنائيِّ، وذلك ضابطُ الكناية، كما يصلحانِ أنْ يكونا قرينتينِ مُرشّحتينِ للتَّورية، فليست هنالك قرينةٌ مانعةٌ من إرادةِ المعنى الأصليّ، وهما الثّمَرتان المعلومتان، بل لكلٍّ من المعنيينِ الحقيقيِّ والكنائيِّ توظيفُهُ السّياقيُّ الدّالّ، قال بعضهم: "يكونُ (التّين والزَّيتون) كنايةً عن مواضِعَ كنَّى بها عن مَغارسِها الّتي تكثُرُ فيها، حتّى يتناسَبَ الإقسامُ بهما مع الإقسام بـ(طورِ سينينَ) وبـ ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ اللّتين عُطِفتا عليهما، ورُجِّحَ على القولِ المُقابل؛ حيثُ فُقِدَ فيه التَّناسُبُ الَّذي يقتضيه العطفُ؛ إذ عُطِفَت الأماكنُ على الأشجارِ"[2].

بقي أنَّ الأنسبَ في المعنى الكنائيّ أو المورّي بـ(التّين والزَّيتون) كونُها عنِ (الجبال) دونَ مُطلقِ (المَنابت)؛ لأنّ الملائمَ للقَسَم والأنسبَ بالكناية والتَّوريةِ في السّياق أن تكونَ تعظيميّةً للمكان، والجبالُ الّتي تنبتُ فيها هاتانِ الشّجرتانِ أنسبُ في التَّأويلِ للقسَمِ العظيمِ.

**التَّقديمُ والتَّأخير فيما أقسم به الله تعالى:**

الجمعُ بينَ الأماكنِ والأشجار اختيارٌ إلهيٌّ للمُحيطِ بالأبصار

راعَى النَّظمُ الكريمُ الَّذي ليس له نظير في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾؛ بناءً على أنَّ مكانَ (التّين) هو مسجدُ (نوحٍ) ﵇ والإيماءُ إلى شريعته، ومكانَ (الزَّيتون) هو المسجد الأقصى ومكانُ (عيسى) والإيماءُ إلى شريعته، وأنَّ المراد بـ(طور سينين) شريعةُ موسى ﵇، و﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ شريعتا إبراهيمَ ومحمَّد عليهما الصَّلاةُ والسَّلام،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 422.

(2) مجمع البحوث، المعجم الوسيط: 10/ 1960.

فلم يُراعِ النَّظمُ في التَّرتيبِ الذِّكريِّ التَّرتيبَ الخارجيَّ، وعلّلوا ذلك بمراعاةِ النَّظير[1]، وهو جعلُ الثَّمرتينِ المتَناسبتينِ في الثَّمريَّة في مكانٍ، وجعلُ (المكانينِ) المُتناسبين في المكانيّة في موقعٍ متقاربٍ، وذلك من مُراعاةِ النَّظير والجمع بين التَّوْريتَين أوِ الكنايتين في ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾.

والّذي يبدو أنَّ التَّرتيبَ الذِّكريَّ بين الأقسام الأربعة قد وقعَ فيها التَّرتيبُ الخارجيُّ والذِّكريُّ؛ إذِ (التّين والزَّيتون) شاملٌ لجميعِ الأنبياءِ والرُّسُل الَّذين أُرسلوا في بقاعِ التّينِ والزّيتون، وأنَّ الطّورَ شريعةُ موسى الّتي تمثّلُ شريعةَ مَن جاءَ بعدَه حتَّى عيسى ﵇، وأنَّ البلد الأمينَ هو شريعةُ الإسلام الأمينةُ على كافّةِ الرَّسائل والحِكمِ الإلهيّةِ الجَليلةِ.

### دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل):

عهديّةُ مكانِ الرِّسالات تُلْزِمُ الإيمانَ بسيِّدِ السّادات

عرّفَ النَّظمُ الكريم بـ(أل) كلًّا من الثَّمرتينِ أوِ الشَّجرتين الواردتينِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾؛ إمّا للدّلالةِ بهما على الجنسِ والحقيقة إنْ أُريد بهما الثّمرتانِ أوِ الشَّجرتان، أوْ للدّلالة بهما على العهدِ في مكانينِ معيّنينِ نزلَ فيهما الوحي الإلهيُّ كما أُريدَ من (الطّور والبلدِ الأمين)، قال الخفاجيُّ: "وقولُهُ: (أوِ البُلْدان) يعَني دمشقَ وبيتَ المقدس؛ فالتَّعريفُ عهديٌّ"[2]، والَّذي يترجّحُ: أنَّ المرادَ الاستغراقُ لجميعِ مَنابتِ التّين والزَّيتون المعروفةِ والمُتوزّعة في بلادِ الشّام، فيكونُ هنالك ذكرٌ لكثيرٍ من الأنبياءِ الَّذين أُرسلوا في تلكَ البِقاع والقُرَى.

### دلالةُ (الواو) في ﴿وَطُورِ﴾ والغرضُ منها:

الخالقُ الجليل يُعظِّمُ مواطنَ التّنزيل

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 422.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 375.

للدّلالة بها على العطفِ والجمعِ والاقتران، ومن مُناسبات العطفِ إنْ كان (التّين والزَّيتون) بمعناهُما الظّاهر الجمعُ بينَ هذه الأجناسِ الَّتي في خَلْقِها وإبداعِها دلالةٌ عظيمةٌ على موجدِها تعالى، وأنَّه أحكمُ الحاكمين وأحسنُ الخالقين.

وإنْ كانا بمعناهُما الكنائيّ - وهي جبالُ تلك الشَّجرتين - فالجمعُ بين مواطنِ الرِّسالات؛ توكيدًا على وحدةِ مَصدرِها، وصحَّةِ مَبدئها، وجلالةِ قدرِها؛ لذلك فإنَّ اللهَ العظيم يُقسِمُ بها تعظيمًا لوحيِهِ، وتكريمًا لِمَهبَطِ رسالاتِهِ، المُستلزم جلالةَ تلك الرِّسالات وعظمَتَها وقَداستَها.

### سرُّ اختيارِ المُقسَمِ به ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾:

عناصِرُ التّرجيح مُمتدّةٌ في النّظمِ الفَسيح

بعدَ أنْ عبَّر النَّظمُ الجليل بـ(التّين والزَّيتون) مُقسَمًا بهما، عطفَ مُقسَمًا به آخرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ للدّلالة به على تحديدِ المرادِ بما قبلَه، وليكون قرينةً سياقيَّة على أنَّ المُراد بـ(التّين والزَّيتون) تلك الجبالُ الّتي تنبتُ فيها تانِكَ الشّجرتان، وهبطتْ فيها التَّشريعاتُ السّماويَّة الحقَّة،؛ إذ "طور سينينَ هوَ الجَبَلُ المَعْروفُ بـ(طورِ سينا)، والطّورُ: الجَبَلُ بلُغَةِ النَّبَطِ، وعُرِفَ هَذا الجَبَلُ بـ(طورِ سينينَ) لِوُقوعِهِ في صَحْراءِ (سينينَ)، وقيلَ: سينينَ اسْمُ الأشْجارِ بالنَّبَطيَّةِ أوْ بالحَبَشيَّةِ، وقيلَ: مَعْناهُ الحُسْنُ بلُغَةِ الحَبَشَةِ"[1].

### مناسبةُ إيراد لفظ (الطّور):

الأشـجـارُ والأثمار مُناسبةٌ في سياقِ المنِّ والإفضالِ

آثَر النَّظمُ الكريم لفظَ (طور) في قولِهِ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ للدّلالة به على أنَّه مُغطّى بالأشجارِ والأثمار، إذ ليسَ كلُّ جبلٍ طورًا، والغرضُ من ذِكرِ الجبلِ الّذي كلَّم اللهُ تعالى (موسى) عليه السلام هنا بلفظِ (الطّور) دونَ (الجبل) أنَّ السّياقَ يتكلَّمُ عن نعمةِ الوحيِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 421.

وخيريَّةِ الأديانِ؛ لما يستلزمُهُ من ذكر الأثمارِ والأشجار الَّتي هي نعمةٌ عظيمةٌ للإنسان، وجمالٌ وبهاءٌ وخيرٌ، بخلافِ سياقِ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143] الدّالِّ على عظمةِ المولى واقتدارِهِ العظيم؛ فاختيرَ لفظُ (الجبل) بقوّتِهِ حتَّى يندكَّ ويُسوَّى بالأرض.

**نُكْتَةُ الإضافةِ أوِ العَلَميَّة في ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾:**

تعظيمُ اللهِ للمكان تذكيرٌ بأهمّيَّةِ الرِّسالات لبَني الإنسان

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (طور) إلى ﴿سِينِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ للدّلالة به على التَّخصيصِ للطّور بذلك الموضِع المسمَّى بـ﴿سِينِينَ﴾، سواءٌ كان ﴿سِينِينَ﴾ بمعنى البقعةِ المعيَّنة، أوْ بمعنى الأشجار، أوْ بمعنى الحُسن والجَمال، إذ يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه دلالةَ التّعيينِ والتّخصيص. ولا يبعُدُ أنْ يكونَ (طورُ سينين) علَمًا إضافيًّا دالًّا على بقعةٍ معيّنة خاطبَ اللّه تعالى فيها موسى عليه السلام وأعطاهُ الألواحَ، وسواءٌ كان التّركيبُ إضافيًّا أوْ علَمًا، فإنَّ "الإقسامَ به تذكيرٌ بما كان عند ذلك الجبلِ من الآياتِ الباهراتِ الّتي ظهرَتْ لموسى وقومِهِ، وما كان بعد ذلك من إنزالِ التّوراةِ عليه، وظهورِ نورِ التّوحيدِ بعدَ أنْ تدنّسَتْ جوانبُ الأرض بالوثنيَّة، وما زالَ الأنبياءُ بعدَهُ يدعونَ أقوامَهم إلى التَّمسُّك بهذه الشَّريعة، ثمَّ عرضتْ لها البدع"(1).

**سرُّ إيثار لفظ ﴿سِينِينَ﴾:**

امتدادُ البِقاع يُناسِبُ عظمةَ الرِّسالاتِ في الاتِّساع

آثر النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿سِينِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ للدّلالة باللّفظ الّذي على صورةِ الجمع على البقاعِ المُمتدّة طولًا وعَرضًا في ذلك الجبلِ. "فقَدْ جاءَ تَعْرِيبُهُ في العَرَبِيَّةِ عَلَى صيغَةٍ تُشْبِهُ صيغَةَ (جَمْعِ المُذَكَّرِ السّالم)، ولَيْسَ بجمع، فجازَ في إعْرابِهِ أنْ يُعْرَبَ مِثْلَ إعْرابِ جَمْعِ المُذَكَّرِ بالواوِ نيابَةً عَنِ الضَّمَّةِ، أوِ الياءِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 128.

نيابَةً عَنِ الفَتْحَةِ أوِ الكَسْرَةِ، وأنْ يُحْكَى عَلَى الياءِ مَعَ تَحْريكِ نونِهِ بِحَرَكاتِ الإعْرابِ مِثْلِ (صِفّينَ ويَبْرِينَ)"[1]، والغرضُ من الامتدادِ المكانيّ الإشارةُ إلى الاتّساعِ الرّساليِّ، وامتداد تلك الشّريعة إلى زمنِ سيّدِنا محمّد ﷺ. وأمّا إنْ كان علَمًا على المنطقةِ المُعيّنة، فإنَّ إيرادها بهذا اللّفظ رعايةٌ للفاصلةِ القرآنيّة، ويُؤخَذُ الامتدادُ حينئذٍ من تكرارِ نونِهِ[2].

**دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَهَٰذَا﴾ والغرضُ منها:**

صِدقُ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ لكونِها خاتمةَ الرِّسالاتِ السَّماويَّة

عبّرَ النّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾؛ للدّلالة بها على العطفِ والجَمْعِ والاقتران، ولمّا كانتِ (الواوُ) عاطفةً مُقسَمًا به على مُقسَم قبلَه فإنَّ (الواو) تدلُّ على القَسَم بهذا البلدِ الأمينِ الكريم والحرمِ الشَّريف، والغرضُ من العطف له الدّلالةُ على أنَّه مهبَطُ وحيِ اللّه، كما أنَّ تلك الأماكنَ مهابطُ وحيِهِ ورسالاتِهِ، فلم تكن هذه الرِّسالةُ بدعًا من الرِّسالات السّابقة، ولم يكُن هذا النَّبيُّ الكريمُ بدْعًا من الرُّسُل، والغرضُ من القَسَم به الدّلالةُ على تعظيمِ هذا المكانِ بعَظَمة الوَحيِ الَّذي نزلَ فيه وعظَمةِ البيتِ الَّذي فيه.

**نُكْتَةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ (هذا):**

التّعظيمُ والحُضور لإزالةِ أيِّ التباسٍ أوْ غُموض

عبَّر النّظمُ الكريم باسم الإشارةِ المَوضوعِ للقريب في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾؛ للدّلالة به على تعيينِ المُشارِ إليه تعيينًا لا يَحتمِلُ أيَّ التباسٍ أوْ غُموض، إذِ الإشارةُ بالاسم الدّالِّ على القُربِ تفيدُ أنّه مُتعيِّنٌ للمخاطَبينَ تعيُّنًا حِسّيًّا مُشاهَدًا مُبصَرًا، وأنّه حاضرٌ لديهم حُضورًا قريبًا، والغرضُ من تقريبِهِ: بيانُ قُربِهِ الحِسّيِّ مَعَ عظمتِهِ منَ المخاطَبين، وقُربِهِ المعنويِّ ومنزلتِهِ من المتكلِّم العَظيم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 421.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 128.

قال ابنُ عاشور: "والإشارَةُ إلَيْهِ لِلتَّعْظيم، ولِأَنَّ نُزولَ السّورَةِ في ذَلِكَ البَلَدِ فهوَ حاضِرٌ بِمَرْأًى ومَسْمَعٍ مِنَ الْمُخاطَبينَ نَظيرَ قَوْلِهِ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البَلَد: 1]"(1).

### سرُّ تخصيصِ المُقسَمِ به باسمِ الإشارة:

حضورُ الرِّسالةِ الخاتِمةِ غيابٌ للرِّسالاتِ السّابقة

خصَّصَ النَّظمُ الكريم هذا المُقسَمَ به دونَ ما سبقَهُ بلفظِ (اسمِ الإشارةِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة بلفظِ الحُضورِ الإشاريِّ إلى أنَّ هذا الزّمنَ زمنُهُ وأنَّ هذا الحاضِرَ حاضِرُه، وأنَّ تلكَ الأمكنةَ قد شَهِدت نزولَ الدّيانات والرِّسالات، وأنهّا انقضَى زمنُها وحضورُها، وبدأ عصرُ الرِّسالة الخاتمةِ والنَّبيِّ الخاتم، الَّذي يَنتمي برسالتِهِ إلى تلكَ الرِّسالات السّابقةِ بوحدةِ المَصدر والمُعتقَدِ والهَدفِ والمَصير، فالَّذين آمنوا بتلك الرِّسالات عليهم أنْ يَقتدوا بهذه الرِّسالة الخاتمة، وأمّا أهلُ هذا البلدِ الأمين فقد تميَّزَ لديهم بهذا الخطابِ والتَّأييدِ بالرِّسالات السّابقة صدقُهُ وصحّةُ دعوتِهِ، فلا مكانَ للتَّكذيب، ولا مجالَ للصَّدِّ والعُدوان.

### دلالةُ المَوقعِ الإعرابيِّ للفظِ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾:

الإبـهـامُ ثـمَّ التَّفصيل تقريرٌ للمَعنى بلا تأويل

أبدلَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ من اسمِ الإشارة؛ للدّلالة على أنَّه المقصودُ بالإشارةِ تمييزُهُ وتوضيحُهُ وتعيينُهُ، إذ اسمُ الإشارة من الألفاظِ المُبهمة الَّتي تحتاجُ إلى بيانِ مَرجعِها والمشارِ إليه بها حتَّى يتعيَّنَ مدلولُهُ، والغرضُ من الإبهام ثمَّ التّعيينُ الدّلالةُ على قربِ المُشار إليه وأنَّه شيءٌ عظيم، كما أفادتِ البدليّةُ تقريرَ المعنى وتوكيدَهُ وتوضيحَهُ، وعُرِفَ من البدل بلفظِ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ أنَّه مكانُ إقامةٍ يبلُدُ فيه النّاسُ ويَستقِرّون، وليس مَوطِنَ خيامٍ ومحطَّ ارتحالٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 422.

**دلالةُ (ألْ) في ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ والغرضُ منها:**

عرّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة بها على العهدِ الحُضوريّ المشاهَدِ المَحسوسِ المُبصَر، وهي مكّةُ المكرّمةُ وحرمُ اللّه الأمين ومحلُّ بيتِه العتيق، كما نلمحُ في (أل) دلالةَ التَّعظيم والشُّهرة، وكأنَّه البلَدُ الشّهير الَّذي لا يغيبُ عن الذِّهنِ عندَ إطلاقِ اللّفظ عليه، وما عداهُ من البُلدان فرعٌ عليه، ولذا سُمّيتْ مكّةُ بأمِّ القُرى.

**القسَمُ ببلَدِ النُّزول دالٌّ على صِدقِ الرَّسول**

**سرُّ ذكر ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾:**

آثَر النَّظمُ الكريمُ التّصريحَ باسم (مكَّةَ) إلى الإشارةِ والإبدالِ والتّوصيف في قولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة على أنَّه صارَ بلَدًا ومحلَّ إقامةٍ بعدَ أنْ أكرمَهُ اللّه بزمزمَ، واجتمعَ النّاسُ حولَ تلك البئرِ الثَّرّةِ العجيبة، وأقاموا به إقامةً دائميَّةً، فاستحقَّ أنْ يُشارَ إليه، ففي لفظِ ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ تذكيرٌ لهم بنعمةِ صَيرورته بلدًا قبلَ وصفه بالأمين؛ إيماءً إلى أنَّها رسالةٌ مُقيمةٌ في الأرض مدنيّةُ التّوجُّهِ، متحضِّرةُ التّكوين.

**رسالةُ الإسلام والإيمان راسخةٌ رسوخَ البُلدان**

**نُكْتَةُ التّصريح بالمكانينِ (الطّور) و﴿ٱلۡبَلَدِ﴾:**

صرَّحُ النّظمُ الكريم بالمَكانينِ في قولِه تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة على ترشيح المعنى الكنائيِّ بلفظَي (التّين والزَّيتون)، وأنَّ المراد منهما أمكنةٌ معيّنةٌ لهبوطِ الوَحْي والرِّسالة، وأنّ القسَمَ بهذه الأمكنةِ لتشريفِها بالنُّبوّات والرِّسالات، وذلك التَّشريفُ يقتضي وجوبَ الإيمانِ بها؛ ليكون الإنسانُ في أحسنِ تقويم، وإلّا هبطَ إلى أسفلِ سافِلينَ، قال البقاعيّ: "صرَّح هنا بهذَينِ المكانينِ ترشيحًا؛ لأنَّ المراد بالأوّلينِ مواضِعُ نبتِهما مع تلك الإشارةِ اللَّطيفة بذِكر اسمَيهما إلى مُناسبتِهما للمُقسَمِ من أجلِهِ"[1].

**ترشيحُ الكِناية دالٌّ على عِلّةِ القَسَم وجلالةِ الرِّسالة**

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 137.

### دلالةُ النّعتِ بصيغةِ المُبالغةِ:

نعمةُ الأمان مغبونٌ بها كثيرٌ من النّاس

نعتَ النَّظمُ الكريم ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ بصيغةِ المُبالغة ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة على أنّه بلدٌ يتحقّقُ فيه الأمنُ بشكلٍ كبيرٍ ومتنوّع، حتّى إنّه من كثرةِ أمانِ أهلِهِ على أنفسِهم وأهليهم وأولادِهم وخيراتهم كان البلدُ كثيرَ الأمان، لا يعتريهِ أيُّ نقصانٍ في أمنِهِ وسكينتِهِ؛ وما ذلك الأمانُ إلّا لمكانةِ البيت العتيقِ الّذي يَحجُّه العربُ للعبادةِ ويَقصدونَهُ للنُّسُك، وفي توصيفِ البلد بهذا النّعتِ تذكيرٌ لهم بالنِّعمة ومنٌّ عليهم بالفضل، ممّا يتوجّبُ عليهم أداءُ تلك النِّعمة بالإيمانِ والانقياد وإلّا بُدِّلَ أمنُهُم خَوْفًا.

### سرُّ العُدول عن (مكّة) إلى التَّوصيفِ بـ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾:

رسالةُ الإسلام لا يعرِضُ عليها التَّبديلُ والتَّحريفُ في الكَلام

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن (مكّة) بالبلدِ المَوصوفِ بـ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للدّلالة على أنّها دارُ أمنٍ وهَناء وراحةٍ وهدوءِ بال، وتلك نعمةٌ عظيمةٌ لا يعرفُها إلّا من افتقدها، وفي تخصيصِ هذا المكان المُقسَم به بالأمينِ دونَ أسماء الأماكنِ السّابقة إشارةٌ إلى أنَّ هذه الرِّسالة في هذا البلدِ الأمينِ كالشّخص الأمينِ الّذي توضَعُ عندَهُ الأماناتُ ثقةً به، والرِّسالة الإسلاميّةُ أمينةٌ من التَّبديلِ والتَّحريف والتَّغيير، بخلافِ تلك الأمكنة الّتي لم توصَفْ بـ(الأمين)؛ لما عرضَ على تلك الرِّسالات من تَغييرٍ وتبديلٍ، وتعدٍّ بالزّيادةِ والنُّقصان.

### دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في صيغةِ ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾:

تجسيمُ الجَماداتِ مبالغةٌ في تحقيقِ أعمَقِ الدّلالات

جاءت صيغة ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾، على وزن (فعيل)، ويجوز فيها أن تأتيَ بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول؛ فأمّا دلالتُها على معنى اسم الفاعل[1]، فالآمِنُ "مِن (أَمُنَ الرّجلُ أمانةً) فهو (أمينٌ)، أي: الفعيلُ بمعنى الفاعل،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 151.

وأمانتُهُ أنَّه يحفظُ مَن دخلَهُ كما يحفظُ الأمينُ ما يُؤتمَنُ عليه، فيكون اسْتعارَةً مصرَّحة، شَبَّه عدمَ الضّرر لما فيه بحفظِهِ بالوضعِ عندَ الرّجُلِ الأمين"[1]، ففي إسنادِ النّعت للبلدِ بأنّهُ أمينٌ إشارةٌ إلى استعارةٍ تصريحيّةٍ؛ إذ شبَّهَ البلدَ بالرّجُلِ الأمينِ، الَّذي تُستودَعُ عندَهُ الأمانات فيقومُ بحفظِها، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ وأبقَى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والجامعُ الحفظُ والصّيانةُ في كلٍّ منهُما، والغرضُ منَ الاستعارةِ تجسيمُ البلدِ وتشخيصُهُ؛ مبالغةً في كثرةِ تأمينِهِ لَمن يقصِدُهُ ويَدخلُهُ.

### دلالةُ المجازِ العقليِّ في صيغةِ (فعيل) بمعنى (مفعول):

أمانُ الأوطانِ سببٌ لأمانِ أهلِ البُلدان

وأمّا تعبيرُ النَّظم الكريم بصيغةِ (فعيل)؛ للدّلالة بها على معنى (مفعولٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ فمعناه: المأمون داخلُهُ وأهلُهُ، "قال أبو عليٍّ الفارسيّ: وصفَهُ بـ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾ فجرى الوصفُ على البلدِ في اللَّفظ، والمعنى على مَن فيه مِن طارئٍ وقاطِن"[2]، فيكونُ هنالك تجوُّزٌ في الإسنادِ. قال الشِّهاب الخفاجيّ: "يعني: أنّ (فعيلًا) من (أمِنَهُ) المتعدّي بمعنى (مفعول)، وأمِنَهُ بمعنى لم يَخَفْهُ ويَحذَرْ غوائلَهُ، ولمّا كان المأمونُ النّاسَ لا المكانَ أشارَ إلى أنّه أُسنِدَ إليه مَجازًا، وأنّ المرادَ أنّه مأمونٌ فيه؛ لأنَّه على الحَذفِ والإيصالِ مثلُ: (مالٌ مشترَكٌ)؛ لأنَّ مَن دخلَهُ مأمونُ الغوائلِ والضَّرر"[3]؛ فقد أُسنِدَ الأمنُ للبلدِ وأُريدَ به أهلُهُ وساكنوهُ، والعلاقةُ على ذلك التَّجوُّز السَّببيَّةُ؛ إذ أمنُهُم يقومُ على سببيّةِ البلدِ الَّذي هم فيه، وما لهُ من شأنٍ ومكانةٍ عند العربِ جميعًا.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 340، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 422.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 151، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 212.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 375، وابن عادل، اللّباب: 20/ 408، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1960، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 141.

تهيئةُ الأذهان وتشويقُ الجَنان لِسَماعِ جَوابِ الأيمان

## سرّ إطالة القَسَم:

أطنبَ النَّظمُ الكريم في القَسَم بالمذكوراتِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ إذِ اشتملَ القَسمُ على أربعةِ أماكنَ ومهابِطَ للوحيِ الإلهيِّ الجَليل، وأضافَ القسَمَ الثّالثَ إلى البُقعة لتحديدِ مكانِ المُقسَم به تحديدًا دقيقًا، وعدلَ في القَسَمِ الرّابع عن (مكّةَ) إلى الإشارةِ إليها تعظيمًا، وإلى أنَّه بلدٌ وحضَرٌ ومكانُ إقامةٍ، وأنَّه أمينٌ وأمانٌ، والغرضُ من تلك الإطالةِ مع ما فيها من طباق، التَّشويقُ لسماعِ الجوابِ العظيم لذلك القَسَم، وتهيئةُ الأذهان لتلقّي البيان من خلال ذكرِ جوابِ الأيمان الأربعةِ، وللجمعِ بين الأماكنِ الّتي اختارَها الله تعالى من دونِ تخيُّرٍ لأحدٍ بالنّزول في مكانٍ دونَ مكانٍ، أوْ على شَخصٍ دونَ آخر، فالله أعلمُ حيثُ يضَعُ رسالتَهُ وأينَ يُحدِّدُ مكانَها؟ قال ابنُ عاشور: "وَإطالَةُ القَسَمِ تَشْويقٌ إلَى المُقْسَمِ عَلَيْهِ"[1].

شَرَفُ البِقاع وتطهيرُ النُّفوسِ منَ الأوْجاع

## حِكمةُ الجمعِ بينَ الأقسامِ الأربعة:

جمعَ النَّظمُ الكريم بينَ هذه الأقسامِ الأربعة في قولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ للإبانة "عن شرَفِ البقاعِ المُباركة، وما ظهرَ فيها من الخيرِ والبركةِ بسُكنى الأنبياءِ والصّالحين، وكانَ لها أثرٌ بارزٌ في تاريخِ البشر، وفيها أنقذَ النّاسَ من الظُّلمات إلى النّور"[2]، مع بيانِ صحّة دَعوى النُّبوَّةِ لسيِّدِنا محمَّد ﷺ؛ إذ لم يكن بدْعًا من الرُّسُل، وأنَّ بلدَهُ مهبَطُ رسالةٍ قديمةٍ؛ إذ أوحى الله فيها لإبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام.

## دلالةُ (اللّام) في ﴿لَقَدۡ﴾ والغَرضُ منها:

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) الواقعة في جوابِ القَسمِ في قولِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 420.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 129.

خَلْقُ العقلِ السَّديد للوُصول إلى المَلِكِ المَجيد

تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ للدّلالة بها على التَّوكيدِ والتَّثبيتِ للحُكم وتقويتِهِ في الأذهان؛ إذ من لوازم القَسَم وإطالتِهِ توكيدُ وقوعِ المُقسَم عليه، ففي (اللّامِ) والقَسَم نفيٌ لأيِّ شكٍّ في خَلْقِ اللّه تعالى الإنسانَ في أعلى درجاتِ التَّفوُّق على المخلوقاتِ في الإدراكِ والفِطرة والإبداعِ والعَقل والوعْي، لا يشارِكُهُ في ذلكَ مخلوقٌ أرضيٌّ يَنتمي إلى مملكتِهِ التُّرابيَّة والحيوانيَّة، والغرضُ من التَّوكيدِ لفتُ الانتباه إلى أنَّ ذلكَ التَّكوينَ الأحسن في التَّقويم والإنشاءِ والخلقِ يَستوجِبُ منه الإيمانَ والتَّصديق بالرِّسالات السّماويّة، حتَّى يبقى أحسنَ المخلوقات في تفعيلِ وظائفِ إمكانيّاتِهِ الخَلْقيَّة، وإلّا انتكسَ إلى أسفلِ سافلينَ.

### دلالةُ (قَدْ) والغرضُ منها:

زيادةُ التّحقيق للوصولِ إلى أحسَنِ طَريق

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ بالحرفِ (قَدْ) في جوابِ القسَم من قولهِ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ للدّلالة بها على التّحقيقِ والتّوكيدِ، بل على اليقينِ لِمَدلولِ جوابِ القَسَم؛ إذِ الخَلْقُ في أحسنِ تقويمٍ والرَّدُّ إلى أسفلِ سافلينَ، فيه شيءٌ من الخفاءِ عندَ كثيرٍ من النّاس، الّذين لا يَستعمِلونَ مُدركاتهم الحقيقيَّة للتَّوصُّلِ إلى العقائد الدّينيَّة الّتي تدعو إليها الشّرائعُ السَّماويَّة، فيُردّونَ من أعلى استعدادٍ نظريٍّ لفهمِ الأديان إلى أسفلِ حالاتِ بني الإنسان، واقتصرَ ابنُ عاشور على دلالةِ التّوكيد بالقَسَم بقوله: "وَجُمْلَةُ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ مَعَ ما عُطِفَ عَلَيْهِ هوَ جَوابُ القَسَم، والقَسَمُ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أنَّ التَّقْويمَ تَقْويمٌ خَفيٌّ، وأنَّ الرَّدَّ رَدٌّ خَفيٌّ يَجِبُ التَّدَبُّرُ لِإدْراكِه؛ فلِذَلِكَ ناسَبَ أنْ يُحَقَّقَ بالتَّوْكيدِ بالقَسَم؛ لِأنَّ تَصَرُّفاتِ مُعْظَمِ النّاسِ في عَقائِدِهِمْ جارِيَةٌ عَلَى حالَةٍ تُشْبِهُ

حالَةَ مَنْ يُنْكِرونَ أَنَّهُمْ خُلِقوا عَلَى الفِطْرَةِ"[1]، ويمكنُ سحبُ تلك الدّلالةِ إلى كلٍّ من (اللّام وقد) أيضًا، ويكونُ الكلام من تنزيلِ غيرِ المُنكِر منزلةَ المُنكِر؛ إذ خروجُ كثيرٍ من النّاس عنِ الشَّرائع يكونُ بمثابةِ الإنكار لخَلْقِهم، مُستعدّين بالفطرةِ لتقبُّلِ الدّينِ واليقينِ به، والعملِ بما فيه.

### سرُّ اجتماعِ المؤكِّدات لإثبات ما هوَ غيرُ مُنْكَرٍ بداهةً:

تـنـزيـلُ غـيرِ المُـنـكِـرِ مَـنزلةَ المُنكِر ليتأمَّلَ في الدَّلائلِ ويَعتبِر

مقتضى البلاغة توكيدُ الكلام على قدرِ إنكار المخاطَب، وجاء المُقسَمُ له موكَّدًا بالجمع بينَ (اللّام وقَدْ) في جوابِ القَسَم في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، مع أنَّ الخلق للإنسانِ في أحسنِ صورة أمرٌ غير منكَرٍ ولا نزاعَ فيه، ممّا لا يقتضي حشدَ المؤكِّدات لأجله[2].

والجواب عنه يفصح عن معنًى بلاغيّ بديع، يدور غرضُه حولَ تنزيل غيرِ المُنكِر منزلةَ المُنكِر؛ فلمّا كان الإنسان المُكرَّمُ لا يستعمِلُ تقويمَهُ الحسَنَ فيما خُلِقَ لأجله من الإيمانِ بالشَّرائع الإلهيَّة، كان كمن يُنكِر تلك الاستعدادات العقليَّةَ والإمكاناتِ الفطريَّةَ الّتي خُلِقَ عليها، وكمَن يُنكِرُ أنَّه إنْ لم يستعمِلْها ويَسْمُ بها إلى عبادة اللّه وحدَه، ويَرتكِسْ إلى عبادةِ المخلوقات، فإنَّه يكون في أسفلِ سافلينَ، فجمعَ النّظمُ بين المؤكِّدينِ ليُدْرِكَ الإنسانُ سيادتَهُ في عالمِ المخلوقات، وأنَّه ينبغي لهُ أنْ يعبدَ اللّه وحده ويطيعَ اللّه وحدَه[3].

وتعليلٌ آخر بديع يزيد من استظهار المعاني البلاغي، وذلك بالقياس على أنّ "الخَلْق على أحسنِ صورةٍ، والرَّدَّ إلى الهرم، دليلٌ على وقوعِ البَعث والنّشور...، فكان تحوُّلُ الأحوالِ على الإنسانِ دليلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 423.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299.
(3) وهو من بطن المعنى الذي ذكره: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 423، والوارد في فقرة سابقة.

واضحًا على وقوعِ الإعادةِ والجزاءِ، والكفّارُ كانوا يُنكرونَ الإعادةَ والجزاءَ، كأنَّهم أنكروا التّحوُّلَ؛ لأنَّه مَن أنكرَ المدلول فكأنَّه أنكرَ الدّليلَ الواضحَ؛ لاستلزامِ أحدِهما الآخر"[1].

ولا يخفى أنَّه على هذا التّوجيهِ يكونُ التّنزيلُ لغيرِ المُنكِر منزلةَ المنكِر باعتبار لازمِ (الخلق والرَّدّ)، وهو التّحوُّلُ والتّغيُّر، والمألوفُ في التّنزيلِ إنكارُ عينِ الكلامِ نفسِهِ، وهذا يتأتّى على ما التّوجيه الأوّل[2]؛ وهو عدمُ جري النّاس على الشَّريعة يكون كالمُنكِر لكونِهِ مخلوقًا على الفطرةِ، قادرًا على الإيمانِ والعمَلِ بما فيها.

### دلالةُ فعلِ (الخَلْق) مادّةً وصيغةً:

مَن أوجدَ منَ العَدَمِ يَستحِقُّ أنْ يُعبَدَ منذُ القِدَم

عبَّر النّظمُ الكريمُ بفعلِ (الخَلْق) والإيجادِ ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الخلقِ تحقُّقًا لا سبيلَ فيه للفرضِ والاحتمالِ، وليدلَّ بمادّتِهِ على إيجادِ الإنسان من العدَم، ومنحِهِ صفةَ الوجود، من دونِ اختيارٍ له في ذلك، بل هو محضُ فضلٍ ومنّةٍ، وذلك يتناسبُ مع تخليقِ (التّين والزّيتون) بالنّظرِ لمعناهُما الحقيقيِّ؛ تسخيرًا لهذا المخلوقِ المكرّم، وبرهانًا دالًّا على عظيمِ صُنع الخالق واختيارِهِ العَجيب[3].

### دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجَمع (نا):

التَّفكُّرُ في الخَلْق موصِلٌ لجنابِ الحقِّ

أسندَ النّظمُ الكريمُ فعلَ (الخلق) والإيجاد إلى ضميرِ الجمعِ المتكلِّم في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة على عظمةِ ذلك الخَلْقِ العَجيب، إذ تعظيمُ الخالقِ الكريم لذاتِهِ يستلزمُ عظمةَ الفعلِ الّذي يصدُرُ منه؛ إذِ العظيمُ لا يصدرُ منه إلّا فعلٌ عظيم، وفيه إشارةٌ إلى التّفكُّرِ في الخَلقِ أكثرُ من التّفكيرِ في

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299، بتصرف.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 423.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 423.

الخَلْق؛ لأنَّ الخلق وعجائبَه وعظيمَ صناعتِه دالٌّ عليهِ دلالةً يُدركها كلُّ عاقلٍ له أدنى مِسكةٍ منَ الإدراك.

### دلالةُ التَّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

مِن عظيمِ الامتنانِ تمييزُ بني الإنسانِ بالعقلِ والعِرفان

عبَّرَ النّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ إمّا للدّلالة على الجنسِ والحقيقةِ بغضِّ النّظر عن الإفرادِ، فالتّعريفُ للماهيَّة كشفًا عن تميُّزِ هذه الحقيقةِ عن بقيَّة الحقائقِ المخلوقةِ بالجمالِ الشَّكليِّ والصّورةِ اللَّطيفة الحسنةِ[1]، وفي ذلك امتنانٌ على الحقيقةِ من حيثُ هي، وبيانُ تميُّزِها عن سائرِ الحقائق، وإمّا للدّلالةِ على الجنسِ الصّادقِ بجميعِ الأفراد، وهي الاستغراقيّةُ الكلّيَّة[2]. قال القونويّ: "أي: شاملٌ للأبرار والأشرار؛ لأنَّ ما ذُكِر في وجهه من انتصابِ القامةِ وحُسنِ الصّورة... إلخ عامٌّ لهما"[3]؛ إذ كلُّ فردٍ من أفرادِ هذه الحقيقة مُتميِّزٌ بحُسْنِ الصّورةِ والتَّقويم الأحسنِ عن سائرِ أفراد الحقائقِ الأخرى، وأمّا إنْ أُريدَ بـ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ الاستعدادُ الفطريُّ لتقبُّلِ الإيمانِ، والقوّةُ المودعةُ لوعي حقيقتِه والعملِ بموجبِه، فإنَّ (أل) للجنسِ الصّادق ببعضِ الأفراد؛ إذ ليس كلُّ أفرادِ الحقيقة الإنسانيَّة خُلِقَ عاقلًا وواعيًا، إذ فيهم الحَمقى والمجانينُ الّذين ليسوا من أهلِ التّكليف، فالاستغراقُ حينَئذٍ عرفيٌّ شاملٌ للإنسانِ المؤمنِ والكافِرِ بشرطِ العقلِ والإدراك.

### دلالةُ تعليقِ الخَلْقِ بالإنسان في حيِّز القَسَم:

تعليقُ الخَلْقِ بالإنسانِ عندَ القَسَمِ لما لهُ مِن تميُّزٍ بعدَ العَدَم

علّق النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الخَلْق) بالإنسانِ بعد القسَمِ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة على تمييزِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 423.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان 32/ 129.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 340.

هذه الحقيقةِ وأفرادِها بما لم تتميّزْ به الحقائقُ الأخرى وأفرادُها؛ فكان في التَّعليقِ بعد القَسَمِ دلالةٌ على التَّفضُّلِ على هذا الإنسانِ بنعمةِ التَّميُّزِ التَّكوينيّ.

### دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّة في حرفِ الظَّرف ﴿فِيٓ﴾:

مِن شدّةِ الأحسنيَّة التَّقويميَّة استُعيرتِ (في) الظَّرفيَّة

استعارَ النّظمُ الكريم حرفَ الظَّرفِ ﴿فِيٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ للمُبالغةِ والإيجازِ؛ إذ شبَّه (باءَ المُلابسة والملك) بـ(الظّرف) بجامعِ الاتّصال في كلٍّ؛ لتحقيق معنى التّمكُّنِ من الشّيءِ، والغرضُ تحقيقُ خَلْقِ الإنسان مُلتبِسًا بأحسنِ تقويم؛ حتَّى إنَّه من شدَّةِ مُلابستِه للأحسنيَّة دخلَ فيها وصارتْ ظرفًا مُحيطًا به، وما ذلك إلّا لتمكُّنه من الأحسنيَّة، قال ابنُ عاشور: "وَحَرْفُ (في) يُفيدُ الظَّرْفيَّةَ المَجازيَّةَ المُسْتَعارَةَ لِمَعْنَى (التَّمَكُّنِ والمِلْكِ)؛ فهيَ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى (باءِ) المُلابَسَةِ، أوْ (لامِ) المِلْكِ، وإنَّما عُدِلَ عَنْ أحَدِ الحَرْفَيْنِ الحَقيقيَّيْنِ لِهَذا المَعْنَى إلَى حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ؛ لإفادَةِ قوَّةِ المُلابَسَةِ أوْ قوَّةِ المِلْكِ مَعَ الإيجازِ، ولَوْلا الإيجازُ لَكانَتْ مُساواةُ الكَلامِ أنْ يُقالَ: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ بتَقْويمٍ مَكينٍ هوَ أحْسَنُ تَقْويم)"[1].

### دلالةُ اسمِ التّفضيل ﴿أَحۡسَنِ﴾ مادّةً وصيغةً:

تفضيلُ بني الإنسان بالصّورة والعَقل والجنان

اختارَ النّظمُ الكريم اسمَ التّفضيل ﴿أَحۡسَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة به على المُشاركة مع الزّيادة، ممّا يدلُّ على أنَّ سائرَ المخلوقات ذاتُ تقويم حسَنٍ وتعديلٍ لطيفٍ وتسويةٍ حسَنة، إلّا أنَّ الإنسانَ مُتميِّزٌ عنها بالقَوامِ المُنتصِب والصّورةِ الجميلةِ والمظهرِ المحترَم، وهذا إنْ أُريدَ بـ(التّقويم) التّعديلُ الظّاهريُّ والشّكليُّ، وأمّا إنْ أُريدَ بـ(التّقويم) الاستعدادُ الفطريُّ والمَلَكاتُ العقليّة الّتي خُلِق وجُبِل عليها، فالمرادُ أنَّ سائر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 424.

المخلوقاتِ لها استعداداتٌ إدراكيّةٌ تكفيها في حياتِها الَّتي تَعيشها، لكنَّ الإنسانَ مُيِّز عنها بالإدراكِ والوعيِ الإبداعيِّ؛ إذ يستدلُّ بالشّاهد على الغائب، ويتوصَّلُ بالقياس إلى حقائقَ كلّيَّة، ويَربط بينَ المدركاتِ الجُزئيّةِ والكلّيَّة للارتقاءِ بالرّوح والعقلِ والنّفس إلى عوالمِ الملأ الأعلى، ويدلُّ بمادّتِه على الحُسْنِ والجمالِ الرّائقِ في المظهَرِ والعقلِ مَعًا.

### دلالةُ اسمِ التَّفضيل على المَوصوفِ المَحذوف:

في جعلِ الأحسنيَّة في الظّرف تتحقَّقُ الأبلغيَّة عنِ الوصف

عبَّر النّظمُ الكريمُ باسمِ التّفضيل ﴿أَحۡسَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة به على المفاضلةِ بينَ شيئين؛ إذ لا يُمكنُ أنْ يكون المفضّلُ هو الإنسان، بل موصوفٌ محذوفٌ تقديرُهُ يُستفاد من لفظِ المضافِ إليه ﴿تَقۡوِيمٖ﴾، ولذا كان التّقديرُ: (خلقنا الإنسانَ في تقويمٍ أحسنِ تقويم)، فاسمُ التّفضيل صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُهُ (تقويمٌ)، والغرضُ من حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفة مقامَه إيصالُ حرفِ الظَّرف إلى الأحسنيَّة دونَ التّقويم؛ لتكونَ الأحسنيّةُ محيطةً به، وذلك أبلغُ من دخولها على التّقويمِ الأحسَنِ للإنسان.

### دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾:

تحديدُ جهةِ الأحسنيَّة بالإضافةِ إلى التّمييز للدّلالةِ الإبهاميَّة

أضافَ النّظمُ الكريم اسمَ التّفضيل ﴿أَحۡسَنِ﴾ إلى ﴿تَقۡوِيمٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة على تمييزِ الأحسنيَّة المُبهمةِ وتعيينِها؛ فهو من إضافةِ اسم التّفضيل إلى تمييزِه؛ لتعيينِ جهةِ الأحسنيَّة على غيره؛ وتلك الجهةُ هي التَّقويم.

### دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾:

أوقعَ النّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ موضِعَ الحالِ؛ للدّلالة به على بيانِ هيئةِ المفعولِ به ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عندَ إيقاعِ فعلِ الخَلْقِ والإيجادِ عليه؛ فهو

مخلوقٌ في حالةِ كونِه على أحسنِ تقويم، والغرضُ من رَبط أوّلِ إيجادِهِ بأحسَنِ تقويمٍ بيانُ أنَّ كونه في أحسنِ تقويم غيرَ مرتبطٍ بمرحلةٍ عمريَّة، بل في أوّلِ أوقاتِ التَّكوين يُصوّرُ شكلًا ومضمونًا بأعلى درجات التَّقويم الشَّكليِّ والمَضمونيّ.

الأحسنيَّةُ التَّقويميَّةُ مقترنةٌ بأوّلِ أوقاتِ تعلُّقِ القُدرة الإيجاديَّة

**دلالةُ ﴿تَقۡوِيمٖ﴾ مادّةً وصيغةً:**

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ المصدر ﴿تَقۡوِيمٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾؛ للدّلالة به باعتبارِ مادّته إمّا على ظاهرِه، وهو القَوامُ والمَنظَرُ والشَّكلُ الخارجيُّ للإنسان الَّذي تميَّز به عن سائرِ الحَقائقِ الأُخرى، وبناءً عليه يكونُ الرَّدُّ إلى أسفلِ سافلينَ بالعودة بعدَ التَّقويم الحَسَنِ إلى الهرمِ والعَجْزِ والضَّعف، ويكونُ استثناءُ الّذين آمنوا بناءً على استمرارِ ثوابِهم عند عَجزِهم وهَرَمِهم[1]. والمصدر يدلُّ بصيغتِهِ الوضعيّة على الحقيقةِ والماهيَّة، فتكون الأحسنيّةُ في حقيقةِ التّقويم، وكأنَّه لم يبقَ من التّقويم شيءٌ إلّا واختصّتْ الحقيقةُ الإنسانيّةُ به.

قوامُ الإنسانِ في العَقْل لا في الجَسَد والشَّكْل

**دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ والغرضُ منها:**

عبَّرَ النّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ للدّلالة بها على العطفِ على جملةِ جوابِ القَسَم ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فتكونُ من تتمَّةِ الجواب؛ لأنَّ المعطوفَ على المُقسَم عليه مُقسَمٌ عليه أيضًا؛ لدلالةِ العطفِ على التّشريكِ في الحُكم"[2]، والغرضُ من العَطف بها إمّا إفادةُ التّراخي الزَّمنيِّ؛ بناءً على أنَّ الرَّدَّ إلى أسفلِ سافلينَ هو الرَّدُّ إلى "أسفل ممّنْ سفلَ هيئةً وبنيةً، حيثُ نكّسناهُ في خَلْقِه، فقوّسَ ظَهرُهُ بعدَ

التّسفُّلُ الذَّليل بعدَ الخَلْقِ الجَميل

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 152، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 131، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1961.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 426.

اعتدالِه، وابيضَّ شعرُهُ بعدَ سَوادِه، وكَلَّ سمعُهُ وبصرُهُ، وتغيّرَ كلُّ شيءٍ فيه"[1]، أوْ إفادةُ التّراخي في الرُّتبة؛ "لِأَنَّ الرَّدَّ أَسْفَلَ سافِلِينَ بَعْدَ خَلْقِهِ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ عَجِيبٌ؛ لِما فيهِ مِنِ انْقِلابِ ما جُبِلَ عَلَيْهِ، وتَغْيِيرُ الحالَةِ المَوْجودَةِ أَعْجَبُ مِنْ إيجادِ حالَةٍ لَمْ تَكُنْ"[2].

## نُكْتَةُ التّعبيرِ بجُملتَي جوابِ القَسَم:

التّعريضُ والتّحذيرُ بأسلوبِ الاستدلالِ المُثير

عبَّرَ النّظمُ الكريم عن جوابِ القَسَم بجُملتَينِ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ لبيانِ جمالِ التّكوينِ الأوّل وعظَمتِه وما يطرأُ عليه من انقلابٍ وتبدُّلٍ وتغيُّرٍ، فيكونُ الغرضُ من ذلك الجمعِ تحذيرُ الإنسان من تبدُّلِ الحالِ إلى أسوَإِ مآل، بعدَ أنْ كانَ مخلوقًا في أحسنِ حال، والتّعريضُ بالكفّار الّذين جَنَوا على أنفسِهم بقلبِ طبائعِهم وفِطَرِهم الصّافية بالتَّردّي في عالمِ الكُفران، حتّى صاروا من أسفلِ المخلوقات، فالمقصودُ الأعظمُ من العطفِ التّحذيرُ والتّعريض، مع الاستدلالِ على أثرِ تركِ الشَّرائع وعدمِ إعمالِ العقل في الانقلابِ إلى أسوَإِ المآلات.

## دلالةُ اللّفِّ والنّشرِ المُرتّب:

توزيعُ الألفاظ لإعجازِ أهلِ الألحاظ

استعملَ النّظمُ الكريم أسلوبَ (اللّفِّ والنّشر المرتَّب) في جُملتَي جوابِ القسَم من قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ إذ الجملةُ الأولى من جوابِ القَسَم تتلاقَى مع جملةِ القسَم الأولى ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ في الخَلْق والإبداع، والجمالِ التَّكوينيِّ المُعجز، ففي كلِّ تقويمٌ حسَنٌ، ومَن نظرَ بعينِ الفَهم والبَصيرةِ أدركَ عظَمةَ الخالق، وأنَّه أحسنُ الخالقين، والجملةُ الثّانية تتلاقَى مع القَسَم بأمكنةِ الشّرائع: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1962.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 426.

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾؛ إذ بعدَ إنزالِ الشّرائعِ والآياتِ ينقلبُ إلى أسوَإِ المخلوقاتِ إدراكًا ونُضْجًا ووَعْيًا، فصار كالأنعام بل أضلُّ سبيلًا.

**دلالةُ فعلِ (الرَّدِّ) مادّةً وصيغةً:**

التّهاوي المُتدرِّجُ لعدمِ الإصغاءِ للنّورِ المُبلِجِ

عبَّرَ النّظمُ الكريم بفعلِ (الرَّدِّ) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه على تحقُّقِ الرَّدِّ والجَعْلِ والتّصييرِ، تحقُّقًا لا سبيلَ للنّزاعِ فيه، وبمادّتِه على تحويلِ شأنِه بقُدرةِ اللّه تعالى من شأنٍ عظيمٍ إلى شأنٍ خسيسٍ ضعيفٍ ذليل؛ ويُشيرُ فعلُ الرَّدِّ بتكرارِ حرفِ (الدّالِّ) إلى حصولِه التّدريجيِّ المتناسِبِ مع ﴿ثُمَّ﴾؛ فهو يَهوي ويَهبطُ عند كلِّ تكذيبٍ وعدمِ إعمالٍ لتقويمِه الحَسَنِ، وقَوامِه العقليِّ الأصيل.

**دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾:**

التّردّي والتّهاوي لكلِّ ضالٍّ وغاوٍ

عبَّر النّظمُ الكريمُ بفعلِ الرَّدِّ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ للدّلالة على معنى (الجَعْلِ والتَّصييرِ) مجازًا؛ إذ أصلُ "الرَّدِّ إرْجاعُ ما أُخِذَ مِنْ شَخْص، أوْ نُقِلَ مِن مَوْضِعٍ إلى ما كانَ عِنْدَهُ، ويُطْلَقُ مَجازًا عَلَى تَصْيِيرِ الشَّيْءِ بحالَةٍ غَيْرِ الحالَةِ الَّتي كانَتْ لَهُ، مَجازًا مُرْسَلًا بعَلاقَةِ الإطْلاقِ عَنِ التَّقْيِيدِ"[1]، وذلك أنَّ الفعل (ردّ) بمعنى أعادَ وأرجعَ يتعدَّى بـ(اللّام) أو بـ(إلى)، وهنا قد تعدَّى إلى مفعولين؛ فيكون من أفعالِ التّحويلِ والتَّصيير، ولذا قال الخفّاجيّ: "الظّاهرُ أنّ المرادَ ما قاله النّحاةُ من أنَّ (ردَّ) يكونُ بمعنى (جعلَ)، فينصِبُ مفعولين أصلُهما المبتدأُ والخبرُ"[2]، ولعلَّ سرَّ العدولِ عن فعلَي (حوَّلَ أوْ صيَّر) إلى الفعلِ (ردَّ) بيانُ تردّيه في مَهاوي الضّلال، ونزولِه وتسفُّلِه وتراجُعِه بعدَ صُعودٍ وارتقاءٍ في نوعِه، فيتناسَبُ مع ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ الدّالِّ على الانحطاطِ الحِسّيِّ والمعنويِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 427.

(2) الخفّاجيّ، عناية القاضي: 8/ 376.

### دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيّة في ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾:

تُـزولُ العِقاب بـسبـبِ تـركِ الأخذِ بالأسباب

استعارَ النّظمُ الكريم الفعلَ ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لمعنى المُعاقبة على ما بدرَ منه، بتصييره إلى المكانِ الّذي يستحِقُّهُ وهو النّار[1]، وذلك بناءً على أنَّ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ منصوبٌ على الظّرفيّة أو نزعِ الخافض؛ فقد شُبِّهت المعاقبةُ بالرَّدِّ للشّيء إلى المكانِ المُستحقِّ، ثمَّ حُذِف المشبّهُ وأُبقي المشبّهُ به على سبيلِ الاستعارة التّصريحيَّة التَّبعيَّة، والغَرضُ من الاستعارة إظهارُ العقابِ على أنّه ردُّ الشّيء إلى مكانِ الاستحقاق؛ فلا ظُلمَ ولا تعدّيَ على المُعاقَب.

### دلالةُ ضميرِ الغَيبة في ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾:

كـلُّ إنـسـانٍ مُعاقَب إلّا مَن آمنَ وحاسَب

عبّرَ النّظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة (الهاء) في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ العائدِ إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قولِه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فيحتملُ أنْ يكون الضّمير بمعنى الحقيقةِ من حيثُ هي، بغضِّ النّظر عن أفرادِه، أوْ بمعنى الجنسِ المُتحقّقِ في ضمنِ الاستغراقِ الكلّيِّ، فيكون جَعْلُ جميعِ الأفراد الخيّرين والشّريرين أسفلَ سافلين، وحينَئذٍ يتأتّى الاستثناءُ المتّصل منه بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فالحقيقةُ من حيثُ هي، والاستغراقُ الكلّيُّ يُستثنى منهما البعضُ، قال ابنُ عاشور: "وَضَميرُ الغائِبِ في قَوْلِهِ: ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾ عائِدٌ إلَى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ فيَجْري فيهِ الوَجْهانِ المُتَقَدِّمانِ مِنَ التَّعْريف"[2].

### مناقشة جواز أسلوب (الاستخدام) في ضميرِ الغائب ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾:

الأصـلُ عـدمُ ارتـكـابِ خـلافِ الأصل

يرى الهَرريّ أنّ النّظمَ الكريم استخدمَ ضميرَ الغَيبة في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وذلك بإرجاعِه إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 427.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 427.

بمعنًى غيرِ المعنى الّذي أُريد به، فقال: "حيثُ ذكرَ الإنسانَ أوّلًا بمعنًى، وهو الجنس، ثمَّ أعادَ الضَّمير عليه بمعنًى آخرَ وهو الإنسانُ بمعنى بعضِ أفرادِه، والاستخدامُ عند البديعيّينَ: ذِكْرُ الشّيءِ بمعنًى، وإعادةُ الضَّمير عليه بمعنًى آخرَ"[1]. والّذي يبدو أنَّ هذا مستبعدٌ للزوم أنْ يكون المردودُ أسفلَ سافلين هو الكافرَ فقط، فيَغيبُ التّحذيرُ الكلّيُّ لمطلقِ الإنسان من الانقلابِ على الفِطرة ومُقتضى العَقل، ويكونُ بذلك الاستثناء مُنقطعًا، وهو خِلافُ الأصل، ولا ضرورةَ تدعو إليه، ويُؤيّدُ ذلك قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: 2 - 3].

## دلالةُ اسمِ التّفضيلِ ﴿أَسۡفَلَ﴾ مادّةً وصيغةً:

أصحابُ الفُجور سافِلون وأسفلُ منهُم المُشرِكون

عبّرَ النّظمُ الكريم باسم التّفضيل ﴿أَسۡفَلَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ للدّلالة على حصولِ السَّفالة مع الزّيادة والكثرةِ؛ إذ لم يَرضَ هذا الكافرُ بكونِهِ سافِلًا وخَسيسًا وحَقيرًا، بل هبطَ إلى أسفلَ مِن كلِّ سافلٍ وحقير، وفي ذلك إشارةٌ إلى الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إذ جمعُهُم الإيمانَ والعملَ الصّالحَ جعلَهم في أحسنِ تقويمٍ، وأبقاهُم في أعلى علّيّين، وأمّا هذا الكافرُ فقد جمعَ بينَ الشِّرك والفواحشِ والفُجور، فكانَ أسفلَ سافلينَ؛ أمّا كونُهُ من السّافلينَ فلفُحشِهِ وفجورِهِ، وأمّا كونه أسفلَ منهم فلشِرْكِه وجُحودِهِ، إذ أعظمُ ما يَقترفُهُ الإنسان عدمَ الإيمانِ باللّه أو الشّركُ به تعالى، قال ابن عاشور: "و﴿أَسۡفَلَ﴾: اسْمُ تَفْضيلٍ، أي: أَشَدَّ سَفالَةً، وأُضيفَ إلَى سافِلينَ، أي: المَوْصوفينَ بالسَّفالَة؛ فالمُرادُ: أَسْفَلَ سافِلينَ في الاعْتِقادِ بخالِقِه؛ بقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والسّافِلونَ: هُمْ سَفِلَةُ الاعْتِقادِ، والإشْراكُ أَسْفَلُ الاعْتِقادِ، فيَكونُ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ مَفْعولًا ثانيًا لِـ ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾؛ لِأَنَّهُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 141.

أُجْرِيَ مُجْرَى أخَواتِ صار، والمَعْنَى: أنَّ الإنْسانَ أخَذَ يُغَيِّرُ ما فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْويم، وهوَ الإيمانُ بإلَهٍ واحِدٍ وما يَقْتَضيهِ ذَلِكَ مِنْ تَقْواهُ ومُراقَبَتِه، فصارَ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾"[1]، لكنَّ الأنسبَ بالتّوزيعِ تفسيرُ (السّافلينَ) بأهلِ المعاصي والفُجور، وأمّا الأسفلُ منهم فهم أهلُ الشِّرك والكُفر والنّفاق.

**تعدُّدُ الاحتمالاتِ الإعرابيّة للفظِ ﴿أَسْفَلَ﴾:**

ثـراءُ الـدِّلالات بـتـنـوُّعِ إعـرابِ الكلِمات

أوقعَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَسْفَلَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ موقعَ النَّصب من الفعل ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾؛ فيحتملُ أن يكونَ منصوبًا على أنَّه مفعولٌ به ثانٍ من لفظِ ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾؛ بناءً على أنَّه بمعنى (صيّرناه) الّذي ينصِبُ مفعولين، ويكون ماصدقُ النّعتِ الكافرينَ الّذينَ هم أخسُّ الأخِسّاء، أوْ على أنَّه مفعولٌ فيه ظرفُ مكانٍ من الفعلِ ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، بمعنى: وضعناهُ في المكانِ الَّذي هو أسفلُ سافلينَ، وهذا الوجه محوّلٌ من إعراب ﴿أَسْفَلَ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديره: (رددناه في مكانٍ أسفلَ)، ثمَّ حُذِفَ الموصوفُ فانتصبَ بنَزْعِ الخافض على أنّه نائبٌ عن الظّرف، فيكون ماصدقُ النّعتِ على هذا (أهلَ الدّركات)، أو حالٌ من المفعولِ، ورجّحَه أبو السّعود على كونِه صفةً لمكانٍ محذوفٍ[2].

ولعلّ الاستظهارَ لهُ بسببِ أنَّ اتّصافَ الدّاخلِ إلى النّار بأنَّه أسفلُ السّافلين أعمقُ تصويرًا من توصيفِ أهلِ النّارِ أو دركاتِ النّار بأنّها أسفلُ سافلينَ، أوْ على أنّه منصوبٌ بنزعِ الخافضِ، قالَ الخَفاجيُّ: "صفةٌ لـ(مكان)، والرَّدّ بمعناه المَعروف"[3]، أي: وضعناهُ في أسفلِ سافلينَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 427.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176.
(3) الخفّاجيّ، عناية القاضي: 8/ 376.

### دلالةُ ﴿أَسۡفَلَ﴾ بينَ الاستعارةِ والحقيقة:

أثرُ فهمِ العلاقاتِ في توضيحِ حقيقةِ المكوّنات

يحتملُ لفظُ ﴿أَسۡفَلَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أنْ يكون مجازًا استعاريًّا للخِسَّةِ والحقارة والدَّناءَة؛ إذ شبَّه الخسَّةَ والحقارةَ المعنويَّتينِ بـ(السَّفالةِ) مكانًا؛ لتبشيعِ تلك الخِسّةِ وأثرِها عندَ اللّه تعالى وفي المجتمعِ المُؤمِنِ الصّالح؛ قال ابنُ عاشور: "وَحَقيقَةُ السَّفالَة: انْخِفاضُ المَكانِ، وتُطْلَقُ مَجازًا شائِعًا عَلَى الخِسَّةِ والحَقارَةِ في النَّفْسِ"[1]، لكنَّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ الرَّدَّ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بمعنى الجَعْلِ والصَّيرورة، وأنَّ الإسنادَ مجازيٌّ، وأنَّ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّة الثّانية؛ إذ يعمد الإنسانُ إلى التّحوُّلِ من أحسن تقويم إلى أسفلِ سافلينَ، فيُغيِّرُ فطرتَهُ ولا يستعملُ عقلَهُ، ويحتملُ أنْ يكون ﴿أَسۡفَلَ﴾ حقيقةً لغويّةً؛ بأنْ يكون الرَّدُّ فعلَ اللّه تعالى بالمُعاقبةِ له ووضعِهِ في مكانٍ أسفلِ سافلينَ وهي جهنَّم؛ لأنَّها طبقاتٌ ودركاتٌ، قال الهرريّ: "إنْ فُسِّرَ بالرَّدِّ إلى جهنّم، فهو سفلٌ حقيقيٌّ"[2]، فيكونُ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ منصوبًا على الظَّرفيَّة أو نزعِ الخافِضِ.

### دلالةُ الطِّباقِ بينَ ﴿أَحۡسَنِ﴾ و﴿أَسۡفَلَ﴾:

الإيمانُ بالله حُسْنٌ والكفرُ بِهِ سُفْلٌ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿أَسۡفَلَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بعدَ أنْ أخبرَ تعالى بأنَّه خلقَ الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فيكونَ بينَ ﴿أَحۡسَنِ﴾ وما يستلزمُهُ و﴿أَسۡفَلَ﴾ وما يَقتضيهِ طباقٌ خفيٌّ؛ وذلك لغرضِ بيانِ أثرِ الإيمانِ والعمَلِ الصّالح المتمثِّل بإبقاءِ فطرتِهِ وتشغيلِ قِواه الإدراكيّة تشغيلًا حسَنًا؛ ليكون في ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، وأثرِ الكفرِ والفجورِ في التَّردّي إلى ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 427.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 137.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 141.

### دلالةُ الاحتباكِ في ﴿أَحْسَنِ﴾ و﴿أَسْفَلَ﴾:

الحُسنُ عُلوٌّ وارتفاع، والسُّفل قبحٌ وضياع

عبّر النَّظمُ الكريمُ بأسلوب (الاحتباك) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، بعدَ أنْ أخبرَ تعالى أنّه خلق الإنسانَ ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ إذ عبّر بلفظ ﴿أَحْسَنِ﴾ الدّالِّ لزومًا على العُلوِّ؛ إذ كونُ الإنسان في أحسنِ تقويم يدلُّ على عُلوٍّ بالفطرةِ الصّافية والعقلِ السَّديد والإدراكِ الرَّشيد لما حولَه، فيكون النَّظمُ قد ذكر الأحسنيَّة وحذفَ لازمَها وهي (العُلْويّة)، في حينِ ذكرَ في ردِّ الإنسان أسفلَ سافلينَ بلفظ ﴿أَسْفَلَ﴾ وحذفَ (القبح) الّذي يَستلزمُهُ؛ إذِ الشّركُ قبحٌ والفجورُ تشويهٌ للنّفس والبدن، وبذلك حذفَ النّظمُ (العُلوَّ) في الأوّلِ بدلالةِ الثّاني، وحذفَ (القبحَ) في الثّاني بدلالةِ الأوّل، ممّا يُرجِّحُ إرادةَ (التّقويم) بالعُلوِّ المعنويّ، وإرادةَ (التّسفُّل) المعنويّ الدّالِّ على الخِسَّةِ والحَقارة.

### دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾:

الخروجُ من صنفِ الأعلَين للدُّخول في صنفِ أسفلِ سافلِين

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ اسم التَّفضيل ﴿أَسْفَلَ﴾ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ للدّلالةِ على التّخصيصِ للمُبهَم تخصيصًا يُفيدُ المبالغةَ في السَّفالةِ، حتَّى أنَّه في أدنى درجاتِها ومَنازِلها، فهو أسفلُ من كلِّ متّصفٍ بالسَّفالةِ والخِسّة، والغرضُ من الإضافةِ التَّحذيرُ من الشِّرك والفجورِ الموصلَين بأصحابهما إلى السَّفالة والدَّناءة، فيخرجونُ من ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ليَدخلوا في حقلِ السّافلين.

### دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تحويلُ الفِطرة الصّافية سَفالةٌ مُستمِرّةٌ دائمَة

اختلفَ المفسِّرون في ماصَدُقِ مادّة ﴿سَٰفِلِينَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ فذهبَ الجمهورُ منهم إلى أنَّ المُرادَ بهم المَردودونَ إلى أرذلِ العُمرِ بعدَ أن كانوا في أحسَنِ قوامٍ أوانَ

الشَّباب[1]، واعتمدَهُ الطَّبريُّ وقوّاه[2]، لكنَّه لا يتلاءَمُ مع الغرضِ من القسَم أوّلَ السّورة بأماكنِ الشَّرائع وحِكمةِ إنزالِها، ولا ينسجِمُ معَ خَلْقِ الإنسانِ ليُؤمِنَ باللّه العظيم بعدَ أنْ يَنتفِعَ بتقويمِه وعقلِه وفِطرته، ولا يتوافَقُ معَ الاستثناءِ للمؤمنينَ مع أنَّهم يُصابونَ بالهَرَم والعَجْزِ والرَّدّ إلى أرذلِ العُمر[3]، لذا فإنَّ الرّاجحَ الّذي تصدقُ عليه مادّةُ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ هم أولئك الكافرونَ والمشركونَ الّذين يَؤولونَ إلى تلك السَّفالة والدَّناءة، بعدَ أنْ كانوا في أحسنِ قوًى إدراكيّةٍ وفطرةٍ نقيّةٍ، إلى أضلَّ من الأنعام سبيلًا، أوِ المعاقبونَ في طبقاتِ النّار، واللّفظُ بصيغتِه دالٌّ على الاتّصاف بالسّفالةِ على سبيلِ الثّبوت، حتَّى صارَ شعارًا لهم ومزيّةً يُعرَفونَ بها.

### دلالة الجمع في ﴿سَٰفِلِينَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في معنى الجمع، جاء لفظُ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ بالجمع

استدلَّ الفرّاءُ على إرادةِ الاستغراق بإضافةِ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ فقال: "ولو كانتْ (أسفلَ سافلٍ) لكان صوابًا؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ واحد؛ فقيل ﴿سَٰفِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأنّ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في معنى الجمعِ، وأنتَ تقولُ: هذا أفضلُ قائمٍ، ولا تقولُ: هذا أفضلُ قائمينَ؛ لأنَّك تضمرُ لواحدٍ، فإذا كانَ الواحدُ غيرَ مقصودٍ له رجعَ اسمُهُ بالتّوحيدِ وبالجمع"[4].

### دلالةُ ﴿إِلَّا﴾ بينَ الاستثناءِ المتّصِل والمُنقطِع:

الاستئنافُ والتّخصيص دالّانِ على التّميُّزِ العَزيز

اتّفقَ المُفسِّرونَ على تحديدِ دلالةِ ﴿إِلَّا﴾ على الاستثناءِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، لكنَّهم اختلفوا في تحديدِ نوعِه على قولين؛ هما:

**الأوّل:** استثناءٌ مُتّصلٌ من ضميرِ الغَيبة في ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ العائدِ إلى

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 510، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 774.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 510.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 153.

عُموم ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ بناءً على أنَّ المرادَ بالرَّدِّ له إلى أسفلِ سافلينَ؛ إمّا صيّرناهُ أسفلَ المخلوقينَ قيمةً ومنزلةً، بعدَ أنْ كانَ أفضلَها نوعًا وأعلاها مكانةً، ثمَّ استثنى من العُموم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1]، أوْ أنَّ المراد: وضعناهُ في أسفلِ أهلِ النّار ثمَّ استثنى الَّذين آمنوا منهم[2].

**الثّاني**: استثناءٌ منقطعٌ دالٌّ على الاستئنافِ بمعنى (لكنْ)؛ بناءً على أنَّ المرادَ بالرَّدِّ للإنسان إلى أسفلِ سافلينَ: الهرمُ والعجزُ وأرذلُ العمر، فاستأنفَ على سبيلِ الاستثناء المنقطِع، وأخبرَ أنَّ الَّذين آمنوا لهم أجرٌ غيرُ مَمنون، ولا يتأتّى المتّصِلُ على هذا المعنى؛ لأنَّ المؤمنينَ يُشاركونَ الأشرارَ في الرَّدِّ إلى الهَرَم والضَّعفِ وتقوُّسِ الظَّهر والعَجْز، وفائدةُ الاستثناءِ المُنقطع بيانُ أنَّ المؤمنينَ وإنْ شاركوا الكافرينَ في الهَرَم والعَجْز إلّا أنَّ أجرَهُم مستمِرٌّ ودائمٌ على ما كانوا عليهِ أيّامَ الصِّحَّةِ والطّاقة وعدم العَجز[3].

**والحاصلُ**: على كلا الاستثنائينِ الدّالَّينِ على التَّخصيصِ والاستئنافِ بيانُ تميُّزِ المُؤمنين، وعدمِ مُشاركتهم الكافرينَ في الرَّدِّ إلى أسفلِ سافِلين، بل لهُم من اللّه تعالى الأجرُ العَظيم[4].

### دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

العمومُ والإبهامُ داعيةٌ لسَماعِ التَّخصيصِ في الكَلام

عبّرَ النّظمُ الكريم بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدّلالة على العموم والإبهامِ المحتاجِ إلى الكشفِ عنه بالصِّلة؛ فيكونُ من قبيلِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيل، وذلك أكثرُ تشويقًا للسّامع ودعوةً لإصغائِه.

### دلالةُ جملةِ الصِّلةِ الفعليَّة ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ سِرُّ النَّجاة وطَريقُ الهُداة

عبّرَ النَّظمُ الكريم عن جملةِ الصِّلة بالجملةِ الفعليَّة الماضويَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 429.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 774، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 507.
(3) الخفّاجيّ، عناية القاضي: 8/ 376.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1962.

في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ الإيمانِ منهُم بشكلٍ مقطوعٍ بوقوعِهِ، كما يدلُّ التَّعبيرُ بها على التَّعليلِ لاستثنائِهم منَ الدُّخولِ في حُكم الإنسانِ المردودِ إلى أسفلِ سافلينَ؛ بأنّهم اتّصفوا بالإيمانِ وتحقّقَ في قلوبهم تحقُّقًا عميقًا؛ إذ تعليقُ الإخراجِ لهم على الإيمانِ دالٌّ على عليّتِهِ.

**نُكْتَةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمعِ الغائبِ (الواو):**

الجَماعةُ المُؤْمِنة عـلى الـخَـير مُتّفِقة

أسندَ النّظمُ الكريم فِعلَي الإيمانِ والعملِ الصّالح إلى ضميرِ جمعِ الغائبِ (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على صُدورِ الإيمان والعمَلِ الصّالح منهم على سبيلِ الاتّفاق والاجتماع، وأنَّهم مُجتمعونَ على ثوابتِ الإيمان والعمَل الصّالح، لا يختلفونَ فيه ولا يفترقونَ عندَهُ.

**سرُّ حذفِ المتعلِّقِ بفعلِ الإيمان:**

حـذفُ المتعـيِّن لـلـعِـلْـمِ بـه وذِكـرُ المُتـنـوِّع لتخصيصِهِ

حذفَ النَّظمُ الكريم المتعلِّقَ بفعلِ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للعلْمِ به من ضميرِ المتكلِّم في ﴿خَلَقۡنَا﴾ و﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾؛ إذ كلٌّ من ضميرَي المتكلِّم يدلّانِ على الذّاتِ الجَليلة، فيكون متعلَّقُ الإيمانِ هو الإيمانَ بالخالقِ القادر على ردِّ الإنسانِ إلى أسفلِ سافلينَ، وإنجاءِ من آمَنَ منهم به، وإنَّما حذفَ متعلَّقَ الإيمانِ وذكرَ متعلَّقَ العملِ؛ لأنَّ المصدَّقَ به واحدٌ أحدٌ لا يحتاج لتعيينٍ، والأعمالُ متعدّدةٌ متنوِّعة؛ فيكون الحذفُ للواحدِ المتعيِّن كَلا حذفٍ، بخلاف المُتكثِّر فإنَّه يحتاجُ إلى تقييدِهِ وذكرِهِ وعِلَّةِ عملِهِ.

**سرُّ التَّعبيرِ بـ(الواو) في ﴿وَعَمِلُواْ﴾ والغرضُ منها:**

زيـنـةُ الإيـمـان عـدَمُ الكسَل، وجمالُ التّصديق حُسنُ العمَل

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدّلالة بها على العطفِ بينَ الجُملتين المُتناسبتَينِ في الفعليَّة؛ للرَّبط والاقترانِ والجمعِ بينَ خَصلتَي الإيمان والعمَلِ الصّالح؛ ولمّا كان العطفُ يَقتضي المُغايرةَ فإنَّ العملَ لا يدخُلُ تحتَ

مفهومِ الإيمان الَّذي هو التَّصديقُ القلبيُّ والإذعانُ والانقيادُ؛ لكنَّ هؤلاءِ المُستثنَينَ قد جَمَعوا بينَ فضيلتَي الإيمانِ والعملِ الصّالح، ومن ثَمَّ صدقَ عليهم وصفُ ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، وانتفَى عنهم وصفُ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وبذا عُرِفَ أنَّ الَّذين تحقّقَ فيهم وصفُ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هم الكافرونَ الّذين جَمَعوا بينَ الكُفرِ والفُجورِ مَعًا. ورأى ابن عاشور أنَّ هذا العطفَ للمدحِ بقوله: "عَطۡفُ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلثَّناءِ عَلَى المُؤۡمِنينَ بأنَّ إيمانَهُمۡ باعِثٌ لَهُمۡ عَلَى العَمَلِ الصّالِحِ، وذَلِكَ حالُ المُؤۡمِنينَ حينَ نُزولِ السّورَةِ، فهَذا العَطۡفُ عَطۡفُ صِفَةٍ كاشِفَةٍ"[1].

الفَلاحُ في عمَلِ الصَّلاح

**دلالةُ التّعريفِ لاسمِ الفاعلِ مَجموعًا ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:**

عرّفَ النَّظمُ الكريم اسمَ الفاعلِ المَجموع بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدّلالة على الجنسِ الصّادقِ بأيِّ عملٍ يُعَدُّ صالِحًا أيًّا كان حَجمُهُ ونوعُهُ؛ لأنَّ شأنَ المؤمنين مسارعتُهُم إلى الاكتسابِ بالإقدام على أيِّ عملٍ يكونُ نافِعًا ومُفيدًا، كما أنَّ التَّعبير باسمِ الفاعل مَجموعًا دالٌّ على تلك الكثرةِ الاستغراقيَّة المُتحقِّقة بأيِّ فردٍ من أفراد الصّالحات، وفي التَّعبيرِ إيماءٌ إلى عِلّةِ عملِهم لتلك الأعمالِ، وهي اتّصافُها بالصّالحات، فيكون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ نعتًا لمحذوفٍ تقديرُهُ: (وعملوا الأعمالَ الصّالحات)، أي: لصَلاحِها وعدمِ فسادِها وإنْ كانت ثقيلةً على الطَّبعِ صَعْبةً عندَ الاكتساب.

التَّرهيبُ مِن مآلِ الكافرين والتَّرغيبُ بمَسارِ المُؤمنين

**نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(الاحتباك) في الآيتينِ:**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ (الاحتباكِ) الإيجازيِّ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ﴾؛ فقد ذكرَ الرَّدَّ إلى ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وحذفَ السَّببَ، وهو الكفرُ وعملُ السَّيِّئات، الّذي دلَّ عليه قولُه: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وذَكرَ الإيمانَ والعملَ الصّالح وحذفَ إبقاءَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 429.

على أحسنِ تقويم، الّذي دلَّ عليه قولُهُ: ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[1]؛ وذلك لأنَّ الغرضَ في شأنِ الكافرين بيانُ مآلِهم وعاقبةِ أعمالِهم، والغرضُ في شأنِ المؤمنينَ بيانُ سرِّ نَجاتِهم وفلاحِهم؛ فيحصلُ للكافرين التَّخويفُ والتَّهديدُ، وللمؤمنينَ الحضُّ والتَّرغيبُ في الاستمرارِ على نهجِهم المستقيم.

### نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(الفاءِ) في ﴿فَلَهُمۡ﴾:

التَّـفـريـعُ على الاستثناءِ بإثباتِ الأجـرِ لـهـم بلا انتِفاء

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) العاطفةِ الدّالَّةِ على التَّعقيبِ بلا فصلٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ﴾؛ للدّلالة على التَّفريعِ والتَّعقيبِ على المزيّةِ المُستفادةِ من الاستثناء؛ إذ دلَّ الاستثناءُ على عدم دُخولِ المؤمنين العاملينَ للصّالحات في المَردودينَ أسفلَ سافِلين، ثمَّ زادَهُم فضيلةً أخرى متَّصلةً بفضيلةِ الاستثناء، وهي حَوزُهُم لأجرٍ غيرِ مَمنونٍ، قال ابنُ عاشور: "وَفُرِّعَ على مَعْنَى الِاسْتِثْناءِ - وهوَ أنَّهُمْ لَيْسوا مِمَّنْ يُرَدُّ أسْفَلَ سافِلِينَ - الإخْبارُ بِأنَّ لَهُمْ أجْرًا عَظِيمًا؛ لِأنَّ الِاسْتِثْناء أفادَ أنهم لَيْسوا بِأسْفَل سافِلِينَ؛ فأُرِيدَ زِيادَةُ البَيانِ لفضلهم"[2]، في حينِ رأى الهرريّ أنَّها رابطةٌ، على أنَّ الرَّدَّ إلى ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: أرذل العمر، وتعليليّةٌ على أنَّ الرَّدَّ إلى ذلك بالكونِ من أهلِ النّار، فقال: "والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ﴾ في دارِ الكرامةِ؛ لأنَّها المحلُّ له؛ رابطةٌ على القول الأوّل؛ لتضمُّنِ الموصولِ معنى الشَّرط، وتعليليّةٌ على القولِ الثّاني؛ أي: لا يُغيِّرُ صوَرَهم في النّار؛ لأنَّهم مُثابونَ في الجنَّة"[3]، ويمكنُ القولُ بأنَّ الاستثناء إنْ كان مُنقطِعًا والكلامُ على الاستئنافِ فالجملةُ مبيّنةٌ لحالِ المُؤمنين وما أعدَّهُ اللّه لهم من الأجرِ العظيم، وإنْ كانَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 429.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 135.

الاستثناءُ متَّصلًا، فهي مُؤكِّدةٌ ومُقرّرةٌ لدلالةِ الاستثناءِ المُفيدِ عدمَ ردِّ المؤمنينَ إلى النّارِ بزيادةِ الأجرِ فوقَ ذلك[1].

**نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ (لهم):**

انحصارُ الأُجورِ بِـمَـن تـمسَّـك بـالإيـمـانِ والعمَلِ المَبرورِ

قدّمَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ المُتعلِّقَ بالخبرِ المَحذوف في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ للدّلالة على الاختصاص والانحصار؛ وهو من حَصْرِ الأجرِ بهم دونَ مَن سِواهُم؛ وليتأتَّى تنكيرُ الأجر حتَّى يأتيَ الوصفُ مُخصِّصًا والتَّنكيرُ مُعظِّمًا، وإنَّما انحصرَ الأجرُ بهم لمُلازمتِهم الإيمانَ والعملَ الصّالح، وضمِّهُمُ العملَ إلى التَّصديقِ القلبيِّ الجازِم.

**دلالةُ التّنكيرِ في ﴿أَجْرٌ﴾:**

تعظيمُ الأجـورِ بالجَزاءِ المَوفور

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الأجرِ) مُنكَّرًا في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ للدّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثيرِ[2] من ذلك الأجرِ الَّذي نالوهُ فضلًا ورَحمةً، ومُلازمةً للإيمانِ والعملِ الصّالح، واصطبارًا على ذلك، فالمُلاحَظ في التَّنكيرِ التَّكثيرُ.

**سرُّ النّعتِ بلفظِ ﴿غَيْرُ﴾:**

الأجْـرُ الأُخـرويّ مُـغـايـرٌ لـلأجرِ الدُّنيويِّ

نعتَ النَّظمُ الكريم (الأجرَ) بأنَّه ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ للدّلالة على نوعيَّةِ ذلك الأجرِ وبيانِ مُغايرته لسائرِ الأجورِ الدُّنيويَّة؛ إذ (الأجرُ) مقولٌ بالتَّشكيك، وتختلفُ أفرادُهُ بالكثرةِ والنَّوع؛ فهو من حيثُ الكمُّ كثيرٌ، ونوّه إلى كثرتِهِ بالتَّنكير، ومن حيثُ النَّوعُ مختلفٌ عن سائرِ الأجور في كيفِهِ؛ فأراد بيانَ مُغايرتِهِ النّوعيَّة بالنّعت.

**نُكتةُ الإضافةِ في ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾:**

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿غَيْرُ﴾ إلى ﴿مَمْنُونٍ﴾ في قولِه تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 146.

المُغايرةُ الكاملة بينَ أُجورِ الدُّنيا وأجورِ الآخِرة

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾؛ للدّلالة على التَّخصيصِ لتلك المُغايرة؛ إذِ المغايرةُ مقولةٌ بالتَّشكيك؛ فتحتملُ المغايرةَ التّامّة والمغايرةَ النّاقصة؛ فأشارَ بالإضافةِ إلى أنَّها مغايرةٌ تامّة، ببيانِ أنَّ الأجرَ يرتبطُ غالبًا بالمَنِّ والإيذاءِ، أوْ بالانقطاعِ وعدم الاستمرار، فأرادَ النَّظمُ دفعَ هَذَينِ المَعنَيَينِ المُلازمينِ للأُجورِ الدُّنيويَّة؛ لبيانِ أنَّ المغايرة في هذينِ الوصفينِ الثّابتينِ دوامًا دالٌّ على المغايرةِ فيما عداهما، وبذلك تنتجُ دلالةُ المغايرةِ التّامّة من خلال نفي هذينِ المَفهومينِ الملازمينِ، واختلافُ اللّوازمِ دليلٌ على اختلافِ المَلزومات.

### سرُّ التَّعبيرِ باسمِ المفعولِ ﴿مَمۡنُونِۭ﴾ مادّةً وصيغةً:

لـذّةُ العَطاء بـعَدَمِ المَنِّ والانقِضاء

عبّر النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ اسم المَفعول ﴿مَمۡنُونِۭ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾؛ للدّلالةِ بصيغتِهِ على عدم وقوعِ مَدلولِهِ على المُتعرِّض لتلك الأجورِ وذلك العطاءِ، وبمادّته على أحدِ المَعنيينِ الدّالِّ عليهما بالاشتراكِ اللَّفظيِّ؛ أحدُهما - وهو المتبادرُ إلى الأذهان - عدمُ المَنِّ والأذى؛ إذِ الغالبُ أنْ يُرافِقَ العطاءَ المَنُّ والأذى. وثانيهما: عدمُ الانقطاع، وذلك باستمرارِ الأجور ودوامِها؛ إذ عطاءُ اللّه تعالى باقٍ لا ينفَدُ، قالَ ابن عاشور: "والمَمْنونُ: الَّذي يُمَنُّ عَلَى المَأْجورِ بِهِ، أي: لَهُمْ أجْرٌ لا يَشوبُهُ كَدَرٌ، ولا كَدَرَ أنْ يُمَنَّ عَلَى الَّذي يُعْطاهُ بقَوْلِ هَذا أجْرُكَ، أوْ هَذا عَطاؤُكَ، فالمَمْنونُ مَفْعولٌ (مَنَّ عَلَيْهِ)، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مَفْعولًا مِنْ (مَنَّ الحَبْلَ)، إذا قَطَعَهُ فهوَ مَنينٌ، أي: مَقْطوعٌ أوْ موشِكٌ على التَّقطُّع"[(1)].

### دلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿مَمۡنُونِۭ﴾:

العطاءُ الإلهيُّ الـجَـلـيـل لا يُمازِجُهُ شيءٌ منَ المَنِّ والانقطاعِ القَليل

نكّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿مَمۡنُونِۭ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾؛ للدّلالة على التَّقليل؛ أي: لا يُرافِقُ ذلك العطاءَ وتلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430، ويُنظر: الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 158، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 146.

الأجورَ أيُّ شيءٍ ولو قليلًا من المَنِّ والأذى، أو أدنى درجاتِ الانقطاع وعدمِ الاستمرار لهُ.

### نُكْتَةُ حذفِ المُتعلِّقِ باسمِ المفعولِ ﴿مَمْنُونِۭ﴾:

استعمالُ المشتركِ في معنييه يُحقِّقُ الثَّراءَ في دلالتَيه

حذفَ النَّظمُ الكريمُ المُتعلِّقَ باسمِ المفعول ﴿مَمْنُونِۭ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾؛ والتَّقدير: (غيرُ ممنونٍ بِه عليهم)؛ إنْ كانَ من المَنِّ، أوِ التَّقدير (غيرُ ممنونٍ عنهُم) إنْ كان بمعنى الانقطاعِ، والسِّرُّ في الحذفِ حتَّى يبقَى ﴿مَمْنُونِۭ﴾ مُحتمِلًا لكلٍّ من المعنيين من دونِ قطعٍ بالتَّنصيصِ على أحدهما؛ لأنَّ وجودَهما معًا يُحقِّقُ لذّةً لتلك الأجور الكثيرةِ، وبذلك يتكاملُ الأجرُ كمًّا بكثرتِه، ونوعًا بلذّتِه وعدمِ وجودِ المُنغِّصاتِ فيه.

### نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(الفاء) في ﴿فَمَا﴾:

بعدَ التّفصيلِ والبيانِ تَنتفي أسبابُ التّكذيبِ والكُفران

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة بها على التَّفريع عن البيانِ الّذي قبلَها[1] والتَّسبُّب عقيبَهُ بلا مُهلة؛ إذِ القُدرةُ على الخَلْقِ مع الرَّدِّ إلى أسفلِ سافِلين وتنجيةِ المؤمنينَ يتسبّبُ عنه، ويتفرّعُ بلا مُهلةٍ إنكارُ السّببِ الدّافع إلى تكذيبِ المخلوقِ بعدَ معرفةِ الفائزينَ منَ الخاسرين؛ قال ابنُ عاشور: "(الفاءُ) تَفْريعٌ عَلَى جَميعِ ما ذُكِرَ مِنْ تَقْويمِ خَلْقِ الإنْسانِ ثُمَّ رَدِّهُ أسْفَلَ سافِلِينَ؛ لِأنَّ ما بَعْدَ (الفاءِ) من الكَلامِ مُسَبَّبٌ عَنِ البَيانِ الَّذي قَبْلَ (الفاءِ)، أي: فقَدْ بانَ لَكَ أنَّ غَيْرَ الَّذينَ آمَنوا هُمُ الَّذينَ رُدّوا إلَى أسْفَلِ سافِلِينَ، فمَنْ يُكَذِّبُ مِنْهُمْ بالدّينِ الحَقِّ بَعْدَ هَذا البَيانِ"[2]، لكنْ في تعبيرِه حَزازةٌ؛ لجعلِه (ما) بمعنى (مَن)؛ لتجويزِه كونَ (ما) موصولةً بمعنى (مَن)، أوْ أنَّ ما بعدَ (الفاءِ) تسبّبَ عن إقامةِ الدَّليلِ على تمامِ القدرةِ أنْ يقالَ لك ذلك؛ تصديقًا لك فيما أخبرتَ[3].

(1) الخفّاجي، عناية القاضي: 8/ 377.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 148.

### سرُّ الاختلافِ في حقيقةِ (ما) في ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾:

الـدّلالـةُ المجازيَّة بإخراجِ الاستفهامِ أوِ الجُملةِ الخبريَّة

عبّر النَّظمُ الكريم بـ(ما) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالةِ بها إمّا على (الاستفهام)؛ أي: (أيُّ سببٍ يدفعُ المكذِّبينَ إلى التَّكذيبِ بعدَ هذا البيان؟)(1)، أوْ للدّلالةِ على المَوْصولِ المُبهَم العامِّ، بمعنى (مَن) الَّذي هو المكذِّبُ، والخطابُ متوجِّهٌ للنَّبيِّ ﷺ، "وَهيَ في مَحَلِّ مُبْتَدَأ، والضَّميرُ المُسْتَتِرُ في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ عائدٌ إلَى (ما) وهوَ الرّابِطُ لِلصِّلَةِ بالمَوْصولِ"(2)، والظّاهرُ أنَّ هذا الخبرَ بناءً على هذا التَّوجيهِ مستعملٌ في الإنكارِ أوِ التَّعجُّب، فيقتربُ من الدّلالةِ الاستفهاميَّة، لكن بطريقِ خُروجِ الخبر لا بطريقِ خروجِ الاستفهامِ عن وضعِه.

والتَّعبير بـ (ما) يجوز أن يكون عدولًا بدلالة الإشارة إلى أنَّ الكذبَ بموعود يوم الدّين بعد كلّ هذه الأدلّة القطعيَّة الّتي تضمّنَتْها هذه السّورةُ في عدادِ ما لا يعقِلُ بلْ دونَهُ(3).

### دلالةُ (ما) الاستفهاميّة والغرضُ مِنها:

التَّعجُّبُ والإنكار مِـنَ التّكذيبِ بصحَّةِ الجزاءِ والأخبار

عبّر النَّظمُ الكريم بـ(ما) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة بها على الاستفهام، وأصلُ استعمالِ (ما) الاستفهاميَّة أنْ تكون شارحةً لما يقعُ السّؤالُ عنه؛ والسّؤالُ هنا مُتوجِّهٌ إلى السَّببِ الحاملِ إلى التَّكذيب، ولمّا كان الكلامُ صادرًا من اللّه تعالى الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ فإنَّ الاستفهامَ خرجَ عن حقيقتهِ إلى دلالةٍ مجازيَّةٍ، وهي تحتملُ معنيينِ باعتبارِ مَن يتوجّهُ له الخطاب، ولذا قال الهرريّ: "والاستفهامُ للتَّقريع والتّوبيخ وإلزام الحُجّة إنْ كان الخطابُ للإنسان، وللتَّعجُّبِ إنْ كان الخطابُ للرَّسول ﷺ "(4)، وتفصيلُهُ:

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 158.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 431.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 148.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 135، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299.

**أوّلاً:** الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ: وذلك مبنيٌّ على الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخِطاب في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾، أي: ما الّذي يُكذّبك أيُّها الإنسانُ بقصدِ الإنكارِ والنّفي؛ لوجودِ سببٍ باعثٍ على صُدورِ التَّكذيب منه بعدَ ذلك البيانِ، أو إقامةِ الدَّليل الواضحِ على صحّةِ وقوعِ الجَزاء[1].

**ثانيًا:** الاستفهامُ التَّعجُّبيّ: وذلك مبنيٌّ على أنَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾، والمعنى: "فأيُّ شيءٍ يَنسبُكَ إلى الكذبِ بسببِ إخبارك بالجَزاءِ، بعدَ ظُهورِ هذه الدِّلائل النّاطقة به؟"[2].

وتكون (ما) على هذا المعنى استفهاميّةً باقيةً على حقيقتِها أوْ بمَعنى (مَن)[3]، أي: الَّذي يَنسِبُ النَّبيّ ﷺ بطريقِ التَّعجيبِ[4] إلى الكذبِ بعدَ ذلك البيان، أوْ بعدَ إقامةِ الدّليل على صحَّة الحَشْرِ والنّشر، أو بعدَ إخباركَ بوقوعِ يوم الدّين.

### دلالةُ فعلِ (التّكذيبِ) مادّةً وصيغةً:

النّظَرُ في أحوالِ الإنسان تُنبئُ عن تكذيبِ بالأديان

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع (يُكذِّبُ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه المضارعيَّة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ للتَّكذيب الصّادر من الإنسان إزاءَ الشَّرائع والأديانِ وعدم الاعتقاد بالحَشْر والنّشر والحِساب، وللدّلالة بمادّته على وصْمِ الأخبارِ البُرهانيَّةِ والدَّلائل السَّماويَّة والآياتِ الرَّبانيَّة بمخالفةِ الواقعِ، مع أنَّها أخبارٌ اتّفقتِ الشَّرائعُ على تناقُلِها، كما دلَّ على ذلك القَسَمُ بتلك الشَّرائع الَّتي أجمعَتْ على صدقيَّةِ الأديان والإخبارِ بالحشْر.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1963.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 508.

**دلالةُ صيغةِ التّضعيفِ في (يُكذّب):**

**التّعدية والنِّسبة محلُّ استهجانٍ ومَذَمَّة**

استعملَ النَّظم الكريمُ صيغةَ التَّضعيفِ بالحرفِ المُشدَّد في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة إمّا على التَّعديةِ؛ بناءً على إرادةِ الالتفاتِ في الضَّمير المُخاطب، والتَّقدير: ما الّذي يَجعلُكَ أيُّها الإنسان مُكذِّبًا بالدّين؟ فيكون التَّضعيفُ دالًّا على الجَعلِ والصَّيرورة، وإمّا على النِّسبة إلى الكذِب، مِن (كذَّبتُه وفسَّقتُه)، أي: نَسبتُهُ إلى الكذبِ والفِسق، وذلك مبنيٌّ على جَعْلِ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ، والتَّقدير: لأيِّ شيءٍ تَنسبونَه ﷺ للكذبِ أوْ مَن الَّذي يَنسبُكَ أيُّها الرَّسول العظيم إلى الكذبِ بعد كلِّ هذا البيان منك، والدَّلائل الحقّة الّتي أتيتَ بها؟.

**مَرجِعُ ضَميرِ الغَيبة في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾:**

**لا سببَ للتَّكذيب إلّا البهتانُ والشَّكُّ المُرِيب**

عبّرَ النَّظم الكريمُ عن الفاعلِ بضَميرِ الغَيبة في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة به إمّا على الشّيءِ الَّذي يجعلُ الإنسانَ مُكذِّبًا، وذلك مبنيٌّ على أنَّ (ما) استفهاميّةٌ بمعنى السّبب والشَّيء، ويكونُ الضَّمير عائدًا إلى غيرِ العاقِل، وإمّا للدّلالةِ به على المُكذِّب الَّذي يَنسِبُ الرّسولَ اللّه ﷺ للكذبِ، فيكون الضّمير عائدًا على العاقِلِ، ولذا أوَّلوا (ما) بمعنى (مَن)، أوْ جَعلوها مَوصولةً.

**نُكْتةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى الخطابِ في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾:**

**الخطابُ المُباشِرُ بالتَّأنيب يدلُّ على مَزيدٍ من التَّقريعِ والتَّرهيب**

التفتَ الخطابُ القرآنيُّ من التَّعبيرِ بالغَيبةِ إلى ضميرِ الخِطاب في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ إذ مُقتضى الظّاهر أنْ يقول: (فما يُكذِّبُهُ بالدّين)[1]؛ لأنَّ الكلام مَعَ الإنسانِ المَخلوقِ في أحسنِ تقويمٍ والمَردودِ إلى أسفلِ سافلين، والغرضُ من الالتفاتِ بالخطابِ والمواجهةِ تحقيقُ مزيدٍ من الإنكارِ والتَّوبيخ والتَّكذيب؛ إذِ الحديثُ المُباشِرُ مَعَ الموبَّخ يدلُّ على مواجهةٍ صريحةٍ وتقريعٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.

عنيفٍ، لعلَّه يَنتبهُ من غفلتِهِ ويَرعوي عن غَيّه ويستيقظُ من سُباتِهِ، قال الهرريّ: "والنّكتةُ في ذلك الالتفاتِ تشديدُ الإنكار على الإنسانِ بمُشافهتِهِ بالخطاب، كأنَّه قيلَ له: فأيُّ شيءٍ يَضطَرُّك إلى أنْ تكون كاذبًا بعدَ هذه الدَّلائل بسببِ تكذيبِ الجزاءِ"[1]، وأمّا لو جُعِلَ الخِطابَ للنَّبيِّ ﷺ فلا يكونُ هنالك التفاتٌ أصلًا.

### تحديدُ المُخاطَب بـ(الكافِ) في ﴿يُكَذِّبُكَ﴾:

دفعُ القُصور عنِ النَّبيِّ المَبرور

أجازَ المفسِّرون عند تحديدِ المخاطَب بـ(كاف) الخطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أنْ يكونَ عائدًا إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المخلوقِ بأحسنِ تقويم ثمَّ المردودِ إلى أسفلِ سافلين، ويكون هنالك التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب، وفائدتُه التَّقريعُ الشّديد.

والمعنى الثّاني: أنْ يكون عائدًا إلى النَّبيِّ ﷺ على معنى: (مَن يَنسبُكَ إلى التَّكذيبِ)، أوْ: (أيُّ سببٍ يدفعُهم إلى نِسبتك للكذب)، قال النّيسابوريّ: "واختارَهُ الفَرّاء، وقال: كأنَّه يقولُ: فمَن يَقدِرُ على تكذيبكَ بالثّواب والعقابِ بعدَ ما تبيّنَ له من خَلْقِنا الإنسانَ على ما وصفناه؟ والخطابُ على هذا القولِ للنَّبيِّ ﷺ "[2]، وفائدةُ خطابِهِ ﷺ بعدَ التَّبليغ بيانُ نَزاهتِهِ في التَّبليغ، وأنَّ تكذيبَهم له مجرَّدُ بهتانٍ وضَلال مُبين، وطمأنةُ النَّبيِّ ﷺ الكريم بعدمِ تقصيرِهِ في التَّبليغ والإخبار عن ربِّهِ الكريم؛ إذ ليس بعدَ تلك التَّبليغات من سببٍ يَجعلُهُم يَنسبونَهُ للكذب والافتراء.

وعلّق الطّيبيّ على كونِ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ بالقول: "وعلى هذا: لا يكونُ في الكلام التفاتٌ، وتكونُ (ما) بمعنى (من)، أي: فمَن يُكذّبُك أيُّها الرَّسول الصّادق المصدَّق، بما جئتَ به من الدّين الحقِّ، أو بسببِ الدّينِ بعدَ ظهورِ هذه الدّلائلِ الدّالّةِ على نبوّتِك؟"[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 142.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 158.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 508.

**دلالةُ الظّرفِ المُضافِ ﴿بَعۡدُ﴾:**

لا عُذرَ في التّكذيب بعدَ البَيان المَهيب

عبّر النَّظمُ الكريم بالظَّرفِ الزَّمانيِّ ﴿بَعۡدُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة به على انتفاءِ أيِّ سببٍ لصُدورِ التَّكذيبِ بعدَ زمنِ مَجيءِ الآياتِ والبيّنات الدّالّةِ على الحقِّ المبين؛ إذِ الظَّرفُ مبنيٌّ على الضَّمِّ لحَذفِ المُضافِ إليهِ معَ بقاءِ نيّتِه معنًى[1]، والمحذوفُ هنا بقرينةِ السّياق هو البيانُ والإخبار؛ فلا عذرَ في تكذيبِ أحدٍ للحقِّ بعدَ البيانِ والبَلاغ. وقدّر البقاعيُّ المضافَ إليه بقوله: "أي: بعدَ مُشاهدةِ بَغْيِ بعضِ النّاسِ على بعضٍ استعمالًا لحالِ النّكس، وأعراهُ منَ الجارِّ إشارةً إلى أنّ مَن آمنَ قبلَ الغَرْغَرة واتّصلَ إيمانُهُ ذلك بموتِه كانَ ممَّن له أجرٌ غيرُ ممنون"[2]؛ لأنَّ (مِن) للابتداءِ، والخُلوُّ منها يدلُّ على تحقُّقِ النَّجاة بمُجرَّدِ الإيمانِ في أيِّ وقتٍ، وإنْ لم يكن منذُ البِداية.

**دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِٱلدِّينِ﴾ والغرضُ منها:**

الدّينُ للمُؤمنينَ رحمةٌ، وللكافرينَ فِتنة

عبّر النَّظمُ الكريم بـ(الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالة بها إمّا على السَّببيَّة؛ بناءً على أنَّ (الدّينَ) بمعنى الشَّريعة. قال ابنُ عاشور: "و(الدّين) يَجوزُ أَنْ يَكونَ بمَعْنَى المِلَّةِ والشَّريعة، وعَلَيْهِ تَكونُ (الباءُ) لِلسَّبَبِيَّة"[3] أي: (بسببِ إخبارك به وإثباتِه)[4]، ويُبنَى على هذا المعنى فائدةٌ، وهي أنّ "أُسْلوب هَذا التَّرْكيبِ مُؤْذِنٌ بأَنَّهُمْ لَمْ يَكونوا يَنْسُبونَ النَّبيءَ ﷺ إِلَى الكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَجيئَهُمْ بهَذا الدّين"[5].

والوجه الثّاني: أن تكون الباء للصِّلة بناءً على أنَّه بمعنى الجزاءِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 135.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 377.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.

والنّشر[1]، و"المعنى: (ما يجعلُكَ مُكذِّبًا بالدّين) على أنّ (الباءَ) صلتُهُ، و(الدّينُ) بمعناه، وهو من بابِ الإلهابِ والتَّعريضِ بالمكذِّبين، والمعنى: أنَّه لا يُكذِّبُك شيءٌ ما بعدَ هذا البيانِ بالدّين؛ إلّا هؤلاءِ الَّذين لا يُبالونَ بآياتِ اللّه ولا يرفعونَ لها رأسًا"[2]. وأجازَ الخفاجيّ أن تكونَ (الباءُ) بمعنى (في) أيضًا، أي: (يُكذِّبُك في إخبارِك بالدّين)[3].

وهذه التَّفرقةُ مبنيّةٌ على أنَّ (ما) بمعنى (مَن)، وأنّ التَّكذيبَ للنِّسبة، وأنَّ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ، وأمّا لو أبقيناها على حقيقتِها، وأنَّ المخاطَب هو الإنسانُ التفاتًا فتكونُ للصِّلة، والتَّقدير: (أيُّ سببٍ يدفعُكَ أيُّها الإنسانُ للتَّكذيب بالدّين)، وكذا لو كان (الدّين) بمعنى الجزاء، والتَّقدير: (أيُّ سببٍ يدفعك للتَّكذيبِ بالآخرة والحشر والنَّشر). وهذا المعنى هو الأرجح إن شاء اللّه؛ لأنَّ الاستفهام التَّوبيخيَّ عنِ السَّببِ الَّذي جعلَ المُكذِّبَ يُكذِّبُ بالدّين.

### دلالةُ التَّعريفِ بـ(ألْ) في (الدّين):

شَريعةُ الإسلامِ نورٌ للأنام

عرّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الدّين) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ للدّلالةِ على الجِنسِ والحقيقةِ الصّادقة بمَعونة المقام بدينِ الإسلام؛ بناءً على أنَّ المرادَ بالدّينِ الشّريعةُ والمِلّةُ الإسلاميّة، ويكون تعريفُها دالًّا على المدحِ لها بأنَّها الدّين، وكأنَّ ما عداها ليس بدينٍ أصلًا، أوْ على العهد بناءً على أنَّ المراد بالدّين يومُ الجزاء، ويترجّحُ لدَينا أنَّ المراد بالدّين الملّةُ والشَّريعةُ بقرينةِ القَسَمِ بأمكنةِ نزولِ الشَّرائع أوّلَ السّورة.

### نُكتةُ الفصلِ في ﴿أَلَيۡسَ﴾:

الاســتــمــرارُ بالتَّكذيبِ بعدَ البيانِ تجاسُرٌ على حكمةِ المَلكِ الدَّيّان

فصلَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 377.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 377.

﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ عمّا قبلها؛ لكونِها مقرّرةً للاستفهام الإنكاريِّ السّابق؛ قال أبو السّعود: "أي: أليسَ الَّذي فعلَ ما ذُكِرَ بأحكم الحاكمينَ صُنعًا وتَدبيرًا؟ حتَّى يُتوهَّمَ عدمُ الإعادةِ والجزاءِ، وحيثُ استحالَ عدمُ كونِه أحكَمَ الحاكمينَ تعيّنَ الإعادةُ والجزاءُ؛ فالجملةُ تقريرٌ لما قبلَها"[1]؛ أوْ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، قال المظهريّ: "أو هي في مقامِ التَّعليلِ بقولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ لا يَنبغي لك أيُّها الإنسانُ التَّكذيبَ؛ قال: اللّه أحكمُ الحاكمينَ عليك بالعذابِ"[2] ورأى ابنُ عاشور أنَّها: "مُسۡتَأۡنَفَةٌ للتَّهديد والوعيد"[3]، أو: "الجملةُ لتسليةِ النَّبيِّ ﷺ على تكذيبِ الكفّار إيّاه مُكابرةً وعِنادًا، أو وعيدٌ للكفّار، والمعنى: أليس اللّه بأقضى القاضينَ؛ فهو يحكُمُ بينَكَ وبينَ مَن كذَّبَك"[4].

### دلالةُ الاستفهامِ بـ(الهمزة) في ﴿أَلَيۡسَ﴾:

التَّقريرُ والإنكار لِمَن يُشكِّكُ بحِكمةِ الواحِدِ القهّار

استعملَ النَّظمُ الكريم (الهمزةَ) في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستفهام التَّقريريِّ؛ قال المظهريّ: "﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للنَّفي، ونفيُ النّفي إثباتٌ؛ فهو تحقيقٌ وتقريرٌ لما سبق، والمعنى: أليسَ الّذي فعل ذلك من الخَلْقِ والرَّدِّ بأحكم الحاكمين صُنعًا وتدبيرًا، ومَن كان كذلك كان قادرًا على الإعادةِ والجزاءِ"[5].

### دلالةُ النّفي بـ(ليسَ) والغرضُ منها:

الحِكمةُ والقَضاء ثابتانِ لله بلا انتِهاء

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي الجامِد (ليس) في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالة على النّفي الواقِعِ في حيّزِ الإنكارِ؛ فيتولَّدُ الإثباتُ لجملةِ (اللّه أحكمُ الحاكمينَ)،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 430.
(4) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 299.

والغرضُ من النّفي بـ(ليس) الدّلالةُ على انتفاءِ الخبَرِ عن الاسم في الحالِ والاستقبال، فيُفيدُ ثبوتَ الحُكمِ على سبيلِ الاستمرارِ والدَّوام، فيكون موازيًا للتَّكذيبِ بالدّين الصّادرِ منهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار؛ إذ لُزومُ التَّكذيبِ واستمراريّتُهُ يُرافقُهُ تقريرٌ لاستمرارِ أحكميّتِهِ ودوامِها.

### سرُّ الالتفاتِ في التَّعبيرِ باسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلَ ضميرِ المتُكلِّم:

تعليلُ الأحكميَّة بلفظِ الأُلوهيَّة

التفتَ النَّظمُ الكريم عندَ التَّعبيرِ بلفظِ الجَلالة بدلَ الضَّميرِ المتكلِّم في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ إذِ الظّاهرُ أنْ يقال: (ألسنا أحكمَ الحاكمين) كما عبّر في قوله: ﴿خَلَقۡنَا﴾، وقولِه: ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾، والسِّرُّ في ذلك: إرادةُ التَّعليل لكونِهِ أحكمَ الحاكمين؛ إذِ التَّعبيرُ بلفظِ الجلالة الدّالِّ على أنَّه الذّاتُ الواجبُ الوجود المُستجمِعُ لجميعِ صِفات الكمال يُثبتُ الأحكميَّةَ له تعالى؛ فيكونُ من تعليقِ الحُكم باللّفظ المُنزَّل منزلةَ المشتقِّ الدّالِّ على التَّعليل، فهو من قبيلِ الدَّعوى المَصحوبةِ بعِلّتِها وبُرهانِها.

### دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِأَحۡكَمِ﴾ والغرضُ منها:

توكيدُ الخبَرِ للرّدِّ على مَن شكَّ في الحِكمةِ أوْ أنكر

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الباء) في حيِّزِ الجملةِ المنفيَّة بـ(ليس) في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالة على التّوكيدِ للحُكم وتقويتِهِ؛ إذِ (الباءُ) حرفُ جرٍّ زيدَ للتّوكيدِ والتّقوية، والخبرُ مجرورٌ به لفظًا منصوبٌ تقديرًا، والغرضُ من التّوكيد ردُّ أيِّ شكٍّ أوْ إنكارٍ في ثبوتِ الحُكم المُقرَّر؛ لأنَّ مَن يصدرُ منه التّكذيبُ بعدَ البيان وإقامةِ الحُجَج البيِّنة على قدرةِ اللّه التّامَّة، يكون كالمنكرِ لكونِهِ أحكمَ الحاكمين، إذ لا يفعلُ الخلقَ والرَّدّ والإحياءَ والإماتة إلّا مَن كان متّصِفًا بالحِكمةِ والرَّحمة والعَدل في خَلْقِ العالَمينَ، ولذا قالَ البقاعيّ: "ولمّا صحَّ أنَّ تاركَ الظّالم بغيرِ انتقام، والمُحسن بلا إكرام، ليس على منهاجِ العَدلِ الّذي شرّعه اللّه تعالى؛ حسُنَ جِدًّا

تكريرُ الإنكار بقولِه ﷻ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ أي: على ما لهُ من صفاتِ الكمال، وأكّدَه بالجارِّ في قوله: ﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾"[1].

### دلالةُ اسمِ التّفضيلِ (أحكَم) مادّةً وصيغةً:

مَن لا يغفَلُ ولا يَسهو يتنزّهُ عن العَبَث واللّهْو

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسم التَّفضيلِ (أحكم) في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه على الاتّصاف بالحِكمة على سبيلِ الزّيادة؛ إذ ما من حكيمٍ إلّا واللّه تعالى أحكمُ منه، فلا يخلو حكيمٌ مِن هَفوة أوۡ زلَّة أوِ استعجالٍ أوۡ غفلة، والمَوۡلى تعالى لا يغفَلُ عن شيءٍ، ولا تخفَى عليه خافية، فلا ريبَ أنَّ أفعالَهُ لا تخرجُ عن الحِكمةِ، وللدّلالة بمادّتِه على الإتقانِ في الفعل، وعدمِ العبَثِ في الخَلۡق.

### دلالةُ الإضافةِ في (أحكمِ الحاكِمينَ):

الاستدلالُ بطريقِ الأولويّة على حِكمتِهِ العليَّة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ التَّفضيل (أحكم) إلى ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالة على التَّعريفِ والتَّعيينِ؛ والمفيدِ بطريقِ الأولويّة أنّه إن كان أحكمَ الحاكمين فهو أحكمُ العالَمين، وإذا تقرّرَ أنَّه أحكمُهم ثبتَ أنَّه لا يفعل إلّا بحكمةٍ منزّهةٍ عن العبثِ واللّهۡو، فيَنتجُ أنَّه لا عُذرَ لِمَن يُكذِّبُ بالدّين الحقِّ أو يومِ الجزاء؛ لأنّه لا يكونُ تكذيبُهُ إلّا من شكٍّ في كونِ فعلِه مُشتملًا على العبَثِ، وأنَّ الخَلۡقَ وجودٌ عشوائيٌّ خالٍ من التَّقديرِ الحَكيم.

### دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) لاسمِ الفاعلِ المَجموع ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

ثراءُ الدّلالة المعجميَّة وعلاقاتُها السّياقيَّة

عرّفَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعلِ المَجموع بـ(ألۡ) في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ للدّلالة على الاستغراقِ الكلّيِّ؛ إذ ما مِن حاكمٍ إلّا واللّه تعالى أحكمُ منه، واختارَ صيغةَ اسم الفاعلِ للدّلالة على ثبوتِ وصفِ الحُكم في الحاكمِ ثبوتًا دائميًّا حتَّى صارَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 149.

وصفًا مُلازمًا لا ينفكُّ عنه، ويدلُّ الحاكمُ بمادّتِه على الحُكم المُحتمل للحِكمة في التَّصرُّفِ والإتقانِ في العمل، أوْ للقضاءِ والفصلِ بين الخُصومات، أوْ ما يَلزمُهُ من العَدلِ، ولا يَبعُدُ أن يكونَ ذلك كلُّهُ مُرادًا[1]؛ فهو تعالى في خَلْقِه للأشياءِ يتّصفُ بالحكمةِ، وفي تعامُلِهِ مع المُكذِّبين فهو أقضى القاضين، وفي الحُكم عليهم بالمعاقبةِ فهو أعدلُ العادلينَ، قال أبو السُّعود: "وقيلَ: الحُكْمُ بمعْنَى القضاءِ؛ فهي وعيدٌ للكُفّارِ، وأنَّه يَحكمُ عليهم بما يستحقّونَهُ منَ العذابِ"[2].

## ۞ الفُروقُ المعجميّة:

### المِنّة والنِّعمة:

المِنّة أخصُّ من النِّعمةِ مُطلَقًا

المِنّةُ هي النّعمةُ المَقطوعةُ مِن جوانبِها، وسُمّيَ الاعتدادُ بالنِّعمة منًّا؛ لأنَّه يقطَعُ الشُّكرَ عليها، فهي نعمةٌ يُمَنُّ بها على الغيرِ حتّى يَنقطِعَ الشُّكرُ عليها[3]، بخلافِ النِّعمة فإنَّها قد تكونُ مَصحوبةً بالمَنِّ أوْ عاريةً عنه، ولذا عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بـ﴿مَمْنُونِ﴾ في قولِه: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِ﴾؛ إذِ الأجرُ نعمةٌ تحتمِلُ الكمالَ والنُّقصان، فبيّنَ النَّظمُ أنَّها نعمةٌ كاملةٌ، لا تُمازِجُها مِنّةٌ تُفضي إلى الإذلال.

### التَّقويمُ والتَّعديل:

التَّقويمُ أخصُّ مُطلقًا من التَّعديل

التَّقويمُ تعيينُ القيمة للشّيءِ؛ فإنّ الشَّيءَ إذا تعيّنَ قيمةً فقد قامَ وانتصَبَ وتشخّصَ وُجودُهُ، ويَرتفعُ إبهامُهُ وركودُهُ؛ فالتَّقويمُ بمعنى جَعْلِ الشّيءِ قائمًا ومُنتصِبًا[4]، وأمّا التَّعديلُ فهو تسويةٌ لا زيادةَ فيها ولا نُقصانَ، قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: 6 - 7]، والخَلْقُ هو التَّكوينُ على كيفيّة مخصوصةٍ، والتّسويةُ هو التَّوسّطُ مَعَ اعتدال، وهو

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 161، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 431.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 176، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1964.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 197.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 320.

أخصّ من الخَلْقِ وواقعٌ بعدَه، كما أنّ العدلَ هو توسّط خاصّ من دونِ زيادةٍ ونقيصةٍ، وهو أخصّ من التّسويةِ وواقعٌ بعدَهُ، وهذا معنى قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

(1) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 59.

# سُورَةُ العَلَقِ

# سُورَةُ العَلَقِ

## التّعريف العامّ بالسّورة:

### المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

هذه السّورة مكّيّة بإجماع المُفسّرين[1]. وأمّا عددُ آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "وَهي ثَماني عشرَةَ آيَةً في الشّاميّ، وتسعَ عشرَةَ في الكوفيّ والبصريّ، وعِشْرونَ في المَدَنيَّين والمَكّيّ، اختلافها آيتان ﴿لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾ عدّها المدنيّان والمكّيّ، ولم يَعُدَّها الباقونَ، ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾ لم يَعُدَّها الشّاميُّ وعدّها الباقونَ"[2].

### ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبُها المصحفيّ بين سورتَي التّين والقَدْر

هذه السّورة هي السّادسة والتّسعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعَوَّلُ عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتَي التّين والقَدْر.

وأمّا ترتيبُها النّزوليّ: فالخلاصة من أقوال العلماء في المسألة: أنّ سورة الفاتحة هي أوّل السّور المكّيّة نزولًا كاملًا، وأمّا الآياتُ الخمسة الأولى من سورة العَلَق فهي من أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق. وخالف في هذا من الأقدمين الإمامُ الزّمخشريّ، حيثُ عدّ الفاتحةَ أوّلَ القرآنِ نزولًا على الإطلاق، فقال: "وأكثر المُفسِّرين على أنّ الفاتحة أوّلُ ما نزل"[3]، ووافقه من المعاصرين الشَّيخ محمّد عبدُه[4].

### فضائل السّورة:

هذه السّورة من قصار سور المفصّل

هذه السّورة من قصار سور المُفصّل الَّذي قال فيه النَّبي ﷺ

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 40.
(2) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 280.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 775.
(4) محمّد رشيد رضا، المنار: 1/ 29، 30.

فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

## اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ العلق اشتهرت بهذا الاسم

وردت تسميتُها بسورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ في صحيح البخاريِّ[2]، وعند التّرمذيّ[3]، وسمّيت في المصاحف ومعظم التّفاسير سورة (العلق) لوقوع لفظ (العلق) في أوائلها، وكذلك سمّيت سورة (اقرأ)، وسَمّاها الكَواشيُّ في (التَّخْليصِ) سورة (اقرَأْ) و(العَلَقِ)، وعنونها ابن عطيّة وأبو بكر ابن العربيّ: سورة (القلم) وهذا اسمٌ سمّيت بهِ: (سورَةُ ن)[4].

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها فقال: "ومقصودها، الأمر بعبادة من له الخَلق والأمر، شكرًا لإحسانه، واجتنابًا لكفرانه، طمعًا في جنانه، وخوفًا من نيرانه، لما ثبت من أنّه يدين العباد يوم المعاد. وكلٌّ من اسميها دالٌّ على ذلك؛ لأنّ المُربّي يجب شكرُه، ويحرم كُفرُه. على أنّ ﴿ٱقْرَأْ﴾ يشير إلى الأمر، و(العلق) يشير إلى الخَلق، و﴿ٱقْرَأْ﴾ يدلّ على البداية، وهي العبادة بالمطابقة، وعلى النّهاية، وهي النّجاة يوم الدّين باللّازم. و(العلق) يدلّ على كلّ من النّهاية والبداية بالالتزام؛ لأنّ من عرف أنّه مخلوق من دم، عرف أنّ خالقه قادر على إعادته من تراب؛ فإنّ التُّراب أقبل للحياة من الدّم، ومن صدَّق بالإعادة عمل لها. وخَصّ العلق، لأنّه مركّب الحياة"[5].

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في الكبير: 22/ 76، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2415).

(2) البخاريّ في صحيحه، باب: تفسير سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق): 4/ 1893.

(3) التّرمذيّ في سننه، باب: ومِنْ سورَةِ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ): 5/ 443.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 433.

(5) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 213.

والحقّ أنّ تسميتها بالعلق - وهي مرحلة اندماج نواتيّ نوعيّ الجنس البشريّ في رحم الأمّ - يرتبط مع ضمّ أمين السّماء لأمين الأرض لمّا نزل عليه بعد انقطاعٍ دام ستّة قرون من رفع المسيح عليه السلام، حيثُ غطّه ثلاثًا ثمّ تلا عليه الآيات الأولى منها، وينسجم كذلك مع هذه العَلقيّة والضّمّ بين نعمتيِ الخَلق والتّعليم، وينسجم كذلك مع هذا الجمع بين السّجود والاقتراب، وأمّا تسميتُها بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ فينسجم مع منهج هذا الدّين القائم على ضرورة القراءة في كتابَيِ اللّه المنظورِ والمسطور، فالعِلّم هو عنوان هذه السّورة الَّتي وردت فيها مادّة (علم) ومشتقّاتها أربع مرّات، وهي السّورة الَّتي اختصّت بإجابة الإنسان عن الأسئلة الكونيّة الَّتي تتعلّق بالوجود، والَّذي قامت السّورة الكريمة للإجابة عليها.

### المحورها العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على التّعريف بالإنسان أصلًا ومهمَّة ومآلًا

يتعلّق مِحور السّورة ببيان حقيقة الإنسان وما أكرمه اللّه تعالى به، وما يريده منه، وما توعّده به إن لم يلتزم بالمنهج، وهي وفق الآتي:

**أوّلًا:** تلقين محمّد ﷺ الكلام القرآنيَّ وتلاوته إذ كان لا يَعرف التّلاوة مِن قبل، والإيماء إلى أنَّ علمه بذلك ميسَّرٌ لأنَّ اللّه الَّذي ألهم البشر العلم بالكِتابة قادرٌ على تعليم مَن يشاء ابتداءً، وإيماءٌ إلى أنَّ أمَّته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.

**ثانيًا:** توجِهه إلى النَّظر في خلق اللّه الموجودات وخاصَّةً خلقهُ الإنسان خلقًا عجيبًا مُستخرجًا مِن علقةٍ فذلك مبدأ النَّظر.

**ثالثًا:** تهديد مَن كذَّب النَّبي ﷺ وتعَرَّض ليصدَّه عن الصَّلاة والدَّعوة إلى الهدى والتَّقوى.

وإعلام النَّبي ﷺ أنَّ اللّه عالِمٌ بأمر من يناوؤنه وأنَّهُ قامعُهُم وناصر رسولهِ.

**ورابعًا:** تثبيتُ الرَّسولِ على ما جاءَهُ من الحَقِّ والصَّلاة والتَّقرُّب إلى اللّه، وألّا يعبأ بقوَّة أعدائه لأنَّ قوّة اللّه تَقهرهم.

## موضوعات السّورة ومقاصدُها الرَّئيسة:

جاءت السّورة لتحقيق أمورٍ ثلاثة هي:

مَـدارُ الـسّـورةِ حـــولَ بـيـان حقيقة الإنسان ومقصود خَلْقه

**أوّلاً:** بيان حكمة اللّه في خلق الإنسان من ضعف إلى قوّة، والإشادة بما زوّده وأمره به من فضيلة القراءة والكتابة لتمييزه على غيره من المخلوقات.

**ثانيًا:** الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرّده على أوامر اللّه، وجحوده نِعَم اللّه عليه، وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثَّروة والمال والغنى لديه، فقابل النّعمةَ بالنّقمة، وكان الواجب عليه أن يشكر ربّه على فضله، فجحد النّعمة وتجبّر واستكبر.

**ثالثًا:** افتضاح شأن فرعون هذه الأمَّة أبي جهل الَّذي كان ينهى رسولَ اللّه ﷺ عن الصّلاة؛ انتصارًا للأوثان والأصنام، وتوعُّدُه بأشدّ العقاب إن استمرَّ على ضلاله وكفره وطغيانه، وتنبيه الرّسولِ ﷺ إلى عدم الالتفات لما كان يوعِده به ويتهدَّده[1].

## الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تـمـيّـزت سـورة الـعَـلـق بـخـصـائـص أفـردتـهـا عن غيرها من السّور

**أوّلاً:** تميّزت السّورة الكريمة ابتداءً بأنّ الآيات الخمس الأولى منها هي أوّل آيات الكتاب نزولًا على الإطلاق كما تقدّم.

**ثانيًا:** تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بفعل الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، حيثُ لم يشاركها في مطلعها أيّ سورة أخرى على الإطلاق، لكن شاركتها أسرة أخرى من السّور المستهلّة بفعل الأمر (قل) وهي: الجنّ، الكافرون، والمعوّذات الثّلاثة، وقد اشتركت جميعها بدعوتها إلى التّوحيد، وبضرورة الالتجاء إلى اللّه دون سواه،

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 311، 312.

وبتحقيق المفاصلة بين دعوة الحقّ ودعوة الباطل، واشتركت كذلك بتحقيق الالتجاء إلى الله ﷻ والاستعاذة به من شرور خلقه.

### الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تميّزت سورة العَلق بخصائص تعبيرية ميزتها عن غيرها من السّور

**أوّلًا:** امتازت السّورة الكريمة بأنّها كرّرت بعض ألفاظها ثلاثَ مرّات وهي: ﴿رَبِّكَ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ﴾، ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وكرّرت بعض الكلمات مرّتيْن وهي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَّمَ﴾، ﴿يَعْلَمْ﴾ فيكون العلم قد ذُكر أربعَ مرّات، ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ معرّفة ومنكّرة، و﴿فَلْيَدْعُ﴾ مع ﴿سَنَدْعُ﴾.

**ثانيًا:** امتازت السّورةُ الكريمة بأنّها رغمَ قلّةِ عددِ آياتها فقد ورد أسلوبُ الاستفهام فيها أربعَ مرّات: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

**ثالثًا:** تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الجناس الاشتقاقيّ فيها مثل: ﴿فَلْيَدْعُ﴾، ﴿سَنَدْعُ﴾، ﴿كَذَّبَ﴾، و﴿كَٰذِبَةٍ﴾، ﴿عَلَّمَ﴾، و﴿يَعْلَمْ﴾.

**رابعًا:** تميّزت السّورةُ الكريمة بأنّها حوت أبنيّة صرفيّةً انفردت بها عن غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، كما انفردت السّورة بلفظيْن من حيثُ المادّة والصيغة وهما: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ و﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

### العلاقة بين سورة العلق وسورة التين:

ذكر الله تعالى في سورة التّين: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]، وذكر في هذه السّورة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، فخلقه من علاقة هو في أحسن تقويم، وذكرَ تعالى هنا من أحوالِ الآخرة ما هو كالشَّرح والبيانِ لما ذكرَهُ في السّورة السّابقة(1).

وهناك بيّن انقلابَ الإنسانِ بعد الهداية إلى أسفل سافلين

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 145.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: 5]، وهنا فصّل مظاهر هذا الانقلاب بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

وهناك ذكر جزاء الَّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ [التين: 6]، وهنا ذكر عاقبةَ غيرِهم فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: 1 - 5]

## مُناسبةُ السّورةِ لما قبلَها:

تفصيلُ الخَلْقِ الحسَن وبيانُ الانحطاطِ والوَهَن

هذه السّورة متّصلة بسورة التّين بأكثر من جانب، وعلى رأسها التّقرير بأنّ الله تعالى خلق الإنسان على أحسن خِلقة وأكرمه بالنّعم، وطلب منه الاستقامة على الدّين، فلمّا ذكرَ المولى تعالى في سورةِ (التّين) أنَّ الله تعالى قد خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويم، ومنحَهُ فطرةً نقيّة وعقلًا راشِدًا، لكنَّه لم يعمَلْ بمقتضَى علمِه، ولم يَنتفِعْ بفِطرتِه، ولم يُفكِّر في خَلْقِه وتكوينِه، فانقلبَ على الآياتِ والرُّسلِ والأنبياءِ بالتَّكذيبِ، حتَّى صار في أسفلِ سافلين؛ بيَّنَ في هذه السّورة تفصيلَ ما أجملَ من الخَلْقِ في أحسنِ تقويم؛ إذ خلقَهُ من علقةٍ، ثمَّ علّمَه ما لم يكن يعلمُ بما منحَهُ من استعدادٍ فطريٍّ للتَّعلُّمِ والصّناعة والتَّحضُّر، لكنَّه طغَى وعن الآياتِ استغنى، حتَّى انقلبَ إلى أسفلِ سافلينَ[1].

وهناك خُتمت السّورة بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التّين: 8]، وهنا جاءت هذه السّورة لتُبيّن جوانبَ هذه الحِكمة من خلال بيان أصل خلقة الإنسان وما أكرمه الله تعالى به، وما مصيره بعد الموت.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡرَأۡ﴾: (قري) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جَمْعٍ واجتماع، قالوا: ومنهُ القرآنُ، كأنّهُ سُمّيَ بذلك؛ لجمْعِهِ ما فيه من الأحكامِ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1964.

والقصَص وغيرِ ذلك[1]، وقرأتُ أمَّ الكتاب وبأمِّ الكتاب، يتعدّى بنفسِهِ وبالباء، قراءةً وقُرآنًا، ثمّ استُعمِلَ (القُرآنُ) اسمًا، والفاعلُ قارِئٌ، وقَرَأَةٌ وقرُّاء وقارِئون، وقرأتُ على زيدٍ السّلامَ أقرؤُهُ عليهِ قراءةً[2]، والقراءةُ ضمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعضٍ في التَّرتيل، وليس يقالُ لكلّ جمعٍ، ولا يقالُ: قرأتُ القومَ إذا جمعتَهم، والقرآنُ في الأصلِ مصدرٌ[3].

2) ﴿عَلَقٍ﴾: (علق) أَصْلٌ كَبِيرٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى واحِدٍ، وهو أنْ يُناطَ الشَّيْءُ بالشَّيْءِ العالي. ويُقالُ إنَّ العَلوقَ: ما تَعْلُقُهُ السّائِمَةُ مِنَ الشَّجَرِ بأفْواهِها مِن ورَقٍ أوْ ثَمَرٍ[4]، والعَلَقُ: الدّم الجامدُ قبلَ أنْ يَيْبَسَ، والقِطعةُ عَلَقَةٌ[5]، والعَلَقة: الدَّمُ الجامِدُ الغليظُ، ومِنْه قيل لهَذِهِ الدّابَّةِ الَّتي تكون في الماءِ عَلَقة؛ لأنّها حَمْراءُ كالدَّم، وكلُّ دمٍ غليظٍ عَلقٌ، ويُقالُ: عَلِقَ فلانٌ فُلانةَ، إذا أحبَّها؛ وقد عُلِّقها تَعْليقًا، وهوَ معلَّق القلبِ بها، والعَلاقة: الهَوَى اللّازمُ للقلب[6]. والمرادُ به في الآية: قِطَعُ اللّحم المُتعلِّقة بأرحامِ النِّساء، مُفردُهُ علقةٌ، وهي مرحلةٌ من مراحلِ تكوُّنِ الإنسانِ في بَطْنِ الأمِّ.

3) ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾: (قلم) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تسويةِ شيءٍ عندَ بريِهِ وإصلاحِهِ، ومن هذا البابِ سُمّيَ القلَمُ قلَمًا؛ لأنّه يُقلَمُ منه[7]، وقلَمْتُهُ قَلْمًا (من بابِ ضرَبَ): قطعتُهُ، وقلمتُ الظُّفُرَ: أخذتُ ما طالَ منه، وقلّمتُ مبالغةٌ وتكثيرٌ، والقَلَمُ: الّذي يُكتبُ به، فعَلٌ بمعنى مَفعول كالحَفَر، ولا يُسمّى قَلَمًا إلّا بعدَ البري، وقبلَهُ هو قَصَبةٌ[8]. فالقَلْمُ: هو البَريُ والتَّهيئةُ والعمَلُ حتّى يكونَ وسيلةً في ضبْطِ أمرٍ وإحداثِهِ ونَظْمِهِ. مادّيًّا أوْ معنويًّا[9]. والمرادُ به في الآية: آلةُ الكتابة المعروفة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرأ).
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (قرأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علق).
(5) الخليل، العين: (علق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلم).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قلم).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 294.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جَحْدُ الخالقِ المُنعم بالطُّغيانِ والاستكبارِ

والمعنى: اقرأْ يا محمَّد ﷺ مُفتتِحًا باسم ربِّك ومُستعينًا به ومُتبرِّكًا بذِكرِه؛ فهو الَّذي خلقَ كلَّ شيءٍ، وخلقَ الإنسانَ من علقٍ، ومَن كانَ خالقًا لكلِّ شيءٍ وللإنسانِ بالذّات المأمورِ بالقراءةِ فإنَّ هذا الرَّبَّ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وقادرٌ على تعليمك حتَّى تكون قارئًا باسم ربّك، مُبلِّغًا ما تحفظُهُ منَ الوحي، واقرأ فرَبُّك الأكرمُ المتميِّزُ عن الأرباب الباطلةِ بكرمِهِ وإحسانِهِ، ومن جملةِ إحسانِه أنَّه علَّم الإنسانَ الكتابةَ بالقلم، وعلّم الإنسانَ عُلومًا لم يكُنْ يعلمُها، وبعد كلِّ تلك النِّعَمِ العظيمة فإنَّ الإنسانَ المخلوقَ المُعلَّم يَطغَى ويتكبّرُ، ويتجاوَزُ الحُدودَ في التَّمرُّدِ والكُفران.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نُكْتَةُ الابتداء بالأمر بالقراءة:

مِن أسبابِ التَّحضُّرِ والرِّيادة تعلُّمُ الكتابةِ والقِراءة

ابتدأ النَّظمُ الكريم السّورةَ بالأمرِ للنَّبيِّ ﷺ بالقراءةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ للدّلالةِ على أهمّيَّةِ القراءةِ في نشرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة، وضرورةِ الأخذِ بأسبابِ العِلْمِ والمدنيَّة الّتي أهمُّها القراءةُ والكتابة، كما أنَّ الافتتاحَ للسّورةِ بها: "إيذانٌ بأنَّ رَسولَ اللّه ﷺ سَيَكونُ قارئًا، أي: تاليًا كِتابًا بَعْدَ أن لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلا كِتابًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: 48]، أي: مِنْ قَبْلِ نُزولِ القُرْآنِ"[1].

### براعةُ الاستهلالِ في السّورة:

مطلَعُ الكتابِ المُنزَّل مُتوافِقٌ معَ مُرادِ النَّظمِ المُرتَّل

تتجلّى المناسبة والتَّوافق من كون أوّل فعلٍ ملفوظ به في تنزيل القرآن الكريم هو الأمر بالقراءة، قال تعالى فيها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ ليكون ذلك الكتابُ المنزّلُ قُرآنًا يُتلى آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار، وبه يُسمّى[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 30/ 435.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 215، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 148.

## دلالةُ فعلِ (القراءةِ) مادّةً وصيغةً:

القراءةُ للكتابِ المُبين بالتّأهُّبِ لسَماعِ كلامِ الأمين

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (القراءةِ) أمرًا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ للدّلالة بمادّته على النُّطق بكلامٍ مكتوبٍ أوْ مَحفوظ عن ظهرِ قلبٍ لإعادتِه، وبصيغتِه على طلبِ القراءةِ في الحالِ أوْ في المُستقبلِ القريبِ منه، ولمّا لم يكُنْ للنَّبيِّ ﷺ متلوّاتٌ يحفظها أو صحيفة يَقرأُ منها، انحصرَ الأمرُ بالقراءةِ لقراءةِ ما سيُملى عليه، أو ما يوحى بهِ إليهِ فورًا، فيكونُ الأمر بالقراءةِ مُستعمَلًا في حقيقتِهِ - كما يرى ابن عاشور - وهو طلب القراءةِ للمسموعِ المتلوِّ عليه مِن خلالِ الاستعدادِ والإصغاءِ لما يوحَى إليه، قال ابنُ عاشور: "وعَلَى هَذا الوَجْهِ يَكونُ قَوْلُ المَلَكِ لَهُ في المَرّاتِ الثَّلاثِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ إعادَةً لِلَّفْظِ المُنَزَّلِ مِنَ اللهِ إعادَةَ تَكْرِيرٍ؛ لِلِاسْتِئْناسِ بالقِراءَةِ الَّتي لَمْ يَتَعَلَّمْها مِنْ قَبْلُ"(1).

ويجوز أن يُستعمل طلب القراءة هنا من باب المجاز للتّأهب والاستعداد لما يُتلى عليه ولتبليغه للمتلوّ؛ لما قالَه القونويّ: "أو المَعْنَى: وجِّهْ ذِهنَكَ إلَى قراءة القُرْآن فإنّي أعلّمُك، فيكونُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مَجازًا عن هذا؛ لكونه لازمًا له"(2).

## سرُّ تقديمِ فعلِ القِراءة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾:

أثـرُ المَـقـامِ في تـقـديـمِ أجـزاءِ الكَلام

قدّمَ النَّظمُ الكريم فعلَ القراءةِ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدّلالة على الاعتناءِ بالقراءةِ في المقام، وأهمّيَّةِ إصغائه لما يوحى إليه وقراءتِه له، حتَّى يقرأَهُ ويَتلوَهُ على قومِه، إذ ليسَ المقامُ مقامَ الرَّدِّ على المشركينَ الَّذين كانوا يَبدؤونَ كلامَهم بأسماءِ آلهتِهم، فرَدّ عليهم القرآنُ بتقديم اسم اللّه عندَ كلِّ قراءةٍ للقُرآن بقوله: (بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم)، وأمّا هنا فكانتِ العنايةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 346.

بالقراءةِ؛ لأنَّها أهمُّ وأوْلى، وهذا التَّوجيهُ مبنيٌّ على تعلُّقِ الجارِّ والمَجرورِ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولى.

### دلالةُ ضميرِ المُخاطَب في ﴿ٱقۡرَأۡ﴾:

دلالـةُ العُموم مُنبعثةٌ من مقصَدِ المَنظوم

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ القراءةِ أمرًا للدّالّ على المُخاطبِ الفاعلِ المضمَر، وتقديرُهُ: (أنتَ) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدّلالة به على النَّبيِّ ﷺ بالأصالةِ، وإرادةِ كلِّ المُسلمين أنْ يَسمعوا لكلامِ اللهِ مِن رسولِهِ الأمين، ويقوموا بقراءتِهِ جيلًا بعدَ جيل، فالضّميرُ المُخاطَبُ قُصِدَ به العمومُ، أي: كلُّ مَن تتأتَّى منه القراءةُ بعدَ السَّماعِ أنْ يقرأ باسمِ الرَّبِّ تعالى. قال المُظهريّ: "أمرٌ بإيجادِ القراءة مطلقًا، وهو لا يختصُّ بمفردٍ دونَ مفرد"(1).

### نُكْتَةُ حذفِ مَفعولِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾:

حذفُ المفعولِ الدّالِّ على العُموم مدحٌ باشتمالِ القُرآنِ على سائرِ العُلوم

حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ إمّا لأنّ الفعلَ مُنزّلٌ منزلةَ اللّازم، وأنَّ المقصودَ بالاهتمامِ إيجادُ القراءة، والتّركيزُ على فعلها وضبطِها، وإمّا أنَّ الفعلَ مُتعدٍّ، ودلَّ المقامُ على أنَّ ذلك المقروءَ هو القرآنُ(2)، ولم يُصرِّح بما دلّ عليه المقامُ لما فيه من مدحٍ عظيمٍ للقرآن؛ حتَّى إنَّه بقراءتِهِ له يقرأُ كلَّ ضروبِ العُلوم؛ لما احتواه من أصولِ الأفكارِ وحقائقِ الأشياءِ الهاديةِ للإنسانِ لكلِّ عملٍ فيه خيرٌ ونفعٌ، فيكون صادقًا بإرادةِ العُموم، وكأنَّه قالَ له: اقرأ الكونَ من خلال قراءةِ هذا القرآنِ، وقدّرَ البيضاويّ المفعولَ بـ(القرآن)، وعلّقَ عليه القونويّ بقوله: "إشارَةٌ إلَى أنَّ المَفْعولَ مَحْذوفٌ؛ سمَّى البعضَ قرآنًا؛ لأنّه في الأصل اسمُ الجنسِ، يقَعُ عَلَى الكلِّ والبعضِ، وصارَ علَمًا بالغلبة، فهو حَقيقَةٌ باعْتبارِ أصلِهِ، مجازٌ بالنَّظرِ إلَى العَلَميَّة، وليس مُنزلًا

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 302.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.

منزلةَ اللّازم؛ إذ المقامُ يقتضي الأمرَ بقراءةِ القُرْآن؛ لأنَّ السّورَة أوّلُ ما نزلَ"[1].

## سرُّ إيقاع (الجارّ والمَجرور) بينَ أمرَي القراءةِ:

الاستئنافُ والتّتميم لمَزيدٍ منَ الاهتمامِ أوِ التّبيين

أوقعَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ بينَ أمرين بالقراءةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، و﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ﴾؛ ويحتملُ إمّا أن يكونَ مُتعلّقًا بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولى، فهو مِن تتمّةِ الكلامِ والبيانِ لمُتعلّقاتِه، بأنْ تكونَ القراءةُ مُلتبِسةً ومُصاحِبةً لاسمِ الرَّبِّ الخالق، فالجارُّ والمجرور في قولِه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾: "متعلّقٌ بمحذوف حالٌ من فاعلِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ومفعولُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ محذوفٌ، تقديره: (اقرأْ يا محمّد ما يوحى إليك، أَوْ ما نَزَلَ عليك، أَوْ ما أُمرتَ بقراءتِه حالَ كونك مُتلبِّسًا باسم ربّك، أَوْ مُستعينًا باسم ربّك، أَوْ مُفتتحًا باسم ربّك، أَوْ متبرِّكًا باسم ربّك، أَوْ مبتدئًا باسمِ ربّك؛ ليتحقّقَ مقارنتُه لجميعِ أجزاءِ المقروءِ"[2].

أَوْ أنَّ جملةَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ انتهَتْ، ثمَّ استأنفَ النَّظمُ استئنافًا بيانيًّا بالجارِّ والمجرورِ؛ لبيانِ المقروءِ الَّذي دلَّ عليه الأمرُ بالقراءةِ اهتمامًا به.

ويتبيّنُ أنَّ المولى تعالى لمّا أمرَ النَّبيَّ في الغارِ بالقراءة، وهو لا يَعرفُ القراءة، ولم يحفَظْ شيئًا حتّى يقرأَهُ، نشأ سؤالٌ في نفسِ المُصطفى الكريم ﷺ ليسَ عن تحديدِ المَقروءِ، بل عن مصدرِ الآمرِ بالقراءةِ والجهةِ الّتي تطلبُ منه القراءةَ، طالبًا تعيينَهُ ومعرفتَهُ، فجاءَ الاستئنافُ البيانيُّ مُقدِّمًا الجارَّ والمجرورَ على متعلّقه، وهو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثّانية، قائلًا: (باسم ربِّك الخالقِ للإنسانِ من علَقٍ اقرأ)، ولذا قال الرّازيُّ: "لِمَ ذَكرَ عَقيبَ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّكَ﴾ قَوْلَهُ: ﴿ٱلَّذِى

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 345.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 150، مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 399.

خَلَقَ﴾؟ الجوابُ: كَأَنَّ العَبْدَ يَقولُ: ما الدَّليلُ عَلَى أنَّكَ رَبّي؟ فيَقولُ: لِأنَّكَ كُنْتَ بذاتِكَ وصِفاتِكَ مَعْدومًا ثُمَّ صِرْتَ مَوْجودًا؛ فلا بُدَّ لَكَ في ذاتِكَ وصِفاتِكَ مِنْ خالِقٍ، وهَذا الخَلْقُ والإيجادُ تَرْبيَةٌ، فدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أنّي رَبُّكَ، وأنْتَ مَربوبي"[1].

**دلالةُ (الباءِ) والغرضُ منها:**

**القراءة تكون بمصاحبة أسماء الله تعالى وصفاته**

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الباءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدّلالة بها إمّا على (الاستعانة)، سواءٌ تعلّقتْ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولى، أَوْ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (ابتدئ)، ودخلتِ "الباءُ لتدلَّ على المُلازمة والتَّكرير"[2]، "وفي الكواشيّ (الباءُ) دخلتْ لتدلَّ على المُلازمة والتّكرير، كـ(أخذتُ بالخطام)، ولو قلتَ: (أخذتُ الخطامَ) لم يدلَّ على التَّكريرِ والدَّوام، أَوْ دخلتْ لتدلَّ على البدايةِ باسمِهِ تعالى ومحلُّها حالٌ، أي: اقرأْ مُبتدِئًا باسم ربِّك"[3]، أَوْ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثّانية، "وَمَعْنَى الِاسْتِعانَةِ (بِاسْمِ اللّه) ذِكْرُ اسْمِهِ عِنْدَ هَذِهِ القِراءَةِ".

أَوْ على (المُصاحَبة)، سواءٌ تعلّقتْ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولى أوِ الثّانية، ومعناها: "مُصاحَبَةُ الفَهْمِ والمُلاحَظَةِ لِجَلالِهِ، ويَكونُ هَذا إثْباتًا لِوَحْدانيَّةِ اللّه بالإلَهيَّةِ، وإبْطالًا لِلنِّداءِ باسْمِ الأصْنامِ الَّذي كانَ يَفْعَلُهُ المُشْرِكونَ، يَقولونَ: باسْمِ اللّاتِ، باسْمِ العُزَّى، فهَذا أوَّلُ ما جاءَ مِنْ قَواعِدِ الإسْلامِ، قَدِ افْتُتِحَ بِهِ أوَّلُ الوَحْيِ".

أو بمعنى (على)، أي: "اقْرَأْ عَلَى اسْمِ رَبِّكَ، أي: عَلَى إذْنِهِ، أي: إنَّ المَلَكَ جاءَكَ عَلَى اسْمِ رَبِّكَ، أي: مُرْسَلًا مِنْ رَبِّكَ"[4].

وذهبَ النّيسابوريُّ إلى أنَّ "(الباءَ) زائدةٌ، ومَعناه: اقرأْ اسمَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 216.
(2) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 399.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 16/ 510، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 150.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.

ربّك"(1)، وضعّفه الرّازي بقوله: "وَهَذا القَوْلُ ضَعيفٌ لِوُجوهٍ؛ أَحَدُها: أنَّهُ لَوْ كانَ مَعْناهُ (اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ) ما حَسُنَ مِنْهُ أنْ يَقولَ: (ما أنا بقارِئٍ)، أي: لا أذْكُرُ اسْمَ رَبّي، وثانيها: أنَّ هَذا الأَمْرَ لا يَليقُ بالرَّسولِ، لِأنَّهُ ما كانَ لَهُ شُغْلٌ سِوَى ذِكْرِ اللهِ، فكَيْفَ يَأْمُرُهُ بأنْ يَشْتَغِلَ بما كانَ مَشْغولًا بِهِ أبَدًا، وثالِثُها: أنَّ فيهِ تَضْييعَ (الباءِ) مِنْ غَيْرِ فائِدَةٍ"(2).

**أثرُ تحديدِ متعلَّق الجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱسۡمِ﴾:**

**الاهتمامُ والانحصار مَعنيانِ يَليقان بالمُحيطِ بالأبصار**

لمّا كانتِ (الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ دالّةً على الاستعانةِ أوِ المُصاحبةِ؛ وتحتملُ أنْ تكونَ متعلِّقةً بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الّتي قبلَها أوْ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الَّتي بعدَها؛ كانَ تعلُّقُها بما قبلَها تعلُّقًا مُؤخّرًا عن عاملِها للبيانِ والإيضاح، لكنَّها إنْ تعلّقتْ بما بعدَها كانت مُتقدِّمةً عليه، فإنْ كانت للاستعانةِ فإنَّ التَّقدُّمَ دالٌّ على الاهتمامِ؛ لجوازِ الاستعانةِ في الأعمالِ بأمورٍ مُتعدِّدة، وإنْ كانَتْ للمصاحبةِ بمعنى المُلاحظة للذّاتِ الجليلةِ؛ لاستحالةِ المُصاحَبةِ الحقيقيَّة؛ فإنَّ التَّقديمَ للاختصاصِ والانحصار(3).

**دلالةُ ذكرِ المُضافِ (الاسم):**

**ملاحظةُ ذاتِ الجليلِ بذِكرِ الاسمِ النَّبيل**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (اسم) مُضافًا إلى (الرَّبّ) في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الاستعانةَ في الأعمال كالقراءةِ وغيرِها تكونُ بذِكرِ اسمِ الرَّبِّ الكريم لا ذاتِه الجليلة؛ إذ من غيرِ اللّائقِ الاستعانةُ بالذّاتِ صَوْنًا، إنّما الاستعانةُ تكون بذِكرِ الذّات وتكونُ بذِكرِ الاسمِ الكريمِ الدّالِّ عليها، كما أنَّه لا مُصاحَبةَ للذّات لتنزُّهِه تعالى عن مُصاحَبة الحوادثِ له، بل تكون المُصاحبة

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 167.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 215.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.

بملاحظةِ الذّاتِ عندَ ذِكرِ الاسمِ المُبارك في القراءةِ، وأمّا على جعلِ (الباءِ) بمعنى (على) فإنَّ الاسم بمعنى (الإذن)؛ فيكونُ ذِكرُهُ مُتعيِّنًا لا مُقحَمًا[1].

### سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّبِّ) بدلَ الاسمِ العلَم (الله):

العِنايةُ الرّبّانيّة بالحَضرةِ المُصطَفويّة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الوَصْف (الرَّبِّ) بدلًا من لفظ العلَم (الله) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ لما يُشعِرُ به الرَّبُّ من العظَمةِ والجَلالِ، معَ التَّربيةِ والتَّبليغِ للشَّيءِ من النُّقصانِ إلى الكمالِ شَيئًا فشَيئًا، فيكونُ مُشيرًا إلى عنايةٍ ربّانيّةٍ بهذا النَّبيِّ الكريم، حتَّى وصلَ إلى مقامِ النُّبوَّةِ والرِّسالة، واستحقَّ الخطابَ والإكرام.

قال ابنُ عاشور: "وعُدِلَ عَنِ اسْمِ اللهِ العَلَمِ إِلَى صِفَةِ رَبِّكَ لِما يُؤْذِنُ وصْفُ الرَّبِّ مِنَ الرَّأْفَةِ بِالمَرْبوبِ والعِنايَةِ بِهِ"[2]، كما اشتملَ الوصفُ على تعليلٍ للأمرِ بالقراءةِ باسمِهِ؛ إذ يَلزمُ من كونِهِ ربًّا حقًّا وصدقًا أنْ يَقرأ مُستعينًا ومُصاحبًا لاسمِهِ الكريم.

وعلَّل الرّازيُّ العدولَ بقولِهِ: "وهوَ أنَّ (الرَّبَّ) مِنْ صِفاتِ الفِعْلِ، و(اللّه) مِنْ أسْماءِ الذّاتِ، وأسْماءُ الذّاتِ أشْرَفُ مِنْ أسْماءِ الفِعْلِ، وجَوابُهُ: أنَّهُ أمَرَ بِالعِبادَةِ، وبِصِفاتِ الذّاتِ، وهوَ لا يَسْتَوْجِبُ شَيْئًا، وإنَّما يَسْتَوْجِبُ العِبادَةَ بِصِفاتِ الفِعْلِ، فكانَ ذَلِكَ أبْلَغَ في الحَثِّ عَلَى الطّاعَةِ، ولِأنَّ هَذِهِ السّورَةَ كانَتْ مِنْ أوائِلِ ما نَزَلَ عَلَى ما كانَ الرَّسولُ عليه السلام قَدْ فزِعَ؛ فاسْتَمالَهُ لِيَزولَ الفَزَعُ، فقال: هوَ الَّذي رَبّاكَ فكَيْفَ يُفْزِعُكَ؟"[3]، في حين علّل المظهريّ ذلك العدولَ بقوله: "لأنّ (اللّه) علَمٌ لذاتِ الواجب، ولا بسبيلٍ إلى معرفةِ الذّات إلّا بالتَّفكُّر في الآثار والصّفات، وأظهرُ الصّفات بالنِّسبة إلينا صفةُ الخَلْق والتَّربية"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 216.
(4) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 302.

### استشراف معاني القراءة بإضافة الرُّبوبيّة للنَّبيِّ ﷺ:

إبطالُ كلِّ قراءة لا تكون باسم الله تعالى، وهو أصل التَّوحيد

جاء التَّقييد بقوله تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ومضافًا إلى ضمير مخاطبته ﷺ للتَّعريض بالأربابِ الباطلةِ للمُشركين، وتلك المعاني يتحدّدُ بها الاسمُ المُستعان بذِكرِهِ عندَ القراءة، فيكون اسمًا دالًّا على الرَّبِّ الحقيقيِّ، وهو الله تعالى، قال ابنُ عاشور: "إضافَتُهُ إلَى ضَميرِ النَّبيءِ ﷺ مؤذِنةٌ بأنَّهُ المُنْفَرِدُ برُبوبيَّتِهِ عِنْدَهُ؛ رَدًّا عَلَى الَّذينَ جَعَلوا لِأَنْفُسِهِمْ أرْبابًا مَنْ دونِ الله، فكانَتْ هَذِهِ الآيَةُ أصْلًا لِلتَّوْحيدِ في الإسْلامِ"(1).

### دلالةُ الإضافتَين في ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾:

الاستعانةُ بالاسمِ الكريم لأنَّه لربِّك العَظيم

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (اسم) إلى (الرَّبّ)، وأضافَ (الرَّبّ) إلى ضمير المُخاطَب (الكاف) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدّلالة بالإضافةِ الأولى على التَّعيينِ والتَّعريف، إذِ الاسمُ لا يتعيّنُ المرادُ به إلّا بعدَ إضافتِهِ، ولمّا كانتْ إضافتُهُ إلى (الرَّبّ) لا يُحقِّقُ التَّعيينَ أضافَ لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَب، فتكونُ الإضافة الثّانيةُ دالّةً على تعيينِ المَقصود بالمُضاف الأوَّل، وتُفيدُ الإضافةُ الثّانية كونَه ربَّ الرَّسول الأكرم؛ ليتميّزَ عن أربابِ المُشركينَ الباطلة، فتكونُ الإضافة دالّةً على تكريم الرَّسولِ ﷺ وأنَّ ربَّهُ هو الرَّبُّ الحقيقيُّ الصّادق، قال الهرريّ: "وجاءَ الخطابُ؛ ليدلَّ على الاختصاصِ والتّأنيس؛ أي: ليس لك ربٌّ غيرُهُ"(2).

### نُكْتَةُ النّعتِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تشويقُ النَّبيِّ المُختارِ لمعرفةِ خصائصِ الرَّبِّ الجبّار

نعتَ النَّظمُ الكريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ للدّلالة على الإبهامِ المشوِّق لسَماعِ بيانِهِ وتفصيله، وذلك أدعَى للإصغاءِ إلى الكلام، خاصّةً بعدَ أنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 151.

عرّفَ ذاتَهُ بأنَّه ربُّ المُخاطَب، وذلك غيرُ معهودٍ له بعدُ، ولذا قالَ المُظهريّ: "﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ صفةٌ موضّحةٌ للرَّبِّ؛ فإنَّ نعت الرّبوبيّة يقتضي الخَلقَ والتّربيةَ منَ النُّقصانِ إلى الكمال"[1]؛ فأرادَ تعيينَ وجهِ رُبوبيّتِهِ له من خلال وصفِ ذاتِهِ بوصفٍ مختصٍّ به لا يُشارِكُهُ في ذلك الفعلِ أحدٌ.

قال الهرريّ: "وصفَ الرَّبَّ به؛ لتذكيرِ أوّلِ النَّعماء الفائضةِ عليه منهُ تعالى، والتّنبيهِ على أنَّ مَن قدَرَ على خلقِ الإنسان على ما هو عليهِ من الحياة، وما يَتبعُها من الكمالاتِ العِلميَّة والعمليَّة من مادّةٍ لم تَشُمَّ رائحةَ الحياة فضلًا من سائرِ الكمالات، قادرٌ على تعليم القراءة للحيِّ العالم المتكلِّم"[2]، كأنَّه قيل: "اقرأ باسم ربِّك لتربيتك آنًا فآنًا، ولتبليغِكَ إلَى الكَمال شَيْئًا فشَيْئًا، حتَّى تستعدَّ لأنْ يوحَى إليك الَّذي هوَ الغايةُ القُصوى في التَّرْبيَة"[3].

### سرُّ اختيارِ جملةِ الصِّلة ﴿خَلَقَ﴾:

مَن يكونُ قادِرًا على الخَلْق فهو الإلهُ بحقّ

اختارَ النّظمُ الكريمُ بيانَ إبهام الموصولِ بجملةٍ الصّلة الواردةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ وهي جملةٌ فعليّةٌ ماضيةٌ دالّةٌ على وقوعِ الفعلِ فيها وُقوعًا لا سبيلَ لرفضِهِ أو ردِّهِ، وعلّلَ القونويّ التَّعبيرَ بالماضي مع أنَّ بعضَ الخلقِ في المُستقبل بقولِهِ: "وصيغةُ المُضيِّ للتَّغْليب، أوْ لجعلِ مُنتظَرِ الوقوعِ كالواقِعِ"[4]، وتفيدُ جملةُ الصِّلة التَّعليلَ لكونِهِ الرَّبَّ الحقيقيَّ المتميّزَ عن الأربابِ الباطلة؛ بأنّه المختصُّ بالخالِقيَّة، وما عداهُ لا يخلُقُ شيئًا.

قال مجير الدين الحنبليّ: "ولمّا ذكرَ الرَّبَّ، وكانتِ العربُ في الجاهليَّة تُسمّي الأصنامَ أربابًا، جاءَ بالصِّفة الّتي لا شركةِ للأصنامِ

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 302.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 151.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 347.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 347.

فيها، وهي قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾"[1]، فيكونُ بمثابةِ التَّعليلِ لكونِه الرَّبَّ الحقيقيَّ، وللإقبالِ عندَ القراءةِ إلى ذِكرِ اسمِه دونَ بقيّةِ الأسماءِ المتوهَّم ربوبيّتُها كَذِبًا وزورًا، معَ أنَّها لا تخلُقُ شيئًا.

قال ابنُ عاشور: "وَجيءَ في وصْفِ (الرَّبِّ) بطَريقِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ لِأنَّ في ذَلِكَ اسْتِدْلالًا عَلَى انْفِرادِ اللَّه بالإلَهيَّةِ؛ لِأنَّ هَذا القُرْآنَ سَيُتْلَى عَلَى المُشْرِكِينَ؛ ولِما تُفيدُهُ المَوْصوليَّةُ من الإيماءِ إلى عِلَّةِ الخَبَرِ، وإذا كانَتْ عِلَّةُ الإقْبالِ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ الرَّبِّ هيَ أنَّهُ خالِقٌ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى بُطْلانِ الإقْبالِ عَلَى ذِكْرِ غَيْرِهِ الَّذي لَيْسَ بخالِقٍ، فالمُشْرِكونَ كانوا يُقْبِلونَ عَلَى اسْمِ (اللّاتِ) واسْمِ (العُزَّى)، وكَوْنُ اللَّه هوَ الخالِقَ يَعْتَرِفونَ بِهِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لُقمان: 25]، فلَمّا كانَ المَقامُ مقامَ ابْتِداءِ كتابِ الإسْلامِ دينِ التَّوْحيدِ، كانَ مُقْتَضيًا لِذِكْرِ أدَلِّ الأوْصافِ عَلَى وحْدانيَّتِهِ"[2].

**دلالةُ حذفِ المتعلّقِ لجملةِ الصِّلة:**

عِندَ التّعريفِ للمفهومِ يكونُ البَدءُ بالعُمومِ

حذفَ النّظمُ الكريمُ مُتعلّقَ فعلِ (الخَلْقِ) في قولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ إمّا لكونِه مُنزَّلًا منزلةَ اللّازمِ، أوْ لإرادةِ العمومِ بخلقِ كلِّ شيءٍ، أوْ خصوصِ الإنسانِ، وترك ذكرَهُ اعتمادًا على ما يأتي بعده، قالَ ابنُ عاشور: "وَعَدَمُ ذِكْرِ مَفْعولٍ لِفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ لِتَنْزيلِ الفِعْلِ مَنْزِلَةَ اللّازِمِ، أيْ: الَّذي هوَ الخالِقُ، وأن يكونَ حَذْفُ المَفْعولِ لِإرادَةِ العُمومِ، أيْ: خَلَقَ كُلَّ المَخْلوقاتِ، وأن يَكونَ تَقْديرُهُ: الَّذي خَلَقَ الإنْسانَ؛ اعْتِمادًا عَلَى ما يَرِدُ بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾"[3]، ورَجَّح القونويّ أنّ الفعل نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، فقال: "﴿خَلَقَ﴾ نُزِّل منزلةَ اللّازمِ إذ هوَ يفيدُ العُمومَ معَ اختصارٍ"[4].

(1) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 399.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 435.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 436.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 347.

والَّذي يترجَّحُ لدينا إرادةُ العُموم بأنَّه خالقُ كلِّ شيء، ثمَّ خصَّصَ خلقَ الإنسان؛ إذ المقامُ تعريفُ الرَّبِّ الحقيقيِّ للمخاطَب، وعندَ التَّعريف يُبدأُ بالعموم وصولًا إلى الخصوص، فذَكر أوَّلًا أنَّه خالقُ كلِّ شيء، ثمَّ خصَّص خلقَهُ بالإنسان، لأنَّه أعلى سائرِ المَخلوقات، فقد خلقَه في أحسنِ تقويم، وأرشده إلى القراءةِ والكتابة، وعلَّمَه ما لم يكن يعلمُ، بما وضعَ في فطرتِهِ من استعدادٍ للنَّظر والفكر، فكيفَ يعبُدُ معهُ ربًّا لا يخلُقُ شيئًا؟.

### دلالةُ الفصلِ في جملةِ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

**التَّوكيدُ والتَّقرير على وصف الخَلْقِ المُثير**

فصلَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الواردةَ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾؛ إمّا لكونِها مُبدلةً ممّا قبلَها؛ أوْ بيانًا له، وقد فصّلَ ابنُ عاشور توجيهَ (البدليّة والبيانيّة) تفصيلًا دقيقًا بقولِهِ: "وَجُمْلَةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ يَجوزُ أَنْ تَكونَ بَدَلًا مِنْ جُمْلَةِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ بَدَلَ مُفَصَّلٍ مِنْ مُجْمَلٍ؛ إنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ مَفْعولٌ، أَوْ بَدَلَ بَعْضٍ إنْ قُدِّرَ لَهُ مَفْعولٌ عامٌّ، وسُلِكَ طَريقُ الإبْدالِ؛ لِما فيهِ مِنَ الإجْمالِ ابْتِداءً؛ لِإقامَةِ الاسْتِدْلالِ عَلَى افْتِقارِ المَخْلوقاتِ كُلِّها إلَيْهِ تعالى؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقامُ الشُّروعِ في تَأْسيسِ دِيْنِ الإسْلامِ؛ ففي الإجْمالِ إحْضارٌ لِلدَّليلِ مَعَ الاخْتِصارِ، مَعَ ما فيهِ مِنْ إفادَةِ التَّعْميمِ، ثُمَّ يَكونُ التَّفْصيلُ بَعْدَ ذَلِكَ لِزيادَةِ تَقْريرِ الدَّليلِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ بَيانًا مِنَ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إذا قُدِّرَ لِفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ الأَوَّلِ مَفْعولٌ دَلَّ عَلَيْهِ بَيانُهُ، فيَكونُ تَقْديرُ الكَلامِ: (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ)"[1]، ورجّحَ المظهريُّ الأخيرَ بقوله: "الظّاهر أنَّه جملةٌ مستأنفةٌ؛ كأنَّه في جوابِ سؤال: ما خلقَ؟"[2]، وفصّلَ الهرريّ المرادَ بقولِهِ: "وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: بني آدم، تخصيصٌ لخلقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 436.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 302.

الإنسانِ بالذِّكر من بينِ سائرِ المخلوقات؛ لاستقلالِه ببدائع الصُّنع والتَّدبيرِ على القول بأنَّ ﴿خَلَقَ﴾ الأوّلَ لازمٌ، بمعنى: اتَّصف بالخَلق واستأثَرَ به، وأمّا على القول بأنّ ﴿خَلَقَ﴾ الأوّلَ متعدٍّ حُذِفَ مفعولُه، فهو تخصيصٌ لخلقِ الإنسانِ بالذِّكر والبيان بعدَ التّعميم؛ تفخيمًا لشأنِه؛ إذ هو أشرَفُهم، وعليه نزلَ التَّنزيلُ، وهو المأمورُ بالقراءة، ويجوزُ أنْ يُراد بالفعلِ الأوّل أيضًا خلقَ الإنسانَ، ويُقصَدَ بتجريدِه عن المفعولِ الإبهامُ، ثمَّ التَّفسيرُ؛ رومًا لتفخيمِ شأنِه"(1).

### نُكْتةُ تكرارِ فعلِ (الخلقِ):

التَّقريرُ والتَّوكيد وراءَ إعادةِ الوَصف المَجيد

كرَّرَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الخَلق) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾؛ لتقريرِ صفةِ الخَلق الّتي استأثَرَ بها الرَّبُّ الحقيقيُّ عن سائرِ الأرباب الباطِلة، وتوكيدِ أنَّه الخالق المتفرِّدُ بخلقِ كلِّ شيءٍ أوَّلًا، ثمَّ المتفرّدُ بخَلقِ الإنسان المخاطَب بالتَّكاليفِ ثانيًا، وتقريرًا لخلقِ الإنسان الّذي دخلَ تحتَ العموم ثمَّ ذُكِر مرّةً أُخرى بخصوصِه؛ لأنَّه المخاطَبُ بالاعتراف والإقبالِ على الرَّبِّ؛ فيكون في ذِكرِ خَلْقِه مزيدُ تميُّزٍ عن سائر المخلوقاتِ. ولا يبعُدُ أن يكون المرادُ بالخَلْقِ الأوّل أنَّه خلقَ كلَّ المخلوقات مُسخَّرةً للإنسان، ثمّ نبَّه على خلقِ الإنسان من علَق؛ جَمْعًا بينَ الامتنانِ والاستدلالِ، وتعليلًا لطلبِ الإقبال على الرَّبِّ الحقيقيِّ عند القيام بسائرِ الأعمال، وقال الهرريّ: "إنَّ الحكيمَ ﷺ لو قالَ له حينَ أرادَ أنْ يبعثَهُ رسولًا إلى المشركين: (اقرأ باسم ربِّك الَّذي لا شريك له) لأبَوا أنْ يَقبلوا ذلك منه، لكنَّه تعالى قدَّم في ذلك مقدّمةً تُلجِئُهم إلى الاعترافِ به؛ حيثُ أمرَ رسولَهُ أنْ يقولَ لهم: إنَّهم هم الّذين خُلِقوا من العَلَقةِ، ولا يُمكِنُهم إنكارُه، ثمَّ أن يقول لهم: لا بدَّ للفعلِ من فاعلٍ، فلا يُمكنهم أنْ يُضيفوا ذلك الفعلَ إلى الوَثن؛ لعلمِهم بأنَّهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 153.

نَحتوهُ، فبهذا التَّدريجِ يُقرِّون بأنّي أنا المُستحِقُّ للثَّناءِ دونَ الأوثان؛ لأنَّ الإلهيَّةَ موقوفةٌ على الخالقيَّة، ومَن لم يخلقْ شيئًا كيفَ يكون إلهًا مُستحِقًّا للعبادةِ"[1].

### دلالةُ تقييدِ فعلِ الخَلقِ الثّاني بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

براهينُ الواحدِ الدَّيّان ثابتةٌ في خَلقِ الإنسان

خصّ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الخَلقِ) في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ بالإنسانِ دونَ "بَقيَّةِ المَخْلوقاتِ؛ لِأَنَّهُ المُطَّرِدُ في مَقامِ الاسْتِدْلالِ؛ إذْ لا يَغْفُلُ أحَدٌ مِنَ النّاسِ عَنْ نَفْسِهِ، ولا يَخْلو مِنْ أنْ يَخْطُرَ لَهُ خاطِرُ البَحْثِ عَنِ الَّذي خَلَقَهُ وأوْجَدَهُ، وفيهِ تَعْرِيضٌ بِتَحْمِيقِ المُشْرِكِينَ الَّذينَ ضَلّوا عَنْ تَوْحيدِ اللّه تَعالَى، مَعَ أنَّ دَليلَ الوَحْدانيَّةِ قائِمٌ في أنْفُسِهِمْ"[2]، وقال الطّيبيُّ: "إنَّما علَّل تخصيصَ الإنسانِ بالذّكر بقوله: "لأنَّ التَّنزيلَ إليه"؛ لأنَّ الأمرَ بقراءةِ المُنْزَل مترتِّبٌ على وصفِ اللّه ﷻ بخَلقِ الأشياء، ثمَّ تخصيصُ خَلقِ الإنسان؛ وذلك لأنَّه هو المشرَّفُ بأنَّ التَّنزيلَ إليهِ"[3].

### دلالةُ التّعريف بـ(ألْ) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

التَّعريضُ والاستدلال ردعٌ لأهلِ الضَّلال

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾؛ للدّلالة به على الجنسِ المُفيد للصِّدق الكلّيِّ والاستغراقِ الشُّموليِّ لجميعِ أفرادِ الإنسان، وفي ذلك كمالُ الامتنانِ والإنعام، وما ينبغي أنْ يفعلَهُ هذا المخلوق إزاءَ الخالق، والتَّعريضُ بالكفّار الَّذين تغافَلوا عن عظيمِ صُنعِ اللّه فدَعَوا لهُ أربابًا، وجعَلوا له شُرَكاءَ لا يخلُقونَ شيئًا.

### دلالةُ ﴿مِنْ﴾ الجارّة والغرضُ منها:

بيانُ أصلِ الإنسان ليتدبَّرَ في صَنعةِ الأكوان

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿مِنْ﴾ الجارَّة في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 436.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 511.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾؛ للدّلالة بها على الابتداءِ لخَلْقِ الإنسان، وبيانِ أصلِهِ الضَّعيف معَ الصَّنعةِ المُحكَمة للقادرِ الجليل؛ ومَن تأمَّل في المبدأِ اعتقدَ بالقدرةِ العظيمة ولم يَغفَلْ، وآمنَ بالنّشر والبعث ولم يهلْ؛ لأنَّ مَن خلق الإنسان من هذا الأصلِ لهو قادرٌ على أنْ يُعيدَه للحسابِ والنّشرِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى عقيدةِ الإيمانِ باليوم الآخرِ في أوَّل سورةٍ نزلتْ من القرآنِ الكريم، مع بيانِ أنَّه الرَّبُّ الخالقُ القادرُ.

قال ابن عاشور: "وفي قَوْلِهِ: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ إشارَةٌ إلَى ما يَنْطَوي في أصْلِ خَلْقِ الإنْسانِ مِنْ بَديعِ الأطْوارِ والصِّفاتِ الَّتي جَعَلَتْهُ سُلْطانَ هَذا العالَمِ الأرْضيِّ، وفيهِ إشارَةٌ إلَى أنَّ خَلْقَ الإنْسانِ مَنْ عَلَقٍ، ثُمَّ مَصيرَهُ إلَى كَمالِ أشُدِّهِ هوَ خَلْقٌ يَنْطَوي عَلَى قوًى كامِنَةٍ وقابِليّاتٍ عَظيمَةٍ، أقْصاها قابِليَّةُ العِلْمِ والكِتابَةِ، ومَعْنَى حَرْفِ (مِنْ) الابْتِداءُ"[1].

### نُكْتةُ التَّنكيرِ في ﴿عَلَقٍ﴾:

التَّفخيمُ والتَّعظيمُ دافعانِ للتَّفكيرِ في الصّانعِ الحَكيم

نَكَّر النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿عَلَقٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾؛ للدّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيم بقرينةِ السّياق؛ إذ المقامُ للتَّذكيرِ بأصلِ الإنسانِ، والاستدلالِ على عظمةِ الخالق وإحكامِ الخَلْق، فكان التَّعظيمُ والتَّفخيمُ لأصلِ الإنسان دافعينِ له لإدراكِ عظيمِ صنعِ اللّه تعالى، فيُقبلُ على دُعائِهِ والقراءةِ باسمِهِ العَظيم.

### دلالةُ الاستعارةِ في ﴿عَلَقٍ﴾:

التَّشبيهُ بالأحياءِ الدّقيقة لإضفاءِ صفةِ الحَياة الخفيَّة

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿عَلَقٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ للدّم الغليظِ الجامد، إذ شبّهَه بدودٍ يُسمَّى (العلَق)، ثمَّ حذفَ المُشبَّه وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة، قال ابنُ عاشور: "والعلق: "اسْمُ جَمْعِ عَلَقَةٍ، وهيَ قِطْعَةٌ قَدْرَ الأُنْمُلَةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 438.

مِنَ الدَّمِ الغَليظِ الجامِدِ الباقي رَطْبًا لَمْ يَجِفَّ، سُمّيَ بذَلِكَ تَشْبيهًا لَها بدودَةٍ صَغيرَةٍ تُسَمَّى عَلَقَةً، وهيَ حَمْراءُ داكِنَةٌ تَكونُ في المياهِ الحُلْوَة، تَمْتَصُّ الدَّمَ مِنَ الحَيَوانِ إذا عَلِقَ خُرْطومُها بجِلْدِه، وقَدْ تَدْخلُ إلَى فم الدّابَّةِ وخاصَّةً الخَيْلَ والبِغالَ، فتَعْلَقُ بلَهاتِه ولا يَتَفَطَّنُ لَهَ"[1]، والغرضُ من الاستعارةِ إضفاءُ صفةِ الحياةِ للعلَقة السّابحةِ في الرّحم، فهي ليست قطعةَ دمٍ بلا حَياة، بل ذاتُ روحٍ حيوانيّة؛ فيكونُ في الاستعارة إشارةٌ إلى إعجازٍ علميّ، وهي أنَّ تلك العلقة حيّةٌ نابِضة.

### نُكتةُ استعمالِ اسمِ الجمْع ﴿عَلَقٍ﴾:

جميعُ أفرادِ الإنسان مِن كائنٍ لا تُدركُهُ العَينان

عبّر النّظمُ الكريم باسم الجَمْع أوْ باسم الجنسِ الجمعيِّ ﴿عَلَقٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ولم يقُلْ (من علقة)؛ لأنَّ الحديث عن خلقِ (الإنسان) على سبيل الاستغراقِ الكلّيِّ، فيكون من مُناسباته إرادةُ الجمعيّةِ الصّادقة بأنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الإنسان مخلوقٌ من علقةٍ على سبيلِ التَّوزيعِ الإفراديِّ.

وقال النَّيسابوريُّ: "وإنَّما ذكرَ (العَلَق) بلفظِ الجَمْع، لأنَّه أرادَ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجمعَ، فذهبَ بالعلَقِ إلى الجمع لمشاكلةِ رُؤوسِ الآيات"[2].

### دلالةُ تكرارِ الأمرِ بالقراءةِ:

دَعوةُ الإسلام للتَّعلُّم سُموٌّ بالإنسان

كرّرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱقْرَأْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾؛ للتَّوكيدِ على أهمّيَّةِ القراءةِ وأثَرِها في بناءِ الحياة وتطوُّرِ العمرانِ وظُهورِ الحَضارات، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الدَّعوة الإسلاميّةَ دعوةٌ للعِلْم والنُّهوضِ الحضاريِّ بالإنسان إلى أعلى درجاتِ الخيريَّةِ والسُّموِّ، قال ابنُ عاشور: "وَفِعْلُ ﴿ٱقْرَأْ﴾ الثّاني

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 438.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 169.

تَوكيدٌ لـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأوَّلِ؛ لِلاهْتِمام بهَذا الأمْرِ"[1]، وحِكمةُ: "الأمرِ بالتَّكرير؛ لأنَّ القراءةَ لا تَكسِبُها النَّفسُ إلّا بالتّكرارِ والتَّعوُّدِ على ما جرَتْ بهِ العادة"[2].

### دلالةُ (الواوِ)، والغرضُ منها:

الاقتدارُ والإكرام يُشعِرانِ المَرءَ بالسَّلامِ والأمان

عبّر النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قولهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾؛ للدّلالة على العطفِ على الجملةِ المُستأنفةِ الأولى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ عطفَ الاسميّةِ على الفعليَّة، قال ابن عاشور: "جُمۡلَةٌ مَعۡطوفَةٌ عَلَى جُمۡلَةِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فلَها حُكۡمُ الاِسۡتِئۡناف، ورَبُّكَ مُبۡتَدَأٌ وخَبَرُهُ إمّا ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ وإمّا جُمۡلَةُ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾"[3]؛ للدّلالة على توصيفٍ آخرَ للرَّبِّ الآمرِ بالقراءةِ المَطلوبِ الإقبالُ عليه عند القراءةِ، وملاحظتُهُ في الأعمالِ بأنَّه الخالقُ والأكرمُ، فيحصُلُ تعريفانِ للرَّبِّ الحقّ؛ بأنَّه خالقُ الإنسان، وذلك دليلُ القدرة، وأنّه الأكرمُ بالتَّعليم، وذلك دليلُ الإحسان، وفي الجمع بينَ الاقتدارِ والإحسان يشعُرُ المَرءُ بالأمان، ففيهِ طمأنةٌ لنفسِ النَّبيِّ ﷺ الخائفةِ في الغارِ منَ الحدثِ العظيم، وطمأنةٌ كلِّ المؤمنينَ بأنَّ ربَّهم المُقتدرَ ذو إحسانٍ مُبهرٍ، قال مجير الدين الحنبليّ: "ثمَّ قال على جهةِ التَّأنيس: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ الَّذي لا يلحقُهُ نقصٌ، فليس هو كهذهِ الأرباب، فهو يَنصُرُك ويُظهرُك"[4].

### دلالةُ المتضايفينِ في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

تمييزُ الرَّبِّ الحقيقيِّ بالخلقِ والإكرامِ الدّائميِّ

كرّرَ النَّظمُ الكريم الإضافةَ في قولهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾؛ للدّلالة على تمييزِ الرَّبِّ الحقيقيّ عن الأربابِ الباطلة، وأنَّ الّذي يُخاطِبُك في الغارِ ويطلبُ منك القراءةَ باسمهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 438.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 440.
(4) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 399.

هو الخالقُ للإنسانِ، الكريمُ بتعليمِه الكتابةَ ووسيلتَها، وأنَّه المنعِمُ عليه بتعليم ما لم يكنْ يعلمُهُ، وإنَّما أعادَ قبلَهُ الأمر بالقراءة؛ للدّلالة على أنَّ الجارَّ والمجرورَ في ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثّانية، وأنَّها جاءتْ للجوابِ بتحديدِ الجهةِ الآمرةِ طمأنةً للنَّبيِّ الأكرم بأنَّ المُخاطِبَ له هو الرَّبُّ الخالقُ والأكرم، فلا تخَفْ، بل اقرأ متوكِّلًا على القادرِ الأكرم، فيُلهمَكَ بقدرته ما تقرأ، ويُعلِّمَكَ ما تتلو عليهم من الآيات، كما تحملُ الإضافة إلى ضميرِ المخاطب التَّشريفَ والتَّكريمَ لهذا النَّبيِّ الكريم؛ إذ أضاف ذاتَهُ الجليلة إليه مجدّدًا محبّةً وإجلالًا له.

### بلاغةُ الإعجازِ للنّظمِ التَّركيبيِّ:

دلالاتُ التّوازي والالتقاء دالّةٌ على الإتقانِ في البِناء

في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ﴾ .... ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ نلحظُ توازيًا تركيبيًّا وبناءً نَظْميًّا مُعجزًا؛ إذ لمّا كرَّر النَّظمُ الأمرَ بالقراءة، كرّرَ معه التَّعريفَ للآمرِ بالقراءةِ بأنَّه (ربُّك)، وذكرَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولى مطلقةً عن التَّقييدِ، ليُناظِره بـ﴿خَلَقَ﴾ الأوّل في الإطلاقِ عن التَّقييد، وذكرَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثّانية مقيّدةً باسم الرَّبّ، فذكرَ ﴿خَلَقَ﴾ الثّانية مقيّدةً بخَلْقِ الإنسانِ؛ ليكونَ الرَّبُّ هو ربَّك وربَّ كلِّ إنسان، وذكر أنَّه خلقَ الإنسانَ من علَق، فذكرَ أنَّ تعليمَهُ الكتابةَ بالقلم؛ فكما أنَّ العلَقَ أصلُ الإنسانِ المخلوق فإنَّ القلمَ أصلُ الكتابةِ المُعلِّمة للإنسان؛ وذَكرَ أصلَ الإنسانِ من علَقٍ ثمَّ ينمو ويتطوّرُ، وذَكرَ أصلَ الكتابةِ وهو القلمُ لينموَ العِلمُ ويتطوّر، حتَّى يتعلَّم به ما لم يكنْ يعلَم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه تعالى مالكُ الأصول وما تفرَّع عليها، وأنَّه خالقُ الأُسس وما تطوَّرَ منها.

### دلالةُ النّعت باسمِ التّفضيل في ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾:

الاقتدارُ والإكرام عظمةٌ ورحمةٌ وإحسان

نعتَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ) باسم التَّفضيل ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾؛ للدّلالة بالاسم

على ثبوتِ وصفِ الأكرميَّةِ له تعالى، ونلحظُ أنَّ ﴿رَبِّكَ﴾ الأوّلَ نُعِت بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ في حين نُعِت (ربّك) الثّاني باسم التَّفضيل: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ثمَّ جاءَ الخبرُ أو النَّعتُ الثّاني ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ وقيل: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ هو الخبرُ؛ وفائدةُ النّعتِ به الدّلالةُ على أنَّ صفةَ الخَلقِ لا يُشارِكُ فيها أحدٌ المولَى تعالى، وأمّا صفةُ الكرم فهي صفةٌ مشتركةٌ في الظّاهر، وإن كانَ الكرم الحقيقيُّ مختصًّا به تعالى، "فكون (أفعل) عَلَى ظاهره بناءً عَلَى الظّاهر"[1]، فما الكرمُ الإنسانيُّ إلّا من آثارِ تجليّات كرمِهِ الفيّاض، قال الهرريُّ: "وهو الأكرم؛ أي: الزّائدُ في الكرَم على كلِّ كريم، فإنَّه يُنعِمُ بلا غَرَض، ولا يطلبُ مَدْحًا، وأيضًا: أنَّ كلَّ كريم إنَّما أخذَ الكرمَ منه، فكيفَ يُساوي الأَصلَ"[2]، فالتَّعبيرُ باسم التَّفضيلِ يفيدُ تعليلَ ربوبيّته الحقّة وعنايته حتَّى علّم بالقلَم، فيكونُ من وضعِ العِلّةِ بينَ طرفَي الدَّعوى، كما أفادتْ خالقيّتُه المتفرّدةُ تعليلًا للأمرِ بالقراءةِ باسم ربوبيّته المُستحقّة، ولذا نجدُ في تعبيرِ ابنِ عاشور الّذي سلبَ فيه دلالةَ المُفاضلة من اسم التَّفضيل بُعدًا[3]، بدليل أنَّ الكواشي فسّرَ الأكرمَ بأنه: "الَّذي لا يوازيهِ كريمٌ، ولا يُعادلُهُ في الكرمِ نظيرٌ، أَوْ أكرمُ بمعنى كريم"[4]؛ فقدّم المفاضلةَ على سَلْبِها.

بقي أنَّ صفة (الكرم) تدلُّ على الرّحمة والإحسان، كما أنَّ صفة الخلقِ تدلُّ على القوّةِ والاقتدار؛ ليكونَ المَولى تعالى قادرًا رحيمًا، وذلك أبعثُ للاطمئنانِ للنّفس الشَّريفة الخائفةِ في الغار، ولذا "قال الكلبيّ: يعني الحكيمُ الحليمُ عن جهلِ العباد، لا يُعجِّلُ عليهم بالعقوبة"[5].

### دلالةُ التّعريفِ بـ (ألْ) في ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾:

عرّفَ النَّظمُ الكريم وصفَ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بـ (أل) في قولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾؛ للدّلالة بها إمّا على الاستغراقِ الشّموليّ؛ فهو تعالى أكرمُ من كلِّ كريم بحسبِ الظّاهر، وإنْ كان كلُّ كرمٍ من غيره أثرًا من آثارِ كرمِهِ العظيمِ، وبحرِهِ المُتدفّقِ بالعَطاء، أَوْ على

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 349.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 440.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 512.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 169.

الموصولِ المُشعِر بالتَّعليلِ لثبوتِ حُكم تعليمِهِ للإنسان بالقلم؛ إذ تعليقُ الحكم بالمشتقِّ يدلُّ على عِليّتِه؛ ومِن كمالِ كرمِهِ الجَزيل تعليمُ الإنسان الكتابةَ بالقلَم.

**منَ الكرمِ الإلهيِّ العظيم تعليمُ الإنسانِ الكتابةَ باليَمين**

### دلالةُ النّعت أوِ الإخبارِ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

**الإيماءُ إلى وجْهِ الـخـبرِ تـبشيرٌ لأهلِ النّظَر**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ للدّلالةِ به إمّا على الخبريّةِ أو النَّعتيّة الثّانية بعدَ النّعتِ بـ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، وسواءٌ كان خبرًا أوْ نعتًا ثانيًا؛ فإنَّ الموصولَ دالٌّ على الإبهامِ المُحتاجِ إلى تفصيلِهِ وتوضيحِهِ بجُملة الصِّلة، فيكون من التَّشويقِ لحُكمِ الرَّبِّ الأكرم أوِ التَّشويقِ إلى نعتِ الرَّبِّ الأكرم، وذلك أجلبُ للإصغاءِ والاستماع، وفائدةُ التَّعبير به إنْ كانَ نعتًا الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبَر: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ إذ عُرِفَ من كرمِهِ العظيم ومِن تعليمِهِ بالقلم أنَّ خبرَ (الرَّبّ) حينَئذٍ من جنسِ الإكرام، والخيرِ المدودِ من الكريمِ العظيمِ.

### دلالةُ الفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾ مادّةً وصيغةً:

**تـعـلـيـمُ الـلـه للكتابةِ بالإقدارِ والإلــهــامِ بلا موارَبة**

عبّر النَّظمُ الكريم بفعلِ (التّعليم) ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ للدّلالة بمادّتِه على تزويد الإنسانِ بقدراتِ التَّعلُّم على الكتابة؛ بما وضعَهُ فيه من استعداداتٍ وملَكاتٍ فطريّة، وما ألهمَهُ إيّاه أثناءَ سعيِهِ لامتلاكِ القدرة على تسجيلِ ما يتكلّمُ به، حتَّى هداهُ إلى التَّفكيرِ بالآلة الكاتبة، ونقشِ الرّموز الّتي اختارها، حتَّى لا تتداخلَ في نقشِها مع الأصواتِ الدّالّة عليها، وعلّمَهُ كيف يجمَعُها في نظامٍ كتابيٍّ متواصِلٍ يُرْمَزُ به للكلمات وما تحملُهُ من معانٍ وتصوّرات، وذلك كرمٌ كبيرٌ ونعمةٌ عظيمةٌ لا يمكنُ إحصاءُ فوائدها وكيفيّةُ الوصولِ إليها، وللدّلالة بصيغتِهِ الماضية مَعَ التَّضعيف على حصولِ ذلك التَّعليمِ على سبيلِ التَّدرُّجِ والارتقاء في نظام كتابتِهِ، حتَّى ارتقى واهتدى إلى الصّورةِ الحاليَّة؛ كما يدلُّ على التَّقوية

والتَّوكيد لتعليمِهِ حتَّى لا يَشُكّ شاكٌّ في طريقةِ تعليمِهِ وإيصالِهِ إلى ذلك العِلْم.

**دلالةُ جملةِ الصِّلة الفعليَّة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾:**

**الاهتداءُ للأقلامِ علّةٌ لتعليمِ الأجيال**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّة الماضية صلةً للموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ للدّلالة بها على توضيح الموصولِ المُبهَم؛ إزالةً للبُهمة عنه، كما أفادَتْ حالَ كونِها نعتًا للرَّبِّ التَّعليلَ لأكرميّتِه وتعليمِهِ للإنسان ما لم يكن يعلَم؛ إذِ التَّعليمُ بالقلَم والتَّسجيلُ والتَّدوينُ للمعلوماتِ يلزمُ منه تراكمُ المعارف حتَّى يستطيعَ المتأخِّرُ تطويرَ العِلْم وتنميتَهُ من جيلٍ لجيل، فعلَّم الإنسانَ الَّذي يعيش في الجيلِ اللّاحق ما يكن يعلمُهُ الإنسانُ في الجيلِ السّابق الّذي دوّنَ المعلوماتِ البسيطةَ بالقلمِ وطوَّرَها مَن جاء بعدَه، كما نبّه ابنُ عاشور إلى فائدةٍ جليلة في تخصيص هذه الصِّلة بالذّكر بقوله: "وتَخْصيصُ هَذِهِ الصِّلَةِ بالذِّكْرِ وجَعْلُها مُعْتَرِضَةً بَيْنَ المُبْتَدَأ والخَبَرِ؛ لِلْإيماءِ إلَى إزالَةِ ما خَطَرَ ببالِ النَّبيءِ ﷺ مِنْ تَعَذُّرِ القِراءَةِ عَلَيْه؛ لِأنَّهُ لا يَعْلَمُ الكِتابَةَ؛ فكَيْفَ القِراءَةُ إذْ قالَ لِلْمَلَك: «ما أنا بقارِئٍ» ثَلاثَ مَرّات؛ لِأنَّ قَوْلَهُ: «ما أنا بقارِئٍ» اعْتِذارٌ عَنْ تَعَذُّرِ امْتِثالِ أمْرِهِ بقَوْلِه: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ فالمَعْنَى أنَّ الَّذي عَلَّمَ النّاسَ الكِتابَةَ بالقَلَمِ والقِراءَةَ قادِرٌ عَلَى أنْ يُعَلِّمَكَ القِراءَةَ وأنْتَ لا تَعْلَمُ الكِتابَةَ"[1]، بل لمّا أُمِرَ ﷺ بالقراءةِ جاشَ في نفسه خاطرٌ عن الآمرِ بالقراءة فأخبرَهُ عن المصدرِ وعن المَقروءِ بأنّه: (ربُّك الّذي خلقَ الإنسانَ من علَق)، فنشأ سؤالٌ: وكيفَ أقرأ بعدَ معرفةِ المصدر بأنّه الخالقُ؛ فأخبرَهُ أنَّه الأكرم الَّذي علَّم بالقلم، فهو يعلّمُك ويلهمُك كما أقدر القرّاء والكُتّاب على أنْ يتعلَّموا ما لم يكونوا عالمينَ به، فتقرأ عليهم من دونِ كتابٍ أوْ معلِّمٍ ما يَعجزونَ عنه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 440.

المُرشِدُ للآلاتِ الهادي للنّافعاتِ

### دلالةُ (الباءِ) والغرضُ منها:

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ للدّلالة بها على السَّببيَّة والآليّة؛ أي: علّم الإنسانَ بهذه الآلة، بمعنى أقدرَهُ على معرفةِ آلة الكتابة وصناعتِها، وهَداهُ إلى تسجيلِ المعلومات وتقييدِها، فيكون القلَمُ سببًا للتّعليم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ جميعَ الصّنائع قدِ اهتدى إليها الإنسانُ بالإقدارِ الإلهيّ له على ذلك؛ فعلّمَه الزِّراعةَ والصِّناعة والتجارةَ بآلاتها، قال ابن عاشور: "وَفي الآيَةِ إشارَةٌ إلَى الاهْتِمام بعِلْم الكِتابَةِ، وبِأنَّ اللّه يُريدُ أن يُكْتَبَ لِلنَّبيءِ ﷺ ما يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ؛ فمِنْ أجْلِ ذَلِكَ اتَّخَذَ النَّبيءُ ﷺ كُتّابًا لِلْوَحْي من مبدأ بعثتِهِ"[(1)].

### دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في (القلَم):

العلمُ أصلُ كُلِّ خيرٍ، والجهلُ أصلُ كُلِّ شرٍّ

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ (القلم) بـ(ألْ) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ للدّلالة بها على الجنسِ الصّادق بجميع الأقلام، بمختلفِ صورها وأشكالِها المستعملةِ في الكتابة، ليكونَ القلمُ رمزًا لكلِّ ما يُكتَبُ به، وبيانًا لأهمّيَّتِه وأثرِه في تحقيقِ تقدُّم الأُمَم، ولا يبعُدُ أنْ يكون (القلم) مُرادًا به ما قدَّره اللّه تعالى في سابقِ علمِهِ لمّا قال للقلَم: اكتب؛ فكتَبَ ما هو كائنٌ وما سيكون، ويدلُّ على ذلك أنَّه لم يُحدِّد المعلَّم في هذه الجملةِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، فيكونُ قد علّم بما قدّرَه في سابقِ علمِهِ كلَّ مخلوقٍ ما يحتاجُ إليه في حياتِهِ مهما كان هذا المخلوق؛ فيكونُ مقابِلًا لتركِ فعلِ (الخلق) أوّلًا في قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ من دون تحديدِ المخلوقِ؛ ليشملَ كلَّ مخلوقٍ، ثمَّ خصَّصه بعد ذلك بخلقِ الإنسان، فتكونُ (أل) على هذا للعهدِ في (القلم) المُكَنَّى به عن علمِ اللّه تعالى، المُحيطِ بكلِّ شيءٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 441.

تَداولُ المكتوبات أساسٌ لنُموّ المَعلومات

### دلالة الكناية في لفظ (القلم):

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بـ(القلم) عن (الكتابة) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إذِ القلمُ آلةُ الكتابة ووسيلتُها؛ فيكونُ من ذِكر المَلزوم وإرادةِ لازمِه، قال الرّازيّ: "في قَوْلِه: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ وجْهانِ؛ أحَدُهُما: أنَّ المُرادَ مِنَ القَلَمِ الكِتابَةُ الَّتي تُعْرَفُ بها الأُمورُ الغائِبَةُ، وجُعِلَ القَلَمُ كِنايَةً عَنْها، والثّاني: أنَّ المُرادَ عَلَّمَ الإنْسانَ الكِتابَةَ بالقَلَمِ، وكِلا القَوْلَيْنِ مُتَقارِبٌ، إذِ المُرادُ التَّنْبيهُ عَلَى فضيلَةِ الكِتابَةِ"[1]، فمعنى ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ علّم الكتابةَ والمقيَّداتِ وما كُتِبَ من معلوماتٍ بواسطةِ القلَم؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أهمّيَّةِ القلم وأثرِ الكتابة في تطويرِ المعارفِ والعُلوم، قال الطّيبيّ في ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾: "توطئةٌ إدماجٍ، وتنبيهٌ على فضلِ علم الكِتابة"[2].

جميعُ المخلوقات موضوعٌ فيها المَعلومات

### دلالةُ حذفِ المتعلّقِ بالفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾:

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مفعولَ الفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إمّا لتنزيلِه الفعلَ المتعدّي منزلةَ اللّازم؛ ليكونَ التَّركيزُ على العِلْم في ذاته مع غضِّ النّظم عن المُعلَّم، وإمّا لأنَّه حذفَ مفعولَهُ فيحتملُ أن يُراد به العمومُ، وهو ما نُرجِّحُهُ؛ إذِ المولى تعالى علَّمَ جميعَ المخلوقات كُلًّا على حسبِ ما يحتاجُ إليه ليعيشَ به، ولا يبعُدُ تعليمُ الجمادات بمعنى جَعْلِها مسيَّرة ومسخَّرةً على حسبِ نظامٍ ثابتٍ ونواميسَ محدّدة، أوْ أراد به خصوصَ الإنسان؛ ليكونَ ما بعدَهُ بيانًا له وتقريرًا لإرادتِه، "قال أبو إسحاق الزّجّاج: أي: علّمَ الإنسانَ الكتابةَ بالقلم"[3].

أساسُ تطوُّرِ العلوم تدوينُها معَ تفاوت الفُهوم

### دلالةُ فصلِ جملةِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريم الجملةَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 218.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 512.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 170.

﴿يَعۡلَمۡ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها بيانًا وكشفًا لها؛ إذْ نشأ من قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ سؤالٌ مُفادُهُ: كيف يكون القلمُ أداةً لتعليم الإنسانِ وتقدُّمِه ونهضتِهِ المستمرّة؟ فأجابَ: بأنَّه بالقلم يعلمُ الإنسانُ في الجيلِ اللّاحق ما لم يكنْ يعلمُهُ الإنسانُ في الجيل السّابق؛ إذ تقييدُ المعلومات بالكتابِ يستدعي تنميةً لها بين الأجيال، فيتعلّمُ الحاضرُ ما لم يكن يعلمُهُ السّابقُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تطوُّرِ العلوم والمعارف، وهو إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ، وقد أبعدَ ابنُ عاشور في تعليلِ الفصل بقوله: "وهَذا الِاسْتِئْنافُ بَيانيٌّ، فإذا نَظَرْتَ إلَى الآيَةِ مُسْتَقِلَّةً عَمّا تَضَمَّنَهُ حَديثُ عائِشَةَ في وصْفِ سَبَبِ نُزولِها، كانَ الِاسْتِئْنافُ ناشِئًا عَنْ سُؤالٍ يَجيشُ في خاطِرِ الرَّسولِ ﷺ أنْ يَقولَ: كَيْفَ أقْرَأُ وأنا لا أُحْسِنُ القِراءَةَ والكِتابَةَ؟ فأُجيبُ بأنَّ الَّذي عَلَّمَ القِراءَةَ بواسِطَةِ القَلَمِ، أي: بواسِطَةِ الكِتابَةِ يُعَلِّمُكَ ما لَمْ تَعْلَم، وإذا قَرَنْتَ بَيْنَ الآيَةِ وبَيْنَ الحَديثِ المَذْكورِ كانَ الِاسْتِئْنافُ جَوابًا عَنْ قَوْلِه لِجِبْريلَ: «ما أنا بقارِئٍ»؛ فالمَعْنَى: لا عَجَبَ في أنْ تَقْرَأ وإنْ لَمْ تَكُن مِنْ قَبْلُ عالِمًا بالقِراءَةِ؛ إذِ العِلْمُ بالقِراءَةِ يَحْصُلُ بوَسائِلَ أُخْرَى، مِثْلُ (الإمْلاءِ والتَّلْقينِ والإلْهامِ)، وقَدْ عَلَّمَ اللّه آدَمَ الأسْماءَ ولَمْ يَكُنْ آدَمُ قارِئًا"[1].

### دلالةُ تكرارِ فعلِ (العِلْم):

بالعِلْمِ تنهَضُ الشُّعوبُ وتَندفِعُ الخُطوب

كرّرَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ (العِلْم) في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾؛ للدّلالة على أهمّيَّةِ العِلْم، وأثرِهِ في حياة الإنسان، وقيمتِهِ في تطويرِ أساليب عيشِهِ في هذه الدّنيا، وصولًا بعد ذلك إلى مَعرفةِ عظمةِ الخالق ونِعمِهِ الجليلة، ومنها نعمةُ التَّعليم، قال النّيسابوريّ: "ومفعولُ قولِه: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ محذوفٌ، فلمّا ذكرَ قولَه: ﴿عَلَّمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 440.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ انتظمَ بقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ على تقديرِ: (الَّذي علّم الإنسانَ بالقلم ما لم يعلَمْ؛ إلّا أنَّه كرّرَ ذِكرَ ﴿عَلَّمَ﴾ توكيدًا"[1]، فكما كرّرَ النَّظمُ فعلَ (القراءة)، وفعلَ (الخلق)، ولفظَ (الرَّبّ)، كرّر لفظَ (العِلْم)؛ للدّلالةِ بهذا التَّكرير على جليلِ تلك النِّعَم، وأنَّه لو فكَّر فيها لاهتدى إلى الرَّبِّ الحقيقيِّ الّذي يُنعِمُ بها، فكيف يعبدُ معه آلهةً لا تقدر على شيءٍ من ذلك؟.

**دلالةُ التَّعريفِ بـ(ألْ) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:**

تتحدّدُ دلالةُ المُخاطَبين بحسبِ المرادِ من (التّعليم)

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾؛ للدّلالة به إمّا على الجنسِ والحقيقة بغضِّ النَّظر عن أفرادِهِ، بناءً على أنّ المرادَ بالتَّعليم منحُهُ القوّةَ والقابليّةَ على التَّعلُّم، ويكونُ معناهُ معَ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ منحَه القوّةَ والقابليّة بعدَ أنْ كانت مَحجوبةً عنه؛ فلم يكن امتلاكُ هذه الخاصّيَّة على سبيل الاقتضاءِ الذّاتيّ، بل هي محضُ تفضُّلٍ ونعمة، أوْ للدّلالة به على الاستغراقِ؛ بناءً على أنّ المُراد بالتَّعليم مجرّدُ إدراكِ قواعدِ العيشِ الّتي يَكتسبُها بالمعاملةِ الاجتماعيَّة، أوْ إرادةُ بعضِ أفرادِ الجنسِ؛ بناءً على أنَّ المراد بالتَّعليم خصوصُ العلوم والمعارفِ وأصولها وقواعدِها، ولا يبعُدُ أنْ يكون التَّعريفُ للعهدِ الحضوريِّ، أي: علّمَ الإنسانَ الحاضرَ في جميع أزمنةِ الخطاب ما لم يعلَمْهُ الإنسانُ السّابقُ عليه؛ لما يتجدّدُ من علومٍ ومعارفَ بتلاحُقِ الأزمانِ وتغايُرِ الأجيال.

**نُكْتةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:**

العُموم والإبهام يُفيدانِ عظيمَ الامتنان

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿مَا﴾ الموصولةِ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾؛ للدّلالة على الإبهامِ لما علّمَه من علومٍ ومعارفَ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 170.

ضروريّةٍ ونظريّة، إذ ﴿مَا﴾ تدلُّ على العموم والشُّمول؛ ففيه امتنانٌ على الإنسانِ وتعريضٌ بما ينبغي أنْ يقومَ به إزاءَ تلك النِّعَم العَظيمة، قال الطّيبيّ: "وفي ذِكرِ بَدءِ حالِ الإنسانِ وأخسِّها وهو كونه علقةً، وانتهاءُ حالِهِ وهو صيرورتُهُ عالمًا، وإيصالُهُ إلى أعلى المراتب، غايةُ الامتنان، يعني: كان ذليلًا مَهينًا، فاقتضى كرمُ الرُّبوبيَّةِ إلى ارتقائِهِ ذروةَ العِزِّ والشّرف بفضلِهِ ولُطفِهِ"[(1)].

### دلالةُ ﴿لَمْ﴾ والغرضُ منها:

تطوُّرُ المسائل العلميّة سنّةٌ كونيّة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجزم ﴿لَمْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ للدّلالةِ بها على نفيِ العِلمِ في الماضي للإنسانِ؛ والغرضُ منها الدّلالةُ على انتفاءِ العِلمِ المُسبَق للإنسان بما يتجدّدُ له من علوم ومعارف، وفي ذلك إشارةٌ إلى طبيعةِ العلوم تطوُّرًا وارتقاءً؛ إذ تعليمُ اللّه تعالى للإنسانِ بالكتابة والقلم يُلهِمُهُ تصوّرات وروابطَ لم تتحقّقْ للسّابقين، فتنمو بذلك العلومُ والمعارفُ، فهي سنّةٌ كونيّةٌ، قال ابن عاشور: "وَأَشْعَرَ قَوْلُهُ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أَنَّ العِلْمَ مَسْبوقٌ بالجَهْلِ؛ فكُلُّ عِلْمٍ يَحْصُلُ فهوَ عِلْمُ ما لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ مِنْ قَبْلُ، أي: فلا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ أنْ تَصيرَ عالِمًا بالقُرْآنِ والشَّريعَةِ أنَّكَ لا تَعْرِفُ قِراءَةَ ما يُكْتَبُ بالقَلَمِ"[(2)].

### دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ (العِلْم):

الانتفاءُ المستمِرّ دليلُ الاحتياجِ المُفتقِر

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ مَنفيًّا بـ﴿لَمْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ للدّلالة على انتفاءِ العلْم في الماضي على سبيلِ الاستمرار المتجدِّدِ في جميع الأزمنةِ الماضية، ثمَّ يحدثُ له العلمُ، أو يحدثُ للإنسان الحاضرِ من العلوم ما لم يحصلْ للإنسان السّابق، أوْ ببلوغ الإنسانِ مراحلَ الإدراك والتَّفوّق الذِّهنيّ فيتعلّمُ ما لم يكن يعلمُهُ في طفولتِهِ على سبيلِ الاستمرار.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 512.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 441.

### مَرجِعُ ضميرِ الغائبِ في ﴿يَعْلَمْ﴾:

احتمالُ الكلام لدلالةِ الاستخدام

يحتملُ الضّمير الغائبُ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أن يرجعَ للإنسانِ نفسِهِ؛ فيعلمُ كلُّ إنسان ما لم يكُن يعلمُهُ في طفولتِهِ، ويحتملُ إرادةَ (الاستخدام) بأن يُراد بالإنسانِ الظّاهرِ الإنسانُ الحاضر في أيِّ وقت، وأن يرادَ بضميرِ الإنسان السّابقِ له؛ لما ذكرنا من تجدُّدِ العلوم وتطوُّرِ المعارف، قال ابن عاشور: "وَفي ذَلِكَ اطْمِئْنَانٌ لِنَفْسِ النَّبيءِ ﷺ بأَنَّ عَدَمَ مَعْرِفَتِهِ الكِتابَةَ لا يَحولُ دونَ قِراءَتِهِ؛ لِأَنَّ اللّه عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ، فالَّذي عَلَّمَ القِراءَةَ لِأَصْحابِ المَعْرِفَةِ بالكِتابَةِ، قادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَكَ القِراءَةَ دونَ سَبْقِ مَعْرِفَةٍ بالكِتابَةِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 441.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: 6 - 8]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

أعظَمُ الطُّغيان تَناسي نِعَمِ المنّان

لمّا ذكر اللّه ﷻ في مَطلَعِ السّورة دلائلَ التّوحيدِ الظّاهرة، ومظاهرَ القدرةِ الباهرة؛ أتبعَهُ جلَّ شأنُهُ ببيانِ السَّبب الحقيقيِّ في طُغيان الإنسان وتكبُّرِه وتماديه عليه، وهو حبُّه للدُّنيا واشتغاله بها، وجعلُها أكبرَ همِّه، وذلك يُعمي قلبَه، وقد كان ينبغي أنْ يكونَ حينَ الغِنى والمَيسرة وكثرةِ الأعوان أشدَّ حاجةً إلى اللّه تعالى منه في حالِ الفقرِ والمَسكنة؛ لأنَّه في حالِ فقره لا يتمنَّى إلّا سلامةَ نفسِه وأعضائِه، أمّا في حالِ الغِنى فيتمنَّى ذلك ويتمنَّى سلامةَ مَماليكِه وأتباعِه وأموالِه[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾: (طغَى) أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مُجاوزةُ الحدّ في العِصيان، يقال: هو طاغٍ، وطغَى السّيلُ، إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ، وطغَى البحر: هاجَتْ أمواجُهُ[2]، وطغا طَغْوًا من بابِ (قال)، وطغَى من بابِ (تعِب)، والاسمُ الطُّغيانُ، وهو مُجاوزة الحدّ، وكلّ شيءٍ جاوزَ المقدارَ والحدَّ في العصيان فهو طاغٍ، وأطغيتُهُ جعلتُهُ طاغيًا، وطغَى السّيلُ: ارتفعَ حتّى جاوزَ الحدَّ في الكَثرة[3]، قال اللّيث: الطّاغية الجبّارُ العنيدُ، وقال ابنُ شُمَيل: الطّاغية الأحمقُ المُستكبِرُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (طغى).

الظّالم[1]، فهو الارتفاعُ والتّجاوُزُ عن الحدِّ المُتعارَف[2]. والمرادُ به في الآية: يتكبَّرُ ويَتجاوَزُ الحدَّ معَ الحُمْقِ والجَهْل.

2) ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: (غني) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهما: يدلُّ على الكِفاية، والآخَرُ صوتٌ؛ فالأوّلُ الغِنى في المال، يقالُ: غَنيَ يغنَى غِنًى، والغَناءُ الكِفاية، يقالُ: لا يُغني فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكفي كِفايتَهُ، وغَنيَ عن كذا، فهو غانٍ، وغَني القومُ في دارهم: أقاموا كأنّهم استغنَوا بها، والغانيةُ: المرأةُ استغنَتْ ببعلِها. ويقالُ: استغنَتْ بجَمالها عن لُبسِ الحليِّ[3]، يقالُ: غَنيت بكذا عن غيرِه (من باب تعِبَ)، ويُقالُ: تَغَنَّيْتُ بكَذا، وتَغانَيْتُ بهِ إذا أنتَ استغنَيْتَ به[4]، فهو ما يُقابلُ الفقرَ، أي: عدمَ الاحتياجِ، ومن مصاديقِهِ: الكِفاية، والإجزاءُ، والتَّموُّلُ. والاستغناءُ يوجبُ التّظاهُرَ والطُّغيانَ والتّجاوزَ عن الحدِّ[5]. والمرادُ به في الآية: الاستغناءُ بالمالِ وغيره عنِ الآياتِ والإذعانِ لها.

3) ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: (رجع) أصلٌ كبيرٌ مُطَّردٌ مُنقاس، يدلّ على ردٍّ وتَكرار، تقولُ: رجَعَ يَرجِعُ رُجوعًا إذا عادَ، والرُّجعى الرّجوعُ[6]، ورجعَ مِن سفرِهِ وعن الأمرِ يَرجِعُ رَجْعًا ورُجوعًا ورُجْعَى ومَرجِعًا، قال ابنُ السِّكّيت: هو نقيضُ الذّهاب[7]، والرُّجوع: العَوْدُ إلى ما كان منهُ البَدءُ، أوْ تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أوْ فعلًا أوْ قولًا، وبذاته كان رُجوعُهُ أو بجُزءٍ من أجزائِهِ، أوْ بفعلٍ من أفعالِهِ، فالرُّجوعُ: العَوْدُ، والرَّجعُ الإعادةُ[8]، فهو العَودُ الى ما كانَ عليه قبلُ، مكانًا أوْ صفةً أوْ حالًا أوْ عملًا أوْ قولًا، والرُّجعَى لازمًا يُلاحظُ فيه الحَدَثُ من حيثُ هو، من دونِ نظَرٍ إلى جهةِ الصُّدورِ أوِ الوُقوع[9]. والمرادُ بهِ في الآيةِ: العَوْدُ إلى اللّه تعالى للحِسابِ والجَزاءِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طغى).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (غني).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 289.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(7) الفيّوميّ، المصباح المنير: (رجع).
(8) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 59.

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التّهديدُ والتّحذيرُ لكلِّ طاغيةٍ بسوءِ المَصير

ابتدأتِ الآياتُ بكلمة ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعًا وزَجْرًا لهذا الإنسانِ الَّذي كفرَ نعمةَ ربِّه بطُغيانِهِ واستكبارِه، فتجاوزَ الحدَّ في الطُّغيان والاستكبارِ على عبادة الله، وبالغَ في الطُّغيان؛ لأنَّه تعالى بنفسِهِ على الخَلْق بالأموال والأعوان، وتعدَّى عليهم بالبطشِ والكُفرانِ، فكانَ التّهديدُ لهذا الإنسانِ الطّاغي، والتّحذيرُ له من عاقبةِ الطُّغيان؛ فإلى ربِّك وحدَهُ المَرجِعُ والمَصير بالموتِ والبَعث، فيجازيكَ على أعمالِك الّتي اقترفْتَها بما تستحقُّ من تعذيبٍ وتنكيلٍ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### سرُّ الفصلِ في جُملةِ ﴿كَلَّآ﴾:

موقفُ الطُّغيان بعدَ استعراضِ كرَمِ المَنّان

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ عمّا قبله؛ لكونِهِ مُستأنفًا استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذ لا اتِّصال لهُ بما قبلَهُ بيانًا أوْ توكيدًا ... إلخ، وهذا ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور بقوله: "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ؛ لِظُهورِ أنَّهُ في غَرَضٍ لا اتِّصالَ لَهُ بالكَلامِ الَّذي قَبْلَهُ"[2].

والَّذي يتبيّنُ أنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ نشأ مِن ذكرِ خَلْقِ الإنسان من علَقة وتعليمِهِ الكتابةِ بالقلَم، وتعليمِهِ ما لم يكُنْ يعلَمُه سؤالٌ مُفادُهُ: وما موقفُ هذا الإنسانِ من ربِّه الخالقِ المُنعِم؟ فاستأنفَ ردًّا على ذلك السُّؤالِ الضِّمْنيِّ بكلمةِ الزّجر والإبطالِ والرّدع، وذلك أوْلى من القولِ بالاستئناف الابتدائيِّ، وأنَّه مُتّصلٌ بما بعدَهُ فحسبُ.

### سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿كَلَّآ﴾، مع عدمِ تقدُّمِ ما يُزجَرُ عنهُ:

الزّجرُ والإبطال لما دلَّ عليه المَقال

عبَّر النَّظمُ الكريم بالحرفِ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1969.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 442.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾، وهو: "حَرْفُ رَدْعٍ وإبْطالٍ لِشَيْءٍ يَسْبِقُهُ غالِبًا في الكَلامِ، يَقْتَضي رَدْعَ المَنْسوبِ إلَيْهِ وزجرَهُ وإبْطالَ ما نُسِبَ إلَيْهِ وإنكارَهُ"[1].

"ولَيْسَ في الجُمْلَةِ الَّتي قبلَهُ ما يَحْتَمِلُ الإبْطالَ والرَّدْعَ، فوُجودُ ﴿كَلَّآ﴾ في أوَّلِ الجُمْلَةِ دَليلٌ عَلَى أنَّ المَقْصودَ بالرَّدْعِ هو ما تَضمَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾... الآيَةَ، وحَقُّ ﴿كَلَّآ﴾ أنْ تَقَعَ بَعْدَ كَلامٍ لِإبْطالِهِ والزَّجْرِ عَنْ مَضْمونِهِ، فوُقوعُها هُنا في أوَّلِ الكَلامِ يَقْتَضي أنَّ مَعْنَى الكَلامِ الآتي بَعْدَها حَقيقٌ بالإبْطالِ وبِرَدْعِ قائِلِهِ، فابْتُدِئَ الكَلامُ بحَرْفِ الرَّدْعِ لِلْإبْطالِ"[2].

ولمّا لم يكُن هنالكَ إبطالٌ وزجرٌ لما تقدّمَه: "قال السَّجاونديّ: يوقَفُ على ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ لأنَّ ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى (حقًّا)، ولذا وضعَ علامةَ الوقفِ عليهِ"[3]، ووافقَهُ الجُرجانيُّ: "لِأنَّهُ لَيْسَ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ شيء، تَكونُ ﴿كَلَّآ﴾ رَدًّا لَهُ"[4]، وهو بعيدٌ للغاية.

والّذي يتبيّن عندَ جعلِها إبطالًا لما بعدَها أنَّها زجرٌ للإنسانِ الَّذي يَكفُرُ ويَطغى؛ إذ كفرانُهُ وطغيانُهُ هو الدّافعُ لذلك المضمونِ الّذي أدَّى إلى نهيِهِ عبدًا إذا صلَّى.

على أنَّ البيضاويَّ ذهبَ إلى أنّه ردعٌ لما تقدّمَه دلالةً بقوله: "﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لِمَن كفرَ بنعمةِ اللّه تعالى عليه بطغيانهِ وإنْ لم يُذكَرْ؛ لدلالةِ الكلامِ عليهِ"[5]، والغرضُ من الإبطالِ والزّجرِ مع عدمِ وجودِهِ صَريحًا المبالغةُ في الزّجرِ؛ لأنَّ مقترفَهُ قد تناسَى كلَّ النِّعَمِ الَّتي عليه، قالَ القونويّ: "لأنَّ مفتتحَ السّورَةِ إلَى هذا المقطعِ يدلُّ عَلَى عِظَمِ منَّتِهِ عَلَى الإنْسانِ؛ فإذا قيل: ﴿كَلَّآ﴾ يكونُ ردْعًا للإنسانِ الَّذي قابلَ تلك النِّعَمِ بالكُفرانِ والطُّغيانِ.

**دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ والغرضُ منها:**

عبّرَ النّظمُ الكريم بالحرفِ المشبَّه بالفعل ﴿إِنَّ﴾ بعد الرّدعِ الشَّديد والزّجرِ الدّالِّ على الوَعيد في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾؛ للدّلالةِ على التَّوكيد والتَّحقيقِ للحُكمِ المُثْبَتِ للإنسان؛ ردًّا على مَن يشكُّ في ذلك أوْ يسعَى لإنكاره من الكافرينَ والجاحدينَ؛ إذ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 11.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 442.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 157.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 219.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 325، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 514.

الإبطالُ والرّدع يَستدعيانِ التَّوكيدَ بالقَطْع

لسانُهم لا يفتأ عن إنكارِ طُغيانهم؛ وإنْ لم يكن هنالك منكرٌ إنصافًا؛ فإنَّ النَّظم أكّد الحُكمَ لغرابتِه، حتَّى كأنَّه ممّا يُتوقّعُ أن يُشَكَّ فيه أوْ ينكرَه المخاطَب؛ أوْ لما يظهرُ عليه من تناسٍ لهذه الحقيقةِ، فيعمَدُ إلى الطُّغيان والتَّجاوُز على المنعِم بالكُفران، فهو توكيدٌ تحقيقيٌّ إنْ كانَ في مقابلِ منكِر حقيقيٍّ أوْ تنزيليٌّ إنْ كان في مُقابلِ غيرِ المُنكِر.

### دلالةُ التّعريفِ بـ (ألْ) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

مِن شأنِ الكافرين الطُّغيانُ المُبين

عرّف النَّظمُ الكريم ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بحرفِ التَّعريف (ألْ) في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾؛ للدّلالةِ به إمّا على الجنس[1]؛ لأنّ "مِنْ طَبْعِ الإنْسانِ أنْ يَطْغَى إذا أحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِغْناءَ، واللّامُ مُفيدَةُ الاسْتِغْراقَ العُرْفيَّ، أي: أغْلَبُ النّاسِ في ذَلِكَ الزَّمانِ إلّا مَنْ عَصَمَهُ خُلُقُهُ أوْ دينُهُ"[2]، أوْ للجنسِ المتحقِّق في الكافر دونَ المؤمن، قال الماتريديُّ: "أُريدَ به إنسانٌ دونَ إنسان؛ إذ لم يطغَ كلُّ إنسانٍ، ولا خُلْفَ يقعُ في خبرِ اللّه تعالى؛ فكأنَّ المرادَ منه: البعضُ"[3]، ولا يخفى أنَّ توجُّهَ الرّدع للإنسانِ المخاطَبِ بأنَّه المخلوق من علَق، والمُنعَم عليه بالتَّعليم والتَّفهيم، يُناسِبُ إرادةَ مُطلقِ الإنسان؛ حتَّى يُزجَرَ عن الطُّغيان والكُفران بمُجرّد الاستغناء، فيتناسَبُ معَ إرادةِ التَّعميم الكلّيِّ، ولا وجهَ للقولِ بأنَّ المرادَ بها العهديّةُ؛ لأنَّ "الآيات نزلتْ في أبي جهل؛ لأنَّ الحُكم عامٌّ في كلِّ طاغٍ مُتكبِّرٍ، والعِبرة بعُموم اللَّفظ لا بخصوصِ السَّبب"[4]، فيدخلُ أبو جهلٍ دُخولًا أوّليًّا.

### دلالةُ (اللّام) في ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾، والغرضُ منها:

غَرابةُ صُدورِ الطُّغيانِ من المُتعرِّض للإنعام

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (اللّام) المُزحلقة الدّاخلةَ على خبرِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾؛ للدّلالة بها على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 442.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 479.
(4) مجمع البحوث، المعجم الوسيط: 10/ 1669.

التَّوكيدِ والتَّحقيقِ لثبوتِ الطُّغيانِ للإنسان؛ قال ابن عاشور: "تَوكيدُ الخَبَرِ بحَرْفِ التَّوكيدِ ولام المزحلقة؛ لِقَصْدِ زيادَةِ تَحْقيقِه؛ لِغَرابَتِه حَتَّى كَأَنَّهُ مِمّا يُتَوَقَّعُ أَنْ يَشُكَّ السّامِعُ فيه"[1]، ووجهُ الغَرابة أَنَّ اللّائقَ بالإنسانِ المخلوقِ من علَقٍ، والمنعَم عليه بالتَّعليم أَنْ يُؤمِنَ باللّه تعالى ربًّا، لكنّه يتوجّهُ لأربابٍ باطلةٍ لا تخلُقُ شيئًا، ولا تنفعُ في تعليمٍ أَوْ تفهيم؛ فيتّخذُها من دونِ اللّه أربابًا.

### دلالةُ فعلِ (الطُّغيانِ) مادّةً وصيغةً:

الإصرارُ على الطُّغيانِ تميُّزٌ في الجحودِ والنُّكرانِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الطُّغيان) مُضارعًا في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾؛ للدّلالةِ بصيغتِه على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ في الطُّغيان وتجاوُزِ الحدودِ مع المُنعِم عليه بالإيجادِ والعقلِ والعِلْم، وفي ذلك تثبيتٌ لطُغيانِه، وبيانٌ لإصرارِه عليه وعدمِ الانكفافِ عنه، وليدلَّ بمادّتهِ على صدورِ أعلَى درجاتِ الكُفرِ والفُجور؛ إذِ الطُّغيانُ هو تجاوُزُ الحدودِ في كلِّ أمرٍ؛ فلا يترك بابًا من أبوابِ الكُفرِ والجُحود والفُسوق إلّا دخلَ منه حتَّى صارَ طاغيًا، وكيف لا يكونُ طاغيًا مَنْ كانَ مخلوقًا من علَق، منعمًا عليه بوسائلِ العِلْمِ والتَّحضُّر، ويتوجّهُ لأربابٍ باطلةٍ يعبُدُها ويشكرُها ويتركُ المُنعِمَ الحقيقيَّ؟.

قال الهرريّ: "وهذا بيانٌ للمَردوعِ والمَردوعِ عنهُ، إنْ قلنا: إنَّها حرفُ ردعٍ"[2]، فالطّاغيةُ مردوعٌ، والطُّغيان مردوعٌ عنه، وأرى أنَّ الرّدعَ متوجِّهٌ للإنسان قبلَ صُدورِ الطُّغيانِ منهُ؛ ردعًا له عن الوقوعِ فيه.

### دلالةُ ﴿أَن﴾ وتعلُّقِها بـ(اللّام) والغرضُ منهما:

تحقيقُ الطُّغيان بإثباتِ وقوعِه بالبُرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ للدّلالة به على المصدريَّة؛ إذ يُسْبَكُ منها مع ما بعدَها مصدر مؤوَّل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 442.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 157.

وهذا المصدر دالٌّ على التَّعليل بحرف اطّرد حذفه مع (أنْ وأنّ)[1]، قال ابن عاشور: "و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾ بحَذْفِ لامِ التَّعْليلِ؛ لِأَنَّ حَذْفَ الجارِّ مَعَ (أَنْ) كَثيرٌ شائِعٌ، والتَّقْديرُ: (إنَّ الإنْسانَ ليطْغى لِرُؤْيَته نَفْسِهِ مُسْتَغْنِيًا)[2]، وفائدةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل دونَ الصَّريح الإشارةُ إلى أنَّ الطُّغيانَ كان لذاتِ رُؤيتِهِ نفسَه مُستغنيًا دون حالٍ من أحوالِهِ وشأنٍ من شؤونِهِ، مع ما فيه من التَّحقُّق بوقوعِ ذلك الفعلِ لقوّةِ ارتباطِه بالزَّمن الماضي المفيدِ لتحقُّقِ الوقوعِ.

بقي أنَّ تعليلَ الطُّغيان دالٌّ على إثباتِ تحقُّقِه بالبرهان، فلا يشكُّ عاقلٌ في صدورِهِ من النُّفوسِ المَريضةِ بداءِ الكِبْرِ.

### البُرهانُ اللّمّيّ والإنّيُّ في ﴿أَن رَّءَاهُ﴾:

الاستدلالُ بالواقِعِ على ما في الطَّبائِعِ

علّلَ النّظمُ الكريمُ الطُّغيانَ برؤيةِ الإنسانِ نفسَهُ مُستغنيًا، مع أنَّ تلك الرُّؤيةَ منبعثةٌ من الطُّغيان، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، وذلك مؤدٍّ للدّور[3]، ويندفعُ بالتّفرقةِ بينَ (البرهانِ اللّمّيِّ والبرهانِ الإنّيّ)؛ فإنَّ رؤيةَ المرءِ نفسَه مُستغنيًا عِلّةٌ وقوعيّةٌ خارجيّةٌ للطُّغيان، وهو المسمَّى بالبُرهانِ اللّمّيِّ، والطُّغيانُ عِلّةٌ ذهنيّةٌ دافعةٌ لرؤيةِ المَرءِ نفسَه مُستغنيًا، وهو المسمَّى بالبُرهان الإنّيِّ، فلا دورَ حينَئذٍ؛ وذلك مثلُ (الحمّى) ودلالتُها على وجودِ المرضِ في الجسم فهي علّةٌ خارجيّةٌ دالّةٌ وبرهانٌ لمّيٌّ، وأمّا وجودُ المرضِ فهو العِلّةُ الحقيقيّةُ للحُمَّى وبرهانٌ إنّيٌّ، وفائدةُ العُدول عن العِلّةِ الحقيقيَّةِ إلى العِلّةِ الوقوعيَّةِ الاستدلالُ بالظّاهرِ المَحسوسِ على الخُلُقِ النّفسيِّ غيرِ المَحسوس.

### دلالةُ فعلِ (الرُّؤية) مادّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعلِ (الرّؤية) ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿أَن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 443.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 353.

مَبعَثُ الطُّغيانِ التَّيقُّنُ بالأموالِ والأعوانِ

﴿رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾: للدّلالة بصيغتِه على تحقُّقِ وقوعِ الرُّؤيةِ منه تحقُّقًا مقطوعًا به؛ إذ من عادةِ الطُّغاة والمتكبِّرين أَنْ يَرَوا أنفُسَهم بأموالهم وأعوانِهم مُستغنينَ عن الاحتياجِ والافتقارِ لغيرهم، وبمادّته على الرُّؤيةِ العِلميَّة وجملةُ ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ مفعولٌ به ثانٍ، وفائدةُ (رأى) العِلْميّة أنّها تُعطي دلالةَ الاعتقادِ واليقين باستغنائِهِ بما لدَيهِ عنِ الاحتياجِ لغيرِه.

### مَرْجِعُ ضميرَي الغَيبة في ﴿رَّءَاهُ﴾:

مِــن شــدّةِ الاعــتــداد والإعجاب أورد فعلُ القلبِ في الخِطاب

عبّرَ النَّظمُ الكريم بضميرينِ للغَيبة في قولِه تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ فقدِ اشتملَ الفعلُ ﴿رَّءَاهُ﴾ على ضميرِ الفاعلِ المستترِ وتقديرُهُ (هو) وعلى ضميرِ المفعولِ به المنصوبِ الظّاهر (الهاء)، ومَرجِعُهما واحدٌ وهو (الإنسان)[1]، والتَّقدير: رأى الإنسانُ نفسَه مُستغنيًا عن غيرِه، قالَ ابنُ عاشور: "وَضميرُ ﴿رَّءَاهُ﴾ المُسْتَتِرُ المَرْفوعُ على الفاعليّة، وضميرُهُ البارزُ المَنْصوبُ على المفعوليّة، كِلاهُما عائِد إلَى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أي: أن رأى نَفسَهُ اسْتغنَى، ولا يَجْتَمِعُ ضَميرانِ مُتَّحِدا المَعادِ؛ أحَدُهُما فاعِلٌ، والآخَرُ مَفْعولٌ في كَلامِ العَرَبِ، إلّا إذا كانَ العامِلُ مِنْ بابِ (ظَنَّ وأخَواتِها) كَما في هَذِهِ الآيَةِ، قالَ الفَرّاءُ: والعَرَبُ تَطْرَحُ النَّفْسَ مِنْ هَذا الجِنْسِ (أي: جِنْسِ أفْعالِ الظَّنِّ والحُسْبانِ) تَقولُ: رَأيْتُني وحَسِبْتُني، ومَتَى تُراكَ خارِجًا، ومَتَى تَظُنُّكَ خارِجًا، وأُلْحِقَتْ (رَأى) البَصَرِيَّةُ بـ(رَأى) القَلْبِيَّةِ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النُّحاةِ[2]. وسرُّ الجمعِ بينَ الضَّميرينِ في هذه الأفعال أنَّ الظّانَّ والمعتقِدَ أعلَمُ بحالِ نفسِه؛ لأنَّها أفعالٌ قلبيّةٌ، بخلافِ أفعالِ الجَوارح إذ لا يجوزُ أنْ يقول: (ضَرَبْتُني)، وإذا تقرّرَ هذا، فيكونُ اختيارُ هذا التَّركيب في هذا الموطنِ تصويرًا بالغَ الدِّقَّة في اعتدادِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 220.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 30/ 445.

المتكبِّر بنفسِه، حتَّى إنَّه لا يرى إلّا ذاتَهُ، ولا يفصِلُ بينَ نفسِهِ الرّائية ونفسِهِ المرئيّة بفاصلٍ من شدّةِ العُجْبِ.

## دلالةُ فعلِ (الاستغناءِ) مادّةً وصيغةً:

الاستغناء خُلُقٌ نفسيٌّ للمتكبِّرين بلا استثناء

عبّر النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (الاستغناء) ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ للدّلالة بصيغتِهِ على تحقُّقِ وقوعِ الاستغناءِ تحقُّقًا على سبيلِ القَطْعِ، بالحصول دونَ مجرَّدِ الفرضِ والاحتمال، واختارَ صيغةَ المَزيد بالسّين والتّاء؛ للدّلالة على المبالغةِ في الغِنَى المتحقِّق بالمالِ والأهلِ والولَد والأنصارِ والأعوان، قال ابن عاشور: "والِاسْتِغْنَاءُ: شِدَّةُ الغِنَى، فالسّينُ والتّاءُ فيهِ لِلْمُبالَغَةِ في حُصول الفِعْلِ مِثْلَ اسْتَجابَ واسْتقرَّ"[1] في حين رأى الرّازيُّ أنَّها دالَّة على الطَّلب بقوله: "إنَّ (سينَ) اسْتَغْنى سينُ الطّالِبِ، والمَعْنَى أنَّ الإنْسانَ رَأى أنَّ نَفْسَهُ إنَّما نالَتِ الغِنَى؛ لِأنَّها طَلَبَتْهُ وبَذَلَتِ الجُهْدَ في الطَّلَبِ، فنالَتِ الثَّرْوَةَ والغِنَى بِسَبَبِ ذَلِكَ الجُهْدِ، لا أنَّهُ نالَها بِإعْطاءِ اللَّهِ وتَوْفِيقِهِ"[2] وهو توجيهٌ بعيدٌ؛ لأنَّ المعنى في حصولِ الغِنى وأثرِهِ في الطُّغيان، فيبعُدُ أنْ يكونَ لطلب الغنى.

بقي أنَّ الفعلَ يدلُّ بمادّته على عدمِ الاحتياجِ والافتقارِ لغيرِهِ على سبيلِ الكَثرةِ والمُبالغة.

## دلالةُ حذفِ المُتعلِّقَيْنِ بالفعل ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾:

مِن الحقوق الاستغناءُ عمّنْ منحَ الحُقوق

حذفَ النَّظمُ الكريمُ المُتعلِّقَيْنِ بالفعل ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ وهما (به وعنه)؛ لإرادةِ العموم؛ إذِ الاستغناءُ يكون بالمالِ والأهلِ والجاهِ والنّسَب والأنصار والأعوانِ وغيرِها، ويكونُ عن اللّه تعالى واتّباعِ رُسُلِهِ والانقيادِ لأوامرِه وغيرِها، فكانَ في حذفِ المتعلّقينِ تحقيقٌ للعمومِ وإظهارٌ لشدّةِ الاستغناءِ وكمالِهِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 30/ 442.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 220.

ونسيَ هذا الإنسانُ أنَّ المانِحَ لما تمَّ الاستغناءُ به وهو (اللّه) تعالى هو الَّذي استُغنيَ عنهُ.

### نُكْتَةُ فصلِ جُملةِ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾:

الـمَـوعـظـةُ والتّهديد لكلِّ طاغيةٍ عَنيد

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ عمّا قبلَه؛ إمّا لكونِه جملةً اعتراضيّةً بين المقدِّمة والمَقصَد، والغرضُ من الاعتراضِ بها: "المَوْعِظَةُ والتَّهْديدُ عَلَى سَبيلِ التَّعْريضِ لِمَنْ يَسْمَعُهُ مِنَ الطُّغاةِ، والتَّعْليمُ لِلنَّبيءِ ﷺ والتَّثْبيتُ لَهُ، أي: لا يَحْزُنْكَ طُغْيانُ الطّاغي؛ فإنَّ مَرْجِعَهُ إلَيَّ، ومَرْجِعُ الطّاغي إلَى العَذابِ"[1].

وإمّا لكونها استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن قولِه: ﴿رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ مُفادُهُ: وهلِ استغناؤُهُ عن اللّه تعالى حقيقيٌّ؟ فأجابَ بـ "أنَّ اسْتِغْناءَهُ غَيْرُ حَقيقيٍّ؛ لِأنَّهُ مُفْتَقِرٌ إلَى اللّه في أهَمِّ أُمورِه، ولا يَدْري ماذا يُصَيِّرُهُ إلَيْهِ رَبُّهُ مِنَ العَواقِبِ؛ فلا يَزِدْهُ بِغِنًى زائِفٍ في هَذِهِ الحَياةِ"[2].

### دلالةُ توالي التَّوكيدات:

اجتماعُ مؤكِّدات الخَبَرِ لإثباتِ صحَّةِ البَعثِ والحَشْرِ

أكَّد النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ بجملةٍ مِنَ المُؤكِّدات، وهي ﴿إِنَّ﴾، وتقديمُ ما حقّهُ التَّأخير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، واسميّةُ الجملة؛ لغرضِ ردِّ أيِّ إنكارٍ من الطُّغاة للعَودةِ إلى اللّه تعالى بعدَ الموتِ بالنّشر والحَشر والجَزاء على أعمالِهم.

### دلالةُ حرفِ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾، والغرض منه:

مَـهـمـا طـالَ العُمْر فالمآلُ إلى القَبْر

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على انتهاءِ غايةِ الرُّجوع بالوصولِ إليه تعالى، ولمّا كان المولى تعالى منزَّهًا عن المَكانِ فالرُّجوعُ إلى الرَّبِّ كنايةٌ عن الموتِ أوِ الحياةِ بعدَ الموتِ والعودةِ إليه تعالى للحسابِ والجَزاء على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 445.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 445.

الأعمالِ. وفي إيراد ﴿إِلَىٰ﴾ وعظٌ للمُتكبِّرين، وتهديدٌ لهم بأنَّ الدُّنيا ليست دارَ إقامةٍ، فلا بدَّ فيها من الرَّحيل.

### نُكْتةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

المُتفرِّدُ بالرّبوبيّة تعودُ إليه الخلائقُ بالكلّيّة

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَب العائد إلى النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾؛ بناءً على عدم إرادةِ الالتفاتِ؛ للدّلالة على تشريفِ النَّبيِّ ﷺ وطمأنتِه بأنَّ الطّاغيةَ والمتكبِّرَ يعودُ للحسابِ والعذابِ، وأنّك يا محمّد ﷺ تعودُ للرّحَمات والمسرّات والبرَكات والدّخولِ في الجنّات، وللإشارةِ إلى أنَّ ربّك هو الرَّبُّ الحقيقيُّ الَّذي تعودُ إليه الخلائقُ كلُّها، وأمّا تلك الأربابُ الباطلةُ فلا يعودُ إليها شيء لعدمِ خالقيّتِها، فمَنِ أطاعَك نجا وفازَ، ومنْ عصاك خابَ وخَسِرَ مَسعاه.

### سرُّ الالتفاتِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

المواجهةُ بالخطاب لشِدَّةِ التَّحذير وقوّةِ العِتاب

التفتَ النّظمُ الكريم من ضميرِ الغَيبة إلى ضميرِ المُخاطَب في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾؛ فيكونُ الضّمير عائدًا إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الَّذي يطغَى، فلم يقل: (إنَّ إلى ربِّه الرُّجعى)؛ للتَّهديدِ والتَّحذيرِ من عاقبةِ الطُّغيان[1]، إذِ الكلامُ بطريقِ المواجهة والمُباشَرة أشدُّ تهديدًا وأكثرُ تحذيرًا، وأمّا لو كانَ الخطابُ إلى النَّبيِّ ﷺ فلا التفاتَ أصلًا فيه، وأوضحَ القونويّ الالتفاتَ، وضعّفَ رجوعَ الضّمير إلى النَّبيِّ ﷺ بقوله: "وجهُ الالتفات المختصِّ بهذا الموقع التَّهديدُ؛ إذِ الخِطابُ في مقام العِتاب أشدُّ تحذيرًا وآكَدُ تهديدًا، ولم يَلتفتْ [البيضاويّ] إلَى ما قيلَ من جوازِ كونِ الخطابِ للرّسول ﷺ، والتَّهديدُ والتَّحذيرُ بحالِه أيْضًا؛ لأنَّه لا يَخلو عَن دَغدغةٍ"[2]، بل نرى في حالةِ عَوْدِه إلى النَّبيِّ الأكرمِ ﷺ أنَّ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 221.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 353.

التَّركيبِ تهديدًا وتأنيسًا؛ فهو للطُّغاة مُهدِّد ورادِعٌ، وللنَّبيِّ ﷺ مُؤنِسٌ ومُسَلٍّ.

**سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:**

الـحَـصْـرُ والاهـتـمـام يَـنسجِمان مع المـقـصَـدِ مـنَ الكلام

قدّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ المتعلِّقَ بالخبر المحذوفِ على المبتدأ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ للدّلالة إمّا على التَّخصيصِ والحَصْر، ويكونُ من قصرِ المَوصوف في الصّفة؛ إذِ الرّجوع والعودُ للحِساب والجزاءِ يكونُ للرَّبِّ تعالى لا إلى غيرِه، قال القونويّ: "وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ للقصر، أي رجوعُك إلى الواحدِ القهّار لا إلَى غيرِه، فينتقمُ منكَ إنْ دمتَ عَلَى طُغيانِك"[1]، وأمّا لو أُريدَ بالرُّجوع الاحتياجُ والافتقارُ لعدمِ كفايةِ ما استغنَوا به من الأهلِ والمالِ والولَد فإنَّ: "تَقْدِيمَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عَلَى ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ لِلِاهْتِمامِ بذَلِكَ"[2].

**دلالةُ التّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾:**

حقيقةُ الرُّجوع بـالـعَـوْدةِ إلى اليومِ المَجموع

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مَصدرًا[3] في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الجنسِ والحقيقة؛ أي: إنَّ حقيقةَ العودِ والرّجوعِ يتحقّقُ بالعودِ إليه، وأمّا الرُّجوعاتُ الدُّنيويَّة إلى ما كانَ عليه الإنسانُ من أماكنَ وأحوالٍ وصفاتٍ فهو عَوْدٌ مؤقّت بانتظارِ العَوْدِ الحقيقيِّ المؤجَّل؛ فيكونُ العودُ بحقيقتِه وماهيَّتِه متحقّقًا بالرُّجوع إليهِ تعالى.

**دلالةُ الكنايةِ في ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾:**

الرُّجوع إلى ربِّ الأربـابِ لِـرُؤيـةِ الثّواب والعِقاب

كنَّى النَّظمُ الكريم بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ عن لازمِه، وهو إمّا رُؤيةُ ثوابِ الطّاعةِ للمُؤمنين، وحُصولِ العِقاب

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 446.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 445.

للطُّغاةِ والظّالمين، أوْ بالرُّجوع إلى النُّقصان والفقر كما ردَّه من النُّقصانِ إلى الكمالِ ومنَ الفقرِ إلى الغِنى، قال الرّازيُّ: "وَفي مَعْنَى الآيَةِ وجْهانِ؛ أحَدُهُما: أنَّهُ يَرَى ثَوابَ طاعَتِهِ وعِقابَ تَمَرُّدِهِ وتَكَبُّرِهِ وطُغْيانِهِ، والثّاني: أنَّهُ تَعالَى يَرُدُّهُ ويُرْجِعُهُ إلَى النُّقْصانِ والفَقْرِ والمَوْتِ، كَما رَدَّهُ مِنَ النُّقْصانِ إلَى الكَمالِ، حَيْثُ نَقَلَهُ مِنَ الجَمادِيَّةِ إلَى الحَياةِ، ومِنَ الفَقْرِ إلَى الغِنَى، ومِنَ الذُّلِّ إلَى العِزِّ، فما هَذا التَّعَزُّزُ والقوَّةُ؟"[1]، والكنايةُ الأولى أوضَحُ وأقرَبُ.

**دلالةُ الحقيقةِ والمَجاز في لفظِ ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾:**

**توهُّمُ الطّاغيةِ الاستغناءَ وعدمَ افتقاره يصل به إلى الإنكار**

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾؛ فإنْ كانتِ الجملةُ اعتراضيّةً بينَ مقدِّمة السّورة ومقصدِها، وأنَّ الغاية منها التَّهديدُ والتّحذير من العودة إلى الله تعالى للحِساب والجزاءِ فإنَّ ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ مُستعملةٌ بمعناها الحقيقيِّ وهو العَوْدُ والرُّجوع، وأمّا إنْ كانت الجملةُ مرتبطةً بقولِه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ على أنَّه إنكارٌ وبيانٌ لذلك الاستغناءِ المتوهَّم عن الله تعالى فتكونُ ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ مستعملةً في معناها المَجازيِّ، وهو عدمُ الاستغناءِ بمُلازمةِ الرُّجوعِ إليه في الدُّنيا قبلَ الآخرة، قال ابن عاشور: "وَفيهِ مَعْنًى آخَرَ، وهوَ أنَّ اسْتِغْناءَهُ غَيْرُ حَقيقيٍّ؛ لِأنَّهُ مُفْتَقِرٌ إلَى اللهِ في أهَمِّ أُمورِهِ، ولا يَدْري ماذا يُصَيِّرُهُ إلَيْهِ رَبُّهُ مِنَ العَواقِبِ؛ فلا يَزِدْهُ بِغِنًى زائِفٍ في هَذِهِ الحَياةِ، فيَكونُ ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ مُسْتَعْمَلًا في مَجازِهِ، وهوَ الِاحْتياجُ إلَى المَرْجوعِ إلَيْهِ"[2]، ويترتّبُ على هذه الدّلالةِ المَجازيَّة للرُّجعَى أنَّ توكيدَ الخبر: "بِـ ﴿إِنَّ﴾ مُراعًى فيهِ المَعْنَى التَّعْريضيُّ؛ لِأنَّ مُعظمَ الطُّغاة يَنسَون هَذِهِ الحَقيقَةَ، بحَيْثُ يُنَزَلون مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُها"[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 445.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 445.

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الإياب والإنابةُ والرُّجوع:

الإيابُ والإنابةُ أخصُّ مُطلقًا منَ الرّجوعِ

الإيابُ هو الرُّجوع إلى مُنتهَى المقصَد، والرُّجوعُ يكون لذلك ولغيرِهِ، ألا ترى أنّه يقالُ: رجعَ إلى بعضِ الطَّريق، ولا يقال: آبَ إلى بعضِ الطَّريق. والفرقُ بينَ الرّجوع والإنابة أنّ الإنابةَ الرّجوعُ إلى الطّاعة؛ فلا يقالُ لمَن رجعَ إلى معصيةٍ: إنّه أنابَ(1).

### التَّوكيدُ وعدَمُه في الآيتين:

قُبْحُ الرّدِّ على الرّسول استدعى توكيدَ عملِ الطّاغيةِ المَرْذول

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) المؤكّدة لطُغيانِ أبي جهل في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ مع أنّه لم يَدّعِ الرُّبوبيَّة، في حين عبّر عن فرعونَ وقد ادَّعى الرُّبوبيّة بدونِ التَّوكيد، فقال: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24]، وأجابَ الرّازيُّ عن ذلك بوجوه؛ أحَدُها: أنَّهُ قالَ لِموسَى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24] وذَلِكَ قَبۡلَ أنۡ يَلۡقاهُ موسَى، وقَبۡلَ أنۡ يَعۡرِضَ عَلَيۡهِ الأدِلَّةَ، وقبل أنۡ يدّعيَ الرُّبوبيَّةَ، وأمّا هاهنا فإنَّهُ تعالَى ذَكَرَ هَذِهِ الآيَةَ تَسۡلِيَةً لِرَسولِهِ حينَ رَدَّ عَلَيۡهِ أقۡبَحَ الرَّدِّ. وثانيها: أنَّ فِرۡعَوۡنَ مَعَ كَمالِ سُلۡطَتِهِ ما كانَ يَزيدُ كُفۡرُهُ عَلَى القَوۡلِ، وما كانَ ليَتَعَرَّضَ لِقَتۡلِ موسى عليه السلام، ولا لإيذائِه، وأمّا أبو جَهۡلٍ فهوَ مَعَ قِلَّةِ جاهِهِ كانَ يَقۡصِدُ قَتۡلَ النَّبيِّ ﷺ وإيذاءَهُ. وثالِثُها: أنَّ فِرۡعَوۡنَ أحۡسَنَ إلَى موسَى أوَّلًا، وقالَ آخرًا: ﴿ءَامَنتُ﴾ [يونُس: 90]، وأمّا أبو جَهۡلٍ فكانَ يَحۡسُدُ النَّبيَّ في صِباهُ، وقالَ في آخِرِ رَمَقِهِ: (بَلِّغوا عَنّي مُحَمَّدًا أنّي أموتُ ولا أحَدَ أبۡغَضُ إلَيَّ مِنۡهُ). ورابِعُها: أنَّهُما وإنۡ كانا رَسولَيۡنِ لَكِنَّ الحَبيبَ في مُقابَلَةِ الكَليمِ كاليَدِ في مُقابَلَةِ العَيۡنِ، والعاقِلُ يَصونُ عَيۡنَهُ فوۡقَ ما يَصونُ يَدَهُ، بَلۡ يَصونُ عَيۡنَهُ باليَدِ، فلهذا السّبب كانتِ المبالغةُ هاهنا أكثرَ"(2).

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 220.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: 9 - 14]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قبلَها:

بعدَ إثباتِ الطُّغيان يأتي التَّعجيبُ والتَّفصيلُ لآثارِ العُدوان

لمّا ذكرَ المولى تعالى أنَّ الإنسانَ يَطغَى ويتجاوزُ الحدَّ في الكُفرِ والعِصيان على سبيلِ الإجمالِ مُحدِّدًا سببَ ذلك الطُّغيان بالاستغناءِ بالمالِ والأهلِ والأعوان؛ ناسَبَ أن يذكُرَ النَّظمُ صوَرَ الطُّغيانِ تعجيبًا وتَفصيلًا وشَرْحًا وبَيانًا.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنْهَىٰ﴾: (نَهَى) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على غايةٍ وبلوغ، ومنهُ أنهيتُ إليه الخبرَ: بلَّغتُه إيّاه، ونهايةُ كلِّ شيءٍ: غايتُه. ومنه نهيتُه عنه، وذلك لأمرٍ يفعلُه؛ فإذا نهيتَه فانتهى عنكَ فتلكَ غايةُ ما كانَ وآخِرُه[1]، ونهيتُه عن الشّيءِ أنهاهُ نَهْيًا فانتهَى عنهُ، ونَهَى اللّه تعالى، أي: حرَّمَ، والنُّهيَةُ: العقلُ؛ لأنّها تنهَى عنِ القبيح، والجمعُ نُهًى، ونهايةُ الشّيءِ أقصاهُ وآخِرُه، وأنهيتُ الأمرَ إلى الحاكمِ أعلمتُهُ به[2]، فهو طلبُ تركِ الفعل، وهذا يُقابلُهُ الأمرُ، وهو طلبُ الفِعل[3]. والمرادُ به في الآيةِ: المنعُ عنِ الصَّلاة.

2) ﴿عَبْدًا﴾: (عبد) أصلانِ صحيحان، كأنَّهُما مُتضادّان؛ الأوّلُ: يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والآخَرُ: على شدَّةٍ وغِلَظ[4]، واشتقاقُ (العَبْدِ) من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهى).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نهى).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 281.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

الطَّريقِ المُعبَّد، وهو المُذلّلُ المَوطوء، وقولُهُم بعيرٌ مُعبَّد، يكونُ في معنَى مُذَلّل[1]، وعبدْتُ اللّه أعبُدُهُ عِبادةً، وهي الانقيادُ والخُضوع، والفاعِلُ عابِدٌ، والجَمْعُ عبّادٌ وعَبَدَةٌ، والعبدُ خِلافُ الحُرِّ، وأعبدتُ زيدًا فلانًا ملّكْتُهُ إيّاهُ ليكونَ لهُ عَبْدًا، ولم يُشتقَّ من العبدِ فعلٌ، واستعبَدَهُ وعَبّدَهُ اتّخذَهُ عَبدًا[2]، فهو غايةُ التَّذلُّل في قِبال مَولى معَ الإطاعةِ[3]. والمرادُ به في الآية: كمالُ التَّذلُّلِ والطّاعةِ للّه ربِّ العالَمين.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

تعجيبُ العِباد مِن شَأْنِ الطُّغاة

أخبِرْني أيُّها المُخاطَب عنِ النّاهي لِمَن يُصلّي؛ ألم يعلَم أنَّ اللّه يطّلعُ على أحوالِه، فيُجازيَه بها حتَّى اجترأ على ما فعلَ، والغرضُ من الاستخبارِ التَّعجيبُ والاستنكارُ؛ أي: أخبرني عن حالِ هذا الأحمَق، فإنَّ أمرَهُ لعجَبٌ[4]، وأخبرني يا مَن له أدنى تمييزٍ إنْ كانَ النّاهي لِمَن يُصلّي على طريقةٍ سويَّةٍ فيما يَنهي عنهُ من عبادةِ اللّه تعالى، أَوْ كان آمرًا بالمعروفِ والتّقوى فيما يدعو إليه من عبادةِ الأصنام كما يزعُمُ، أَوْ كانَ على التَّكذيبِ للحقِّ، والتَّولّي عن الدّين الصَّحيح؛ ألَمْ يعلَمْ هذا الطّاغي الفاجرُ بأنَّ اللّه يراه؟! فيُجازيَهُ على حسبِ ذلك، وقيلَ: أخبِرْني إنْ كان هذا العبدُ المُصلّي وهو النَّبيُّ ﷺ الّذي تنهاه عن الصَّلاة صالحًا مهتديًا في قولِه وفعلِه؛ كيف تزجُرُه وتنهاه، فما أبلهَك أيُّها الغبيُّ الّذي تَنهى مَنْ هذه أوصافُهُ عن الصَّلاة، ثمَّ عادَ الخطابُ إلى رسولِ اللّه ﷺ فقالَ: أخبِرْني يا محمّد إنْ كذَّب بالقرآن، وأعرضَ عنِ الإيمان، ألم يعلَم ذلك الشَّقيُّ أنَّ اللّه مطّلعٌ على أحوالِه، ويلَهُ ما أجهلَهُ وأغباه[5].

(1) ابن دُريد، الاشتقاق: (عبد).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (عبد).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 11.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 160.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1970.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نُكْتَةُ الفصلِ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾:

بيانُ أفعالِ الطّاغين بالتّفصيلِ الواضِحِ المُبين

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ بيانًا وتفصيلًا للطُّغيان وآثارِهِ وصوَرِ وقوعِه، فالجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ نشأ سؤالٌ من الرّدعِ عنِ الطُّغيان والزَّجر عنِ الاستكبارِ مُفادُهُ: ما صوَر ذلك الطُّغيان المستمرّ؟ وكيفَ يتمظهَرُ في الواقع؟ فأجابَ ببيانِ حالِهِ وهو النّهي عنِ الصَّلاةِ والتَّكذيبُ والتَّولّي مع التَّعجيبِ من أحوالِهِ وشُؤونِه، وذلك مبنيٌّ على أنَّ الرّدعَ عنِ المُستفاد من دلالةِ الكَلام عن خَلْقِ الإنسانِ وتعليمِهِ الدّالِّ على أنَّه قابلٌ معَ ذلك للطُّغيان والتَّكبُّرِ على اللّه تعالى، في حينِ لمّا رأى ابنُ عاشور أنَّ الرّدعَ والزَّجرَ إنَّما هو عن ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾ جعلَها استئنافًا ابتدائيًّا، فقال: "وَجُمْلَةُ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلَى آخِرِها هيَ المَقْصودُ مِنَ الرَّدْعِ الَّذي أفادَهُ حَرْفُ ﴿كَلَّآ﴾، فهَذِهِ الجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا مُتَّصِلًا باسْتِئْنافِ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾".

### دلالةُ همزةِ الاستفهامِ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾:

الأُمورُ العَجيبة يُستفهَمُ عنها كالأُمورِ المَجهولةِ الغَريبة

عبَّر النّظمُ الكريم بـ(همزةِ) الاستفهام في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؛ للدّلالة بالاستفهام الَّذي لا يليقُ معناهُ الحقيقيُّ باللّه تعالى على المَعنى المجازيِّ، وهو التَّعجيبُ معَ الدَّعوة إلى الاستغراب من حالِ الطُّغاة وأفعالِهم[1]. قالَ ابنُ عاشور: "والاِسْتِفْهامُ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعْجيبِ؛ لِأنَّ الحالَةَ العَجيبَةَ مِنْ شَأْنِها أنْ يُسْتَفْهَمَ عَن وُقوعِها اسْتِفْهامَ تَحْقيقٍ وتَثْبيتٍ لِنَبَئِها؛ إذْ لا يَكادُ يُصَدِّقُ به، فاسْتِعْمالُ الِاسْتِفْهامِ في التَّعْجيبِ مَجازٌ مُرْسَلٌ في التَّرْكيبِ"[2]؛ فإيرادُ الأمرِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 446.

المُستغرَب والعَجيبِ بهيئةِ السّؤالِ عنه دالٌّ على أنَّ ذلك الأمرَ من غرابتِهِ استُجهِلَ واستُصعِبَ صدورُهُ؛ فاستحقَّ أنْ يُسألَ عنه تثبُّتًا مِن وقوعِه.

وحدّد الرّازيّ وجوهَ التَّعجُّب من فعلِ أبي جهلٍ النّاهي عن الصَّلاة بقولِه: "وَوَجْهُ التَّعَجُّبِ فيهِ أُمورٌ؛ أَحَدُها: أَنَّهُ ﷺ قالَ: اللّهم أعِزَّ الإسلام إمّا بأبي جَهْلِ بْنِ هِشام أَوْ بعُمَرَ، فكأَنَّهُ تَعالَى قالَ لَهُ: كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ يَعِزُّ بِهِ الإسْلامُ، أمِثْلُهُ يَعِزُّ بِهِ الإسْلامُ، وهوَ يَنْهَى عَبْدًا إذا صَلَّى! وثانيها: أَنَّهُ كانَ يُلَقَّبُ بأبي الحَكَم، فكَأَنَّهُ تعالى يَقولُ: كَيْفَ يَليقُ بِهِ هَذا اللَّقَبُ وهوَ يَنْهَى العَبْدَ عَنْ خِدْمَةِ رَبِّهِ، أيوصَفُ بالحِكْمَةِ مَنْ يَمْنَعُ عَنْ طاعَةِ الرَّحْمَنِ ويَسْجُدُ لِلْأَوْثانِ! وثالِثُها: أَنَّ ذَلِكَ الأَحْمَقَ يَأْمُرُ ويَنْهَى، ويَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الغَيْرِ طاعَتُهُ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بخالِقٍ ولا رَبٍّ، ثُمَّ إنَّهُ يَنْهَى عَن طاعَةِ الرَّبِّ والخالِقِ، ألا يَكونُ هَذا غايَةَ الحَماقَةِ!"[1].

### دلالةُ فعلِ (الرُّؤيةِ) مادّةً وصيغةً:

أفعالُ الطُّغاةِ مَحسوسة لأنَّها سَيِّئَةٌ ومَنحوسَة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الرُّؤية) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه على وقوعِ الفعل بشكلٍ مقطوعٍ به حتّى إنَّه صار مَرئيًّا ومَعلومًا لكلِّ راءٍ وناظرٍ، وليسَ عليك إلّا أن تمُدَّ بصرَك أوْ تتوجَّهَ إليهِ بقلبِك فتعلمُهُ وتراهُ، وللدّلالة بمادّتِهِ على الرُّؤية العِلْميَّة أوِ البصريَّة، قال ابن عاشور: "والرُّؤْيَةُ عِلْميَّةٌ، والمَعْنَى: أعْجَبُ ما حَصَلَ لَكَ مِنَ العِلْمِ ﴿ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الرُّؤْيَةُ بَصَريَّةً؛ لأَنَّها حِكايَةُ أَمْرٍ وقَعَ في الخارِجِ"[2]، ولا يَخفى أنَّ التَّعجُّبَ مِن الأمرِ المُبصَر أوضحُ، إذ تحوَّلَ النَّهيُ عن الصَّلاة من كونِه مَعلومًا مُدرَكًا بالعقل إلى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 447.

كونِهِ مَحسوسًا مُشاهَدًا بالبصَر، وذلك أدْعى للتَّعجيبِ وأوضحُ في الاستغراب.

### دلالةُ الكِناية في ﴿أَرَءَيْتَ﴾:

صدقُ الإخبار لما شوهِد كالنَّهار

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بقولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ عنِ طلبِ الإخبار، ولذا قالَ الزَّمخشريّ: "ومَعْناهُ أَخْبِرْني عَن مَن يَنْهَى بَعْضَ عِبادِ اللّه عَن صَلاتِهِ"[1]، والمُراد هنا: "كنايةٌ؛ فإنَّ الرُّؤيةَ قلبيّةً أوْ بصريّةً سببٌ للإخبارِ عنِ المرئيِّ والمعلوم؛ فأُريدَ بالاسْتِفْهام عنِ الرُّؤية الاستخبارُ عن مُتعلَّقِها كنايةً[2]، وإنَّما عدلَ النَّظمُ عنِ الإخبارِ إلى الرُّؤيةِ؛ للدّلالة على أنَّ ذلك الإخبارَ حقٌّ وصدقٌ؛ لأنَّه مبنيٌّ على رُؤيةٍ وعلْم، ولذا كانت الكنايةُ برهانيّةً وإثباتيّةً لصدقِ الإخبار، ومع ذلك فالإخبارُ على سبيلِ التَّعجيب؛ إذِ المَولى عالمٌ به، ورجَّح الهرريُّ من دلالةِ الكناية كونَ الرُّؤيةِ بَصريّةً بقولِه: "والرُّؤية هنا بصريّةٌ، وهي تتعدَّى إلى مفعولينِ؛ لأنَّها بمعنى (أخبِرْني)"[3].

### تحديدُ مَرجِعِ المُخاطَبِ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾:

اشتهارُ الأمرِ الغريب لا يعني أنَّه ليسَ بمُستعظمٍ عَجيب

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فاعلِ الرُّؤيةِ بضميرِ المُخاطَب في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؛ للدّلالةِ به على كلِّ مَن يصلحُ أنْ يُشاهِدَ ومَن يتأتَّى منه النَّظرُ والعلمُ؛ فإنَّه يُخبرُ عمّا يُشاهِدُهُ ويَعلمُهُ؛ وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ هذا النَّهيَ عنِ الصَّلاة من الطّاغية قد صارَ أمرًا معلومًا ومَشهورًا وذائعًا بحيثُ كلُّ مَن يَنظرُ يعلَمُ بصحّتِه فيُخبِرُ به، ويدخلُ النَّبيُّ ﷺ دُخولًا أوّليًّا في ذلك العُموم؛ لأنَّه المُخاطَبُ أوّلًا وبالذّات، ومع كونِ النّهي عنِ الصَّلاة أمرًا معلومًا، لكنّه أمرٌ غريبٌ ومُستعظَمٌ يُثيرُ العجَبَ والغَرابةَ من ممارستِهِ، فيُستفهَمُ عن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 777.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 357.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 160.

وقوعِهِ ويُطلبُ الإخبارُ عنه، والغرضُ التَّعجيبُ والاستغراب، ولذا قالَ الهرريُّ: "والاستفهامُ لتعجيبِ المُخاطب، وهو النَّبيُّ ﷺ، وكلُّ مَن يتأتَّى منهُ الرُّؤية"(1)، وجزَمَ الطَّيبيُّ بأنَّ مَرجِعَ الخطابِ العُمومُ، وهو غيرُ النّاهي عن الصّلاةِ والمنهيِّ عنها بقوله: "الواجِبُ أنْ يكونَ المُخاطَبُ بقوله: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ غيرَ النَّبيِّ وغيرَ الكافر، لقولِهِ: "أخبِرْني عمَّن يَنهى بعضَ عبادِ اللّه"، فإنَّ النّاهيَ والمنهيَّ خارجانِ عن مَوردِ الخطابِ، فكأنَّه تعالى يجعلُ الغيرَ حاكِمًا بينَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِل، ويَهضِمُ من حقِّ أهلِ الحقِّ، ويقول: أيُّها الحاكِمُ، أخبِرني عمَّن يزعُمُ أنَّه على الحقِّ"(2)، وهو ما توَكّأ عليه ابنُ عاشور بقولِه: "والخِطابُ في ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ(3)، واعتمده القونويّ بقوله: "والخطابُ لغيرِ مُعيّن؛ أي: لكلِّ مَن يصلُحُ لأنْ يُخاطَبَ؛ تنبيهًا عَلَى كمالِ شَناعتها بحَيْثُ يَنْبَغي أنْ يراها كلُّ مَن يتأتّى له الرّؤيةُ، أوْ للإيذان بكمالِ ظُهورها بحَيْثُ يراها كلُّ مَن يصلُحُ للرُّؤية والإخْبار؛ فيكونُ ضميرُ الخطابِ مَجازًا مُرسَلًا بذِكرِ المقيَّد وإرادةِ المُطلق ثمَّ إرادةِ المقيّد الآخَر وهو مُخاطَبٌ غيرُ معيَّن، وإنَّ هذا الكَلام من قبيلِ الكَلامِ المُنصِفِ المُسكِت للخَصْمِ المُشاغب"(4).

### دلالةُ تحديدِ مَفعولَي ﴿أَرَءَيۡتَ﴾:

بـيـنَ الـشَّـرطِ والاسـتـفـهـامِ تـأتَـلِـفُ عـناصِرُ الكَلامِ

اختلفَ المفسِّرونَ في تحديدِ مفعولَي ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾؛ فذهبَ الجميعُ إلى أنَّ مفعولَهُ الأوّلَ هو الموصولُ ﴿ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾، ورأى الزّمخشريُّ أنّ مفعولَه الثّانيَ هو الجملةُ الشّرطيّةُ ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾، فهُما في

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 160.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 516.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 447.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 357.

مَوضِعِ المَفعولين[1]، وردَّ أبو حيّان كونَ جملةِ الشَّرط مَفعولًا ثانيًا، ورأى أنَّ المفعولَ الثّانيَ في أمثالِ هذا التَّركيبِ جملةٌ استفهاميَّةٌ، وهي متوفِّرةٌ هنا، ولذا حُذِفَ المفعولُ الثّاني لدلالةِ المذكورِ عليهِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[2].

والَّذي يبدو أنَّ كُلًّا منهما يصلُحُ أنْ يكون مفعولًا ثانيًا؛ إذ ﴿ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾ يصِحُّ أنْ يُخبَرَ عنه بـ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ على سبيلِ التَّعجيب، كما يَصِحُّ الإخبارُ عنه بأنّه سَيَعلمُ أنّ اللّه يَرى على سبيل التَّقرير، ومالَ ابنُ عاشور إلى رأيِ أبي حيّانَ[3].

### سرُّ التَّعبيرِ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ بَدَلَ العَلَم:

صَـوْنُ اللِّسان عَن ذِكرِ أسماءِ أهلِ الطُّغيان

عدلَ النَّظمُ الكريم عن ذِكرِ النّاهي عن الصَّلاة باسمِهِ العَلَم إلى الاسمِ المَوصول في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على صَوْنِ اللِّسانِ والنّظم عن أسماءِ أهلِ الطُّغيان؛ لشِدّةِ قُبحِ ما يفعلونَه من أعمالٍ، وللإشارة بالموصولِ وصلتِهِ إلى هَوانِهِ ووَقاحةِ فعلِهِ، ولدفعِ إرادةِ الخُصوص بإيثارِ اللَّفظ الصّالح لكلِّ مَن يتَّصِفُ بهذا العملِ الشَّنيع.

### دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّة في ﴿يَنۡهَىٰ﴾:

غَطْرَسَةُ الطُّغاةِ تُـزَيِّـنُ لـهُـمُ الـتَّـحـكُّـمَ في العِباد

استعارَ النَّظمُ الكريم النَّهيَ للمَنْعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾؛ إذ شبَّهَ منعَهُ العبدَ من الصَّلاةِ للّه تعالى بالنَّهي؛ بجامعِ عدمِ التَّحقُّقِ والحُصول في كلٍّ، والغرضُ من الاستعارةِ تصويرُ شدّةِ استكبارِ ذلك الطّاغية حتَّى إنَّه يأمُرُ وينهى؛ إذ قيامُهُ بالمَنع ورغبتُهُ بالبطش صارتْ كالنَّهي الّذي يَلزَمُ المنهيَّ والممنوعَ من الفعل الالتزامُ به، وذلك تعبيرٌ عن شدّةِ وقاحةِ ما يَصنَعُ وقُبحَهُ، في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 778.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 446.

حينِ رأى القونويّ أنَّ "﴿يَنْهَىٰ﴾ بمعنى (يمنعُ) لا النّهي الحقيقيِّ، اسْتعارَةٌ عن التّعريضِ والتَّرهيبِ، والتَّعْبيرُ بالنّهي إشارَةٌ إلَى أنَّه لا يقدِرُ عَلَى المنعِ الحقيقيِّ"[1]، ودليلُ الاستعارة ما ذكرَهُ ابنُ عاشور بقولِهِ: "و﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ اتَّفقوا عَلَى أنَّهُ أُريدَ بِه (أبو جَهْلٍ)؛ إذْ قالَ قَوْلًا يُريدُ بِه نَهْيَ النَّبيءِ ﷺ أنْ يُصَلّيَ في المَسْجِدِ الحَرامِ، فقالَ في ناديهِ: لَئِن رأيتُ مُحَمَّدًا يُصَلّي في الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِه؛ فإنَّهُ أرادَ بقَوْلِهِ ذَلِكَ أنْ يَبْلُغَ إلَى النَّبيءِ ﷺ، فهوَ تَهْديدٌ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَن أن يُصَلّيَ في المَسْجِدِ الحَرامِ، ولَمْ يُرْوَ أنَّهُ نَهاهُ مشافهة"[2]، والتَّهديدُ صورةٌ من صوَرِ المَنْعِ.

### دلالةُ العُدولِ إلى صيغةِ المُضارِعِ ﴿يَنْهَىٰ﴾:

تصويرُ المَشاهِدِ الماضيةِ لتذكيرِ المُخاطَبين في الأزمنةِ الحاضِرةِ والمستقبِلة

عدلَ النَّظمُ الكريم عن الفعلِ الماضي إلى الفعلِ المُضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ولم يقُل: (نَهَى)؛ للدّلالة على حِكايةِ الحالِ الماضية؛ استحضارًا للصّورةِ القَبيحة، وكأنَّها تحدُثُ الآنَ وفي كلِّ أزمنةِ خِطاب القرآن؛ تبشيعًا لذلك الإجرام ورَدْعًا لكلِّ الطُّغاة اللِّئام، قال القونويّ: "والتَّعْبيرُ بالمُضارِعِ؛ لاسْتِحْضار الصّورةِ البديعةِ الدّالَّة عَلَى شدَّةِ شَكيمةِ النّاهي"[3]؛ كما يدلُّ المضارعُ بصيغتِهِ على استمرارِ ذلك الطّاغية بالنَّهي والمَنع من العبادةِ للّه تعالَى وحدَهُ.

### دلالةُ جُملةِ الصِّلة ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾:

قُبْحُ السَّريرة يقتضي الصّدَّ عن الطُّرُقِ القَويمَة

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؛ للدّلالة على: "كمالِ التّقبيحِ لحالِهِ بمضمونِ صلةٍ لا قُبحَ فوقَها"[4]، كما تدلُّ الجملةُ الفعليّةُ على حُدوثِ ذلك النَّهي

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 357.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 446.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 354، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 447.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 354.

على سبيلِ الاستمرار؛ كراهيةً منَ الطّاغية لذلك العملِ الصّالح؛ وتصويرًا لجُرمِهِ الشّديد وقباحةِ تصرُّفه الشّنيع.

### سرُّ حذفِ المتُعلّق بـ﴿يَنۡهَىٰ﴾:

مِن شدّةِ الطُّغيان الحيلولةُ عن مُباشرةِ الأسباب والوُصول للمَكان

حذفَ النَّظمُ الكريم المُتعلّقَ بالفعلِ ﴿يَنۡهَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾؛ لدلالة الظّرفِ المتعلِّق به عنهُ[1]، والتَّقديرُ: (يَنْهَى عبدًا عن صلاتِهِ إذا صلَّى)، كما أفادَ الحذفُ أنَّه لا يَكتفي بالنّهي عن فعلِ الصَّلاةِ وحدَها، بل يصدُّهُ ويمنَعُهُ من الوصول إلى مكانِ الصّلاة ومباشرةِ أسبابها؛ فإنْ كان النَّهيُ متقيِّدًا بالظَّرف فليُقيّدِ المحذوفُ المتعلِّق بالمكانِ ومُباشرة الأسبابِ الموصلةِ للصَّلاة، لكنَّ النَّظمَ اقتصرَ على فعلِ (الصَّلاة) وجعلَها مقصَدَ النّهي؛ لأنَّها الغايةُ منَ التَّوجُّهِ للمكان.

### سرُّ عدمِ العُدولِ في ﴿عَبۡدًا﴾:

القولُ بالعُدول لاتِّحادِ المنهيِّ والمَسؤول

لم يعدلِ النَّظمُ الكريم عندَ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَبۡدًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ لأنَّ المنهيَّ عن الصَّلاة غيرُ المُخاطَب بـ﴿أَرَءَيۡتَ﴾؛ فهنالك ثلاثةُ جوانبَ في النّظم؛ الجانبُ الأوّلُ عمومُ المُخاطَبين، والجانبُ الثّاني النّاهي، والجانبُ الثّالثُ المنهيُّ، وقد عُلِمَ الجانبُ الأوّلُ وهو كلُّ مَن يتأتّى منهُ الإخبارُ ليكونَ حَكَمًا منصِفًا بينَ جانبِ النّاهي عن عبادة اللّه وجانبِ المنهيِّ المُطيعِ للّه، ولذا لا نتّفقُ مع الفخرِ الرّازيّ بأنّ النَّظمَ عدلَ عن (ينهاك) إلى ﴿عَبۡدًا﴾؛ لأنَّ الأرجحَ في الخطابِ إرادةُ العموم ما عدا النّاهيَ والمنهيَّ عنه، في حينِ جوَّز ابنُ عاشور اتّحادَ المَسؤول والمنهيِّ أوْ دخولَ المنهيِّ في ضمنِ عموم المسؤولِ، قال: "وَعَدَلَ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بضَمير الخطابِ؛ لأنَّ التَّعْجِيبَ مِنْ نَفْسِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلاةِ بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ خُصوصيَّةِ المُصَلّي؛ فشُمولُهُ لِنَهْيِهِ عَنْ صَلاةِ النَّبيءِ ﷺ أَوْقَعُ"[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 447.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 447.

### دلالةُ العُدول عنِ اسمِ العلَمِ إلى اسمِ الجنسِ:

أشرفُ الأسماءِ العبوديَّة لما فيها من الخُضوع للألوهيَّة

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن الاسمِ العلَم للنَّبيِّ الكريم ﷺ إلى اسم الجنسِ النّكرةِ ﴿عَبۡدًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الفرقِ بينَ (النّاهي والمنهيّ)؛ فقد عبَّر عن النّاهي بجملةِ الصِّلة الفعليَّة الدّالّة على التَّجدُّدِ والحدوث، وعبَّرَ عن المنهيِّ بالاسم الدّالِّ على الثُّبوتِ؛ فذكر الأوّلَ بما اشتهرَ بهِ وبما كانَ يفعلُهُ، وذكرَ النَّبيَّ الكريم ﷺ بما ثبتَ له، وقد بيّنَ الفخرُ الرّازيُّ دلالاتِ التَّنكير بقولِه: "التَّنْكيرُ في ﴿عَبۡدًا﴾ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ كامِلًا في العُبوديَّةِ، كَأنَّهُ يَقولُ: إنَّهُ عَبْدٌ لا يَفي العالمُ بشَرْحِ بَيانِهِ وصِفَةِ إخْلاصِهِ في عُبوديَّتِه، كما أنَّه أبْلَغُ في الذَّمِّ؛ لِأَنَّ المَعْنَى أنَّ هَذا دَأْبُهُ وعادَتُهُ فيَنْهَى كُلَّ مَنْ يَرَى، وأنَّهُ تَفْخيمٌ لِشَأْنِ النَّبيِّ ﷺ يَقولُ: إنَّهُ مَعَ التَّنْكيرِ مُعَرَّفٌ"[1].

### دلالة الاحتباك:

العبوديّة مِنحةٌ ربّانيّة

عبّرَ النَّظمُ بأسلوبِ (الاحتباك) في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ إذ ذكرَ الطّاغيةَ بفعلِه وهو النّهي عن الصَّلاة، وذكرَ المنهيَّ بلفظِ (العبد)؛ فيكونُ قد حذفَ منَ الأوَّلِ العبوديّة بدلالةِ الثّاني، وحذفَ من الثّاني النَّهيَ عن طاعةِ غيرِ اللّه بدلالةِ الأوَّل، وسرُّ ارتكابِه عدمُ نسبةِ عبوديَّة النّاهي عن الصَّلاةِ للّه تعالى كراهيةً له، فاقتصرَ على النّهي وإنْ كان عبدًا من العَبيدِ، واقتصرَ في الجانبِ الثّاني على العبوديّة والطّاعة للّه تعالى، وتركَ النَّهيَ عن طاعةِ غيرِه؛ لأنَّ فعلَهُ أدلُّ من النّهيِ القَوليّ.

### دلالةُ ﴿إِذَا﴾ والغرضُ منها:

الطُّغيانُ الشّديد بالتَّهجُّمِ على المصلّي المَجيد

عبّرَ النّظمُ الكريم بالظَّرف ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ الدّالّة وضعًا على الظّرف الزّمانيِّ الاستقباليِّ، مع تضمّنِها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 222.

معنى الشّرطِ استعمالًا، فقد أُضيفتْ لشرطِها ﴿صَلَّىٰٓ﴾ ونُصِبت بجوابِها الدّالِّ عليه ﴿يَنْهَىٰ﴾؛ وفائدةُ التَّقييد بالظَّرفيَّة الدّلالةُ على أنّ الطّاغية يشرَعُ في المنعِ والتَّهديد عند إرادةِ الصَّلاة والتَّوجُّهِ إليها والقيامِ بأفعالِها؛ فيكون نهيُهُ حركةً إنجازيّة وفِعلًا حسّيًّا؛ لأنَّ الصَّلاة أفعالٌ حسّيّةٌ، فالنّهي المتقيّدُ بها يكون فِعلًا مُضادًّا لإقامتها، وليس مجرّدَ قولٍ يشتملُ على النَّهي، وأنَّ محطَّ انصبابِ النّهي للعبدِ في ذلك الظَّرف، فتكونُ إرادةُ الصَّلاةِ هي الدّافعَ للنَّهي دونَ شيءٍ آخَرَ، كما تدلُّ (إذا) الشَّرطيّةُ الظَّرفيَّة على تحقُّقِ وقوعِ الشَّرط بخلاف (إنْ)، فيكون تصويرًا فعليًّا وقوعيًّا لكلٍّ من الصَّلاة والمَنعِ منها مَعًا.

### دلالةُ ﴿صَلَّىٰٓ﴾ مادّةً وصيغةً:

كَـثرةُ الـصَّلاةِ اسـتـغـراقٌ في مَحَبَّةِ الله

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ ﴿صَلَّىٰٓ﴾ ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة بصيغتِهِ على وقوعِ فعلِ الصَّلاة وتحقُّقه بشكلٍ مقطوعٍ به، واستُفيد من استمرارِ النّهي وتجدُّده تجدُّدُ فعلِ الصَّلاة واستمرارِ أدائِها منه ﷺ، كما يفيدُ التَّضعيفُ الكثرةَ في الفعل مَعَ الدَّوام على الأداءِ، وبمادّتِهِ على تلك الحقيقةِ الشَّرعيَّة من القيامِ والرّكوعِ والسُّجود للّه تعالى وحدَه، ممّا لم تكن قريشٌ تعرفُهُ في صَلاتها القائمةِ على المُكاءِ والتّصديةِ عندَ البيتِ العَتيق.

### سرُّ الاقتصارِ على النَّهي عن فعلِ الصَّلاة:

إقـامـةُ الـصَّلاةِ الإسلاميّةِ شعارٌ للمِلَّةِ التَّوحيديَّة

اقتصرَ النَّظمُ الكريم على نهيِ الطّاغية عن فعلِ (الصَّلاة) في قولِهِ تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على أنَّها رأسُ العباداتِ الإسلاميَّة الظّاهرة، بخلاف غيرها من العباداتِ كـ(الزّكاة والصَّوم)؛ كما أنَّ الصَّلاة بحركاتِها تشتملُ على الدَّعوةِ إلى الله تعالى بطاعتِهِ قيامًا بينَ يديه، ورُكوعًا وسُجودًا لعظمتِه، وذكرًا لجلالِهِ المُتوحِّد، فتكون دالّةً على التَّوحيدِ الَّذي يكرَهُهُ الطُّغاة ويَشمئزّون منه.

### دلالةُ حذفِ المتُعلّقِ بـ﴿صَلَّىٰٓ﴾:

التَّوجُّهُ لله سرُّ اشمِئزازِ الطُّغاة

حذفَ النَّظمُ الكريم المتعلِّقَ بالفعلِ ﴿صَلَّىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؛ وتقديرُهُ: (لله)؛ بقرينةِ المفعولِ الثّاني الآتي في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وبهذا التَّقديرِ أدركنا أنَّ هذا الطّاغية كان يَنهى عن الصَّلاة لقصدِ الله تعالى بها دونَ الأصنام.

### دلالةُ تكرارِ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّانيةِ:

تَوالي التَّعجيب لمَزيدٍ منَ التَّوكيد

كرّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على مَزيدٍ من التَّعجيبِ والتَّوكيد، وذلك لأنّ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ كَلِمَةُ تَعْجيبٍ مِنْ حالٍ، تُقالُ لِلَّذي يَعْلَمُ أنَّهُ رَأى حالًا عَجيبَةً؛ وعندَ تكرارِها والسّؤالِ بها عن الحالِ دلالةٌ على مزيدٍ من الاستغرابِ لأفعالِ الطّاغية، فالهمزةُ فيه - كما تقدَّم - للاستفهامِ التَّعجيبيِّ والاستغرابيِّ، وفعلُ الرّؤيةِ إمّا بمعنى (الإبصارِ أوِ العلمِ)، وتُجوِّزَ فيهما عن (الإخبار)، والمعنى: أخبرني أيُّها المُخاطَب وكلُّ مَن يتأتّى له العِلمُ والرُّؤيةُ والإخبارُ إخبارًا على سبيلِ التَّحقُّقِ والتَّثبُّتِ من صُدورِ ذلك الأمرِ المُستغرَبِ؛ استعظامًا له واستغرابًا لوقوعِه، بقي أنَّ الخلافَ في تحديدِ مرجعِ ضميرِ المخاطب في ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّانيةِ أهو عامٌّ أَوْ خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ، والَّذي نميلُ إليه أنَّ الخطابَ من خطاب العامِّ؛ الَّذي لا يدخُلُ فيه النّاهي والمنهيُّ عنه؛ ليكون التَّعجيبُ شاملًا لكلِّ مَن يتأتّى له العِلمُ والرّؤية مع تحقيقِ الإنصافِ في الحُكْمِ بينَ الفريقينِ المُتحاجَّين.

### تحديدُ مفعولَيْ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّانية:

الإيجازُ في الكَلامِ والاستغناءُ بدِلالةِ المَقامِ

حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَي ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّانيةِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ لدلالةِ ما تقدَّمَ وتأخَّر عليه؛ فعلى رأيِ الزّمخشريِّ يكونُ المفعولانِ هما الموصولَ المتقدّمَ ﴿ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾ معَ

جملةِ الشّرط وجوابها، وهي قولُه: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وعلى رأي أبي حيّانَ يكونانِ الموصولَ المتقدّم ومدلولَ جملةِ الاستفهام: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، والغرضُ من حذفِ المفعولينِ الإيجاز والاكتفاءُ بالمذكورِ الدّالِّ على المَحذوفِ.

### سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿إِن﴾ والغرضُ منها:

**النّظرُ في المَعنيين يَستدعي جوازَ الأمرين**

عبّر النَّظمُ الكريمُ بـ﴿إِن﴾ الشّرطيَّة في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على تعليقِ حصولِ الجوابِ بحُصولِ الشَّرط؛ أي: يتحقّقُ الجزاءُ على أفعالِ الطّاغية إنْ كانَ في نهيِه عن الصَّلاةِ على الهُدى، أوْ كنتَ أيُّها النَّبيُّ العظيمُ على الهُدى والأمر بالتَّقوى، والتَّعليقُ بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ دونَ (إذا) يُرشّحُ كونَ المرادِ بالضَّمير في ﴿كَانَ﴾ هو النّاهيَ عن الصَّلاة، وذُكِرتْ على سبيلِ الاحتمالِ العقليِّ ليس إلّا، ويمكنُ أن تكونَ مُرشِّحةً لكونِ الضَّمير عائدًا إلى النَّبيِّ ﷺ؛ بناءً على إرادةِ هَضْمِ الحقِّ عندَ إرادةِ النَّصفةِ في الحُكم.

### نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ النّاقص ﴿كَانَ﴾:

**افتراضُ الاهتداءِ على سبيلِ التّحقُّقِ والانتِماءِ**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ النّاقص ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ ولم يقل: (إنْ اهتدى)؛ للدّلالة على التَّمكُّن والثّباتِ من الهداية، ولذا آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ (الوجود) المُنبئَ عن تحقُّقِ الاهتداء ووجودِه وثبوتِه.

### تحديدُ مَرجِعِ اسم ﴿كَانَ﴾ والغرضُ منه:

**تعدُّدُ الاحتمالاتِ وأثرُهُ في تنوُّعِ الدِّلالاتِ**

اختلفَ المفسِّرونَ في تحديدِ مَرجِعِ اسم ﴿كَانَ﴾ الغائبِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ على قولين؛ أوّلُهما: أنَّه عائدٌ إلى الطّاغية النّاهي عن الصَّلاة، ويُرجِّحُهُ عدمُ التَّفكيك في الضَّمائر لمدخولاتِ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثَّلاث، فهو النّاهي تحقُّقًا، والكائنُ على الهُدى

والآمرِ بالتَّقوى افتراضًا، والمكذِّب والمتولّي تحقُّقًا. وثانيهما: أنَّه عائدٌ إلى النَّبيِّ ﷺ أوْ مطلقِ العبدِ المنهيِّ، وهو وإنْ تناسبَ معَ ظاهرِ الشَّرط من قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ لكنَّه مؤدٍّ إلى تفكيكِ الضَّمائر، ولذا مشى الزَّمخشريُّ على نسقٍ واحدٍ في إرجاعِ الضَّمائر إلى النّاهي، وهو متناسبٌ مع المفعولِ الثّاني وجوابِ الشَّرط من قولِه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، والمعنى على التَّوجيهين: "وأخبرني يا مَن له أدنى تمييزٍ إنْ كانَ النّاهي لِمَن يُصلّي على طريقةٍ سويَّةٍ فيما يَنهي عنهُ من عبادةِ اللّه تعالى، أوْ كان آمرًا بالمعروفِ والتّقوى فيما يدعو إليه من عبادةِ الأصنام كما يزعُمُ، أوْ كانَ على التَّكذيبِ للحقِّ، والتَّولّي عن الدّين الصَّحيح؛ ألمْ يعلَمْ هذا الطّاغي الفاجرُ بأنَّ اللّه يراه؟! فيُجازيَهُ على حسبِ ذلك، وقيلَ: أخبِرْني إنْ كان هذا العبدُ المصلّي - وهو النَّبيُّ ﷺ الّذي تنهاه عن الصَّلاة - صالحًا مهتديًا في قولِه وفعلِه؛ كيف تزجُرُه وتنهاه، فما أبلهَك أيُّها الغبيُّ الّذي تَنهى مَنْ هذه أوصافُهُ عن الصَّلاة"[1].

### دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

الاســتــعــلاءُ المجازيُّ مُتناسِقٌ مـعَ الـفـرْضيّ والوقوعيّ

استعارَ النَّظمُ الكريم حرفَ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على التَّمكُّنِ والاقتدار منَ الهِداية، إذ شبَّهَ النَّظمُ المُلتصِقَ بالهُدى المعبَّرَ عنهُ بـ(الباءِ) بالمُستعلي على الشّيءِ بجامعِ الارتباطِ بكلٍّ، والغرضُ من الاستعارةِ التَّبعيَّةِ الدّلالةُ على الاقتدارِ في الهُدى على سبيلِ الفرضِ إنْ كان الضّميرُ للنّاهي، أوْ على سبيلِ التَّحقُّقِ والوقوع إنْ كان الضّمير للمنهيِّ عنِ الصَّلاة.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ بـ(أل):

إرادةُ الجنسيَّةِ تـتـنـاسَـقُ معَ الاســتــعــارةِ التَّبعيَّة

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الجنسِ المُفيدِ للكمال؛

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1970.

مبالغةً في تصويرِ الاهتداءِ، بحيثُ لم يبقَ من ماهيّةِ الهُدى شيءٌ إلّا وتمكّنَ منه واقتدرَ عليهِ؛ فإنْ كانَ الضّميرُ راجعًا للنّاهي فإسنادُ الهُدى له على سبيلِ التّهكُّم، بخلافِ ما لو كانَ الضّميرُ راجعًا إلى المنهيِّ فإنّه مدحٌ لتحقُّقِه فيه.

بقي أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ بقرينةِ المقابلةِ بـ(التَّقوى) الإيمانُ والتَّوحيدُ المتعلِّقُ بأعمالِ القلوبِ، فالتَّقوى الأعمالُ المتعلِّقةُ بالجَوارح الَّتي يُتَّقى بها غضبُ اللّه تعالى أوْ عذابُهُ.

### دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّة في ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾:

تشخيصُ المعنويّاتِ لتكونَ مُدركةً كالحسّيّات

شبّهَ النَّظمُ الكريم ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ بشيءٍ يُستعلَى ويُجلَسَ عليه، ثمَّ حذفَهُ وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ حرفَ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾، والغرضُ من الاستعارةِ المُبالغة في تحصيلِ الاهتداء، معَ تشخيصِ الهِداية حتَّى تكونَ أمرًا حسّيًّا يَقرُبُ للذّهن إدراكُهُ، ولا يبعُدُ أنْ يكون التَّركيبُ من قوله: ﴿كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ استعارةً تمثيليّةً؛ بتشبيهِ حالِ المُتمكّن من جسمٍ جُلوسًا عليه بحالِ المتمكّن في بابِ الاهتداءِ.

### سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿أَوۡ﴾ والغرضُ مِنها:

اهتداءُ النّاهي متعلّقٌ بالنّيّة وأمرُهُ بالاتّقاء مُتعلّقٌ بالسَّجيَّة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الجمعِ والارتباطِ بينَ كونِ النّاهي والمنهيِّ على هدًى، وكونِهما آمِرَين بالتَّقوى، وسرُّ التَّعبيرِ بـ﴿أَوۡ﴾ أنّ النّاهيَ عنِ الصَّلاة كان ينهَى عنها لكونِها في النّيَّةِ مُتوجِّهةً للّه دون الأصنام، وهذا جانبٌ عقديٌّ، فيكونُ الاهتداءُ مُشيرًا إلى سرِّ اعتراضِهِ على الصَّلاة، وهو كونُها للّه تعالى، والأمرُ بالتَّقوى مشيرٌ إلى نهيِه عن خصوصِ فعلِ الصّلاة بشكلها الإسلاميِّ وحركاتِها المَعروفة، وهذا إن كانَ الضّمير في ﴿كَانَ﴾ راجعًا إلى النّاهي، وأمّا إنْ كان راجعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، فكونُهُ على هُدًى متعلّقًا بتوجُّهِه للّه دونَ الأصنام،

وكونُهُ آمِرًا بالتَّقوى في حركاتِهِ الخاشِعةِ في الصَّلاة، بناءً على أنَّ الأمرَ يتحقّقُ بالفعلِ كما يتحقَّقُ بالقولِ.

**دلالةُ فعلِ (الأمرِ) مادّةً وصيغةً:**

الأوامِـرُ الفعليَّة بالمَنعِ عنِ الصَّلاة الضَّروريّة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الأمر) ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الأمرِ منهُ وصدورِهِ بشكلٍ مقطوعٍ به على سبيلِ القطعِ دونَ الفَرْضِ والاحتمال، وليدلَّ بمادّتِهِ - إنْ كان ضميرُ ﴿كَانَ﴾ للنّاهي - على أنَّه كانَ بنهيِهِ عن الصَّلاة يأمرُ قوليًّا بالتَّقوى، أي: ترك الصَّلاة على سبيلِ الاستغرابِ، والّذي يترجّحُ أنَّ النّاهي يأمرُ بالتَّقوى من خلالِ النّهي عن الصَّلاة يرادُ بِهِ الأمرُ الفعليُّ وهو المنعُ أوِ التَّهديدُ اللّسانيُّ، وأمّا إنْ كان ضميرُ ﴿كَانَ﴾ عائدًا إلى المنهيِّ عن الصَّلاة فإنَّ المرادَ بالأمرِ هو فعلُهُ للصَّلاة؛ إذِ الأمرُ يُستفادُ من الفعلِ والمُداومةِ عليه، فيكون ﴿أَمَرَ﴾ مُستعارًا استعارةً تصريحيّةً لـ(منعَ أوْ فعل).

**سرُّ التَّغايرِ بين الاسميَّة والفعليَّة في ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ و﴿أَمَرَ﴾:**

الـتَّـعـبـير عن الثّابت بالهيئة الاسـميّـة وعن المتجدِّد بالهيئة الفعليَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(الاسم والفعل) في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الفرقِ بينَ الاعتقاديّ والعمليّ؛ إذِ الاعتقادُ أمرٌ ثابتٌ في النَّفس، في حينِ أنَّ الأمرَ بالخيرِ والنَّهيَ عنِ الشرِّ أمرٌ متعلِّقٌ بجانبِ العمل، فاختار لما هو أمرٌ نفسيٌّ عقديٌّ ثابتٌ وراسخٌ الاسمَ الدّالَّ على الثُّبوتِ والدَّوام، في حين اختارَ للأمرِ بالعمَل والتَّقوى الفعلَ؛ لكونِهِ دالًّا على الحركةِ والحُدوث.

**دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ معَ حذفِ المأمور:**

الـتَّـركـيـزُ على الأمرِ ونوعِهِ دونَ المأمورِ ومَوقفِهِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الباءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على تعديةِ الأمرِ إلى التَّقوى، فتصيرُ التَّقوى مأمورًا بها، وحقّقَ معنى التَّعديةِ الاحترازَ عن الأمرِ بغيرِ التَّقوى، وحذفَ النَّظمُ المأمورينَ وهم (النّاس)؛ لأنَّ التَّركيز منصَبٌّ على الأمرِ والمأمورِ به

دونَ المَأمورين؛ إذ موطِنُ الاستغرابِ من كونِ النّاهي بنهيِهِ مَهديًّا وآمِرًا، أوْ من كونِ المنهيِّ مُلازِمًا للهدايةِ والأمرِ بالتَّقوى.

**دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾:**

تَـقـوى الـنّـاهـي تـهـكُّـمٌ وتـقـوى المنهيِّ تمكُّنٌ

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الجنسِ والحقيقة؛ فيكون النّاهي بنهيِهِ عن الصَّلاة قد أمرَ بجنسِ التَّقوى وحقيقتِها على سبيل المبالغةِ والتَّهكُّم، أوْ يكون المَنهيُّ قد أمرَ بحقيقةِ التّقوى وماهيّتِها على سبيلِ المَدح والإكرام.

**دلالةُ تكرارِ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّالثة:**

استعظامُ الأمرِ الـغـريـبِ داعٍ للاستخبارِ عنه كالشّأنِ المُريب

كرّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على التَّوكيدِ للاستغرابِ والتَّعجيبِ من أعمالِ هذا النّاهي عنِ الصَّلاة، فيُطلبُ من كلِّ مَن يتأتّى منه الإخبارُ بعد الرّؤية والعلم أنْ يُخبرَ عن شأنِهِ في التَّكذيب للّٰه تعالى والتّولّي عن طريقِهِ وأوامِرِه، فالهمزةُ للاستفهام التَّعجيبيِّ، والرّؤية البصريّة أوِ العلميّةُ مكنًّى بها عن الإخبارِ، وطلبُ الإخبار أُريدَ التَّعجيبُ من النّاهي وأفعالِهِ لغرابتِها وقُبحها، فكأنَّه يريدُ أنْ يتثبّتَ منها وأنْ يقيمَ الحُجّة عليه، ويثبتَ لأهلِ الحقِّ حُكمَ المُنصفينَ المُخاطَبين في ذلك النّاهي وأفعالِهِ وشُؤونِه.

**دلالةُ عدمِ التَّعاطفِ بينَ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّلاثة:**

استقلالُ الجُمل لشناعةِ المواقِفِ والصّوَر

تركَ النَّظمُ عطفَ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّانيةِ والثّالثةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على استقلالِ كلِّ تعجيبٍ واستغرابٍ عن الآخر؛ إذ كلُّ تَمَظْهُر من تمظهُرات هذا الطّاغية تدعو للتَّثبُّتِ والاستخبار عنها لشناعتِها، فهو يَنهى عن الصَّلاة، ويدعو لعبادةِ الأصنام ظنًّا أنّه على هدًى، ويأمرُ بالتَّقرُّب لها ظنًّا أنّها تقوى، ويُكذِّبُ بالآيات

ويتولّى عن رُؤيةِ الحقيقةِ بالإقبالِ على الباطل، وكلُّ واحدةٍ من هذه الخِلال استدعَتِ الفصلَ بينَ هذه الاستغرابات والتَّعجيبات؛ ليقومَ الحَكَمُ المُنصفُ المُخاطَبُ بأسلوبِ العموم بإثباتِ صَوابِ أهلِ الحقِّ ومنهجِهم، وفسادِ رأيِ أهلِ الباطلِ وضَلالِهم.

### تحديدُ مفعولَي ﴿أَرَءَيۡتَ﴾:

النّاهي عنِ الخيرِ مُكذِّب، وجَزاؤهُ بعدَ الحِساب مُرعِب

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ المفعولِ الثّاني للفعلِ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّالثِ أيضًا، وذلك في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ فذهبَ الزَّمخشريُّ إلى أنَّ المفعولَ الأوّلَ هو ما دلَّ عليه الموصولُ السّابق في قوله: ﴿ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾، والمفعولُ الثّاني الشّرطُ وجوابُهُ وهو قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، في حينِ رأى أبو حيّان أنَّ الأوَّل هو الموصولُ السّابقُ أيضًا، وأمّا المفعولُ الثّاني فهو جملةُ الاستفهام، ولا مانعَ مِن كون كلٍّ من الاثنين أنْ يكونا خبرينِ عن النّاهي عن الصّلاة.

### دلالةُ ﴿إِن﴾، والغرضُ منها:

من شدّةِ العَدْل تصويرُ التَّكذيبِ بصورةِ المُحتمِل

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيّة في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على تعليقِ حُصولِ الجزاء على أعمالِه، وتقرُّرها على تكذيبِه وتولّيه وإعراضِه، وفي التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) دلالةٌ على مُنتهى الإنصاف في عرضِ شأنِ الفريقين؛ إذ يَستخبِرُ الحاكمُ في حالِ صُدور التَّكذيبِ والتَّولّي عن الآياتِ الحقّة بطريقِ الاحتمال والشَّكِّ، مع أنَّ هذا الطّاغية المستكبرَ قد مرقَ في التَّكذيب، وأبعدَ في التَّولّي والإعراضِ.

### دلالةُ فعلِ (التَّكذيب) مادّةً وصيغةً:

الاستكبارُ على الآياتِ داعٍ للتَّكذيبِ في المُعجِزات

عبّرَ النَّظمُ الكريم عن فعلِ (التَّكذيب) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على صُدورِ التَّكذيب على سبيلِ الفرضِ والاحتمالِ لتعلُّقه بـ﴿إِن﴾ الشّرطيّة، وفي ذلك العرض

الاحتماليِّ مع تحقُّقِ وقوعِه من النّاهي عنِ الصّلاة؛ ليكونَ الهضمُ لجانبِ الحقّ، حتّى يتمكّنَ المخاطبُ الحاكمُ من الحُكم على الفريقينِ بكلِّ عدالةٍ وإنصاف.

وأفادَ التَّضعيفُ دلالةَ المُبالغة في ذلك التَّكذيبِ المُحتمِل الصّدور، وإنْ كان واقِعًا بدليلِ النّهي عن الصَّلاة، ويدلُّ التَّكذيبُ بمادَّتِهِ على نسبةِ كلامِ الغيرِ إلى الكذبِ ومُخالفةِ الواقع، وأُريد به هنا جعلُ الغيرِ كاذبًا معَ رُؤيةِ الحقِّ والآياتِ البيّنات والدَّلائلِ الظّاهرات. ونلحظُ في فعلِ ﴿كَذَّبَ﴾ دلالةَ المُسارعة على إطلاقِ التَّكذيبِ قبلَ التَّأمُّل في المَعاني والمَضامين والأبعاد، ولذا ضعّفَ النَّظمُ الفعلَ للدِّلالة على الكثرةِ والمُبالغة.

**تغييرُ الخِطاب وتلوينُه بتفكيكِ الضَّمائر:**

في التَّغيير ترويحٌ عن النّفس وجمالٌ في التّصوير

غيّرَ النَّظمُ الكريم الخطابَ من النّاهي إلى المَنهيِّ ثمَّ إلى النّاهي في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾... ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ﴾... ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ﴾؛ إذِ الضّمير في ﴿يَنۡهَىٰ﴾ للنّاهي المُكذبِ قطعًا، في حينِ يحتملُ ضميرُ ﴿كَانَ﴾ رجوعَهُ إلى النّاهي أو إلى المَنهيّ، وأمّا الضَّمير في ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فإنّه راجعٌ إلى النّاهي قولًا واحدًا[1]، وفي التَّلوينِ للخطاب والتَّغييرِ للأسلوبِ نوعٌ من التَّشويقِ النَّفسيّ والتَّرويح لمزيدٍ منَ الإصغاءِ للمُخاطَب.

**دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾:**

الطُّغيان جامعٌ بينَ التَّكذيب للآياتِ والتَّولّي عنِ البُرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواوِ) في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الجمعِ والاقتران بينَ (التَّكذيبِ والتَّولّي) للاتّحاد العقليِّ بينهما؛ والتَّلازُم بينَ حقيقتَيهما؛ إذِ التَّكذيبُ وجعلُ الغير كاذبًا يلزمُ منهما التَّولّي والإعراضُ والإدبارُ عن كلامِهِ وآياتِهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 509.

وبيّناتِه، فيكونُ من عطفِ اللّازم على الملزوم؛ مبالغةً في تعميقِ حالةِ الطُّغيان الَّتي تَشرَّب بها وانفعلَ في حقيقتِها.

**دلالةُ فعلِ (التَّولّي) مادّةً وصيغةً:**

الطّاغيةُ لا يسمَعُ للآيات وينصرفُ عند عَرضِ البيّنات

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (التَّولّي) في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه على وقوعِ التَّولّي على سبيلِ الفَرْض والاحتمال لمكانِ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة، مع أَنَّ تولّيَه في الحقيقةِ ثابتٌ مقطوعٌ به؛ لكنَّ النَّظم يريدُ عرضَ حالِ الطّاغيةِ للمُستخبَر حتّى يخبرَ بكلِّ عدلٍ وإنصاف، والصّيغةُ بهيئتِها الصَّرفيَّة دالّةٌ على المُطاوعةِ والمُبالغةِ والمُسارعة؛ فكأنّه قَبِلَ التَّولّي بعدَ مواجهتِهِ بالآياتِ دونَ النّظرِ والتَّفكُّر والتَّأمُّل في دلالاتِها وأبعادِها، وفي ذلك تصويرٌ لكونِ تولّيه شديدًا وعميقًا، ويدلُّ الفعلُ بمادّته على الإدبارِ والرُّجوعِ إلى الخَلف؛ ليكون معبِّرًا عن الإعراضِ وعدمِ التّصديقِ والاستغناءِ عن الحقِّ، ويحتملُ أَنْ يكونَ التَّكذيبُ متعلِّقًا بأَعمالِ القلب، والتَّولّي متعلِّقٌ بأعمالِ الجَوارح، فيكونُ جامِعًا بينَ التَّكذيبِ العَقَديّ والفُجور العمَليِّ.

**دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّة في ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾:**

التَّولّي والانصراف عن القَبولِ بالحقِّ والاعتِراف

استعارَ النَّظمُ الكريم التَّولّيَ الحِسّيَّ والانصرافَ الظّاهريّ للدّلالة على الإعراضِ والكفرِ بالآياتِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ إذ شبّه الإعراضَ عن الحقِّ وعدمَ الإيمان باللّه تعالى بالتَّولّي والانصرافِ بجامعِ عدمِ القَبولِ والاعتراف، ثمَّ حذفَ المشبَّه وأبقَى المشبّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيّة، والغرضُ من الاستعارة تصويرُ هيئةِ المُعرِض عن قَبولِ الإيمانِ بهيئةِ المتولّي السَّريع دونَ التَّفكير والنَّظر.

**التّوازي التَّركيبيُّ في أفعالِ الطّاغية:**

تناسُقُ الأفعال مَعَ ترابُطِ الخِلال

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن أفعالِ الطّاغية بطريقِ الاستخبار لغرابتِها في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾.... ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بأسلوبِ

التّوازي التَّركيبيِّ والانسجامِ النَّظميّ، فهنالك فعلانِ في كلِّ تمظهرٍ من تمظهرات ذلك الطّاغية؛ ففي طلبِ الرّؤيةِ الأوّلِ كانَ ﴿يَنۡهَىٰ﴾ و﴿صَلَّىٰٓ﴾، وفي طلبِ الرّؤيةِ الثّانيةِ كان الفعلان ﴿كَانَ﴾ و﴿أَمَرَ﴾، وفي طلبِ الرُّؤيةِ الثّالثة عبّرَ بالفعلينِ أيضًا: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ فالطّاغيةُ يجمعُ بين النَّهي عن الخيرِ والطّاعة، واعتقادِ أنّه على خيرٍ وهدًى معَ أمرٍ بالتَّقرُّبِ للباطل، ومُمارسةٍ للتّكذيبِ القلبيِّ، والانصرافِ عن الجانبِ العمَليّ، وفي ذلك رسمٌ لملامحِ الطّاغيةِ الكافرِ والتَّنفيرِ منها.

### نُكْتةُ الفَصلِ في ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم﴾:

المفعول والجواب دالّانِ على سوءِ الحِساب

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ عمّا قبلَه؛ إمّا لكونِهِ واقعًا موقِعَ المفعولِ الثّاني لـ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ الثّالثةِ، أوْ لكونِهِ جوابًا للشَّرط في قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ والغرضُ من المفعولِ أوْ من جوابِ الشَّرط التَّهديدُ والوعيدُ لذلك الطّاغيةِ العنيد[1]، الّذي يَنهى عن الصَّلاة ويَسعى في الدَّعوة إلى الضَّلال، ويُسارع إلى التَّكذيبِ والإعراضِ؛ فإنَّ اللّه تعالى يراهُ، وسوفَ يُحاسِبُه على أفعالِهِ الطُّغيانيَّة.

### دلالةُ (همزة) الاستفهامِ في ﴿أَلَمۡ﴾:

جُرأةُ الإقدام على صوَرِ الإجرام دافعةٌ للتّعبيرِ بالاستفهام

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(همزة) الاستفهامِ التَّصديقيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على التَّقريرِ والإلجاءِ على الاعترافِ المَمزوجِ بالتَّعجيب مِن شأنِ الطّاغية، الّذي أقدمَ على كلِّ صوَرِ الإجرامِ المتعلّقة بنفسِهِ وبغيره، وهو يتناسى أنَّ اللّه تعالى يراهُ ويُجازيهِ على أعمالِهِ الطُّغيانيَّة، وإنَّما عبَّر عن المعنى بالاستفهام؛ لما فيه من جُرأة الإقدام وغَرابةِ التَّصرُّف الشَّنيع، فيُسألُ عنه بطريق الاستفهامِ؛ للتَّثبُّتِ من موقفِ الطّاغية من رُؤيةِ اللّه تعالى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 509.

لهُ، ومُحاسبتِهِ على أعمالِهِ بغيةَ تقرير تلك المُحاسبة وتحقُّقِها، قال الشَّوكانيُّ: "والاِسْتِفْهامُ لِلتَّقْريعِ والتَّوْبِيخِ"(1).

**دلالةُ (لم) والغرضُ مِنها:**

التَّأمُّلُ في الدَّليل فيه شِفاءٌ للعليل

عبّرَ النّظمُ الكريم بالحرفِ الجازِم (لم) في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على نفيِ علمِهِ في الماضي، لكنَّه مع الاستفهام الإنكاريِّ للمنفيِّ يُفيدُ الإثباتَ، مع الإلجاءِ إلى الاعترافِ بالعِلْم بيومِ الدّين المُهدَّدِ به، فيكون التَّعجُّبُ من حالِهِ بأنَّه يعلمُ أنَّ اللّه تعالى يراهُ مع صدورِ الطُّغيان منه، ولكنَّه لَمّا كان مُكذِّبًا بالدّين ونزلَ إلى أسفلِ سافلين، ورفضَ الاعترافَ بالحسابِ والجَزاء، مع أنَّ كلَّ الأدلّة تفيدُ أنَّ الخالقَ للإنسان من عَلَقٍ قادرٌ أنْ يبعثَهُ للحسابِ بعدَ التَّفرُّقِ في التُّراب، وذلك كافٍ للعلْم بأنَّ اللّه يراهُ ويُحاسِبُهُ على أفعالِهِ؛ فلا يَرِدُ بأنَّ هذا الطّاغيةَ وأمثالَهُ مُكذِّبونَ بيوم الدّين؛ فكيفَ يُقرّون على الاعترافِ به؟.

**دلالةُ فعلِ (العِلْم) مادّةً وصيغةً:**

مواجَهةُ الأدلَّة اليقينيَّة بالغُرورِ والأنفَةِ التَّكبُّريَّة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (العِلْم) مُضارِعًا في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة بصيغتِهِ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لعِلْمِه برُؤيةِ اللّه تعالى له ومُحاسبتِهِ على أعمالِهِ السّيّئة؛ لأنَّ الأدلّةَ البُرهانيَّة والمُعجزاتِ الإلهيَّة تتوالَى على أُذُنِهِ باستمرارٍ، تُذَكِّرُهُ وتُعْلِمُهُ بذلك، لكنَّه يَجحَدُ الحقَّ تكبُّرًا وغُرورًا، وللدّلالة بمادّتِهِ على أعلى درجاتِ التَّصديق، وهو العِلْمُ الدّالُّ على اليقين؛ للإشارة إلى أنَّ تلك الأدلّةَ المُحيطةَ به توصِلُ لليقين والاعتقادِ الجازم، لكنَّه رَكِبَ رأسَهُ وتناسَى تلك الدّلالاتِ المُتنوِّعة، وجَحَدَها تكبُّرًا وظُلْمًا.

**دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِأَنَّ﴾:**

الطُّغيان إنكارُ المَعلومِ بالبُرهان

عبّرَ النّظمُ الكريم بـ(الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 572.

﴿يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على التَّقويةِ والتَّوكيد لمضمونِ معلومِه، إذِ الفعلُ متعدٍّ بنفسِه إلى المفعولين؛ لكنَّه أتى بالحرفِ لِمَزيدٍ من التَّحقيقِ والتّثبيتِ لَمعلومِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ علمَهُ برُؤية اللّه تعالى لهُ ومُحاسبتِه على أفعالِه أمرٌ متقرّرٌ لديه، لكنَّه كثيرُ الجُحودِ حتَّى صار طاغيةً وجاوزَ الحَدَّ في التَّكذيب.

### دلالةُ (أنَّ) والغرضُ منها:

تنزيلُ الجاحِدين بـالـدّيـن مَـنـزلـةَ المُنكِرين لليقين

أكَّدَ النَّظمُ الكريم بالحرفِ المشبَّه بالفعلِ (أنَّ) مضمونَ الجملةِ الدّاخلِ عليها في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق رُؤيةِ اللّه تعالى له ومُحاسَبتِه على أفعالِه الطُّغيانيَّة؛ تنزيلًا لهذا الجاحِدِ بالدّين مَنزلةَ المُنكِرِ لما عَلِمَه بعدَ رُؤية الآياتِ باليقين، لكنَّه بجُحوده وغُروره صارَ كأنَّه مُنكِرٌ وجاحدٌ بالجزاءِ.

### سرُّ تعبيرِ النَّظمِ بلفظِ اسمِ العلَم ﴿ٱللَّهَ﴾:

الإلزامُ والإفحامُ بذِكرِ الاسمِ المُقَرِّ به للطُّغاةِ اللِّئام

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم العلَم الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ بدلَ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ الأربابَ متعدّدةٌ، وربُّ الرّسولِ الواردُ في السّورة يَجحَدُهُ غرورًا، ولا يُقِرُّ به استكبارًا، معَ أنَّه الخالقُ الأكرم، لكنَّه أوردَ الاسمَ العلَمَ الَّذي يُؤمِنُ به المُشرِكُ الطّاغية، ليكونَ إلزامًا له وتعجُّبًا من حالِه؛ إذ كيفَ يُقِرُّ باللّه خالقًا ويعبُدُ أصنامًا وأربابًا باطلةً، ومن شأنِ الخالقِ الرّؤيةُ والمُحاسبةُ للعِباد يومَ الجَزاء، فكيفَ يُقدِمُ على التَّكذيبِ والإنكارِ للحِساب المَوعود.

### دلالةُ فعلِ (الرُّؤيةِ) مادّةً وصيغةً:

الإبصارُ المُحيطُ بالطُّغاة تهديدٌ لـكـلِّ الـظّـالمين العُتاة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الرّؤية) مُضارِعًا في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ الرُّؤيةِ على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ بالنّظر لما يفهمُهُ العِباد ويتعارفونَ عليه، وإلّا فالمَولى تعالى ثابتٌ له الوصفُ الجليل على سبيلِ الثّبوت والدَّوام، غيرَ مُتقيّدٍ

بزمنٍ، ولا تتجدّدُ له رؤيةٌ بعدَ انقطاع، تعالى اللّه وتعظَّم، وليدلَّ بمادّتِه على الإبصار المُحيطِ بأفعال الظّالمين؛ تهديدًا لهم ووَعيدًا[1] على ما يقترفونَهُ مِن إجرام.

**دلالةُ الكنايةِ في ﴿يَرَىٰ﴾:**

إثباتُ الحِساب بِرُؤيةِ الجاحدينَ من ربِّ الأرباب

كنَّى النَّظمُ القرآني بلفظِ ﴿يَرَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ عن الجزاءِ والحِساب والعِقاب؛ إذ يَلزمُ من إحاطةِ إبصارِ اللّه تعالى لأفعالِ الطُّغاة أنَّه يُحصيها عليهِم ويُحاسِبُهم عليها، ويُجازيهم على ما اقترفوا من سيّئاتٍ وظُلم، والغرضُ من ذكرِ الملزوم إثباتُ الجزاءِ بالبرهان؛ إذ يلزمُ من الرُّؤيةِ العِلْمُ والإحاطةُ والجزاءُ، فيكونُ من قبيلِ ذكرِ وقوعِ الجزاءِ بذِكرِ دليلِه وبُرهانِه؛ فمَن أنكرَ الجزاءَ أنكرَ رُؤيةَ اللّه تعالى وعلمَهُ بأفعالِ العِباد.

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

**الطُّغيان والعُتوّ:**

الطُّغيانُ أشدُّ من العُتوّ

الطُّغيان: مُجاوزَة الحَدِّ في المَكْروه مَعَ غَلَبَة وقهر، ومِنْه قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقّة: 11]، يُقالُ: طغا الماءُ إذا جاوزَ الحَدَّ في الظُّلم، والعُتوُّ المُبالغَةُ في المَكروه؛ فهوَ دونَ الطُّغيانِ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8] قالوا: كلُّ مُبالغٍ في كِبْرٍ أَوْ كُفر أَوْ فسادٍ فقد عتا فيه، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقّة: 6] أي: مُبالِغَةٍ في الشِّدَّة[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 509.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ
١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ
وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: 15 - 19]

بعدَ بيانِ أفعالِ الطُّغيان يَأتي الوعيدُ بالعَذابِ والهَوان

## ❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا عجَّب اللّه تعالى واستنكرَ الطُّغيان بصورهِ ومَظاهرِهِ المُختلفة من نهيٍ عنِ الصَّلاة، وتكذيبٍ للّه وتولٍّ عن شرائعِهِ وأوامِره، وما فيهِ من جُحودٍ بعدَ معرفةٍ بالحقيقةِ النّاصِعة ناسَبَ أنْ يردَعَ الطُّغاةَ ويتوعَّدَهم بعَذابِ الخِزْيِ في الدُّنيا وبِعَذابِ النّار في الآخرة؛ نافيًا أوهامَهم بنُصرةِ الأعوانِ والأنصار.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾: (سفع) أصلانِ؛ أحدُهما: لونٌ، والآخَرُ: تناوُلُ شيءٍ باليد، فالأوّلُ السّفعةُ وهي السَّوادُ، وكانَ الخليل يقولُ: لا تكون السَّفعةُ في اللّون إلّا سوادًا مُشرَبًا حُمرة، وأمّا الأصلُ الآخر: فقولُهم: سفعتُ الفرسَ إذا أخذتَ بمُقدّم رأسِهِ، وهي ناصيتُهُ[1]، والسّفعُ أنْ يأخُذَ الرّجلانِ كلَّ واحدٍ منهُما بناصيةِ صاحبِه، وأصلُ السّفع الجَذْبُ، ويقالُ: سفعتْهُ النّارُ تَسفَعُهُ سَفْعًا، إذا مسّتْ جلدَهُ فأثّرَتْ فيه[2]، فهو القبضُ الشَّديد[3]. والمراد به في الآية: نقبِضُه قبضًا شديدًا، بحيثُ لا يقدِرُ أن يَتحرّكَ.

2) ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: (نصا) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تخيُّرٍ وخطَرٍ في الشّيء وعُلوٍّ، ومنهُ النّاصيةُ، سُمّيتْ لارتفاعِ مَنبَتِها، والنّاصيةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفع).
(2) ابن دريد، الاشتقاق: (سفع).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 144.

قِصاصُ الشَّعْر، ونَصَوْتُ فلانًا: قبضْتَ على ناصيتِهِ، وناصَيْتُهُ: أخذَ كلٌّ منّا بناصيةِ صاحبِهِ[1]، ومن كلامِهم: جزّ ناصيتَهُ، وأخذَ بناصيتِهِ[2]، والأصلُ فيها ما ارتفعَ وعلا مِن أجزاءِ البدَن، ويَنطبِقُ على ما يُشاهَدُ مِن مُقدّمِ الرَّأس، ومنهُ الجَبهة، ثمّ يشتقُّ مِنَ (النّاصيةِ) أفعالٌ بالانتزاع[3]، والنّاصيةُ: ما فوقَ الجَبهة وهو مُقدّمُ الرّأس وفيهِ الشَّعر، وطرَفاهُ البَياضانِ[4]. والمرادُ به في الآية: إمّا الحقيقةُ أوِ المجازُ عن البدنِ أوِ الرّأس كلِّه.

3) ﴿نَادِيَهُۥ﴾: (ندى) يدلُّ على تجمُّعٍ، ومنهُ النّادي[5]، وناداهُ مُناداةً ونِداءً، أي: صاحَ به، وتنادَوْا، أي: نادى بعضُهم بعضًا، وتنادَوا: أي: تجالسوا في النّادي[6]، وندا القومُ نَدْوًا (من بابِ قتل): اجتمَعوا، ومنهُ النّادي، وهو مَجلِسُ القومِ ومُتحدَّثُهُم، والمُنتدَى مثلُهُ، ولا يقالُ فيه ذلك إلّا والقومُ مُجتمِعونَ فيه، ومنهُ سُمّيتْ (دارَ النّدوة)؛ وجمعُ النّادي أندية[7]، وهو دَعوةٌ في مُخاطبةٍ، وهذا التَّعبيرُ أحسنُ من كلماتِ (المَجلِس والمَحفَل والدّار) وغيرِها؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى الوصفِ المفهوم منه، وهو الدّعوة في مُخاطبةٍ[8]. والمرادُ به في الآيةِ: أهلُ النّادي، وهُمُ الأنصارُ والأعوانُ.

4) ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: (زبن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الدّفعِ، يقالُ: ناقةٌ زبونٌ إذا زَبَنَتْ حالِبَها، و(الزَّبانيةُ) سُمّوا بذلك؛ لأنّهم يَدفعونَ أهلَ النّارِ إلى النّار[9]، وحربٌ زبونٌ؛ لأنّها تدفَعُ الأبطالَ عنِ الإقدام خوفَ المَوت[10]، فهو الدّفعُ الضَّعيفُ والتّنحيةُ عندَ المُراجعةِ والحاجةِ إليه، وهكذا المُتكبِّرُ الدّافع، والشُّرَطُ يُنحّونَ النّاسَ عن الخِلافِ والانحرافِ، والزّبانيةُ على وزانِ (فَعاليَة) جمعُ (الزّبنيّ) أوِ (الزّبنيّة) أوِ (الزّابن) أوْ من الجمعِ الّذي لا واحدَ له كـ(أبابيل)[11]. والمرادُ به في الآيةِ: نوعٌ من ملائكةِ العَذاب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصو).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصو).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 143.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 145.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ندي).
(7) الفيّومي، المصباح المنير: (ندي).
(8) المصطفويّ، التّحقيق كلمات القرآن: 12/ 70.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبن).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (زبن).
(11) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 296.

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التّهديدُ والوَعيدُ لكلِّ طاغيةٍ عَنيدٍ

بدأتِ الآياتُ بالوعيدِ لذلك النّاهي والزّجر، إذ المَولى سُبحانه لهُ بالمرصاد، فإنْ لم يتوقّفْ عمّا هو عليهِ بتَرْكِه والابتعادِ عنهُ لنأْخذَنَّ بناصيتِهِ الكاذبةِ الخاطِئةِ هي أوْ صاحبُها، ولَنَسْحَبَنَّهُ بها إلى النّار، ولنُذِلنَّهُ بذلك الإذلالَ الشَّديد، وليدعُ أهلَهُ وعشيرَتَهُ لنُصرتِهِ، وسَنَدْعو مَلائكةَ العذابِ، وهم غِلاظٌ شِداد، ليَجرّوه ويَدْفَعوه إلى النّار، وليَرتدعْ ذلك الطّاغيةُ، ولا تُطِعْهُ يا محمَّد ﷺ فيما دعاكَ إليهِ من تركِ العِبادة، ودُمْ على ما أنتَ عليهِ من الإعراضِ والانشغال عنه بطاعة للّٰه تعالى، وواظِبْ على سُجودِك وصَلاتِك غيرَ مُكترثٍ بما بلغك عنه من تهديدٍ ووَعيد، وتقرَّبْ إلى ربِّك بطاعتِهِ، وامتثالِ أمرِهِ ونَهْيِه.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نُكْتةُ الفصلِ في ﴿كَلَّا﴾:

التَّهديدُ والوَعيدُ بالرَّدعِ الفَريدِ

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾ عمّا قبلَه؛ إمّا لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ إذ نشأ من توصيفِ ذلك الطّاغيةِ وأعمالِهِ الشِّرّيرة المُجرِمة سؤالٌ مُفادُه: فما حُكمُهُ إنْ لم يتوقّفْ عن غيِّهِ واستكبارِهِ وتمرُّدِه؟ فأجابَ بالرّدع والزّجر له، مُتوعِّدًا في حالِ عدمِ توقُّفِه بالعذاب الشَّديد لهُ والإذلالِ الكبير، أوْ لكونِه استئنافًا ابتدائيًّا ببيانِ عاقبةِ كلِّ طاغيةٍ ومُتكبّرٍ على اللّٰه تعالى وشرائِعِه.

### دلالةُ ﴿كَلَّا﴾، والغرضُ منها:

تحديدُ الجملةِ الزّجريَّة، وأثَرُهُ في وظيفةِ (كلّا) المعنويّة

عبّر النَّظمُ الكريم بالحرفِ ﴿كَلَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالة على الرّدع والزّجر لذلك النّاهي عن الصَّلاة والآمِرِ بعبادةِ الأصنام[1]، وتكذيبِهِ بالآياتِ وإعراضِهِ عنِ الانقياد، معَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 163.

الوعيدِ والتَّهديد[1]، بأنَّه إنْ لم يتوقّفْ عن غيِّه وضَلاله فإنَّ النّارَ مَصيرُهُ، أوْ للرّدعِ عن عدمِ علمِهِ بأنَّ اللّه يراه ويُسجّل عليهِ أخطاءَه.

قالَ مُقاتِلٌ: "كَلّا لا يَعْلَمُ أنَّ اللّه يَرَى، وإنْ كانَ يَعْلَمُ، لَكِنْ إذا كانَ لا يَنْتَفِعُ بما يَعْلَمُ فكَأنَّهُ لا يَعْلَمُ"[2].

وقال النّيسابوريّ: "ثمّ ردعَ أبا جهلٍ عن نهيِه، أوْ عن عزمِهِ على أنْ يقتلَ محمَّدًا ﷺ أوْ يطأ رقبتَهُ، فإنَّ تلميذَ محمّد ﷺ هو الّذي يقتلُهُ ويطَأُ صدرَهُ"[3].

فتكونُ وظيفةُ ﴿كَلَّآ﴾ ابتدائيّةً في الزّجر والرّدع، ولمّا كان ابنُ عاشور قد جعلَ الرّدع السّابق راجعًا إلى مدلولِ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ذهبَ إلى أنّ ﴿كَلَّآ﴾ هنا توكيدٌ للرّدع السّابق، قد وقعَتْ في مَوْضِعها الحقيقيِّ بقوله: "﴿كَلَّآ﴾ أكَّدَ الرَّدْعَ الأوَّلَ بحَرْفِ الرَّدْعِ الثّاني في آخِرِ الجُمْلَة، وهوَ المَوْقِعُ الحَقيقُ لِحَرْفِ الرَّدْعِ؛ إذْ كانَ تَقْديمُ نَظيرِهِ في أوَّلِ الجُمْلَة، لِما دَعا إلَيْه المَقامُ مِنَ التَّشْويق ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، أعْقَبَ الرَّدْعَ بالوَعيدِ عَلَى فِعْلِهِ إذا لَمْ يَرْتَدِعْ ويَنْتَه"[4]، في حين أنَّ الرّدع السّابق توجّهَ فيما رأينا إلى مدلولِ الكلام السّابق عليه من ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الدّالِّ على أنَّ بعضًا يُكذّب بذلك، فجاءَ الرَّدْعُ الأوّل للزّجر عن إمكانيَّةِ صُدور الطُّغيان بالتَّكذيب، وأمّا لو جُعِلَ الرَّدعُ لما بعدَهُ - كما رأى ابن عاشور - فإنَّ الرّدع الواقعَ في مَوْضِعِهِ هو التّالي للتَّكذيبِ والنّهي عن الصَّلاة كما هو قانونُ ﴿كَلَّآ﴾ في كونِهِ إبطالًا لما تقدَّمَها، فتكونُ ﴿كَلَّآ﴾ مُؤكِّدةً للرَّدع السّابق من حيثُ كونُهما زاجِرَينِ عن نفسِ الفِعل.

### دلالةُ (اللّام) في ﴿لَئِن﴾:

عبّر النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالةِ على التَّوكيدِ المُتناسِقِ مع إرادةِ الزّجرِ والتَّهديدِ والوعيد؛ إذ الزَّجرُ والرّدع والإبطالُ عن النّهي عن الصَّلاة يُناسِبُهُ التَّوكيدُ حتّى يكونَ المَزجورُ والمَردوعُ عن الفعلِ عالمًا بجنايةِ ما أقدمَ عليهِ من فعلٍ غليظٍ استحقَّ الرَّدعَ والإنكارَ؛ فاللّام موطّئةٌ للقسَمِ المَحذوف، ويكونُ القسمُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 438، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1971.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 224.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 533.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 449.

دالًّا على عِظَم تلك الجِناية أيضًا؛ إذ لا يُقسَمُ إلّا للأمرِ العَظيم، والتَّقديرُ: "واللّه لئن لم ينته هذا النّاهي اللَّعين عمّا هو عليه، ولم ينزجر ولم يتب ولم يسلِم قبلَ الموت"[1]، وجُمْلَةُ (لَنَسْفَعَنْ) جَوابُ القَسَم، وأمّا جَوابُ الشَّرْطِ فمَحْذوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ جَوابُ القَسَم"[2].

الـرّدعُ والـزّجـرُ يـتـوافـقـانِ معَ توكيدِ الخَبر

### سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (إنْ) في ﴿لَئِن﴾:

الـدّعـــوةُ إلى الإيـمـان بالكَفِّ عن الطُّغيان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(إن) الشّرطيّة في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالة على تعليقِ حُصول مضمونِ الجواب، وهو التَّعذيبُ والإذلال بحصولِ مَضمونِ الشَّرط، وهو عدمُ الانتهاءِ عن الإجرام والطُّغيان لكمالِ العدلِ الإلهيِّ والرَّحمةِ العَظيمة، وسرُّ التَّعبيرِ بالأداةِ المُحتمِلة للشَّكِّ في عدم الانتهاء مع أنَّ اللّه تعالى عالِمٌ بانتفاءِ انتهائِه؛ لما علله القونويّ بقولِه: "وكلمةُ الشَّكِّ بالنَّظرِ إلَى ما في نفسِ الأمر؛ فإنَّه محتملُ الوقوع وعدمه في حدِّ ذاته، وإنْ كان مقطوعَ الانتفاء بالنِّسبة إلَى علمِه تعالى؛ فإنَّ ذلك النّاهي لم يَنزجِرْ عن ذلك إلى أنْ قُتِلَ في بدرٍ كافرًا"[3]، وللدّلالة على أنَّ المراد بالنَّظم عمومُ المخاطَبين؛ إذ كلُّ المُخاطَبينَ يعلمُ اللّه تعالى مآلهم، لكنّه يُخاطِبُهم بما يتّفقُ ودعوتَهم إلى الإيمانِ والكفِّ عن الطُّغيان على وفق ما يتعارفون؛ إلزامًا للحُجّة وإثباتًا للاختيار وحُرّيَّةِ القرار.

### دلالةُ ﴿لَّمْ﴾ في ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ والغَرَضُ مِنها:

تـداركُ الـحـالِ قبلَ ضَياعِ فُرصةِ الإمهال

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالحرفِ الجازِم ﴿لَّمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالة على النّفي لحَدَثِ الانتهاءِ عن الإجرام والطُّغيان في الماضي بشكلٍ متحقّقِ الوُقوع، وإلّا فإنَّ العذاب مآلُهُ في المستقبل؛ وأرادَ بالماضي أزمنةَ دارِ العمَل، وبالمُستقبل أزمنةَ دارِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 450.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 361.

الجَزاء، أوْ كلاهُما في الدُّنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهمّيَّة المُسارعةِ إلى تدارُكِ الحال قبلَ زوالِ الفرصةِ بالتَّوبةِ والاستغفار.

بقي أنَّ الفعلَ مجزومٌ بـ﴿لَّمۡ﴾ فحُذِفَ حرفُ العلَّةِ (الياء)؛ وفي ذلك الاقتطاعِ رمزٌ صوتيٌّ إلى سُرعةِ الانتهاءِ والكفِّ.

### دلالةُ فعلِ (الانتهاء) مادّةً وصيغةً:

تجاوُزُ الحُدودِ يُناسِبُهُ التَّوقُّفُ عندَ القُيود

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ ﴿يَنتَهِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالة بصيغتِهِ على وقوعِ الانتهاءِ في أزمنةِ الماضي بشكلٍ متجدّدٍ مُستمرٍّ؛ فلا يتوقّفُ انتهاؤُهُ في جميع الأزمنةِ الماضية، وفي ذلك إشارةٌ إلى مراقبةِ الإنسانِ أفعالَه ومُلاحظتَها على سبيل الاستمرار، فيتوقّفُ عند كلِّ عمَلٍ ليعلمَ أنّه من الطُّغيان أمْ منَ الشّكران؟ وللدّلالةِ بصيغتِهِ المَزيدةِ على المُبالغة في الانتهاءِ والكثرةِ في التَّوقُّفِ حتَّى ينصلِحَ حالُهُ وتتنقَّى سريرتُهُ، ويدلُّ بمادّته على الوصول إلى درجةٍ ينتهي عندَها فعلُهُ ويتوقّفُ عن الإقدامِ على جُرمِهِ، فالانتهاءُ انقطاعٌ عن العملِ الشَّنيع وتوقُّفٌ عندَهُ، وسرُّ اختيارِ مادّةِ (الانتهاءِ) أنَّ الطُّغيان هو مُجاوزةُ الحدِّ في الكُفرانِ والعصيانِ، فيناسِبُه فعلٌ يدلُّ على التَّوقُّفِ في التَّجاوُزِ والحركةِ.

### سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَنتَهِ﴾ للنّاهي:

الانتهاءُ عنِ النَّهي عن إقامةِ الصَّلاةِ والأداء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ ﴿يَنتَهِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾؛ للدّلالة على وجوبِ التَّوقُّفِ عنِ التَّجاوُزِ في الحدودِ، واختيرَ الفعلُ بخصوصِهِ؛ لأنَّ فاعلَ ﴿يَنتَهِ﴾ هو الضّميرُ الغائبُ العائدُ إلى (النّاهي عن الصَّلاة)، فيكونُ نهيُهُ عن الصّلاة محلَّ طلبِ الانتهاء عنه؛ لأنَّه عنوانُ الطُّغيان؛ إذ يكفي عدمُ الإيمان بالدَّعوة، وأمّا المنعُ من الصَّلاة للّه تعالى بالنِّسبة للرَّسول ﷺ فهو أمرٌ زائدٌ ومحلُّ استهجان، وبذلك توافقَ الوعيدُ على عدمِ الانتهاء مع فعلِ النّهي.

### سرُّ التَّعبير بـ (اللّام) والاكتفاءِ بجوابِ القَسَمِ ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾:

**توكيدُ الكلامِ لتَحقيقِ الزّجرِ عن فعلِ اللّئام**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) الواقعةِ في جوابِ القَسَم المَحذوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا﴾؛ للدّلالة على التَّوكيدِ والتَّحقيقِ لمَضمونِ جُملةِ القَسَم، الّتي اكتُفي بها عن جُملةِ جوابِ الشّرط، ويكونُ الغرضُ من الإتيانِ بجوابِ القَسَم دونَ جوابِ الشَّرط إفادةَ التَّوكيدِ والتَّحقيق أيضًا، ولذا قُدِّمَ القَسَمُ على الشَّرط، وصارَ الشَّرطُ ضمنَ جملةِ القسَم، وذلك متوافقٌ مع دلالاتِ التَّوكيد الّتي تتلاءَمُ بطبيعتِها معَ حرفِ الإبطال والزّجر على ذلك العمَل الشَّنيع والطُّغيانِ العَجيب.

### دلالةُ فعلِ (السّفْعِ) مادّةً وصيغةً:

**العُقوبةُ الأُخرويَّةُ من جنسِ الأعمالِ الدُّنيويّة**

عبر النَّظم الكريم بالفعل المضارع (نسفع) في قوله تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ للدّلالة بصيغته على التَّجدّد الاستمراريّ لعملية السّفع والدّفع والجَذْب، وفائدة الاستمرار أنَّه كان يمنع وينهى عن الصَّلاة على سبيل الاستمرار، فقوبِل ذلك الاستمرار الطُّغيانيُّ باستمرار عقابيٍّ، وللدّلالة بمادَّته على معانٍ؛ "أحدِها: لَنَأْخُذَنَّ بناصيَتِه ولَنَسْحَبَنَّهُ بها إلَى النّارِ، والسَّفْعُ القَبْضُ عَلَى الشَّيْءِ، وجَذْبُهُ بشِدَّةٍ، وهوَ كَقَوْلِه: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ [الرَّحۡمَٰن: 41]. وثانيها: السَّفْعُ الضَّرْبُ، أي: لَنَلْطِمَنَّ وجْهَهُ. وثالثُها: لَنُسَوِّدَنَّ وجْهَهُ، وبالجُمْلَة فتَسْويدُ الوَجْه عَلامَةُ الإذْلالِ والإهانَة، ورابعِها: لَنَسِمَنَّهُ، قالَ ابْنُ عَبّاسٍ في قَوْلِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾ [القَلَم: 16] إنَّهُ أبو جهل. خامسِها: لَنُذِلَّنَّه"[1]، والّذي يترجّحُ لدينا هو الأوّل؛ لأنَّ النّهيَ عنِ الصَّلاة بالمنعِ عنها يكونُ بالجَذْبِ والدّفع للمُصلّي، فاختار النَّظمُ لفظًا يدلُّ على أنَّ العُقوبةَ من جنسِ العَمَل،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 224.

وبذلك اختيرَ لفظُ (السّفع) بصيغتِهِ ومادّتِهِ ليَدُلَّ على عُقوبةِ فعلِ النّهي عن الصّلاة بمادّتِهِ وصيغتِهِ. بقي أنَّ القونويَّ أشارَ إلى دقّةِ استعمالِ لفظِ (السَّفع) وهو الجذبُ بشدّة بقوله: "و(بشدّة)؛ ولذا اخْتيرَ السّفعُ عَلَى القبض"[1].

### دلالةُ الكِنايةِ في فعلِ (السَّفع):

إرادةُ لازمِ المَعنى مع جـوازِ إرادةِ أصلِ دلالةِ المَبنى

يحتملُ الفعلُ المضارعُ (نسفعُ) الواردُ في قوله تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ الدّلالةَ على لازمِ معناه معَ جوازِ إرادة المعنى الحقيقيّ، فيكون الجَذبُ والدَّفعُ كنايةً عن الهَوان والإذلالِ المُناسبَين لعقوبةِ ذلك المتكبِّر الطّاغية.

### دلالةُ الإسنادِ المَجازيِّ في ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾:

الـــعُـــدولُ في الإسنادِ لتحقيقِ الرَّهبةِ في نُفوسِ العُتاة

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ (السَّفع) إلى ضميرِ المتكلِّم المعظِّم نفسَه العائدِ إلى اللّه تعالى في قولِهِ: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ إسنادًا مجازيًّا؛ علاقتُهُ السَّببيَّةُ؛ لكونِهِ قد أمرَ به ملائكةَ العذاب، فلمّا كان الأمرُ صادرًا منه تعالى أُسنِدَ إليه، وفائدةُ التَّجوُّزِ في الإسناد مع التَّعبيرِ بنونِ العَظَمةِ إثارةُ الرّدع والزّجر لذلك الطّاغية عندَ سَماعِهِ أنَّ ربَّ العِزّة يتوعّدُهُ بالعقاب والإيلامِ مع الذِّلّ والهَوان، وأنّه تعالى هو الَّذي يتولَّى جَذْبَهُ ودَفْعَهُ.

### الاختلافُ في زَمَنِ السَّفعِ وأثرُهُ في الإسناد:

علاقةُ السّببيَّة إمّا للأمريّة أوِ التّمكينيّة

الظّاهرُ من قولِهِ تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أنَّ المراد به العقابُ الأُخرويّ، ويحتملُ أنْ يكون ذلك السّفعُ والجَذبُ والجَرُّ في الدّنيا، وقد وقعَ لأبي جهلٍ في معركةِ (بدرٍ الكبرى)؛ إذ جيءَ برأسِهِ يُجَرُّ إلى رسولِ اللّه ﷺ، وحينَئذٍ يكون الإسنادُ المجازيُّ مبنيًّا على علاقةِ السَّببيَّة القائمةِ على التَّمكينِ منَ الفعلِ دونَ الأمرِ به كما في التَّوجيهِ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 362.

السّابق، قال القونويّ: "واختارَ المُصَنّف [البيضاويّ] كونَ السّحبِ في الآخرَة؛ لأنّه أشدُّ هَوْلًا، ولِمُناسبةِ قَوْلِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، وقيلَ: يحتملُ أنْ يكون المُراد السّحبَ على وجهِهِ في الدُّنْيا يومَ بدرٍ، حيثُ قطعَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللّه تعالى عنه رأسَ أبي جهلٍ، وجعلَ يَجرُّهُ إلَى رسول اللّه ﷺ، فحينَئِذٍ إسنادُهُ إليه تعالى لا لأمرِه، بل لتمكينِهِ منه"[1]. بقي أنّه على هذا التّوجيهِ يكونُ إعجازًا قرآنيًّا مُستقبليًّا بما يحلُّ بهذا الطّاغيةِ بخصوصِه[2].

**لو فكَّرَ الطّاغي لـعـادَ إلى ربّـه مُطأطي**

### نُكْتةُ التَّقابُلِ بينَ فعلِ الواحدِ والجَمعِ ﴿يَنۡهَىٰ﴾ و﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾:

قابلَ النَّظمُ الكريمُ بين فعلَ الطُّغيان ﴿يَنۡهَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾ وفعلِ العقاب عليه بقولِه: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ تقابلَ الجمعِ بالإفراد؛ فإنَّ نهيَهُ وتَجاوُزَهُ على المصلّي وحرّيَّتِه كانَ عمَلًا فرديًّا، لكنَّ العقوبة عليه تفوقُهُ أثرًا؛ فقابلَهُ بفعلٍ مسندٍ إلى نونِ العظَمة؛ للدّلالة على شدّةِ ذلك العمل الشَّنيع، وللرّدع بالعقابِ الأليمِ على ذلك الطُّغيانِ الأثيم.

**الخضوعُ الكلّيّ لـلـعـقـابِ على النَّهي**

### دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيّة في (الباءِ) والغرَضُ منها:

عبَّر النّظمُ الكريمُ بـ(الباء) في قولِه تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ بعدَ حذفِ مفعولِ (السَّفع) وهو النّاهي، والتَّقديرُ: (لنسفعنّه بالنّاصية)، أي: (منها)، فتكونُ الباءُ الآليّة مستعارةً للابتداء؛ إذ شبَّه الشَّيءَ المُبتدأ به بالآلةِ مُبالغةً، ثمَّ حذفَ المشبَّه وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والغرضُ من الاستعارة بيانُ أنَّ المجذوبَ قد سُحِبَ بناصيته، وكأنَّ النّاصيةَ قد صارتْ آلةً للجَذْبِ من شدّةِ السَّحب منها، ومثلُهُ: سحبتُهُ بيده، والأصلُ: سحبتُهُ من يده، لكنَّ العدول الاستعاريَّ حقّق معنَى القَبولِ الكلّيِّ للسَّحب

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 362.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1971.

والجذب حتَّى صارَ آلةً، فهو خاضعٌ خضوعًا لا إراديًّا للجَذب والجرِّ بقوّةٍ. قال المصطفويّ: "فهو مغلوبٌ مقهورٌ تحتَ سلطةِ القابضِ المُقتدر، وأمّا السّفعُ المعنويّ فإنّ مُقدّم الرّأس مركزُ الإحساسات والإدراكات والتَّوجُّهات، فإذا قُبضتِ النّاصيةُ بيدٍ غيبيّ إلهيّ جبّار يكونُ محدودًا ومقيّدًا ومحكومًا ومأخوذًا بأخذِ عزيزٍ مقتدرٍ، وفي هذا عذابٌ ليس فوقَه عذاب"(1). في حينِ رأى ابنُ عاشور أنَّ النَّظم: "أكَّدَ ذَلِكَ السَّفْعَ بِـ(الباءِ) المَزيدَةِ الدّاخِلَةِ عَلَى المَفْعولِ؛ لِتَوكيدِ اللُّصوقِ"(2)، ولا يخفى أنَّ الجذبَ لهُ بشدّةٍ منها لا لها؛ فهو يُجَرُّ منها للدّلالة على إذلالِه كنايةً، والفرقُ بين التَّوجيهين قائمٌ على أنَّ الجرَّ للشّخص أو الجرُّ للنّاصية؛ فإن كانَ الجذبُ للنّاصية فالباءُ مزيدةٌ وهو ضعيفٌ عندَنا، وإنْ كان الجرُّ للشّخص بالنّاصيةِ فالباءُ مُستعارةٌ لمعنى (مِن)، ويقوّي توجيهَنا قولُ القونويّ: "والنّاصيةُ شعرُ الجبهة، وقد سُمّي مكانُ الشّعر ناصيةً، ثمَّ كُنّي به عن الرَّأس، هذا بيانٌ لمعناه الوضعيّ، لكن لا يرادُ هنا، بل المُراد المَعْنَى الكِنَويّ كما قال: ولنَسحبنّه بها إلَى النّار"(3)؛ فالمسحوبُ الشّخصُ بها، أي مِنها.

### دلالةُ التّعريفِ بـ(ألْ) في (النّاصية):

كمالُ الاقتدار على كلِّ مُعانِدٍ جبّار

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ (النّاصية) بـ (ألْ) في قولِه تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ للدّلالة بها على العهدِ الذّكريِّ التَّقديريّ، إذِ التَّهديدُ للنّاهي عن الصّلاة بأنّه إنْ لم ينتهِ لنسفعنّه بالنّاصية، أي: ناصيةِ هذا النّاهي، فالنّاصيةُ وإنْ لم يتقدّم لها ذكرٌ صريحٌ لكنَّها تقدَّمتْ تقديرًا، ولذا قالَ أبو حيّان: "واكْتَفَى بتَعْريفِ العَهْدِ عَنِ الإضافَةِ، إذْ عُلِمَ أنَّها ناصيَةُ النّاهي"(4)، وإنّما عدلَ النَّظمُ عن

(1) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 145.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 450.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 362.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 511.

(ناصيتِهِ) فلم يقُل: (لنسفعنْ بناصيتِهِ)؛ للدّلالة على أنَّها ناصيةٌ متميّزةٌ بالكِبر وليست أيّةَ ناصيةٍ، وفي ذلك الإعلاءِ من شأنِها دلالةٌ على كمالِ التَّمكُّن منه. قال ابن عاشور: "والتَّعْرِيفُ في (النّاصيَةِ) لِلْعَهْدِ التَّقْديريِّ، أي: بناصيَتِه، أي: ناصيةِ الَّذي يَنْهَى عَبْدًا إذا صَلَّى، وهَذِهِ اللّامُ هيَ الَّتي يُسَمّيها نُحاةُ الكوفَةِ عِوَضًا عَنِ المُضافِ إلَيْه. وهيَ تَسْميَةٌ حَسَنَةٌ"[1].

### دلالةُ الكنايةِ في ﴿لَنَسۡفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾:

كمالُ الإذلال مَهْما طالَ الإمهال

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بالسّفع بالنّاصية في قولِهِ تعالى: ﴿لَنَسۡفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ عن الجَذبِ للشَّخص إلى النّار، معَ التَّمكُّنِ منه وعدمِ الإفلات له، والغرضُ من الكنايةِ رسمُ صورةِ الإذلال وإثباتُ المطلوب بالبُرهان؛ لأنَّ المجذوبَ بقوّةٍ إلى النّار بالمسك له من ناصيةِ رأسِهِ؛ لئلّا يتمكّن من الفرارِ، قال ابن عاشور: "والنّاصيَةُ مُقَدَّمُ شَعَرِ الرَّأْسِ، والأَخْذُ مِنَ النّاصيَةِ أخْذُ مَنْ لا يَتْرُكُ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنَ الانْفِلاتِ؛ فهوَ كِنايَةٌ عَنْ أخْذِهِ إلَى العَذابِ، وفيهِ إذْلالٌ؛ لِأنَّهُمْ كانوا لا يَقْبِضونَ عَلَى شَعَرِ رَأْسِ أحَدٍ إلّا لضربه أو جرّه"[2]، ولذا قال المصطفويّ: "وأخذُ النّاصيةِ وقبضُها بالشِّدَّة إشارةٌ الى السُّلطةِ التّامَّة والقهرِ بحيثُ لا يقدرُ الشَّخص المقهورُ المأخوذ أنْ يَتخلّص من يدِهِ ويتحرّك ويميلَ الى يمينٍ أوْ شمال، أو يتفكّرَ في نجاتِهِ وتخلّصِه، فإنّ مركزَ التَّفكّر والإدراك في باطنِ النّاصية، وإذا أُخِذتِ النّاصيةُ - وهي الجهةُ العُليا من البدن ظاهرةً وباطنةً - فقد أُخذَ بجميعِ البدن، وسُلِبَ منه جميعُ أنحاءِ الاختيارِ والحَركة"[3].

### دلالةُ المجازِ المُرسَل في (النّاصية):

النِّهايةُ القاضية بإذلالِهِ مِنَ النّاصية

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (النّاصية) في قولِهِ تعالى: ﴿لَنَسۡفَعًۢا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 450.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 450.
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 143.

﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ للدّلالة على السّفع والجَذب بقوّةٍ لذاتِ النّاهي عن الصَّلاة، فيكون فيه مجازٌ مرسَلٌ من قبيلِ ذِكر الجُزءِ وإرادةِ الكُلِّ، وإنَّما ذكر السّفعَ لهذا الجزءِ بعينِه؛ لإذلالِه بعدَ تكبُّره المَقيت وإجرامِه في جنبِ اللّه تعالى، أوَّ "لعلَّ السَّببَ في تخصيصِ السّفع بها أنَّ اللَّعينَ كان شديدَ الاهتمام بترجيلِ النّاصيةِ وتطييبها"[1]، ورأى القونويّ: "مُقتضى قَوْلِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: 48] كونُ المُراد بالنّاصية: الوجهَ وهو المُتعارَفُ في السّحبِ دونَ الرّأس"[2]، لكنَّ هذا مبنيٌّ على أنَّ الجَذبَ متعلِّقٌ بالنّاصية، والباءُ مَزيدةٌ، وأمّا لو كان الجَذبُ للرّجل من النّاصيةِ، والباءُ داخلةٌ على المنزّلِ منزلةَ الآلة، فإنَّ النّاصية حقيقةٌ في معناها، لكنَّ الكنايةَ تدلُّ على أنَّ الجَذب حينَئذٍ له على سبيلِ الإذلالِ دونَ مجرّد النّاصية، وهذا أقوى.

### دلالةُ الإبدالِ في ﴿نَاصِيَةٖ﴾:

التَّقريرُ والتَّوكيدُ ببيانِ عِلَّة السَّفع الشَّديد

أبدلَ النَّظمُ الكريم النّكرةَ ﴿نَاصِيَةٖ﴾ من المعرفةِ (النّاصية) في قولِه تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ﴾؛ لتقريرِ السّفع منها والتَّوكيدِ لمدلولِها؛ مع بيانِ حقيقةِ تلك النّاصيةِ من خلالِ القيامِ بتوصيفِها، وعلّلَ الهرريّ جوازَ إبدالِ النَّكرة منَ المعرفةِ بقولِه: "وإنّما أبدلَ النَّكرةَ من المعرفة؛ لوصفِها بقولِه: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾، وهذا على مذهبِ الكوفيّين، فإنَّهم لا يُجيزونَ إبدالَ النَّكرةِ من المعرفةِ إلّا بشَرْطِ وصفِها، وأمّا على مذهبِ البصريّين فيجوزُ إبدالُ النَّكرةِ من المعرفة كالعكسِ بلا شَرْط"[3]، ولذا تعقّبَ أبو حيّانَ الزّمخشريَّ بقوله: "قالَ الزَّمَخْشَريُّ: "لأنّها وُصِفَتْ فاستقلّتْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 165.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 362.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 165.

بفائِدَةٍ"[1]، ولَيْسَ شَرْطًا في إبْدالِ النَّكِرَةِ مِنَ المَعْرِفَةِ أنْ توصَفَ عِنْدَ البَصْريّينَ، خِلافًا لِمَنْ شَرَطَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ، ولا أن يَكونَ مِنْ لَفْظِ الأوَّلِ أيْضًا خِلافًا لِزاعِمِه"[2]، ففائدةُ إبدالِ النَّكرةِ منَ المعرفة بعدَ التَّقرير والتَّوكيدِ بيانُ توصيفِها وشرحِها بعدَ بيانِ ماهيّتِها.

قال الرّازيُّ: "عَرَّفَ (النّاصيَةَ) بِحَرْفِ التَّعْريفِ كَأنَّهُ تعالى يَقولُ: النّاصيَةُ المَعْروفَةُ عِنْدَكُمْ ذاتُها، لَكِنَّها مَجْهولَةٌ عِنْدَكُمْ صِفاتُها، ﴿نَاصِيَةٖ﴾ وأيُّ ناصيَةٍ كاذِبَةٍ قَوْلًا، خاطِئَةٍ فِعْلًا"[3]؛ إذ أفادَ التَّعريفُ للنّاصية تعيينُ أنَّ السّفع يكونُ بها، لكنَّها بقيت مُحتاجةً إلى تعليلِ كونِها مَسفوعةً، وأنَّ صاحبَها مسفوعٌ بها، فجاءَتِ النّكرةُ لتُحقّقَ التّوصيفَ والتّعليلَ لخاصيَّة تلك النّاصية، وفائدةُ التّعليلِ إفادةُ العُموم.

قال الطِّيبيُّ: "قال ابنُ الحاجب: "سُئِلْتُ: لمَ جُمِعَ بينَ ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾، فهلّا اقتصَرَ على إحداهما؟ فأجبتُ: أنَّ الأولى ذُكِرَتْ للتَّنصيصِ على ناصيةِ النّاهي، والثّانية ذُكِرَتْ تنبيهًا على علَّة السّفع، ليشملَ بظاهرِه على كلِّ ناصيةٍ هذه صفتُها"[4].

**دلالةُ التَّنكيرِ في البدلِ ﴿نَاصِيَةٖ﴾:**

**بيانُ النّوعيَّة بذِكْرِ الأوصافِ التَّمييزيَّة**

نكّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ البدلِ ﴿نَاصِيَةٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾؛ لبيانِ النّوع؛ إذ إنَّ نوعَ تلكَ النّاصيةِ له خصوصيّةٌ، أوجبَتْ ذلك الإذلالَ والقهر، ومن ثمَّ استدعى التَّنكيرُ النَّوعيُّ توصيفَ تلك النَّكرة توصيفًا يُجلّي ذلك النَّوعَ المميَّز، ويُعلّلُ وقوعَ السّفع به، قال ابن عاشور: "و﴿نَاصِيَةٖ﴾ بَدَلٌ مِنَ (النّاصيَة)، وتَنْكيرُها لاِعْتِبارِ الجِنْسِ، أي: هيَ مِنْ جِنْسِ ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 778.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 511.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 225.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 519.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 450.

### دلالةُ النّعتِ باسمِ الفاعلِ ﴿كَٰذِبَةٍ﴾:

بعدَ التّعليل يتحقّقُ التّعميم

نعتَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ اسمِ الفاعل ﴿كَٰذِبَةٍ﴾ لفظَ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾؛ للدّلالة على اتّصاف تلك النّاصية بالكذبِ اتّصافًا مُستمِرًّا ثابتًا، حتَّى إنّه صار صفةً مُلازمةً لا تنفكُّ عنها ولا عن صاحبِها، ولذا قالَ الهرريّ: "وفيهِ من الجزالةِ ما ليسَ في قولك: (ناصيةِ كاذبٍ خاطِىءٍ)، كأنَّ الكافرَ بلغَ في الكذِبِ قولًا والخطأِ فعلًا إلى حيثُ إنَّ كلًّا من الكذبِ والخطأِ ظهرَ من ناصيتِهِ"[1]، وإنَّما وصفَ النّاصيةَ أوْ صاحبَها بالكذبِ؛ لتعليلِ الجَذْبِ والسّفعِ منها بشِدّةٍ وقوّةٍ حتَّى تُلقى في النّيران؛ كما أفادَ التَّوصيفُ التَّعليلَ وتنقيحَ المناطِ ليتأتّى تعميمُ الحُكم؛ إذِ الحُكمُ يدورُ مع العِلّةِ وُجودًا وعَدَمًا؛ فكلَّما تحقّقتِ النّاصيةُ المتّصفةُ بالكذبِ، تحقّقَ السّفعُ بها والإلقاءُ في النّيران.

بقيَ أنَّ مادّة ﴿كَٰذِبَةٍ﴾ تدلُّ على كذبٍ بالأقوال؛ لأنَّ النّاصية وصاحبَها جَحَدا الهُدى والآياتِ البيّنات، والجحودُ القلبيُّ صدرَ على شكلِ أقوالٍ تكذبُ فيها وهي تعلَمُ الحقّ لكنَّها تُبطِلُهُ بأقوالِها الكاذِبة، ولم يقلِ النَّظمُ: (مُكذّبة)؛ لاستلزامِ ﴿كَٰذِبَةٍ﴾ أنَّها مُكذِّبة معَ الحُكمِ على تكذيبِها بأنّه كاذبٌ.

### دلالةُ النّعتِ باسمِ الفاعلِ ﴿خَاطِئَةٍ﴾:

الطُّغيان جمعٌ بينَ الإنكارِ للحقِّ وأفعالِ البُطلان

نعتَ النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ اسمِ الفاعل ﴿خَاطِئَةٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾؛ للدّلالة على اتّصاف النّاصية وصاحبِها بالخطأِ اتّصافًا لازمًا مُستمِرًّا لا ينفكُّ عنه، وكأنَّ الخطأ صارَ جُزءًا من حقيقتِها، وإنَّما وصفَ النّاصيةَ بالخاطِئة؛ لتعليلِ الجَذبِ الشّديدِ منها وإلقائِها في النّار، بقيَ أنَّ مادّةَ الخطأ تدلُّ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 165، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1971.

على مُمارسةٍ فعليّةٍ ناجمةٍ عن كَذبِها وتكذيبِها بالهُدى؛ وذلك الخطأُ تمثّلَ بالطُّغيان في التَّكذيبِ من خلالِ نَهيِها عن الصَّلاة، فقد جمعَتْ تلك النّاصيةُ وصاحبُها بين كذبٍ بالهُدى وخطأٍ بالصَّدِّ عن الصَّلاة، فيكون التَّوصيفُ بالنّعتين ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ملحوظًا فيه قولُهُ المتقدّم: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ فالكذبُ للتَّكذيب، والخطأ للتَّولّي والإعراض، وإنَّما لم يقلِ النَّظمُ: (مُخطِئٌ) لما فرّقَ به الرّازيُّ بقوله: "والفَرْقُ بَيْنَ الخاطِئِ والمُخْطِئِ أنَّ الخاطِئَ مُعاقَبٌ مُؤاخَذٌ، والمُخْطِئَ غَيْرُ مُؤاخَذٍ"[1].

### دلالةُ المَجازِ العقليّ أوِ الاستعارةِ المَكنيَّة في ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾:

توصيفُ العقلِ ومحلِّ الإدراك بما هو من أوصافِ أهلِ الهَلاك

أسندَ النَّظمُ الكريمُ وصفَي اسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ لضميرِ (النّاصية) إسنادًا مَجازيًّا؛ علاقتُهُ الآليّةُ أوِ السّببيّةُ؛ إذِ النّاصيةُ ومُقدَّمُ الرَّأسِ محلُّ الإدراكِ والعقلِ والتَّفكيرِ، فهو سببٌ لاتّصاف النَّفسِ المُدركةِ بالضَّلال وعدمِ الرَّشاد، فكان ذلك العقلُ مُرشِدًا إلى الكذبِ والضَّلال والإعراضِ والصَّدِّ عن الصَّلاة؛ فأُسنِدَ الكذبُ والضَّلال إليه؛ لأنَّه السّببُ لاتّصافِ النَّفس وصاحبِ النّاصيةِ بالكذب والخطأ، والغرضُ من التَّجوُّزِ بيانُ سببِ اتّصافِ نفسِ صاحبِ النّاصيةِ بالوصفَين، وهو أنَّ عقلَه وإدراكَهُ الكامنَ في ناصيتِهِ عرفَ الحقَّ لكنّهُ جحدَهُ وأبطلَهُ.

قال ابن عاشور: "وَوَصْفُ النّاصيَةِ بالكاذِبَةِ والخاطِئَةِ مَجازٌ عَقْليٌّ، والمُرادُ: كاذِبٌ صاحِبُها، خاطِئٌ صاحِبُها، أي: آثِمٌ، ومُحَسِّنُ هَذا المَجازِ أنَّ فيهِ تَخْييلًا بأنَّ الكَذِب والخطأ باديانِ مِنْ ناصيَتِه، فكانَتِ النّاصيَةُ جديرةً بالسَّفع"[2]، فوجهُ المُبالَغَةِ: "هوَ أنّه يفيدُ أنَّ كذبَ صاحبِها وخطأَها بلغَ إلَى النّهاية، بحَيْثُ سرى إلَى النّاصية،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 225.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 450.

فكانت كاذبةً خاطئةً"[1]، ويحتملُ أنْ يكون استعارةً مكنيّةً من خلال تشبيهِ النّاصيةِ ضميرًا بنفسٍ قابلةٍ للاتّصافِ بالكذب والضّلال، ثمَّ حذفَ المشبّهَ به وأبقَى المشبَّه على سبيلِ الاستعارة المكنيَّة، وأبقَى الكذبَ والخطأ رَمْزًا على ذلك التَّشبيه، وتخييلًا في إسنادِهِ لضميرِ المشبَّه، والغرضُ من توصيفِ محلِّ الإدراكِ (النّاصية) بالكذبِ والضَّلال المبالغةُ في هيمنةِ الجُحود على قلبِ الطّاغية حتَّى إنَّ تفكيرَهُ امتلأ بالوصفينِ؛ فلم يعُدْ قادرًا على التّمييز.

قال المصطفويّ: "ووصفُ النّاصيةِ بالكاذبةِ والخاطِئة يدلّ على أهمّيَّتها في وجودِ الإنسان، فكأنّه هو النّاصيةُ، وأنّ حقيقةَ الإنسان عبارةٌ عنِ النّاصيةِ ظاهرِها وباطنِها، فإنّ مركزَ الإدراك والتَّفكُّرِ هو في بطنِ النّاصية"[2].

### دلالةُ تَرْكِ العطفِ في ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾:

تحقيقُ الاستقلالِ دالٌّ على عِظَمِ الطُّغيانِ في الأقوالِ والأفعال

تركَ النَّظم الكريم العطفَ في قولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فلم يقلْ: (كاذبةٍ وخاطئةٍ)؛ للدّلالة على استقلالِ كلٍّ من الوصفينِ عنِ الآخر، وأنّ الطُّغيان وقعَ في كلٍّ من القولِ والفعلِ على سبيلِ الاستقلال، قال القونويّ: "وتركَ العطفَ؛ تنبيهًا عَلَى أنَّ كلَّ واحدٍ منهما صفةٌ ذميمةٌ عَلَى حيالِها غيرُ تابعٍ"[3]؛ فهو بالتَّكذيبِ وصلَ إلى أعلى حدودِ التَّجاوُزِ، فجمعَ بينَ التَّكذيبِ والتَّولّي، وفي الخطإِ والضَّلال بالغَ حتَّى نهى المصلّي عنِ الصَّلاة.

### سرُّ الجمعِ والتّرتيبِ بينَ الوَصفينِ ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾:

أعلى دَرجاتِ الطُّغيان التَّكذيبُ والبُهتان

جمعَ النَّظمُ الكريم بينَ وصفينِ للنّاصيةِ في قولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾؛ للدّلالة على أنَّ نفسَ الطّاغيةِ قد جمعَتْ بينَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.
(2) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 144.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.

(الكذبِ) في الأقوال، و(الخطَأ) في الأفعال، ولذا رجَّح القونويّ دلالةَ (التَّقابُلِ) على دلالةِ العموم والخُصوص في قوله: "والكذبُ هوَ الحُكمُ غيرُ المُطابقِ للواقعِ، والخطأُ الفعْلُ بغيرِ عَمْدٍ، أوِ المُراد ضِدُّ الصّواب؛ كما يقالُ للمعصيةِ خطيئةٌ، وكلاهُما مُحتملانِ هنا، والتَّقابلُ ظاهرٌ، أمّا الأوّل: فظاهرٌ، وأمّا الثّاني: فلأنَّه يَعُمُّ الفعْلَ والقَوْلَ بخلافِ الكذبِ؛ فإنّه مختصٌّ بالقَوْلِ. قدّمَ الكذبَ؛ لأنَّه أقبحُ"[1].

### سرُّ التَّعبيرِ بـ (الفاءِ) والغرضُ منها:

أهلُ الطُّغيانِ لا يَنفعُهُم الأنصارُ والأعوان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ للدّلالة بها على التّفريعِ والتَّعقيبِ للأمرِ بالدُّعاءِ على أخذِهِ بالنّاصية[2]، إذ نجمَ من الوعيدِ بالجذبِ له بقوّةٍ من ناصيتِه احتمالُ أنَّ هنالك أنصارًا وأعوانًا ينصرونَهُ من عقاب اللّه وتهديدِه، ففرّع آمرًا بدعوةِ أولئك الأنصار؛ ليتحقّق له أن لا ناصرَ لهُ من غضبِ اللّه؛ وسيَرى بأمِّ عينيهِ أنَّ الزّبانية تأخذُهُ وتدفعُهُ في النّار بمُجرّد دُعائها؛ إذِ (الفاءُ) تُفيدُ المُسارعة والمُبادرة، قال الرّازيّ: "(الفاءُ) في قَوْلِه: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ تَدُلُّ عَلَى المُعْجِزِ؛ لِأَنَّ هَذا يَكونُ تَحْرِيضًا لِلْكافِرِ عَلَى دَعْوَةِ ناديهِ وقَوْمِهِ، ومَتَى فعَلَ الكافِرُ ذَلِكَ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ دَعْوَةُ الزَّبانيَةِ، فلَمّا لَمْ يَجْتَرِئِ الكافِرُ عَلَى ذَلِكَ، دَلَّ عَلَى ظُهورِ مُعْجِزَةِ الرَّسولِ ﷺ "[3].

### نُكْتَةُ التَّعبيرِ باللّامِ في ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾:

تحدّي أهلِ الطُّغيانِ بتعجيزِهِم بالبُرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) الجازمةِ الدّاخلة على الفعلِ المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ للدّلالة بها على الأمرِ غيرِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ هذا الطّاغيةَ تحدّى النَّبيَّ ﷺ بأنصارِهِ وأعوانِهِ،

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.

فأرادَ النَّظم تعجيزَهُ وإظهارَ عدم قُدرته على تنفيذِ ذلك الأمر؛ إذ لو دعاهُم لكانت الزّبانيةُ تأخذُهُ أمامَ أنظارِ أهلِ ناديه.

قال ابن عاشور: "وَ(لامُ الأمرِ) في ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ لِلتَّعْجيز؛ لِأنَّ أبا جَهْلٍ هَدَّدَ النَّبيءَ ﷺ بكَثْرةِ أنْصارِهِ وهُمْ أهْلُ ناديه، فرَدَّ اللّه عَلَيْهِ بأنَّ أمْرَهُ بدَعْوَةِ ناديهِ؛ فإنَّهُ إنْ دَعاهُمْ لِيَسْطوا عَلَى النَّبيءِ ﷺ دَعا اللّه مَلائِكَةً فأهْلَكوهُ، وهَذِهِ الآيَةُ مُعْجِزَةٌ خاصَّةٌ من مُعْجِزاتِ القُرْآن؛ فإنَّهُ تَحَدَّى أبا جَهْلٍ بهَذا، وقَدْ سَمِعَ أبو جَهْلٍ القُرْآنَ وسَمِعَهُ أنْصارُهُ، فلَمْ يُقْدِمْ أحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى السَّطْوِ على الرَّسول ﷺ، مَعَ أنَّ الكَلامَ يُلْهِبُ حَميَّتَهُ"[1]، أي: "لا يُقَدِّرُهُ اللّه عَلَى ذَلِكَ، لَوْ دَعا ناديَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ عيانًا"[2]، كما يدلُّ الأمرُ أيضًا معَ التَّعجيز على التَّهكُّم والتَّوبيخ[3].

بقي أنّنا نلحظُ في استعمالِ الفعلِ منقوصَ (اللّام) مَجزومًا دلالةَ السُّرعةِ في الدَّعوة؛ وذلك مناسِبٌ لسياقِ التّحدّي وإظهارِ عدمِ القُدرة على التَّنفيذ؛ إذ بمُجرّدِ الدَّعوة السَّريعة يواجِهُ الزَّبانية.

### دلالةُ فعلِ (الدَّعوة) مادّةً وصيغةً:

دعـوةُ أهـلِ الطُّغيان تواجَهُ بـالـعَـذابِ والهَوان

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارعِ المُسنَدِ للغائبِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ الدّالِّ على الأمر؛ للدّلالةِ على طلبِ دعوةِ أنصارِهِ على سبيلِ الاستمرارِ المتجدِّد؛ لإظهارِ عَجزهِ الدّائم وعدمِ قدرتِهِ المستمرَّة على تنفيذِ ذلك التَّهديد؛ وعدلَ عن الأمرِ بالصّيغة (ادعُ)؛ لعدمِ إرادةِ تكريمِهِ بالخطاب، فجعلَهُ غائبًا إظهارًا لضعفِهِ وهوانِهِ وقُصورِ إدراكِهِ وسوءِ غَفلتِهِ، كما تدلُّ مادّةُ الدُّعاء على النِّداء لتنفيذِ حاجةٍ أوْ عرضِ فِكرة؛ فهو عاجزٌ عن عرضِ فِكرته أوِ الإعلامِ بحاجتِهِ؛ إذ بمُجرَّدِ الدُّعاء للأنصارِ يُبادرهُ عذابُ الهَوان.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 452.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 511.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.

### دقّةُ اختيارِ لفظِ (النّادي):

المُناسبةُ والانتقال تقتضي التّلازُمَ في الحال

اختارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (النّادي) في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ للدّلالة على نداءِ الأنصارِ والأعوانِ الَّذين يحلّونَ في النّادي، فلا بدَّ أنْ يكونَ بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيِّ مِن مُناسبةٍ لانتقالِ الذّهن من المَعنى الأصليِّ إلى المجازيِّ بيُسرٍ وسُهولة، فعبَّرَ بلفظِ (النّادي) دونَ (المَجلِس أوِ المَسمَر) مثلًا؛ لأنَّ: "المُرادُ مِنَ النّادي أهْلُ النّادي، ولا يُسَمَّى المَكانُ ناديًا حَتَّى يَكونَ فيهِ أهْلُهُ، وسُمّيَ ناديًا؛ لِأنَّ القَوْمَ يَندّونَ إلَيْهِ نَدًّا ونَدْوَةً، ومِنْهُ دارُ النَّدْوَةِ بمَكَّةَ، وكانوا يَجْتَمِعونَ فيها لِلتَّشاوُرِ"[1]، فاختيرَ اللَّفظُ المُشْعِرُ بتلازم ذِهنيٍّ وعُرفيٍّ للانتقالِ من المكان إلى أهلِه، مع إعطاءِ اللّفظ بُعدًا اجتماعيًّا؛ لما يتضمّنهُ من اجتماعٍ وآصرةٍ وترابُط، وقيلَ: "سُمّيَ ناديًا؛ لِأنَّهُ مَجْلِسُ النَّدَى والجودِ، ذُكِرَ ذَلِكَ عَلَى سَبيلِ التَّهَكُّمِ، أيِ: اجْمَعْ أهْلَ الكَرَمِ والدِّفاعِ في زَعْمِكَ لِيَنْصُروكَ"[2].

وفرّقَ ابنُ عاشور بينَ النّادي ومحلِّ السّمَر بقوله: "والنّادي: اسْمٌ لِلْمَكانِ الَّذي يَجْتَمِعُ فيهِ القَوْمُ، يُقالُ: نَدا القَوْمُ نَدْوًا، إذْ اجْتَمَعوا، والنَّدْوَةُ (بِفَتْحِ النّونِ) الجَماعَةُ، ويُقالُ: نادٍ ونَديٌّ، ولا يُطْلَقُ هَذا الِاسْمُ عَلَى المَكانِ إلّا إذا كانَ القَوْمُ مُجْتَمِعينَ فيهِ، فإذا تَفَرَّقوا عَنْهُ فلَيْسَ بنادٍ، ويُقالُ النّادي لِمَجْلِسِ القَوْمِ نَهارًا، فأمّا مَجْلِسُهُمْ في اللَّيْلِ فيُسَمَّى المُسامَرَ، قال تعالى: ﴿سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون: 67]، ويُطْلَقُ النّادي عَلَى الَّذينَ يَنْتَدونَ فيهِ"[3].

### نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمَجازِ التَّعليقيِّ في ﴿نَادِيَهُۥ﴾:

تعجيزُ طُغاةِ البشَرِ بعدمِ النُّصرةِ ولَو بالحَجَر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ المَجاز التَّعليقيِّ في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ إذِ النّادي هو المكانُ الّذي يجتمعُ فيه القومُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 451.

للتَّشاوُر، وتنشأُ بينهم علاقاتٌ قويّةٌ وروابطُ متينةٌ؛ فهُم بمثابةِ أهلِ الحلِّ والعقد الّذين يواجهونَ المشكلاتِ ويَسعَونَ في حلِّها، فهم أشبهُ ما يكون بتنظيم حكوميٍّ مُصغَّر يجتمعُ فيه الوُجهاء، وتعليقُ فعلِ الدُّعاء به يشيرُ إلى مجازٍ في التَّعليقِ علاقتُهُ المحلّيَّة؛ إذِ الدُّعاء بالنُّصرة لا يكونُ للمكان، بل لِمَن يَحلُّ في المكان، والغرضُ من التَّجوُّزِ في التَّعليق المُبالغة؛ حتَّى إنَّه ينادي المكانَ لينصُرَه، ولكن هيهات أنْ ينفعَهُ بشرٌ أوْ حجَرٌ.

ورأى القونويّ أنَّ هذا مجازٌ حذفيٌّ أوْ مُرسَلٌ بقوله: "(أهلَ ناديه) بتقديرِ المُضافِ أو مَجازٌ مُرْسَلٌ بذِكرِ (النّاديه) وإرادةِ (أهلها) بعلاقةِ الحُلول الجواريّ"[1].

ورأى ابنُ عاشور أنّه مجازٌ حذفيٌّ بقولِه: "وَإِطْلَاقُ النّادي عَلَى أَهْلِهِ نَظِيرُ إِطْلَاقِ الْقَرْيَةِ عَلَى أَهْلِها"[2]، ولا يخفى أنَّ التَّوجيهَ للمجازِ المرسَل بعدَ التَّركيبِ قد يؤوّلُ إلى تعليقٍ بما لا يكونُ له أصلًا، ويكونُ تعليقُ قرينةِ التَّجوُّز دالًّا على مجازٍ إسناديّ[3]، والأدقُّ مجازٌ تعليقيّ؛ لأنَّ الإسنادَ يكونُ في العُمَد، والتَّعليقُ يكونُ في الفَضَلات.

### دلالةُ الإضافةِ في ﴿نَادِيَهُۥ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (النّادي) إلى ضميرِ الغائب في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ للدّلالة بالإضافة (اللّاميّة) على التَّملُّكِ لزَمام الأمور في ذلك النّادي، وذلك التَّملُّكُ يفيدُ أنَّه رئيسُ ذلك المكان وموجِّهُهُ والمُسيطِرُ فيه، قال ابنُ عاشور: "وَإِضافَةُ (النّادي) إِلَى ضَميرِهِ؛ لِأَنَّهُ رَئِيسُهُمْ ويَجْتَمِعونَ إِلَيْه"[4]، ومن ثَمَّ فإنَّ موجبات الرّئاسة أنْ يأمُرَ فيُطاع، وأن يستجيب له السّامعونَ لدُعائه، وفي

مِن مُقتضيات الرّئيس الاستجابةُ لهُ بلا تَنفيس

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 363.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 451.
(3) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1971.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 452.

ذلك كمالُ التَّحدّي بأن يدعوَ القومَ لإيذاءِ النَّبيِّ الكريم ﷺ، لكنّهُ لم يفعل؛ لإدراكِه أنَّ هنالك صدقًا في كلامِ النَّبيِّ ﷺ أنّ اللهَ يُهلكُهُ من ساعتِه لو دعاهُم وأجابوهُ.

العقابُ المُنكي بعدَ دعوةِ أهلِ النّادي

**نُكْتةُ الفصلِ في جملةِ ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:**

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ إمّا لكونِه استئنافًا ابتدائيًّا دالًّا على تعليلِ الأمرِ بالدُّعاء، والتَّقديرُ حينَئذٍ: (اُدْعُ ناديَك لأنّنا سَندعو الزّبانية)، قال القونويُّ: "وهذه الجُمْلَة كالتَّعليلِ للأمرِ بالدُّعاء؛ فهو اسْتِئْنافٌ يَجري مُجرى التَّعليل"[1] وحينَئذٍ يكونُ الحذفِ للواوِ في ﴿سَنَدۡعُ﴾ للتَّخفيف، أوْ لكونِه جَوابًا مُسبَّبًا عنِ الأمرِ بالدُّعاء، فهو مَجزومٌ بجوابِ الأمرِ في ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾. قال ابن عاشور: "جَوابُ الأمْرِ التَّعْجيزيِّ، أي: فإنْ دَعا ناديَهُ دَعَوْنا لَهُمُ الزَّبانيَةَ؛ ففِعْلُ ﴿سَنَدۡعُ﴾ مَجْزومٌ في جَوابِ الأمْرِ، ولِذَلِكَ كُتِبَ في المُصْحَفِ بدونِ (واو)"[2].

والَّذي يتبيّنُ أنَّ المانعَ من كونِه جوابًا للطّلب (السّينُ) الدّالّةُ على الاستئناف، فهو وإنْ كان مُتسبِّبًا عمّا قبلَه، لكنَّه ليس مَجزومًا به، ولذا قالَ: "وَكُتِبَ ﴿سَنَدۡعُ﴾ في المُصْحَفِ بدونِ واوٍ بَعْدَ العَيْنِ؛ مُراعاةً لِحالَةِ الوَصْلِ؛ لِأنَّها لَيْسَتْ مَحَلَّ وقْفٍ ولا فاصِلَةً"[3]، ومن ثمَّ فهو استئنافٌ مُترتِّبٌ عمّا قبلَهُ، قال ابنُ عطيّة: "وحَذْفُ (الواو) من ﴿سَنَدۡعُ﴾ في خطِّ المصحف؛ اختصارًا وتخفيفًا، والمعنى: سَنَدْعُ الزَّبانيَةَ لعذاب هذا الَّذي يدعو ناديَهُ"[4].

تحقيقُ الفِعلِ لـلـرَّدِّ على الطّاغيةِ بالمِثْل

**نُكْتةُ التَّعبير بـ(السّين) في ﴿سَنَدۡعُ﴾:**

عبّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ (السّين) في قولِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 452.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 453.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 503.

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ للدّلالة على التَّوكيدِ والتّحقيق، فليستِ (السّينُ) للاستقبال المُفيدِ لاحتمالِ الوقوع، بل لتثبيتِ الوقوع وتقويتِه. قال الرّازيُّ: "وهذه السّينُ ليستْ للشَّكِّ؛ فإن (عَسَى) مِنَ اللهِ واجبُ الوُقوعِ، وخُصوصًا عِنْدَ بشارَةِ الرَّسولِ ﷺ بأن يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ عَدوِّهِ"[1].

### سرُّ حذفِ (الواوِ) في رَسْمِ ﴿سَنَدۡعُ﴾:

سُرعةُ الإهلاك للطّاغيةِ الكذّاب

حذفَ النَّظمُ الكريم (الواو) كتابةً في قولِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ للدّلالة على سُرعةِ دَعوةِ الزَّبانية للتَّعذيب والإهلاك عندَ دعوةِ الطّاغية أهلَ ناديه؛ لإيذاءِ رسولِ اللّه ﷺ؛ إذِ الاقتطاعُ في اللَّفظ بسببِ التقاءِ السّاكنينِ مع الاقتطاعِ الكتابيّ يُفيدُ سرعةَ تحقُّقِ الفعلِ، وليكونُ اللّفظ مُنسجِمًا ومشاكِلًا بحذفِ (الواو) لفظًا وكتابةً منهُ لقولِه: ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾.

قال الهرريّ: "اجتمعَتِ المصاحفُ العثمانيَّةُ على حذفِ (الواو) من ﴿سَنَدۡعُ﴾ خطًّا، ولا موجبَ للحذف لفظًا من القواعدِ العربيَّة، ولعلَّه للمُشاكلة معَ ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾ أوْ للتّشبيهِ بالأمر في أنَّ الدَّعاء أمرٌ لا بدَّ منه"[2]، وعلّلَ ابنُ خالوَيهِ الحذفَ بقولِهِ: "والعِلّةُ ما أنباتُك من بنائِهم الخطَّ على اللَّفظ"[3].

### دلالةُ التَّقابُلِ بين فعلَي الغائبِ والمتكلِّم ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾ و﴿سَنَدۡعُ﴾:

الطّاغيةُ المُهان يَتضاءَلُ أمامَ الجبّار الدَّيّان

قابلَ النَّظمُ الكريم بينَ فعلَي (يدعُ وندعُ) في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ فعبّرَ عنِ الأوّلِ بأسلوبِ المُفرد الغائبِ، وعبَّر عن الثّاني بأسلوبِ المتكلِّم المُعظِّم لنفسه؛ للدّلالةِ على المُباينة التّامَّة بينَ الدَّعوتين؛ فالأولى دعوةُ ضعيفٍ مُستصرِخٍ للنُّصرة مُستنجِدٍ للانتصار، والثّانية دعوةُ غالبٍ قويٍّ قادرٍ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 166.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 167.

### دلالةُ الكِناية في ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:

من لَوازِم دَعوةِ الزَّبانية الإهلاكُ في الهاوِيَة

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بدعوةِ الزَّبانيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ عن الإلقاءِ في النّار والإهلاكِ المُهينِ في الهاوية؛ إذ يَلزمُ من دَعوة الزَّبانية أنّهم يَزبِنوه إلى سَواءِ الجَحيم، والغَرضُ من التَّكنيةِ بيانُ ضعفِ أنصاره وأعوانِهِ - بمقارنتِهم بزبانيةِ العذاب ومُقابلتِهم بهم - إنْ دعاهُم إلى إيذاءِ الرَّسول ﷺ، وهَوانِهم في نجدتِهِ وعدمِ قدرتهم على نُصرتِهِ ودفعِ الضُّرّ عنهُ.

### دلالةُ التّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:

مُعذِّبو الطُّغاة أشِدّاءُ عُتاة

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ للدّلالة على الجنسِ المُفيدِ للاستغراقِ، أي: جميعَ أفرادِ الزّبانية من الملائكةِ الغِلاظ الشِّداد[1]، كما ينبئُ عنهُ لفظُ (الزّبن) والتَّعريفُ بـ(أل) الكماليَّة.

قال ابنُ عاشور: "وَهَذا الِاسْمُ مُشْتَقٌّ مِنَ (الزَّبْنِ) وهوَ الدَّفْعُ بِشِدَّةٍ؛ فالزَّبانِيَةُ الَّذينَ يَزْبِنونَ النّاسَ، أي: يَدْفَعونَهُمْ بِشِدَّةٍ، والمُرادُ بِهِمْ مَلائِكَةُ العَذابِ، ويُطْلَقُ الزَّبانِيَةُ عَلَى أعْوانِ الشُّرْطَةِ"[2]، ويستفادُ من كونِهم أعوانَ الشُّرطةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ محميٌّ من الأذى، وأنَّ هنالك ملائكةً تحميهِ منَ الإيذاء، كما أنَّ الشُّرطةَ وأعوانَهم يَحمونَ النّاس من الإيذاءِ والاعتداء.

بقي أنَّ هنالك تناسُبًا بين (الزَّبانية والسّفع من النّاصية)؛ إذِ الزَّبانية هم الَّذين يدفعونَ النّاسَ بقوّةٍ وشدّة، فيكونُ المَسفوعُ بناصيتِهِ مَدفوعًا بقوّةٍ من مُقدَّم رأسِه.

### نُكْتَةُ الجمعيّة في ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:

رَدْعُ المُجرمين بكَثرةِ المُعذِّبين

عبَّر النَّظمُ الكريم عن ملائكةِ العذاب في الآيةِ بلفظِ الجَمْع في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 452.

قولِهِ تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ للدّلالة على كثرةِ ملائكة العذاب، وأنَّهم لا يُقارَنون بـ(النّادي) المذكور مُفردًا في قولِه: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾، وسواءٌ كانَ اللّفظ جمعًا له مفردٌ من لفظِه، أو اسمَ جمعٍ لا مفردَ له من لفظِه، فإنَّه دالٌّ على القوَّة والكثرة، قال ابنُ عاشور: "والزَّبانيَةُ (بِفَتْحِ الزّاي وتَخْفيفِ التَّحْتيَّة) جَمْعُ زَبْاني (بِفَتْحِ الزّاي وبِتَحْتيَّةٍ مُشَدَّدةٍ)، أَوْ جَمْعُ زِبْنِيَةٍ (بِكَسْرِ الزّاي فموَحِّدَةٍ ساكِنَةٍ فنونٌ مَكْسورَةٌ فتَحْتيَّةٌ مُخَفَّفَةٌ)، أَوْ جَمْعُ زِبْنِيٍّ (بِكَسْرٍ فسُكونٍ فتحْتيَّةٍ مُشَدَّدَةٍ)، وقيلَ: هوَ اسْمُ جَمْعٍ لا واحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِه، مِثْلُ (أبابيلَ وعَباديدَ)"[1].

### دلالةُ التَّقابلِ بينَ ﴿نَادِيَهُۥ﴾ و﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:

عَجْزُ الطُّغاة أمامَ الخالقِ للأخيارِ والبُغاة

قابلَ النَّظمُ الكريم بينَ كلٍّ من دعوةِ الطّاغية لـ﴿نَادِيَهُۥ﴾ ودعوةِ اللّه لـ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ إذ أضافَ أهلَ النّادي إلى الطّاغية، ولم يُضِفِ الزّبانية إلى ذاتِه الجليلة، بل عرَّفَهم بـ(أل)؛ للدّلالة على المحدوديَّة في أهلِ ناديه، والكثرة الكاثرةِ في جانبِ الزَّبانية، كما أفادَ العدولُ من أهلِ النّادي إلى النّادي أنَّه يُنادي جَمادًا لا يَستطيعون نصرَهُ ولا تأييدَه، وأمّا الزَّبانية فهم مُنقادونَ مُطيعونَ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: 6]، كما أنَّ أهلَ النّادي وظيفتُهم ليست النُّصرةَ والغَوث، بخلافِ الزَّبانية الَّذين وظيفتُهم الدَّفعُ والتَّعذيبُ والإهلاك، ونلحظُ في الزَّبانية الدَّفعَ بقوّةٍ[2] بقصدِ التَّفريقِ، وفي (النّادي) معنى الاجتماع، فيكون بينهما طباقٌ خفيٌّ.

### دلالة الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾:

تشبيهُ الملائكةِ بالشُّرطة دالٌّ على مُخالفةِ هذه الطُّغمة

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ إذ شبّهَ ملائكةَ العذاب الَّذين يدفعونَ الظّالمين إلى

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 16/ 520، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 452.

(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1971.

النّار، ويُفرِّقونَ جموعَهُم بالشُّرطة وأعوانِ الأمير الّذين يُسمَّونَ بالزَّبانية(1)، ثمَّ حذفَ المشبَّه وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة، والغرضُ من الاستعارة بيانُ شدّةِ شوكةِ هؤلاءِ الملائكة بما يُعرَفُ من شدَّة الشُّرطة معَ المُتهاونينَ في القانون أوِ المُسيئينَ للنّاس، كما أنَّ: "العربَ تُطلِقُ هذا الاسمَ على مَنِ اشتدَّ بَطْشُهُ"(2).

إنكارُ عونِ المُساعِدينَ لما توعَّدَ به المَولى الطّاغين

## نُكْتةُ الفصلِ في ﴿كَلَّا﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿كَلَّا﴾ عمّا قبله؛ إمّا لكونِه مُنزَّلًا ممّا قبله منزلةَ التَّوكيد؛ إذِ الرَّدعُ السّابقُ للنّاهي عن الصَّلاة بأن لم يتوقّفْ فإنَّه سيُعذّب، ثمَّ أكّدَه بزجرٍ وردعٍ عن توهُّمِه بأنَّ دعوتَه لناديه نافعةٌ له، أوْ لكونِه استئنافًا ابتدائيًّا اشتملَ على بيانِ عدمِ طاعةِ هذا النّاهي عنِ الصَّلاة، بالأمرِ بالسُّجود للهِ والاقترابِ من جَلاله.

تكرارُ الرَّدعِ والزَّجرِ لتَركِ البَطَرِ والكِبَرِ

## دلالةُ تكرارِ حرفِ الرَّدْعِ ﴿كَلَّا﴾:

كرّرَ النَّظمُ الكريم ﴿كَلَّا﴾ للمرّةِ الثّالثة في قولِه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾؛ للدّلالةِ على توكيدِ الإنكارِ والإبطالِ معَ الرّدعِ والانزجار، فقد "بالغَ في زجرِ الكافر عن صلفِهِ وكبريائه، ونَفْيِ قُدرتِهِ على ما تهدَّدَ به، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ بعدَ ردعٍ للنّاهي المذكور، وزجرٌ له إثرَ زجرٍ، فهو مُتّصِلٌ بما قبلَه، ولذا جَعَلوا الوقفَ عليه وقفًا مطلقًا"(3)، وذلك الرّدعُ لتوهُّم نفعِ أهلِ النّادي الطّاغية عند دعوتِه لهم لنُصرتِهِ ومُعاونتِه، وفي ذلك التِّكرارِ والتَّوكيد تحذيرٌ شديدٌ لكلِّ الطُّغاة بالعودةِ سَريعًا لجادّةِ الصَّواب.

قالَ ابنُ عاشور: "و(كَلّا) رَدْعٌ لِإبْطالِ ما تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿فَلْيَدْعُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 167.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 166.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 167.

نَادِيَهُۥ﴾، أي: ولَيْسَ بفاعِلٍ، وهَذا تَوكيدٌ لِلتَّحَدّي والتَّعْجيزِ"[1]، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الرّدعُ والزّجرُ إلى أنَّه: "لَنْ يَنالَ ما يَتَمَنَّى مِنْ طاعَتِكَ لَهُ حينَ نَهاكَ عَنِ الصَّلاةِ، وقيلَ مَعْناهُ: ألا لا تُطِعْهُ"[2]، فتكونُ ﴿كَلَّا﴾ استفتاحيَّةً، وتدلُّ على معنى (حقًّا)، ولكنَّ دلالةَ الرّدعِ والزّجرِ ظاهرةٌ.

### دلالةُ الفَذْلَكةِ في ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾:

زُبـدةُ الكلامِ بالاستمرارِ على المَنهجِ على الدَّوامِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ الفَذلكة[3] في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾؛ للدّلالة بها على حاصلِ الكلامِ ومُجمَلِه، إذ بعدَ أنْ كلَّفَ المولى الجليل نبيَّهُ الكريم ﷺ بقراءةِ ما ينزِلُ عليه من القرآنِ الحكيم، وزجرَ النّاهيَ عن الصَّلاة لَمنعِهِ وصولَ آيِ القرآن إلى السّامعين، جاءتِ النَّتيجةُ الّتي تُبيِّنُ ملخَّصَ الكلامِ وحاصلَه بالنَّهي عن طاعتِهِ، والاستمرارِ بالصَّلاة في المسجدِ الحرام، وعدمِ خَشيتِهِ في تبليغِ ما أنزلَهُ الله عليه، ومؤدّاه الاستمرارُ على المنهجِ، وعدمُ الالتفات للصّادّينَ الطُّغاةِ عنه.

### دلالةُ ﴿لَا﴾ والغرضُ منها:

تهييجُ الحميَّةِ للدّلالةِ على صحّةِ القضيَّةِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾؛ للدّلالة على النّهي عن طاعته، وليس المرادُ منه أنَّ النَّبيَّ ﷺ سيَعْمَدُ إلى طاعتِهِ، بل النّهيُ دالٌّ على الاستمرارِ على معصيتِهِ وعدمِ الاستجابةِ له، فهو تهييجُ قلبِ النَّبيِّ ﷺ على الاستمرارِ على ما هو عليه، وإلهابُ حميَّتِه وحماسِهِ في مواجهةِ نَهيِهِ، ولذا قالَ الهرريّ: "لا تُطِعْ ذلك الكافرَ النّاهيَ لك عن الصَّلاة؛ أي: دُمْ على ما أنتَ عليهِ مِن مُعاصاةِ ذلك النّاهي الكاذبِ الخاطِئِ"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 453.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 453.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 168.

### دلالةُ فعلِ (الإطاعةِ) مادّةً وصيغةً:

مواجهةُ النّهي عن الصَّلاة بالطّاعةِ لله

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الإطاعة) في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾؛ للدّلالة على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ بتركِ طاعتِه، وعدم جعلِ الطّاعة الّتي هي الانقيادُ صائرةً إلى ذلك النّاهي المُتكبِّر، ولذا كان النَّهيُ عنِ الشّيءِ بمثابةِ الأمرِ بضدِّه، وهو جعلُ الانقياد للّه تعالى وحدَهُ.

بقي أنَّ الطّاعة تدلُّ على الانقيادِ العمليِّ لأمرٍ أوْ نهيٍ من جهةِ استعلاء، فيكونُ النَّظم قد لاحظَ قولَهُ قبل: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾، لكنَّ النَّهيَ عن الصَّلاةِ أُريد به التَّهديدُ والمنعُ منَ الصَّلاة، فيكونُ النّهيُ عن طاعتِهِ بمعنى عدمِ الرُّضوخِ لتهديداتِهِ ومَنعِهِ وصدِّه عن سبيل اللّه.

### دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾:

عاقبةُ الخَشية والحذَر الطّاعةُ للطّاغيةِ الأشَرّ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالنّهي عن الطّاعة في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾؛ للدّلالة على النّهي عنِ الحذر من خشيةِ ذلك النّاهي، فيكونُ مَجازًا مُرسَلًا من ذكرِ المسبّب وإرادةِ السّبب، قال ابنُ عاشور: "وَأُطْلِقَتِ الطّاعَةُ عَلَى الحَذَرِ الباعِثِ عَلَى الطّاعَةِ عَلَى طَرِيقِ المَجازِ المُرْسَلِ، والمَعْنَى: لا تَخَفْهُ ولا تَحْذَرْهُ؛ فإنَّهُ لا يَضُرُّكَ"[1]؛ إذِ الخشيةُ والحذرُ من الطّاغية يقودانِ إلى الطّاعة له، وإنّما لم يقُلِ النَّظمُ: (لا تخشَ أو لا تحذَرْ)؛ لأنَّ الغرض من النَّهي عنهما عدمُ الطّاعة، فذكَرَ النَّتيجةَ النِّهائيّةَ للخشيةِ والحذَر؛ وفي ذلك درسٌ للدُّعاة بعدمِ الخشية من غيرِ اللّه تعالى، والاستمرارِ على الحذَرِ منه تعالى وحدَهُ، وقالَ الرّازيُّ: "لِيَقِلَّ فِكْرُكَ في هَذا العَدوِّ؛ فإنَّ اللّه مُقَوّيك وناصِرُكَ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 453.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.

### دلالةُ تعليقِ فعلِ (الإطاعة) بالضّميرِ الغائب:

علّقَ النَّظم الكريمُ فعل الإطاعةِ بالضَّمير الغائبِ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾؛ حتَّى يعود لذلك الطّاغية بجميعِ صفاتِه وأحوالِه من النّهي عن الصَّلاة والتَّكذيبِ والتَّولّي عن الحقِّ، فيكون من قبيلِ تعليقِ الحُكمِ بما يدلُّ على العلّيَّة؛ أي: إنَّ سببَ النّهي عن الطّاعة والاستمرارِ في معصيتِهِ وعدمِ الحذرِ منه أنَّه طاغيةٌ مُستبدٌّ مُتعجرِفٌ وسيُعذّبُ.

تعليلُ النّهيِ الشَّديدِ بالضَّميرِ العائدِ إلى الطَّاغيةِ العَنيد

### دلالةُ العطفِ بـ(الواوِ) في ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾:

عبّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ﴾؛ للدّلالة على الجمعِ بينَ النّهيِ عن الطّاعة والرّضوخِ للتَّهديدات والمنعِ والإيذاء، معَ الأمرِ بالسُّجود والصَّلاة للّٰه تعالى؛ وبينَ المُتعاطِفَين الانسجامُ الطَّلبيُّ الإنشائيُّ، ولمّا كانَ النَّهيُ عن الإطاعة مُتوجِّهًا إلى نَهْيِ الطّاغية عن الصَّلاة، يكون عطفُ ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ دالًّا على تفسيرِ مُتعلِّقِ النّهيِ عن الطّاعة أوَّلًا، والتَّقديرُ: (ولا تُطعْهُ في نهيِهِ عن الصَّلاةِ واسجُدْ)، وتوكيدًا لذلك النّهيِ ولازمًا له ثانيًا، ولذا علّل ابنُ عاشور التَّوكيدَ بقولِه: "وَأكَّدَ قَوْلَهُ: ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ بِجُمْلَةِ ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾؛ اهْتِمامًا بالصَّلاةِ"[1]. بقي أنَّ تقديمَ النّهيِ على الطّلب إشارةٌ إلى التَّخلّي أوَّلًا عن الرُّضوخِ وعدمِ الاستجابةِ للمَوانع، والتَّحلّي بتنفيذِ الأوامر، وهذا شأنُ العبدِ معَ مَولاه؛ فهو بينَ الانتهاء عن نواهيهِ والعمَلِ بأوامرِه.

توكيدُ عدمِ الإطاعةِ بطَلَبِ أربَحِ بضاعةٍ

### دلالةُ فعلِ (السُّجودِ) صيغةً:

عبّرَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ الأمرِ ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ﴾؛ للدّلالة على طلبِ السُّجود والصَّلاة طلبًا إلزاميًّا، وليس المرادُ منه إيجادَ فعلِ السُّجود والصَّلاة والخضوعِ،

عدمُ الرّضوخِ للطّاغيةِ بالخضوعِ لِمَن بيدِهِ النّاصية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 453.

بل الاستمرارُ عليها والدَّوامُ لها، ولذا قال القونويّ معلِّقًا على كلام البيضاويّ: "واثبتْ أنت عَلَى طاعتِك ودُمْ عَلَى سُجودك"(1): "أشارَ إلَى أنَّ ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ تهييجٌ على ما هوَ عليه من عدم إطاعتِه، وحاصلُهُ: واثبتْ أنت عَلَى طاعتِك لمولاك، ودُمْ عَلَى سُجودك؛ لأنَّه ﷺ ساجدٌ؛ فالأمر به أمرٌ بدوامِه، وهو مُستلزِمٌ للأمرِ بزيادةِ السُّجود؛ فهو مجازٌ لكونِه لازمًا له"(2)؛ إذِ النّهي عن الصَّلاة المعروفةِ قد يُؤدّي إلى قطعِها وعدمِ الصَّلاة في المسجدِ الحرام، فطُلِبَ منه الاستمرارُ على أدائِها في المسجدِ الحرام؛ ليَقرأ عليهم ما أُنزِلَ إليه مِن ربِّه.

## سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (السّجود):

النَّـهـيُ عـنِ الصَّلاة للتَّكبُّرِ فطُلِبَ السُّجودُ للمُتجبِّرِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (السّجودِ) في قولِه تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ﴾؛ ليدلَّ بمادّتِه على الخضوعِ للّٰه تعالى وحدَه، ولذا اقتصرَ على السُّجود الدّالِّ على أعلى درجاتِ الخضوعِ دونَ القيامِ والرّكوع؛ وليكونَ الأمرُ بالسُّجودِ مقابلًا توضيحيًّا لمعنى النَّهي عن الطّاعة للنّاهي عن الصَّلاة بالرّضوخِ والخضوعِ لتهديداتِه، ويكونُ السُّجودُ طَلَبَ الخضوعِ للّٰه تعالى وحدَه، كما أنَّ النّاهيَ عنِ الصَّلاة تكبّرَ عنِ السُّجود؛ فذُكِرَ السّجودُ ردًّا على ذلك المتكبِّر، والسُّجودُ يكونُ على الجبهةِ القريبةِ من النّاصية الّتي يُجرُّ منها ذلك المُتكبِّرُ ليُلقى في النّار إلقاءَ الذُّلِّ والهَوان؛ إذ لم يرضَ بالسُّجود على جهتِه فجُرَّ بناصيتِه.

## دلالةُ السُّجود بينَ المعنى اللُّغويِّ والشَّرعيِّ:

أعظَمُ أجزاءِ الصَّلاة السُّجودُ بينَ يَدَي الله

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (السُّجود) في قولِه تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ﴾؛ للدّلالة على الأمرِ بالسُّجود إمّا بالمعنى اللُّغويِّ وهو الخضوعُ والخشية، وإمّا بالمعنى الشَّرعيِّ وهو السُّجودُ المتمثِّلُ بوضعِ الجَبهة على الأرضِ خضوعًا للّٰه تعالى وحدَهُ، وهو الأرجحُ، وبناءً

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 326/ 5.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 364.

على هذا المعنى يكونُ الأمرُ بالسُّجود بمعنى الأمرِ بالصَّلاة، وذكرَ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ دونَ (صلِّ) مجازًا مُرسَلًا من قبيلِ ذِكرِ الجُزءِ الأهمِّ من بين أفعالِ الصَّلاة وإرادةِ الكُلِّ.

قال الرّازيّ: "وَعِنْدَ أكْثَرِ أهْلِ التَّأْويلِ أرادَ بِه (صَلِّ)، وتَوَفَّرْ عَلَى عِبادَةِ اللّه تعالى فِعْلًا وإبْلاغًا، وقالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ المُرادُ الخُضوعُ، وقالَ آخَرونَ: بَلِ المُرادُ نَفْسُ السُّجودِ في الصَّلاةِ"[1]، والرّاجِحُ الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالسُّجود الصّلاةُ بقرينةِ النّهي عن طاعتِهِ في نهيِهِ عن الصَّلاة في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

### دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾:

العـــغـــايـــةُ من العبادات التَّلذُّذ بقُربِ المُناجاة

عبّر النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾؛ لعَطفِ الجملةِ الطَّلبيَّة الفعليَّة على الجملةِ الطَّلبيّة الفعليَّة، والغرضُ من العطفِ الجمعُ والاقترانُ بينَ طلبَي فعلِ السّجودِ الحِسّيِّ وفعلِ الاقترابِ المعنويّ؛ إذِ الغَرضُ من السُّجود الاقترابُ من اللّه تعالى اقترابًا معنويًّا، يَشعُرُ من خلالِه العابدُ بلذّةِ الصَّلاة والسُّجود بين يدَي اللّه، قال الرّازيُّ: "والمُرادُ وابْتَغِ بسُجودِكَ قُرْبَ المَنْزِلَةِ مِنْ رَبِّكَ"[2]، ولذا فإنَّ العطف من عطفِ اللّازم على المَلزوم؛ إذ أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ له؛ ففي العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ الغاية من الأفعالِ الحِسّيَّة للعبادات الوصولُ إلى لذَّة المُناجاة.

### دلالةُ فعلِ (الاقتراب) مادّةً وصيغةً:

الـتَّـقـرُّبُ إلى الحَضرةِ الإلهيَّة لـلـوُّصـول إلى رُتبةِ المحبوبيَّة

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الاقتراب) أمرًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾؛ للدّلالة بصيغتِهِ على الطّلب، والغرضُ منه الدّوامُ على حالة الاقتراب والاستمرارِ عليها[3]، إذ العبدُ ما زال يتقرّبُ إلى اللّه تعالى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 226.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1972.

بالنَّوافل حتَّى يصِلَ إلى رُتبةِ المحبوبيَّة، كما دلّتْ صيغةُ (الافتعال) على المُبالغة والتَّحمُّل وبذلِ الجهدِ في الاقتراب؛ لنيل القُربِ من ربِّ العالمين، قال ابنُ عاشور: "وَعَطَفَ عَلَيْهِ ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾؛ لِلتَّنْوِيه بما في الصَّلاةِ من مَرْضاةِ اللّه تعالى، بحَيْثُ جَعَلَ المُصَلّيَ مُقْتَرِبًا مِنَ اللّه تَعالَى، والاقْترابُ افْتِعالٌ مِنَ القُرْب، عَبَّرَ بصيغَةِ الافْتِعالِ لِما فيها مِنْ مَعْنَى التَّكَلُّف والتَّطَلُّب، أي: اجْتَهَدَ في القُرْبِ إلَى اللّه بالصَّلاةِ"[1]، وللدّلالة بمادّتِه على القُربِ من المتقرّب إليه، لكنّه قُرْبٌ معنويٌّ يَشعُرُ فيه السّاجدُ بلذّة التَّواصُلِ معَ خالقِ السَّماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بالّذين لا يسجُدونَ بأنَّهم في حالةِ بُعْدٍ مُتواصلةٍ عن اللّه تعالى، حتّى يبلُغَ مرتبةَ المكروهيّة؛ لطُغيانِه وتكبُّرِه على السُّجود لخالقِه، وتعريضٌ بذلك الطّاغيةِ الَّذي كان يَنهَى عنِ الصَّلاة مُتناسيًا أنَّه يَنهى عنِ الاقترابِ من الرَّبِّ الحقيقيِّ.

### مَرجِعُ ضميرَي المُخاطَبِ في ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾:

**التَّهكُّمُ والاستحقارُ شأنٌ مُرتبطٌ بالمتكبِّرين الفُجّار**

عبَّر النَّظمُ الكريم بضميرَي المُخاطَب في قولِه تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾؛ العائدَين بحسبِ الظّاهر إلى المُخاطَب بالنَّهي في قوله: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ وهو النَّبيُّ الأكرم ﷺ، ونقلَ الرّازيُّ عن بعضهم جوازَ عَوْدِ ضميرِ المُخاطب في ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾ إلى أبي جهلٍ، فقال: "وَقالَ بَعْضُهُمْ: المُرادُ (اسْجُدْ يا مُحَمَّدُ، واقْتَرِبْ يا أبا جَهْلٍ مِنْهُ) حَتَّى تُبْصِرَ ما يَنالُكَ مِنْ أخْذِ الزَّبانيَةِ إيّاكَ، فكَأنَّهُ تَعالَى أمَرَهُ بالسُّجود؛ ليَزْدادَ غَيْظُ الكافِرِ، كَقَوْلِه: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: 29]، والسّببُ الموجِبُ لازديادِ الغَيظ هو أنَّ الكافرَ كانَ يَمْنَعُهُ مِنَ القيام، فيَكونُ غَيْظُهُ وغَضَبُهُ عِنْدَ مُشاهَدَةِ السُّجودِ أتَمَّ، ثُمَّ قالَ عِنْدَ ذَلِكَ: واقْتَرِبْ مِنْهُ يا أبا جَهْلٍ وضَعْ قَدَمَكَ عَلَيْهِ، فإنَّ الرَّجُلَ ساجِدٌ مَشْغولٌ بنَفْسِه، وهَذا تَهَكُّمٌ بِه واسْتِحْقارٌ لِشَأْنِه"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 453.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 227.

### حذفُ المتُعلِّقَيْنِ بفعلَي (السُّجودِ والاقتراب):

إيـجـادُ فـعـلَي الـسُّـجـودِ والاقـتـراب لتحقيقِ رِضا ربِّ العِباد

حذفَ النَّظمُ الكريم المتعلِّقَيْنِ بفعلَي (السُّجود والاقترابِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾، والتَّقديرُ: (واسجُدْ للّه واقترِبْ منه)، ويدلُّ على ذلك نهيُ النَّبيِّ ﷺ عن طاعة الطّاغيةِ في تركِ السُّجود والصَّلاةِ للّه تعالى، كما يحتملُ أنْ يكونَ من تنزيلِ المتعدّي منزلةَ اللّازم بجعلِ الاهتمام مُركَّزًا على فعلَي السُّجود والاقتراب، والمعنى حينئذٍ: ولتوجِدْ فعلَي السُّجود والاقتراب؛ لأنَّ الطّاغية كان يَنهى عنهما لذاتِهما.

### توافُقُ الاختتامِ معَ الابتداء:

الـقـراءةُ سـرُّ الـسُّـجـودِ وهـي طريقٌ للاقترابِ مِـن واجـبِ الوُجود

اختتمَ النَّظم الكريمُ السّورةَ بفعلَيِ الأمر ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾؛ ليتوافقَ مع مطلَعِ السّورة الّتي ابتُدِئَتْ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ المكرَّر مرّتين؛ ويحتملُ أنَّ الأمرَ بالقراءةِ لكي يَسجُدَ للّذي خلقَ الإنسانَ من علَق، وكذا ليقترِبَ مِن الَّذي علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ.

## ۞ الفروقُ المُعْجَميَّة:

### الزّبنُ والدّفعُ والدّرء:

الـزّبـنُ أشـدُّ منهما وأخصُّ، والـدّرءُ أخصُّ مُطلقًا من الدّفع

الزّبنُ يشيرُ إلى دفعٍ بقوّةٍ وعُنفٍ بطريقِ الإذلالِ والإهانة، في حينِ أنَّ الدّفع يكونُ في الإذلالِ وغيرِهِ، "والدّرءُ هو الدّفعُ معَ شدّةٍ بحيثُ يُشعِرُ بحصولِ الخِلاف والخُصومة، والدّفعُ يُلاحَظُ فيهِ مُطلَقُ جهةِ المَنع؛ سواءٌ كان ردًّا على العَقِب أم لا"[1]، ومن ثَمَّ عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن ملائكةِ العذاب بالزَّبانيَة في قوله تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾؛ لأنّهم يدفعونَ الطُّغاةَ بعُنفٍ معَ إهانةٍ واستخفافٍ وإذلالٍ بسببِ الطُّغيانِ الشَّديد.

(1) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 180، 4/ 296.

## الطُّغيانُ والعدوان:

العُدْوانُ أخفُّ منَ الطُّغيان

العَدْوُ يدلُّ على تجاوُزٍ في الشّيءِ وتقدُّم لما يَنبغي أنْ يقتصِرَ عليهِ[1] فهو تجاوزٌ إلى حقوقِ الآخرين بأيِّ تجاوُز، وأمّا الطُّغيانُ فهو مُجاوزةُ الحدّ في المَكروهِ معَ قهرٍ وغَلَبة[2]، إذِ الطُّغيان هو الارتفاعُ والتَّجاوُزُ عنِ الحدِّ المُتعارَف، مادّيًّا أوْ معنويًّا، وبهذه المناسبةِ تُطلَقُ الطُّغيةُ والطَّغوة على رأسِ الجبَل، وعلى مكانٍ مُرتفعٍ للتَّجاوُزِ والاعتلاء عن الاعتدالِ والنَّظم، والمَعنى الجامعُ في مَنشأ الطُّغيان هو الاستغناءُ، وهو يتصوّرُ على أنحاءٍ، فكلّما كان الاستغناءُ في سعَةٍ يكون الطُّغيان شديدًا، والاستغناءُ إمّا في جهةِ المال والثَّروة، وإمّا من جهةِ العنوان والمقامِ والشَّخصيّة، وإمّا من جهةِ القدرةِ والنُّفوذ والسَّلطنة، وإمّا أنْ يكونَ بِلحاظ الجَهل والغَفلةِ والمَحجوبيّة عن الجلالِ والعَظمة الإلهيّة وعجزِ ذاتِه الفقيرة، وغيرِها من الأسبابِ والعِلَل الموجِبة للطُّغيان"[3]، ولذا اختار النَّظمُ الطُّغيانَ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على مَدى الاغترارِ ومُجاوزة الحدِّ في الاعتداءِ النّاجم عن الاستغناءِ بالمال والنّادي والنّفوذ والغفلةِ عن عَظَمةِ اللّه تعالى.

## السَّفعُ والسَّحبُ والجَرُّ:

السّفعُ قبضٌ بإهانة، والجَرُّ أعمُّ مطلقًا من السَّحب

السّفع: تناولُ شيءٍ باليد، يقولون: سفعتُ الفرسَ إذا أخذتُ بمقدّم رأسِه وهي ناصيتُهُ، ويقالُ: سفعَ الطّائرُ ضريبتَهُ، أي: لطمَها بجناحيه أو بجناح، وسفعتُ رأسَ فلانٍ بالعَصا، محمولٌ على الأخذِ باليدِ[4]، فهو القبضُ الشَّديد، يقالُ: سفعَ بيدِهِ وبناصيتِهِ، قبضَ بناصيتِهِ، بحيثُ لا يقدرُ أنْ يتحرّكَ إلى جانبٍ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 66.
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفع).

ويميلُ إلى ناحيةٍ ويتفكّر في أموره، فهو مغلوبٌ مقهورٌ تحتَ سُلطةِ القابض المُقتدر[1].

وأمّا السَّحبُ: فهو يدلّ على جرٍّ شيءٍ مَبسوطٍ ومدِّه، تقولُ: سحبتُ ذيلي بالأرضِ سَحْبًا[2]؛ فهو الجَرُّ على الأرضِ ونحوِها.

وأمّا الجَرّ: فهو مُطلقُ السّحبِ على أيّ نحوٍ كانَ[3]، يقال: جررتُ الحبلَ وغيرَه أجرُّهُ جرًّا، والجَرّار: الجيشُ العظيم، لأنّه يَجُرّ أتباعَه ويَنجَرّ، والجَرير: حبلٌ يكونُ في عنقِ النّاقة"[4].

والّذي يتبيّنُ من تتبُّعِ مواردِ الاستعمال أنَّ السّفعَ يكون قبضًا بعنفٍ معَ إيذاءٍ حسّيٍّ وإهانةٍ معنويَّة.

وأمّا السّحبُ فمختصٌّ بالمسحوبِ المُنبسِط على الأرض ونحوِها إلى أعلى معَ مُمانعةٍ، ولا يلزمُ منه الإهانةُ للمسحوب إلّا بالقرينة. وأمّا الجرّ فهو أعمُّ من السَّحبِ مطلقًا.

ولذا عبّرَ النَّظمُ القرآنيُّ في مقام الإهانة للطّاغية بالسَّفعِ بناصيتِهِ؛ إذلالًا لهُ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾.

### النّادي والمَجلِس:

النّادي أخصُّ مُطلقًا منَ المَجلِس

ندا القومُ نَدْوًا اجتَمَعوا، ومنهُ النّادي وهو مَجلِسُ القوم ومُتحدَّثُهم، والمُنتَدى مثلُهُ، ولا يقالُ فيه ذلك إلّا والقومُ مُجتمِعونَ فيه، فإذا تفرّقوا زالَتْ عنه هذه الأسماءُ[5]، فالنّادي دعوةٌ في مُخاطَبةٍ[6]، وهذا التَّعبيرُ أحسنُ من كلمات (المَجلس والمَحفَل والدّار)؛ فإنّ فيه إشارةً الى الوصفِ المَفهوم منه، وهو الدَّعوةُ في مُخاطبة[7].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 144.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحب).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 64.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جر).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ندو).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 68.
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 70.

وأمّا المَجلِسُ: فهو مَوضِعُ الجُلوس، والمَجلِس المصدَرُ، ورجلٌ جُلَسةٌ مثلُ هُمزَة، أي: كثيرُ الجُلوس، وجالستُهُ فهو جَليسي[1]. والتَّحقيقُ: أنّ الحقيقةَ في هذه المادّة هي التجّمُّعُ في مكانٍ على هيئةٍ مخصوصةٍ بينَ القيامِ والاضطجاع[2]، لكنَّ النّاديَ لا يُطلَقُ إلّا والقومُ مُجتمِعون، في حينِ أنَّ المَجلِسَ يطلقُ على المكانِ ولو لم يكُن فيهِ أحدٌ، ومن ثمَّ عبّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالنّادي في قولِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: لكي يتحقّقَ التَّعجيزُ في حال تَوَجَّهَ بالدُّعاء إلى النّادي وهو مُمتلئٌ بمَن يُخاطِبُهم ويُجالِسُهم؛ ليَكشِفَ عنهُ تلك البليّةَ ويُجيبُهُ في دَعوتِهِ[3].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (جلس).

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 92.

(3) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 70.

# المحتويات

